موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة الكهف
حتى
سورة الحج

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 – 8 ، نِعَمُ اللهِ
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-10-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأول من سورة الكهف :

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبا)

فضلُ سورة الكهف :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين))

(الجامع الصغير بسند صحيح)

موضوعات سورة الكهف :

القصص :

الذي يغلب على هذه السورة القصص ، ففيها قصة أهل الكهف ، وقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر، وفيها قصة ذي القرنيين ، وهذه القصص إنما تؤكد العقيدة الصحيحة ، وتوضح المنهج الصحيح ، وتصحح بعض القيم .

تصحيح العقيدة :

في هذه السورة تصحيح للعقيدة ، وللمنهج ، وللقيم ، وسوف نأتي على هذه بالتفصيل ، في أثناء شرح الآيات .

قبل كل شيء ، يقول الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ)

نِعَمُ الله لا تعدّ ولا تُحصى : الحَمْدُ للَّهِ :

أما كلمة الحمد فتعني النعم ، لأن الإنسان يحمد على النعمة ، فكلمة الحمد وحدها تشير إلى أن الإنسان محاط بنعم لا تعد ولا تحصى ، يعجز المرء عن إحصائها ، فضلاً عن شكرها .

نعمة الوجود ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى ، ونعمة هذه الأجهزة التي زودنا الله بها ، كنعمة البصر، ونعمة السمع ، ونعمة التفكير ، ونعمة الإدراك ، ونعمة الزوجة ، و نعمة الأولاد ، ونعمة الماء العذب الذي صفاه الله لنا ، ونعمة الحيوانات التي ذللها الله لنا ، ونعمة النبات الذي يخرج من الأرض من دون جهد منا .

فلو ذهبنا إلى تعداد النعم ، فإننا نقضي العمر قبل أن تنقضي بعضها ، ولذلك فكلمة الحمد وحدها تعني أن الإنسان محاط بنعم لا تعد ولا تحصى ، ولا أحد على وجه الأرض ينكر أن يكون الإنسان محاطاً بالنعم ، ولكن المشكلة أن هذا الحمد لمن ؟ إنه لله .

أهل الكفر يعزون هذه النعم إلى أنفسهم ، إلى جهدهم ، إلى آلهة أشركوها مع الله عز وجل ، والحق أن النعمة موجودة ، ولكن من صاحبها ؟ من الذي يستحق الشكر عليها ؟

يا داود ، ذكر عبادي بإنعامي عليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها .

فلو أن إنساناً أسدل إليك نعمة ، أو عطاءً ، إنك تظل إلى أمد طويلٍ طويل تشكره من أعماقك ، فما بالك وقد أنعم الله عليك بهذا الخلق السوي ؟ إذا نظر الإنسان إلى وجهه في المرآة يجب أن يشكر الله عز وجل .

وكان عليه الصلاة والسلام : إذا نظر إلى وجهه ، دعا بدعاء ، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي))

(أحمد في المسند)

يا رب كيف أشكرك ؟ قال الله عز وجل ، تذكرني ولا تنساني ، إنك إذا ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا*وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

(سورة الأحزاب : 41 - 42)

اذكروه ذكراً كثيرا ، إنك إذا ذكرته شكرته ، وإذا ما نسيته كفرته ، علامة الشكر أن تكثر ذكره ، وأن تعرف أن هذه النعمة من عنده .

فكلمة الحمد فقط وحدها تعني أنك محاط بنعم لا حدود لها ، لا تنتهي ، ولا حصر لها ، الحمد .

كلُّ النّعم من الله وحده :

أما كلمة لله ، فهذه النعم ، التي أنت فيها ، يجب أن تشكر الله عليها ، لأن الله هو مصدرها ، وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر ، فالمؤمن يعرف أن النعم من عند الله ، وغير المؤمن ينسبها إلى غير الله ، وفي الحديث القدسي عن أبي الدرداء عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ : قالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ :

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي))

(البيهقي في شعب الإيمان ، والمناوي في فيض القدير)

كيف أنت مع هذه النعم ؟

1 - نعمة البصر :

لقد بلغ رجل أعلى المراتب ، وحصل على أعلى الشهادات ، واحتل أرفع المناصب ، وكل شيء يجده على ما يرام ، وفجأةً يفقد بصره ، ويقول لصديقه : أتمنى أن أجلس على الرصيف ، وأتسول ، وأن يرد الله لي بصري فيجيبه : يوم تمتعت بنعمة البصر هل عرفت أن هذه النعمة من الله عز وجل ؟ جعلك ترى الأشياء التي تحبها ، وترى الألوان ، ونعمة السمع ينبغي أن نعرفها قبل أن نفقدها .

ومن علامة التوفيق أن ترى النعمة بوجودها لا بفقدها ، لكن الناس جميعاً إذا فقدوا بعض النعم تحسسوا لها ، وعندئذٍ عرفوا قيمتها ، ولكن البطولة أن تعرف النعمة وأنت مستمتع بها ، وأن تقول اللهم متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، و قوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا .

فهذا ينسحب أيضاً على سورة الفاتحة تقول في كل صلاة ، وفي كل ركعة : الحمد لله رب العالمين .

فلو أن قناة العين الدمعية ، وهي أدق قناة في الإنسان ، أغلقت لاضطررت أن تمسك منديلاً تمسح الدمع الذي يفيض على خديك طوال النهار ، ولأثَّر هذا الدمع على صفحة الوجه ، وترك بعض أنواع الالتهاب .

2 - جهاز التوازن :

وجهاز التوازن الذي منحك الله إياه لولاه لا تستطيع أن تسير على قدمين .

3 - الأذنان :

والأذنان ، لو أن للإنسان أذناً واحدة لما عرف جهة الصوت ، ولكن الصوت إذا جاءك من خلفك فهناك جهاز في الدماغ يقيس تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ، والتفاضل واحد على ألف وستمئة وخمسين جزءًا من الثانية ، فتعرف أنت من خلال الأذنين أن جهة الصوت من اليمين ، فإذا كان بوق السيارة من اليمين ، فتتجه نحو اليسار .

ولو أن للإنسان عيناً واحدة لما عرف البعد الثالث ، فبالعين الواحدة يرى الطول والعرض ، وبالعينين يرى الطول والعرض والبعد الثالث ، ولو أن في الشعر أعصاباً حسية لما أمكننا أن نحلق رؤوسنا ، ما هذه الحكمة البالغة ؟ إن الأظافر ، والشعر ليس فيهما أعصاب حسية .

4 – تسوية الخَلق :

إنّ الله خلقنا فسوانا .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين : 4)

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

(سورة الانفطار : 7)

نعمة الخلق ، ونعمة الأجهزة ، ونعمة الأعضاء ، ونعمة الزوجة ، ونعمة الولد ، ونعمة الدفء ، ونعمة الشمس ، ونعمة القمر ونعمة الطعام ، ونعمة الشراب .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

هذه النعم لا يمكن إحصاؤها ، لذلك يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة النحل : 18)

ففي الآية دقة بالغة ، لم يقل الله عز وجل : وإن تعدوا نعم الله ، بل قال :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة النحل : 18)

إنك إذا أمضيت كل حياتك في تَعداد الفوائد المترتبة على نعمة واحدة لا تستطيع ، فإن كنت عاجزاً عن أن تحصي هذه النعم ، فأنت عن شكرها أعجز .

تعلّقُ حمدِ اللهِ بأمرين :

1 – إنزال الكتاب :

الحمد لله ، لكن الحمد هنا متعلق بشيء آخر .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

2 – خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ :

وفي سورة أخرى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

هناك توازٍ ، فخلق السماوات والأرض شيء يحمد الله عليه ، وإنزال هذا الكتاب شيء آخر يحمد الله عليه .

توضيحاً لهذه الآية ؛ لو أنك اشتريت جهازاً بالغ التعقيد لتحليل الدم ، وإن كل نقطة من هذا الدم إذا وضعت على الجهاز أعطتك عشرين تحليلاً بكبسة زر ، وإنك إذا استعملت هذا الجهاز ، واستثمرته تجارياً ربما عاد عليك في اليوم بمئات الألوف ، لكنك لا تستطيع أن تشغله إلا بتعليمات الشركة ، والشركة أرسلت لك هذا الجهاز من دون تعليمات ، فمع أن ثمنه باهظ ، ومع أن دخله كبير جداً إلا أن هذا الجهاز مفتقر إلى تعليمات ترسلها الشركة ، فربما كانت هذه التعليمات لا تقل قيمة عن الجهاز ، لأن الجهاز من دون تعليمات معطل ، جمدت ثمنه ، وتعطل استثماره ، فإذا تحصلت على هذه التعليمات ، وأمكنك بموجبها أن تشغل الجهاز ، وأن تجني منه مئات الألوف ، تشعر أن هذه التعليمات المكتوبة لا تقل عن هذا الجهاز الضخم ، من هنا جاء قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

خلق السماوات ، وخلق المجرات ، وخلق الشمس ، وخلق القمر ، وخلق النجوم ، وخلق الأرض ، وخلق الجبال ، وخلق الوديان ، والصحارى ، والسهول ، والبحار ، والأنهار ، والأسماك ، والأطيار ، والإنسان ، والغابات ، فإذا لم تعرف الله عز وجل ، وإذا تحركت على الأرض وفق الهوى ، ووفق الشهوة هلكت ، وأهلكت ، إذاً ما قيمة الكون ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

نعمة إنزال الكتاب توازي نعمة خلق الكون :

هذا الكتاب يقول لك : افعل ولا تفعل ، وكل هذا الطعام ، ودع لحم الخنزير ، واشرب هذا الشراب ، ودع الخمر ، وتزوج ، ولا تزن ، إن هذا الكتاب يوضح لك الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فالمنهج السليم إلى السلامة في الدنيا والآخرة فلذلك نعمة الكتاب توازي نعمة خلق الكون ، والدليل القرآن الكريم :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

فخلق السماوات والأرض نعمة الإيجاد ، والكتاب نعمة الإرشاد ، وربما لا تقل نعمة الإرشاد عن نعمة الإيجاد ، وما قيمة وجودنا من دون هدى ؟ وما قيمة الهدى من دون وجودنا ؟ شيئان متكاملان ؛ الإيجاد والهدى .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

أي إذا قرأت هذا الكتاب ، ووعيت ما في الكتاب ، وطبقت ما فيه عشت حياةً سعيدةً ، فيها الطمأنينة ، والسكينة ، والاستبشار ، والتفاؤل ، وعرفت أنها مؤقتة ، وأنها مزرعة للآخرة ، وأن الدنيا دار تكليف، وأن الآخرة دار تشريف ، إذا عرفت هذه الحقائق ، واتصلت بالله عز وجل ، سعدت بقربه ، بعد أن استقمت على أمره ، فإذا فعلت كل هذا تعرف أن هذا الكتاب يحمد الله عليه ، كما يحمد على خلق السماوات والأرض .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

أنت أمام نعمتين : نعمة الإيجاد ونعمة الإرشاد :

ما قيمة الجامعة ، وأبنيتها الشاهقة ، وملاعبها ، ومكتبتها ، وقاعات المحاضرات ، من دون كتب ، ومن دون تدريس ، فروح الجامعة التدريس والكتب ، فكأن البناء شيء ، والمنهج والمدرس ، والكتاب شيء آخر ، ربما كان هو الأهم ، إذاً نحن أمام نعمتين كبيرتين ؛ نعمة الإيجاد .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام : 1)

ونعمة الإرشاد .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

ولذلك قال الله عز وجل :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

مقام العبودية لله أرفع مقامات الإنسان :

والنبي عليه الصلاة والسلام عبده ورسوله ، ومقام العبودية أرفع مقام يناله الإنسان على وجه الأرض، أي أن يكون عبداً لله ، فالعبودية أن تنقاد انقياداً طوعياً إلى أوامر الله كلها ، صغيرها وكبيرها ، في شتى المناحي والميادين ، انقياداً طوعياً ، وعندئذٍ فهذا الانقياد لابد أن يبنى على معرفة يقينية ، فإذا بني الانقياد الطوعي على معرفة يقينية انتهى هذا الانقياد إلى سعادة أبدية في الدنيا والآخرة .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات : 56)

لذلك ؛ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، فإذا كنت عبداً لله بالمعنى الصحيح الذي أراده الله عز وجل تكون قد حققت الهدف الذي من أجله خُلقت ، وما أروع أن يعرف الإنسان الهدف الذي من أجله خلق ، وما أروع أيضاً أن يكون في الطريق الصحيح نحو هذا الهدف الذي من أجله خلق ، أن تعبد الله ، وأن تطيعه في المنشط والمكره ، فيما عرفت حكمته ، وفيما لم تعرف ، وأن تطيعه في علاقاتك كلها مع جيرانك ، و زوجتك ، و أولادك ، و من تحب ، و من تبغض، ومع أعدائك و أصحابك ، و من تتعامل معهم .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

معنى الكتاب :

الكتاب ؛ أي القرآن الكريم ، وفي بعض التفاسير مطلق الكتب السماوية ، فالله عز وجل خلق الخلق ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ،

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.)

(سورة البقرة : 30)

لئلا تنقطع الأرض عن الهدى الرباني .

وسيدنا علي يقول : << يا كميل : العلم خير من المال ، لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، يا كميل مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومستمع على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وفيق، فاحذرْ يا كميل أن تكون منهم >> .

إذاً :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

عظمة القرآن :

الكتاب هو هذا القرآن الكريم ، هو الدستور ، هو الغنى الذي لا فقر بعده ولا غنىً دونه ، هو الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم :

((لا يحرَق قارئ القرآن))

(الديلمي في الفردوس عن أنس)

هو الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم :

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

(كشف الخفاء عن أنس)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

القرآن غير ذي عِوَج :

لا خلل ، ولا شطط ، ولا إفراط ، ولا تفريط ، ولا خطأ ، ولا تناقض ولا مبالغة ، ولا إغفال ، فكيف أن الكون كامل ؟

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ*ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

(سورة الملك : 3 - 4)

كيف أن الكون على أكمل وجه ، فهذا الكون خلقه ، وهذا القرآن كلامه ، ولابد من تناسب بين خلقه وكلامه ،و كما أن الكون مطلق الكمال ، كذلك هذا القرآن في مضمونه ، وفي أسلوبه ، وفي مبادئه ، وفي قيمه ، وفي قصصه ، كله كمال ومطلق الكمال ، ويشبه هذه الآية قول الله عز وجل :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : 9)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

ما من كتاب ألفه بشر إلا وفيه خلل ، ونقص ، وزيادة ، وإيجاز مخل ، واضطراب ، وتناقض خفي ، ونقص ، وزيادة ، ومبالغة ، إلا كتاب الله عز وجل .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

الحقيقة أنه مضى على نزول هذا القرآن الكريم أكثر من1400 عام ، ومع ذلك لم يظهر في العالم كله حقيقة علمية تبطل بعض آياته ، أو تعطل أحكامه ، لأنه من عند الحكيم الخبير .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

معنى قيمًا :

المعنى الأول : القيام على مصالح الناس :

أولاً : قيماً على مصالح الناس ، فالأمور التي نحن بحاجة إليها عالجها القرآن ، والأمور الأساسية في حياتنا ، موضوع الزواج ، وموضوع الطلاق ، والميراث ، وتطهير النفس ، وإقبالها على الله عز وجل، وهذه العبادات ، والإشارات ، وتلك الأحكام ، والأوامر ، والنواهي ، والوعد ، والوعيد ، هذا كله على أحسن ما يرام في القرآن الكريم .

(قَيِّماً)

أي قيماً على مصالح الناس ، ما من صغيرة ، ولا كبيرة إلا أحصاها الله عز وجل في الكتاب .

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 38)

المعنى الثاني : قيماً على الكتب السماوية كلها :

قيماً على الكتب السماوية كلها ، ومهيمناً عليها .

المعنى الثاني : الاستقامة :

أنه مستقيم ، ومعنى مستقيم ، أي صحيح مئة في المئة ، كيف وأن الله عز وجل لم يجعل له عوجاً ؟ أي جعله مستقيماً ، والاستقامة هنا استقامة بمعنى أن كل ما فيه صحيح ، وكل ما فيه حق صريح .

عودُ الضمير في : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا

بعضهم قال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)

هذه الهاء تعود على مَن ؟

1 – عود الضمير على الكتاب :

أنها تعود على الكتاب .

2 – عودُ الضمير على النبي :

وبعضهم أعادها على النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يجعل لهذا النبي عوجا ، لا في أخلاقه ، ولا في معاملته ، ولا في دعوته ، ولا منطقه ، ولا في حياته الخاصة ، كل ما في حياته كمال في كمال .

فالكتاب :

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

(سورة الإسراء : 105)

ومضمون هذا الكتاب حق ، وأنزل على النبي الكريم بالحق ، هذه الآية بمعناها الأول والثاني تؤكد تلك الآية :

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ)

أي لهذا النبي الكريم .

(عِوَجاً)

لا في أخلاقه ، ولا في حديثه ، ولا في معاملته ،

وأجملُ منك لم ترَ قطّ عيني   وأكملُ منك لم تَلِدِ النساءُ

خُلِقْتَ مُبرأً من كل عيبٍ   كأنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تشاءُ

***

هذا معنى قول الله عز وجل :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم : 4)

ولم يجعل له للنبي الكريم عوجا ، ولقد شهدوا له بقولهم :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ ...))

(أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ)

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً)

لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَدُنْهُ

من السذاجة أن يطمئن الإنسان إلى حاضره ، الحاضر جيد ، ولكن ماذا يخبئ الغيب ؟ فإذا جهل الإنسان الله عز وجل ، وما استقام على أمره ، ولا عرف الهدف من وجوده ، ولا عرف المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه ، فلماذا يعيش ؟

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

أي إذا لم يعرف الإنسان الله في الرخاء ، لن يعرفه في الشدة ، فكأن هذا القرآن يبلغنا أن مع الحياة موتاً ، وأن مع العز ذلاً ، وأن لكل شيء حسيباً ، وأن على كل شيء رقيباً ، وإن على كل حسنة ثواباً ، وكل سيئة عقاباً .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

فالأمور لا تدوم على هذه الحال ، الآن نحن شباب ، وفي يوم سيأتي سن الكهولة ، وسن الشيخوخة ، وسن الضعف ، ويأتي ملك الموت فإما إلى جنة يدوم نعيمها ، أو إلى نارٍ لا ينفذ عذابها .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

لا تغتر بحاضرك ، فالعبرة للمستقبل ، والعبرة بخواتيم الأعمال ، وبخريف العمر ، و بساعة اللقاء ، وفي ساعة مغادرة الدنيا ، هنا البطولة ،

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

فكل إنسان مغتر ، الشاب بشبابه ، والغني بماله ، وصاحب المكانة الرفيعة بمكانته ، وصاحب النسب العريق بنسبه ، وصاحب الشكل الجميل بجماله ، فهذا غرور ، وربنا عز وجل قال :

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة لقمان : 33)

أي الشيطان .

فهذا الكتاب يقول لك : إن مع هذه الدنيا آخره ، ومع العز ذلا ، ومع الغنى فقرًا ، ومع الحياة موتًا ، ومع الرخاء ضيقًا ، والأمور لا تبقى على ما هي عليه .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ)

فالإنسان الغافل ، الساهي ، اللاهي المنغمس في الدنيا ، وفي جمع الدرهم والدينار ، واللاهف على الشهوات ، الذي همه بطنه ، وهمه فرجه ، وخميصته ، و درهمه وديناره ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ؛ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

(الترمذي وابن ماجه)

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

البطولة ألاّ تغتر بالحاضر ، يوم مفقود ، ويوم مشهود ، ويوم مورود ، ويوم موعود ، ويوم ممدود ، فالماضي مضى ، والمشهود سيمضي ، ولكن البطولة أن تصل إلى اليوم الممدود ، وأنت من أهل الجنة، لينذر كل إنسان ، كل إنسان غفل عن الله عز وجل وكل إنسان غفل عن هذا الكتاب ، و عن مضمونه ، وكل إنسان جعله وراء ظهره ، وكل إنسان هجره .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

والشيء الواقعي أن الإنسان إذا هجر كتاب الله ، أي تركه ، ولم يعمل به ، ولم يأبه لقوانينه ، ولم يعتز بها ، ولم يشعر أنها خطيرة ، قال : هذا كلام الله نقرأه تبركاً ، وفي علاقاته المالية يخالفه ، وفي علاقته مع زوجته يخالفه ، وفي علاقاته الاجتماعية يساير المجتمع ، هذا الذي يخالف كتاب الله عز وجل ، لابد أن يأتيه الهلاك في الدنيا قبل الآخرة ، ففي الدنيا :

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

هناك أمراض وبيلة ، و فقر مدقع ، و ذل شديد ، و أمراض ، ومصائب لا يعلمها إلا الله .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً)

الحقيقة أن كل إنسان في حاضره مرخى له الحبل ، فإذا كان ذكياً يرى هذا الحبل المرخى ، في لحظة

ما يشد الحبل ، أما الأحمق فلا يرى الحبل كلياً ، ويظن أنه لا أحد يحاسبه ، وفي ساعة واحدة تنقلب الآية ، فيقلب له الدهر ظهر المجن ، كما يقولون ، وهذه عبارة أدبية ، أي فجأةً يشد الحبل ، فإذا هو أمام مشكلات لا يملك لها حلاً .

(لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً)

وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا

هذا المؤمن الذي عرف الله ، آمن بوجوده ، آمن بوحدانيته ، آمن برحمته ، آمن بحكمته ، آمن بقدرته، عرف أنه لا إله إلا الله ، ولا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، ولا رافع إلا الله ، لا خافض إلا الله ، هذا الذي آمن بالله ، وعمل صالحاً أطاع الله ، واستقام على أمره ، خدم الخلق ، وكان عنصراً نافعاً .

(وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدا)

لا يقاس بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة : مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا

وماذا أقول لكم عن الأبد ؟ كيف نفهم الأبد ؟ شيء يفوق التصور ، و لو قلنا : ألف مليون ، مليون ، مليون ، مليون ، مليون مَليون ، مليون مليون ، حتى ينقطع النفس ، وألف مليون ، مليون مَليون ، مليون ، حتى ينقطع النفس الثاني ، لو يوجد إنسان له أنفاس منذ أن ولد حتى يموت يقول : ألف مليون، مليون ، مليون ، لكان الأبد أكبر من ذلك .

لو أخذت كيساً من الطحين الكبير ، ولعقت منه لعقة ، وجئت بمجهر ، وعددت حبات الطحين ، وكل طحينة من الطحين مليون سنة ، الكيس كم مليون سنة ؟ طحين العالم كم مليون سنة ؟ حتى الرياضيون قالوا : إنه أكبر رقم ! أكبر رقم ! فما أكبر رقم ؟ ضع واحدًا بدمشق ، وأصفاراً في حلب ، بين كل صفرين ميليمتر ، ضع واحداً في دمشق ، وأصفاراً إلى القطب ، بين كل صفرين ميليمتر ، هذا الرقم الكبير لو وضع صورة مخرجه فلا نهاية ، هذا الرقم قيمته صفر ، أيّ رقم إذا نسب للانهاية فهو صفر، لا شيء ، فإذا عاش الشخص ستين سنة فلا شيء ، سبعين لا شيء ، ثمانين لا شيء ، لو عاش 950 عاماً كسيدنا نوح لا شيء ، لو عاش ألف مليون ، مليون ، بحبوحة ، ورخاء ، وصحة طيبة ، وطعام ، وشراب ، وعز ، ولذّات ، وشهوات ، لا شيء إذا قيس بالآخرة .

<< يا بني ، ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية >> .

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : 77)

الإله يقول لك هذا :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

ويقول :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص 60)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة : 38)

فلو خيروك بين فرنك ، خمسة قروش سورية ، هل يوجد الآن فرنك ؟ لا ، وبين شيك مفتوح تكتب فيه ألف مليون ، ألفي مليون ، ثمانية آلاف مليون ، مليون مَليون ، ألف مليون مَليون ، مقبول مصروف الشك ، هل تأخذ هذه القروش الخمسة ؟

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

سحرة فرعون قالوا :

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه : 71 - 73)

البطولة أن تتعلق بالأبقى .

الميت يوضع في قبره ، فيقول الله له : عبدي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت ، العبرة أن تتعامل مع الأبقى ، مع الذي قال :

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن : 27)

أن تكون علاقتك طيبة مع الذي يبقى إلى الأبد .

(وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدا)

إن أهل النار يبكون ، وإنهم ليبكون الدم ! ولو أن السفن جرت في دموعهم ، أي حتى أن السفن تجري

في دموعهم ، أبدا ، دمعة وراء دمعة ، إلى الأبد ، تشكل بحراً .

(وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً)

إنذار المشركين بالله : وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

هؤلاء لا يعرفون الله عز وجل ، هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد .

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ)

ما لهم به من علم ، يهرفون بما لا يعرفون ، وربنا عز وجل يعلمنا في هذه الآية ، المنهج الصحيح ، لا تقل كلمة قبل أن تعلم ، لا تقل مالا تعلم ، ولا تمار فيما علمت .

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)

قاعدة جليلة : إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعيًا فالدليل :

لقد وصف الله عز وجل الكفار بأنهم لا يتكلمون عن تفكير ، ولا عن علم ، ولا عن نقل صحيح ، ولا عن منطق ، إنما يتكلمون كلاماً عشوائياً جزافاً من غير تبصر .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)

قال العلماء : إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإن كنت مدعيًا فالدليل ، إذا قلت : فلان قال كذا ، يجب أن تتأكد من صحة النقل ، لعله لم يقل .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات : 6)

فلا تقبل شيئاً ، ولا ترفضه إلا بالدليل النقلي والعقلي ، يأتي الضلال من قبول الأفكار من دون دليل ، ولا تقبل إلا بالدليل النقلي ؛ قرآن ، أو حديث ، أو قول لعالم مجتهد مشهود له بالاجتهاد ، مع الدليل الذي جاء به ، لا تقبل إلا بالدليل ، ولا ترفض إلا بالدليل ، أما إذا نقلت فتحرَّ الصحة في النقل ، هذا هو المنهج .

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)

هذا كذب ! فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(أحمد في المسند)

هذا كذب ، فلعلك يا محمد ، الله عز وجل يواسي نبيه الكريم .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)

حرص النبي عليه الصلاة والسلام على هداية قومه :

لماذا أنت متألم من أجلهم ، لماذا كدت تهلك نفسك من أجلهم ؟ قال العلماء : محبة الخلق دليل حب الحق ، فأنت تحب الناس بقدر ما تحب الله عز وجل ، فكلما زادت محبتك لله زادت محبتك للناس .
اسمعوا قول النبي الكريم ؛ عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي ...))

(سنن الترمذي)

والآية الكريمة :

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر : 22)

النبيُّ عليه الصلاة والسلام أرْحَمُ الخَلق بالخَلق :

إذاً : هناك قانون ، محبة الخلق تتناسب طرداً مع محبة الخالق ، والخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، والخلق جميعاً ، المؤمن الكامل لو أنه تعامل مع مجوسي ، ومع عابد صنم ، فهذا من خلق الله ، يكرمه ، وينصحه ، ويخلص له ، هذا هو الإيمان ، ليس منا من غش ، مطلقاً من دون تحديد، من غش فليس منا ، كائناً من يكن هذا الذي غششته ، إن غششته فلست من المسلمين .
إذاً : النبي الكريم بإجماع العلماء أرحم الخلق بالخلق ، لأنه أقربهم إلى الحق ، وهناك إنسان يقول لك : أنا علي نفسي ، و كلما ضاقت دائرة اهتمامك كلما قلت مرتبتك عند الله ، في أشخاص لا يعنيهم إلا شخصهم فقط من بعد الطوفان ، حتى إنه لا يبالي بزوجته ، ولا بأولاده ، وكلما اتسعت دائرة رحمتك ، واهتمامك ، وعطفك ، وعنايتك ، ارتفعت عند الله درجتك .
ولذلك فسيدنا رسول الله كانت الإنسانية كلها تعنيه ، بل كان الخلق كله يعنيه ، فكان يصغي إناء للهرة، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

(صحيح البخاري)

والنبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يذبح شاة أمام أختها فغضب غضباً شديداً ، وقال : أتريد أن تميتها مرتين ؟ هلا حجبتها عن أختها ، هذا عطف على من ؟ على حيوان ، قال : ليس منا من فرق ،

ملعون من فرق بين أم وابنها ، حتى في الحيوان ، ومن اشترى شاةً دون سخلتها ، وحرام من اشترى سخلة دون أمها .

فإذا كان النبي الكريم هذا عطفه على الخلق عامة فكيف محبته للمؤمنين :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة : 128)

فأرحم الخلق بالخلق النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

إذاً : تبين من هذه الآية أن أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام وهذا شيء آخر ، قضية قانون ، كلما زادت صلتك بالله زادت رحمتك ، فانظر من ترحم من ، رحمة المؤمن عامة ، وأهل الدنيا يرحمون أولادهم فقط ، لكن المؤمن رحمته عامة ، لا يبني مجده على أنقاض الآخرين ، ولا يبني غناهم على فقرهم فالنبي عليه الصلاة والسلام بنص القرآن الكريم .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)

زادت نفسه عليه الصلاة والسلام :

(بَاخِعٌ نَفْسَكَ)

أيْ مهلِكٌ نفسك ، من أجلهم ، الواحد منا يقيس نفسه إذا كانت أموره ميسرة وعلى الدنيا السلام .

والشاعر الحطيئة قال بيتاً عُدّ أهجى بيتٍ في الحياة الجاهلية :

دع المكارم لا ترحل لِبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فإذا أمّن أحدهم مصالحه ، وأمّن حاجاته ، انتهت مشاكله ، أما المؤمن فما انتهى من مشاكله شيء ، بدأت مشاكله ، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

وسيدنا عمر جاءته هدية من أذربيجان ، فقال : ما هذا ؟ قال له : طعام نفيس لا يصنع إلا هناك ، قال له : هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام ؟ قال له : لا هذا طعام الخاصة ، قال له : هل أعطيت فقراء المدينة كما أعطيتني ؟ قال لا : هذا لك وحدك ، قال له حرام على بطن عمر أن يذوق حلوى لا يذوقها فقراء المسلمين .

فموضوع الرحمة : يجب أن ترحم من معك ، عندك بالمحل صانع ارحمه ، بالوقت ، والجهد ، والأجر ، عندك من هم دونك في العمل فارحمهم ، وفي الأثر : فإذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

إذاً : النبي الكريم كان رحيماً .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

مِن سُنَنِ الكون : الابتلاء :

هذه الآية تعد أصلاً في العقيدة ، يعني أحد سنن الكون الابتلاء .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

الدنيا خضرة نضرة ، فيها نساء ، وأموال ، فيها بيوت فخمة ، ومزارع فيها مجالس أنس وطرب ، و مباهج .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

من الذي يؤثر طاعة الله عز وجل عن هذا المجلس مجلس اللهو ؟ من الذي يؤثر مجلس العلم على مجلس اللهو ؟ من الذي يؤثر الحلال القليل على الحرام الكثير ؟ من الذي يؤثر أن يبقى مع زوجته عن أن ينظر إلى غيرها ؟

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

نحن في دار ابتلاء ، ونحن مبتلون ، و في دار امتحان ، إن هذا الابتلاء ثمن الجنة ، والسقوط في هذا الامتحان مما يوجب النار ، والنجاح في الامتحان ثمن الجنة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحي من حيَّ عن بينة ، فالجنة لها ثمن ، وهو النجاح في هذا الامتحان ، والنار لها موجب ، وهو السقوط في هذا الامتحان .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

لكن اطمئنوا :

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس :24 - 25)

وفي النهاية :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن : 26-27)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 – 16 ، الابتلاء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة الكهف ، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

الشهوات مادّة الابتلاء :

هاتان الآيتان تتعلقان بموضوع الابتلاء ، وهو أحد سنن الله العظيمة في الدنيا ، كأن علة الخلق الابتلاء ، وكأن مجيئنا إلى الدنيا من أجل الابتلاء .

الابتلاء أن تكون أمام خيارين ، أمام شيئين ، أحدهما يرضي الله ، والثاني لا يرضيه ، تمتحن .

فالله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان مجموعة من الشهوات :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران : 14)

هذه الشهوات ، أودعها الله فينا لحكمة كبيرة ، وخلق في الأرض أشياء محببة تتوافق مع هذه الأشياء ، وأودع فينا حب النساء ، وخلق النساء ، وأودع فينا حب المال ، وخلق الأموال ، بمعنى الحاجات ، وأودع فينا شهوة ما ، وخلق ما يلبِّيها في الأرض .

فالإنسان بين أن يأخذ من الشهوة ما أباح الله له ، فيرقى بطاعته وشكره ، وبين أن يعرض عن الشهوة التي حرمه الله عليه ، فيرقى بمأثرته وصبره ، في الحالتين ترقى ، إذا تزوجت وفق ما أراد الله عز وجل ترقى بالطاعة والشكر ، وإذا أعرضت عن الحرام ترقى بالمأثرة والصبر ، فهذه الشهوة سبيل دخول الجنة ، ولولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، فإذا أودع الله فينا الشهوات من أجل إن يكرمنا ، ومن أجل أن تسمو نفوسنا ، ومن أجل أن تصبح مؤهلة لتسعد بقربه إلى الأبد .

فلذلك جعل ربنا عز وجل ما على الأرض زينة لها ، ونحن نمتحن لا في كل ساعة ، بل في كل دقيقة، كلما عرضت لك شهوة فإما أن تقول : إني أخاف الله رب العالمين ، فترقى إلى أعلى عليين ، وإما أن يسقط الإنسان تحت وطأة هذه الشهوة ، فيهوي بها إلى أسفل السافلين ، إذاً نحن في امتحان مستمر يؤكد قوله تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت : 2)

الفتنة : أن يزرع فيك شهوة ، ويعرض عليك ما يلبيها ، فإما أن تقول : إني أخاف الله ، وإما أن يسقط الإنسان في هوة الانقياد للشهوة ، فلذلك :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى*فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40 - 41)

ولحكمة بالغة ، بالغة جداً ، جعل الله عز وجل ، بعض الطاعات مما ينفرد بها الدين فقط ، إذ أمرك أن تغض بصرك عن محارم الله ، وليس في الأرض كلها تشريع يحرم ذلك ، فإذا غضضت بصرك عن محارم الله فهذا لا يفسر إلا بالإخلاص لله ، مستحيل أن تغض بصرك خشية من إنسان ، لأن بني البشر لا يحرمون ذلك .

ولحكمة بالغة أن الدين انفرد ببعض الأوامر ، فمن طبقها فهذا مؤشر يقيني قطعي على أنه مخلص لله عز وجل .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى*فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40 - 41)

إذاً :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا)

معنى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا

الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر ، خذ من الدنيا كما شئت ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((اتركوا الدنيا لأهلها ، فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[كشف الخفاء ، وقال : رواه الديلمي ، وهو حسن لغيره]

وعَن ابْن عَبَّاسٍ قَالَ :

((مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ قَدْ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

[أحمد في المسند]

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا)

أي بساتين جميلة ، وبيوتاً فخمة ، ومركبات فارهة ، ونساء جميلات ، وطعامًا فاخراً ، ومكانة اجتماعية راقية .

فالدنيا خضرة نضرة ، وقال عليه الصلاة والسلام :

((إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

[مسند الشهاب للقضاعي]

فهذا الذي تعرض له الشهوات ، والمباهج ، ووسائل اللهو المحرمة ، والاختلاط ، والسهرات ، والنوادي ، والحفلات ، والنزهات التي يُعصى الله فيها ، هذا الذي تعرض له هذه فيقول : إني أخاف الله رب العالمين ، أيضيع هذا عند الله ؟ ماذا فعل الله مع يوسف عليه والسلام حينما قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف : 23)

جعله عزيز مصر ، وجعله وجيهاً في الدنيا والآخرة ، وماذا لو اقترف هذه المعصية ؟ لكان في أسفل السافلين .

يا أخي الكريم ، كل دقيقة تمتحن ، في كسب المال ، وفي إنفاقه ، وفي إطلاق البصر ، و غضه ، و في أكل الحلال ، و ترك الحرام ، وفي الإحسان للزوجة ، وللأم ، وفي خدمة الأب ، و الإحسان للجيران ، ففي كل لحظة ، وفي كل ثانية أنت تمتحن .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً

هذه اللام للتعليل ، أي أن الله عز وجل جعل هذه الشهوات ، وتلك الزينة من أجل أن يبتلى بها عباده ، مطلقاً ، المؤمنين ، وغير المؤمنين .

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا

فهذا البيت الذي آثرته على الله عز وجل ، وهذه المرأة الحسناء التي آثرتها على رقةٍ في دينها ، وعلى المرأة المؤمنة الصادقة ، وهذا الكسب الحرام الذي آثره الإنسان على الكسب الحلال ، وهذه المزرعة الفخمة ، الرائعة ، الغناء ، الجميلة ، التي آثرتها على رضوان الله عز وجل ، وهذه الصفقة التي آثرتها على طاعة الله عز وجل كل هذا الذي حصلته ـ وأسخط الله عز وجل ـ سوف يفنى ، ويبقى السخط ، وكل هذا الذي حصلته بسخط الله سيفنى ، ويبقى العقاب ، فإذا تركته لله أيضاً سيفنى ويبقى الثواب ، فالأمر خطير .

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن : 26)

متعها ، بيوتها ، أبنيتها ، حدائقها ، بساتينها ، نساؤها ، مالها ، طعامها ، شرابها ، أماكنها الجميلة ، منتجعاتها ، فكل الذي تشاهده على وجه الأرض لن يبقى ، هذه الأماكن الجميلة التي يعصى الله فيها ، لن تبقى ، هذه السهرات التي يعصى الله فيها لن تدوم ، لابد من نزول القبر ، الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر ،لابد من مفارقة الدنيا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، ولابد من دفع الثمن ، ولابد من الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ربما لا يبدو لكم ارتباط في هذه الآية ، وبين القصة ، قصة أهل الكهف .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)

معنى :

(صَعِيداً)

معنى : صَعِيدًا جُرُزًا

أي : الأرض مستوية ، لا جبال شامخة ، ولا وديان سحيقة ، ولا سواحل ، ولا تضاريس .

(صَعِيداً)

مستوية ملساء .

(جُرُزاً)

لا نبات فيها ولا شجر .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس : 24)

كأنها أرض محصودة .

العلاقة بين هذه الآيات وقصة أهل الكهف :

العلاقة بين هذه الآية وبين سورة الكهف ، أو بين قصة أصحاب الكهف ، أن الله عز وجل يبين لنا أن هؤلاء الفتية امتحنهم الله عز وجل فنجحوا في الامتحان ، ابتلاهم الله عز وجل فوضعهم أمام خيار صعب ، إما أن يقعوا في الشرك فيسلموا ، وإما أن يؤمنوا فيهلكوا ، آمنوا وفروا بدينهم ، فحفظهم الله عز وجل ، وهذا ملخص القصة .

بداية سرد أحداث قصة أهل الكهف :

(جُرُزاً)

يا محمد .

(أنَّ أصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)

إن قصة أصحاب الكهف ليست أعجب آياتنا ، آيات الله كلها عجيبة ، وهذه بعض الآيات .

(أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الْكَهْفِ)

الكهف ؛ المغارة الكبيرة .

(وَالرَّقِيمِ)

معنى : الرقيم

اختلف العلماء في تفسيرها .

المعنى الأول : لوحة حجرية :

بعضهم قال : لوحة حجرية كتب عليها أسماء أهل الكهف على مدخل المغارة .

المعنى الثاني : اسم وادٍ :

وبعضهم قال الرقيمُ : اسم واد تقع فيه هذه المغارة .

المعنى الثالث : اسم الجبل :

وبعضهم قال : اسم الجبل الذي تقع فيه هذه المغارة .

المعنى الرابع : اسم الكلب :

وبعضهم قال : اسم الكلب الذي كان معهم ، على كلٍ لا يترتب شيء من هذا .

(أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)

هذا الاستفهام استفهام إنكاري ؛ أي أن هذه القصة ليست عجيبةً بالنسبة إلى قدرة الله عز وجل ، ليست عجيبةً إذا قيست بقدرة الله ، أما إذا قيست بقوانين البشر فهي عجيبة ، فهي خرق للعادات والسنن التي ألفها الناس .

هذه الآية دليل على الكرامات :

وبالمناسبة ؛ تعد هذه القصة دليلاً على الكرامات ، الأنبياء يأتون بالمعجزات ، أما الأولياء فيأتون بالكرامات ، وبما أن أهل الكهف ليسوا أنبياء فهم مؤمنون ، فهذا الذي جرى بحقهم نوع من أنواع الكرامات .

والعلماء قالوا : الكرامات على نوعين ؛ نوع فيها خرق لما ألفه النـــاس ، ونوع ليس فيه خرق لما ألفه الناس .

أما أن يبقى الإنسان حياً ثلاثمئة عام !! فهذا خرق لمألوف العادات ، إذاً هذه كرامة لهم .

أما أن يحفظ الله أجسامهم من التلف ، ومن التفسخ ، فهذه كرامة لهم ، وأما الكرامات التي ليس فيها خرق للعادات ، فهي كرامة العلم والحكمة ، فإذا سمح الله لك أن تعرفه فقد كرمك ، و شرفك ، ورفع قدرك ، وأعلى منزلتك ، لأن الله عالم يحب كل عالم ، ولأن الله أعطى من أحبهم العلم والحكمة ، وأعطى المال من أبغضهم ، ومن أحبهم ، فالدنيا يعطيها لمن يحب ، ولمن لا يحب ، وهذه نقطة دقيقة جداً ، و ليست الدنيا مقياساً لكرامتك عند الله ، قد تكون فضلاً كبيراً وقد يكون الله عز وجل قد أكرمك بها ، ولكنها ليست مقياساً ، لا يمكن أن تقول لي : أنا غني ، إذاً يحبني الله ، هذا مقياس مرفوض كلياً .

فإذا أعطاك الله الدنيا فهذا تكريم منه عز وجل ، فاشكر الله عليه ، و لا تتخذه مقياساً لكرامتك عند الله عز وجل لأنه يعطيها لمن لا يحب ، لأنها تافهة عند الله ، ولأنها تنتهي بالموت إذاً ليست عطاءً ، وكل شيء ينتهي بالموت لا يسمى عطاءً من قبل الكريم .

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ)

ريح الجنة في الشباب : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ :

قال العلماء : هذه إشارة إلى أن ريح الجنة في الشباب ، والأنبياء حينما أرسلهم الله عز وجل لأقوامهم، من الذين آمنوا ؟ هم الشباب ، ومن هم الذين أعرضوا ؟ هم الذين رسخت قدمهم في الكفر ، والذين لهم مصالح ، ودنيا عريضة ، أصحاب الشأن ، وعلية القوم ، هؤلاء صدوا الحق ، محافظة على مكتسباتهم ، ومكانتهم ، ودنياهم ، أما الشباب فكما جاء في الأثر :

((إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي))

[ورد في الأثر]

أحب ثلاثاً ، وحبي لثلاث أشد ، أحب الطائعين ، وحبي للشاب الطائع أشد ، لأن الشباب سن الاندفاع نحو الشهوة ، وسن الفتوة ، وسن الإقبال على الدنيا ، والانغماس فيها ، فإذا كان يصلي ، ويغض بصره عن محارم الله ، ويتحرى الدخل الحلال ، فهو واقف في طاعة الله ، وفي الحديث :

((من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار))

[الديلمي في الفردوس عن علي]

ومن شبّ على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء حشر عليه .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ)

فتيان .

(إِلَى الْكَهْفِ)

ما قصة خروج الفتية إلى الكهف ؟

من خلال بعض التفاسير أن هؤلاء الفتية كانوا يعيشون في ظل حاكم مشرك يناهض التوحيد ، فكل من خالف دينه أمر بقتله ، وكان خيارهم صعباً جداً ، إما أن يشركوا مع من أشرك ، وإما أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وإما أن يوحدوا ، وإما أن يعبدوا الله عز وجل ، فتهدروا دماءهم ، لكنهم آثروا طاعة الله عز وجل على كل ما سواه .

فليتك تحلو و الحياةُ مريـرةٌ وليتَك ترضى والأنامُ غِضابُ

وليتَ الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمينَ خَـراب

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

من الإسقاطات : لكل عصر فتية مع كهفهم :

والله عز وجل يريدنا أن نقف مثل هذا الموقف ، إذا فسد الزمان ، إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه ، فالزم بيتك ، وامسك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، إذا كان مع الاختلاط فجور ، ومعصية ، ومخالفات ، فلا كان هذا الاختلاط ، ويا حبذا أن تقبع في بيتك فراراً بدينك ، واتقاءً له ، وفي ذلك قال ربنا عز وجل:

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ)

الكهف هو المغارة في الجبل ، وقد يكون المسجد كهفاً تأوي إليه ، وقد يكون بيتك كهفاً إذا كثرت الفتن، فإما أن تأوي إلى بيتك ، وإما أن تأوي إلى مسجدك ، فراراً بدينك ، من الفتن التي استعرت في آخر الزمان .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا)

فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

يا من ربيتنا ، يا من خلقتنا ، يا من أعطيتنا ، يا من رعيتنا ، ربنا أقرب كلمة من أسماء الله للعبد كلمة الرب ، هو المربي .

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

الرحمة : الشيء المريح ، إما أن يكون مادياً أو معنوياً ، فالأمن رحمة .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش : 4)

والرزق رحمة ، الأمن رحمة ، الصحة رحمة ، الزوجة رحمة ، الأولاد رحمة ، المأوى رحمة ، السلامة من العيوب رحمة ، السمعة الطيبة رحمة ، هذه كلها رحمة .

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

التجلي رحمة ، الأنوار الإلهية التي تلقى في قلب الإنسان رحمة ، الطمأنينة رحمة ، الثقة بعدالة الله رحمة ، الصبر رحمة الشكر رحمة .

(آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

أثر الرشد في التصرفات والمعاملات :

فإذا كان الإنسان مطيعاً لله عز وجل يكون مسدداً من الله ، محفوظًا ، يعطيه الله رؤية صحيحة ، وبهذه الرؤية الصحيحة يتخذ قراراً صحيحاً ، ويعود إليه بالخير العميم إلى نهاية الحياة .

وإذا كان غافلاً عن الله عز وجل ، ومع الغفلة الظلمة ، ومع الظلمة الحمق ، ولذلك فالإنسان في ساعات الغفلة ، يتخذ قراراً أحمق ، وربما كان سبب شقائه إلى نهاية الحياة .

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

فالمؤمن يستلهم الله عز وجل ، لا يقطع أمراً دون إن يستلهم الله ، وهو وقافٌ عند كتاب الله ، فأنا مقدم على هذه التجارة ، أهي ترضي الله أم لا ترضيه ؟ هذه النوعية من البضاعة ترضي الله أم لا ترضيه ،

وهذه الطريقة في التعامل هل ترضي الله أم لا ترضيه ؟ أنا مقدم على هذا الزواج ، أيرضى الله ، أن أتزوج هذه الفتاة أم لا يرضيه ؟ أنا مقدم على شراكه ، فربما كان شريكي لا يفقه من الدين شيئاً ، ربما جرني إلى كسب المال الحرام ، ربما جرني إلى معصية ، أيرضى الله أن أشاركه ؟ المؤمن وقاف عند كتاب الله .

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

ما أروع أن يكون الإنسان رشيداً .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

(سورة البقرة : 269)

أن يكون رشيداً ، في معاملة أهله ، فقد يرتكب حماقة فيطلق زوجته ، ويشقى بهذا الطلاق ، قد يرتكب حماقة ، ويسيء إلى الناس ، فيخسر عمله ، فإما أن يكون المرء أحمق ، أو أن يكون حكيماً ، ولذلك قال الله تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة : 269)

ويتابع ربنا عز وجل الحديث عن هذه القصة .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ

كما تعرفون أن الإنسان إذا نام أغمض جفنيه ، صار الطريق إلى إيقاظه طريق الصوت ، إنك إذا كنت قد فتحت عينيك ، ورأيت شيئاً خطراً ، تتيقظ ، لكنك إذا أغمضت عينيك ، فما الذي يوقظك عندئذٍ ؟ الصوت ، من هنا جاءت الحكمة أن الله عز وجل .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ)

لأن الأذن للنائم هي المسلك الوحيد لإيقاظه .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

سنوات وسنوات أمضاها هؤلاء الفتية وهم نائمون .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً)

معنى : لِنَعْلَمَ

هذه الكلمة لنعلم في حق الله لها معنى دقيق ، لتحقق الذي علمه الله من قبل ، العلم هنا التحقق ، أو الوقوع ، ليقع ما كان معلوماً عند الله عز وجل .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ)

أي ليتحقق علماً .

(أيُّ الْحِزْبَيْنِ)

المشركون والمؤمنون ، كانوا قد تنافسوا في معرفة مدة مكوثهم في الكهف

(أيُّ الْحِزْبَيْنِ أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمَداً)

يبدو أن الله عز وجل ، في هذه الآيات الأربع ، لخص لنا القصة بأكملها ، ثم يبدأ بذكر التفاصيل .

(فضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

حينما قالوا :

(فقالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

يعني احفظنا يا رب ، احفظنا من هذه الفتنة ، من أن يستباح دمنا ، فحينما دعوا الله عزوجل ، وسألوه أن يكون أمرهم رشدا استجاب لهم ، وأنامهم إلى أن زال هذا الظالم الذي حمل الناس على الشرك .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الْحِزْبَيْنِ)

المؤمنون والمشركون .

(أحْصَى)

كان إحصاؤه دقيقاً .

(لِمَا لَبِثُوا أمَداً * نَحْنُ)

وإذا قال الله تعالى عن نفسه : نحن ، بضمير الجمع ففي هذا إشارة إلى أن هذا الفعل الذي فعله الله عز وجل كل أسمائه داخلة في :

(إنَّنِي أنَا اللَّهُ)

(سورة طه : 14)

نَحْنُ نَقُص عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ

إذا كان الحديث عن ذاته ، جاء ضمير المفرد ، وإذا كان الحديث عن أفعاله ، جاء ضمير الجمع .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ)

يا محمد .

(نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ)

معنى : بِالْحَقِّ

ومعنى بالحق هنا ؛ أي الشيء المطابق للواقع ، نقص عليك هذا النبأ بالحق ؛ أي أن هذا النبأ كان خبراً صادقاً ، مطابقاً للواقع ، لأن اليهود في كتبهم ، تزايدوا في هذه القصة ، وأضافوا عليها تفصيلات ليست منها ، وانحرفوا في روايتها .

وتروي كتب التفسير أن اليهود أرادوا أن يحرجوا النبي عليه الصلاة والسلام ، و يفندوا دعوته ، وأن يؤكدوا للمشركين أنه لا يعلم هذه القصص ، والدليل أنهم سألوه عنها ، فلما سألوه عنها ، جاءت هذه القصة لتثبت نبوة النبي عليه الصلاة والسلام .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

هذا الهدى الجبري ، زادك الله الهدى .

إنك إذا اخترت طريق الإيمان شرح الله صدرك ، وجمعك مع أهل الحق ، ويسر لك سبل العيش ، ويسر لك كل الأمور ، وأعانك على أمر الدنيا ، ووقاك المتاهات ، وحفظك من الملمات ، ورفع لك ذكرك ، وشجعك ، وتجلى على قلبك ، وأسعدك ، كل هذا لأنك طلبت الهدى .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ)

آمنوا بهذا الرب الكريم ، وآمنوا من خلال هذا الكون ، من خلال هذه الآيات التي بثها الله عز وجل في السماوات والأرض ، وآمنوا بربهم ، واعتمدوا عليه ، وتوكلوا عليه ، وفوضوا له ، واستسلموا له ، عندئذٍ جاء الهدى الجزائي .

(وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

فإذا اختار طالب أن يدخل الجامعة ، فهي تمنحه راتباً شهرياً ، وتمنحه بطاقات مجانية لارتياد المكتبة، وشراء الكتب ، وتمنحه غرفة ليسكن فيها ، وطعاماً بأسعار رخيص جداً ، كل هذه الميزات لأن هذا الطالب اختار دخول الجامعة مثلاً .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا)

معنى الربط على القلب :

معنى :

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)

يعني شددنا على قلوبهم ؛ أي جعلنا قلوبهم رابطة الجأش .

فإذا قال الإنسان :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة : 5)

حينما يختار الإنسان طاعة الله عز وجل بإصرارٍ عندئذٍ يعينه الله عليها ، ألا أنبئكم بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ لا حول عن معصيته إلا به ، ولا قوة على طاعته إلا به ، ولو أن الإنسان اعتز باستقامته، واستعلى بها على الناس بسهولة فائقة ، فالله عز وجل يضعف مقاومته ، يجعل مقاومته للمعاصي ، فإذا هو يقع فيها ، هذا ما قال :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة : 5)

قال :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

(سورة الفاتحة : 4)

ولم يقل :

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة : 5)

فأضعف الله مقاومته فوقع في المصيبة ، ولذلك فقمة النجاح في الدين يساوي التواضع ، والانكسار ، والافتقار .

مالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع
ومالي سوى لقرع بابك حيلة فإذا رددت فأي باب أقرع ؟

إذاً :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا)

معنى : إذْ قامُوا

المعنى الأول :

إذ قاموا بين يدي هذا الحاكم الظالم الذي حملهم على الشرك .

المعنى الثاني :

وإذ قاموا فارين بدينهم .

هذه الكلمة مطلقة ، على كلٍ ، فأنزل الله على قلوبهم السكينة ، وهناك إنسان يخاف من ذله ، هذا الخوف من خلق الله ، والطمأنينة من خلق الله ، فإذا كنت معه هابك كل شيء ، وإذا تركته أهابك من كل شيء .

لذلك :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران : 151)

وهناك قانون ، بمجرد أن يشرك إنسان بالله عز وجل يلقي الله الرعب في قلب هذا الإنسان .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً)

التوحيد أصل صلاح الدين ، والشرك أصل فساده :

هذا هو التوحيد ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، هذا هو الدين كله الدين كله توحيد ، ألا ترى مع الله أحدا ، ألا ترى مع الله فاعلة ، ألا ترى رافعاً إلا الله ، ألا ترى رازقاً إلا الله ، ألا ترى خافضاً إلا الله ، ألا ترى باسطاً ، ألا الله ألا ترى قابضاً إلا الله .

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

أتينـاك بالفقر يا ذا الغنى وأنت الذي لم تزل محسناً

و عودتنا كل فضل عسى يكون الذي منك قد عودتنا

لن ندعو من دونه ، ليس هذا الذي تدعوه مماثلاً له ، وما أبعد الفرق بين من تدعو من دونه ، وبين خالق السماوات والأرض .

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر : 14)

وقال سبحانه :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم : 22)

(لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً)

لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا

إذا صليت في الليل فقل : يا رب ليس لي سواك ، تبرأ من حولك وقوتك ، ومن كل من تعتمد عليه ، من كل من تتكل عليه ، من كل من تطمئن له ، من كل من تحس أنه يدعمك ، تبرأ منه ، واستعن بالله عز وجل ، عندئذ يرفعك الله عز وجل .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا)

لو فعلنا ذلك .

(لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)

الشرك شططٌ من القول :

هذا هو الباطل ، فيه شطط ، في زيادة ، في انحراف ، في خروج عن الطريق الصحيح .

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً)

وذلك في كل زمان :

وجوب الإنكار على المشرك :

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية : 23)

فالمعنى مبسط جداً ، فهذا الذي يتبع الهوى ، اتخذ الهوى إلهاً، وهذا الذي يتبع شهوته ، اتخذ الشهوة إلهاً ، و هذا الذي يؤثر المال على طاعة الله اتخذ المال إلهاً ، وهذا الذي يؤثر رضا زوجته على طاعة

الله، اتخذها إلهاً .

ولذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

(صحيح البخاري)

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ)

إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مدّعياً فالدليل :

فالتفكير المنطقي ، ادع ما تشاء ، ولكن أين الدليل ؟ فهناك قاعدة عند علماء الأصول ، إن كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مبتدعاً فالدليل ، ابتدع ما تشاء ، ادع ما تشاء ، ائت بالدليل قل ما تشاء ، أزعم ما تشاء ، أين الدليل ؟ هات الدليل لأكون معك ، أما أن تزعم ما تشاء بلا دليل فهذا هو الجهل الكبير ، أن تدعو آلهة من دون الله بلا دليل .

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون : 117)

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ)

أي بحجة دامغة ، بدليل عقلي ، بين ..

(بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

أعظمُ الظلم الإشراكُ بالله :

إذاً حينما يدعو الإنسان إلهاً من دون الله ، ومن دون دليل فقد افترى على الله كذبا ، فإذا دخلت إلى دائرة ، وبيدك إضبارة تود أن يوقعها المدير العام ، ولا يصلح إلا توقيع المدير العام ، فإذا اتجهت إلى مستخدم ترجوه ، وتتوسل إليه أن يوقعها لك ، أليس هذا حمقاً كبيراً !! ما قيمة توقيع هذا المستخدم ؟ هذا له وظيفة محترمة ، لكن ليس من صلاحيته أن يوافق لك على هذه الإجازة ، إنه لا يقدر ، فحينما لا تعلم من هو الذي بإمكانه أن يوقع ، فهذا هو جهل كبير .

كل أمورك بيد الله عز وجل :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : 123)

أمرك ، وأمر أعدائك ، وأمر أحبابك ، وأمر أهلك ، وأمر أولادك ، وأمر صحتك ، وأمر عملك ، وأمر دخلك .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود : 123)

متى قال الله لك : اعبدني يا عبدي ، بعد أن طمأنك ، أن الأمر كله إليه .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

العزلة الشرعية :

وقد درسنا سابقاً موضوع العزلة ، وآدابها في كتاب أحياء علوم الدين ، وبينت لكم ، أنك إذا كنت في مجتمع فاسد فالعزلة واجبه ، وإن كنت في مجتمع صالح فالاختلاط واجب ، والعزلة مطلقاً لها أحكام متفاوتة ، فهؤلاء الفتية أصحاب الكهف اتخذوا قراراً باعتزال قومهم المشركين .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

أدق تفسير :

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ)

تفسير : وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ

يجب أن تعتزل المشرك وما يعبد ، إلا إذا عبدوا الله فلا ينبغي أن تعتزلوهم ، إذاً أصحاب الكهف اتخذوا قراراً باعتزال قومهم لأنهم غارقون في الشرك ، وفي المعاصي ، والاعتزال مُنصب على قومهم وما يعبدون .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ)

إذا أردت أن تبتعد عن أهل الشرك فينبغي أن تبتعد عن ملهياتهم وعن شهواتهم ، وأهدافهم ، وطرائقهم ، وتقاليدهم ، وعن عاداتهم ، وعن كل ما يمت لهم بصلة ، لأن هذا الشيء الذي يمت لهم بصلة قد يجرك إليهم .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

إلا إذا كانوا قد عبدوا الله عز وجل ، عندئذ لا ينبغي أن تعتزلوهم ، فالإنسان لا تعتزله لذاته بل لعمله السيئ ، فإذا عاد إلى الصواب فهو أخوك في الله ، فلمجرد أن يعود هذا المشرك إلى حظيرة الإيمان وجب عليك أن تصله ، لذلك جاء إلى المدينة رجل اسمه عمير ، وهو من ألد أعداء النبي الكريم ، وقد

توشح سيفاً له ، رآه عمر ، فقال : ما الذي جاء بك يا عمير ، قال : جئت أريد أن أفدي أخي ، فقيده بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال يا رسول الله : هذا عمير جاء يريد شراً ، قال : أطلقه يا عمر ، فأطلقه ، قال : اقترب مني يا عمير ، فاقترب منه فقال : ابتعد عنه يا عمر ، فابتعد عنه ، قال يا عمير ، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال : جئت أفك أخي ، أو ابني ، لا أدري أيهما أصح ، فقال : وهذا السيف الذي على عاتقك ، قال : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ فكان عمير قد جلس في ظاهر مكة مع صفوان بن أمية اتفقا على أن يقتل عمير رسول الله بهذا السيف المسموم ، وجاء تحت غطاء أن له أخاً يريد أن يفك أسره ، فقال يا عمير : سلم علينا ، قال عمت صباحاً يا محمد ، قال : سلم علينا بسلام الإسلام ، قال يا محمد لست بعيد عهدٍ بالجاهلية هذا سلامنا ، قال له : ألم تقل لصفوان : لولا هموم ركبتني ، وأولاد أخاف عليهم العنت لذهبت ، وقتلت محمداً ، وأرحتكم منه ، فقال لك صفوان : أما أولادك فهم أولادي ما امتدت بهم العمر ، وأما ديونك فهي علي مهما بلغت ، فامض بما أردت ، عندئذ وقف عمير ! وقال : أشهد أنك رسول الله ، والله ما سمع أحد على وجه الأرض ما الذي دار بيني وبين صفوان ، عندئذ أسلم هذا الرجل ، وأنا ما أردت من هذه القصة إلا شيئاً واحدًا .

سيدنا عمر كان يقول : واللهِ دخل عمير على رسول الله ، وهو أبغض إليّ من الخنزير ، وخرج من عنده ، وهو أحب إليّ من بعض أولادي ، انتهى الأمر ، أنت لا تكره زيداً لذاته ، تكرهه لعمله ، فإذا عاد إلى الدين فهو أخوك .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

معنى الاستثناء : إلاّ الله

وما يعبدون إلا الله استثناء منقطع ، فإذا عبدوا الله وحده انتهى الاعتزال ، وهم إخوانكم .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مرفقاً)

الكهف الذي أووا إليه معروف ، وكل مؤمن خاف على دينه ، أو خاف على استقامته ، أو خاف على عقيدته ، أو خشي أن يعصي الله عز وجل ، لا ينبغي أن يكون في مكان قد يجر فيه إلى المعصية عليه أن يعتزل كل من يجره إلى المعصية .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مرفقاً)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

(البخاري)

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنَ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهم قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ ، لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً))

(صحيح البخاري)

فأن تأتي إلى مجلس العلم ، وتستمع إلى آيات الله تتلى عليك ، وتفسر بقدر الإمكان هذا أفضل مليون مرة من أن تقبع وحدك في البيت ، أما إذا دعيت إلى مجلس أنس وطرب فالأفضل ألف مرة أن تبقى وحدك في البيت من أن تجر إلى معصية الله ، هذا ملخص الموضوع ، وسوف نتابع الحديث عن هذه القصة بفضل الله عز وجل وتوفيقه في الدرس القادم .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 10 – 26 ، كرامة الأولياء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-10-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من سورة الكهف ، قد يسأل الإنسان لماذا كانت هذه القصة؟ أو لماذا أورَدَها الله ؟ أو ما مغزاها ؟ هل المقصود منها حكاية ؟ حوادث ، حِوار ، أم المقصود منها أسمى من ذلك .

قصة أهل الكهف تسلية للصحابة وتخفيف عنهم :

جاءت هذه القصة في أوانها ، وفي مكانها ، فقد كان المسلمون في مكة يواجهون الأوضاع نفسها التي واجهها الفتية في أوج اضطهادهم ، والاستبداد بهم ، إنه تشابه غريب بين ما وقع في مكة في بداية الإسلام من اضطهاد للمؤمنين وقسوة عليهم ، وتنكيل بهم ، وبينَ ما وقع لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف من تعذيب ، وتنكيل ، وتهديد ، وتخويف .

إذاً : كأنَّ قصة أصحاب أهل الكهف جاءت لتخفف الأعباء عن المؤمنين الأوائل ، جاءت لتسليهم ، ولتزيح عنهم الحزن ، وكان الفتية يعيشون قبل أن يغادروا بلدهم إلى الكهف في فترة تشبه الفترة التي عاشها المؤمنون ، لقد عاشَ الفتية المؤمنون البيئة ، والأوضاع ، والقسوة ، والمِحَن ، والمصائب ، والمضايقات نفسها ، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن الكريم .

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة الأنفال : 26)

هكذا كان المؤمنون في بداية عهدهم ، في مكة المكرمة ، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم ، والقسوة ، والتعذيب ، والتنكيل ، وتحكي من أخبار محنة سيدنا بلال ، وعمار ، وخباب ، ومصعب وسمية ، الشيء الكثير .

إذاً : كأنَّ هذه القصة جاءت بلسماً شافياً لهؤلاء المؤمنين الأوائل الذين لاقوا ما لاقوا ، وتحملوا ما تحملوا ، وكان صبرهم دليلاً قاطعاً على عِظَمِ إيمانِهم .

إنه شَبَهٌ تام بين الممتحنين في مكة ، وبين الممتحنين من أصحاب الكهف ، ولِذا قصَّ الله عز وجل في هذه الفترة الرهيبة التي يستولي فيها اليأس ، والتشاؤم ، وتزيغ الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، قصة يوسف مع إخوته ، وقصة موسى مع فرعون ، وقصة فرد مع أمة ونبي مع جماعة ، وقصة أصحاب

الكهف ، لأنَّ لهذه القصص أهدافاً تربوية كبيرة جداً .

نُقاط التشابه بين مؤمني مكة وأصحاب الكهف :

هناك شيءٌ آخر في هذه القصة ، وهو نُقاط التشابه بين مؤمني مكة في بداية عهد الإسلام وأصحاب الكهف ، إذ أن هناك الإرادة القاهرة التي تنصر المؤمن على الكافر ، والبر على الفاجر ، والمظلوم على الظالم ، والضعيف على القوي ، والفقير على الغني ، بطُرق تحار منها العقول وتشده بها العقول ، ويؤمن بها الكافر ، ويوقن بها المُتشكك ، أي أنَّ هناك قوة قاهرة ، تنصر الضعيف ، المقهور ، الذليل ، المظلوم ، الفقير ، على خصمه القوي ، العتيد ، الشديد ، هذا وجه التشابه بين قصة أصحاب الكهف ، وهؤلاء المؤمنين الأوائل .

وما أشبه المسلمين في مكة بالفتية المؤمنين الذين لجؤوا إلى الكهف فِراراً بدينهم من الفتن ، فبقوا فيه إلى أن قلب الله الليل نهاراً ، وانقرضت الدولة الكافرة المضطهدة لأهل الإيمان والعقيدة ، حينما أفاق أهل الكهف رأوا حياة أخرى ، ومجتمعاً آخر ، وعلاقات أخرى ، وكأنَّ الذي خافوا منه قد زال عنهم زوالاً نهائياً ، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

إيثار الحق واعتزال الشرك :

كان مجتمعهم مجتمعاً منحرفاً يسود فيه الفجور والخلاعة ، والانهيار في القيم ، والانحطاط ، الفاجر هو القوي ، والمستقيم هو الضعيف ، الفاسق هو الغني ، والمُلتزم هو الفقير ، مجتمع فيه ظلم ، وانحراف ، وقسوة ، وميوعة ، وانحلال ، فيه ما في كل المجتمعات المتفسِّخَة ، هذه هي البيئة التي عاش فيها هؤلاء الفتية أصحاب الكهف ، ويبدو أنَّ هؤلاء الفتية كانوا من بيوت عظيمة ، ومن علية القوم ، يعيشون ، ويأكلون ما لذَّ وطاب .

ولكن حينما بلغتهم دعوة السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وقعوا في صِراع داخلي ، بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين أن يقفوا مع عقولهم ، وبين أن يقفوا مع شهواتهم ، بين المبدأ والمصلحة ، وبين القيم والحاجات ، نشأ هذا الصراع العنيف في نفوسهم أولاً ، ثم انعكس على مواقفهم ، وعقيدتهم ، وتصرفاتهم ، لذلك شعروا أنهم غرباء عن هذا المجتمع ، ماذا يفعلون ؟ إما أن يعتقدوا عقيدة صحيحة مع الموت ، وإما أن يحيوا مع الفساد في العقيدة ، إنه خيار صعب ، ولا مكان لموقف ثالث ، إما أن يسايروا ، ويواكبوا ، ويوافقوا هذا التيار المنحرف ؛ تيار الفسق ، والفجور،

والمجون ، والعقيدة الوثنية في عهد الرومان قبل انتشار دعوة السيد المسيح ، وإما أن يقفوا مع الحق الذي آمنوا به ، وعرفوه ، ويدفعوا ثمنه باهظاً جداً ، والأمر لا يحتمل حالة ثالثة ، فإما أن يكونوا مع الحق ، ولا حياة مع الحق ، وإما أن يكونوا مع الباطل حيث البحبوحة والحياة الرغيدة ، هذا تمهيد للحالة النفسية ، وللبيئة التي عاش فيها أصحاب الكهف قبل أن يأووا إلى كهفهم .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً)

حينما يلتجئ الإنسان إلى الله عز وجل ، ويلوذ به ، ويحتمي بحِماه ، ويستظل بظله ، حيث لا ظل إلا ظله ، وحينما يخلص له ، ويستقيم على أمره ، ويحبه ، ويحتمي به ، فقد مَلَكَ كُلَّ شيء .

ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

الرحمة والسكينة من صفات المؤمنين المخلصين :

لا يعرف مضمون هذه الكلمات ، ولا الشعور بها إلا من ذاقها ، وإذا تجلى الله عز وجل على قلب المؤمن شعر أنه مَلَكَ كُلَّ شيء ، ولذلك قال أحد العارفين بالله ؛ وهو أبو يزيد البسطامي : " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ". "

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً)

يا رب تولَّ أمرنا ، وفقنا لما تحب وترضى ، ونجنا من القوم الظالمين ، وهيئ لنا خلاصاً من هؤلاء ، وهيئ لنا حالة نرتاح بها من هؤلاء الذين يُكرهوننا على أن نكون معهم على الوثنية ، والانحراف ، والسقوط .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)

نوم أهل الكهف :

تغمض العين في أثناء النوم ، ولكن الأذن تبقى مفتوحة حيث إنها مكان التنبّه الوحيد للصوت ، إذاً : الاستيقاظ يكون عن طريق الأذن .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً)

من كرامات أهل الكهف : لبثهم ثلاثمئة سنين :

بعثناهم من هذا النوم الطويل ، وكما نعلم أنَّ أصحاب الكهف ليسوا أنبياء ، وما جرى معهم هو خرق للعادات ، وهو أن ينام الإنسان ثلاثمئة سنة ، وهو بكامل هيئته ، وصحته ، وقوامه ، من دون أن يتلف جسمه ، أو يفنى جسده ، وخرق العادة هذا إن كان لنبي فهو معجزة ، وإن كان لولي فهو كرامة ، وهذا دليل قطعي على وجود الكرامة ، وقد ذكرَ الله ذلك في حديثِهِ عن أصحاب الكهف فقال :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

مغزى الآية : إيمانٌ من العبد وزيادة هدى من الله :

عليك أن تبادر ، وعلى الله الباقي .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

عليك أن تخطو الخطوة الأولى ، وأن تختار الهدى ، وأن تفكر ، وتتخذ قراراً في طلب الحق ، وعلى الله الباقي .

ابن آدم اطلبني تجدني ، إذا تقربت إليّ شبراً تقربت إليك ذراعاً ، وإذا أتيتني مشياً أتيتك هرولة .

إذا رجع العبد العاصي إلى الله عز وجل نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

هُنا مغزى دقيق جداً ، أي أنك أيضاً أيها المؤمن إذا اتخذت قراراً صحيحاً في طلب الحق فعلى الله الباقي ، فهو يجمعك مع أهل الحق ، ويشرح لك صدرك لطلب الحق ، وهو يوفقك في الدنيا ، ويفرغك للحق ، ويتحقق كُل ما تطمح له إذا خطوت الخطوة الأولى ، ويتولى الله سبحانه وتعالى ما تبقى من خطوات .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)

قد ينهار الإنسان نفسياً ، فتخور قِواه الجسمية نتيجة لذلك ، لكنَّ الله يربط على قلب المؤمن ، ويعطيه العزم ، والسكينة ، والوقار ، والصلابة ، وقوة التحمل فيُصبح كجبل راسخ ، بينما أفئدة الكفار :

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب : 11)

يُلقي الله في قلب المؤمن السكينة .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً)

ملخّص الأديان : لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً :

هذا هو التوحيد ، وهذا هو الدين ، وهذه هي العقيدة الصحيحة ، وهذا ملخص الأديان كلها .

(وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً)

لو أننا دعونا من دونه إلهاً ، لقد خرجنا عن الحق ، والاعتدال ، وخرجنا عن دائرة القبول .

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

وجوب اعتزال أهل الشرك والفجور :

يجب أن تكون العزلة تامة عن أهل المعصية والفجور ، فإذا كنت في مجتمع فاسد ، ورأيت شُحاً مُطاعاً ، وهوىً متّبعاً ، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه فالزم بيتك ، وأمسك لِسانك ، وخُذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة .

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

أي اعتزلتم عاداتهم ، وتقاليدهم ، وقيمهم ، وأنماط معيشتهم ، ومقاصفهم ، و متنزهاتهم ، وأنديتهم ، وأمكنة احتفالاتهم ، وأنماطهم ، إلا إذا عبدوا الله عز وجل فعندئذ لا ينبغي أن تعتزلوهم .

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

المرفق ؛ الشيء الرفيق المريح .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ)

طبيعة الكهف الذي لجأ الفتية إليه :

أي دلّهُم الله عز وجل على كهف يقع - كما قال المفسرون - في الجهة الشمالية ، تأتيه الشمس صباحاً مجانبة ، فيدخل نورها فقط بدون أشعتها ، وتغيب كذلك عنهم مساءً .

إذاً كانَ الكهفَ مفتوحاً على الجهة الشمالية ، حيث يأخذ من الشمس نورها وضياءها ، ويتقي منها أشعتها المؤذية ، والكهف واسع ، وفيه تهوية جيدة .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ)

لا تدخل الشمس إذا طلعت إلى كهفهم فتزعجهم .

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ)

يعني تقطعهم ، وهم في فجوةٍ من الكهف .

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ المُهْتَدِي

إذا أنس الله عز وجل من عبد طلباً للهداية فإنه يهديه ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدِكم .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)

المهتدي الوحيد هو الذي عَرَفَ الله ، وليس بعده إلا الضلال المبين ، فإمّا أن تكون على الحق ، أو أن تكون على الباطل ، ولا يوجد حالة ثالثة ، لأنَّ الحق واحد ، لا يتعدد ،

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا

أي إذا استغنى الإنسان عن الله عز وجل ، باختياره فأدار ظهره للدين ، والتفت إلى الدنيا ، فهل في الأرض كلها جهة تهديه ؟ لا والله ، ومن يضلل نفسه - بعض المفسرين قالوا ومن يضلل نفسه عن الله عز وجل .

(فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

إذا صَرَفَ الإنسان نفسه باختياره عن الهدى الإلهي ، وصَرَفَ نفسه عن الحق .

(فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

لن تجد أحداً يهديه .

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ

قال بعض العلماء : " إن أجفانهم بقيت مفتوحة ".

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ)

نائمون .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

من الإعجاز العلمي : وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ

من الإعجاز العلمي لهذا الكتاب هذه الآية يقول العلماء : " إذا استلقى الإنسان على فراشه ، فإنَّ وزن جسمه يضغط على الهيكل العظمي ، والهيكل العظمي يضغط على العضلات ضغطاً ثانياً " ، فيُسبب هذا الانضغاط انضغاطاً على الشرايين والأوردة التي في هذه المنطقة ، وهذا الانضغاط يسبب ضعفاً في تروية العضلات ، لذلك " تخضر " هذه العضلات كما تقول العامة ، مما يجعل الإنسان يُغيّر استلقاءه ، فلوا راقبنا إنساناً نائماً لوجدناه يُغيّر استلقاءه ثماني وثلاثين مرة في الليلة الواحدة ، أما الشيء العجب العجيب ، كيف يغير الإنسان وضعه وهو نائم ؟

قال العلماء : " في الإنسان أماكن مراكز عصبية تتحسس بالضغط ، فإذا تمَّ انضغاط بعض العضلات، وتحسست هذه المراكز العصبية تعطي إشارة إلى الدماغ ، والإنسان نائم ، أنَّ هناك ضغطاً في الجهة الفلانية ، فيُعطي الدماغ أمراً إلى العضلات لتغير وضع النوم مما يجعل الإنسان يتقلب بالليلة الواحد من ثماني وثلاثين إلى أربعين مرة ، هذا في الأحوال العادية ".

" أما لو تصورنا إنساناً مصاباً بمرض اسمه السُبات ، وهو غياب كُليّ عن الوعي ، أو إنساناً مصاباً بشلل كامل فهو لا يستطيع مثلاً أن يُحرِّك نفسه ، إنَّ أول علاج لهذه الحالة ، هو التقليب ، لأنَّ الإنسان إذا بقي على وضع واحد فوق ثماني ساعات يبدأ اللحم بالتمزق ، إذ تضعف تروية الدم للنسيج العضلي، وعندها يتفسّخ اللحم ، يُقال لكَ " اهترأ لحمه " ، ولو نسي أهل المريض المُصاب بسُبات أو شلل أن يقلّبوه فإنَّ قِطَع اللحم تنزع من أطرافه نزعاً ، سمّى العلماء هذا المرض قرحة السرير ".

العلاج الوحيد لِكُل إنسان مصاب بالشلل ، أو بالسُبات قبل كل علاج هوَ التقليب فهؤلاء أصحاب الكهف لو ناموا على حالة واحدة ، واستمر نومهم ثلاثمئة عام لا يبقى منهم بعد خمسين عاماً بالتأكيد شيء ، تتفسخ لحومهم ، ويأكلها الدود ، وهم أحياء ، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي .

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

فلولا هذا التقليب لما بقوا على ما هم عليه ثلاثمئة عام ، فالإنسان يتلقب في الفِراش ثماني وثلاثين مرة في الليلة الواحدة ، في الساعات الثماني التي ينامها ، بفعل المجموعة المعقدة جداً من الأجهزة ، حيث إنَّ هناكَ مراكز عصبية منتشرة في كل أنحاء الجسم تتحسس بالانضغاط ، وهذه المراكز تُعطي معلومات عصبية إلى الدماغ بأنَّ هناك في المكان الفلاني انضغاطاً ، والدماغ يُرسل أوامره إلى العضلات لتغير وضع الاستلقاء من أجل أن يبقى الإنسان سليماً معافى ، أمّا في حالة الشلل والسُبات فلا بد من تقليب المريض ، من يُقلّب هؤلاء الذين أنامهم الله هذه السنوات الطويلة ؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ)

ذِكْرُ الله للكلب تشريفا لأصحابه :

معهم كلب وَفِيٌّ

(بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)

معنى الوصيد :

الوصيد أي فناء الدار ، أما الوصيد في الكهف ، فهو الفسحة من الكهف .

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)

معنى : لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا

قال بعض العلماء : " إنَّ حالة الإنسان النفسية قد تنتقل للآخرين ، فهؤلاء حينما أووا إلى الكهف كانوا في حالة رعب ، وفزع شديدين ، فكل من اطلّعَ عليهم امتلأ قلبه رعباً منهم وولى منهم فِراراً ".

الحكمة من تقديم الفرار على الرعب :

هناك حِكمة بالغة من تقديم الفرار على الرعب ، فقال بعضهم : هذا من قبيل تقديم المسبب على السبب، أي حين اطلعت عليهم امتلأت منهم رعباً ، فلا تملك إلا أن تولي فراراً منهم .

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً)

حينما أووا إلى الكهف كان الضغط الاجتماعي ، والقهر ، والاضطهاد ، والتعذيب ، والتقتيل لكل من يؤمن بالسيد المسيح ، لأن الديانة وقتها كانت ديانة وثنية ، تؤمن بالأصنام ، وبإله الجمال (فينوس)، وإله المطر ، وإله الحرب ، وإله الرياح ، هذه الآلهة التي اتخذتها بعض الأقوام الرومانية كان هذا دين الملك الذي يحكم وقتها هؤلاء الفتية .

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

كَمْ لَبِثْتُمْ

توقعوا أنهم ناموا ، ثمَّ استيقظوا ، نوماً طويلاً ، ينام الإنسان في بعض الأيام من الساعة السادسة مساءً إلى الساعة السادسة صباحاً ، فيقول : نمت اثنتي عشرة ساعة .

شعروا أنهم ناموا نوماً طويلاً ، لكنه لا يزيد على يوم أو بعض يوم .

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ)

أي كادوا أن يختلفوا ، والموضوع ليس بذي بال .

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ)

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

كان معهم بعض المال ، فبعثوا أحدهم بهذا الورق ، قبل أن نتابع الموضوع هناك إشارة أن الله عز وجل حينما قال :

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)

الرقيم هو الحجر الذي دُوِّنَتْ عليه أسماؤُهم ، أو اسم الوادي ، أو اسم الجبل الذي كانوا فيه ، أو اسم كلبهم ، وجاء في بعض التفاسير ، وأظنه تفسير الرازي إلى أن الرقيم نسخ من الكتاب المقدس من التوراة ، والإنجيل ، أي حينما أوى هؤلاء المؤمنون إلى الكهف أخذوا معهم كتاب ربهم ليقرؤوه ، هذه إشارة أيضاً إلى أن المصحف يجب أن يكون رفيقا للمؤمن .

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

في بعض التفاسير أنهم حينما ذهبوا إلى الكهف ، اجتمعوا ، ويدُ الله مع الجماعة ، وتوجهوا نحو

الكهف ، وأخذوا معهم طعاماً وشراباً ، وكتابهم المقدس ، الذي هو زاد المؤمن ، بقوا يأكلون ، ويشربون في الكهف حتى نفد طعامهم وشرابهم .

بعثوا الآن ، وهم جائعون .

(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً)

وجوب طلب وتحرّي الحلال :

المؤمن كالنحلة ، لا يأكل إلا طيباً ، ولا يُطعم إلا طيباً .

(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

استنبطَ العلماء من هذه الآية أنه ليسَ للإنسان حق أن يشتري كُلَّ الرزق ، وليس للإنسان حق أن يقف أمام البائع ، في بعض الأحيان يقف شخصان أو ثلاثة ، وعِندَ البائع شيء من الفاكهة ، يأتي إنسان ، ويطلب من البائع أن يزن لَهُ كُلَّ الفاكهة ، وهذا خِلافُ الأدب ، فهناكَ أشخاص يقفون معك .

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ)

يأخذ حاجته فقط ، ولا يأخذ كل الرزق ، كلمة من للتبعيض ، هذا تعليم وأدب قرآني ، فإذا كان لك أخ واقف معك عِندَ بائع ، وعنده كمية محدودة فلا تأخذها كلها ، بل خُذ حاجتك مِنَها ، ودع لأخيك الباقي .

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

رَحِمَ الله عبداً سهلاً إذا باع ، سهلاً إذا اشترى ، سهلاً إذا قضى ، سهلاً إذا اقتضى .

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ)

طلبوا ممن أرسلوه لشراء الطعام أن يكون لطيفاً ، وأن يتخفى ، وألاّ يُعلن عن شخصيته ، وليأتِ بهذا الطعام خِلسة ، دون أن يُعرف ، ودون أن يَعرف الناس أين مقرهم ، لأنهم مضطهدون ، مستضعفون ، ملاحقون ومعذبون .

(وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً)

التلطف في البيع والشراء : وَلْيَتَلَطَّفْ

هنا قضية بلاغية .

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ)

الفاء تفيد الترتيب على التعقيب :

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ)

(فَلْيَنْظُرْ)

فليأتِ ، شي جميل ، انطلق ، فنظر ، فأتى بالطعام ، أعمال مرتبة وفق برنامج زمني ، أما آخر الآية :

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

لماذا لم يقل الله عز وجل : ابْعَثُوا أَحَدَكُمْ ، فَلْيَنظُرْ ، فَلْيَأْتِكُمْ ، فَلْيَتَلَطَّفْ ، لا ، فإنه يجب أن يكون لطيفاً في كل هذه المراحل .

(فَلْيَأْتِكُمْ)

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

هي واو لِمُطلق الجمع ، أي يجب أن يتلطف حينما يذهب ، وينظر إلى الطعام ، وحينما يشتري ، ويأخذ الطعام ينبغي أن يتلطف أيضاً .

ملاحظة :

وردَ القول : لماذا لم يقُل الله : فلينظر فليأتكم فليتلطف ، ولو وضعنا واواً لَبَطَلَ الكلام والسؤال ، لأنَّ الله قال :

(فَلْيَأْتِكُمْ)

المراحل الأولى مراحل متتابعة ، أما التلطف فيجب أن يشمل كل المراحل ، إذاً جاءت واو العطف :

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ)

(فَلْيَنْظُرْ)

(فَلْيَأْتِكُمْ)

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

في كل هذه المراحل .

(وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً)

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً)

أي يقتلوكم .

(أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ)

الوثنية .

(وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً)

الاحتياط واجب لاجتناب الوقوع في الفتن :

لو عدتم إلى ملتهم ، لعِشتُم في بحبوحة ، ونعيم ، ووجاهة ، ولكن على حساب عقيدتكم ، ومبادئكم ، ودينكم .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

معنى : وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ

ذهب رسولهم الذي أرسلوه لِشراء الطعام ، ولكنه حينما أبرزَ العملة التي معه ؛ وهي عملة يعود تاريخها لِما قبل ثلاثمئة سنة قوبِلَ باستغرابٍ شديد ، وقالوا له : ما هذه ؟ ومن أنت ؟ كمن ذهبَ إلى سوق ، وأخرجَ عملة قديمة جداً ، وطلب من البائع أن يبيعه خضاراً وفواكه ، سيستغرّب البائع ، وسيسألهُ : من أنت ؟ من أي زمان أنت ؟ لكنه شعر أن الناس طيبون ، لا كالذين تركهم ، هُم طيبون ، لأنَّ الدين قائم ، شعر أن هناك تبدلاً تاريخياً ، في هذه العودة ، هم عرفوه ، وتتبعوه ، ووصلوا كما تذكر بعض القصص إلى باب الكهف ، وبعد أن دخل قبلهم الكهف ماتوا ، أي أصحاب الكهف جميعاً .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ)

عثر فعل لازم ، أما أعثر فمتعدٍ ، دلَّ الله عز وجل عليهم لِحكمةٍ بالغة ، لتكونَ هذهِ آية أن أيها الناس هؤلاء الذين أخلصوا لي ، وأحبوني ، وخافوني ، واستقاموا على أمري ، فأنا أحفظهم ، وأحميهم ، وأنصرهم على عدوهم ، وأتجلّى على قلوبهم .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

والله الذي لا إله إلا هو لزوال الدنيا أهون على الله من أن يخلف وعده معك .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور : 55)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

(سورة الحج : 38)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل : 97)

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا)

ولأصحاب الكهف قصة مشهورة في التاريخ ، فحينما لاحقهم الملك الطاغية ، وعرض عليهم الإيمان بديانته الوثنية ، أمهلهم يومين ، لكنهم اختفوا ، أين هم ، وكيف اختفوا ؟ لا تزال قصتهم تسير مع الزمن ، فلما رأى هؤلاء الناس المسيحيون الذين كانوا يشكون في الآخرة أنَّ الله قد حَفِظَ أصحاب الكهف كل هذه الفترة ، ثُمَّ أحياهم ، كان هذا دليلاً على الإيمان باليوم الآخر .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

اقتراح غلق الكهف : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا

ارتأى فريقٌ أن يغلق هذا الكهف نهائياً ، بالإسمنت مثلاً ، والحجارة ، ربهم أعلم بهم ، رأى فريقٌ آخر أن يبنى عليهم مكان للعبادة للتبرك بهم .

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

الحكمة من إبهام العدد الحقيقي للفتية ومكانهم :

هناك سؤال الآن ؟ لماذا لِمَ لم يَقُلْ الله لنا : إنَّ عددهم سبعة ، وانتهى الأمر ، لِئلا نبقى في هذه المتاهة؟ ربنا عز وجل يعرف السر وأخفى ، يعلمهم بالضبط ، ولكنه لم يشأ في هذه القصة أن يعطينا العدد الحقيقي ، وترك هذا الأمر خلافياً ، إذاً ما الحكمة ؟ قال بعضهم : في القصة مغزى ، وفي القصة جزئيات لا تخدم المغزى ، فأنت إذا ذهبت تبحث عن جزئياتها ، وعن تفصيلاتها ، وعن عدد أهل الكهف ، وعن كلبهم ، وبعد ذلك يا ترى هل أقاموا عليهم مسجداً ، أم أغلقوا هذا الكهف ، تركَ ربنا عز وجل بعض الأشياء مفتوحة ، غير مغلقة ، ولم يُعطِ فيها حُكماً جازماً ، ليُعلِمَنا أن القصة لها مغزى ، فإن لم تعرف المغزى ، وانهمكت في التفصيلات فقد ابتعدت عن مغزاها ، ما قيمة عددهم بالنسبة لمغزى هذه القصة ؟ لو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، المغزى أن هؤلاء الفتية آمنوا بربهم ، فزادهم الله هدى ، المغزى أن الله عز وجل هو القوة القاهرة التي تقهر كل شيء ، فإذا كنت معه فلا أحد ينالك بالأذى ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كانَ عليك فمن معك ؟ المغزى أن تبتعد عن التفصيلات ، وعن الجزئيات ، وعن العدد ، والمكان ، بأي مكان ؟ في تركيا ؟

أم في اليونان ؟ أم في مدينة اسمُها (طرسوس) كما جاء في بعض التفاسير ، أم في الشام عند الكهف هنا ، لم يذكر ربنا عز وجل المكان ، ولا ذكر الزمان ، ولا بَتَّ في العدد ، ولا أعطى شيئاً قاطعاً في موضوع الكهف ، تركَ هذه الجزئيات كلها مفتوحة ، لأنَّ الإلحاح على المغزى .

(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

أي لا جدوى من هذه التفصيلات ، والجزئيات ، وما سكت الله عنه يجب أن تسكت عنه ، وابحث عن المغزى الذي أراده الله من هذه القصة ، هذا هو الاتجاه الصحيح ، أما الاتجاه إلى التدقيق في التفصيلات ، والوقوف عندها والغوص فيها ، والغفلة عن المغزى الكبير الذي أراده الله من هذه القصة هو اتجاه خاطئ .

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً)

كُلُّ شيء بمشيئة الله :

من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ، قل : إن شاء الله ، استثن ، إذا استثنيت فقلت : إن شاء الله فإنَّ كلامك صحيح ، أمّا إذا قلت : إني سأفعل ذلك غداً فأنت لا تعرف ما حياة الإنسان ، فهو يصبح في ثانية واحدة من أهل القبور .

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

لكن (إن شاء الله)لها معنى عامي ، يعني إذا لم يكُن الإنسان جاداً في الدفع يقول : إن شاء الله أعطيك ، وإذا كان غير جاد في الحضور يقول : إن شاء الله سآتي إليك ، فإن شاء الله أسيءَ استخدامُها ، حتى إنها صارت تعني الإخلاف في الموعد ، وعدم الدفع ، والكذب ، لا ، ليست (إن شاء الله)بهذا المعنى ، إذا كنت جازماً كل الجزم ، وعاقداً كل العزم على أن تدفع تقول : إن شاء الله .

دُعِيَّ أشخاص إلى وليمة فلم يحضروها ، وافتهم المنية قبل أن يحضروها ، وعَقَدَ إنسان العقد على امرأة فوافته المنية قبل الدخول بها ، وجاء إنسان بشهادة فوافته المنية قبل إبراز المصدقة للجهات المعنية ، فالإنسان لا يدري متى يموت .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال تذكرني ، ولا تنساني ، إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

الأمرُ بطلب الكمال وعدم الرضا بالحال :

لا ترضَ بحالك ، اسعَ إلى ترقية حالك ، اسعَ أن يكون غدك أفضل من يومك ، ويومك أفضل من أمسك ، المغبون من تساوى يوماه ، من لم يكن في زيادة فهو في نقصان .

(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً *وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

أيضاً يوجد سؤال ؟ لمَ لمْ يقل الله عز وجل : ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة وتسع سنوات ؟ لا .

(ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

من الإعجاز العلمي (العددي): وَازْدَادُوا تِسْعًا

قال العلماء : " وهذا أيضاً من الإعجاز العلمي في كتاب الله ، ثلاثمئة عام ميلادي تساوي بالضبط ثلاثمئة وتسع سنوات هجرية " ، فربنا عزَّ وجل أعطى المدة على التقويمين ، الشمسي ، والقمري .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ)

هذا بالسنة بالشمسية .

(وَازْدَادُوا تِسْعاً)

والسنة الشمسية هي مدة دورة الأرض حول الشمس في اثني عشر برجاً ، فالسنة الشمسية حقيقة ، والشهر الشمسي حكمي .

أما بالهجري فبالعكس ، الشهر القمري هو شهر حقيقي ، والسنة القمرية حكميه أي أنَّ السنة القمرية شهر ضرب 12 ، أما السنة الشمسية سنة تقسيم 12 .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ)

على السنوات الميلادية .

(وَازْدَادُوا تِسْعاً)

ذلك على التقويم القمري ، وليسَ الهجري ، إذّ لم يَكُن وقتها تقويم هجري .

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

هذا هو التوحيد .

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة : 255)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 21 – 31 ، كل عمل له ثمن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-11-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الرابع من سورة الكهف ، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

دلالة الفعل (أعثرنا)

كلمة (أعثرنا)أساسها عثرنا ، وهذا الفعل له استعمال دقيق :

تقول : عثرت عليه ، وعثرت به ، عثرت عليه بعد بحث طويل ، وعثرت به مصادفة ، أما أعثر هذا فنقل هذا الفعل من صيغة اللازم إلى صيغة المتعدي ، يعني إذا بحثت عن الشيء ، ثم وصلت إليه فقد عثرت عليه ، وإذا وجدته مصادفة فقد عثرت به ، فإذا دللت عليه إلى جهة أخرى فقد أعثرت عليه ، ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ)

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الظروف كي يعرف الناس أن في هذه المغارة أناساً مضى على نومهم فيها ثلاثمئة عام ، هذا الموضوع يقودنا إلى موضوع آخر ، وهو أن الإنسان بحسب العادة لا يألف أن يبقى الإنسان كما هو مدة طويلة ، لكن هذا بحسب العادة ، قد تقول : إنه يبقى الإنسان ثلاثمائة ألف عام دون أن يصيب جسده تلف ، أو فناء ، هذا ممتنع عادةً ، ولكنه ليس ممتنعاً عقلاً ، لأن الله على كل شيء قدير .

علاقة السبب بالمسبب علاقة شكلية

ولذلك قال علماء التوحيد : علاقة السبب بالمسبب علاقة شكلية ، بمعنى أن الحكم العادي هو شيئان تلازم وجودهما ، وعدمهما ، وليس أحدهما علة كافية لخلق الآخر .

فمن دون طعام ولا شراب يقي اللهُ الإنسان من التلف ، والفناء ، فالله عز وجل على كل شيء قدير ، ودائماً وأبداً هذه عقيدة أهل السنة والجماعة ، أن الأمور تقع عندها لا بها ، ما معنى عندها لا بها ،

الأمر يقع عند وجود الإرادة الإلهية ، لا بالسبب ، والسبب وحده غير كافٍ لحصول النتيجة ، لكن هناك ترافق شكليٌ بين السبب والنتيجة .

من لوازم الشبع تناول الطعام ، تناول الطعام سبب لحدوث الشبع ، وهي علاقة سبب بنتيجة ، لكن الحقيقة في علم التوحيد أن الله عز وجل قادر على أن يخلق حالة الشبع من دون طعام ، والنار تحرق ، هكذا العادة ، ولكن الله عز وجل قادر على إيجاد نار ملتهبة لا تحرق .

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

الصورة الأولى : الإعجاز العددي :

لذلك : المعجزة الأولى ، الإعجاز في قوله تعالى :

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً)

هذا إعجاز رياضي .

الصورة الثانية : التقليب ذات اليمين وذات الشمال :

الشيء الثاني :

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)

الصورة الثالثة : حفظ الأجسام ثلاثمئة وتسع سنين :

والإعجاز الثالث : هو أن الله عز وجل حفظ هذه الأجسام كما هي عليه ساعة نومها مدة ثلاثمئة عام . ولذلك لما يسمع الإنسان أن فلانًا بقي في قبره سنوات طويلة دون أن يفنى ، قد يكون صالحاً ، وقد يكون ولياً لله عز وجل ، فليس شرطاً أن تفنى الأجساد بعد الموت ، هكذا العادة ، ولكن هناك استثناءات، لأن حصول السبب غير كاف لحدوث النتيجة ، لابد من إرادة الله عز وجل ، إذا أراد الله كانت النتيجة بلا سبب .

فهذه القصة دليل على أن في الحياة أشياء ممكنة عقلاً ، وهناك أشياء مستحيلة الوقوع ، وهناك واجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى :

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

إذا وعد الله عز وجل عباده بالبعث بعد الموت فهذا دليل على أن الله على كل شيء قدير .

(أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ)

كأن هناك فريقين ، فريق ليس مؤمناً بهم ، وفريق على ملتهم .

(فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً)

الوعد بالتمكين في الأرض :

أغلقوا باب الكهف ، وانتهى الأمر .

(فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً)

هؤلاء الذين على دينهم ، وقد مكنوا في الأرض .

وبالمناسبة ربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : 55)

التمكين في الأرض ، وعد إلهي محقق الوقوع ، في آية ثانية :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران : 139)

هذا كلام رب العالمين ، أنتم الأعلون ، الأعلون في عقيدتكم ، عقيدتكم هي الصحيحة ، أنتم على الحق، أنتم الأعلون ، بالنسبة لكل من فكر في موضوع ما ، أنتم الذين اعتقدتم الحقيقة الصحيحة التي تؤكدها الوقائع اليومية ، أنتم الأعلون ، أعلون في عقيدتكم ، أعلون في أخلاقكم ، أعلون في مكانتكم ، أعلون في سمعتكم .

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ)

هذا الفريق الذي قال :

(ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً)

كأنهم ليسوا على ملتهم .

(أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

النهي عن اتخاذ القبور مساجد والحكمة من ذلك :

النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن تجعل القبور مساجد ، لماذا ؟ لئلا يصلى إليها ، ولئلا يتخذ القبر قبلة للمصلين ، ولئلا يعبد صاحب هذا القبر من دون الله ، ولئلا تنشأ وثنية هي في الأصل قبر لرجل صالح ، النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن أن تتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وفرق بين أن تصلي لله عز وجل ، وأن تصلي للقبر ، فلا يمنع إذا دخلت مسجداً فيه قبر لصالح ، وليس القبر في جهة القبلة ، وأنت لا تصلي له ، إنما تصلي لله عز وجل ، فالأمر دقيق ، هناك أناس يؤكدون أن الدخول لمسجد فيه قبر لا يجوز ، لكن الذي لا يجوز أن تصلي لصاحب هذا القبر ، هذا الذي لا يجوز، أن تتجه إليه ، وأن تعظمه من دون الله ، أما إذا كنت متجهاً لله عز وجل ، وإذا كنت تصلي لله عز وجل ، فهذا لا يمنع .

لذلك :

(رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)

والحقيقة كلمة (مسجد)لها استعمال دقيق في القرآن ، المسجد المكان الذي يذكر فيه اسم الله عز وجل ، بدليل قوله تعالى :

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن : 18)

من هذه الآية يفهم أنه لا يجوز أن تدعو إلا إلى الله عز وجل ، هذا المنبر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المكان مكان مقدس ، لا ينبغي أن تطرح فيه قضية تمس زيداً ، أو عبيداً ، أو جهة ، أو ملة ، أو نحلة .

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن : 18)

لا ينبغي أن يذكر في المسجد إلا اسم الله عز وجل ، والدليل هذه الآية ، فكلمة مسجد تعني المكان الذي يذكر فيه اسم الله ، يعني هذا اسم نوع ؛ أي مكان على مر الدهور والعصور ، يذكر فيه اسم الله هو عند الله مسجد ، وهناك ما يؤكد فيه اسم الله .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

(سورة الإسراء : 1)

إذاً : لم يكن مسجداً .

(إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)

هي لما سيكون ، فالمسجد مكان العبادة ، مكان الذكر .

الآن ننتقل إلى موضوع دقيق :

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)

العبرة من القصة العبرة والإيمان لا الأحداث والجزئيات :

هذه النقطة في القصة تشير إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يقف عند الجزئيات التي لا علاقة لها بمغزى القصة ، دائماً يجب أن تعرف ماذا يريد المتكلم ، يريد أن يؤكد هذا المعنى ، ابقَ في هذا المعنى ، فإذا انحرفت أنت بجزئيات ، وتفصيلات لا علاقة لها بهذا المعنى ، فهذا نوع من سوء الفهم ، ونوع من الغفلة عن المغزى الذي هو أساس القصة ، فأن يكونوا ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ما المغزى من ذلك ؟ هذه الأرقام لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تعمق فهمنا للقصة ، المراد منها أن هؤلاء الفتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله هدى ، والمراد من هذه القصة ، كن كأصحاب الكهف ، إذا رأوا فساداً عريضاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، وانغماسا في الملذات ، ونفاقاً ، وزيفاً ، واستخفافاً بالقيم الخلقية، إذا رأيت مجتمعاً فاسداً فاعتزله ، وانج بدينك .

المغزى من هذه القصة : أن تؤمن بعلم الله تعالى .

المغزى من هذه القصة : أن تؤمن بقدرة الله تعالى .

المغزى من هذه القصة : أن تؤمن بكرامات الأولياء .

المغزى من هذه القصة : أن يكون هؤلاء أصحاب الكهف في محنتهم ، وفي الحياة الفاسدة التي عاشوا فيها ، وفي لجوئهم إلى الكهف قدوةً لك .

هناك أشياء كبيرة جداً ، هي الأهداف الكبرى التي أرادها الله سبحانه وتعالى من هذه القصة ، فكيف ينحرف فهم الناس لهذه القصة إلى وقوع في خلافٍ وأخذٍ ، وردٍ ، وتشددٍ ، واستخفافٍ ، ومماحكةٍ ونقاشٍ ، وجدالٍ ، في موضوع عددهم ؟ هذا الذي لا يريده الله عز وجل ؛ أن تبقى في الجزئيات ، أن تبقى في القشور ، أو في السفاسف ، أو في أشياء لا تقدم ولا تؤخر ، أن تمضي كل وقتك في قشور الدين لا في لبه ، هذا الذي لا يعرف جوهر الدين ينشغل بما حول الدين ، يعني طوال حياته يناقش الناس ، ويحاججهم تارةً ، ويسألهم ويستفتيهم ، ويرد عليهم ، في أمور خارجية لا تمس جوهر الدين ، وربنا عز وجل في آيات كثيرة أشار إلى جوهر الدين قال تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر : 66)

وقال :

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم : 31)

وقال :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف : 110)

هذا جوهر الدين ، دائماً في المركبة محرك ، وفيها أشياء تزينية ، إذا نسيت المحرك ، وصيانته ، احترق ، وأنت في غفلة عنه ، وترعى ، وتعتني بهذه الأشياء التزيينية ، فأنت لا تعرف حقيقة هذه المركبة ، في الدين أشياء جوهرية ، وأشياء ثانوية ، فإذا أبعد الله عبداً عن الهدى تعلق بالسفاسف ، وفي الأثر :

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد بسند صحيح]

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)

إبهام عدد الفتية لعدم الفائدة في الذكر :

عددهم لا يقدم ولا يؤخر ، الله يعلم عدتهم ، كان من الممكن أن يقول الله عز وجل : هم ثمانية ، وانتهى الأمر ، هم سبعة ، هذا تعليم لنا ، درس لنا ، يجب أن تضع يدك على جوهر الأشياء ، وعلى جوهر الدين ، فإن كنت تاجراً فيجب أن تضع يدك على جوهر التجارة ، هي الربح ، وإن كنت صانعاً، فالإتقان ، وإن كنت في موضوع الدين فالاستقامة على أمر الله .

من التعريفات الجامعة المانعة :

1 - الدين النصيحة :

في الحديث تعريف جامع مانع للدين ، فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ))

[مسلم]

تعريف جامع مانع ، الدين كله نصيحة ، فإذا تخليت عن النصيحة لست ديِّناً ، وانتهى الأمر ، ولو

صليت ، وصمت ، وزعمت أنك مسلم ، لمجرد أن تخون إنساناً في نصيحة استنصحك بشيء ، فأشرت عليه بما لا تفعله لنفسك ، أشرت عليه بخلاف النفع ، وخلاف الحقيقة ، وخلاف الفائدة ، وخلاف الجودة ، إذا أشرت عليه بشيء لا ترضاه لنفسك فلست ديِّناً ، الدين النصيحة ، رأس الدين الورع ، الورع أساس الدين ، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ، ورأس الحكمة مخافة الله .

هذه التعريفات الجامعة والمانعة هي أساس الدين ، الدين المعاملة ، هذا قول ، من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته .

2 - الدين المعاملة :

قال له : هل حككته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا : قال : هل جاورته ؟ قال لا ، قال : هل سافرت معه ؟ قال لا : قال : أنت لا تعرفه .

فإذا قرأت القرآن فابحث عن هذه التعريفات الجامعة المانعة ، فمن أجل أن نفهم هذه الآية ، لا يعنينا أن يكونوا ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، أو ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، هذا الرقم لا يقدم ولا يؤخر .

مرة ضربت مثلاً كنت حريصاً على توضيحه ، إن مدرساً أراد أن يعطي طلابه في الثانوية التجارية درساً في أصول التجارة ، فروى لهم قصة عن رجل اشترى محلاً تجارياً ، في مكان عليه ازدحام شديد ، واختار بضاعة أساسية في حياة الناس ، واختارها من أجود الأنواع ، وجعل سعرها معتدلاً ، وباع نقداً ، وكان لطيفاً ، فربح أرباحاً طائلة ، واشترى بيتاً ، وعاش حياةً كريمة ، في بحبوحة ويسر ، فأنا أريد أن أنبه هذا الطالب إلى أن أهم ما في التجارة الموقع ، ونوع البضاعة ، وجنس البضاعة ، والسعر المناسب ، والمعاملة الطيبة ، والبيع النقدي هي عناصر ربح في التجارة ، فقال أحد الطلاب لهذا الأستاذ : هذا الذي تحدثنا عنه أهو أبيض ، أم أسمر اللون ؟ يا أخي لا علاقة في كونه أبيض ، أو أسمر ، طويلا ، أو قصيرًا ، هذه الجزئيات ليست لها علاقة في القصة ، القصة هادفة ، هدفها أن نعلمك أصول التجارة ، وأن نعلمك أن التجارة قد تربح من خلالها إذا طبقت هذه الشروط ، تقول لي : ما لون هذا التاجر ؟ أين يسكن ؟ ما نوع الثياب التي يرتديها ؟ ما لون الطلاء في دكانه ؟ هذه أشياء جزئيات ليس علاقة بالقصة إطلاقاً .

هذا الذي أريد أن أوضحه لكم لما ذكر ربنا عز وجل ذكر أقوال الناس ، واختلافهم في عدد هؤلاء الذين سموا أهل الكهف ، هو أراد أن يبين هذه الأشياء لا قيمة لها ، لذلك بعد هذا النقاش الطويل لم

يذكر ربنا عز وجل عددهم ، لأنه لا جدوى من ذكر العدد ، والعبرة أن تكون كهؤلاء الفتية .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

العبرة أن تعتزل الناس الفسقة كما اعتزل هؤلاء .

العبرة أن تتكل على الله عز وجل كما اتكل هؤلاء .

العبرة أن تحب الله أكثر من كل شيء ، كما أحب الله هؤلاء الفتية .

العبرة أن يكون هؤلاء الفتية قدوة لك في حياتك .

لذلك هذا الذي أتمناه عليكم ، وعلى نفسي ، كلما تتلون قصة في كتاب الله أن نقف عند مغزاها .

سيدنا يوسف له قصة طويلة ، بل هي أطول قصة في القرآن ، ما مغزاها ؟

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف : 21)

الفعل فعله ، لا إله إلا هو ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، لا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا مغني إلا الله ، لا رافع إلا الله ، لا خافض إلا الله .

هذا هو المغزى ، أما أن نخرج عن فهمنا لهذه القصة لأشياء ؛ يا ترى سيدنا يوسف هل تزوج هذه المرأة التي راودته عن نفسها بعد أن مكنه الله في الأرض ؟ لا أعرف والله ، ولا ينبغي أن أعرف ، ولا أريد أن أعرف ، لأن الذي سكت الله عنه أنا أسكت عنه أيضاً ، لا جدوى منه .

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ)

لا تجادل فيهم ، ولا تأخذ نقاشاً حول العدد ، بل خذ نقاشاً حول المغزى .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

من استنباطات الآية : عدم استفتاء أهل الكتاب :

ولذلك : استنبط العلماء من هذه الآية أنه لا ينبغي أن تتوجه إلى أهل الكتاب كي تستفتيهم ، أو أن تأخذ منهم المعلومات ، أو أن تذهب إلى أهل الكتاب ، وإلى كتبهم التي حرفوها لتأخذ منها شيئاً يفيدك في فهم كتاب الله ، لا .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً)

المماراة والمجادلة :

وقال بعض العلماء : المنهي عنه المماراة ، معنى المماراة المجادلة ، لا تجادل فيهم .

(إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً)

أيْ سألت عن هذه القصة سؤالاً عابراً ، إما أن تخوض في خلافاتها الشكلية فهذا منهي عنه .

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

مشيئة الله نافذة في الخلق :

من هنا يستنبط في علم العقيدة أن الفعل لله ، لك الإرادة ، ولك الكسب ، لكن الفعل لا يقع إلا بأمر الله ، وهذا معنى قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : 19)

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

وجوب الذكر بعد النسيان : وَاذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

قلت لكم في الدرس الماضي : إن أحد الأنبياء العظام سأل الله عز وجل فقال : يا رب كيف أذكرك ؟ أو كيف أشكرك ؟ قال : تذكرني ، ولا تنساني ، إن ذكرتني شكرتني ، وإذا ما نسيتني كفرتني .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

والنبي معصوم عن الخطأ في الاعتقاد ، والتبليغ ، والسلوك ، والمؤمن محفوظ ، وليس معنى كونه محفوظًا أنه لا يخطئ ، ولكن المعنى أنه لا يضره خطؤه ، بمعنى أنه يذكر الله إذا نسي ، ويتوب إليه ، والله سبحانه وتعالى يعفو عنه :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

الإنسان ينسى ، إذا تذكرت فاذكر ، وإذ شعرت نفسك غافلاً فاذكر الله عز وجل .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

المؤمن مذنب تواب ، كثير التوبة ،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم : 8)

للهُ أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، و الظمآن الوارد ، فإن تابوا فأنا حبيبهم ، وإذا لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، إذا تبت إلى الله عز وجل توبة نصوحاً فأنت حبيب الله إذاً :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

ودائماً ينسى الإنسان ، ويستمر على هذا النسيان ، ويصر على هذا النسيان ، وهنا الخطأ ، لو جئتني بملء السماوات والأرض ذنوباً غفرتها لك ولا أبالي :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر : 53)

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

نسيت ، وأعترف بخطئك ، وإذا أسأت فأحسن ، الحديث الشريف عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[الترمذي ، وأحمد]

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

النسيان من طبيعة البشر عامة :

والنسيان من طبيعة البشر ، اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر ، وأرضى كما يرضى البشر ، وفي قول : وأنسى كما ينسى البشر ، والإنسان أحياناً يغفل عن شيء ، وبسرعة يذكره ، لكن نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم من نوع آخر ، نسيان تشريعي لا نسيان مقصود ، والنبي الكريم مرة صلى الظهر ركعتين ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ أَوْ الْعَصْرَ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ : الصَّلَاةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَقَصَتْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : أَحَقٌّ مَا يَقُولُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ))

[متفق عليه]

لم تقصر ولم أنسَ ، لكن تشريعاً .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً)

كلما بلغت مرتبة ، وظننت أن هذه المرتبة جيدة جداً ، هناك مرتبة أرقى فالمغبون من تساوى يوماه ، فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، لا بد أن تلاحظ أنك في زيادة ، تنتقل من حال إلى حال ، ومن

مقام إلى مقام ، ومن استقامة إلى استقامة ، ومن إحسان إلى إحسان ، ومن قرب إلى أقرب ، لابد من الشعور بالزيادة ، فمن لم يكن في زيادة والزمن ماشٍ ، فهو في نقصان .

فالطالب الذي درس إلى الصف الثاني في الجامعة ، ولم يكمل فما زاد ، بل هو في نقصان ، لأن كل من حوله سوف يَصِلون إلى درجات عليا ، إذاً هو نقصَ عنهم ، فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، والمغبون من تساوى يوماه .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)

مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ

فإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، لا ملجأ منه إلا إليه ، وإذا اعتمدت على مالك ، فالله عز وجل قادر على أن يسوق للإنسان مصيبة لا تحلها الأموال الطائلة ، ولو اعتمدت على جاهك فهو قادر أن يسوق للإنسان مصيبة لا يحلها هذا الجاه ، أي شيء تعتمد عليه من دون الله ، فلا بد من أن الله عز وجل يكشف لك أن هذا أحد أنواع الشرك ، وأن الله عز وجل يؤدب كل إنسان اعتمد على جهة ما .

(لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ)

أيها المسلم ، لِتَكُنْ لك نظرة صحيحة : أَبْصِرْ بِهِ

أبصر به ، هذه الباء للاستعانة ، أي أبصر مستعيناً بنوره ، ولا تستضئ بنور المشركين ، ولا تنظر إلى الدنيا بمنظار الكفرة ، أن هذه الدنيا هي كل شيء ، فالسعيد فيها من كان غنياً ، والسعيد من استغل كل أوقاته في المتع ، والملذات ، وتناول أطيب الطعام ، والانغماس في كل المباهج ، لا ! لا تنظر إلى الدنيا بمنظار الكفرة ، انظر إليها بنور الله تَرَهَا دنية ، زائلة ، انظر إلى كل شيء بمنظار الله عز وجل ، بنور الله ، إذا نظرت إلى المال الحرام بنور الله تراه ناراً ، وإذا نظرت إلى المال الحرام بمنظار المشركين تراه مغنماً .

(أَبْصِرْ بِهِ)

لتكن لك رؤية صحيحة ، فسيدنا يوسف حينما دعته هذه المرأة أبصر بالله :

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ)

(سورة يوسف : 23)

ولو نظر إلى هذا العمل بمنظار أهل الكفر لرآه غنيمة لا تفوقه غنيمة .

(أَبْصِرْ بِهِ)

أي انظر بنور الله ، فإذا كنت متصلا بالله عز وجل ، عندئذ تستطيع أن تبصر به ، وتصبح لك رؤية صحيحة ، بهذه الرؤية تتخذ بها قراراً صحيحاً ، تسعد في الدنيا والآخرة .

(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ)

أيها المسلم ، استمع إلى الحق : وَأَسْمِعْ

أيضاً استمع للحق الذي من عنده ، لا تستمع إلى أقوال الناس ، وإلى أقوال المرجفين ، وإلى أقوال المشركين ، فأحياناً يسمع الإنسان أقوال الناس فيقول : لا أمل ، انفجار سكاني بالعالم ، فالمواد الغذائية قليلة ، والعالم مقبل على كارثة كبرى ، على حروب ، إنها أفكار سوداوية ، تثبط عزيمته ، وهكذا يقول لك الكفار : لا إله ، بل مواد محدودة ، تزايد سكان كبير جداً ، فالأمر من سيئ إلى أسوأ .

علاقة صحة النظر بالاطمئنان والأمل :

وإذا نظرت إلى أية أزمة ، وإلى أية مشكلة بنظر أهل الدنيا تزداد انقباضاً ، وتشاؤماً ، وسوداوية ، لكن إذا نظرت إلى أية مشكلة بنور الله عز وجل ، تقرأ الآية الكريمة :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : 97)

انتهى الأمر ، هذا وعد إلهي .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية : 21)

وإذا أصيب أحد بمرض ، ونظر إلى هذا المرض بمنظار الأطباء فقط غير المؤمنين ، يعطونه يأساً ، لا يوجد دواء ، فهذا المرض ليس له دواء ، أما إذا قرأت قوله تعالى :

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء : 80)

يدخل إلى قلبك شعاع الأمل ، والله سبحانه وتعالى عند حسن ظن عبده به ، أنا عند حسن ظن عبدي بي ، فليظن بي ما يشاء ، في كل قضية ، الزواج انظر له بمنظار أهل الدنيا ، الزواج متعه ، لذلك يجب أن تختارها جميلة ، وإلا ما أفلحت في نظرهم ، وبعد أن تختار هذه الجميلة ، تريك النجوم ظهراً،

هذه الجميلة ، عندئذ تنكر الجمال كله ، وتبحث عن المرأة الصالحة ، تنكح المرأة لجمالها ، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله ، لجمالها فقط ، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءة ، ومن تزوجها لمالها أفقره الله ، فعليك بذات الدين تربت يداك ، بزواجك إذا نظرت إلى الزواج بنور الله بحثت عن المرأة الصالحة ، وإذا نظرت في تجارتك بنور الله بحثت عن الربح الحلال ، وبقية الله خير لكم ، لم تبحث عن ربح كثير حرام ، بل عن ربح حلال قليل ، أي موضوع في الحياة إذا نظرت إليه بنور الله أخذت منه موقفاً آخر ، بنور الله .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي وابن ماجه]

يعيش ناعم البال ، فراحة البال لا تقدر بثمن ، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه ، أخذ من حتفه وهو لا يشعر ، وخذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً من أصبح وأكبر همه الدنيا ، جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له ومن أصبح وأكبر همه الآخرة ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة .

المشكلة أن تنظر إلى الشيء بنور الله ، ولن تستطيع أن تنظر إلى الشيء بنور الله إلا إذا كنت مع أهل الله ، سألتهم فأجابوك ، تنورت بهم فأناروا لك الطريق ، بحثت معهم هذا الموضوع فأعطوك حكم الله عز وجل ، لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة : 119)

كن معهم ، لا تعش وحدك ، هناك وساوس ، وسوداوية ، وشرك ، ووقوع في مزالق المعاصي ، ووحشة ، وانقباض ، الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب .

(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

عليكم بالاطمئنان فإنه لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدَاً

أي ليس مع الله جهة أخرى لها علاقة في تسيير الحياة ، لا إله إلا الله .

(وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد : 41)

حكمه قطعي .

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

معنى : مِن كِتَابِ رَبِّكَ

القواعد والأصول العامة :

بعض المفسرين أشاروا إلى أن الكلمات هنا معناه بعض الآيات القرآنية تأتي على شكل قوانين ، وقواعد ثابتة ، وأصول ، مثلاً :

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

هي أصل .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 33)

ما دام الإنسان متلبساً بالفسق فلن يؤمن ، ينحاز في أفكاره مع الكفرة بشكل أو بآخر .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

هي من كلمات الله ،

(مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : 97)

من كلمات الله أيضاً :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه : 124)

من كلمات الله :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة التوبة : 37)

من كلمات الله :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة التوبة : 109)

من كلمات الله :

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة : 80)

كلمات الله تلك القواعد الأساسية ، هذه الآيات التي تأخذ شكل قوانين علاقات ثابتة .

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا

أي ملجأً ، فلو التجأت إلى أقوى قوة في الأرض ، فلن تغني عنك من الله شيئاً ، ولو التجأت إلى مالك ، فلن يغني عنك مالك شيئاً .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

(سورة الحاقة : من 25 إلى 31)

وفي آية أخرى :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

(سورة الدخان : 49)

كنت في الدنيا تدعي أنك عزيز ، كريم ، ذق العذاب الآن .

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

آية دقيقة جداً ، الأسس التي ذكرها الله في هذا الكتاب ، ثابتة لا تلغى ، ولا تعدَّل ، ولا تبدل ، ولا يوقف تنفيذها ، ولا يضاف عليها ، ولا يحذف منها ، إنها ثابتة .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

الصبر مع المؤمنين الضعفاء الفقراء :

كن مع هؤلاء ، هذه الآية في ظاهرها موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي حقيقتها موجهة إلينا بالتبعية ، يعني أيها المؤمن :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ)

قد تجلس في مسجدٍ لتستمع إلى درس في التفسير ، طبعاً الجلوس على الأرض ، قد تُدْعى إلى سهرةٍ ممتعةٍ ، فالجلوس على أريكة فخمة ، وتتناول ما لذا وطاب ، وقد تكون هذه السهرة مختلطة ، وقد يكون فيها منكر ، وقد تكون هذه السهرة محببة إلى النفس ، وربنا عز وجل يقول :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

اجلس في مجالسهم ، وخلِّ حظك مهما قدموك وراء .

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء هم السلاطين والسادات والأمراء

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم و خلِّ حظك مهما قدموك وراء

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ)

فما أوضح أن ينطلق الإنسان من بيته ليأتي إلى مسجد ليس فيه طعام ، ولا شراب ، ولا مكافأة ، ولا تعويض ، ولا أجر ، ولا مدح ، ولا كتاب ثناء ، ولا ترقية ، لا شي ، لكن الله عز وجل هو الذي يتولى الجزاء الأوفى .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

يدعون ربهم صباحاً ومساء .

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

(سورة الفرقان : 5)

(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : 191)

يدعون ربهم دائماً .

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 41)

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

الإخلاص في العمل :

إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي .

(الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة : 14 - 15)

الإنسان أحياناً يبتغي بهذا المجيء السمعة ، له مصلحة ، إذا جاء للمجلس ليصير له زبائنُ كثيرون ، يروجون تجارته ، وكل إنسان يعلم لماذا هو هنا الآن ، طوبى لمن كانت نيته خالصه لوجه الله عز وجل .

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)

(سورة الإنسان : 9)

من علامات الإخلاص ، أن يكون الله وحده ، أو أن يكون وجه الله هو مبتغاك ، ولا مبتغى لك سواه .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

علامة أهل الحق : كثرة الذكر والإخلاص :

هؤلاء أهل الحق لهم علامتان ، يكثرون ذكر الله ، ويبتغون وجه الله ، برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله ، الإكثار من ذكر الله صباحاً ومساءً .

(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : 191)

والنية والابتغاء مرضاة الله عز وجل .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)

الحياة الدنيا زهرة ذابلة :

لا تلتفت إلى غيرهم ، لا تتجاوزهم إلى سواهم ، لا تدع مجالسهم .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الإنسان أحياناً يؤثر أن يبقى مع زوجته في غرفة دافئة ، يدير حديثاً عذباً ، يستمتع بأشياء معينة ، على مجلس علم ، الله سبحانه وتعالى هكذا يأمرك :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)

لا تتركهم ، ولا تتجاوزهم ، ولا تزهد في صحبتهم ، ولا في مجالسهم ، ولا تؤثر الدنيا عليهم ، لا تؤثر مجلساً ليس فيه ذكر الله على مجلس فيه ذكر الله ، ما من قوم اجتمعوا في مجلس لم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة ، عن أنتن من جيفة حمار ، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم]

حِلق الذكر رياض الجنة .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

إيّاك وطاعة الغافل :

إنسان غافل ، لا يصلي ، يا أخي أنا معي قرشان بالفائدة أربح ، إنه ربح مضمون !

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

أخي جاءني خاطبان لابنتي ، واحد دينه رقيق ، لكن ما شاء الله كله غني ، والثاني صاحب دين فقير ، دع هذا الفقير ، وأعط الأول .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

حياته فوضوية ، بلا قيم حياته ، وبلا انضباط ، ولا هدف ، حياته عابثة .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

معنى : أَغْفَلْنَا

معنى أغفلنا ؛ وجدناه غافلاً بالضبط ، لا تتهم الله عز وجل فلا تقل : إنه جعله غافلاً لا ، هكذا في القرطبي ، ورد :

(مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ)

وجدناه غافلاً ، وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا .

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

الغافل يتبع هواه :

المؤمن يتبع الحق ، وغير المؤمن يتبع الهوى ، فإما أن يقودك الهوى ، وإما أن تقوده ، ونفسك إما أن تسيرك ، وإما أن تسيرها ، إما أن يكون العقل رائدك ، وإما أن يكون الهوى رائدك .

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

(سورة الفرقان : 43)

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

هؤلاء :

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

أما هؤلاء فقد :

(أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

الإنسان مخير .

(وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

الحقيقة :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

الإنسان مخيَّر :

المؤمن مخير .

(وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

لكن للكفر جزاء ، وللإيمان جزاء ، أنت هنا مخير، لأنك في دار التكليف ، أما أنه لابد له من يوم الجزاء ، من يوم الدين استمعوا إلى يوم الدين .

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)

جزاء الكفار : نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا

معنى السرادق :

السرادق في الأساس سقف في فناء الدار ، سقف فقط ، مكان محميٌّ من الشمس ، هذا هو السرادق ، أما في هذه الآية فالسرادق هو الدخان الذي يعلو لهيب النار ، فلو نظرت إلى فرن يستخدم وقوداً غير الوقود السائل فسحابة من الدخان الكثيف تعلو جو الفرن ، وهذه السحابة من الدخان الكثيف هي السرادق في النار .

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)

ماء مغلي .

(بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)

هذا إذا ظلم الإنسان .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً

واللهِ لزوال الكون أهون على الله من أن يضيع على مؤمن عمله الصالح البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت ، اعمل كما شئت كما تدين تدان .

هناك شاب ناشئ جمّد مبلغ ثمانية آلاف ليرة ، والده فقير ، ووالدته أصيبت بحادث ، تحتاج إلى مبلغ لإصلاح أسنانها ، وقد هيأ مبلغه ذاك الزواج ، فلما رأى أمه هكذا ، أنفق المال كله من أجل معالجة أمه، وبعد سنوات عدة ، بقدرة قادر هيِّئ له منزل ، وفرش هذا المنزل ، وزوجة ، قلت : سبحان الله ، كل هذا العطاء لأنه فادى بماله من أجل أمه

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

أحدهم مد سجاداً بالمسجد ، وآخر نظف مسجدًا ، وثالث قدم شيئاً لمسجد ، ورابع هدى إنساناً ، سهر معه سهرة ، فعاونه ، وأقرض مبلغاً من المال ، يا أخي نقصت قيمة المال ، أقرضناه بكذا ، صار بكذا، ربع المبلغ نقص بعد ما رده لي .

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة : 245)

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ليس الخبز وحده يحيي الإنسان ، وليس الربح كله مالاً ، لو أقرضت إنساناً وبعد فترة فالقيمة الشرائية لهذا المبلغ تناقصت ، فهل خسرت أنت ؟ في نظر أهل الدنيا خسران ، يقولون : إنه أحمق ، أقرضَ أمواله ، ولما استردها راح نصف قيمتها .

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ثق بالله عز وجل ، إذا كنت مع الله عز وجل فلن يخلف وعده معك .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)

إنك لا تعرف قيمة هذا الاتجاه استقامتك ، وتحريك للحلال ، وخوفك من الله ، وفهم كتاب الله ، وتطبيق كتاب الله وحضور مجالس العلم إلا بعد أن تحس أنك فزت في الدنيا والآخرة ، أي فزت بسعادة الدارين .

لذلك كان الإنسان مخيرا .

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

لكن :

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)

أما المؤمنون :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً)

ربنا عز وجل يعجب ! يقول :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم : 35)

وهل من المعقول لمسلم مستقيم ، له استقامته ، له عمله الصالح ، له فهمه للدين ، أيعقل أن يُعامل كما يُعامل المجرم المنحرف العاصي ؟!!

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الأنعام : 136)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 32 – 49 ، الأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأرباب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-11-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الخامس من سورة الكهف ، وقد أنهينا في الدرس الماضي قصة أصحاب الكهف ، وقد استُنبط من هذه القصة أن الإنسان يجب أن يؤثر الحق على الباطل ، والآخرة على الدنيا، ورضاء الله عز وجل على إرضاء الناس .

فهؤلاء الذين آثروا ما عند الله أكرمهم الله عز وجل ، وأثابهم في الدنيا وفي الآخرة ، وننتقل اليوم إلى قصة صاحبيّ الجنة .

قصة صاحب الجنتين :

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)

قد يكون هذان الرجلان حقيقيين أو مفترضين ، ليست العبرة في وقوع القصة ، بل في مغزاها ، يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ)

أي اضرب لأصحابك المؤمنين ، وللناس غير المؤمنين :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ)

منزلقات انفتاح الدنيا من أوسع أبوابها :

تأتي الدنيا لبعض الناس من أوسع أبوابها ، هذا يتفوق في عمله ، وهذا يجمع ثروة طائلة ، وهذا يعلو في مراتب القوة ، إلى أن يصبح من الرجال القلة الذين يشار إليهم بالبنان ، وهذا يمتلك أملاكاً عريضة، فمجال التفوق في الحياة متنوع ، هناك تفوق مادي ، وتفوق مالي ، وتفوق علمي ، وتفوق من حيث القوة .

فما الذي يحصل حينما تأتي الدنيا للإنسان من أوسع أبوابها ؟ هناك منزلق خطير ، وهو ، أن يظن الإنسان أنه استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه بذكائه وخبرته ، ودهائه ، وحكمته ، وعلمه ، وبراعته،

وكياسته ، وحذلقته .

المنزلق الخطير ، عندما تأخذ شهادات عالية ، أو تملك أموالاً طائلةً ، أو ترقى في نظر الناس ، إلى رتب جيدة ، ثُمَّ يتوهم أن ما حصلته إنما كان بسبب من الذكاء ، والخبرة ، والحكمة ، والعلم ، تنزلق إلى الهاوية حين يغيب عنك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك ذلك ، وسمح لك به ، وأنه لا يقوم شيء على وجه الأرض إلا بإذنه ، وعندما تتوهم أن ما حصلته كان من عملك ينطبق وهمُك على ما قال قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : 78)

وهكذا قال فرعون :

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الزخرف : 51)

ولِذا يُعطينا ربنا عز وجل درساً بليغاً ، ربما تكون قصة أصحاب الكهف نادرة الوقوع ، فهي كرامة لأصحاب الكهف ، ولكن هذه القصة التي نحن بصددها تتكرر في اليوم آلاف المرات ، إنها قصة الإنسان حينما ينجح ، ويعلو ، ويتفوق ، إنها قصة أصحاب الحظوظ ، قصة الأغنياء قصة الأقوياء ، قصة الأصحاء ، قصة الذين يشار إليهم بالبنان ، هؤلاء الذين حصّلوا الدنيا من أبوابها العريضة ، أمامهم منزلق خطير ، وهو أن يعتقدوا أنه أتيح لهم ذلك بذكائهم وعلمهم وخبرتهم .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)

جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ

لِنُدقق في كلمة (جعلنا)، الله هو الذي جعل لهم ذلك ، فالله هو الفعّال ، وليس المقصود فقط أن يكون الإنسان صاحب بستانٍ نضير ، ولكن المقصود حينما يتاح له أي شيء من الدنيا ، فهذه القصة تنطبق على أصحاب البساتين ، والعمارات ، والأراضي ، والمكانة ، وعلى أصحاب الرتب في الدنيا ، وعلى كل من يتوهم بيده أمر بعض الناس .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ)

الأعناب فاكهة محببة .

وحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ

ومعنى(حفّه)؛ أي أحاط به .

جعل الله لهذه الجنة سوراً من أشجار النخيل ، تجملها ، وتحسنها ، وتدر على صاحبها خيرات حِساناً .

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا

أي أنَّ في هاتين الجنتين ما لذَّ ، وطاب من الزروع ، والخضار ، والفواكه ، والثمار ، والأعناب ، والنخيل .

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً)

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا

كان المحصول جيداً ، وفي حده الأقصى ، فحملت الثمار اليانعة ، بمواصفات عالية ، وكان ثمنها أموالاً طائلة ، قد يقول لك : أنا اعتنيت ، واستعملت الدواء الفلاني ، واستعنت بمهندس زراعي خبير ، واستخدمت البذور الهجين ، فعلت كذا ، وكذا يثني في الحديث على خبرته ، وذكائه ، وماله الذي أنفقه على هذا البستان حتى أصبح جنة نضرة .

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً)

وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا

وفوق هذا وذاك يسيل الماء ، نهراً بين هاتين الجنتين بمياهه العذبة ، فيُحيي الأرض بعد موتها ، إنهما بستانان عظيمان ، فيهما من أشجار الفاكهة ، ومن النخيل والأعناب ، والرمان ، ومن الخضار ، والفواكه ، والمحاصيل ، وفيهما مياه غزيرة .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ)

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ

في بعض التفاسير ، أنه كان لصاحب هاتين الجنتين أموال أودعها في جهات أخرى ، تدر عليه أرباحاً طائلة ، هذا الإنسان ذكي نجح في أعمال أخرى ، بالإضافة إلى أنه نجح في هذه الجنة ، ولكن هذا

الرجل كان مُشركاً ليس بالمعنى الذي يعرفه الناس ، حين يدعي أن هناك إلهاً آخر ، ولكنه الإشراك العملي ، الشرك الخفي ، شرك الأسباب .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ)

إنها فتنة عظيمة : التكبُّرُ على الناس : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا

حين يعتني الإنسان ببيته ، وبستانه ، ويركب مركبة فخمة ، تتشكل عنده رغبة ظالمة ، جانحة ، أو آثمة ، أن يطلع على هذا أصدقاؤه ، ولا سيما المحرومين ، ليزيدهم شعوراً بالحرمان ، فقال لصاحبه بصراحة وبوقاحة :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

هذا الذي يذهب إلى بلد أجنبي ، ويعود ليقول لك : لقد أنفقت في هذه الرحلة ثلاثمئة ألف ليرة ، كأنه يقول : أنا أكثر منك مالاً ، وإذا جلس إلى مهنئيه بسلامة العودة ، وكلهم من أصحاب الدخل المحدود ، وبدأ يقص عليهم أين نزل ، وكيف أكل ، وأين تنزه ، وكم كلفته هذه الرحلة ، كأنه يقول لهم بصراحة وبوقاحة :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

يا أيها الأخ الكريم ، لا ينبغي لك أن تتباهى في الدنيا ، لأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

قال : عندي أموال طائلة ، لا تأكلها النيران ، وعندي أولاد أشداء ، دخل في وهمه هنا أن هذا بسبب من ذكائه ، وخبرته ، واحتياطه ، وأنه أعد لكل شيء عدته ، وأنه واجه الصعاب بخبرة عميقة ، وحصل على هذا النجاح بفضل ما أوتي من قوة .

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

من هيئات المتكبرين : وَدَخَلَ جَنَّتَه وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ :

ظلم نفسه ، وظلم عقله ، وأي ظلم أشد من أن توهم نفسك بشيء أنت بعيد عنه ، هذا ظلم شديد ، ظلم نفسه حينما أشرك الأسباب مع الله عز وجل ، فجعل الأخذ بالأسباب استغناءً عن رب الأرباب ، يدخل في هذه الآية من يقول : استغنينا عن رحمة السماء ، لقد ظلم نفسه ، كما أنه يظلمها من يقول : أنا أنهيت الفقر دائماً ، كلما وقعت في حال من أحوال أهل الشرك ، فقد ظلمت نفسك ظلماً كبيراً .

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً)

الشعور بالتفوق وطول الأمل :

أحياناً يخالج الناجحين في الحياة شعور أنهم تفوقوا دائماً ، وأن الحياة لن تزيدهم إلا غنىً ، وأن مرور الأيام لن يزيدهم إلا علواً في الأرض ، وأن هذه سنة الحياة ، هم من أصحاب الحظوظ ، وسواهم قد حرم هذا الحظ .

سيطر عليهم الشعور بالتفوق المستمر ، حتى لو أنني مت لسوف أبقى في تفوق مستمر ، ولسوف ألقى في الآخرة حياة رغيدة كهذه الحياة ، هذا من نوع الجهل ، هذا تفاؤل أبله ، ومن أدراك أنك بعد الموت ستلقى حياة رغيدة كهذه الحياة ، " سَمِعَ النبي عليه الصلاة والسلام أحد أصحابه الكرام وقد رأى جنازة، سمعه يقول استراح ، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام وقال ما معناه : ومن أدراك أنه استراح ؟ إنما يستريح من غفر له " ، ربما بدأت متاعبه بعد الموت .

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً)

ظنَّ أنه نجح نجاحاً دائماً ، في الدنيا وفي الآخرة ، وكأن الآخرة امتداد للدنيا ، وكأنَ الذين نجحوا في الحياة الدنيا ضَمِنوا نجاحهم يوم القيامة ، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة : 1 - 3)

النجاح الحقيقي : إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ

قد يرتفع من كان في أدنى السلم الاجتماعي ، إلى أوج المكانة العلية ، ومن كان في أوج المكانة الاجتماعية قد يهوى إلى أسفل سافلين.

كان صاحبه من المؤمنين ، الذين يعرفون حجمهم الحقيقي ، والحقيقة أن المؤمن في الحياة من عرف حده فوقف عنده .

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

يا أيها الإنسان لو عرفت أصلك ما تكبَّرت !!!

كيف تغافلت عن خالقك ، الذي ساق هذه النعم إليك ؟ إنه هو الذي سمح لك أن يكون لك جنتان ، هو الذي منحك هذا الفضل ، هو الذي ملكك هذه الجنة ، بيده الأمر ، إنك حينما تقول أنا أكثر منك مالاً ،

وأعز نفرا ، حينما تعتز بذكائك ، تكون قد تغافلت عن رب الأرباب ، الإله الواحد القهار ، القهار الذي بيد ملكوت كل شيء .

كنت مرة في مكان عام ، وجدت طفلاً صغيراً يتحرك ، ويركض بين الناس ، وقد وضعت له فوط ، فأصبح وسطه كالكرة ، قلت : سبحان الله !!! إذا كبر هذا ، وصار شخصية مهمة ينسى أنه كان في هذه الحال ، لو عرف الإنسان أصله ما تكبر ، هذا الذي يعطيه الله مالاً ، أو قوة ، أو جمالاً ، أو غِنىً ، ينبغي ألاّ ينسى الماضي ، يوم كان ضعيفاً فقيراً ، مقتراً عليه في الرزق ، محروماً ، لقد خلقك من تراب .

(خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا)

أنت من نطفة قذرة فلِم التكبر ؟!!

يخرج في اللقاء الزوجي ثلاثمائة أو أربعمائة مليون حيوان منوي ، وأحد هذه الحيوانات يلقح البويضة التي تنقسم ثم تنتقل إلى الرحم وعندها يبدأ تخلقها من مضغة إلى علقة ، ثم إلى عظامٍ ، ثم تُكسى العظام لحماً ، وهكذا إلى أن يحين وقت الولادة .

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)

(سورة عبس : 17 -23)

لذلك : بئس العبد عبد سها ولها ، ونسي المبتدى والمنتهى ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ، ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد طغى ولها ، ونسي المقابر والبلى .

(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

ذكرت اليوم في الخطبة أن انفجاراً تم في بعض المجرات ، وكان طول لهيب الغاز المنتشر بسببه مئة وأربعين ألف مليون مَليون كيلو متر ، وأن هذا الانفجار تعدل قوته واحداً وأمامه عشرون أو ثلاثون صفراً من قوة القنبلة الهدروجينية ، إن الله هو القوي .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيعُ

(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

يجب أن يكون الإيمان في قلبك دائماً ، فلا تنسَ الذي خلقك من تراب ، يجب أن تطيعه ، وترجوه ، وتدعوه .

(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمالاً لغير الله))

[ابن ماجه عن شداد بن أوس بسند فيه ضعف]

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ

إذا دخلت الجنة ، يجب أن توحد ، وأن تقول : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، يفقد الإنسان في ثانية واحدة كل شيء ، فلو فقد ذاكرته أودع في مستشفى الأمراض العقلية ، ولو تجمدت نقطة من الدم في بعض شرايين الدماغ فإنه يفقد ذاكرته ، ويفقد المحاكمة ، وينسى ، ويودع في المستشفى ، أين بيته، ومركبته ، وزوجته ، وأولاده ، ومتجره ، أين نزهاته ؟ وسهراته ، وحفلاته أين هذه ؟ طويت كلها ، يُصبح الإنسان في لحظة من أهل القبور ، أو يصبح مشلولاً إثر إصابته بحادث ما ، يجب أن لا ينسى الإنسان فقره إلى الله .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ)

إذا كان للإنسان بيت فخم ، فيه غرف عديدة ، غرفة نوم ، وجلوس ، وضيوف ، ومطبخ ، وحمام ، وله زوجة ، وأولاد ، يجب ألاّ يأخذه التيه ، والعجب أنه حصّلَ هذا البيت بذكائه ، وشهاداته العليا ، ودراساته العالية ، واهتمامه بالتجارة .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ)

قُل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، إياك أن تغفل عن مشيئة الله ، فهي كل شيء ، كما ورد في الحديث القدسي أن الله قال لداود عليه السلام :

<< أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد ، كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد >>

[نوادر الأصول للحكيم الترمذي(107/2)]

إذا كان الإنسان يركب طائرة ، وشعر أن لهيباً قد خرج منها ، وأنها تحترق تتلاشى كُل آماله العريضة، وتجارته الواسعة ، وحظوظه الكبيرة ، فالإنسان ضعيف ، قد يموت بأتفه سبب ، فإنسان في أوج نجاحه المادي ، لسبب تافه صار من أهل القبور بعد أسبوعين .

(شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً)

توزيع الحظوظ الدنيوية ليس نهائيًا : إنْ تَرَنِ أنَا أقلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا

إن توزيع الحظوظ ليس نهائياً ، فالناس فيهم القوي ، والضعيف ، وفيهم الصحيح ، والمريض ، وفيهم الغني ، والفقير ، وفيهم صاحب الشأن ، ومغمور الشأن ، فتفاوت الحظوظ هذا في الدنيا ، هو تفاوت ابتلاء ، وتوزيع ابتلاء ، وبعدئذٍ يكون توزيع الجزاء ، فالغني يصبح فقيراً ، والفقير قد يصبح غنياً ، والقوي ضعيفاً ، والضعيف قوياً ، والعزيز ذليلاً ، والذليل عزيزاً ، وصاحب المكانة العلية يغدو ذا مكانة منخفضة .

(إنْ تَرَنِ أنَا أقلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فعَسَى رَبِّي أنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً)

لا يكون الأمر مستمراً هكذا دائماً ، بل ربما كان هذا الوضع موقتاً إلى أمد قصير ، إنَّ توزيع الحظوظ في الدنيا ليس أبدياً ولا سرمديّاً ، بل ربما تغيّر في الدنيا قبل الآخرة ، وسيتغير في الآخرة قطعاً ، لأنَّ الآخرة دار الجزاء .

حينما يعتدي الإنسان ، ويطغى ، ويعلو على الناس ، لا يدري أنَّ البساط سوف يُسحب من تحته ، ويشد له الحبل فيقع بين عشية أو ضحاها في شر عمله .

إنسان في أعلى مرتبة اجتماعية خلال أيام أو ساعات دخل ليحاكم ، والقيد بيده ، أمام الناس عامة ، وبعدئذ مات قهراً .

(ولَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ إنْ تَرَنِ أنَا أقلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فعَسَى رَبِّي أنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً)

احذرْ ـ أيها الإنسان ـ أن تدور عليك الدائرة :

توفي أب ، وترك ولدين ، فاعتدى الكبير على الصغير ، وأخذ نصيبه من الإرث ، ربما قوّى سبحانه وتعالى الصغير بحكمة بالغة ، وأعطاه مالاً ، وأفقر الكبير ، واضطره أن يبيع كل أمواله للصغير ، ثُمَّ عَمِلَ عنده أجيراً ، وربنا عز وجل على كل شيءٍ قدير .

قالت امرأة لضرتها العاقر لِتُغيظها : هذا ابن على يدي ، وفي بطني ولد ، وعلى الأرض ولد ، ومُوتي قهراً ، مات الأولاد الثلاثة خلال سنوات عِدة ، وأكرم الله سبحانه وتعالى هذه الضرة فأنجبت ثمانية أولاد ذكور .

طَرَقَ فقير باب إنسان ، فقامت زوجته لتعطي الفقير شيئاً من اللحم الذي يأكلانه ، فنهرها ، ووبخها ، فطردت السائل ، ثم نشب خلاف بين الزوجين إلى أن وقع الطلاق ، ثُمَّ خطبها إنسان آخر غني ،

وعاشا في بحبوحة ، ويوماً طُرق الباب ، فذهبت الزوجة لتفتح الباب فإذا هي تعود مضطربة ، قال لها زوجها : ما القصة ؟ قالت سائل يسأل ، قال : لماذا اضطربت ؟ قالت : أتدري من السائل ؟ إنه زوجي الأول ، قال : أتدرين من أنا ؟ إنني السائل الأول .

فالله عز وجل قادر على قلب الميزان ، فقد يُصبح من هو في أعلى مكان بين عشية وضحاها في أسفل مكان ، الغني يفتقر ، والفقير يغتني .

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً)

يُكتب على بعض الأبنية " ما شاء الله " ، ولهذا أصل في كتاب الله ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فإذا دخل أحدنا إلى بيته أو متجره ، أو ركب مركبته ، أو شاهد أولاده ، أو زوجته ، فلا يتوهم أنه حصّلَ هذا بذكائه ، فليوحد ، وليشكر الله عز وجل على أنه أولاه هذه النعم .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا ، وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ))

[مسلم]

وكان إذا خرج من الخلاء يقول :

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى فيّ قوته ، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند ضعيف]

هناك إنسان يتغذى بالمصل لمرض أصاب جهازه الهضمي مثلاً ، فهو يتألم ألماً شديداً ، وكان إذا ارتدى ثوباً جديداً يشكر الله عز وجل ، وكم ممن لا يستطيع أن يشتري ثوباً جديداً .

(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً)

أصابت الزلازل كثيراً من البلاد ، فأصبحت أثراً بَعد عين ، بناء ضخم ، فندق شهير جداً في مدينة على شاطئ الأطلسي أصابها زلزال ، وخلال ثلاث ثوان نزلَ ثمانية عشر طابقاً ، ولم يبقَ من الفندق الضخم إلا اسمه الذي كان في الطابق الأخير ، فأصبح على مستوى الأرض .

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً)

مِن يأتيك بالماء إذا غار في الأرض ؟!!!

يحفر أحدهم بئراً فيقول : عندنا حفرنا خمسة أمتار فوجدنا المياه ، هي حفارة ممتازة ، لكن هذا فضل الله عز وجل ، وأحياناً تشح مياه الآبار ، فيقول : بقي لدينا نصف متر فقط ، ثُمَّ تأتي الأمطار الغزيرة فتملأ الآبار ، فهذا من فضل الله عز وجل .

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً)

أصابت موجة جفاف بعض بلدان إفريقيا منذ عدة سنوات تبيّن الصور التي التقطت أنَّ الحياة توقفت فالغابات يبست ، والأبقار والأغنام ماتت جوعاً .

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

(سورة الذاريات : 58)

تجد فيما يحيط بنا من بلاد بلداً كان في أوجه ، ثُمَّ أذاقه الله الخوف والجوع بما كانوا يصنعون .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

وفعلاً :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ)

هذا ما حدث لصاحب الجنتين حين كفر فاعتبروا يا أولي الأبصار :

بستان لا يقبل صاحبه أن يُضمّنه ولا بخمسمائة ألف جاءت موجة صقيع فأتلف كل الثمر ، هذا هو المشرك .

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ)

يقول لك المزارع : كلفني الدواء ثلاثين ألفاً ، والتسميد عشرة آلاف ، واليد العاملة كذا ، والفوارغ ثمنها كذا ، وكل هذه الأموال الطائلة ، دفعها ولم يجن منها شيئاً .

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)

هذا هو منظر الحزين ونتيجة الدمار : يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ

منظر الدمار مخيف ، فبستان محترق ، وأشجار يابسة ، وعين جافة ، فمنظر الجفاف ، أو القحط يبعث في النفس الأسى .

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً)

جاء هنا أن صاحب الجنتين قد أشرك بالله ، وهو ليس الشرك الأكبر ، لأنه لم يقل : هناك إله مع الله ، ولكن كان شِركهُ حينما اعتمد على الأسباب وحدها ، ونسي رب الأرباب ، اعتمد على الأسباب ، جعل لِكل شيء حساباً وسبباً ، في غفلة عن رب الأرباب ، وعن أن مشيئته هي القاهرة ، وهي الحاكمة ، هذا هو الشِرك .

(وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ولات ساعة مندَم !!!

إذا أراد الله عز وجل أن يؤدب مخلوقاً صرف عنه الناس جميعاً ، ولو أنه كان مستقيماً على أمر الله لنصره الله عز وجل ، أو لخفف عنه ، لكنه كان بعيداً عن الله عز وجل في أيام الرخاء .

ولذلك ابن آدم ، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة ، أكثر الناس ينسون الله عز وجل في الرخاء ، ويتيهون في الأرض ، ويمرحون ، ويلعبون ، وكأنهم خلقوا ، ولن يموتوا .

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ)

الولاية لله الحق فهو خير ثوابا وعقبا :

هو الولي إن تخلى عنك فمن يبقى لك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، ليس معك أحد .

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً)

حينما يكون الإنسان مع الله عز وجل ، تكون حياته في رقي دائم ، وخطه البياني في صعود دائم ، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له ، ولن يكتب الله له إلا الخير .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

علاقة هذه الآية بالقصة قبلها :

ما علاقة هذه الآية بهذه القصة ؟ إنها علاقة متينة ، فهؤلاء الذين اعتمدوا على الأسباب ، ونالوا الدنيا من أوسع أبوابها ، وتاهوا بها ، وفرحوا بها ، لابد من أن تزول عنهم هذه الدنيا لأنها ليست دائمة .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : 44)

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاه مِنَ السَّمَاءِ

هطلت أمطار غزيرة ، فأنبتت مزروعات كثيفة ، ومعطاءة ، وخيّرة ، بعد أن نضجت هذه النباتات يبست ، فأصبحت تذروها الرياح ، وهكذا الدنيا ، فلا بد من بداية مشرقة ، لكن نهايتها محرقة .

(فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

هذه قدرة الله : فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ

يكون الإنسان في الشباب في أوج نشاطه وقوته ، ولكنه بعد الأربعين يميل إلى الراحة والجلوس ، فلا يحب الإسراع في المشي ، إذ يشعر بآلام في أنحاء مختلف من جسده ، فالخط البياني بدأ بالهبوط .

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

نصيحة ربّانية : المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاة الدُّنيَا :

هذه نصيحة من الله عز وجل ، الأولاد من دون مال مصدر ألم ، فهم يحتاجون إلى غذاء ، ودواء ، وكساء ، ومصروف ، والمال غير موجود ، والمال بلا أولاد أيضاً مشكلة كبيرة ، ويتقطّع قلب أبيهم فرقاً لعدم وجود من يستفيد منه ، ويرثه فيما بعد ، قال ربنا عز وجل :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

ما هي الباقيات الصالحات ؟

ليس القصد أن تقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، بل القصد أن تسبح ، وتكبر ، وتوحد ، وتحمد ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أي إذا سبحت في ملكوت السماوات والأرض ، سبحت نفسك في عظمة الله ، ونزهّت الله عمّا لا يليق به ، وكبرته كلما ذكرت شيئاً من كماله قلت : الله أكبر ، الله أكبر مما أرى ، ومما أعرف عن الله عز وجل ، كلما خطر في بالك ، فالله بخلاف ذلك وهو أكبر من ذلك ، وهو العلي القدير ، فهذا هو التسبيح و التحميد والتهليل والتكبير .

إذا عرفت الله عرفت عظمته ، ونزهته عما سواه ، وعرفت وحدانيته ، وعرفت فضله ، وحمدته ، وسبحته ، ونفيت عنه كل نقص ، وكبرته فعرفت أنه لا نهائي ، ووحدته فعرفت أن لا إله إلا الله ، أي

يجب أن توحد الله ، ويجب أن تحمده ويجب أن تنزهه ، ويجب أن تكبره ، فهذا معنى :

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً)

مِن مَشاهِدِ يوم القيامة :

1 - تسيير الجبال وبروز الأرض والحشر :

حينما تنتهي الحياة ، وتسير الجبال ، ويأتي الحشر والحساب .

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا)

2 – عرضُ العباد على الله صفوفا :

صفاً أي نسقاً ، لا رتلاً ، صفاً ، ما من أحد يختبئ خلف الآخر .

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً)

3- حشر العباد عراة كما خلقهم الله :

يمكن أن يكون حول الإنسان في الحياة أشخاص مهمون ، له أهل ، وأولاد نجباء أي له جماعة قوية ، أو هو قد ينتمي إلى جماعات قوية وغنية ، ولكن هذه الانتماءات كلها لا تقدم ولا تؤخر شيئاً يوم القيامة.

(جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

يُمكن أن يكون للإنسان في بلده أقارب ، ومعارف ، وأصحاب ذوو نفوذ يتصل بهم بالهاتف فينجدونه إذا وقع في مشكلة ما ، فيخرج من السجن بسند كفالة مثلاً ، أمّا في الآخرة فلا شيء من هذا القبيل .

(جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً)

زعمتم أن هذه الدنيا هي كل شيء ، ولا شيء بعد الحياة .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

4 – نشرُ الكتب والدواوين :

أي يفتح كتاب الأعمال ، مثلاً إذا كان لمؤسسة مدير عام ، صارم ، وطلب إضبارة موظف ليُحاسبه ، وفيها احتيال ، وكتب توبيخ ، وعقوبات ، وتقرير ، ومشكلات ، وهناك في حقه تهمة ، فسيكون حساب هذا الموظف عسيراً .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

احذَرْ ـ أيها العبد ـ فإن كتابك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

كل أعمال الإنسان مسجلّة ، كسبه للحرام ، ومخاتلته للناس ، وظلمه لهم ، غرر بامرأة في شبابه ، فجعلها تسقط ، وجعلها امرأة بغياً طوال حياتها ، واحتال على شريك له ، وأخرجه من المحل ، فجعله فقيراً ، وحين قسم الإرث مع إخوته ، سيطر على الضِعاف منهم ، وأعطاهم أقل الأشياء ، كُل ذلك مُسجّل ، فنظرته مُسجّلة ، وعندما كان الشباك مفتوحاً ، ورأى جارته ، حركاته ، سكناته ، استماعه لما لا يرضي الله عز وجل ، غيبته ، نميمته ، فحشه ، بذاءته ، مزاحه الرخيص ، ضربه لغلامه أكثر مما يستحق ، شراسته مع زوجته ، تلصصه على بيوت الجيران ، كذبه في اليمين ، غشه في البيع ، كل ذلك مسجل ويا لها من مصيبة .

فيجب أن يتأكد كل إنسان أنَّ له عند الله عز وجل كتاباً يحوي كل أعماله الصغيرة والكبيرة ، بنص هذه الآية .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

مغزى هذه القصة :

وفي خاتمة هذا الدرس ، أذكركم بمغزى القصة :

1 - إن الله هو الرزاق :

إذا نال الإنسان حظاً من الدنيا ، وتوّهمَ أنه حصّل هذا بذكائه ، وخبرته ، وعلمه وحنكته ، فقد أشرك بالله ونسي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تفضل به عليه ، وأنه لولا أن الله شاء له ذلك لما كان ما كان.

2- إياكم وشرك الأسباب :

المزلق الخطير الذي ينزلق به أصحاب الحظوظ في الدنيا هو ظنهم أن الأسباب التي اتخذوها هي وحدها أوصلتهم إلى ما هم فيه ، عندئذ يستحقون التأديب من الله عز وجل ، والتأديب أن يتلف الله ما عندهم لكي يعرفوا أن الله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين ، فالشرك هنا شرك الأسباب يجب أن تتخذ الأسباب ، وتعتقد أن الله هو الذي شاء لك ذلك ولو لم يشأ لم يكن ، فلا يمنع إيمانك أن مشيئة الله عزّ وجل هي وحدها النافذة ، ومشيئة الله عزّ وجل من الأخذ بالأسباب ، ولكنك إذا اعتمدت على الأسباب وحدها فقد أشركت هذه الأسباب مع رب الأرباب ، فلذلك إذا كان الإنسان على شيء من الصحة ، وإذا كانت أعضاؤه كلها سليمة فهذا ليس بعنايته بصحته فقط بل هذا بفضل الله عز وجل ، بدأ من صحته وأجهزته ، وزواجه وأولاده ، وبيته ، وعمله ، كل شيء تتمتع فيه هو من فضل الله عز وجل ، فإذا كنت كذلك فالنعم تدوم ، وبالشكر تدوم النعم .

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد : 11]

وفي اللحظة التي تنسى أن هناك إلهاً عظيماً شاء لك هذا الخير ، وأنتَ تعزو هذا الخير إليك ، فعندئذ يأتي التأديب ، وتأديب الله سبحانه وتعالى ، تأديب قاسٍ لأنَّ الله عز وجل يقول :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : 12]

فهذا الذي قال : هذه جنتي .

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

3- ليس من صفات المؤمن الافتخار والتكبر على الآخرين :

أيضاً ليس من صفات المؤمن أن يفتخر ويتبجّح ويطلع الآخرين المحرومين على ما عنده كي يزيد الشعور بالحرمان ، ، لا ينبغي أن تعرض على الناس ما عندك ، ولا ينبغي أن تعرض عليهم دنياك العريضة ، ينبغي أن تقتصد في ذلك ، وأن تطيب قلب الناس ، وأن تلفتهم إلى الله والدار الآخرة ، لا أن تحببهم في الدنيا .

هذه قصة تُكرر كل يوم آلاف المرات ، فهذا الذي يتبجح بمصروفه ، وبرحلاته ، وبأرباحه السنوية ، هذا ليس من أهل الإيمان المؤمن يفخر بعلمه ويفخر بخلقه ، ويفخر بما له من مكانة عند الله عز وجل ، فهذه قصة فيها موعظة بالغة .

شيء آخر :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

4 – وجوب شكر الله وحمده على نعمه وتنزيهه عما لا يليق به :

الإنسان يتعلّق بالألفاظ ، فيجب أن تكون مكبراً لله حامداً لله ، موحداً لله ، منزهاً لله ، إذا نزهته وحمدته، وكبرته ، ووحدته فقد عرفته ، " ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء ".

ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يؤتهِ من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 50 – 59 ، لطائف الإنعام وسلاسل الامتحان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-11-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بالقصتين الماضيتين :

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من سورة الكهف ، وقد مرَّ بنا في هذه السورة قصتان ، القصة الأولى تتحدث عن أصحاب الكهف ، وكيف أنهم آثروا رضوان الله عز وجل على الدنيا العريضة ، وكيف أن الله حفظهم ، وتولاهم ، وأكرمهم في الدنيا والآخرة ، وكيف أن مبدأ الهدى أن يختاره الإنسان ، وعندئذٍ تأتيه الزيادات من الله عز وجل .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

والقصة الثانية : قصة الشرك ، شرك الأسباب ، وهو أنَّ الإنسان إذا نجح في حياته الدنيا ، نجح في تجارته ، أو صناعته ، أو زراعته ، أو مشاريعه ، أو درجاته العلمية ، أو أي نجاح كان ، فقد يعزو هذا النجاح إلى قدراته الذاتية ، وإمكاناته ، وذكائه ، فيستحق عندها التأديب من الله عز وجل ، وهو يستحقُ التأديب والتربية ، لأنه مؤمن يعترف بالله خالقاً ومُربيّاً ، والدليل قوله تعالى :

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي)

لكنه قال :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي)

(سورة القصص : 78)

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)

فجزاء الاعتداد بالذات التأديب .

واليوم ننتقل إلى قصة ثالثة ؛ قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه رحمة ، وعلماً، وقبل أن نصل إليها لابد من آيات ربما استغرقت الدرس كله ، أو بدأنا بأولها إن شاء الله تعالى . وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

قد يسأل سائل : ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟ لأن آيات القرآن الكريم مترابطة ، والدليل :

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)

(سورة هود : 1)

الآية التي قبلها :

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ)

الحشر ... والعرض ... والكتاب ...

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

كل عبد يُحشر معه كتاب فيه أعماله :

مرَّ بنا في درس العقيدة في يوم الأحد ، أن المؤمن يأخذ كتابه بيمينه ، وأن الكافر يأخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره .

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه * يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه(.

(سورة الحاقة : من 19 - إلى 29)

وقد ورد في بعض كتب العقيدة استناداً إلى بعض الآيات الكريمة أن الإنسان حينما يأخذ كتابه يُصاحبه معه الملك الذي كتبه ، فإذا أنكر فيه شيئاً فالمَلَك الذي كتبه يشهد عليه بالحق .

وورد أيضاً أن الذي يتلقى كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره لو أنه أنكر ما فيه بلسانه عندئذٍ :

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس : 65)

فكاتب الكتاب واقف مع الكتاب شاهد ينطق بالحق ، إذا كَذَبْتَ ، أو إذا كَذَّبْتَ هذا الشاهد ، فإن الفم سوف يختم عليه ، وسوف تنطق الجوارح ،

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .)

(سورة فصلت : 21)

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

من هنا يأتي قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7)

قال بعضهم : لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت الناس جميعاً ، وحينما وعظ النبي عليه الصلاة والسلام أحد الأعراب الذي قال له : يا رسول الله عظني وأوجز ، تلا عليه قوله تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه)

(سورة الزلزلة : 7)

قال : قد كفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقُه الرجل ، لم يقل فقِه ، قال : فقُه ؛ أي أصبح فقيهاً .

أيها الإخوة الأكارم ؛ العلاقة بين الآيتين هي أنه بعد أن ذكَرَ الله عز وجل الموقف الصعب ، والذليل ، والمخيف ، والعصيب الذي يقفه العصاة يوم القيامة ، حينما يفتح الكتاب لينطق هذا الكتاب بكل أعمالهم، صغيرها وكبيرها ، عندئذٍ ذكَّرَ الله عز وجل بني آدم كيف أخذ عليهم العهد ألا يعصوه ، وألا يستجيبوا للشيطان .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)

ما نوع سجود الملائكة لآدم ؟

أيها الإخوة ، هذا سجود التعظيم ، وليسَ سجود العبادة ، توهّمَ بعضهم أنَّ إبليس من الملائكة ، لكن هذه الآية صريحة بأن إبليس من الجن ، والدليل قوله تعالى في الآية السابقة .

هل إبليس كان من الملائكة ؟

أمّا أن يستنبط إنسان أن إبليس ملك بدليل قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ)

هذا اسمه استثناء منقطع ، فقد تقول : حضر الطلاب إلا المدرس ، فالمدرس ليس طالباً ، لكنه اشترك مع الطلاب في حضوره الساعة الثامنة ، فالطلاب طلاب ، والمدرس مدرس ، يُدعى هذا في اللغة استثناء منقطعاً ؛ ومعنى الاستثناء المنقطع أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .

بينما الاستثناء المتصل فتقول : حضر الطلاب إلا خالداً ، أو إلا طالباً ، فالمستثنى من جنس المستثنى منه ، بـ إلا ، والدليل أيضاً في آيات أخرى :

(فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

(سورة الحجر : 30)

ليسَ إبليس من الملائكة ، وهذه الآية صريحة في ذلك :

(كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

معنى الفسوق :

معنى فسق ؛ بمعنى خرج ، و كل إنسان يخرج عن أمر الله فهو فاسق .

أمرك الله عز وجل أن تغض بصرك ، فنظرت إلى الحرام فهذا فسق ، وأمرك بتحرّي الحلال في الكسب ، فكسبت مالاً حراماً فهذا فسق ، وأي معصية هي فسق .

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 33)

والعصاة المقيمون على المعصية ، الذين خرجوا عن الصراط المستقيم يُفكّرون تفكيراً خاصاً بطريقة تُبرر معاصيهم ، فمنطقهم تبريري ، يدافعون به عن عاداتهم وتقاليدهم ، ومعاصيهم ومخالفاتهم ، وانحرافاتهم وشهواتهم ونزواتهم .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

لأنه خليفة الله في الأرض .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة :30)

قال عليه الصلاة والسلام :

((آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر))

[الترمذي عن أبي سعيد بسند صحيح]

يتبيّن من خلال مجموعة أحاديث أنَّ سيدنا آدم يأتي بعد النبي عليه الصلاة والسلام في المرتبة ، فسيدنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام هو سيد ولد آدم ، وخير خلق الله ، ويليه سيدنا آدم في المرتبة ، فالبشرية بدأت بأكرم نبي بعد رسول الله ، وختمت الرسالات بأعظم الأنبياء من دون استثناء .

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)

مثلما كانَ سيدنا جبريل رئيساً الملائكة كان إبليس رأساً للشياطين .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)

يا للعجب ممن يتخذ الشيطان وذريته أولياء :

هنا يعجب الله عز وجل ؛ أتتخذ الشيطان ولياً لكَ من دون الله !!!

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة : 257)

التفوق الأكبر في الأرض أن تكون ولياً لله ، وما من مرتبة على وجه الأرض أعظم عند الله من أن تكون وليه .

(ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يونس : 62 - 63)

وذريّة إبليس من الجن ، توسوس للإنسان بالشر ، بالشهوة وبالنزوات ...

(أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي)

فكيفَ تدعون كتاب الله ، وصراطه المستقيم ، وتوجيهه الكريم ، ودستوره العظيم ، وتتجهون إلى وسوسة تُهلِك صاحبها إلى الأبد .

هل يُعقل أن تستشيرَ عدواً فهو يأمُرُكَ أن تخرب محلك التجاري ، أو أن تكثر البضاعة الكاسدة ، أو أن تُغلق في ساعات العمل ، أو أن تسلم نفسك للموظفين في مخالفات ، فهل يعقل هذا ؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ)

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ

هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني ، وتتحركون بتوجيهاتهم ، وبوساوسهم الشيطانيّة هم أعداء لكم ، وما كانوا حاضرين يوم خُلِقَت السماوات والأرض ، أي أني ما استعنت بهم على خلق السماوات والأرض ، بل كانوا غائبين ونفي الاستعانة بهم في غيابهم أشد من نفيها في حضورهم.

هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء تعبدونهم ، وتستجيبون لوساوسهم ، وتأكلون المال الحرام استجابة لهم ، وتعتدون على الأعراض استجابة لهم ، وتعبدونهم من دون الله ، وما خلقوا السماوات والأرض ، ولا استعان الله بهم ، وما كانوا شاهدين يوم خلق الله السماوات والأرض .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

هذا المولود من ساهم في خلقه ؟

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة : 59)

يُبيّن الله عز وجل في هذه الآيات أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده ، ولا شيء سواه ، وما ساهمَ الشيطان في خلق الإنسان حتى يكسب حق عبادة الناس له .

حيوان منوي واحد من ثلاثمائة ألف حيوان يلقح بويضة تنقسم في ثمانية أيام إلى عشرة آلاف قسم ، ثم تلتصق في جدار الرحم ، ثم يبدأ تشكل الدماغ ، والأحشاء ، والأعضاء ، في تسعة أشهر وعشرة أيام يصبح طفلاً كاملاً ، دماغ ، جمجمة ، مخ ، مخيخ ، بصلة سيسائية ، نخاع شوكي ، أعصاب قلب ، شرايين ، رئتان ، معدة أمعاء ، كبد ، بنكرياس ، كليتان ، مثانة ، عضلات ، عظام ، جلد غدد دهنيه ، غدد صبغية .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)

ليس لله مُعينٌ في هداية خَلقه :

ما كان الله عز وجل ليتخذ إنساناً مضلاً عضداً له في تعريف الناس به ، المضل لا يوفق في هداية الناس ، لأن الله لا يتخذه عضدا ، أي لا يتخذهُ مُعيناً له في هِداية خلقه .

لذلك :

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

(سورة الحاقة : 45-47)

الأدلة على تفرد الله بهداية الخلق :

الآيات المتعلقة بهذا الموضوع :

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة : 124)

متى جعله إماما ؟ بعد أن ابتلاه فصبر :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة : 24)

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : 39)

هذه علامة ثالثة .

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : 18)

هذه علامة رابعة .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : 108)

علامة خامسة .

التنزّه عن الدنيا ، الدعوة على بصيرة ، الصبر على بلاء الله ، الفوز في امتحان الله ، هذه كلها شروط لابد من توافرها حتى يتخذ الله هذا الإنسان وسيلة للهدى .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً)

معنى الآية : نَادُوا شُرَكَائِي

للمفسرين رأيان في هذه الآية :

المعنى الأول :

يقول ربنا سبحانه وتعالى للمشركين ذلك من باب تعريفهم بعجز شركائهم .

المعنى الأول :

بعض المفسرين يرى أن اعتقاد المشركين بآلهتهم التي عبدوها من دون الله ، قد يستمر معهم إلى ما بعد الموت ، عندئذٍ يقول الله عزَّ وجل :

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ)

هذا الذي اعتقدت أنه كل شيء في الحياة ينفع ويضر ، أين هو الآن ؟ ناده ، اطلب منه أن يخلصك ، وادعه أن يستجيب لك ، وقد أرادَ الله عزَّ وجل بهذه الآية أن يبين لنا أن هذه الآلهة التي عبدت من دون الله عز وجل سوف تكشف على حقيقتها المزرية يوم القيامة ، فليسوا شركاء ، ولا آلهة ، وليسَ بيدهم الحل والربط ، وحينما أمرك الله عزَّ وجل أن تعبده طمأنك أن الأمر كله راجع إليه .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : 123)

إن كنتم تزعمون أنهم آلهة ، وأنَّ بيدهم الفعل فادعوهم أن يخلصوكم .

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)

قال : لم يستجيبوا لهم ، ولم يقل : لم يُخلصوهم ، لأنهم إذا كانوا عاجزين عن أن يستجيبوا لهم فهم عن تخليصهم أعجز ، وهذا من بلاغة القرآن .

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا

الموبق ؛ هو الهلاك ، أي هؤلاء الذين أشركوا ، والذين أُشركوا هؤلاء الذين عَبدوهم من دون الله ، والذين عُبدوا من دون الله ، جميعاً هالكون ، تجمعهم نار جهنم التي تلفح بلهيبها وجوههم .

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)

توقُّع المصيبةِ مصيبة فوق المصيبة :

هناك قول شهير : أن تُوقِع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها ، وأنت من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف المرض في مرض .

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر : 46)

(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)

إذا حكم على إنسان بالإعدام شنقاً حتى الموت بجريمة ارتكبها ، فهو كلما أطل من كوة السجن ، ورأى المشنقة في فنائه ، وشعر بقرب تنفيذ حكم الإعدام ، ناله من الألم أضعاف ما لو أُعدِمَ فوراً .

(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا)

هذا ظنٌّ يقيني ، كلمة ظن تعني إمّا حسب ، أو تعني أيقن يقيناً عقلياً ، لا يقيناً شهودياً ، ومعنى يظنون؛ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا كما يتوهم بعض الناس فكلمة ظن في القرآن ، تأتي بمعنى الاعتقاد الجازم ، وتأتي بمعنى الشك ، ظننته عالماً فإذا هو جاهل ، بمعنى حسبته ، أما هنا بمعنى تيقّنوا أنهم مواقعوها .

(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً)

وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا

وكأن الله عز وجل يلفت نظرنا إلى كتابه الكريم ويقول :

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)

معنى تصريف الأمثال في القرآن الكريم :

ذكَرَ ربنا عز وجل قصصاً ، وأمثلة ، وأخباراً سابقة ، وتشريعات ، وذكر أوامر ، ونواهي ، وذكر مرغبات ، ومخيفات ، وذكر مشاهد من يوم القيامة ، ومن الجنة ، ومن جهنم ، رغب ، ورهب ، وخوف ، وحذر ، وبشر وأنذر ، وبين ، ووضح ، ومثل ، وقص ، فأساليبه عديدة ، تقرأ السورة ، فترى فيها حُكماً شرعياً ، ثم آية كونية أحياناً ، فقصة بليغة ، ثم مثلاً رائعاً ، ثم خبراً ماضياً ، ثم بشارةً، ثم مشهداً من مشاهد الجنة ، ثم مشهداً من مشاهد النار ، ثم ملخصاً فهي سورة ذات موضوعات متكاملة .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً

خُلِقَ الإنسان ضعيفاً ، وخُلِقَ الإنسان هلوعاً ، وخُلِقَ الإنسان عجولاً ، وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلاً ، هذه الصفات التي وصف بها الإنسان في القرآن ليست نقاط ضعف تستوجب اللوم ، لكنها نقاط ضعف لمصلحته ، كيف أن الجهاز الغالي يحوي نقطة ضعف كهربائية من أجل أن لا يحترق ، تُسمّى " الفيوز" ، كذلك الإنسان ، خُلِقَ ضعيفاً .. وخُلِقَ الإنسان هلوعاً .. وخُلِقَ الإنسان عجولاً ، خُلِقَ ضعيفاً ، لو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته ، وشقي باستغنائه ، وخُلِقَ عجولاً يرقى إذا اختار الآجلة إلى أعلى عليين ، خُلِقَ هلوعاً ، لولا أنه يهلع لما عرف الله عز وجل ، فلو خلقه متجلداً لا يخاف ، يبقى على معاصيه إلى يوم القيامة ، لكن ضعفه ، وخوفه ، وفرقه ، وكونه يهلع ، ويجزع ، وتخور قواه ، وترتعد أطرافه ، هذا كله لمصلحته ، من أجل أن يعود إلى الله عز وجل .

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

زوّدَ الله الإنسان بالمنطق ، يناقش ، ويحاور ، ويسأل ، ويريد البرهان والدليل .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً)

ما الذي يمنعكم أيها العباد أن تؤمنوا ؟!!

يعجَب ربنا عز وجل في هذه الآية !! ما الذي يمنعكم أيها العباد من أن تؤمنوا ؟ لا تؤمنون بي حتى يأتيكم العذاب ، وهذا الكلام لنا ، أي لِمَ أنتَ غافل ، وأنت في شبابك ، وصحتك ، وبحبوحتك ، وقوتك ، وغِناك ، ألا تريد أن تؤمن بالله إلا بعد المرض والفقر والذل وبعد الإهانة ، أهكذا المروءة ؟!! أهكذا الذكاء ؟!! أهكذا الوفاء ؟!! لا يؤمن بالله إلا بعد الشدة ، أنحن عبيد أم أحرار ؟

السيدة رابعة العدوية تقول : " العباد ثلاثة ؛ العبيد هم الذين يعبدونه خوفاً من ناره ، والتـجار يعبدونه طمعاً في جنته ، والأحرار عرفوا أن لهم رباً فأطاعوه ، وما مقصودهم جنات عدنٍ ؟ ولا الحور الحسان ، ولا الخيام ، سوى نظر الحبيب فذا مناهم ، وهذا مطلب القوم الكرام " .

ألا يليق بك أيها الأخ الكريم وأنت في شبابك ، وصحتك ، وأنت مستمتع بسمعك وبصرك ، وذاكرتك ، وقوتك ، وأعضائك ، أن تعرف الله ؟ وأن تعرف ماذا يريد منك ؟ وما طريق رضوانه ، معظم الناس يقول : يا رب ، يا رب عندما يأتيهم المرض الشديد العضال ، أو حين يظهر التحليل أن هناك ورماً خبيثاً ، أو حين يفقد أحدهم ماله كله ، أو يوضع في وضع صعب جداً ، قُل : يا رب وأنت في الرخاء ، إن كنت بطلاً فقل : يا رب ، وأنت في الرخاء ، وأنت معافى ، وأنت شاب ، وأنت مستمتع بسمعك وبصرك ، وقوتك ، وعندك زوجة وأولاد ، هذه البطولة .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى)

هذا الهدى بين أيديكم ، كتاب الله بين أيدينا .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

معنى مجيء سنة الأولين :

أي عذاب الاستئصال أو البلاء والقهر ، وكأن الله عز وجل يتمنى لنا في هذه الآية أن نؤمن به طوعاً لا كرهاً ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ :

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

[مسند الإمام أحمد]

من لم يتجه إلى الله بلطائف الإنعام ساقه الله إليه بسلاسل الامتحان ، إما أن تأتي إليه طوعاً ، أو هو قادر على أن يجعلك تنساق إليه كرهاً .

(ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

(سورة فصلت : 11)

نصيحة للشباب :

البطولة أن تُنفق وأنت في صحتك ، وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمن الغنى ، لذلك قال النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم :

((اغتنم خمساً قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك))

[الحاكم في المستدرك ، عن ابن عباس ، وابن أبي شيبة في المصنف عن عمرو بن ميمون]

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

فتية ، شباب .

عيّنَ النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا أسامة بن زيد قائداً للجيش ، وكان من جنود هذا القائد سيدنا عمر بن الخطاب ، كان عُمُرُ هذا القائد الجليل سبعة عشر عاماً ، وكان عمر ، وعثمان ، وعلي جنوداً في هذا الجيش ، أراد سيدنا الصديق رضي الله عنه أن يدعم مركزه فمشى في ركابه ، فما كان من أسامة بن زيد إلا أن قال : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، قال : والله لا ركبت ، ولا نزلت ، وما عليّ أن تغبر قدمايَ ساعة في سبيل الله ، وحينما وصلا إلى مركز الانطلاق والتجمع ، استأذن سيدنا الصديق من قائد الجيش الذي لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً أن يبقي له عُمَرَ مستشاراً في المدينة .

هذا كلام موجه للشباب ، ما من شيء أحب إلى الله عز وجل من شاب تائب ، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب التائب ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي .

عندما يصل الإنسان إلى خريف العمر حيث الأمراض ، والهموم والانزواء ، وقلة الشأن ، عندئذ لا يبقى له إلا المسجد ، أما البطولة أن تأتيه ، وأنت صحيح شحيح ، وأنت في ريعان شبابك .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

سُنّة الأولين أنه إذا كفر قوم بربهم ، بعدَ مجيء المعجزة استؤصلوا استئصالاً نهائياً .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً)

أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلاً

معنى قُبُلاً ؛ يعني عياناً ، وجهاً لوجه .

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

الناس رجلان : مؤمنٌ تقي كريمٌ على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، هذا يبشر ، وهذا ينذر .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً)

إيّاكم والاستهزاء بالحق !!!

قال العلماء : " أن أشد أنواع الكفر الاستهزاء بالحق "، فجلوسُكَ تناقش أهل الحق ، وأنت تريده أشرف بكثير من أن تستهزئ بالحق ، وأشد أنواع الكفر أن يتخذ الإنسان الحق هزوا ، أن يتخذ آيات الله لعباً ، أو أن يهزأ بدين الله ، ويلعب بأحكامه .

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً)

ما هو الباطل ؟

الباطل هو الشيء الزائل ، لو وضعت هذه الثريا مع السقف تماماً كان مكانها بالباطل ، ولو وضعت إلى الأرض تماماً لكان مكانها بالباطل ، ومعنى الباطل أنه لابُدَّ أن يزال هذا المكان غير الصحيح ، فالباطل هو الشيء الزائل ، أما الحق فالشيء الثابت ، فالحق ثابت ، وهادف ، وواقع ، بينما الباطل زائل ، وعابث ، وكاذب .

يُروى أنَّ رجلاً في عهد النبي عليه الصلاة والسلام سمى ابنه الله ، أو سمى نفسه الله استهزاءً بالله عز وجل ، فجاءت صاعقة فقتلته فوراً .

يجب على الإنسان ألاّ يتورط بالاستهزاء بآيات الله ، و بمقدسات الدين ، بالقيم الدينية ، بالقواعد الشرعية ، بالأحكام القرآنية ، هذا مكان خطر جداً .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)

مِن أشد الناس ظلما المُعرضُ بعد التذكير :

أي ليس في الأرض إنسان أشد ظلماً ممن دُعِيَ إلى الحق فأعرض ، وقال : هناك وقت طويل ، نحج ، ونتوب عندما نبلغ ثمانين عاماً.

دعيت إلى الحق فأعرضت ، دعيت إلى طاعة الله ، فقلت : الله غفور رحيم ، دعيت إلى التصدق ، فقلت : الله يغني من يشاء ، دعيت إلى غض البصر ، فقلت : أين أذهب بعيني ، دعيت إلى تحرير

كسبك من الحرام ، فقلت : الناس كلهم كذلك ، كلما دعيت إلى طاعة أعرضتَ عنها ، ورفضتها محتجًّا بشتى الأعذار .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

غفل عن أعماله السيئة ، وظلمه ، وتعدياته .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)

قد يفهم القارئ هذه الآية فهماً ما أراده الله عز وجل .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا)

ذِكرُ الله عزَّ وجل ، مرات عديدة ، وتؤكده آيات أخرى .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 44)

حيث يُذَكِّرُ الله عز وجل عباده ليلاً نهاراً ، عن طريق الأنبياء ، والرسل ، والعلماء ، والدعاة ، والقرآن ، وعن طريق المكتشفات العلمية ، والآيات الكونية ، حتى إن بعض التفاسير ، وهو القرطبي في تفسير قوله تعالى :

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر : 37)

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية :" إن النذير هو الموت ، فموت الأقارب ، أكبر نذير ، والقرآن هو النذير ، والنبي هو النذير ، والعالم هو النذير ، والمرض هو النذير ، والمصائب هي النذير، والشيب هو النذير ، وسن الأربعين هو النذير ، وسن الستين هو النذير " ،

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ)

الإضلال الجزائي :

حينما اختار الضلال جعل على قلبه هذا أكنّة ، لذلك أوضح آية توضح هذه الآية ،

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

هذا هو الضلال الجزائي ، المبني على الضلال الاختياري ، يختار الإنسان الضلال فيمنع الله عنه كل هذه الحقائق ، تماماً كما لو أنك كنت مسافراً إلى بلد قريب ، ووجدت في الطريق مفترقين لا تدري

أيهما تسلك ، سألت واحداً من الناس : أين حمص ؟ قال لك : من هنا ، قلت له : جزاك الله عني كل خير ، بعد أن استجبت له ، وقبلت هذه النصيحة زودك بمعلومات شتى عما في الطريق ، من تحويلات، ومن حواجز ، ومن مطبات ، زوّدكَ بكُل هذه المعلومات بعد أن قبلتَ النصيحة ، أمّا الذي يتهم هذا الدليل بالكذب ، هل بإمكان هذا الدليل أن يعطيه من المعلومات شيئاً ؟ .

معنى الإضلال هنا أنه حينما ذكّرَه الله عز وجل ، أعرض عن هذا التذكير ، ونسي ما قدمت يداه عندئذ :

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)

لا يستطيع كائن من كان في الأرض أن يهدي من اختارَ الضلال والدليل :

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص : 56)

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة : 272)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام : 107)

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

(سورة الغاشية : 22)

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود : 86)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

في آية أخرى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : 159)

أجمع العلماء على أن أرحم مخلوق بالمخلوقات قاطبة هو النبي عليه الصلاة والسلام ، أرحم الخلق بالخلق ، قال تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة : 128)

ومع ذلك قال الله عز وجل :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أما ربنا عز وجل :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

فالرحمة كلها من عند الله .

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

تقتضي رحمة الله عز وجل أن يُمهل ولا يُهمل .

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

(وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

(سورة طه : 129 - 130)

ربنا حليم ، أي يحلم على عباده إلى درجة تفوق التصور .

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً)

سَعَةُ رحمة الله تعالى بعباده : يمهل ولا يهمل :

أين المفر ؟ لا ملجأ من الله إلا إليه :

أيْ مفراً ، أو ملتجئاً .

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً)

قانون الإهلاك : الظلم :

هذه الآية آية محكمة ، تأخذ شكل قانون ، جاءت هذه المصائب الجماعية ، من زلزال ، أو بركان ، أو

فيضان ، أو قحط ، أو سيل ، أو طوفان ، جاءت من الله بحسبان ، وتوقيت دقيق .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

هناك توقيت دقيق .

في الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بقصة سيدنا موسى مع الخضر ، في هذه القصة مغزى كبير ، تأتي الإنسان أحياناً أشياء لا يرضى عنها قال تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : 216)

هذه الآية هي مغزى قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام ، وهذه القصة يحتاجها كل مؤمن ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، باعتقاده الجازم بأن الله عز وجل لا يسوق لعباده إلا الخير ، كان إذا جاءت الأمور وفق ما يريد قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وكان إذا جاءت الأمور على خلاف ما يريد قال : الحمد لله على كل حال .

فقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام ، قصة تؤكد أن الفعل بيد الله ، وأن فعل الله كُلَّهُ حِكمة ، ورحمة ، وعدل ، وعلم ، فهذه القصة إذا قرأناها ، ووعيناها ، وعقلناها ينبغي أن نستسلم لله عز وجل ، وأن نرضى بقضاء الله وقدره ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام : الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن ، يحمل سيدنا موسى علم الشريعة ، بينما يحمل سيدنا الخضر عليه السلام الحقيقة ، وهناك تكامل بين الحقيقة والشريعة ، وإن شاء الله تعالى نشرح هذا في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 60 – 82 ، قصة سيدنا موسى مع الخضر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-11-1987

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السابع من سورة الكهف ، ونحن الآن في القصة الثالثة ؛ قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام ، وقبل الدخول في تفصيلات هذه القصة أريد أن أقدم لها ببضع حقائق تعين على فهمها .

حقائق بين يدي قصة موسى مع الخضر :

الحقيقة الأولى : علم الحقيقة وعلم الشريعة :

الحقيقة الأولى : أنه لما عرض الله على الإنسان الأمانة قبلها ، ومعنى قبلها أي أنه كلف بمعرفة الله ، والسير على أمره ، والتقرب منه ليسعد في الدنيا والآخرة ، وحينما قبل الأمانة منحه الله إرادة حره ، وعقلاً مفكراً ، ونصب له آيات في أرجاء الكون ، وأنزل له الكتاب ، أي أنزل له التشريع ، والتشريع ضوابط في العلاقات بين العبد وربه ، وبين العبد والعبد ، وقد نزلت هذه الشرائع تباعاً على أنبياء الله ورسله .

فسيدنا موسى عالم بالشريعة يعرف الحلال والحرام ، ما يجوز ، وما لا يجوز ، ما ينبغي ، وما لا ينبغي ، والأمر والنهي ، والحق والباطل ، والخير والشر .

الحقيقة الثانية : وجوب انضباط أفعال العباد بالشرع :

يجب أن تضبط أفعال العباد بالشريعة ، وسيدنا موسى نبيٌ عظيم ، ورسول كريم من أولي العزم ، وهو أعلم علماء الأرض في وقته في الشريعة ، لكن الله سبحانه وتعالى يتصرف في الكون ، ويتصرف مع عباده تصرفاً لا يعلم حكمته إلا الله ، أي لا يعلم سر القضاء والقدر إلا الله ، فسر التصرفات الإلهية ، وحكمة الأفعال الإلهية علم مستقل قائم بذاته ، فقد آتى الله سيدنا الخضر ، وهو نبي في رأي معظم العلماء عليه السلام ، من لدنه علماً ، فكأن هذه القصة لقاء عظيم رائع ، بين قطب عظيم

من أقطاب الشريعة ، وقطب عظيم آخر من أقطاب الحقيقة ، فنحن مع سيدنا موسى مع قطب من أقطاب الشريعة ، ونحن مع سيدنا الخضر قطب من أقطاب الحقيقة .

والشريعة والحقيقة التقتا ، ومن خلال هذا اللقاء العظيم تتضح بعض الحقائق المهمة التي نحن جميعاً في أمس الحاجة إليها ، ومن لقاء قطبي الشريعة بالحقيقة تتضح بعض أسرار القضاء والقدر ، ومنها نعرف معنى قوله تعالى :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة : 216)

كأن ملخص هذه القصة تلك الآية :

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

يجب أن تضبط أفعال العباد بالشريعة ، لكن أفعال الله عز وجل تفسر بالحقيقة .

ويجب أن تكون أفعال العباد وفق الحلال ، والمباح ، والمندوب ، والأمر ، ويجب أن تبتعد عن المكروه ، والمحرم ، هناك شريعة دقيقة جداً ، فيها حكم كل شيء ، كل حركة ، وكل سكنة ، وكل تصرف ، وأية علاقة تضبطها الشريعة ، لكن أفعال الله عز وجل علم التصرفات الإلهية ، وسر القضاء والقدر ، فعلم الحقيقة يكشف لنا جانباً منه .

ففي لقاء هذين النبيين العظيمين لقاء سيدنا موسى مع سيدنا الخضر تتضح حقائق كثيرة من علم الحقيقة .

سبب ورود قصة موسى مع الخضر :

ورد في بعض الأحاديث الشريفة عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْبٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ مُوسَى : لَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ :

(أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)فَوَجَدَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ))

[متفق عليه]

سيدنا موسى نبي مرسل ، ومادام نبياً مرسلاً فهو بالبديهة أعلم علماء الأرض ، فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن قال : أنا أعلم علماء الأرض ، فأوحى الله إليه ما أوحى .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

ليس أعلم منك مطلقاً ، أعلم منك في علم الحقيقة ، وأنت أعلم منه في علم الشريعة ، ينبغي أن تقول : أنا في هذا العلم ، قد علمني ربي ، هذا ما ورد في بعض الأحاديث أن الله عز وجل أراد أن يُعلمه ، وأن يُعَلمه أن في الأرض عبداً صالحاً آتاه الله رحمة من لدنه ، وعلمه من لدنه علما هو أعلم منك .

فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن سأل الله عز وجل : يا رب ، كيف ألتقي به حتى أتعلم منه ؟

بداية القصة : خروج موسى مع فتاه طلبًا للقاء الخضر :

الآن بدأت القصة :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ)

فتاه ؛ أي فتى صاحب سيدنا موسى ، ليتعلم منه ، وليخدمه ، فكان في الوقت نفسه خادماً ومتعلماً .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

لا أبرح أسير إلى أن أصل إلى مكان حدده الله عز وجل ، حينما أوحى الله إلى سيدنا موسى قال : يا موسى تلتقي مع الخضر ، مع هذا العبد الصالح في مجمع البحرين ، وما دام الله عز وجل قد أخبر سيدنا موسى أن هذا العبد الصالح يراه في مجمع البحرين ، عندئذٍ قال هذا النبي العظيم : لا أبرح ، أمشي ، وأبحث ، وأسير .

(حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ)

وإن لم أبلغ هذا المجمع :

(أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

سأسير حقباً طويلة ، سنوات وسنوات ، إلى أن ألتقي بهذا العبد الصالح .

من دلالات خروج موسى للقاء الخضر : فضل العلم :

انظروا أيها الإخوة ، كم هو ثمين هذا العلم في نظر هذا النبي العظيم ، أحدنا يصرف نفسه عن حضور مجالس العلم لسبب تافه جداً ، يقول : عندي موسم ، أو زارني ضيف ، فهو لسبب تافه يصرف نفسه عن حضور مجالس العلم التي هي مجالس الذكر .

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يذكرون الله فيه إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وما اجتمع قوم في مجلس فلم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

وكانت علامة هذا المكان فيما أوحى الله لهذا النبي العظيم أن يفتقدا حوتاً لهما كانا قد أعداه للطعام ، إذا افتقداه في مكان ما ، فهذا المكان مكان اللقاء بالعبد الصالح .

معنى : مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا)

المعنى الأول :

يعني مجمع البحرين .

المعنى الثاني :

وبعضهم قال : مجمع البحرين يعني اجتماع بحري الشريعة والحقيقة ، هذا وجه من وجوه التسمية ، اجتماع بحري الشريعة والحقيقة .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا)

كانا قد أعدا حوتاً ، وجهزاه للطعام ، ووضعاه في حقيبة إن صح التعبير ، ووضع هذا الحوت في مجمع البحرين ، وفي بعض الأقوال غير الثابتة أن مجمع البحرين مكان التقاء البحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط ، فهما مجمع البحرين .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا)

نسي سيدنا موسى أن يتفقد الحوت ، ورأى فتاه من الحوت منظراً عجيباً نسي أن يخبر سيده موسى ، هذا الحوت .

(فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

معنى : فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا

المعنى الأول :

قال بعض المفسرين : " هذا الحوت وقع في البحر " .

المعنى الثاني :

وقال بعضهم : " كانت معجزة أن عادت له الحياة فسقط في البحر ، وعاش فيه ، رأى الفتى الذي رافق سيدنا موسى هذا المنظر فالحوت ، فإما أنه وقع في البحر ، أو أنه عادت له الحياة فوثب في البحر ".

(فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

وقد تكون عودة الحياة إلى الحوت ، ووثوبه إلى مياه البحر أيضاً علامة من علامات اللقاء مع العبد الصالح .

(فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا)

أنساهما الله عز وجل سقوط الحوت في البحر .

من استنباطات الآية :

الاستنباط الأول : إعداد الزاد للسفر :

لذلك استنبط العلماء أنه يجوز ، بل يندب لمن أراد السفر أن يعد الزاد ، وليس في إعداد الزاد تناقضاً مع التوكل ، اعقل وتوكل ، واستنبط العلماء أيضاً وجوب الرحلة في طلب العلم ، كيف أن هذا النبي العظيم قال :

(لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

أراد أن يصل ، أن يسافر من أجل لقاء هذا النبي العظيم .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

الاستنباط الثاني : المشقة في طلب العلم :

يعني تعبا ، تعبنا أين الطعام يا فتى ؟ عندئذ تذكر هذا الفتى أن الحوت الذي قد أعداه للطعام سقط في البحر .

(فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً)

كيف اتخذ الحوت سبيله في البحر سربا ؟!!!

ليس في الآية قرينة على أن الحياة قد عادت له ، لكن هناك آية تالية تشير من طرف خفي إلى أن هناك شيئاً عجيباً ، كيف وقع هذا الحوت في البحر ، من هنا استنبط العلماء أنه ربما عادت الحياة إلى الحوت بعد شيِّه ، ووثب في البحر .

قال الغلام :

(قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً)

كيف اتخذ الحوت سبيله في البحر عجبًا ؟!!!

واتخذ الحوت سبيله في البحر عجبا ، هناك شيء عجيب ، وخارق للعادة ، أن حوتاً مشوياً ، أي سمكة مشوية تعود لها الحياة ، وتثب في البحر ، والله أعلم ما إذا كانت الحياة قد عادت لها أو لم تعد ، لكن الشيء الثابت أن الحوت قد اتخذ سبيله في البحر ، عندئذ عرف سيدنا موسى أن هذا المكان الذي نسيا فيه الحوت هو مجمع البحرين ، وهو مكان اللقاء المنتظر .

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ)

فقدان الحوت أمارة مكان اللقاء :

ذلك ما كنا نبتغي من هذا السفر الطويل ، وهذا هو الهدف ، لأن المكان الذي افتقدنا فيه الحوت هو مكان اللقاء كما أخبره الله بالوحي .

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً)

بعد أن قطعا يوماً وليلة بعيداً عن مجمع البحرين ، وعن مكان سقوط الحوت في البحر ، ارتدا ، وعكفا راجعين إلى مكان افتقاد الحوت ، لأن هذا المكان هو مكان اللقاء المنتظر الذي يحرص عليه

سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وكما وعده الله عز وجل ، وكما أوحى إليه في هذا المكان مكان افتقاد الحوت ، مجمع البحرين .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا)

العبودية أعلى مرتبة للإنسان :

أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يكون عبداً لله ، وأن تتحقق فيه العبودية لله عز وجل ، والعبودية معرفة يقينية ، تفضي إلى طاعة طوعية ، تنتهي إلى سعادة أبدية ، معرفة يقينية ، فطاعة طوعية ، فسعادة أبدية .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

كيف تكسب العلم ؟

العلم يكتسب بالمدارسة ، والمطالعة ، وحضور مجالس العلم ، والتأمل ، والتفكر ، فإذا حاز الإنسان العلم بالأسباب فهذا العلم الذي نعرفه جميعاً ، أما العلم الذي يحوزه الإنسان من دون أسباب أرضية هو العلم اللدني ، فهذا العبد الصالح ، آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما .

هل الخضر عليه السلام نبيٌّ ؟

هناك إشارات ، ودلالات كثيرة يقينية على أن سيدنا الخضر عليه السلام نبي ، إما أنه نبي مرسل ، أو غير مرسل ، هذا موضوع خلافي ، وبعض العلماء يظنونه ولياً ، فهو بين أن يكون ولياً ، أو نبياً مرسلاً ، أو نبياً غير مرسل ، هناك قرائن ستأتي بعد قليل تبين أن هذا الإنسان العبد الصالح كان نبياً .

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى)

مِن آداب طالب العلم : التواضع والأدب مع الشيخ :

بأدب جم ، نبيٌّ مرسل ، ومع ذلك يتأدب مع من أعلمه الله أنه أعلم منه ، وفوق كل ذي علمٍ عليم ، والأدب مع من يعلمك من لوازم التعليم ، وقد قال بعض العلماء لبعض الطلبة : يا بني نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك .

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ)

الاستفهام فيه أدب ؟ هل تسمح لي بالتعلم ، الاستفهام فيه أدب ، ولم يقل : أنا سأتبعك ، فيجب أن تعلمني .

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً)

فقال سيدنا الخضر :

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

يبدو أن سيدنا الخضر يعلم أن سيدنا موسى لا يصبر عليه ، وأنه عالم بالشريعة ، وأن الأفعال التي سوف يفعلها هذا العبد الصالح ربما لا تفسر في ضوء الشريعة ، هل في الشريعة أمر أن تقتل غلاماً بلا سبب ، حاشا لله ، هذا لا يتوافق مع الشريعة ، فقال له :

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

علمك الشرعي لا يسمح لك بتفسير أعمالي ، ومزاجك العصبي لا يسمح لك بالصبر .

ورد في بعض الكتب عن الشيخ محي الدين أن سيدنا الخضر قد أعد لهذا النبي العظيم ألف مسألة ، فلما كانت الثالثة فقد سيدنا موسى صبره ، عندها قال عليه الصلاة والسلام :

((يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى ، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا))

[البخاري ومسلم عن أبي بن كعب]

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

لم يقل : إنك لن تستطيع معي كمال الصبر ، بل قال : صبرا ، على التنكير ، أي ولا تستطيع حتى الجزء البسيط من الصبر ، ثم بيّن العلة :

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)

بيان علة عدم صبر موسى :

يتناقض العمل في ظاهره مع الشريعة ، وأنت عالم بالشريعة ، وأنا عالم بالحقيقة ، هناك تناقض بيني وبينك .

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)

ما كان من هذا النبي الكريم إلا أن أظهر الجلد ، والصبر ، والعزيمة على متابعة هذا العبد الصالح كي يتعلم منه ، فقال :

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً)

انظر إلى الأدب مع الله عز وجل ، الاستثناء ، إن شاء الله .

من استنباطات الآية : الصبر على طلب العلم :

استنبط العلماء من هذه القصة أنه ينبغي على الذي يحضر مجالس العلم أن يصبر ، وألا يعترض ، وأن يتأدب .

(وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي)

شرط الخضر في قبول اتباع موسى له :

شرط :

(فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)

انظر واسكت ، اتبعني ولا تعترض ، ولا تبادر بالسؤال ، فأنا سأخبرك عن كل شيء .

(فَانْطَلَقَا)

انطلقا ليعرفا الحقيقة ، وبعضهم قال : انطلقا من عقال المادة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا)

خبرُ ركوبِ موسى مع الخضر السفينة :

تروي بعض الكتب أنهما ركبا في سفينة لمساكين ، لأناس فقراء ، وأن عصفورين وقفا على طرف السفينة ، وغمسا منقاريهما في الماء غمستين ، فقال الخضر لسيدنا موسى : ما علمي وعلمك في علم الله إلا كهاتين النقرتين في البحر ، أي بماذا يرجع هذا العصفور إذا غمس منقاره في البحر ؟ ما علمي وعلمك في جانب علم الله عز وجل ، إلا كهاتين النقرتين في البحر .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا)

من استنباطات الآية : جواز ركوب البحر :

واستنبط العلماء من هذه الآية جواز ركوب البحر .

خرق الخضر للسفينة وإنكار موسى عليه :

خرقها ، أي أمسك بقدوم ، وقلع من جدار السفينة لوحاً خشبياً ، وهذا عمل غير منطقي ، وغير معقول، بالإضافة إلى أن صاحب السفينة رفض أن يأخذ منهما أجرة نوالاً ، أركبهما ضيافة بلا نوال ، وفوق هذا العمل الطيب ، والضيافة الكريمة جاء الخضر عليه السلام ، وأمسك قدوماً ، وكسر أحد ألواح السفينة ، واقتلعه ، فقد سيدنا موسى صوابه ، وقال :

(قالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

هذا عمل غير صحيح ، ماذا فعل معك صاحب السفينة ؟ أهكذا تكافئه على عمله الطيب ؟ استنبط العلماء هنا أن سيدنا موسى لم يقل هذا بدافع من حرص على حياته ، لا ، نسي نفسه قال :

(قالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا)

هذا العمل لا يمكن أن يقبل ، دعاك إنسان مسكين فقير إلى ركوب السفينة بلا مقابل ، وهو يكتسب من هذه السفينة ، ثم تخرقها له .

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

إمراً أي فظيعاً ، غريباً ، غير مقبول ، قال :

(قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

تذكير الخضر موسى بعدم صبره وشرطه عليه :

لقد قلت لك : إنك لن تستطيع معي صبرا ، لأن الأعمال التي أعملها ، ليست خاضعة لعلم الشريعة ، إنما هي خاضعة لعلم الحقيقة ، أنت عالم بالشريعة ، وأنا عالم بالحقيقة .

تذكر الوعد ، والاتفاق ، والعهد حين قال له الخضر عليه السلام :

(قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)

هنا قال : أنا تسرعت ، ومعك الحق .

(قالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً)

هذا أول درس ، شيءٌ عجيب ، تركب سفينة بلا نوال ، بلا مقابل ، ودعاك أصحابها المساكين إلى ضيافة كريمة ، ثم تقابل هذا الإحسان بالإساءة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ)

قصة قتل الخضر للغلام :

تذكر الكتب أنه كان هناك غلمان يلعبون ، وبينهم غلام جميل جداً ، نظيف وهادئ ، فأخذه الخضر ، وذبحه ذبح النعاج ، فتفرق الأطفال من حوله ، وفزعوا ، عندئذ اشتد لسيدنا موسى الغضب وقال :

(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ)

إنكار موسى على الخضر قتلَه للغلام :

لا بد أن يكون القتل قصاصاً ، نفسٌ بنفسٍ ، هذه جريمة ، ماذا فعل معك هذا الغلام ؟

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

مخالفة موسى لشرطه وتذكير الخض   ر له به :

هذه مرة ثانية ، خرجت عن صوابك مرة ثانية ، تذكر هذا النبي العظيم أنه خالف العهد ، وخالف الاتفاق .

(قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً)

ليس لي عذر في المرة الثالثة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ)

دخول موسى مع الخضر القرية وطلبهما الاستضافة :

كانا جائعين جداً ، وقال العلماء : يجوز لصاحب الحاجة أن يطالب بما يسدها .

(اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا)

كانوا أهل قرية بخلاء لؤماء .

(اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)

امتناع أهل القرية من ضيافة الخضر وموسى :

امتنعوا عن إطعامهم ، نظر سيدنا موسى والخضر عليهما السلام إلى جدار عظيم كاد يتداعى .

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)

إقامة الخضر للجدار المائل وطلب موسى منه أخذ الأجر :

فشمرا عن ساعد الجد ، وبنيا هذا الجدار ، هذا موقف غريب ، في الموقفين الأولين ، عمل منكر ، أما هنا فقد رفض أهل القرية اللؤماء ، البخلاء الأشحاء أن يطعمونا الطعام ، وتبني لهم جداراً بلا مقابل ، ما هذا التناقض ؟ كأن الله عز وجل يريد أن يقول لنا : تصرفات الله عز وجل لها حكمة بالغة ، لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع ، قال : نحن جائعون :

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً)

فنشتري طعاماً فنأكل .

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ)

هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ

قال بعض العلماء : مقابلة الإساءة بالإحسان وارد في علم الشريعة ، فلماذا خالفت يا موسى شريعتك ؟ لماذا اعترضت عليه ؟ ولقد بنيت الجدار رداً على الإساءة ، قتل غلام بغير نفسٍ هذا خلاف علم الشريعة ، وخرق سفينة مقابل ضيافة كريمة ، فهذا خلاف علم الشريعة ، ولكن أن نرد على الإساءة بالإحسان فهذا من علم الشريعة .

ألم تسق للمرأتين في مدين بلا مقابل ؟ كيف تلومني على بناء هذا الجدار ؟ لأن أهل هذه القرية أساؤوا إلينا ، وأنت نفسك سقيت لامرأتين في مدين من دون مقابل .

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ)

مواقف موسى مع الخضر :

ثلاثة مواقف ، خرق سفينة ، وقتل غلامٍ ، وبناء جدارٍ .

الأول :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

والثاني :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً)

والثالث :

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً)

(قالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)

ما يقاس على القصص الثلاث الواردة في سورة الكهف :

استمعوا أيها الإخوة الأكارم ؛ هذه القصص الثلاث ينبغي أن يقاس عليها كل شيءٍ يقع في الأرض .

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

***

و لرُبَّ نازلةٍ يضيق لها الفتى ذرعاً وعند اللهِ منها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت و كنت أظنها لا تفرجُ

***

كن عن همومك معرضاً كـل الأمور إلى القضا

و بشر بـخيرٍ عـاجلٍ تنسى به ما قد مــضى

فيا رب أمـر مسخـط لك في عواقبه رضــى

ويا ربما ضاق المضيـق و لا ربما تسع الفضــا

الله يفعل مـا يشــاء فلا تـكن مــعترضا

الله عـودك الجميــل فقس على ما قد مضــى

قال :

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ)

تفسيرات وحجج الخضر في أفعاله التي أنكرها موسى عليه :

إن هؤلاء الناس مساكين ، مع أنهم يملكون سفينة ، ذلك لأنهم عيشون من دخلِها ، وإذا ملك إنسان بيتاً يسكنه فهو مستهلكه .

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)

حجة إغراق السفينة :

أردت أن أجعل فيها عيباً .

(أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)

كان الملك يُصادر كل سفينة أعجبته ، ويأخذها غصباً ، فحينما خرقتُها فوّتُ على الملك مصادرتها ، وأبقيتها لأصحابها ، يقتاتون من دخلها ، فما قولك ؟ أين الحمق ، والغضب ؟ هكذا يفعل الله عز وجل .
أحياناً يلغى إيفاد الطالب إلى أوربا لعلامة واحدة ، فيغضب ، ويزمجر ، جعلتك هذه العلامة تبقى في بلدك ، ويبقى لك دينك ، لا تغضب ، فلكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأحياناً يفسخ عقد الزواج لسبب تافه ، فقد يكون في هذه الزوجة الدمار والشقاء ، لا تغضب إذا جاءت الأمور كما تشتهي ، فقل : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإن جاءت على خلاف ما تشتهي ، فقل : الحمد لله على كل حال .

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ)

حجة قتل الغلام :

كان أبواه متعلقين به تعلقاً شديداً ، وكانا مؤمنين ، فإذا كبر هذا الغلام وصار كافراً ، وتعلق الأب والأم بابنهما الكافر فربما يهلكهما مع هلاكه .
وهذا يؤكد علم الله بما سيكون ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وعلم الله قديم ، ليس علماً كسبياً كعلم البشر ، فالإنسان بدون شك مخير ، والله يعلم بلا كيف ما في هذا من شك ، وعلم الله لا يؤثر في اختيار الإنسان .

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً)

أبدلهما الله عز وجل غلاماً مؤمناً طاهراً ، فإذا حدث التعلق به كان التعلق صحيحاً وسليماً .

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً)

حجة إقامة الجدار :

قال : يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ، قال : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، قال : يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك ، وكان أبوهما صالحا ، الأبوة الصالحة تعود بالخير على البنوة الصالحة ، فهذا الأب الصالح استحق أن يطمئن على ولديه اليتيمين ، وأنهما سيأخذان الكنز الذي خبأه لهما تحت الجدار ، وحيث إن الجدار كان على وشك الوقوع جاء هذا العبد الصالح ، وبنى هذا الجدار بلا مقابل .

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

هنا الدقة :

(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)

دليل نبوة الخضر عليه السلام : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي

ليس في علم الشريعة كلها أن تقتل غلاماً لعلمك بأنه سيكون كافراً ، من هنا استنبط العلماء أن العبد الصالح سيدنا الخضر هو نبي ، لأن خواطر الأولياء ليست معصومة ، لابد أن الله أوحى إليه بقتلِ هذا الغلام ، ولا يمكن أن يقبل قتلٌ بخاطر ، الولي يأتيه خاطر ، أما النبي فيأتيه الوحي ، فقتل نفس زكية لا يمكن أن يكون بخاطر من ولي ، بل لا بد أن يكون وحياً من نبي ، هذا يؤكد أن سيدنا الخضر نبي من عند الله .

(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ)

الأولى : تستطيع ، كان متألماً جداً ، أما الثانية هدأت نفسه بعد أن عرف التأويل .

(ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)

ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك :

يجب أن تكون هذه القصص الثلاث في ذهن كل منا ، لأن الإنسان أحياناً يواجه عقبات ، ومشكلات ، وضغوطاً ، أحياناً يحرمه الله الولد ، أو يحرمه الله الذكور ، أو تأتيه زوجة مشاكسة ، أو يكون دخله قليلاً ، لا تخلو حياة المؤمن من عقبات ، وأزمات .

لذلك جاء في الحديث الشريف : أن الله عز وجل أوحى إلى الدنيا أن تكدري وتمرري ، وتضيقي ، وتشددي ، على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، هذا فعل الله عز وجل ، أكرم الأبوين ، وأكرم أصحاب السفينة ، وأكرم الغلامين اليتيمين ، أعماله كلها إكرام .

لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة : الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن ، وأما هذه القصص الثلاث فهي تفسير للقضاء والقدر .

قال عليه الصلاة والسلام :

((كل شيء بقضاء من الله وقدر))

[ورد في الأثر]

والله سبحانه وتعالى لا يقضي إلا بالخير ، قد يكون الخير ظاهراً ، وقد يكون غير ظاهر ، وهنا معنى قوله تعالى :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان : 20)

النعم الظاهرة ؛ هي النعم الظاهرة ، والنعم الباطنة ؛ هي المصائب ، فكم من مصيبة غيرت مجرى حياة الإنسان ، من الضياع إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى النعيم ، ومن المعصية إلى الطاعة ، وكم من مصيبة حملت صاحبها على الطاعة .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى : 30)

ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم ، ويوم القيامة يكشف الغطاء .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

عندئذٍ تعرف الحقيقة على ما هي عليه ، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع .

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس : 10)

ما منكم واحد إلا ويعاني بعض المشكلات ، هذه القصة إجابة شافية كل المشكلات التي يعانيها المؤمن، إنها مشكلات في ظاهرها ، ومعالجات في باطنها ، إنها مشكلات في ظاهرها ، وإكرام إلهي في حقيقتها .

الشيء الذي يلفت النظر في هذه الآيات أن سيدنا الخضر على علم بالشريعة ، لذلك قال :

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

وسيدنا موسى على علم بالحقيقة ، ولكنه بالشريعة أعلم ، وسيدنا الخضر بالحقيقة أعلم ، وما هذا اللقاء إلا لقاء بحرين في العلم .

علم الشريعة ... وعلم الحقيقة ...

علم الشريعة المنهج الدقيق الذي يجب أن تسير عليه أفعال الإنسان المكلف ، وعلم الحقيقة تفسير لفعل الله عز وجل الذي لا ينطوي إلا على الرحمة ، والعدل ، واللطف ، والخير .

بقيت قصة أخيرة ، هي قصة ذي القرنين ، وفيها فوائد واستنباطات نأخذها إن شاء الله في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الكهف 018 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 83 – 110 ، قصة ذي القرنين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثامن من دروس التفسير من سورة الكهف ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصة ذي القرنين ، وقد قال الله سبحانه وتعالى :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً)

قصة ذي القرنين :

فائدة كلمة قل بعد الاستفهام :

حول كلمة(قل)في هذه الآية موضوع طيب ، حيث جاء في أكثر من عشر آيات قوله تعالى : (قل)في جواب يسألونك :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة : 222)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة : 189)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

(سورة البقرة : 219)

إلا في آية واحدة :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة : 186)

فليس فيها (قل)، بمعنى أنه ليس هناك وسيط بين العبد وربه ، فأي عبد ، من أي عرق ، أو جنس ، أو لون ، أو منبت ، أو أمة ، غنياً كان أو فقيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، إذا قال : يا رب يجيبه الله عز وجل : لبيك يا عبد ، وهذا يُذكرُنا بقولهِ تعالى :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ)

هنا :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

سؤال المشركين النبيَّ عليه الصلاة والسلام عن ذي القرنين :

يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن ذي القرنين ، فأجاب الله سبحانه وتعالى بهذه القصة ، ولكن هناك ملاحظة قيمة جداً ، هو أنَّ كتاب الله عز وجل ، ليس كتاب تاريخ ، بمعنى أنَّ المقصود منه ليسَ ذِكْر الوقائع والحوادث ، والأسماء ، والأماكن ، والأزمنة .

إن من صفات كتاب التاريخ التحديد ، أي تحديد المكان ، والزمان ، وتحديد الواقعة ، أسبابها ، وأحداثها ، ونتائجها ، ولو أنَّ هذا الكتاب كتاب تاريخ لافتقرت هذه القصة إلى أشياء كثيرة ، ولكن هذا الكتاب كتاب هداية وإرشاد ، فالأحداث التاريخية ليست معنية في هذه القصة .

مَن هو ذو القرنين ؟

من هو ذو القرنين ؟ قال بعضهم : هو الإسكندر المقدوني ، وبعضهم قال : الإسكندر ، باني الإسكندرية ، وقال بعضهم : هو شخص غير هذا ، الحقيقة لا يعنينا من هو ذو القرنين أبداً ، ولكن تعنينا صفاته ، أمّا الخوض في موضوع من هو ذو القرنيين ، وأي ملك كان ، وفي أي عصر ولد ، وأي بلاد فتح ، هذه الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن حينما نقرأ هذه القصة أسئلة لا مسوغ لها ، لأن الكتاب كتاب هداية وإرشاد إلى رب العباد ، وليس كتاب تاريخ ، نقرأ القصة لنستمتع بها ، عندئذ نجد في نفوسنا شوقاً إلى معرفة ملابساتها ، وأحداثها ، وتفصيلاتها

سبب تسميت ذي القرنين :

الرأي الأول :

وقد قيل حول سبب تسميته بذي القرنين على أوجه الأقوال ، أنهُ سُميَّ كذلك لأنه وصل إلى مشرق الأرض ومغربها ، فله طموح كبير جداً .

الرأي الثاني :

وبعضهم يقول : كان له ذؤابتان ؛ كالقرنيين ، لكن التفسير الأول أوجه ، ملك استطاع أن يجوب أقطار الأرض فيصل إلى مغرب الشمس ومشرقها ، إذاً هو ذو القرنين .

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً)

معنى : مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ

بعضهم قال : هناك استنباط دقيق ، الأقوياء في الأرض ليسوا أقوياء بذواتهم ، إنما هم أقوياء بتمكين الله لهم ، وهذا فضل من الله عز وجل ، فإذا شَعَرَ الإنسان بقوة مادية أو معنوية فهذا من باب التمكين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور : 55)

فذو القرنين رجل مكنه الله في الأرض ، ولكن هناك رجالاً كثيرين مكنّوا في الأرض ، هناك من فتح أوربا بأكملها ، ووصل إلى أعماق روسيا ، واحتل أسبانيا ، وهناك شخصيات في التاريخ ، استطاعت أن تبسط سلطانها على رقعة واسعة جداً من الأرض .

لكنَّ الله عز وجل في هذه القصة ، يرينا كيف يكون الملك الصالح ، فذو القرنين من خلال هذه القصة رجل صالح ، وملك صالح ، وفي بعض الأقوال الضعيفة هو نبي ، لأن الله عز وجل قال عن الأنبياء :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة غافر : 78)

أي من لم نقصص بأسمائهم .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً* إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً* فَأَتْبَعَ سَبَباً)

وقفة عند قوله : وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا

لا بد من وقفة حول هذه الكلمة :

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

يقضي تصميم الله عز وجل للحياة ، هذا التصميم بأن لكل شيءٍ سبباً ، فإذا أردت أن تصل إلى شيءٍ ما ، فلا بد من اتخاذ الأسباب ، فالعلم له طريق ، والقوة لها طريق ، ورفعة الشأن في الناس لها طريق، والغنى له طريق ، والملك له طريق وأن تستحوذ على قلوب الناس له طريق ، فهناك طريق لأيّ شيء تُريدُه .

ربنا سبحانه وتعالى لم يخلق المحاصيل ، والخضار أكواماً على الأرض ، بل جعلها تُقطف ، وقبل أن تقطف تنضج ، وقبل أن تنضج تعقد ، وقبل أن تعقد تزهر ، وقبل أن تزهر تورق ، وقبل أن تورق تُسقى ، جعل تعالى لهذا النبات مراحل فأنتَ تحرث الأرض ، وتُسمّدها وتلقى البذرة فيها ، وتسكُب عليها الماء ، ثُمَّ ينبت الجذير ، والسويق ، والرشيم ، ثُمَّ تورق ، وتُزهر ، ثمَّ تنعقد الثمرة ، وتُثمر ، وتنضج ، ثُمَّ تُقطف .

لكل شيء سبب :

جعلَ الله سبحانه وتعالى لكلِّ شيء سبباً ، فإذا أردت أن تأكل القمح فلا بد أن تزرعه ، وإذا أردت أن تجني العسل فلا بد أن تربي النحل ، وأيُّ إنسان أراد أن يتجاوز الأسباب لقي الخيبة ، فمن أدبك مع الله عز وجل ، ومعرفتك بقواعد الخلق أن تتخذ الأسباب ، وبعدها تتوكل على رب الأرباب .

لقد تأخّرَ المسلمون حينما تركوا الأخذ بالأسباب ، وتواكلوا على الله تواكلاً لا توكلاً ، فهذه القصة ترينا أن ذا القرنين وصل إلى ما وصل إليه ، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ولمع ذكره ، وعلا نجمه ، وسطع اسمه بين الناس ، لا لأنه نام ، وقعد ، وخنع ، وكسل ، بل لأنه أخذ بالأسباب ، هذا هو المغزى .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ)

التمكين من الله عز وجل :

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَب)

آتيناه من كل شيء أراده سبباً له :

(سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

فأتبع الأسباب .

أراد سبباً لهذا الشيء ، فما كان منه ، إلا أن كان أديباً فأتبع هذه الأسباب ، يعني إذا أردت أن تُصبح غنياً ، فالغِنى له سبب ، وإذا أردتَ أن تحتلَّ مكانةً رفيعةً بينَ الناس ، فهذه لها سبب ، ولا بد من أن تقدم لهم شيئاً ، ولا بد أن تعطي أكثر من أن تأخذ ، فهناك سبب لكلِّ شيءٍ تريده في الحياة ، فإذا كنت عبداً واعياً ، أريباً ، تأخذ بالأسباب ، و بعدئذٍ يمكنك الله في الأرض ، أما أن تطلب التمكين فهذا من المستحيلات .

الابتلاء قبل التمكين :

ولذلك عندما سُئِل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أندعو ربنا بالتمكين أم الابتلاء ، فما كان من هذا الإمام إلاّ أن قال : لا يكون التمكين قبل الابتلاء .

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

والطلاب الذين يطمحون إذا صلوا في العام الدراسي أن تأتيهم الملائكة لتجيب عنهم ، وهذه خرافة وتدجيل ، فلابُدَّ أن تدرس دراسة جادة واعية من أجل أن تنال العلامات العالية في الامتحان ، والتاجر الذي يطمح أن يرزقه الله رزقاً كثيراً من تجارته لابد أن يأخذ بالأسباب ، هل اختار المحل المناسب ؟ هل اختار البضاعة المهمة ؟ هل عامل الناس بالحسنى ؟ هل كان سعره مدروساً ؟ وكل من يبتغي الأهداف بلا أسبابها أحمق غبي ، يريد أن يدخل البيوت من ظهورها .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً)

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ

أي فتح البلاد ، ودانت له الأراضي الشاسعة حتى بلغت جيوشه مغرب الشمس ، وعقبة بن نافع الذي فتح البلاد غرباً إلى أن وصل إلى شاطئ البحر المحيط الأطلسي ، حيثُ نهاية البر ، وبعدها بداية البحر ، فكأن الآية تشير إلى أنه وصل إلى طرف البر من جهة الغرب .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)

أي أنَّ البلاد كانت حارة .

(وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

يبدو أن الله عزّ وجل منحَ هذا الملك الصالح الثِقة لورعهِ ، واستقامته وكماله وحرصه على العدالة .

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)

ذو القرنين ليس نبيا على أرجح الأقوال :

وفي بعض الأدلة الضعيفة على أنَّه نبي ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى خاطبه :

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)

قال تعالى :

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص : 35)

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

الحاكم الصالح رحمة على العباد :

إذا تولى الملك الصالح الأمور أعطى كل ذي حقٍ حقه ، يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يمشي في أحد طرقات المدينة فوجدَ غلماناً يلعبون ، فلما رأوه وكان شديد الهيبة ، تفرقوا وولوا هاربين، إلا غلاماً واحداً بقي في مكانه ، جذب نظرَهُ هذا الموقف الجريء ، فقال أيها الغلام : لِمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال يا أيها الأمير : لست ظالماً فأخشى ظلمك ، ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

فهذا ذو القرنين مكنَّ الله له في الأرض ، وأعانَهُ على فتح هذه البلاد الغربية ، لعلمهِ بالله سبحانه وتعالى ، وبحرصه على أداء الحقوق ، وعلى إقامة العدل .

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)

أنت مطلق اليد .

(إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

فما كان من ذي القرنين إلا أن قال :

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً *وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)

أي حينما أطلق الله يده ، ما كان منه إلا أن طبق العدل .

من الحكمة مراعاة جانب العدل :

وهذا درس لنا ، فمثلاً لا أحد يسأل الأب في البيت ، ولكنه ينبغي أن يراعي جانب العدل ، قد تكون امرأته ضعيفة ، لا أهل لها ، فلا ينبغي أن يستطيل عليها ، إذا مكّنَ الله إنساناً في بيته لا ينبغي أن يحيف عن الحق ، وأن يتجاوز حقوق الآخرين ، أو المُعلّم في صف طلّاب صِغار ينبغي ألا ّتضربهم جميعاً في ساعة غضب ، إذا مكنَّهُ الله من هؤلاء الطلاب ، أو مدير دائِرة لو مكنّهُ الله من بضعة موظفين ينبغي أن لا يستطيل عليهم بقوته .

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ)

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

ما كان منه إلا أن وقف إلى جانب العدل .

(أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا)

الظالم نعذبه في الدنيا ، وله في الآخرة من الله عذاب أليم .

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

أمّا المؤمن فنُحسِنُ إليه ، ونجعل قولنا له طيباً مستساغاً ، حسناً ، قال بعضهم عن ذي القرنين : فقد قُصَّ علينا من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها ، وشمالها ، وعدم فتوره ، ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار ، وتجسم الأخطار ، وركوب البحار ، ثم إحرازه هذا الفخار الذي لا يشق له غبار ، وهذا أكبر عبرة لأولي الأبصار ، كانَ رجلاً طموحاً ، ولكن طموحه لم يُخرِجْهُ عن العدل ، كما قام بإعداد العدد ، والجيوش ، والرجال ، والأسلحة ، لتخطي المسافات ، واحتلال البلاد ، وإقامة العدل، وهذا عمل عظيم .

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً)

توجّه ذي القرنين إلى بلاد أخرى :

لما بلغ مغرب الشمس ، ودانت له هذه البلاد ، وخضعت ، وأقام فيها العدل توجه إلى بلادٍ أخرى ، عاد إلى بلاد المشرق .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً)

معنى : لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا

أي أنَّ بلادهم منبسطة ، ليست فيها تلال ، ولا جبال ، ولا تضاريس ، فهيَ بلاد منبسطة ، وأنت ترى الشمسَ في بعض السهول ساعة إشراقها ، وساعة غروبها .

(لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً)

أي أحطنا بكل وسائله ، وإمكاناته ، والعدد التي أعدها ، وبكل الرجال الذين أهلهم .

(وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ)

وصل إلى مكانٍ بين جبلين .

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً)

قصة الخضر مع أصحاب الجبلين :

وجدَ قوماً متخلفين ، بعيدين عن الحضارة ، والعلم والقيّم .

(لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)

وفي بعض التفاسير : لهم لغة غريبة لا يفهمونها .

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً)

يبدو أيضاً من خلال هذه القصة أنهُ احتل البلاد من المشرق إلى المغرب ، وأقام فيها العدل ، ثم توجه نحو الشمال ، حيث رأى جبلين بينهما قومٌ .

(لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)

قال هذا القوم :

من هم يأجوج ومأجوج المفسدون ؟

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ)

اسم لقوم ، أو اسم لقومين ، على اختلاف الأقوال .

(مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ)

قالوا : إنَّ هؤلاء أي يأجوج ومأجوج القوم متصارعون ، متحاربون ، أشرار ، مفسدون معتدون يأتون إلينا ، و يقتلون أبناءنا ، وينهبون ثروتنا ، و يأخذون محاصيلنا ، فهل لك أن تقيم حاجزاً بيننا وبين هؤلاء .

طلب أصحاب الجبلين من ذي القرنين ببناء سور :

(إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا)

هل تقبل أن نعطيك مالاً وفيراً ، في نظير أن تقيم سداً حاجزاً بين الجبلين لتمنع هذه الغزوات .

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

موقف ذي القرنين :

الموقف الأول لهذا الملك الصالح : إقامة العدل .

والموقف الثاني : ترفعه عن أموال الناس .

فقال :

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً)

يُغنيني ما أعطاني ربي من ملك ، وسلطان ، ومال ، ولست بحاجة إلى أموالكم ، ولا أريد أن أرهقكم .

(قَالَ مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)

هذه الصفة الثانية : الترفع عن أموال الناس ، لكنني بحاجة إلى يد عاملة .

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

أعينوني بقوة سواعدكم ، وقوة المواد التي عندكم ، حتى أبني لكم هذا السد ، وأحميكم من عدوكم المفسد .

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً)

بداية بناء ذي القرنين للسور :

القطر ؛ هو النحاس ، يبدو أن هذا السد بني من المواد التي يبنى منها البناء عادةً ، مع الحديد الذي أذيب عليه النحاس ، فهو في منتهى القوة ، لأنه من مواد متماسكة ، مسلحة بالحديد ، مصانة بالنحاس فكان بناء السد عندئذٍ حكيماً .

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً)

عجز يأجوج ومأجوج من تجاوز السور :

لم يتمكنوا أن يصعدوا إليه ، لشدة ارتفاعه ، وكونه أملس ، ولم يتمكنوا من خرقه لشدة متانته ، أي أنه كان مرتفعاً ، أملس ، ومتيناً .

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)

ماذا قال بعد أن بنى هذا السد العظيم ؟

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)

هذه صفة ثالثة : التواضع ... والتوحيد ...

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

إذا قيس هذا السد الذي بني بين الجبلين بقدرة الله فهو شيء تافه ، فإذا شاء الله عز وجل جعله دكاً . فالإنسان المؤمن متواضعٌ دائماً ، يرى حجمه الحقيقي ، لا يضخم حجمه إلى درجة أن ينسى معها قدرة الله عز وجل ،

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

المواعظ المستنبطة من القصة :

تحوي القصة مجموعة مواعظ .

الموعظة الأولى : الأخذ بالأسباب :

الموعظة الأولى التي أرادها الله عز وجل هي أن على الإنسان إذا أراد شيئاً أن يأخذ بأسبابه ، هذا - هو الدرس الأول :

لا نستطيع أن نصل إلى أهدافنا إلا إذا أخذنا بالأسباب .

لا نستطيع أن نرقى إلا إذا أخـذنا بالأسباب .

لا نستطيع أن نكتفي إلا إذا أخـذنا بالأسباب .

لا يزدهـر شـيء إلا إذا أخــذنا بالأسباب .

لا نقوى على عدونا إلا إذا أخذنا بالأسباب .

لا نرقى في ميدان العلم إلا إذا أخذنا بالأسباب .

فطرق الرقي كلها مسدودة إلا إذا أخذنا بالأسباب .

هذا هو الدرس الأول .

تريد أن تتعلم يجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن يرتفع دخلك يجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن تروج تجارتك فيجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن تروج بضاعتك التي تصنعها إذا كان عِندكَ معمل فيجب أن تأخذ بالأسباب .

تريد أن تأخذ أعلى محصول زراعي فيجب أن تأخذ بالأسباب .

هذا هو الدرس الأول .

خذ الأسباب وتوكل على رب الأرباب .

الموعظة الثانية : لطموح :

- الدرس الثاني من هذه القصة :

هو أنَّ هذا الملك الصالح ذا القرنين كان طموحاً إلى درجة أنه حكم مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يمنعه هذا المجد ، وهذه القوة ، وهذا التمكين ، وهذا الاتساع ، وهذا المال الوفير من أن يكون مؤمناً ، متواضعاً يقيم العدل ، ويبغي الخير ، ويُعطي كُلَّ ذي حقٍ حقه ،ويقهر الظالم ، ويعين المظلوم ، ويعطي المسكين والفقير ، ويجازي المحسن ، ويعاقب المسيء .

فالقوة الكبيرة ، واتساع رقعة البلاد ، لا تمنع من إقامة العدل ، وهذا مثل للملك الصالح ، والترّفع عن أموال الناس ، حيثُ عُرِضَ عليه مال وفير ، ومع ذلك رَفَضَ وقالَ : لا .

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)

إذا كنت مكتفياً ، وكلفت أن تدير مال اليتيم ، ترفع عن نصيبك وعن أجرك ، وإذا رأيت ذا حاجة ، وكُنتَ مكتفيّاً فترفع عن أخذ الأجر ، واحتسب هذا لوجه الله عز وجل .

الموعظة الثالثة :

أنه حينما حقق هذا الإنجاز الكبير ما زاده هذا الإنجاز إلا تواضعاً وانكساراً لله عز وجل ، وتأدباً معه.

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)

عرف حجمه أمام قدرة الله عز وجل .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً)

وفي النهاية :

هؤلاء الذين عاشوا في مشارق الأرض ، والذين عاشوا في مغاربها ، وهؤلاء المفسدون يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء الضعاف المتخلفون الذين بنوا سداً حماهم من هجماتهم ، هؤلاء جميعاً جمعناهم يوم القيامة ليلقوا جزاء عملهم .

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً)

عرض الله جهنمَ بارزةً :

عرضت جهنم بارزةً أمام الناس .

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً)

إياكم والغفلة فإنها البلاء الأعظم :

الكافرون هم الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري فهذه الحقيقة الكبرى في الحياة ، حقيقة الدين ، حقيقة الله عز وجل ، لِمَ خلقنا ؟ لِمَ جيءَ بنا إلى الدنيا ؟ ما الهدف من وجودنا على وجه الأرض ؟ أين المصير ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما قيمة العمل الصالح ؟ ما معنى الاستقامة على أمر الله ؟ كيف نعرف الله؟ كانوا في غفلة عن هذه الحقائق الكبرى التي لابد منها .

لِكُلٍّ منا ساحة في نفسه ، فما الذي يشغلها ؟ قد تنشغل هذه الساحة بجمع المال ، فالمال أصبح حجاباً بينك وبين الله ، وقد تنشغل هذه الساحة ببعض الشهوات ، فالشهوات حجاب بينك وبين الله .

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

ما ذكروا ربهم ، ولا استمعوا إلى الحق ، فإما أن تفكر وتتأمل وتُدقق ، وتُحقق ، وتدرس ، وإما أن تستمع ، أمّا لا هذه ، ولا تلك !!!

أضعف الإيمان أن تداوم على مجلس علم ، فتستمع ، كيف يفسر القرآن ؟ ما جدوى هذه الحياة ؟ إلى أين المصير ؟ استمع ، افهم كلام الله ، افهم سنة رسول الله ، افهم أحكام الفقه ، اقرأ القرآن .

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

لم يخلقهم الله ، وهم لا يستطيعون سمعاً ، ولكن انغماسهم في الشهوة جعلهم لا يستطيعون ، أي أنَّ هذه الشهوات حالت بينهم وبين أن يسمعوا .

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)

الوَلاية لله الحق :

ما البديل إذا أدارَ إنسان ظهره للدين ؟ إذا كان البديل أن تتخذ أناساً من دون الله تُرضيهم ، وتخدمهُم ، وتُسبّح بحمدِهم فهذا هو الخطأ الكبير ، وفيه الخيبة الكبيرة مهما كان شأنُ هؤلاء الناس كبيراً .

إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً

أي هذه جهنم سوف تحتوي على هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء بديلاً لهم عن الدين . ويا أيها الإخوة المؤمنون ، الآيات التالية تقصم الظهر ، قال تعالى :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً)

من هم الأخسرون أعمالا ؟!

الأخسرون اسم تفضيل ، أي أشد الناس خسارةً يوم القيامة ، لو أن إنساناً أتلف ماله كله ، أو أخذت كل أمواله منه لا يسمى خاسراً ، لأنه يملك نفسه .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

هم الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتّبعوه .

ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلّموه .

ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ، فهذا شيطان فاحذروه .

فهؤلاء على الرغم من أنهم قد تاهوا ، وشردوا وضلوا فهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً .

قد يُحصّل إنسان مالاً حراماً ، فيأخذه الزهو ، والكبر ، ويظن أنه حَصّلَ إنجازاً كبيراً ، وأنه بذكائه ، وقوته جمع هذا المال ، ففضلاً عن أنه ضال معتد ، أثيم يأخذه الفخر ، والخيلاء بتحقيقه هذا الدخل الكبير .

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

منتهى الضلال ، أن يكون المرء في ضلال ، وهو يحسب أنه على هُدى ، وأن يكون في خسارة ، وهو يظن أنه يربح ، أن يكون في تخلف ، وهو يظن أنه في تقدم ، أن يكون في تراجع ، وهو يظن أنه يرقى ، فهذا منتهى الغباء ، والخسارة ، والغفلة . هؤلاء :

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

الكفر بآيات الله سبب الخسران :

أيها الإخوة الأكارم ، كيف ضلَّ سعيُهُم في الحياة الدنيا ؟ لأنهم كفروا بآيات ربهم ، ولو أنهم فكروا بآيات الله الكونية ، أو فكروا بآياته القرآنية ، لما ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، ولكنهم أعرضوا عن ذكر الله ، ولم يُفكِروا في هذه الآيات التي نصبها الله عز وجل في كل مكان .

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة فصلت : 53)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس : 101)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

إيّاكم ومحبطات الأعمال :

إنهم يئسوا من الله ، ومن الجنة ، ومن الآخرة ، وقالوا : هذه مغيبات لا نُعنى بها ، بل نحن واقعيون نريد الواقع ، حينما تركوا الدين ، وتركوا ما وراء الحياة ، واهتموا بالشهوات فقط ، وقالوا : نريد الحياة الدنيا ، وأصروا عليها ، هؤلاء أعرضوا عن ذكر الله عز وجل ، وكفروا بآيات ربهم ، ولقائه ، وحبطت أعمالهم ، حينما أيقنوا أنه لا حساب ، ولا عذاب ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا مسؤولية ، وأن

الدنيا لمن يملك الدرهم والدينار ، وأن المال مادة الشهوات .

إذاً شيء طبيعي أن ينكبّوا على جمع الدرهم والدينار من أي مصدر كان ، من حلال ، أو من حرام ، بشكل صحيح ، أو غير صحيح ، هَمَهُم الدرهم والدينار ، من أجل تحقيق شهواتهم ، ونزواتهم . فحينما كفروا بآيات ربهم ولقائه ـ فحبطت أعمالهم ـ المعنى أنها أصبحت لا قيمة لها ، لو أنها أعمال فيما يبدو جيدة ، لو بنوا مستشفى مثلاً .

بنى أحدهم مستشفى ، ولكنه وضع أسعاراً للعمليات تفوق طاقة الإنسان ، فصارَ المرضى يشكون من الفاتورة ، وليسَ من المرض نفسه ، هل هذا عمل إنساني ؟ لا ، ليس كذلك ، إنَّ مظهره إنساني ، أما الحقيقة فقد سبّبَّ مشكلات كثيرة ، فقد يكون لك عمل ظاهره إنساني ، أما في الحقيقة فهدفه استغلالي ، فهذا العمل قد حبط .

(كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)

لو أنَّ هذه الأعمال فيما يبدو إنسانية ، ولكنها لا قيمة لها عند الله ، أو معنى حبطت أي ساءت ، أي تخطى الحدود الأدبية ، والاجتماعية ، والحقوقية للناس ، من أجل أن يأخذ أكبر مبلغ ممكن من الناس غش في البضاعة ، وأساء في التصرف مثلاً ، استغل ، واحتكر ، فالعمل إما أن يفقد قيمته بأنه أحبط ، أو أنَهُ يصبح سيئاً .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

الكافر لا وزن له عند الله : فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا

لا شأن لهم عند الله ، فهم صَغار عنده سبحانه .

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً)

هُم يستهزئون ، ويضحكون إذا ذكر أمامهم الدين ، أو بعض آيات القرآن فيهزؤون منها ، ويستخفون بها ، ويمزحون عندها ، فمصيرُ هؤلاء جهنم بما كفروا .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)

الإيمان بالله سبب الفلاح :

لكنَّ الذينَ عَرَفوا الله مصيرُهُم جنات الفِردوس ، لا يبغونَ عنها حِولاً ، لِشدّة النعيم فيها ، أما أي مكان في الأرض مهما يكن جميلاً فيبغي الإنسان التحول عنه مع مرور الأيام والليالي ، إلا في الجنة .

(لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)

يعني تحولاً .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)

كلمات الله لا تنفد :

وهذه الآية دقيقة جداً ، كلكم يعلم كم تكفي محبرة لا يزيد حجمُها على مِقبض اليد ، إنها تكفي الذي يكتب كثيراً عاماً واحداً ، أو عامين ، فكيف لو كان عنده لتر من الحبر !! اللتر يكفي الطالب طوال عمره ، فكيف لو كان عنده برميل ، أو خزان ، أو مستودع ، أو بحيرة .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي)

معنى : كلمات الله :

والعلماء حيال هذه الآية فريقان :

التفسير الأول : القرآن :

بعضهم يقول : كلمات الله هي هذا القرآن الكريم ، والمعنى في هذه الآية أن هذه الكلمات لا يكفي لشرحها البحار ، لو أنها مداد .

التفسير الأول : عِلمُ الله :

وبعضهم قال : كلمات الله ؛ علم الله ، أنَّ في الكون من العلم ما لو أردنا شرحه لما استطاع البحر أن يكون كافياً لو كان مداداً لشرحه ز

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

مع أن البحر في الأرض أربعة أخماس اليابسة ، فالقارات الخمس المعروفة لا تعدل خمس الأرض ، والبحر يزيد عمقه في بعض الأماكن عن عشرة كيلو مترات ، وفي أماكن أخرى عن خمسة ، وهكذا ،

فهذا البحر كله ، ولو جئنا بمثله بحراً آخر ، فلو أن هذين البحرين مداد لما كفى هذا المداد لشرح كلمات الله ، أو لشرح علم الله عز وجل .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

النبي بشر يوحى إليه :

النبي عليه الصلاة والسلام بشر ، وقال : اللهم إني بشر أرضى كما يرضى البشر ، لكنه بشر وليس كالبشر .

(يُوحَى إِلَيَّ)

إنَّ الله عز وجل اختاره ، واصطفاه نبياً ورسولاً يوحى إليه .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

ملخّص القرآن : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ

قال بعض العلماء : إنَّ في هذه الآية الأخيرة تلخيصاً لِكتاب الله كله .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

ماذا يوحى إليّ ؟ يوحى إليّ هذا الكتاب ، التوحيد هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الدين ، قال عزوجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : 25)

هذه دعوة جميع الديانات السماوية وجميع الكتب المنزلة على أنبياء الله .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ)

فإذا عرفت أنه لا إله إلا الله فقد عرفت كل شيء ، وإن لم تصل إلى هذه الحقيقة لم تعرف شيئاً ، مُلخّص هذا القرآن كُلّهُ من دفته إلى دفته هوَ التوحيد .

(لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء : 25)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

هذه الحقيقة ما قيمَتُها إذا عرفناها ، وابتعدنا عنها ، ولكن المطلوب أن نرجو لقاء الله عزّ وجل ، وأن نهيِّئَ العمل الصالح لِهذا اللقِاء الذي هوَ أثمن كُلِّ شيء .

قبول الأعمال : الإخلاص وموافقة الشرع :

قال العلماء : " نهاية العلم التوحيد " ، أن تقول : لا إله إلا الله ، ونهاية العمل الإحسان ، الإحسان المبني على علم يؤدي بك إلى الاتصال بالله عز وجل ، الذي هو قمة السعادة ، وهذه أمور أساسية في الدين ، فمهما تعلمت إن لم توحد فأنت جاهل ، وإذا عرفت أنه لا إله إلا الله وصلت إلى نهاية العلم .

بقي العمل : هذا العلم لا قيمة له في ذاته ، لأنَّ العلم ليسَ هدفاً بذاته ، إنما هو وسيلة ، فيجب أن تبني على هذا العلم العمل الصالح ، والعمل الصالح يفهم منه أن تستقيم على أمر الله ، وأن يكون عملك وفق شرع الله ، وأن تحسن إلى خلق الله .

الاستقامة .. والعبادة .. والإحسان .. كلها تحت العمل الصالح ، الذي هو ثمن الاتصال بالله .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

إذا أشركَ ضيّعَ عمله ، وأحبط عمله ، وبعضهم قال : ولا يشرك تعني الاستقامة ، أطاع مخلوقاً ، وعصى الخالق ، لم يستقم حقَّ الاستقامة ، فإذا لم تشرك بالعبادة ، أي استقمت على أمره أولاً ، وإذا عملت الصالحات ثانياً ارتقيت إلى رب الأرض والسماوات ، كل هذا بسبب أنك آمنت بأنه لا إله إلا الله. فهذه الآية الأخيرة من سورة الكهف فيها تلخيص للقرآن الكريم .

لا أمل من غير عمل :

وفيها شيء آخر ؛ أن الأمل لا يجدي بلا عمل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

فأمرَ بالعمل الصالح ، ولم يقبل التمني والرجاء .

إذاً ربَطَ الله سبحانه وتعالى الأمل بالعمل ، وأي أمل بلا عمل أمنية لا قيمة لها إطلاقاً .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 01 - 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الأول من سورة مريم ، هذه السورة في مجملها تتحدَّث عن شيئين ، كما ورد هذا في آخرها إذا يقول الله سبحانه وتعالى :

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً)

(سورة مريم)

خلاصة سورة مريم بشارة للمؤمنين وإنذار للكافرين :

كأن هذه السورة بأكملها تبشِّر المؤمنين وتنذر الفاسقين ، كيف بشَّرت المؤمنين ؟ ربنا سبحانه وتعالى ذكر فيها قصَّة سيدنا زكريًا ، ويحيى ، ومريم ، وعيسى ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس ، كل هؤلاء الأنبياء الكرام ورد ذكرهم في هذه السورة الكريمة ، أولئك الذين أنعم الله عليهم ، كيف أنعم عليهم في الدنيا والآخرة ؟ وكيف أعطاهم ؟ وكيف رحمهم ؟ وذكر الذين تركوا الصلوات ..

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

(سورة مريم : " 59 ")

وكيف أنهم سيلقون غيًّا ، إذاً هذه السورة بأكملها بِشارةٌ للمؤمنين ، وهذه أمثلة كثيرةٌ جداً ، وإنذارٌ للمعرضين ، فكأنها تطبيقٌ عملي لأولئك الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة .

الشيء الثاني : أنَّ هذه السورة بدأت بالأحرف :

(كهيعص)

الأحرف المقطَّعة المعجزة وأقوال المفسرين فيها :

ومعظم المفسِّرين يتوقَّفون عند هذه الحروف ، ويقولون عنها : " الله أعلم بمرادها " .

وبعض المفسرين يقولون : " إنَّ هذا القرآن المعجز من جنس هذه الحروف " ، فكما أنَّ التراب نَفَخَ الله فيه من روحه فكان بشراً سوياً ، كذلك هذه الحروف جعل الله منها كتابه المعجز ، إذاً إنكم أيها البشر لن تستطيعوا ، والحروف بين أيديكم أن تصوغوا كتاباً فيه إعجازٌ من كل النواحي ؛ إعجازٌ في التشريع ، إعجازٌ في البلاغة ، إعجازٌ في الإخبار ، إعجازٌ في الإرشاد ، إعجازٌ في الهداية ، إعجازٌ

في الدلالة ، إنكم لن تستطيعوا أن تصوغوا من هذه الحروف التي بين أيديكم كلاماً بهذا الإعجاز، هذا قاله بعض المفسرين .

وبعضهم الآخر ، وقد عُزي هذا إلى الإمام علي كرَّم الله وجهه ، قال : " إنها أوائلُ لأسماء الله الحسنى" ، فيا كافي ، ويا هادي ، ويا ولي، ويا عالِم ، ويا صادق الوعد ، هذه روايةٌ عُزيَت إلى الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه .

وفي تفسير الفواتح الإلهيَّة أن هذه الحروف :

(كهيعص)

أوائل أسماء رسول الله ، فجاء في هذا التفسير ؛ أن يا كافي عموم الأنام ، هذه الكاف ، وهاديهم إلى دار السلام ، بيمن العزيمة العليَّة ، ياء عَين ، وبصدق الهمَّة الصافية ، والقرآن كما قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه : " ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه " ، القرآن حمَّال أوجه ، لك أن تقول مع معظم المفسِّرين : الله أعلم بمراده ، ولك أن تقول : إن هذا القرآن الكريم من هذه الحروف ، فيا معشر الجن والإنس ، يتحدَّاهم الله عزَّ وجل أن يأتوا بمثل هذا القرآن ..

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء : 88)

ترابٌ نفخ الله فيه فكان بشراً سويَّاً ، حروفٌ كان منها هذا القرآن المُعجز ، ولك أن تفهم هذه الحروف أنها أوائلُ لأسماء الله الحُسنى ، وقد عُزيت هذه الرواية إلى الإمام عليٍّ كرَّم الله وجهه ، ولك أن تفهمها أنها أوائلُ أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، يا كافي عموم الأنام بالهدى ، وهاديهم إلى دار السلام ، بيمن العزيمة العَليَّة ، وبصدق الهمَّة الصافية .

على كلٍ هذا القرآن لا يعلم تأويله إلا الواحد الديَّان ، نحن نجتهد ، المفسِّرون اجتهدوا ، وأنا نقلت لكم ما قاله المفسرون ..

(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

قصة زكريا عليه السلام دروسٌ وعبرٌ :

أيْ أن هذه القصَّة هي ذِكْرٌ لرحمة الله التي نالت عبده زكريًّا .

أيُّها الإخوة الأكارم ، أتمنَّى عليكم ألاّ تظنوا أنّ هذه قصَّة تاريخيَّة ، ليس المقصود في كتاب الله أن تُروى القِصَص ، ولا أن تُنْقَل الحوادث ، ولا أن تصوَّر الشخصيات ، ولا أن يدور الحوار ، هذه كلُّها ليست من أهداف كتاب الله ، الله سبحانه وتعالى أراد من هذه القصَّة أن يضع بين أيديكم حقيقةً في

التعامل معه ، ما منا واحدٌ إلا وله علاقةٌ بالله عزَّ وجل ، قد تأتي الأمور كما يشتهي ، ما الموقف الذي يجب أن يقفه ؟ وقد تأتي الأمور على خلاف ما يشتهي ، ما الموقف الذي يجب أن يقفه؟ إن هذه القصَّة على إيجازها تضع بين أيدينا حقيقة أساسيَّة في التعامل مع الله عزَّ وجل ، فكأنها .

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ)

وربُّ زكريَّا هو ربك ، وإله زكريَّا هو إلهك ، وإذا كان الله عزَّ وجل قد أعطى زكريا عليه السلام فلن يَضِنَّ عليك بالعطاء ، لو أنك اتبعت الطريق التي سار به سيدنا زكريا ..

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

هذا النبي الجليل ، هذا النبي العظيم له أتباع ، له موالون ، له تلامذة ، له مَنْ معه من المؤمنين ، هؤلاء خاف عليهم أن يضيعوا من بعده ، أن يُشتَّتوا ، أن يتفرَّقوا ، أن يجهلوا بعد علمٍ ، أن يضيعوا بعد الهُدى .. فـ :

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

نداء زكريا ربَّه خفيةً :

قال العلماء : " النداء هو ما كان بصوتٍ مسموع ، والمناجاة هي ما كانت في القلب " ، لقد نادى ، ومن آداب النِداء أن يكون خفيّاً بصوتٍ منخفض ، فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّهُ مَعَكُمْ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، تَبَارَكَ اسْمُهُ ، وَتَعَالَى جَدُّهُ))

(متفق عليه)

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

حكمة ورود لفظ الرب في قوله : إِذْ نَادَى رَبَّهُ :

وأنت أيُّها الأخُ الكريم ، تستطيع أن تدعو الله عزَّ وجل من دون أن تحرِّك شفتيك ، ويسمعك ، ويستجيب لك ، وهو معك في كل أحوالك ، فهذا النبي عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام نادى ربَّه، كلمة(ربَّه)أيْ الذي ربَّاه ، الذي خلقه مِن العَدَم ، الذي جعل له الرحِمَ في بطن الأمِّ رحمةً ، والذي أمدَّه بالغذاء ، والذي شقَّ سمعه وبصره ، والذي كوَّن قلبه ، وخفقَ القلبُ في الأسبوع السادس ، وجرى

الدم في الشرايين ، ونَمَت الأعضاء ، وظهرت الأعصاب ، واكتمل الخلق ، فلمَّا نزل إلى الدنيا كانت الهَدِيَّة الأولى :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد : 8-10)

حليبٌ يتبدَّل تركيبه كل يوم ليوافق طبيعة المولود ، وأجهزته ، وقوَّة احتماله ، في هذا الحليب مواد قاتلة للجراثيم ، في هذا الحليب مواد تمنع التصاق الجراثيم بالأمعاء ، في هذا الحليب مناعةُ الأم كلُّها ، في هذا الحليب فوائد لا تعدُّ ولا تحصى ، إنه يأتي للطفل بارداً في الصيف ، دافئاً في الشتاء ، تثبت الحرارة طوال الرضعة ، جاهزٌ بجاهزيَّةٍ من الدرجة الأولى ، تعقيمٌ مثالي ، حرارةٌ مثاليَّة ، وقايةٌ من الأمراض كلّها ، مناعة تامَّة ..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد : 8-10)

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ)

ربَّه الذي ربَّاه ، الذي أطعمه وسقاه ، الذي خلق له هذه الأعضاء ، وتلك الأجهزة ، وهذه الحواس ..

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

الحث على كثرة الدعاء والتضرع :

أنت أيُّها الأخ الكريم هل تنادي ربَّك ؟ كم مرَّةً في الأسبوع تناديه ؟ مرَّةً واحدة ؟! النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ربَّه في كل أحواله ؛ إذا خرج من البيت ، إذا دخل إلى البيت ، إذا دخل إلى السوق ، إذا خرج من السوق ، إذا التقى بإنسان ، إذا ارتدى ثيابه ، إذا خلع ثيابه .. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي]

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)

شكوى زكريا إلى ربه الضعفَ والكِبرَ

معنى (وَهَنَ)أي ضعف ، لم يتحدَّث عن جلده ، ولا عن عضلاته ، ولا عن قدراته إنما تحدَّث عن عظامه ، فإذا كانت دِعائمُ البناء قد تضعضعت فلا شيء في البناء إلاّ وقد تداعى أوْ كاد .

(إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)

العظم وهو أساس البناء ، أساس الجسم قد ضعف ..

(وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً)

هذه من استعارات القرآن الرائعة ، شُبِّه الشيب بالشرر ، وشُبِّه الرأس بمكان اشتعال النار ، فإذا اشتعلت النار تطاير الشرر في كل الأنحاء ، فكأن وصول الشيب إلى رأس الإنسان بمثابة شررٍ اشتعل في رأسه .. يا ..

(رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً)

من آداب الدعاء :

والعلماء قالوا : من آداب الدعاء ثلاثة آداب :

الأدب الأول : أن يكون خفية :

أن يكون الدعاء خفيَّاً .. هو دعا بلسانه ، لو لم يدعُ بلسانه لكان مناجاةً ، لكنَّه لم يدعُ في ملأٍ من الناس بل دعا في المحراب ، وقال :

(إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً)

الأدب الثاني : التذلل والافتقار :

هذا هو الأدب الثاني في الدعاء ، التذلل ، التضعضع ، إظهار المسكنة ، إظهار العَجز ، إظهار الافتقار ، كيف تدعو خالق الأكوان وأنت في حالة كِبْر ؟ لا ، لابدَّ مع الدعاء من التذلل ، لابدَّ من إعلان الضعف ، لابدَّ من إعلان الافتقار ، لابدَّ أن تكون ، وأنت تدعو في حالة افتقارٍ إلى الله عزَّ وجل .. يا ..

(رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً)

الأدب الثالث : حسنُ الظنِّ بالله عزو جل :

أجمل ما في هذه الآية قول الله عزَّ وجل على لسان سيدنا زكريَّا :

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

في كل حياتي ما دعوتك مرَّةً ، وكنت شقياً بهذا الدعاء ، ومعنى شقياً أي محروماً ، العلماء قالوا : " الشقاء هنا الحرمان " ..

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

كن عن همومك معرض اً وكِل الأمور إلى القضا

و أبشر بخيرٍ عاجـلٍ تنسى به ما قد مضى

فلربَّ أمرٍ مسخطٍ لـك في عواقبه رضـــا

ولربَّما ضاق المضيـق ولربَّما اتسع الفضــا

الله يفعل ما يشـــاء فلا تكونَنَّ معترضــا

الله عوَّدك الجميـــل فقس على ما قد مضى

* * *

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

يا رب ، ما دعوتك في حياتي مرَّةً وخيِّبت ظنِّي ، إلا وأكرمتني ، وأعطيتني ، ورحمتني ، ورزقتني ، ويَسَّرت أمري ، إذاً هذا هو الأدب الثالث في الدعاء .

الأدب الأول : أن يكون الدعاء خفيًّاَ .

والأدب الثاني : أن يكون مع الدعاء ضراعةٌ ، وتذلُّل ، وافتقارٌ .

والأدب الثالث : أن تتوسَّل بظنٍّ حسنٍ بالله عزَّ وجل ، أن يكون خفياً ، وأن تكون مفتقرًا ، وأن تكون متوسلاً بظنٍ حسنٍ بالله عزَّ وجل ..

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

من الصياغة المعجزة أن جاءت كلمة (رب)معترضةً بين كلمة : (دعائك)و : (شقيَّاً)، من التحبُّب ، ومن التودد ، ومن التعظيم أن تأتي كلمة ربي مُقْحَمَةً بين كلمتين متلازمتين ، وهذا درسٌ لنا ، الشيء الذي تراه مستحيلاً ، الشيء الذي يقلقك ، الشيء الذي يَقُضُّ مضجعك ، الشيء الذي تخاف منه ، شبح المصيبة التي يبدو أنها قادمة ، إن حدثَ هذا فبادرْ إلى الصلاة ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ بادرَ إلى الصلاة ، صَلِّ صلاة الحاجة ، صَلِّ صلاة الدُعاء ، صَلِّ في جوف الليل ركعتين واسأله كل حاجاتك ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

(متفق عليه ، واللفظ لمسلم)

(شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل : " 62 ")

قال العلماء : " إن المُضطَّر مستثنى من كل شروط الدعاء ، بشرط أن يقول : يا رب مِن كل قلبه " ، دون أن يقولها بلسانه ، وهو يعتمد على زيدٍ أو عبيد ..

(قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي)

استكمالاً لهذه القصَّة ورد مقطعٌ قصيرٌ في آل عمران حول هذا الدعاء ، بماذا دعا ؟ السيدة مريم بنت عمران قد كفلها زكريا عليه السلام بعد أبويها ، قال تعالى :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

(سورة آل عمران : " 37 ")

السيدة مريم ..

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

(سورة آل عمران : " 37 ")

قال العلماء : " كلَّما دخل عليها وجد صلاحاً ، وطاعةً ، وسمتاً ، وعلماً ، وفهماً ، وحلماً ، وإقبالاً ، وإشراقاً " ، ليس المقصود بالرزق حصراً أنه رأى فاكهة الصيف في الشتاء ، حصراً ، ولكن بعض العلماء يضيف إلى ذلك أنه رأى سمتاً ، ورأى علماً ، ورأى إشراقاً ، ورأى عبادةً ، ورأى محبَّةً عندئذٍ..

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(37)هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

(سورة آل عمران : " 37 "-38")

لمَّا رأى هذه البنت الطاهرة ، التقيَّة النقيَّة ، العالمة الفقيهة ، المقبلة ذات القلب المشرق عندئذٍ :

(دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(38)فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)

(سورة آل عمران : " 37 "-38")

إذاً متى دعا ؟ دعا حينما رأى الكمال والتقوى والإقبال والقُرب قِيَماً متمثلة بمريم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، إذاً :

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً)

معنى : خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي

خاف على هؤلاء الذين يدعوهم إلى الله ، خاف على تلامذته ، خاف على أتباعه ، خاف على المؤمنين الذين هم معه ، خاف عليهم أن يضيعوا بموته ، أنْ يَشْتَتُوا ، أن يضلوا ، أن يتفرَّقوا ، أن يضلوا بعد

الهدى ، خاف عليهم ، ولكن الطريق مسدود ، فأنَّى له أن يأتيه الغلام ؟ هو قد بلغ من الكِبَر عِتِيًّا ، أي قد تجاوز السن التي يمكن فيها أن يُنجب الأولاد ، وامرأته عاقر في الأصل ، وفوق أنها عاقر فقد تجاوزت السن التي تنجب فيها النساء غير العواقر ..

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً)

مرافقة الأسباب للنتائج :

وقف بعض المفسِّرين عند هذه الآية وقفة رائعة ، فقال : هو نبيٌّ يعلم أن الله عزَّ وجل لا تقف الأسباب عَقَبَةً أمام أمره ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

الأسباب ليست هي سبب النتائج ، إنما هي ترافقها ، لأنَّ المُسبِّبَ هو الله عزَّ وجل ، وما السبب إلا حدث يرافق النتيجة وجوداً وعدماً ، وبالإمكان أن تظهر النتيجة بلا سبب ، فلماذا وصف نفسه بأنه قد بلغ من الكبر عِتيا ؟ ولماذا وصف امرأته بأنها عاقر ؟ ليعلّم إخوانه أن الله عزَّ وجل على كل شيٍ قدير، فعلى الرغم من أنه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأن امرأته كانت عاقراً ، وقد تجاوزت السنَّ التي يمكن فيها أن تلد غير العاقر ، ومع ذلك فالله على كل شيءٍ قدير .

إنّ مع العُسر يسراً :

ونحن أيُّها الإخوة لا ينبغي أن نيأس من رحمة الله ، ولو أن الإنسان أصابه مرضٌ عضال فليس له أن يقول : إنَّ هذا المرض ليس لهُ شفاءٌ ، فهذا كلام الجهل ، بل اسأل الأطبَّاء من أهل الإيمان ، فإنهم يقولون لك : هناك شفاءٌ ذاتي لا يعلم الطب كيف يحدث ، شفاءٌ ذاتي .. هو من عند الله .

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء : 80)

إنَّ الله سبحانه وتعالى يجعل مع العُسر يسراً ، يخلق من الضعف قوَّة ، ومن الضيق فرجاً ، ومن شأن المؤمن أن يوقن أن الله سبحانه وتعالى يرزقه من حيث لا يحتسب ، وأنه مَن يتوكَّل على الله فهو حسبه، وأنه ..

(مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق : 2)

هذه الآية صورة رائعة ..

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

ما كان لديه من مخرج ، والأمور أُحْكِمَت حَلقاتها ، سُدَّت من كل جانب ، جميع أبواب الفرج مسدودة، لكن ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، متى جُعِلَ هذا المخرج ؟ بعد أن ضاقت إلى درجة ظَنَّ معه أنه ليس هناك مخرج ..

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً)

دقة متناهية : فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا

ولكن دقَّة هذه الآية أنه لم يقل : فهب لي وليا ، لو قال : فهب لي وليا ، أنت بلغت من الكِبَر عتيا ، وامرأتك عاقر فكيف يأتيك الغلام ؟ ولكنَّه قال :

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

أي من طريقك يا رب ، من دون أخذٍ بالأسباب ، هذه حالةٌ استثنائيِّة ..

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

يا رب .. بالإعجاز ، بتجاوز الأسباب ، من دون أن يكون السبب هو الواسطة ..

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ)

مرَّت معنا هذه في سورة الكهف :

(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)

(سورة الكهف : 65)

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً* يَرِثُنِي)

يكون داعياً إلى الله مِن بعدي ، يرث هؤلاء الذين أدعوهم إلى الله..

(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)

الدعاء بالولد الصالح :

رضيّاً لك ، اجعله مرضياً يا رب ، اجعله ممن ترضى عنه ، لأنك إذا رضيت عن إنسان فهذا الرضا هو كل شيء ، ما من مرتبةٍ على وجه الأرض أعظم من أن يرضى الله عنك ، وهل مِن وصفٍ وُصِفَ به أصحاب النبي عليهم رضوان الله وعليه الصلاة والسلام ، هل من وصفٍ أبلغ من أن يقول الله عزَّ وجل :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح : " 18 ")

فكلمة (رضي الله عنهم)هذه أعلى شهادة ، وأعلى رتبة ينالها إنسان على وجه الأرض ..

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً)

أي يا رب هب لي غلاماً تكون راضياً عنه ، وراضياً لك ، هب لي غلاماً ينوب عني بعد موتي في تعريف الناس بك ، في دلالتهما عليك ، في الأخذ بيدهم إليك ، هب لي غلاماً يرث هذا المقام الذي أقوم به بين الناس ، فكان الجواب من الله عزَّ وجل :

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً)

لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا

قال بعض العلماء : " إن الله سبحانه وتعالى سمَّى هذا الغلام بهذا الاسم ، كيف أن الله عزَّ وجل زوَّج النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب ، وكذلك ربنا سبحانه وتعالى سمَّى هذا الغلام يحيى ..

(يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً)

معنى السميّ :

السَميُّ هو المُشابه ، مِن بعض معاني هذه الكلمة أنه ليس مَن له اسمٌ كهذا الاسم ، أو ليس مَن له صفات هذا الغلام ، السَمِيّ المشابه .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

؟ أي مشابهاً ، عندئذٍ قال هذا النبي الكريم :

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ)

قال هذا تعليماً لأصحابه ، قال هذا تعليماً للناس ، أو تعريفاً بقدرة الله عزَّ وجل ، شروطٌ مستحيلة ، وضْعٌ لا أمل منه ، لا رجاء فيه أن تلد امرأةٌ عجوزٌ ، وهي في الأصل كانت عاقراً ، وأن ينجب رجلٌ بلغ من الكِبَر عتيا ، ووهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيباً .

من رحمة الله توقف الإنجاب في سن محددة :

وبالمناسبة : من فضل الله على الناس أن المرأة إذا بلغت سِنَّاً معيَّنة توقَّفت عن الإنجاب ، وتعليل هذا أن في مبيضها عددٌ محدودٌ من البويضات ، في كل شهرٍ ينزل من المبيض بيضتان ، فإما أن تنقلبا إلى حَمْلٍ ، وإما أن تذهبا ، إلى أن تنتهي هذه الكميَّة المحدودة ، هذه الكمية المحدودة تنتهي في الأربعين ، في الخامسة والأربعين ، في السابعة والثلاثين ، في الخمسين أحياناً ، هذه الكمية المحدودة تنتهي ، ولو أن هذه الكمية تتوالد باستمرار وغير محدودة فالأمر عندئذٍ لا يُحتمل أنَّ امرأةً في الثمانين ، أو في

التسعين ، أو في السابعة والتسعين ترونها حاملاً ، فكيف تربي ابنها ؟ أيةُّ امرأة تستطيع أن تربي ابنها، وهي في التسعين ؟ فهذه من حكمة الله سبحانه وتعالى ، الرجل ينجب إلى سنٍ متأخرةٍ جداً ، أما المرأة فعدد البويضات فيها محدود ينتهي في سنٍّ معيَّنة ، هذه حِكَمٌ ربما لا ينتبه الإنسان إليها ، مثلاً الرجلُ قد يفقد شعره ، ولكن ليس في عالم النساء امرأةٌ تفقد شعرها كلياً ، قد يخفُّ شعرها وهذه من حكمة الله ورحمة بالنساء ، هناك تخطيط ، هناك إلهٌ عظيم يفعل ما يريد .

(قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قالَ كَذَلِكَ)

ليس على شيء مستحيل :

وأنت في هذه الحالة ، وأنت قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتك عاقرٌ في الأصل ، وقد تجاوزت سنَّ الولادة ، ولو لم تكن عاقراً ..

(قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

كن فيكون ..

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(صحيح مسلم عن أبي ذر)

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام ..

كن فيكون ، زُل فيزول .

(قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

كلّما عرفتني رأيتَه هيناً عليّ ..

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)

أيهما أعظم ؟ ..

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)

لم تكن أيها الإنسان شيئا مذكورا :

كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون من عدم ؟ كان الله ، ولم يكن معه شيء ، هو قديمٌ بلا بداية ، لكن الكون حادث ، ما الشيء الحادث ؟ هو الذي يسبقه العَدَم ، ويليه العَدَم ، الكون كلُّه حادث لكن الله سبحانه وتعالى أزليٌّ قديم ، أبديٌّ سرمدي ، واجب الوجود ..

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً)

متى يأتي الغلام ؟ الإنسان عَجول ، متى يأتي هذا الغلام ؟

(اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً)

من صفات الإنسان استعجال الخير :

أي أن الله جعل له آيةً ، أن لسانه ينعقد فلا يستطيع تكليم الناس بكلمة ، لكنَّه لا ينعقد عن ذكر الله عزَّ وجل ، في ذكر الله لسانه طَلِق ، في مخاطبة الناس لسانه حَبيس ، وقد قال بعض العلماء : لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل : آيتُك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيَّامٍ ، وقال :

(ثَلَاثَ لَيَالٍ)

قال : لأن التقويم الذي يهتدي به الناس تقويمٌ قمري ، والتقويم القمري مبنيٌّ على طلوع القمر ، والقمر في الليل ، إذاً كان الليل أقرب إلى التقويم من النهار ..

(آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ)

لزوم زكريا العبادة والصمت عن كلام الناس :

والمحراب مكان العبادة ، مكان لزوم العبادة ..

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ)

طبعاً هو لا يكلّمهم ، أشار إليهم ..

(أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)

في الصباح والمساء ، وجاء يحيى ، وقال الله عزَّ وجل :

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

معنى : خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ

خذه بقوَّة ، العلماء قالوا : " معنى أخذه بقوَّة أن تعلم ما فيه أولاً ، وأن تطبِّقه بحزمٍ ثانياً " ، فإذا أردت أن تأخذ الكتاب بقوَّة ينبغي أن تعرفه أولاً ، وأن تطبقه ثانياً ، فالعلم ليس هدفاً بذاته ، إنما هو وسيلةٌ لهدفٍ كبير ، إذا اتخذت العلم هدفاً أصبح العلم سلّماً نحو الأسفل ، أصبح العلم حجاباً بينك وبين الله ، أما إذا اتخذته وسيلةً بمعنى أنك خرجت منه إلى تطبيقه ، إلى ممارسته ، إلى تنفيذ ما تعلم فهو سلم إلى الله حقيقة ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من عمِلَ بما عَلِمْ ورَّثه الله علم ما لم يعلم))

(أبو نعيم في الحلية عن أنس)

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً)

وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا

(الحكم) أي الحكمة ، والحكمة هي الإصابة في العلم والعمل ، علمٌ بالحقائق وعملٌ بموجبها ، علمٌ مع التطبيق ، أي أن هذا الحكيم تصرُّفاته حكيمة ، ينطلق في أعماله من عِلمه ، علمه مطبَّق ، علمه مترجمٌ إلى واقع ، يعلم الحقيقة ويعيشها ، يعلم الحقيقة ويطبِقها ، يعلم الحقيقة ويعمل وَفقها..

(وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً)

وآتيناه أيضاً :

(وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا)

من علامات الإيمان رحمة القلب :

من علامات الإيمان رحمة القلب ، والقلب القاسي أبعد القلوب من الله عزَّ وجل ، من علامة الكُفْران قسوة القلب ، من علامة الإيمان رقَّة القلب ، اعرف نفسك من رقَّة قلبك ، لا تغترَّ بالصلاة ، ولا بالصيام ، انظر إلى قلبك الذي هو مَحطّ نظر الله ، هل فيه رحمة للناس ، هل ترحمهم ؟ يقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي))

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا)

آتيناه حناناً من لدنَّا ، أي رحمة ..

(وَزَكَاةً)

من علامات الإيمان الطهارة والتقوى :

آتيناه زكاةً أي طيباً ، الزكاة صفاتٌ عالية في النفس ، طيبٌ ، رحمة ، عدالة ، مروءةٌ ، صدقٌ ، وفاءٌ ، حِرصٌ ، تواضعٌ ، نباهة ، وزكاةٌ ..

(وَكَانَ تَقِيّاً)

معنى التقوى ومقتضياتها :

لأنه كان تقياً ، لأنه اتقى أن يعصي الله عزَّ وجل ، اتقى أن يكون في موضعٍ لا يرضي الله ، ما الولاية؟ أن يراك حيث أمرك ، وأن يفقدك حيث نهاك ، أين تكون بعد أذان الظهر يوم الجمعة ، في المسجد أم في النزهة ؟ أن يراك حيث أمرك ، وأن يفقدك حيث نهاك ..

(وَكَانَ تَقِيّاً)

لأنه كان تقياً آتيناه الحكم صبياً ..

(وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً)

وآتيناه شيئاً آخر ..

(وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ)

من علامات الإيمان بر الوالدين :

ومن علامات الإيمان برُّ الوالدين ، ومن علامات الكُفران عقوق الوالدين ..

(وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ)

" ابنَ آدم ماتت التي كنَّا نكرمك مِن أجلها ـ الأم ـ فاعمل صالحاً نكرمك لأجله ".

لو أن في اللغة كلمة أقلَّ مِن(أف)لقالها الله عزَّ وجل ..

(فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

(سورة الإسراء : " 23 ")

(وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ)

كان بارًّا بهما ..

(وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً)

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا

جبَّاراً على الخَلق ، عصياً للحق ، ما في أرقى من هذا الوصف ؛ مع الحق طائع ، مع الخلق متواضع، مع الأمِّ والأب بَرٌّ كريم ، في التعامل ذكيٌّ عظيم ، في القلب رحمةٌ كبيرة ، في المنطق والسلوك حكمةٌ ما بعدها حكمة، هذه صفات الأنبياء ، لذلك :

(وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)

السلام في الحياة وبعد الممات :

(سلامٌ) ، السلام الطمأنينة ، حياةٌ كلُّها سلامٌ بسلام ، فلا منغِّص ، ولا خوف ، ولا قلق ، ولا نقص ، ولا مرض ، ولا خطر ، ولا شَبَح ..

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ)

وبعد الموت إنه في البرزخ ، والبرزخ أي القبر ، روضةٌ من رياض الجنَّة ، أو يكون القبر للكافر حُفْرَةً من حُفَر النيران ..

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)

مقصود القصة القدوة والتباع :

على كلٍ كما قلت قبل قليل : إن المقصود من هذه القصَّة أن تكون نبراساً لنا نهتدي بها ، أبرز ما في هذه القصَّة الدُعاء ، انظروا : شيخٌ فانٍ بلغ من الكبر عتيا ، وامرأةٌ عجوز عاقر ، وقد دعا هذا النبي العظيم ربَّه دعاءً خفيًّا : أن هب لي من لدنك غلاماً يرثني في الدعوة إليك ، يرعى إخواني ، يرعى تلامذتي ، يهديهم إليك ، يكون استمراراً لي ، يكون خليفةً لي ، لأني أخاف عليهم ، شدَّة حرصه على إخوانه ، وعلى أتباعه ، وعلى تلاميذه جعله يدعو هذا الدعاء ، وكيف أن الأمور تبدو مستحيلة ، وكيف أن الطرق مسدودة ، وكيف أن الأسباب معطَّلة ومع ذلك جاءت حكمة الله وجاءت قدرة الله عزَّ وجل فوهبته غلاماً نبياً .

وكيف أن آداب الدعاء ثلاثة : أن يكون الصوت خافتاً ، وأن يكون التذلل واضحاً ، وأن يكون التوسُّلُ بعملٍ صالحاً ، أو بحسن ظنٍ بالله عزَّ وجل ، اخفض صوتك ، وتذلل لربك ، وتوسَّل إليه بصالح عملك، وهذه من آداب الدعاء .

وكيف أن هذا النبي العظيم دعا ربه ، فما الذي جعله يدعو ربَّه الكريم إلى غلامٍ حكيم ؟ ما رآه من مريم الصدِّيقة كيف أنها نشأت في طاعة الله ، ما من شيءٍ على وجه الأرض أعظم من أن تقرَّ عينك بابنك، أن تراه طائعاً لله ، مصلياً ، وقوراً ، ذا سمتٍ حسن ، يحبُّ الله ورسوله ، يسعى في طاعة الله ورسوله ، إذاً هذا تعليمٌ لنا ، والقضية قضية سؤال ، لم يفعل هذا النبي العظيم إلا شيئاً واحداً أنه سأل المولى جلَّ وعلا ، وانتهى الأمر ، لم يفعل شيئاً إلا أنه سأل ربَّه ، وربُّ زكريَّا هو ربنا ، وربُّ زكريَّا الذي استجاب له ، وهو معنا ، ويستجيب لنا .

إذاً ليس المقصود من هذا الدرس أن نستمع إلى الأحداث ، والمواقف ، والعقدة والحل ، وما كان وكيف كان ، هذه كلُّها ليست معنيةً في هذا الدرس ، المعني أن ندعو ربنا ، وأن نسلك الطريق التي سار بها هذا النبي الكريم .

والذي أريد أن أؤكد عليه أنَّ كلمة (رب) التي وردت في هذه السورة تشير إلى أن الرب هو الممدّ ، فكما قلت لكم من قبل : هناك نعمة الإيجاد ، وهناك نعمة الإمداد ، وهناك نعمة الإرشاد ، فهذا الهواء من ربنا ، لولا الهواء لمات العِباد ، وهذا الماء الذي نشربه ، وهذه الأمطار التي تنزل من السماء إنما هي رحمةٌ من الله عزَّ وجل ، فكلّما رأيتَ نعمة ، أو عاينتَ رحمة تذكّر أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخَّره لك ، وبين المؤمن وبين المُشرك هذا هو الفرق ، المشرك يقول :

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص : " 78 ")

بينما المؤمن يعزو ذلك إلى الله عزَّ وجل .

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصَّة السيدة مريم الصدّيقة .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثاني من سورة مريم .

معجزة ولادة يحيى مقدمة لمعجزة ولادة عيسى عليه السلام :

القصة الأولى في هذه السورة قصة سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، هذه القصة تُعَدُّ من حيث إن ولادة سيدنا يحيى كانت بإعجازٍ دون إعجاز سيدنا عيسى ، فكأن الله سبحانه وتعالى هيَّأنا من معجزةٍ إلى معجزة ، سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان قد بلغ من الكبر عِتياً ، وكانت امرأته عاقراً ، ومع ذلك وهبه الله يحيى عليه السلام لبيان ، وتأكيد كمال قدرة الله عزَّ وجل ، لكن القصة التالية في نظر البشر أعظم إعجازاً من الأولى لأن هذا النبي العظيم سيدنا عيسى عليه السلام ولِدَ من غير أبٍ إطلاقاً ، والحقيقة الناصعة هي أن كِلا الحالتين عند الله سواء ، لأن أمره..

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس : 82)

وبالنسبة لله سبحانه وتعالى كلا الحالين سواء ، ولكن كتهيئةٍ وتمهيدٍ لأذهاننا جاءت قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى ، إذْ إنّ الأولى تمهيدٌ للثانية ، وقد بَيَّنْتُ بفضل الله عزَّ وجل كيف أن الإنسان لا يملك إلا الطلَب ، ما كان من هذا النبي العظيم إلا أن طلبَ ولياً يرثه في الدعوة إلى الله ، فكان أن لبَّى الله طلبه ، لذلك جاء في مطلع هذه السورة :

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)

هذه رحمة الله عزَّ وجل ، ليس لك إلا أن تطلب بصدقٍ وإخلاص ، وعلى الله الباقي ، وأكَّدتُ لكم أن المَعْنِيَّ هو نحن ، لأن هذا النبي الكريم مضى ، وهو في جنَّات القُرُبات ، ولكننا نحن الذين نقرأ هذا القرآن نحن المعنيّون بهذه القصة ، فكلما ضاقت بنا الأمور ، وكلما رغبنا بشيءٍ يُعَدُّ من رحمة الله عزَّ وجل ، ليس لنا إلا أن ندعوَ الله عزَّ وجل مخلصين صادقين حتى تكون الرحمة ، لأن النبي الكريم سيدنا زكريا يقول :

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

أي ما دعوتك في الماضي دعوةً وحرمتني من الإجابة ، وربنا سبحانه وتعالى يُحَدِّثنا عن مريم ابنة عِمران ، يقول :

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

قصة مريم ابنة عمران :

أيْ اذكر يا محمد لقومك ، واذكر لهم هذه القصة التي جاءت في الكتاب ، واذكر يا محمدُ لقومك هذه القصة لا لذاتها ، بل لتكون دليلاً على كمال قدرة الله عزَّ وجل .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

(من صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري)

مرتبتها في رأي مُعظم العلماء صدِّيقة ، ومرتبة الصّدِيقيَّة تأتي بعد مرتبة النبوة ، رسالةٌ ، فنبوةٌ ، فصديقيَّة ، فكانت هذه المرأة صدّيقة .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)

والمقصود ليس اسم مريم ، بل المقصودُ أن يذكر في الكتاب قصة مريم .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا

معنى نبذتُ الشيء أي ألقيته لقلّة شأنه ، ولكن إذا انتبذت هذه الصديّقة ، أي ابتعدت عن قومها لتعبد ربها ، أي لها خلوتها مع الله عزَّ وجل.

(انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

والجلوة من الخلوة ، والموارد من الأوراد ، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهايةٌ مشرقة ، " يا موسى أتحب أن أكون معك ؟ فصعق هذا النبي الكريم ، قال : وكيف ذلك يا رب ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني " ، والأنبياء جميعاً لهم خلواتهم مع الله عزَّ وجل، والمؤمنون يجب أن تكون لهم خلوائُهم مع الله عزَّ وجل ، فهذه الصدِّيقة الكريمة ..

(انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً)

أي ابتعدت جهة المَشْرِق لتخلو لنفسها ، وتعبد ربها ، وتتصل به وتقبل عليه ، فتسمو نفسها وتسعد روحها بهذا اللقاء وهذه الخلوة .

(فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً)

مبالغة مريم عليها السلام في خلوتها للعبادة :

يبدو أنها أرادت أن تُبالغ في خلوتها ، فجعلت بينها وبين قومها حجاباً يمنع دخولهم إليها ، من أجل ضمان هذه الوجهة ، وتلك العباد ، وهذه الصَبوة .

(فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)

تَصَوَّرْ امرأة طاهرة ، ملائكية ، عفيفة ، حَصَانًا ، حَيِيَّة ، اتخذت لها مكاناً بعيداً عن قومها ، وأحكمت الحِجاب ، فإذا أمامها رجلٌ وسيم الطَلْعَة قد خَرَقَ عليها الحجاب .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)

إرسال الله عزوجل جبريل إلى مريم عليها السلام :

من أوجه التفاسير أن (روحنا)هو سيدنا جبريل عليه السلام ، وجبريل كما تروي الكتب له جسمٌ ضخمٌ جدا ، يملأ ما بين السماء والأرض ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمةً بها ، ومن باب اللُّطف الإلهي ، جعل هذا المَلك العظيم ، جعله على شكل إنسانٍ سوي كامل الخِلْقَة .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)

وإنما نُسِبَ هذا الروح إلى الله عزَّ وجل نسبة تكريم ، هذا الملك العظيم الذي يعد رئيس الملائكة هو سيدنا جبريل ، نسب إلى الله عزَّ وجل ، كأنْ يقول الله عزَّ وجل يا عبادي : لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، قل لعبادي ، هذه نسبة تكريمٍ وتشريف .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً)

تمثُّل جبريل عليه السلام بصفة البشر :

لو أنها رأته كما هو عليه في حقيقتِهِ لصُعِقَت ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة بها ، وإكراماً لها ، ولطفاً ببشريَّتها ، وإمكاناتها ، جعل هذا الملك العظيم يتمثل على شكل إنسانٍ سويٍ قريب ، ولكن لطهارتها ، وعفَّتها ، وحيائها ، وقُدْسِيَّتِها ، هالها أن يخترق حجابها شابٌ وسيم ، قالت :

(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً)

استعاذة مريم عليها السلام بالله عند رؤيتها رجلا أمامها :

أيْ إن كنت تقياً ، إن كنت أيها الرجل تتقي الله ، وتخشاه ، وتخاف منه فابتعد عني .

(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن)

أيْ عُذْتُ بالله عزَّ وجل من أن تنالني بسوء ، فإن كنت يا هذا تقياً تخشى الله ، وتخشى عقابه ، وتخشى أن تتعدى حدوده ، فاتق الله ، وابتعد عني ، وهذا شأن المرأة الصالحة ، إن العفَّة أبرز ما يُمَيِّزُ المرأة الصالحة..

(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً)

طمأنة جبريل مريمَ بأنه رسول من الله :

قال لها هذا الرجل ، أو هذا الشاب :

(قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ)

أنا رسول من عند الله ..

(لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً)

لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا :

غُلاماً زكياً ، زكيَّ النَّفْس ، طاهر النفس ، غلاماً متميِّزاً .

(إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً)

اطمأنَّت على أنه ليس بشراً ، إنه ملك ، لا ينوي السوء ، لا ينوي أن يعتدي عليها ، لا ينوي أن ينالها بسوء ، إنما هو رسولٌ من عند الله ليهَبَ لها غلاماً زكياً .

عجب مريم من كيفية ولادتها من غير أن يمسّها رجل :

لكنها عَجِبَت ، وحُقَّ لها أن تعجب ، إنها فتاةٌ عذراء ، لم يسبق لها الزواج ، وفضلاً عن ذلك لم تكن امرأةً بغيّا ، والمرأة اَلبَغي هي التي تبتغي الرجال ، تلاحقهم هي من أجل أن تكسب مالاً عن طريق هذه العلاقة المُحَرَّمة ، وجمع بَغِيّ بغايا .

(وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً)

لست متزوجة ، ولست بغيّاً .

(قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)

أدب القرآن في اختيار الكلمات : وَلَم يَمْسَسْنِي :

وكلمة (يمسسني)من كنايات الله سبحانه وتعالى ، من الكنايات اللطيفة ..

(أَوْ لامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

(سورة النساء : من آية " 43 ")

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ)

(سورة المعارج : 29-31)

حينما يُعَبِّرُ الله عزَّ وجل عن حالاتٍ مخصوصة ؛ مثلاً عن : حالةٍ تقع بين المرأة والرجل يعبِّر عن هذه الحالة بألطف الكِنايات ، وكذلك قالت هذه الصدِّيقة :

(أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكِ)

وأنت على هذه الحالة ، وأنتِ فتاةٌ عذراء ، لم يسبق لكِ الزواج ، وأنتِ على هذه الطهارة ، وعلى حالة البُعد عن الأزواج والرجال ، فسيكون لكِ هذا الغلام ..

(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

ليس على الله شيء عسير :

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

(كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس: 82)

(هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)

هكذا قال الله عزَّ وجل ، يستوي عند الله عظيم الأشياء وحقيرُها ، خلق الجبال كخلق النمل ، كلاهما في الخلق سيَّان ..

(هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ)

الأسباب لا تخلق النتائج :

ذكرت لكم أن الإنسان أحياناً يتوهَّمُ أن الأسباب هي التي تخلق النتائج ، وهذا أحد أنواع الشرك ، وقد سُمي شرك الأسباب ، لئلا يقع الإنسان في شرك الأسباب يجب أن يعلم أن رَبَّ الأرباب في أية لحظةٍ يُعَطِّل هذه الأسباب ، أو يلغيها ، يعطلها حينما توجد ، ولا تُحَقِّقُ النتائج ، من هنا كان فلانٌ وفلانَةٌ زوجين شابين ، ومع ذلك لم ينجبا ولداً ، هنا تعطَّلت الأسباب ، وكالسيدة حواء كانت من دون أم ، وكسيدنا عيسى كان من دون أب ، هنا تعطَّلت الأسباب ، في حالة العُقْر تعطلت الأسباب ، أما في حالة السيِّدة حواء وسيدنا عيسى فقد أُلغيت الأسباب إلغاءً ، تعطلت ، أو أُلغيت ، إذاً النتيجة لا يخلقها السبب، ولكن السبب يرافق النتيجة ، هذا هو التوحيد ، فالأشياء تقع - كما يقول علماء التوحيد - عندها لا بها ، أي عند إرادة الله عزَّ وجل لا بالأسباب ، لذلك نارٌ مضرمةٌ أرادوا بها إحراقَ سيدنا إبراهيم ، فقال الله عزَّ وجل :

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء : 69)

(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

عيسى عليه السلام آية من آيات الله :

كما قال الإمام علي كرم الله وجهه : " عَلِمَ ما كان ، وعَلِمَ ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " ، هذا الأمر مُنتهٍ ، هو من قضاء الله ، ستُنجب هذه المرأة الطاهرة الصدِّيقة غلاماً من دون أب ، ليكون هذا الغلام آيةً على كمال قدرة الله عزَّ وجل .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًا

لذلك الشيء الذي وقع لابدَّ أن يقع ، ومتى وقع فهناك حكمةٌ بالغةٌ ندركها ، أو لا ندركها ، هكذا التوحيد ، الشيء الذي وقع ، لابدَّ أن يقع ، ولو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في حكمة الله ، ونقصاً في علمه ، وحاشا لله أن تكون حكمته ناقصة ، وأن يكون علمه ناقصاً ، كمال علمه ، وكمال حكمته يقتضي أن يقع هذا الشيء الذي وقع ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن))

(القضاعي في مسند الشهاب عن أبي هريرة)

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند أحمد)

وانتهى الأمر ، ما دام الشيء قد وقع فهناك حكمةٌ بالغة ، هذه هي العقيدة الصحيحة .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

كل ما يقع هو عينُ الرحمة والحكمة :

أي أن الذي يقع عين الرحمة ، وعين الحكمة ، وعين العلم ، وعين القدرة ، وعين العدل ، أي شيءٍ وقع ، قد يقع الشيء ، ويتمنَّى الناس أنه لو لم يقع ، وهذا نقصٌ في علمهم ، ونقصٌ في توحيدهم ، لكن الذي يقع إن لم يكن موافقاً للشرع فينبغي أن يسعى الناس لإزالته ، لو وقع فسادٌ فماذا نقول ؟ ماذا يقتضي الإيمان بالقضاء والقدر ؟ لو وقع فسادٌ في بيتٍ من البيوت هل يقول الأب : هذا فسادٌ وقع بتقدير الله عزَّ وجل ، ولا حيلة لي مع الأقدار ، أو أنه يُشَمِّر ليزيل هذا الفساد ؟ لا يعني الإيمان بالقضاء والقدر أن يقف الإنسان المؤمن مكتوف اليَدَيْن ، هذا الفهم فهمٌ سقيمٌ ، لا يتناسب مع الإيمان الصحيح ، أنت مأمورٌ أن تقيم الأشياء على الطريق الصحيح ، أنت مأمورٌ أن تقيم الأمور وَفْقَ ميزانٍ صحيح ، إذا وقعت على غيرِ المراد فاعلم علم اليقين أنه لابدَّ أن تقع ، وعليك مهمة إصلاحها ، فلعل في وقوعها امتحاناً لك ، ولعل في وقوعها جَلْبَاً للخير ، وأنت في أمسّ الحاجة إليه .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً)

لذلك ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

(سنن ابن ماجة)

وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، وَكَانَ خَيْرًا ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، وَكَانَ خَيْرًا))

(من مسند أحمد عن صهيب)

هكذا الإيمان ، وقعت واقعة أنت كمؤمن يجب أن تُزيلها بدافع إيمانك ، تنتابك مشاعر دقيقة جداً ترضى بها ، لأن الله أرادها ، والله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً وقع ، وإذا وقع الشيء أراده الله ، هذه

علاقة ترابُطِيَّة بين إرادة الله وبين حدوث الأشياء ، كل شيءٍ وقع أراده الله ، وكل شيءٍ أراده الله وقع.. أوّلاً استسلامٌ لقضاء الله وقدره ، ثانياً أنت كإنسان مكلَّفٍ ؛ مكلفٍ بالأمانة ، أنت مكلفٌ أن تقيم الأمور على شكلٍ صحيح ، أنت مكلفٌ أن تستقيم على أمر الله ، أن تأمر بالمعروف ، وأن تنهي عن المنكر ، لأنك مكلفٌ هكذا يجب أن تعمل لإزالة هذا الشيء الذي وقع بأمر الله ، إنه امتحانٌ لك ، إنه كشفٌ لحقيقتك .

(فَحَمَلَتْهُ)

حملُ السيدة مريم بعيسى عليه السلام وابتعادها عن قومها :

تروي بعض الكُتُب أن هذا الرسول الكريم ، المَلك العظيم نَفَخَ في كُمِّها فحملت بغلامها .

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً)

من شدة خجلها ، وشدة قلقها ، وشدة حيائها ، وخوفها على سمعتها، ولأن الفتاة سمعتها في عفَّتِها ، رأسمالها كلُّه في عفتها ، كيف وقد حملت ، وليست متزوجة ، وليست بغِيّاً ، ماذا يقول الناس عنها ؟ كيف تجيبهم ؟ كيف تجابههم ؟ كيف تعتذر لهم ؟ هذه الهموم تعاظَمَتْ عليها ، حملتها على أن تبتعد عن الناس ..

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً)

معنى قصياً أي بعيداً ، إلى أن جاءها المخاض ..

(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ)

معنى :

(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ)

أي فألجَأها المخاض ، شدة الألم ، آلامُ المخاض دفعتها إلى جذع نخلة .

(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

تمني مريم عليها السلام الموتَ خوفا من كلام الناس :

هذه طهارتها ، وهذه عفتها ، خوفها على سمعتها ، خوفها من كلام الناس ، هي طاهرة ، والناس ربما لا يصدِّقون طهارتها .

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

ليتني لم أكن شيئاً مذكوراً ، ليتني كنت خِرْقَةً مُلقاةً في الطريق ، ليتني كنت عوداً ، شيئاً لا يعني الناس لا يلتفتون إليه ، لا يأبهون له ..

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

خافت على سمعتها ، وخافت أن يقع الناس بالبُهتان حينما يتهمونها بالسوء ، خافت مرتين ، مرةً أن تسبب للناس الوقوع في المعاصي ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من قذف محصنة يهدم عمل ثمانين سنة))

(الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة)

أن تتهم امرأةً شريفة ، أن تتهم امرأةً حصيفة ، امرأةً عفيفة ، امرأةً طاهرة ، أن تتهمها بالزنا ، والأمر يجري هكذا ، إن الله سبحانه وتعالى يُبطل بهذا الاتهام عمل مئة سنة ، والحكم الشرعي أن يُجَلَدُ هذا الذي يتهم المرأة العفيفة ثمانين جلدة ، وأن يسقط حَقَّهُ المدني في الإدلاء بالشهادة ، وَلاَ تَقْبَلُوا لَه شهادةً أبداً ، فالإنسان قبل أن يخوض في أعراض الناس ، وقبل أن ينقل الأخبار غير الموثوقة عليه أن يتبيّنَ ويتثبت .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات :6)

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

ألمُها الشديد وخوفها الشديد من الفضيحة ، ومن أن تلوكَ الناس سمعتها بسوء ، ومن أن تواجه الناس بتهمة الزنا كما يتوهَّمون ..

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا)

جبريل يطمئن مريم عليها السلام :

جاءها المَلك مرةً ثانية ، وقد تروي بعض الكُتُب أنها كانت في مكانٍ مرتفع ، جاءها الملك مرةً ثانية ..

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي)

لا تحزني ..

(قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً)

معنى : سريًّا :

معنى سرياً ، أي أن هذا الغلام الذي ستلدينه سيكون له شأنٌ عظيم ، سيكون له ذكرٌ كريم في الآفاق ، إنه إنسانٌ يَهَبُ السعادة لمن ولَدَه فلا تحزني ..

(أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً)

سَراة القوم أي عظماء القوم ، وجهاء القوم ، فلانٌ مِن سَراة القوم من عظمائهم ..

(تَحْتَكِ سَرِيّاً)

أيْ سيكون إنساناً عظيماً ، سيكون له شأنٌ كبير ، وفي بعض التفاسير أنَّ الله سبحانه وتعالى إكراماً لها، كانت تحتها ساقية ماءٍ جافة ، فأجرى لها الماء ، والقُرآن ذو وجوه ، وهذا هو المعنى الثاني لكلمة " سرياً" .. أي جدول ماء جاف فأجراه الله سبحانه .

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)

وهزي : الأخذ بالأسباب :

قال لي بعضهم : ذهبت إلى بلاد الحجاز ورأيت نخلةً فحاولت أن أهُزَّها فلم أستطع أن أُحَرِّك منها شيئاً ، قال : فكيف قال الله عزَّ وجل :

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)

بعضهم قال : إن هذا من باب الأخذ بالأسباب ، فكيف أن الرزق محتوم ، ومقسوم ، وموزون ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالسعي أي بالأخذ بالأسباب ، فما عليها إلا أن تهُز هذا الجذع .
وبعضهم قال : إن الله سبحانه وتعالى ألانَ لها هذا الجذع ، فاهتز فسقطت التمرات أمامها فأكلتها.

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطباً جَنِيّاً)

فوائد التمر للمرأة الحامل :

وفي بعض البحوث العلمية عن التمر وعن الرُطَب ، أن فيها ثمانٍ وأربعين مادةً غذائية ، التمر فيه ثمانٍ وأربعون مادةً غذائية ، وأن التمر فيه مادةٌ مضادةٌ للنزيف ، وفيه مادةٌ مُلَيِّنَةٌ للأمعاء ، وفيه مادةٌ حاثةٌ ، ومحرّضَة على الطلق ، وفيه مادةٌ تنطلق من الفم إلى الدم في عشرين دقيقة ، لذلك لم يكن عبثاً أن يذكر الله سبحانه وتعالى المَخاض ، ويذكر مع المخاض النخلة ، لأن التمر هو الغذاء الأمثل لمَن يضَعْنَ ، أو قبيل الوضع ، فيه مادة مليّنة من أجل تفريغ الأمعاء لتكون الولادة أسهل ، وفيه مادة تمنع

النزيف ، وفيه مادة تحث عضلات الرحم على التقلُّص ، وفيه غذاء من أعلى مستوى ينتقل إلى الدم في أقصر وقتٍ أيْ خلالَ عشرين دقيقة ..

(تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً)

الراحة التامة للحامل : كلي واشربي وقري عينا :

وأيضاً نامي ، فسّرها بعضهم " وقرّي عيناً " : أي نامي ، كلي ، واشربي ، ونامي .

وإذا العناية لاحظتك جفونُها نم فالمخاوف كلُّهنَّ أمان

*** * ***

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى..

.. وأنت الذي لم تزل محسنا

وعوّدتنا كل فضلٍ عسى..

..... يدوم الذي منك عوّدتنا

إذا كنت في كل حالٍ معي

فعن حَمْل زادي أنا في غنى

*** * ***

(فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً)

لا تخافي ، لا تقلقي ، لا تقلقي على سُمْعَتَكِ ، لا تخافي من مواجهة الناس ..

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً)

الصوم عن الكلام :

صومي عن الكلام ، دعي هذا لنا ، نحن نُبرّئك ..

(فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً)

قالوا : هذا في شرع مَن كان قبلنا ، أما في الإسلام فالصيام عن الكلام ليس مقبولاً ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام شَرَعَ لنا أن نصوم عن الكلام السيِّئ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ ، وَلَا يَجْهَلْ ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ))

[ابن ماجه بهذا اللفظ ، وهو في الصحيحين قريبا منه]

أما أن تصوم مُطلقاً ، وليس في الشرع الإسلامي ما يبيح لك ذلك ، لكن هذا كان في شرع مَن كان قبلنا .

(فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أحَداً فقُولِي إنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَن صَوْماً فَلَنْ أكَلِّمَ الْيَوْمَ إنْسِيّاً)

بعض العلماء قالوا : " هذا الكلام تقوله إشارةً " ، أشيري لهم أنكِ صائمة ، ولا تكلمي أحداً لأيّ سبب.

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا)

مجيء مريم عليها السلام قومَها بالمولود :

جاءت قومها ، وهي العَذراء البتول ، والمرأةُ الحَصان ، جاءت قومها تحمل على يديها وليداً ، وهذه هي المشكلة ، هنا العُقدة ..

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا)

إنكار قوم مريم عليها ولادتها :

وقد هالهم الأمر ، وأدهشهم ..

(يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً)

أي شيئاً عظيماً ، ما من سقوطٍ أعظم عند المرأة من أن تأتي بغلامٍ ، وهي غير متزوِّجة ..

(يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ)

نَعْرِفُكِ قديسة ، نعرفكِ عفيفة ، نعرفكِ طاهرة ، نعرفكِ متعبِّدة ، كيف كان هذا ؟ أنتِ أختُ هارون ، وكان سيدنا هارون مضرب المثل ..

(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً)

إحالة مريم الكلام إلى عيسى عليه السلام :

قال بعض العلماء : " إن استخفافها بهم حينما أشارت إلى الوليد الذي تحمله كان أشد عليهم مِن اتهامِها عندَهُم .

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً)

أتسخرين منا ؟ أهذا يتكلّم ؟ أهذا يُدافع عنكِ ؟ .

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ)

كلام عيسى عليه السلام في المهد بالعبودية لله عزوجل والرسالة :

تكلّم هذا الطفل الذي في المَهد ..

(قالَ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ)

لِمَ اختار هذه الكلمة : إنّي عبدٌ الله ، وكأن الله عزَّ وجل يعلم ما سيكون ، يعلم أن هناك مَن سيجعله إلهاً..

(قالَ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)

معنى آتاني ، جاءت بالماضي ، لأن أفعال الله عزَّ وجل يُعَبَّر عنها بالماضي ولو لم تقع ، لأن وقوعها مُحَقَّق ، هذه حكمة قوله :

(قالَ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)

قال تعالى :

(وَإِذْ قالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

(سورة المائدة : 116-117)

(قالَ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ)

تكلَّم هذا الغلام الصَغير ، تكلَّمَ هذا الطفل الرضيع ، وبرّاً أمَّه ..

(آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً)

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين :

هكذا المؤمن ، هو نبيٌّ عظيم ، ولكنْ ، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين .

(مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

مصدر كل خير ، أينما جلس يُقَدِّمْ الخير للناس ، بعلمه ، ومعروفه، ونصائحه ، ودعوته .

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً)

هل أنت مبارك أيها الأخ الكريم ؟ أنت مبارك ؟ هذه القصة لنا ، قس نفسك ، هل يُثني الناس عليك أينما حَللت وحيثما ارتحلت ، هل يتمنى الناس أن يلتقوا بك ، أم يتمنون أن يبتعدوا عنك ؟ هل يتقيك الناس مخافة شرِّك ، أم يتمنى الناس التماسَ خيرك ؟

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

هكذا حال المؤمن في سره وجهره ، في خلوته وجلوته ، في حلّه وترحاله ، في قوته وضعفه ، في كل أحواله ، إنه في خدمة الخلق ، إنه مُحِبٌ للحق ، وفي خدمة الخلق ، مبارك ..

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ)

قد تجد إنساناً مستقيماً في بلده ، فإذا سافر خَرَقَ الاستقامة ، هناك إنسان مستقيم في حالة الفقر ، فإذا اغتنى عتا وطغى ، هناك إنسان مستقيم في حالة القهر ، فإذا صَحَّ ، وقوي بغى وطغى .

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً)

هذا هو الدين كله ، اتصالٌ بالخالق ، وإحسانٌ للمخلوق .

(مَا دُمْت حَيّاً)

أنت عاهدت الله عزَّ وجل على أن تكون معه في كل أحوالك ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب :41)

(وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا)

(سورة الفرقان : 63)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران :190-191)

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي)

جعلني باراً بوالدتي ..

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً)

كيف اقترن عند الله عزَّ وجل أن يكون المَرْءُ جباراً شقياً ؟ إنّ مِن لوازم كونه جباراً أن يكون شقياً ، وهكذا فكلُ جبارٍ شقيٌّ .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

حياة المؤمن كُلُّها سلام :

حياة المؤمن كُلُّها سلام ، طبعاً فالله سبحانه وتعالى طمأنه فأنطقه ..

(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

عندها قال الله عزَّ وجل :

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

هذه قصَّته ، وهذه حقيقته ، وهذا الذي وقع ، ولم يقع سوى هذا ..

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ)

حقيقة عيسى عليه السلام :

من معاني الحق ذِكْرُ الشيء كما وقع .

(الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

اليهود اتهموها بالزنا ، وقالوا عن يوسف النجار ما قالوا ، وقذفوه أيضاً ، اتهموها بيوسف هذا ، وهو الرجل الذي كان معها ، وبعضهم قال عن الوليد : إنه ابن الله ..

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ)

مَا كَانَ للّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ

ما كان ، أشد أداةٍ ، أشد صيغةٍ من صِيَغ النَفْي في القرآن الكريم هذه الصيغة ..

(مَا كَانَ لِلَّهِ)

ليس من شأنه ، إنه إلهٌ عظيم ..

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(4)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص : 3-4)

ليس من شأنه أن يكون له ولد ليستعين به ، إنه فردٌ صمد ، ليس من شأنه أن يكون له ولدٌ ليخلِّدَ ذكره، إنه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، إنه أبديٌ سَرْمَدي ، فلِمَ الولد ؟ نحن نبتغي الولد ليكون خَلَفَاً لنا، لنستعين به في أيام ضعفنا ، الله سبحانه وتعالى قويٌ عزيز ، حيٌ قيوم ، فردٌ صمد ، ليس من شأنه أن يكون له ولد .

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

هذا الميلاد المُعْجز جعله الله دليلاً على كمال قدرته ، فجاء الناس فأشركوا بالله عزَّ وجل ، وكفروا به إذ جعلوا عيسى ابناً له .

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ)

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء :43)

(إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

من فوائد قصة مريم عليها السلام :

1 – كمال قدرة الله تعالى :

هذه القصة هي القصة الثانية في سورة مريم التي تبيِّنُ كمال قدرة الله تعالى ، وتبين أن الأشياء تقعُ بقدرة الله ، وبمشيئة الله .

2 – الأسباب لا تخلق النتائج :

وأن الأسباب ليست هي الخالقة ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قد يُعَطِّلُ الأسباب في حالة العُقْرِ ، وقد يلغي الأسباب في حالة هذا الميلاد المُعجز لسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

3 – شرف المرأة المؤمنة وحرصها على سمعتها :

شيءٌ آخر .. تبيِّن هذه القصة شَرَفَ المرأة المؤمنة ، وخوفَها على سمعتها ، وحزنَها الشديد في أن تواجه الناس بتهمةٍ هي بريئةٌ منها ، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام شدد على موضوع قذف المحصنة فقال :

((من قذف محصنة يهدم عمل ثمانين سنة))

[الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة]

وأن الإنسان مؤاخذٌ بما يقول ..

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

(سورة الإسراء : 36)

أيها الإخوة الأكارم ... اقرؤوا هذه القصة ، واحفظوها ، وعلموها أهلكم وبناتكم ليعرفوا شرف المرأة المؤمنة ، وأن هذه الصِدِّيقة العظيمة حَصانٌ رَزان ، وكيف أن الله عزَّ وجل وصفها بالصفات التي يجب أن تتحلى بها كل امرأةٍ مؤمنة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 38 - 59

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1987-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثالث من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرَاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

عيسى عليه السلام عبدُ الله ورسولُه :

هذه هي الحقيقة ، هذا هو واقع الأمر ، وكلُّ الذي يُدَّعى ، ويُقال عن هذا النبي العظيم عدا ما تضمنته هذه الآيات فلا أصل له ..

(ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ)

مَا كَانَ للَّهِ أَنْ يَتَّخذَ مِن ولدٍ

هذا يستحيل في حقِّ الله أن يكون له ولد ، لأنه غنيٌّ عن الولد ، الولد يُتَّخَذُ عادةً لتخليد الذكر ، والولد يُتَّخذ عادةً ليعين أباه في سنِّ الضعف ، والله سبحانه وتعالى قويٌّ ، غنيٌّ ، أبديٌّ ، سرمديٌّ ، واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ ..

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرَاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

أمرُ الله بين الكاف والنون ..

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

فحينما تكلمَ هذا النبي الكريم يوم كان صغيراً :

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْت حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ)

اليهود اتهموا هذه السيدة الصدِّيقة البتول بالزنا ، والنصارى قالوا : هذا ابن الله ..

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

كيف كذبوا على الله ، وكيف قالوا على الله من دون علمٍ ، ولا هدىً ، ولا كتابٍ مبين .

(أَسْمِعْ بِهِمْ)

هنا وصلنا بالضبط :

(وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

صيغة التعجب في العربية :

في اللغة العربية صيغتان قياسيَّتان من صيغ التعجُّب ، تقول : ما أعدل القاضي ، وأعدِل به ، ما أفعله، وأفعِل به ، فصيغة أفْعِلْ به صيغة من صيغ التعجُّب ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

متى ؟

(يَوْمَ يَأْتُونَنَا)

الشقي من عرف الحقيقة بعد فوات الأوان : يَوْمَ يَأْتُونَنَا :

أيْ ما أشدَّ سمعهم ، وما أشدَّ بصرهم يوم القيامة ، ولكن بعد فوات الأوان ، أما في الدنيا يوم فكان ينفعهم سمعهم وأبصارهم ، فقد كانوا صُماً بكماً عُمياً عن كل حقيقة ، أما يوم القيامة ، يوم لا ينفعهم سمعهم وأبصارهم فحينئذٍ ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

هذا هو الشقي ، إنّهُ يعرف الحقيقة بعد فوات الأوان ، الطالب الكسول يفتح الكتاب ليقرأ الإجابة عن السؤال بعد الامتحان ، بعد أن نال الصفر ، ما قيمة فهمك لهذا الكتاب الآن ؟ ما قيمة هذا الفهم وهذه القراءة ؟ فالله سبحانه وتعالى يقول :

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

أي ما أشدَّ سمعهم ، وما أشدَّ بَصَرَهُم ، وهذا يؤيِّده قوله تعالى :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

رؤيةٌ ثاقبة ، رؤيةٌ صحيحة ، إدراكٌ عميق ، فهمٌ دقيق ، كشفٌ للحقائق ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

ليتَهم أبصروا هذه الحقيقة ، وهم في الدنيا ، ليتهم عرفوا ربهم ، وهم في أَوْجِ قوَّتهم ، يوم كان من الممكن أن يُصَحَّح كل شيء ، وأن يُفتَحَ مع الله صفحة جديدة ، ليتهم سمعوا ، وأبصروا يوم كانوا أحياء بيدهم الدرهم والدينار ، به يستطيعون التقرُّب إلى الله عزَّ وجل ، به يستطيعون تلافي أغلاطهم ، به يستطيعون تكفير سيِّئاتهم ، ليتهم سمعوا ، وأبصروا يوم كانوا في الدنيا ، حينما كانوا مخيَّرين ، لهم حريَّة الاختيار ، أما وقد سُلِبَت منهم هذه الحريَّة ، فما قيمة سمعهم وأبصارهم ؟ .

فهذه النقطة مهمة جداً ، الإنسان في الدنيا باب التوبة مفتوح لهُ ، الأبواب كلُّها مفتَّحةٌ توصل إلى الله عزَّ وجل ، الأبواب كلُّها مفتَّحة على مصاريعها في الدنيا ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحَّتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قَبل موتك))

(الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وابن أبي شيبة في المصنف عن عمرو بن ميمون)

ما مضى فات ، والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

لا تملك إلا هذه الساعة ، الساعة التي ستأتي لا تعرف ما هي ، وأين أنت منها ، هل نحن فوق الأرض، أم تحتها ؟ في الساعة التي تَلي لا نعرف هل نحن أحياء نُرْزَق ، أم أموات ؟ والساعة التي مضت الحديثُ عنها مضيعةٌ للوقت لأنها مضت وانقضت ، وليس لنا إلا هذه الساعة التي نحن فيها ، يومٌ مفقود ، ويومٌ مشهود ، ويومٌ مورود ، ويومٌ موعود ، ويومٌ ممدود ، فاليوم المورود ، والموعود ، والممدود هذه الأيَّام الثلاثة متوقفةٌ على اليوم المشهود ، إذاً :

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

ما أشدَّ سمعهم ، وما أشدَّ بصرهم ، لقد كُشِفَ الغطاء ، وعرفوا الحقيقة ، وتبيَّن كل شيء ، وتبين أن الله عزَّ وجل هو الحقُّ المبين ، وأنه لا إله غيره ، وأن الجنَّة حق ، وأن النار حق ، وأن الأنبياء حق ، وكل هذا قد عُرِفَ ، ولكن بعد فوات الأوان ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا)

ليتكم سمعتم ، وأنتم في الدنيا ، ليتكم أبصرتم الحقائق ، وأنتم أحياء ، فالأبواب كلها مفتّحة ؛ بابُ التوبة مفتوح ، بابُ الاستقامة مفتوح ، بابُ العمل الصالح مفتوح ، بابُ العلم مفتوح ، بابُ التقرُّب إلى الله مفتوح ..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)

هل العَجب في الآية من الله أم من الكفار ؟

لكنَّ بعض المفسِّرين يقول : " لا يجوز التعجُّب على الله عزَّ وجل" ، ما هو العجب ؟ نحن قلنا : هذه صيغةٌ مِن صيغ التعجُّب ، هكذا العرب يقولون : ما أعدل القاضي ، وأعدِل به ، ما أجمل السماء ، وأجْمِل بها ، ما أفعله ، وأفعِل به ، هذا يجوز علينا نحن البشر ، لأن الشيء العجيب هو الشيء الذي يلفت النظر ، ولا تعرف أسبابه ، فإذا ظهر السبب بَطَلَ العجب ، أما على الله عزَّ وجل فليس هذا بعجيب ، لذلك هذا العجب ينتابنا نحن ، أيْ أن ربنا عزَّ وجل يصف عجبنا يوم القيامة كيف يشتدُّ سمعنا وبصرنا ، ولا حيلة لنا ، ويوم كنَّا في الدنيا لا سمع ، ولا بصر ، والحِيَل كلُّها بين أيدينا..

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فما من حالةٍ قبيحةٍ بالإنسان ، وحالةٍ بشعةٍ بالإنسان ، وحالةٍ مُزريةٍ بالإنسان ، وحالةٍ مجحفةٍ بالإنسان كأن يكون جاهلاً إلا ناتجة عن الجهل ، والجهل عدو الإنسان ، والعلم فرض عينٍ على كل مسلم ، طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم ، فرض عينٍ ، فقد يقول قائل : أنا مهندس ، أنا طبيب ، أنا تاجر ، أنا مُزارع ، أنا مهندس زراعي لا شأن لي بالعلم الديني ، أنا اختصاصي غير هذا ، لا ، هذا كلامٌ مردود، طلب العلم الديني فرض عينٍ على كل مسلم ، يجب أن تعلم الحقائق التي يجب أن تُعْلَم بالضرورة ، وإلا فقد قصَّرت في حق نفسك وظلمتها ، وأوردتها المهالك ، لأنه ما مِن مأساةٍ إلا وراءها معصية ، وما من معصيةٍ إلا وراءها جهل ، والجهلُ يؤدي إلى المعصية ، والمعصية تؤدي إلى المأساة ، فلذلك إذا أردت أن تسلم في الدنيا فاطلب العلم ، وطبِّق العلم حتى تسعد في الدنيا والآخرة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ)

إياك مِن يوم الحسرة :

يا محمَّد ، أنذر قومك ، بل أنذر الناس جميعاً ..

(يَوْمَ الْحَسْرَةِ)

يوم الحسرة من أسماء يوم القيامة .. يوم الحسرة .. لأن الإنسان تأكل قلبَه الحسرة ، فهو في الدنيا كان قد سعى ، وجمع الدرهم والدينار ، وفجأةً أصبح من أهل القبور ، فأيقن أن الذي جمعه لم ينفعه شيئاً ، كان يظنُّ أن المال كلُّ شيء فأفنى عمره في تحصيله وجمعه ، فلمَّا جاءت المَنِيَّة عرف أن المال شيء، ولكنَّه ليس كل شيء ، وأن كل شيء هو الإيمان ، ومعرفة الواحد الديَّان ، مِن هذا يأتي الندم ، فلا يعرف الشوق إلا مَن يكابده ، ولا الصبابة إلا من يعانيها ، الحسرة لا يعرفها الإنسان إلا إذا ضيَّع شيئاً ثميناً في الدنيا بتصرُّفٍ ساذجٍ جاهل ، يقول : الحسرة تأكل قلبي ، كيف ضيّعت هذه الزوجة ؟ كيف

فرَّطت فيها ؟ كيف ضيَّعت هذا البيت ؟ كيف أحجمت عن شراء هذه البضاعة ؟ إذا كان شيءٌ ماديٌّ يُحصَّل في الدنيا مرَّةً ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وضاع منك تتحسَّر عليه ، فكيف إذا عرف الإنسان أن الآخرة كلَّها قد ضاعت ، الأبد كلُّه ضاع ؟ ..

" فو الذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار " .

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ)

فهؤلاء الذين انغمسوا في الدنيا سيتحسَّرون على أنهم ضيَّعوا عمرهم سدى ..

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر : 56)

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان : من آية " 37 ")

العضُّ على اليدين ، والحسرة في القلب والندم ، و ..

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ)

(سورة الحجر :2)

هذه الآيات كلُّها تؤكِّد أن الذي لم يعرف ربه في الدنيا ، ولم يستقم على أمره ، ولم يتقرَّب إليه ، ولم يتعلَّم العلم الذي ينجيه من أهوال يوم القيامة سوف يواجه يوم القيامة حالة نفسيَّة لا توصف ، عبَّر الله عنها بكلمةٍ واحدة هي .. يوم الحسرة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ)

وما من شعورٍ مسعدٍ مثل أن يكون الإنسان على استعداد لغدِهِ كأن يأتي الموت ، وقد استعدَّ الإنسان له أتم استعداد ، وقد عرف ما له وما عليه ، وقد أدَّى ما عليه لله عزَّ وجل ، عَبَدَهُ ، وأطاعَه ، وأفنى عمره في طاعته ، وفي التقرُّب منه ، فجاء الموت فكان من السُعداء ، لذلك متى يخشى الإنسانُ الموتَ ؟ إذا عَمَّر دنياه ، وخَرَّب آخرته ، متى يخشى الموت ؟ إذا كان يقدُمُ على حياةٍ لا يعرف عنها شيئاً ، متى يخشى الموت ؟ إذا حمل من الأوزار ما لا يطيق ، لذلك أقلِل من الذنوب يسهل عليك الموت ، أقلل من الشهوات يسهل عليك الفقر ، أرسل مالك أمامك يسعدك اللحاق به .

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ)

يوم الحسرة هو يومُ القضاءِ :

إذا ارتكب مجرمٌ جريمةً ، واستحقَّ الإعدام ، وصُدِّق الحكم ، وسيق للتنفيذ ، وهو يصعد درجات المشنقة ، فبكاؤه كضحكه ، كرجائه ، كدعائه ، كتوسله ، كلُّها سيَّان ..

(إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ)

الحكم مبرم ، ومصدَّق ، والتنفيذ بعد دقائق ، فهذه المشكلة أن الإنسان في الدنيا أمورُه تُصحَّح ، والأخطاء تُغْتَفَر ، والذنوب تغتفر ، والمعاصي تُسْتَر ، الحقوق تؤدَّى ، والمظالم تُسَوَّى ، كل شيءٍ في الدنيا له حل ، أما إذا جاء الموت ، وخُتِمَ العمل فليس هناك من حلٍ أبداً ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ)

انتهى الأمر ، هذه ساعة الحكم المبرم ..

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف : 79)

هم اتخذوا قراراً بأن الدين لا يُجدي في هذه الحياة ، هكذا أبرموا أمراً ، إذاً حينما يأتون يوم القيامة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

غرور الناس بمتاع الدنيا وغفلتهم عن يوم القيامة :

كانوا في غفلةٍ عن هذا ، كانوا في غفلةٍ عن يوم القيامة ، عن هذا اليوم الرهيب ، عن الطامَّة ، عن الواقعة ، عن يوم الحسرة ، عن يوم الدين ، عن يوم الجزاء ، عن الصَّاخَّة ، هذه كلُّها أسماء ليوم القيامة ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لم يؤمنوا بالله عزَّ وجل ، ولم يؤمنوا باليوم الآخر ، فغفلوا عنه ، فانغمسوا في شهواتهم ، فجاءهم الموت فجأةً فأصابتهم الحسرة ..

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر : 9 -10)

يومٌ عسير حينما يُساق الإنسان ليلقى جزاء عمله ، هذا في الدنيا عسير فكيف في الآخرة ؟ في الدنيا المحامون موجودون ، والخروج بكفالة، والوسائط متوفرة ، والقاضي قد يكون منحازاً إلينا ، هناك أسباب كثيرة تخفّف من وطأة هذه الساعة ، أما يوم القيامة فالله سبحانه وتعالى هو الحكم الفصل بين العباد ، لا محاباة ، ولا مداراة ..

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

فعلاقة هذه الآية بأختها واضحة ، فرحهم ، وغفلتهم أرْدَتْهم ..

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لماذا هم لم يؤمنوا ، وكانوا في غفلة، وانغمسوا في الشهوات ؟ لأن الدنيا كانت بين أيديهم ، إنهم فرحوا بها ، افتخروا بها ، تاهوا بها على عباد الله ..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : 44)

فرحوا بما أوتوا ، قارون قال :

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص : من آية " 78 ")

(قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

(سورة القصص :76)

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ...))

(ورد في الأثر)

من صفات الكفَّار أنهم يفرحون بالدنيا ، يفرحون بها ، تمتلئ قلوبهم فرحةً بنيلها ، فلذلك هذه الدنيا التي فرحوا بها ، واطمأنوا إليها ، وركنوا إليها ، وسكنوا إليها ، وافتخروا بها ، واعتزوا بها هذه لن تدوم لهم ، والدليل :

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا)

كل شيء لله ملكا وتصرفا ومصيراً :

هذا البيت الذي أمضيت سنواتٍ طويلة في تزينه ليس لك ، وهذه الدُكَّان التي تعلّق القلب بها ليست لك، وهذه المركبة الأنيقة التي تتيه بها على الناس ليست لك سيرثها الله منك ، لابدَّ من أن تتركها ، كل شيءٍ في الدنيا يُتْرَك ، ولا يدخل معك في القبر إلا عملك ، فلذلك هنا لماذا هم في غفلةٍ ؟ لماذا هم لا يؤمنون ؟ لماذا سيتحسَّرون ؟ لأنهم منغمسون في الدنيا ، والدنيا العريضة التي بين أيديهم ليست لهم ، ليست على الدوام لهم ، إنها لهم لوقتٍ محدود .. لمن هذا القطيع من الإبل ؟ قال : " لله في يدي " .. الآن في يدي ، ادخلْ أحد أسواق دمشق ، فهذه الحوانيت أصحابها الحاليون جاؤوا بعد أصحابٍ لها سابقين ، وأصحابها السابقون جاؤوا بعد أصحابٍ لها سابقين ذلك ، وهكذا دواليك ..

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا)

وفي النهاية هذه الأراضي الغالية الثمن ، وهذه البيوت الفَخمة ، وهذه المركبات الأنيقة ، وهذه البساتين الغَنَّاء ، وهذه الأموال الوفيرة إنها ليست لأصحابها ، إنها لله عزَّ وجل .

((إنَّ لله ما أعطى ، وله ما أخذ ...))

(ابن ماجه عن أسامة بن زيد)

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

يُرجَعون لنحاسبهم على أعمالهم ، وهذه الآيات جاءت بين قصَّتين ، بين قصَّة مريم الصِدِّيقة ، وبين قصَّة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .. لنقرع نواقيس خطر العودة :

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

(وَاذْكُرْ)

يا محمَّد ..

(فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ)

قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه :

إنَّ العرب جاؤوا من نسله ، وهم يعتزون به ، وهم ينتمون إليه ، وإبراهيم هذا لم يكن مشركاً ، بل كان مؤمناً موحِّداً مسلماً ..

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

إبراهيم عليه السلام النبيُّ الصدِّيقُ :

الصِدِّيق صيغة مبالغة للصادق ، والصادق هو الذي يفعل ما يقول ، ويقول ما يفعل ، ليس هناك ازدواجية في حياته ، ليس هناك مسافةٌ بين أقواله وأفعاله ، يفعل ما يقول ، ويقول ما يفعل ، أي أنه إذا تكلَّم ينطق بالحق ، وإذا فعل يأتي فعله مصداقاً لقوله ، هذا هو الصديق ، وهذه الصفات العالية التي اتصف بها الأنبياء والمرسلون ، ومن ثم فالمؤمنون مكلَّفون أن يتَّصفوا بها لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ :

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

وَقَالَ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)))

(مسلم عن أبي هريرة)

فيجب أن نكون صادقين ، إذا تكلّمنا فكلامنا ينبغي أن ينبع من حقيقة لا من دجل ، لا من تزوير ، لا من إخفاء ، لا من تحوير ، لا من تبديل ، وإذا فعلنا يجب أن يكون فعلنا مصداقاً لعقيدتنا ، حيثما كان القول مصدِّقاً للعمل ، وحيثما كان العمل مصدِّقاً للقول فهذه هي الصدِّيقية ..

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

قال عليه الصلاة والسلام :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(مسند أحمد عن أبي أمامة)

إذا وقع الإنسان في الكذب فكأنما خرج من إيمانه ..

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

وكلمة النبي لها معنيان ، إنه تَنَبَّأَ بالغيب لما يوحى إليه ، تنبأ بالحق الذي أُوحي إليه ، والنبي من الشيء المرتَفَع ، أيْ مرتبةٌ نفسيةٌ رفيعة ، ومرتبةٌ علميَّةٌ رفيعة ..

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

القول الأوَّل ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، أربع موضوعات ، أولاً :

(يَا أَبَتِ)

أساسها يا أبي ، هذه التاء جاءت نيابة عن ياء المُتَكَلِّم ..

(يَا أَبَتِ)

تلطّف إبراهيم عليه السلام وأدبُه مع أبيه :

فيها تحبُّب ، فيها تلطُّف ، فيها مودَّة ، فيها تواضع ، وإذا أردْتَ أيها الأخُ المؤمن أن تنصح أباك فكن غايةً في التلطُّف ، والأدب ، والمودّة ، والاحترام ، لأن الأب أبٌ ، والابن أبنٌ ، أمَّا أن يكون الابن متعالياً ، أو قاسياً ، أو مُقَرِّعاً لأبيه ، فهذا يستحيل أن يؤدِّي هذا الموقف إلى الهداية ..

(يَا أَبَتِ)

نبيٌّ عظيم أبو الأنبياء ، ومع ذلك وقف من أبيه المُشرك وقفةً فيها أدبٌ رفيع ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

إنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه عبادتَه الأصنام :

يا أبتِ ، موقفُكَ موقفٌ غير معقول ، موقفٌ غير مقبول ، موقفٌ غير منطقي ، موقفٌ غير واقعي أن تأتي إلى صنمٍ من حجر فتعبده من دون الله ، أهو يسمعك إذا ناديته ؟ لا والله ، أهو يراك إن فعلت شيئاً يرضيه ؟ لا والله ، أهو يستجيب لك إن استغثتَ به ؟ لا والله ، أهو يقدِّم لك الحواس ؟ أيقدِّم لك الماء من السماء ؟ أينبت لك الزرع والزيتون ؟ أيَخْلُقُ في بطن زوجتك هذا الغلام اللطيف ؟ لا والله ..

(أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الواقعة: 59)

الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئا :

ماذا فعل هذا الصنم ؟ ..

(لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً)

إذا تعلّقت بإنسان له سمعٌ ، وله بصر ، وله فكرٌ ، وله إرادة ، وهو أقوى منك ، إذا تعلّقت به فهذا إشراك ، لأن هذا الإنسان مُضطَّرٌ إلى مقومات وجوده كاضطرارك أنت ، ولو أن الله عزَّ وجل قطع عنه الإمداد ثانية لأصبح جثّةً هامدة ، إذا كنت منهياً عن أن تعبد إنساناً أرفع منك شأناً ، وأقوى منك ، يسمع ويبصر ، ولكنَّه في النهاية عبدٌ مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزَّ وجل ، فإنك لا تُسَمَّى منطقياً ، ولا عاقلاً ، ولا واقعياً ، إذا أطعت إنساناً يبدو لك أنه عظيم ، يبدو لك أنه قوي ، يبدو لك أنه يسمع ويُبْصر، لأن هذا الإنسان مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزَّ وجل كافتقارك أنت ، فكيف تعبد صنماً لا حسَّ له ، ولا سمع له ، ولا بصر له ، ولا إدراك له ، ولا حركة له ، ولا نفع منه ، ولا ضرر من إغضابه ؟ شيءٌ سخيفٌ جداً ..

(يَا أَبَتِ لِمَ)

استفهام إنكاري ..

(لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً)

فكِّر في هذه الأصنام ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)

دعوة إلى الله في منتهى الأدب واللباقة :

إنه منتهى الأدب ، لم يقل له : يا أبتِ إني عالمٌ ، وأنت جاهل ، إنني أعلم كل شيء وأنت لا تعلم شيئاً ، لا ، قال :

(إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)

جاءني بعض العلم الذي لم يأتك .. يُروى أنَّ عالماً شهيراً رأى رجلاً وحوله تلاميذه ، فهاله تجمُّع الناس حوله ، وأراد أن يصغِّره في عيون تلاميذه ، فجلس في مجلسه ، وبعد انتهاء الدرس قال له : " يا هذا ، إن هذا القول الذي تقوله ما سمعنا به ، فمِن أين جئت به ؟ " ، قال : " يا سيدي أو حصَّلت العلم كلَّه ؟ إذا قال : نعم ، فقد خالف نصَّ الآية الكريمة :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء : 85)

قال : " لا : ، قال : " فهذا من الشطر الذي لم تُحَصِّله " ، وأسكته عن طريق العقل والأدب .. وسيدنا إبراهيم كان في منتهى الأدب مع أبيه..

(إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)

وجوب اتباع الأنبياء مطلقا :

العلماء استنبطوا من هذه الآية أن العالِم يجب أن يُتَّبَع في كل شيء ، ليس في الدين فقط ، بَلْ في أية مصلحة ، فإنّ العالِمَ هو الذي يُتَّبَع ، والأقلُّ علماً هو الذي يجب أن يتبع الأكثر علماً ، في الهندسة ، في الطب ، في أي مجال ، الكلمة الأولى للأعلم ، وفي الدين كذلك ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)

درس وعبرة دعوية :

أنا أشعر أن هذه الكلمة في منتهى الأدب ، في منتهى التلطُّف ، وهذا درسٌ لنا ، قد تُضطر أن تناقش إنساناً أكبر منك ، قد يكون عمَّك ، أو أباك ، أو من هو أعلى منك في العلم ، أكبر منك سنّاً ، وأعلى قدراً ، وهو واقعٌ في غَلَطٍ شديد ، واقعٌ في انحرافٍ خطير ، يتكلَّم كلاماً باطلاً ، أنت إن أردت نُصْحَهُ فإيَّاك أن تأتيه مِن فوق ، لأنه لن يستجيب لك ، إيَّاك أن تقسو عليه بالكلمات ، تلطَّف معه ، كأنني سمعت كذا وكذا ، وكأنني أريد أن أستفهم منك ، اجعلْ نُصحك له ، ووعظك إيَّاه على شكل سؤالٍ وجواب .

فهذا النبي العظيم الموحى إليه ، أبو الأنبياء ، يتلطَّف مع أبيه المشرك ، ويقول له :

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)

وشيءٌ آخر ، ليس هناك اتباعٌ إلا للعالِم ، أيْ أن طاعة الأب طاعة مطلقة عمياء سلوك غير إسلامي ..

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ))

(الترمذي)

(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً)

اتباع الأنبياء سعادة في الدنيا والآخرة :

إن اتبعتني سعدتَ في الدنيا والآخرة ، سرتَ على صراطٍ مستقيم ، عرفتَ ما لك وما عليك ، عرفتَ الذي خلقك ، عرفتَ الذي كوَّنَك .

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)

هو يعبد هذه الأصنام ، فلِمَ قال له سيدنا إبراهيم :

(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)

الشيطان أصل في عبادة الأصنام :

لأن الشيطان هو الذي يسوِّل للإنسان أن يعبد الأصنام ، الشيطان إذا سوَّل لهم أن يعبدوا الأصنام فإنه يبعدهم عن الواحد الديَّان .. إحدى القبائلِ العربيَّة كانت تعبد صنماً من تمر ، فلمَّا جاعت أكلته ، فكان يقال عنها : أكلت ودٌ ربَّها ، ومرَّة رأى شاعر صنماً وثعلبٌ يبول على رأسه ، فقال :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟!! لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

* * *

مستحيل ، كيف يُعبد هذا الصنم من دون الله ؟ ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً)

سبب الشقاء مخالفة الله وعصيانه :

أيْ أن سبب كل شقاء يلحق الإنسان ناتج عن الإنسان أنه عصى الرحمن ، وحينما تعصي إنساناً منحرفاً فربما كانت معصيتك له هي الصواب ، ولكن الشيطان عصى الرحمن ، وربنا عزَّ وجل ذكر

هذا الاسم (الرحمن)لأنه جامعٌ للأسماء الحسنى ، و كأنَّ اسم الله الأعظم ، " الله الرحمن " ..

(قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الإسراء : من آية " 110 ")

وبعض العلماء يقول إن هذا الاسم (الرحمن)هو : " اسم الله الأعظم ، لأن قدرته فيها رحمة ، وحكمته فيها رحمة ، والرحمة تَجمع بين أسمائه كلّها " ..

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً)

مراحل إنكار إبراهيم على أبيه عبادتَه الأصنام :

أوّلاً :

كيف تعبدُ هذه الأصنام التي لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغني عنك من الله شيئاً ؟!

ثانياً :

يجب أن تتبعني لأنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك .

وثالثاً :

(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً)

فإذا عبدت الشيطان الذي عصى الرحمن فعبادته معصية للرحمن ، وأن تطيع العاصي فهي معصية ، ومن المعاصي أن تطيع العاصي ، فالشيطان عاصٍ للرحمن ، فإذا أطعته فقد عصيت الله عزَّ وجل ..

(يَا أَبَتِ)

أسلوب الترهيب والترغيب :

الآن خوَّفه ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

فالمَسُّ ؛ أن يمسَّك عذابٌ من الرحمن ، لِمَ لمْ يقل ربنا عزَّ وجل : إني أخاف أن يمسَّك عذابٌ من الله ؟ هذه إشارة إلى أن كل المصائب على وجه الأرض ، كل العذاب ، كل أنواع العذاب على وجه الأرض

إنما في الأساس مبعثها الرحمة ، لقوله تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام :147)

تقتضي رحمته ألاّ يردُّ بأسه عن القوم المجرمين ..

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)

فكيف أن المريض الذي التهبت عنده الزائدة ، كيف يُفْتَحُ بطنه ؟ وتُقطَّع شرايينه ؟ وتسيل الدماء على جسده ؟ وكيف يُعطى الأدوية المسكّنة لوجود الآلام المُبَرِّحة ، كل هذا بدافع الرحمة ، هذا شيءٌ ظاهر يعرفه القاصي والداني ، كذلك فكُلّ شيءٍ وقع على وجه الأرض محضُ رحمةٍ من الله تعالى ، ومحضُ حكمةٍ ، ومحضُ عدالةٍ ، ومحضُ علمٍ ، في كل شيءٍ وقع على وجه الأرض علمٌ ، ورحمة ، وعدالةٌ ، وحكمة من الله عز وجل ، وهكذا :

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

حينما يستمع الأب مثلاً إلى كلمةٍ نابيةٍ من ابنه لا يسعه إلا أن يؤدِّبه ، وقد يوقع به ضرباً مؤلماً لئلا يعود لمثل هذه الكلمة ، فهل نقول : الأب انطلق في هذا الضرب من قسوةٍ في قلبه ؟ لا ، بل من رحمةٍ على هذا الابن من أن يكبر على عاداتٍ ، وأخلاقٍ رَدِيَّةٍ سيِّئة ، فغالباً عند الإنسان الذي يتسم بقلبٍ كبير، وتبدو أعماله للآخرين قاسية فإنما مبعثها الرحمة ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه يقول :

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران : 26)

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

(سورة الأنعام : من آية " 147 ")

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف : من آية " 156 ")

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)

إنّ الإنسان إذا أصابه العذاب من الرحمن ، إما أن يستجيب فيتوب ، وإما أن يُصِرَّ على معصيته فيوالي الشيطان ، فلا أحد يعرف كيف يكون ردُّ الفعل على هذه المصيبة ، ربما ساقت هذه المصيبة الإنسان إلى مزيدٍ من الكفران ، وربما أدَّت به إلى التوبة والإحسان ، على كلٍ قد يَمَسُّ ربنا عزَّ وجل عبداً بالعذاب فيكون للشيطان ولياً ، يواليه ..

جواب والد إبراهيم تهديد ووعيد :

الآن تكلّم والد سيدنا إبراهيم :

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)

كل هذا الكلام المنطقي الواضح اللطيف لم يؤثّر فيه ..

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً)

معنى (لأرجمنَّك)أي لأقتلنَّك بالرَّجم ، وهو قتلٌ مع إهانة إلى أن تموت ، لأضربنَّك حتى الموت ..

(وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً)

فما كان من هذا النبي العظيم إلا أن قال لهذا الأب القاسي الذي لم يفهم فحوى هذا القول ، وهذا النُصح الشديد ..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ)

سلام عليك أيها الأب المهدِّد :

فلن ترى مني إلا الخير ، لن أنالك بسوء ، لن يصيبك مني إلا كل خير ..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ)

أيْ مني ..

(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

بعضهم قال : " إن تبت فسأستغفر لك ربي " ..

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)

ترقق المؤمن ورحمته بالناس المخالفين له :

هكذا المؤمن ، وربنا سبحانه وتعالى يقول في مكانٍ آخر :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت : 33 -34)

هكذا المؤمن ..

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

((اصنع المعروف مع أهله ، ومع غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله))

(القضاعي في مسند الشهاب عن علي)

لا ينبغي للمؤمن أن يحقد ، ولا أن يكيل الصاع صاعين ، ولا أن يرد على السيئة بسيئة أخرى ، ولا أن يتخذ موقفاً فيه ثأرٌ لنفسه ، مَن كان كذلك ليس أهلاً أن يكون باباً لله عزَّ وجل ، من كان كذلك ليس أهلاً أن يكون داعياً إلى الله عزَّ وجل ، الدعوة إلى الله تحتاج إلى خُلُقٍ نبيل ، إلى تسامح كبير ، إلى رفعةٍ في التصرُّفات ، إلى رحمةٍ في القلب ، إلى عطفٍ على الخَلْق .. " إذا قال العبد : يا رب وهو راكع قال الله : لبيك يا عبدي ، فإذا قال العبد يا رب وهو ساجد ، قال الله : لبيك ، فإذا قال العبد : يا رب وهو عاصٍ ، قال الله : لبيك ثم لبيك ثم لبيك " .

هكذا ، هؤلاء المؤمنون الذين يدعون إلى الله عزَّ وجل يحتاجون إلى أخلاقٍ رفيعة ..

(سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)

هذه المواقف الأخلاقيَّة مواقف العطف ، والإحسان ، والترفُّق ربما فعلت فعل السحر .

صور تطبيقية للرفق واللين :

1 – مع أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ :

أبو حنيفة رضي الله عنه كان له جارٌ يغني ، فأقلق لياليه كلَّها ، كان يغني ويقول :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ..

وكان يعزف على آلةٍ موسيقيةٍ ذات أوتار ، أقلق الجيران ، قُبِضَ عليه ذات ليلة ، فذهب أبو حنيفة إلى المُحتسب ليتوَسَّط له ، وحينما دخل هذا الإمام العظيم على المحتسب كَبُرَ عليه ذلك ، وأطلق كل من في السجن إكراماً لأبي حنيفة ، أمسك بيد جاره ، وقال له في طريق العودة : هل أضعناك يا فتى ؟ تقول : أضاعوني ، وأي فتى أضاعوا ، فكانت النتيجة أن تاب الفتى على يديه.

2 – مع مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ :

أحد الأئمة العِظام وهو مالكٌ بن دينار كان يمشي في الطريق ليلاً ، فرأى إنساناً مخموراً يقول : الله ، فهاله أن يخرج هذا الاسم العظيم من هذا الفم النجس ، فأخذه إلى البيت ، وأنعشه ، وغسَّله ، واعتنى به، ثم صرفه ، وذهب مالك إلى المسجد في اليوم التالي ، فرأى في المسجد إنساناً يُصلي بخشوعٍ بالغ ،

ويبكي في الصلاة ، وفي الليلة ذاتها رأى في المنام رؤيا ، وسمع صوتاً يقول له : " يا مالك طهَّرت فمه من أجلنا فطهَّرنا قلبه من أجلك " ، فلمَّا سأل هذا المصلي : " من أنت يرحمك الله ؟" ، قال : " إن الذي هداني أخبرك بحالي " .

3 – مع سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ :

سيدنا عمر رضي الله عن عمر بلغه أن صاحباً له كان في المدينة زلَّت قدمه ، وذهب إلى الشام ، وشرب الخمر ، وعاقرها ، فكتب له كتاباً رقيقاً ، وقال : " أمَّا بعدُ فإني أحمد الله إليك ، غافر الذنب ، قابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول " ، فجعل هذا الصاحب يقرأ الكتاب ويبكي ، وهذا البكاء بسبب هذه الرقَّة في الكلام ، وهذا التلطُّف في الموعظة ، حمله بكاؤه على التوبة ، فلمَّا بلغ عمر رضي الله عنه أنه تاب قال : " هكذا اصنعوا بأخيكم إذا ضل ، كونوا عوناً له على الشيطان ، ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم .

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت : 34)

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)

وجوب اعتزال أهل الكفر والإلحاد بعد ردِّهم دعوة الحقِّ :

يجب أن تعتزل أهل الكفر والعصيان ، وأهل الفسوق والفجور ، إنهم كنافخ الكير ، إن لم يحرقوا ثيابك أضرُّوك ..

(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

تدعون هنا بمعنى تعبدون ، لأن الدعاء عبادة ، أي إذا عبدتم غير الله أعتزِلُكُمْ أنتم وما تعبدون .

(وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً)

كما قال سيدنا زكريَّا :

(رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

أي ما دعوتك يا ربي من قبلُ ، وشقيت بهذا الدعاء .. الله عوَّدك الجميل فقس على ما قد مضى .

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً)

إكرام اللهِ إبراهيم عليه السلام بإسحاق :

فالله سبحانه وتعالى أكرمه بذريةٍ من الأنبياء ..

(وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)

فمن يوهب لسان صدقٍ عليًّا ، يتكلّم بالحق ، فالكلمة الطيِّبة صدقة ، وبالكلمة الطيبة يرتفع بها الإنسان إلى أعلى عليين ..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم : 24-25)

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً)

موسى عليه السلام النبي الرسولُ المخلص :

معنى : مُخْلَصًا :

عندنا في اللغة مخلِصٌ ومخلَصٌ ، إذا أخلص العبد لربِّه ، وتجلَّى على قلبه ، ونقَّاه من كل دَرَنٍ صار مخلَصاً ، كان مخلِصاً اسم فاعل ، فصار مخلَصاً اسم مفعول ، أي خلَّصه الله من كل الشوائب ..

(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً)

مناجاة الله لموسى عليه السلام :

جعلناه نجيًّا ، كليمنا ..

(وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً)

صادق الوعد ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون)

(سورة الصف :2)

إسماعيل عليه السلام : إنه كان صادق الوعد :

قد تَعِدُ ربَّك بالتوبة ، تعده بالإقلاع عن هذه المعصية ، فلمَ تزلُّ القَدَم بعدها ، وتفعل ما وعدّته بتركه ..

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)

هذه صفات الأنبياء صفاتٌ تأخذ بالألباب ..

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

أين نحن من هذه الصفات ؟

مرضياً عنه ، أين نحن من هذه الصفات ؟ سيدنا عمر يقول : "عجبت لثلاث ؛ لمؤمِّلٍ والموت يطلبه ، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه ، وضاحكٍ ملء فيه ، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راضٍ " ، يا ترى ألا يجدر بنا أن نسأل هذا السؤال : يا رب هل أنت راضٍ عني ؟

قال : يا رب أحد الطائفين حول البيت الحرام قال : " يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ " ، كان وراءه الإمام الشافعي فقال له : " هل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك ؟ " ، قال : " من أنت يرحمك الله ؟"، قال : " أنا محمَّد ابن إدريس " . قال : " كيف أرضى عنه وأنا أتمنَّى رضاه ؟ " ، قال: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه رضي عنك " .

هذا سؤال خطير : يا ترى هل أنا عند الله مرضيٌّ ؟ هل يرضى الله عن أعمالي ؟ عن أقوالي ؟ عن تصرُّفاتي ؟ عن طريقة جمعي للمال ؟ عن طريقة معاملة زوجتي ؟ هل اللهُ راضٍ عن بيتي ؟ هل في بيتي معاصٍ بإمكاني أن أزيلها ولم أزلها حتى الآن ؟ هل بإمكاني أن أفعل كذا ولم أفعله ؟ أين أنت ؟ أين أنت من الله عزَّ وجل ؟ هل أنت في صفِّ أوليائه أم في صف أعدائه ؟ هل أنت مع المؤيِّدين للحق أم مع المُناهضين له ؟ هل يجدك حيثما أمرك ، ويفقدك حيثما نهاك ؟ أم العكس صحيح ؟

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)

(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)

صدّيقاً كما قلنا : أيْ شديد التصديق للحق ، يقول ما يفعل ويفعل ما يقول ، وليس هناك مسافةٌ بين أقواله وأفعاله ..

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً)

لكل مؤمن نصيب من الرفعة والمكانة العلية :

ولكل مؤمن نصيب من هذه الآية ، حيثما عرفتَ الله ، واستقمت على أمره ، وأخلصت له فلابدَّ من أن يرفعك الله عزَّ وجل ، لابدَّ من أن يُعلي قدرك ، لابدَّ من أن يطهِّر اسمك ، فلابدَّ من أن يجعل قلوب الناس تهفو إليك ..

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً *أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)

(أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

أنت في الصلاة تقول :

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة : 7)

فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحقَّ وحادوا عنه ، والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق أصلاً ، أما الذين أنعم الله عليهم فهؤلاء هم النبيّون ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون ، فإذا قلت في كل صلاةٍ ، في كل ركعةٍ حصراً :

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا)

أيْ اخترنا ..

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)

البكاء عند سماع القرآن دليل على حياة القلب :

أي أنَّ الإنسان إذا لم يبكِ لسماع آيات الله عزَّ وجل فهذه ظاهرةٌ خطيرة ، من علامات المؤمن أنه إذا ذُكِرَ الله وَجِلَ قلبه ، وإذا تليت عليه آياته زادته إيماناً ، من علامات المؤمن أنه يقشعرُّ جلده لذكر الله ، أن عينه بكّاءَة تبكي إذا ذُكر الله ..

((عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

(سنن الترمذي عن ابن عبَّاس)

وفي روايةٍ :

((وعينٌ غضَّت عن محارم الله))

وطبعاً البكاء لا يكون إرادياً ، لكنْ اجتهد في طريق الإيمان ، واجتهد في معرفة ربنا سبحانه وتعالى من أجل أن تملك قلباً رقيقاً إذا تُلِيَت عليك آيات الله تبكي ، وهذا بكاء الرحمة ، وكان الأنبياء ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون بكّائين ، فكلّما تليت عليهم آيات الرحمن بكوا ..

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

هذه الوجبة الجديدة ..

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتَّبَعوا الشهوات

بكلماتٍ قليلة ، بليغة ، محدَّدة لخَّص الله سبحانه وتعالى حال البشرية من بعد هؤلاء الذين أنعم الله عليهم ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

قال العلماء : " ليس تضييعُ الصلاة عدمَ أدائها ، ولكن عدم تحقيق مراد الله منها " .

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت : من آية " 45 ")

إذا لم تنهَ صلاة المؤمن عن الفحشاء والمنكر فكأنَّه ضيَّعها ..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

والبشريّة تلاقي الغَيّ ، والمصائب ، وفنون العذاب بسبب بعدهم عن الله سبحانه وتعالى ، ولنا عودةٌ إلى هذه الآية في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 59 - 65

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الرابع من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(أولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

معنى الخلْف والخلَف

قال العلماء : الخَلْفُ شيء ، والخلف شيءٌ آخر ، فالخلف - بتسكين اللام - الذرية السيِّئة ، والخَلَفُ - بفتح اللام - الذرية الصالحة ، فإذا قلت لرجلٍ فقد أباه تقول له : خير خلَفٍ لخير سلف . أما الخلْف فهي الذرية السيئة ، فربنا سبحانه وتعالى بعد أن ذكر عن هؤلاء الأنبياء العظام ، وعن صفاتهم الراقية ، وعن شكرهم ، وعن عرفانهم ، وعن طاعتهم ، وعن محبتهم ، وعن أعمالهم الطيبة ، وعن نفسياتهم السامية ، بعد أن ذكر كلّ ما ذكر عن كل هؤلاء قال تعالى :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

من بعد هؤلاء الأنبياء ..

(خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

العلاقة الترابطية بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات :

هناك علاقةٌ ترابطيةٌ بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات ، من أضاع الصلاة اتَّبع الشهوات ، من أقام الصلاة ابتعد عن الشهوات ، والمقصود بالشهوات الشهوات الدَنِيَّة ، لأنك إذا تزوَّجت فبهذه الشهوة ترقى إلى الله عزَّ وجل ، وإذا كسبت المال الحلال وأنفقته في وجوهه المشروعة ، فبهذا الكسب ، وبهذا الإنفاق ترقى إلى الله عزَّ وجل ، ولكن الشهوات التي وردت في هذه الآية إنما تعني الشهوات المُنْحَطَّة

التي ما شرعها الله عزَّ وجل ، ولا سمح بها ، فمثلاً أن تعتدي على أعراض الآخرين هذه شهوةٌ منحطة، طبعاً هذا الاعتداء مبعثُه الشهوة ، ولكن هذه الشهوة إنما أودعت فيك لترقى بها إلى الله عزَّ وجل ، عن طريق الزواج إيجاباً ، ولترقى بها إلى الله عزَّ وجل سلباً عن طريق الابتعاد عن المحرَّمات، فكل الشهوات التي أودعها الله في الإنسان من أجل أن يرقى بها رُقِيّاً في حالتين ؛ في حالة الإيجاب ، وفي حالة السَلب ، فإذا ابتعد عن المحرمات من الشهوات يرقى إلى الله عزَّ وجل ، فإذا أخذ منها ما سمح الله به حصراً يرقى إلى الله عزَّ وجل ، لكن اتباع الشهوات هنا المقصود به ، اتباع الشهوات التي حرَّمها الله عزَّ وجل ، والتي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي نهى عنها النبي العدنان، اتباع الشهوات هنا ، الشهوات الخسيسة ، المنحطة ، التي تجعل من الإنسان حيواناً بهيمياً .

فكأن هناك علاقةً ترابطيةً بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات ، ما إضاعةُ الصلاة ؟

مِن المُجْمَع عليه أنه : ليس معنى إضاعة الصلاة تركها ، ولكن تأخيرها عن وقتها ، أو عدم الاستقامة قبلها ، إن لم تستقم قبل الصلاة فلا تنعقد الصلة بينك وبين الله عزَّ وجل ، والصلاة ليست أقوالاً ، وأفعالاً تفتتح بالتكبير ، وتختتم بالتسليم فحسب ، بل هي صلةٌ بالله عزَّ وجل ، وإقبالٌ عليه ، واتصالٌ به، واقتباسٌ من كماله .

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت : من آية " 45 ")

أعيد هذه العبارة مرةً ثانية .. ليست الصلاةُ في حقيقتها أقوالاً وأفعالاً تفتتح بالتكبير ، وتختتم بالتسليم فحسب ، بل هي إقبالٌ على الله عزَّ وجل ، واتصالٌ به ، واستمدادٌ من كماله ، لأنك إذا اتصلت بالله عزَّ وجل مصدرِ الحق ، والخيرِ ، والجمالِ فلابدَّ أن تنعكس هذه الصفات على قلبك ، لابدَّ أن يفيض قلبُك بالخير ، لابدَّ أن تحب الحق ، وأن تكون ناصراً له ، لابدَّ أن تبتعد عن كل دَنِيَّة ، لأن الصلاة كما أرادها الله عزَّ وجل تنهى عن الفحشاء والمُنكر .

لا تجد مؤمناً يصلي صلاةً صحيحة يؤذي الناس ، أو يأخذ ما ليس له ، أو يعتدي على حقوقهم ، أو على أعراضهم ، أو على أشخاصهم ، لا تجد مؤمناً حقاً يُصلي صلاةً صحيحة ، وهو مسيءٌ إلى الناس، فمن لوازم المصلي أنه محسن ، فمن لوازم المصلي أنه مُنْصِف ، من لوازم المصلي أنه يخجل من الله عزَّ وجل ، يشيع فيه الحياء ، والحلم ، والعفو ، فمكارمُ الأخلاق يمكن أن تشتق بعضها من خلال الصلاة ، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإذا ضُيِّعَت الصلاة فالأمرُ عسير ، فتضييع الصلاة ألاّ تكون مستقيماً قبل الصلاة ، فإن لم تكن مستقيماً قبل الصلاة وقفت لتصلي ، وأنت في حجابٍ عن الله عزَّ وجل ، لأن المعاصي ، والمخالفات والاعتداءات ، والتقصير هذه كلها حُجُبٌ بينك وبين الله عزَّ وجل ، كلما ازداد حجم المعصية ازداد الحجاب ثخانةً ، وكلما خفَّت المعصية رَقَّ

الحجاب، فإذا استقمت على أمر الله عزَّ وجل ارتفع الحجاب بينك وبين الله ، عندئذٍ أقبلت عليه ، ورأيت الطريق مُيَسَّرةً إليه ، ورأيت أن أجمل ما في الحياة أن تكون مع رب الأرباب ، أن تكون مصلياً ، " يا موسى أتحب أن أكون معك ؟ " فصعق هذا النبي الكريم وقال : " يا رب كيف ذلك ؟ " قال : " أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيث ما التمسني عبدي وجدني ؟ " .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

من بعد هؤلاء الأنبياء العظام خَلَفَ خَلْفٌ سيِّئون ، من علامة سوئهم أنهم أضاعوا الصلاة .

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

هناك علاقةٌ ترابطية بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات ، إضاعة الصلاة يكون بعدم الاستقامة قبل الصلاة ، هذا الذي يبيع ويشتري ويملأ عينيه من الحرام ، لا يستطيع أن يعقد الصلة بينه وبين الله عند أذان الظُهر ، يستطيع أن يذهب إلى المسجد ، ويتوضَّأ كما أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن يصلي السنة ، وأن يصلي الفريضة ، وأن يتم حركات الصلاة ، ولكن لا يستطيع أن يتصل بالله عزَّ وجل ، لأن المخالفات التي ارتكبها في دكَّانه في أثناء البيع والشراء حالت بينه وبين انعقاد الصلة مع الله عزَّ وجل ، فمن أطلق بصره في الحرام ، أو من غَشَّ في بيعه وشرائه ، أو من حلف يميناً كاذبة ، أو مَن فعل من المعاصي ما شاء ، هذا يضيِّع عليه الاتصال بالله عزَّ وجل ، هذا يضيِّع الصلاة ، تضييع الصلاة ألاّ تكون مستقيماً فيما بين الصلاتين ، إن لم تكن مستقيماً فيما بين الصلاتين أضعت الصلاة ، بمعنى أن صلاتك أصبحت جوفاء لا معنى لها ، أصبحت أقوالاً وأفعالاً تفتتح بالتكبير ، وتختتم بالتسليم ، وانتهى الأمر ، لأن :

((الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

(الجامع الصغير عن علي بسند ضعيف)

وقال بعض العلماء : " من أضاع الصلاة التي هي عماد الدين فهو للعبادات الأخرى أشد إضاعة " ، فهي عماد الدين .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

الغي والهلاك جزاء إضاعة الصلوات واتباع الشهوات :

والغَيُّ هو الشر ، ومن علامات قيام الساعة كما جاء في بعض الأحاديث الشريفة هلاك العرب ، لماذا هلاكهم ؟ لأنهم ضيَّعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً .

العودة إلى الدين سبب للتمكين :

أما إذا عادوا إلى دينهم ، واتصلوا بربهم ، فزكت نفوسهم ، وطابت أعمالهم ، واستقامت سريرتهم ، وأتلفوا فيما بينهم ، وكانوا صفاً واحداً على من عاداهم ، عندئذٍ يعودُ لهذه الأمة مَجْدُها ، ويصدق عليها قول الله عزَّ وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور : من آية " 55 ")

فلا يكون التبديل إلى الأمن بعد الخوف ، ولا يكون التمكين بعد الضَعف ، ولا يكون الاستخلاف حاصلاً إلا بشرطٍ واحد :

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور : من آية " 55 ")

هذه الآية تصحُّ على مستوى الأمة وتصح على مستوى الفرد ، أنت وحدك إذا أقمت الصلاة وجَهدْتَ أن تتصل بالله عزَّ وجل فلَنْ تتصل به إلا إذا كنت مستقيماً على أمره ، إذا اتصلت بالله سَمتْ نفسك ، فكنت أبعد الناس عن الشهوات المُنحطة ، وعن الانغماس في المحرَّمات ، وعن اتباع الشهوات التي لا ترضي الله عزَّ وجل ، كأن إقامة الصلاة واتباع الشهوات شيئان متناقضان ، وجود أحدهما ينقض وجود الآخر ، أكرر للاعتبار : كأن إقامة الصلاة واتباع الشهوات شيئان متناقضان ، بمعنى أن أحدهما ينقض الآخر ، وجود أحدهما ينقض الآخر .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

ضيَّعوها بعدم الاستقامة ، ضيعوها بالتفلُّت من قواعد الدين ، ضيعوها بمخالفة أوامر الشرع ، ضيعوها بالاستخفاف بمجالس العلم ، ضيعوها بالانغماس في الشهوات .

(وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

مِن لوازم تضييع الصلاة اتباع الشهوات ، ومِن نتائج اتباع الشهوات تضييع الصلاة ، إذاً هناك علاقة ترابطية بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات ، مَن ضبط شهوته اتصلت نفسه بالله عزَّ وجل ، من أسباب الاتصال بالله عزَّ وجل ترك الشهوات الخسيسة `:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات : 40-41)

الدين كله هو الصلاة :

شيءٌ رائع ، هذه الآية دقيقة جداً ، كأن الدين كله هو الصلاة ، الصلاة عماد الدين ، الصيام من أجل الصلاة ، والحج من أجل الصلاة ، والزكاة من أجل الصلاة ، والصلاة من أجل الصلاة ، الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، إذاً اتباع الشهوات سببٌ لإضاعة الصلاة ، إضاعة الصلاة من لوازمها اتباع الشهوات ، لا يجتمع في الإنسان إقامةٌ للصلاة واتباعٌ للشهوات ، شيئان متناقضان أحدهما ينقض الآخر ، معنى إضاعة الصلاة عدم الاستقامة فيما بين الصلوات ، ومعنى إضاعة الصلاة تأخيرها عن وقتها ، ومعنى إضاعة الصلاة تركها ، ضيَّعها فتركها ، ضيعها فأخَّرها ، ضيعها بأن لم يستقم قبلها فوقف أمام ربه كأنه خُشُبٌ مُسَنَّدة ، لم يفقه منها شيئاً ، وفي بعض الأحاديث تقول الصلاة لصاحبها ؛ لمن لم يستقم قبلها فوقف وقفةً جوفاء لا معنى لها ، تقول له الصلاة ضيَّعك الله كما ضيّعتَني ، ما هذه الصلاة ؟

وهذا الإنسان الذي يرى زيداً من الناس يصلي ، وقد أصابه بالأذى ، رأى عمرواً يصلي ، وقد أكل مال زيد ، رأى فلاناً يصلي ، وقد اعتدى على عُبَيد ، رأى فلاناً يصلي ، وقد تجاوز حدوده ، ظلم الآخرين عندئذٍ يسهم هذا الذي يصلي ، ولم يستقم بإضعافِ قيمة الدين في نظر هؤلاء ، إنه أداةٌ للتنفير من الدين ، لذلك الإمام علي كرم الله وجهه يقول : " قوام الدين والدنيا أربعة رجال ؛ عالمٌ مستعملٌ علمه ، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم ، وغنيٌ لا يبخل بماله ، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه ، فإذا ضيَّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلَّم ، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره " ، الصلاة عصام الدين ، وركن اليقين والصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

وقد لقي مضيِّعو الصلاة ومتبعو الشهوات هذا الغي :

صور عن جزاء من أضاع الصلاة :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل : 112)

وقد لَقِيَتْ القُرى التي أضاعت الصلاة واتبعت الشهوات لقيت ذلك الغي .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : من آية " 65 ")

لقد ذاقت القُرى التي أضاعَتْ الصلاة ، واتبعت الشهوات ذاقت ذلك الغَي ، لقد أذاقها الله ذلك الغي ..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

اعملوا ما شئتم ، جميع البشر مجزيّون بما عملوا ، إن لكل حسنةٍ ثواباً ، ولكل سيئةٍ عقاباً ، لكن رحمة الله واسعة ، باب التوبة مفتوح ، لو أن مجتمعاً بأكمله ضيَّع الصلاة ، واتبع الشهوات فاستحق الهلاك ، استحق الغَي أيْ الشر : نقصٌ في الأموال والأولاد ، شحٌ في السماء ، ضيقٌ في الأرزاق ، قهرٌ للضُعفاء ، خصوماتٌ لا تنتهي ، تمزقٌ للحياة الاجتماعية ، تسيُّبٌ في الأعمال ، هذا هو الغَي .

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

إذا كان المجتمع كله قد ضيَّع الصلاة واتبع الشهوات فلابدَّ من أن يلقى ذلك الغَي ، وقد لقي ذلك الغَي ، والشواهد على هذا كثيرة ، لكن الله عزَّ وجل جلَّت حكمته ، ووسعت رحمته كل شيء ، لكن الله عزَّ وجل فتح باب التوبة لآحاد المسلمين ، فيا أيها المسلم لو أن المجتمع كله فسد ، وضيع الصلاة ، واتبع الشهوات واستحق الهلاك ، فإنّك إذا استقمت وحدك ، وإذا رجعت إلى الله ، واستقمت على أمره ، وعقدت الصلة بينك وبينه ، وحسَّنت عملك ، وتقرَّبت إليه ، وأحسنت للخلق ، فأنت وحدك تنجو من هذا الغَي الذي وعد الله به تاركي الصلاة ، ومتبعي الشهوات ، جاءت الآية الأولى في صيغة الجَمع ، وجاء باب التوبة في صيغة المُفرد ، أي أن آحاد المسلمين إذا عادوا إلى ربهم ، واتبعوا أمر دينهم ، وأحكموا صلتهم لن تنطبق عليهم هذه الآية ، أبداً ، ولو كنت في مجتمع فاسد ، ولو كنت في مجتمع قد ضيَّع الصلاة ، ولو كنت في مجتمع قد اتبع الشهوات ، ولو كنت في مجتمعٍ يستحق الغَي من الله عزَّ وجل ..

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً)

التوبة محو لما سبق ، ونيلُ جزاءٍ لاحق :

معنى تاب : الإمام الغزالي رضي الله عنه ، في كتاب إحياء علوم الدين ، وفي باب التوبة يُعَرِّف التوبة بأنها عِلمٌ ، وندمٌ ، وإقلاعٌ ، وعزيمة، فالذي يفعل السوء ولا يدري أنه سوء ، هذا كيف يتوب ؟ لابدَّ أن تحضر مجالس العلم حتى تعرف ما هو حقٌ ، وما هو باطل ، ما هو حلالٌ ، وما هو حرام ، ما يجوز ، وما لا يجوز ، ما يُرضي الله ، وما لا يرضيه ، يجب أن تعلم ، فإذا علمت أن هذا العمل لا يرضي الله ، وأنّ هذه الطريقة في البيع والشراء لا ترضي الله ، وأنّ إخفاء العَيب لا يرضي الله ، وأنْ تبيعَ بسعرين من دون سببٍ مشروعٍ لا يرضي الله ، أن تزيد في الثمن بزيادة الأجل لا ترضي الله ، أن تبيع بضاعةً محرّمةً لا يرضي الله ، أن تطلِق لبناتك العنان يفعلن ما يشأنَ بدافع التربية الحديثة ، وما تدَّعيه من الحرية ، لا يرضي الله .

إن لم تجلس في مجالس العلم ، وتعرف من خلال هذا المجلس حدود الله وشرعه ، وما يجوز ، وما لا يجوز ، كيف تتوب ؟ فقوام التوبة العلم ، العلم بالحلال والحرام ، كذلك ومن لوازم التوبة الندم على ما مضى ، وأن يكره التائب أن يعود في الكفر كما يكره الرجل أن يُلقى في النار .

من لوازم التوبة النصوح :

- من لوازم التوبة الندم على ما مضى .
- من لوازم التوبة الإقلاع الفوري عن المعصية ، لا تسويف ، غداً أتوب ، وبعد غدٍ أتوب ، وسوف أتوب ، وفي أول العام القادم أتوب ، وبعد الفحص أتوب ، وبعد الزواج أتوب .
- ومن لوازم التوبة العَزْمُ الأكيد في المستقبل على ألاّ يعصي الله ، إذاً هي علمٌ ، وندمٌ ، وعزمٌ ، وإقلاعٌ ، فإذا كانت المعاصي قد تعلّقت بها حقوق العباد فلابدَّ من إصلاح ، فلان له بذمتك مبلغٌ من المال ، وطالبك به كثيراً حتى يئس منك ، وأنت عدت إلى الله لابدَّ أن تؤدي هذا المبلغ إليه ، كل حقوقٍ ماديةٍ ، أو أدبيةٍ ، أو معنويةٍ ، أو ماليةٍ يجب أن تؤدَّى مع التوبة .

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

العمل الصالح في هذه الآية كلمة عامة تشمل العبادة كلها .

(تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

أصناف طاعة الله :

أطاع الله في العبادات ، وفي المعاملات ، وفي مكارم الأخلاق ، في الإسلام : عقائدَ ، وعبادات ، ومعاملات ، ومكارم أخلاق ..

1 - الطاعة في العقائد :

أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين .

2 - الطاعة في العبادات :

أن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن تؤدي الصلاة ، وتصوم رمضان ، وأن تزكي ، وأن تحج البيت إذا كنت مستطيعاً ، هذه العبادات .

3 - الطاعة في المعاملات :

يجب أن تعرف أحكام البيوع ، وأحكام الزواج ، وأحكام الطلاق ، وأحكام الإرث من أجل أن تعبد الله وفق شرعه .

4 - الطاعة في مكارم الأخلاق :

وأما مكارم الأخلاق فإذا اتصلت بمنبع الأخلاق ، إذا اتصلت بمصدرها ، اشتقَّتْ نفسُك من كمال الله كمالاً ، فإذا أنت رقيقُ الحاشية ، رحيم القلب ، لطيف ، حليم ، شفوق ، عَفُوٌ ، كريم ، سَخِيّ ، هذه المكارم الأخلاقية التي يذوب لها الإنسان ، إنما هي أثرٌ من آثار الصلاة .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

(إِلَّا مَنْ تَابَ)

بالجمع ..

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

أيْ أنَّهُ إذا فسد المجتمع ، واتجه نحو الدنيا ، وصار مادياً ، وغَدَتْ قيمة المرء فيه بقدر ما يملك ، وتغلَّب القويُ على الضعيف ، وضاع الحق مع الباطل ، وصار الإنسان بين مجتمع من الذئاب ، إذا كنت في مثل هذا المجتمع فَلُذْ بالتوبة ، والإيمان ، والعمل الصالح ، عندئذٍ يقبل الله عملَ أولئك ، ويجزيهم على هذا العمل الطيِّب بإدخالهم الجنة ..

(فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً)

لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

فمن القواعد الثابتة في القرآن الكريم أنه :

(لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام : من آية " 164 ")

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

(سورة المدثر : 38)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

(متفق عليه)

هذا هو الشرع .. " يا سعد بن أبي وقاص لا يغرنَّك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلْق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له " ، الطاعة هي القرابة ..

((أنا جَدّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

(كشف الخفاء 615)

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد :1)

عم رسول الله ..

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

((أنا جَدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

(كشف الخفاء (615)) و:

((سلمان منا آل البيت))

(الحاكم في المستدرك(6539)) و:

((نعم العبد صهيب))

(كشف الخفاء 2831)

هكذا الإسلام ، فسيدنا عمر رضي الله عنه خرج من المدينة ، وكان أميراً للمؤمنين ، خرج إلى ظاهر المدينة ليستقبل سيدنا بلالاً ، وسيدنا الصديق كان إذا ذُكِر عند عمر قال عنه : " هو سيدنا وأعتق سيدنا" ، أي بلالاً ، هكذا الإسلام ، كل الناس سواسية كأسنان المشط .

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً)

لك أن تقول : شيّا وشيئا ، شيّا على التخفيف ، وشيئاً على التحقيق ، كأن تقول : تاريخ وتأريخ ، كفُواً وكفُؤاً .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

الجزاء الأوفى للتائب : جنات عدن :

جنات عدنٍ ، فالإنسان إذا مات كتب على نعيه : "وسيشع إلى مثواه الأخير " ، إذا كان القبر هو المثوى الأخير ، فالبيت في الدنيا هو المثوى المؤقت ، فاعتَن به ما شئت ، بالغ في تزيينه ، إنه مثوى موقت ، أمّا :

(جَنَّاتِ عَدْنٍ)

ففي الجنة لا يوجد قلق ، والإنسان في الدنيا ولو حَصَّل منها كُلَّ ما يريد فقلقٌ خفيٌ كثير يعتلج في نفسه ، كم أعيش ؟ هل أصل إلى الستين ، أم أموت في الخمسين ، أم في الأربعين ؟ هذا القلق مِن مُفارقة الدنيا ، قلقٌ مزعج ، هل أبقى في هذا البيت ؟ هل يسمح لي دخلي ، أم أبقى فيه أن أضطر إلى بيعه ، وشراء بيتٍ أصغر منه ؟ هل تبقى لي هذه المركبة ؟ هل يبقى لي هذا المحل الجيِّد ، هل تبقى زوجتي صحيحة البدن ، أم يصيبها المرض ؟ الحياة كلها مُقلقات ، لكن الجنة هي جنة عدنٍ ، جنة الإقامة ، جنة الاستقرار ، جنة الخلود ، لا قلق ، ولا هم ، ولا حزن ، هل تبقى المواد متوافرة أم يصيبها اختناق ؟ في الجنة لا يوجد اختناق مواد ، المواد متوافرة ، الفاكهة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة ، أحياناً هناك فاكهة مقطوعة لها مواسم ، وقد تكون متوافرة حولنا ولكن ممنوعة عندنا ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، هكذا الجنَّة ..

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ)

العاقل لا يعيش لحظته :

الإنسان العاقل المفكِّر لا يعيش وقته فحسب ، ولكنّ الإنسان إذا ضاق فكره ، وكان محدوداً عاش لحظته ، وغاب عما سيكون ، فالإنسان الذي يعيش لحظته ، ولا يفكر في مستقبله إنسان محدود ، سمكاتٌ ثلاث كانت في غدير ، مرَّ صيَّادان ، فتواعدا أن يرجعا ليصيدا ما فيه من السمك ، فسمَعت السمكات قولهما ، أمَّا أكيسُهنَّ ، أيْ أعقلهَّن فإنها ارتابت وتخوَّفت ، وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، ولم تُعَرِّجْ على شيءٍ حتى خرجت من الغدير ، وأما الأقل كياسة وعقلاً ذكاءً فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد أُغلق ؛ فقالت : فرَّطتُ ، وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء ، فأخذها الصيادان ووضعاها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت في النهر فنجت ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدَتْ . فالإنسان بين أن يكون كيّساً ، بمعنى أنه عاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، فلتذكرْ إذاً أنّ الموت حق ، وما منا واحدٌ إلا وسيموت ..

الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر

* * *

إذا أيقنا أنه لابدَّ من الموت فماذا أعددنا له ؟ ماذا أعددت للقبر ؟ ما العمل الصالح الذي أعددته للقبر ؟ هل تصلي وأنت تودِّع العمر ؟ هكذا قال النبي الكريم :

((... فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ))

(من سنن ابن ماجة عن أبي أيوب)

فالعاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، والأقل عقلاً يحتاط لها بعد وقوعها ، والغبي لا قبل وقوعها ، ولا بعد وقوعها ، إذاً :

(الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ)

وعدُ الله ووعيدُه محقَّقان لا ريب فيهما :

خالق الكون وعدنا بالجنة ، ألا نقبل هذا الوعد ؟ ألا نصدقه ، تصدق إنساناً مثلك ضعيفاً لا يقوى على أن يحيا ساعة باختياره ، تصدقه ، ولا تصدق خالق الكون !!

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا)

(سورة يس : من آية " 52 ")

فيأتي الصوت العظيم :

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

(سورة يس : من آية " 52 ")

البطولة أن يكون الإنسان في هذه الساعة الخطيرة قد أعدَّ لها ما يناسبها ، أما أن يعيش الناس هكذا مع شهواتهم ، مع انحرافاتهم ، مع حظوظهم ، مع مُتعهم ، مع خصوماتهم ، مع انحرافاتهم ، وينسون هذه الساعة فهذا من الحُمق ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي عن شداد بن أوس)

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

إنَّه كَانَ وَعْدُهُ مأتِيًّا :

مأتيًّا أيْ آتياً ، الشيء بعد أن تلتقي به ، إما أنَّك أتيته ، وإما أنه أتى إليك ، إذا ركبت المصعد فإما أنك بهذا المصعد أتيت إلى الطابق الرابع ، وإما أن هذا الطابق الرابع أتى إليك ، تحصيل حاصل ..

(إنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)

بمعنى : آتياً ..

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً)

سلامةُ ألسنة وقلوب ساكني الجنة لسلامة الدار والجار :

لا يوجد لغو ، اللغو مُزعج ، أن تستمع إلى كلامٍ باطل ، أن تستمع إلى كلامٍ كاذب ، كلامٍ فيه دَجَل ، كلامٍ ليس واقعياً ، هذا لغو ، كل كلامٍ ليس حقيقياً ليس واقعياً ليس حقاً إنما هو لغوٌ .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون : 1-3)

الجنةُ ليس فيها لغو ، أما في الدنيا فقد تضطر إلى أن تجلس مع أُناس يتحدثون كلاماً باطلاً ، كلاماً منحطاً ، كلاماً سخيفاً ، كلاماً لا جدوى منه ، قد ينهشون أعراض بعضهم بعضاً ، قد يتفاخرون بشيءٍ سخيف تافهٍ ، هذا كله لغو ، لكنك في الجنة لم يجمعك الله في الجنة إلا مع الكُمَّل ، مع المؤمنين الصالحين ، مع الأنبياء ، والصادقين ، والشهداء ، والصالحين ، هؤلاء لا يتكلمون اللغو ، كلام لا فائدة منه ، كلام باطل ، كلام مُزخرف ، كلام فيه دجل ، كلام فيه تزوير ، كلام فيه مبالغة ، كلام فيه كذب ، كلام فيه تجاوز، كلام سخيف ، موضوعات تافهة ، لا ، لا ، هذا كله في الجنة غير موجود ، اطمئنوا .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً)

(سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)

(سورة يس : 58)

رب العزة يسلّم عليهم .

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)

(سورة الحجر : 46)

والملائكة يسلمون عليهم .

(إِلَّا سَلَاماً)

يعني تسليماً ، ويعني طمأنينة ما بعدها قلق ، سلام ، قد أقول لإنسان : سلامٌ عليك ، أي لن ترى مني إلا الخير ، لن ترى مني إلا الأمن ، لن ترى مني إلا الخدمة ، سلامٌ عليك ، وهذا معنى السلام : السلام عليكم ، أي اطمئن أنا إنسان طيب خيِّر لن أصيبك بالأذى ، لن ينالك مني ضرر ..

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)

هذا معنى السلام ، إذاً :

(إِلَّا سَلَاماً)

اطمئنان أهل الجنة على وفرة الرزق :

وليس في الجنة قلقٌ على الرزق ..

(وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً)

أحياناً يكون الإنسان ضَيْفاً على أُناس كرماء ، ففي الساعة السابعة تفضل على الأكل ، كله جاهز ، أكَلَ ورَحَلَ ، غَسّل ، فجلس ، وكذلك عند الظهر تفضل على الأكل ، لا يهتم لشراء الطعام ، ولتأمين المال لشراء الطعام ، واختيار المواد الجيدة ، وكيف يُطبخ ، وكيف يقدَّم ، هذا كله سهل ميسور ، وتلك الهموم التي في الدنيا لن تكون في الجنة ، لن يكون قلق أبداً .

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

تنتفي هناك الوراثة ، فلا تسمع أنا ابن فلان ، أو هذه ورقة الطابو ، اسمح لي بالجنة .

(مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

وراثة الجنة بحسب درجات الأعمال :

الوراثة هنا بحسب العمل لا بحسب النسب .

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

والتقوى مباحة لكل الناس ، مفتحة أبوابها لكل الناس ، رحمة الله مبذولة ، رحمة الله واسعة ، موجبات الرحمة متوافرة ، هناك تكافؤٌ في الفُرَص ، أي عبدٍ قال : يا رب ، يقول الله : لبَّيك يا عبدي ، أي عبدٍ قال : يا رب قد تبت إليك ، يقول الله : وأنا قد قبلت ، يا رب أنا قد أذنبت ، يقول : وأنا قد عفوت .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

(الترمذي)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر : 53)

((للهُ أشد فرحاً لتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد))

(الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة)

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

جعلنا الله من أهلها ، هذه الدنيا قصيرة ، كم سنة ؟ كلها متاعب .. إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء قد جعلها الله دار بلوى .. الدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف .. وجعل الآخرة دار عُقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا)

نعطيها لا بحسب النسب ، لا .. بل ..

(مَنْ كَانَ تَقِيّاً)

لذلك ليس مَن يقطع طُرُقاً بطلاً إنما من يتَّق الله البطـــل

هذه هي البطولة .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً)

ومَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا

هذه الآية كما قال معظم المفسرين : جاءت معترضة بين سياق هذه الآيات كي تُطمْئِنَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن انقطاع الوحي عنك ليس عن نسيانٍ من ربك ، إنما هو لحكمةٍ بالغة ..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من آية " 48 ")

اطمئنْ يا محمد ، حتى إن بعض علماء تفسير القرآن الكريم يقولون : إن مِن حكمةِ نزول القرآن مُنَجَّماً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيواجه متاعب الدعوة ، وسيواجه إعراض المُعرضين ، وتكذيب المكذبين ، وافتراء المفترين ، وإبطال المبطلين ، سيواجه الكفار والمشركين ، سيحاربونه ، سيأتمرون

على قتله ، سيخرجونه ، سيضطهدون أصحابه ، لو أن القرآن نزل على النبي دُفعة واحدة في أول الرسالة ، وانقطع لاستوحش النبي عليه الصلاة والسلام ، لكن الله عزَّ وجل من أجل أن يؤنسه ، ومن أجل أن يثبِّته ، ومن أجل أن يكون معه دائماً ، جعل هذا القرآن الكريم يُنَزَّلُ على قلبه مُنَجَّمَاً ، فكلما ضاقت به الحيَل ، وكلما اشتدت مؤامرات الكفار عليه جاء الوحي برداً وسلاماً على قلبه الشريف ، فالله سبحانه وتعالى هنا يُطمئن النبي عليه الصلاة والسلام على لسان الملائكة أنْ أيها النبي نحن الملائكة ..

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ)

التنزُّل فيه معنى التراخي ، فيه معنى الطواعية ، نتنزَّل مرةً بعد مرة ، شيئاً فشيئاً ، من حينٍ لآخر ، هذا التنزُّل ، المُتراخي ، المنجَّم ، هذا من تخطيط الله عزَّ وجل .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ)

بعض العلماء قالوا : هذه(ما)تعني المكانية ..

(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا)

معاني : لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا

1 – المعنى المكاني :

أي هذا الذي أمامنا نراه أمرُه لله ، وهذا الذي خلفنا ، ولا نراه أمرُه لله ، وهذا الذي حولنا ، ولا نراه أمره لله ، أي ما أمامنا ، وما هو خلفنا ، وما هو عن جوانبنا كله لله ، هذا المعنى المكاني .

2 - المعنى الزماني :

الماضي ، والمستقبل ، والحاضر لله عزَّ وجل ، فالكون مكاناً وزماناً أمرُه لله ، فنحن مأمورون .

(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً)

إنّ الله لا ينسى .

تُرْوى قصة رمزية : امرأةٌ متقدمةٌ في السن كانت على عهد سيدنا نوحٍ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وقد عَلِمَتْ منه أن هناك طوفاناً سيعُمُّ الأرض ، وسيهلك الكفار جميعاً ، وأخبرها هذا النبي العظيم أن هناك سفينةً سوف يركب فيها المؤمنون ، وينجون من هذا الهول العظيم ، وهي تقبَعُ في كوخ لها فقالت له : يا نوح لا تنسني ، إذا جاء الطوفان لا تنسني ، يا نوح لا تنسني ، جاء الطوفان ، وصار المَوْجُ كالجبال ، ونسيها هذا النبي العظيم ، وجَلَّ الذي لا ينسى ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنني بشر ، أنسى كما ينسى البشر))

(ورد في الأثر)

فلما كان هذا النبي الكريم على ظهر السفينة ، وهي كريشةٍ في مهب الريح ، والأمواج من كل جانبٍ كالجبال تذَّكَّر هذِهِ المرأة .. لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه التي رجتنا أن نذكرها ، وأن نأتي بها إلى هذه السفينة نسيناها ، فلما استوت السفينة على الجودي ، وقيل : يا أرض ابلعي ماءَك ، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ، وجلس نوحٌ مع أصحابه جاءت هذه المرأة فقالت : يا نوح متى الطوفان ؟

إن الله لا ينسى ، إذا عملتَ عملاً طيباً فالله لا ينسى ، إذا آثرت رضاء الله عزَّ وجل فالله لا ينسى ، إذا خدمتَ عباد الله فالله لا ينسى ، إذا آثرت رضاء الله على شهوتك فالله لا ينسى ، بل يثيب على القليل الجزيلَ .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

فمن هو بعد ذلك ؟

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

الله ربُّ كلِّ شيء :

أي رب كل شيء ، هذه بلاغة ، مثلاً :

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا)

(سورة آل عمران : من آية " 191 ")

واقفون ..

(وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران : من آية " 191 ")

فكم للإنسان من حالة ؟ إما أنه واقف ، وإما أنه قاعد ، وإما أنه مضطجعٌ ، فإذا كان يذكر الله واقفاً ، وقاعداً ، ومضطجعاً فإنه يذكر الله دائماً ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى :

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

إذاً رب كل شيء ، هو المُمِدُّ لكل شيء ..

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

الأمرُ بالعبادة والصبرُ عليها :

فاعبده أي : أطعه في كل ما أمرك به ، والعبادة كما تعرفون طاعة طوعية ، لو أنها طاعة قسرية لما كانت عبادةً ، طاعة طوعية ، فالإنسان مخيَّر لا إكراه في الدين ، طاعة طوعية تسبقها معرفةٌ يقينية ، لا يمكن أن تطيع الله عزَّ وجل في كل ما أمر به إلا إذا أيقنت أن هذا الأمر لمصلحتك ، وأنه ربٌ ، وأنك عبدٌ ، وإنه عليك أن تطيعه ، ولا خيار لك في ذلك .. تسبقها معرفةٌ يقينية ، وتفضي إلى سعادةٍ أبدية ، لكن جلَّت حكمة الله عزَّ وجل من العبادات ما هو متوافقٌ مع طبيعة النفس ، كالأمر بالزواج مثلاً ، الزواج أمرٌ ، النبي الكريم يقول :

((وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(من صحيح البخاري عن أنس بن مالك)

وهناك عبادات قد تخالف طبيعة النفس ، فالإنسان أمْيَل للراحة ، يقال له : قم فَصَلِّ الصبح في وقته ، فلا يفعل أو قد يفعل ، الإنسان أميل إلى النجاة من المسؤولية ، فالشرع يأمره أن يكون صادقاً ، ولو كان في هذا الصدق متاعب كثيرة ، إذاً الإسلام فيه حج ، والحج فيه مشقة ، عبادةٌ بدنية ، ومالية ، ومكانية ، وزمانية ، الصيام فيه مشقة ، فيه ترك الطعام والشراب ، الصلاة فيها جهد ، فالعبادات فيها جُهد ، والأوامر ، والنواهي قد تكون متناقضة مع رغبات النفس ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

(من صحيح مسلم عن أنس بن مالك)

وفي حديثٍ آخر ..

((إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثلاثًا ، ألا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(من مسند أحمد عن ابن عباس)

فتصور طريقًا صاعدة ووعرة ، كلها أكمات ، وكلها حفر ، وأنت راكب دراجة ، فهناك جهدٌ كبير في تخطي هذه العقبات ، وفي صعود هذه الأكمات حتى تبلغ نهاية الطريق ، وفي نهاية الطريق قصرٌ منيف ، وفي هذا القصر كل شيء ، أما الطريق النازلة فطريقٌ ممهدة تحف بها الرياحين والورود ، ولكنها تنتهي إلى حفرةٍ ما لها من قرار ، فإن عمل الجنة حزنٌ بربوةٍ ، وإن عمل النار سهلٍ بسهوةٍ ، قد تشتهي النفس أن تملأ عينيها من محاسن النساء في الطريق ، هذه شهوة الإنسان ، لكنَّ الله عزَّ وجل يقول :

(وقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور : من آية " 30 ")

إذاً :

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ))

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

فإذا علمتَ أن عبادة الله عزَّ وجل ألزمتك أن تكبح من جماح نفسك ، وأن تضبط شهوتك ، وأن تضبط مشاعرك وحواسك ؛ فهذه العبادة ترقى بها إلى أعلى عليين .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

اصطبر لهذه العبادة إن لم تعرف حكمتها ، واصطبر لهذه العبادة إن كانت مُتناقضةً مع راحتك ، أو مع ميولك الطبيعية ، واصطبر لهذه العبادة إن كلّفتك جهداً ومالاً ، دفعُ الزكاة على البُخلاء شاق ، أن تدفع من مالك الذي عندك مبلغاً كبيراً هكذا فيه المشقة ..

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

هل تعلم له مماثلاً ؟ هل هناك ربٌ آخر تعبده من دونه ؟ هو إلهٌ واحدٌ : في السماء إله ، وفي الأرض إله ، لا إله إلا هو ، إذاً هذه الآية :

(فَاعْبُدْهُ)

أي أطعْه في كل ما أمرك ، ولو كان أمر الله عزَّ وجل يجلب لك المشقة أحياناً ، وبذل المال أحياناً ، ومعاكسة الشهوات أحياناً ، والتعب أحياناً ، والقلق أحياناً ، في بعض الأحوال يكذب الرجل ليرتاح ، لكنَّ المؤمنَ لا يكذب بل يصدق فتأتيه المتاعب ، هذه المتاعب مقدَّسة لأنها كانت بسبب الصدق ، الإنسان أحياناً يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وقد يكون هذا الأمر جالباً له بعض المتاعب ، فإذا سكت كانت النجاةٍ .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

قل الحق ولا تخشَ في الله لومة لائم ..

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : من آية " 39 ")

فلو أن الجنة كلها مسرَّات لأقبل الناس عليها لا حباً لله عزَّ وجل ، ولكن حباً بأنفسهم ، لكن الله جعل الجنة محفوفةً بالمكاره ، وجعل النار محفوفةً بالشهوات ، هذه حكمة الله ، الرزق الحلال مُتعب ، والحرام سهل ، أحياناً حركة بسيطة تأخذ فيها مئة ألف ، وأحياناً من أجل أن تجمع هذا المبلغ تعمل عاماً بأكمله ليلاً ونهاراً ، الحلال مُتعب ..

((من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفورا له))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف)

طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوبٌ ، إذاً :

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

ألا ترضى أن يقول الله لك : يا عبدي اصطبر عليّ ، أنا سوف أكافئك ..

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

(سورة الضحى : 5)

سوف يأتيك يومٌ تنسى فيه كل مشقة ، أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اصطبر يا عبدي ، لا تَضجّ ، لا تَلِجّ ، لا تضق ذرعاً اصطبر .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

الصبر نصفُ الإيمان ، قال عليه الصلاة والسلام :

((الإيمان نصفٌ صبرٌ ، ونصفٌ شكرٌ))

(ورد في الأثر)

((والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

(ورد في الأثر)

الله عزَّ وجل يقول : يا عبدي اصطبر من أجلي ، اصطبر ، فـ :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر : من آية " 10 ")

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

مَن تعبدُ ؟ خالقَ الكون ، الذي ليس له مماثل ، ولا شبيه ، ولا كفؤ، هو الأبدي السرمدي ، هو الأول والآخر ، الظاهر والباطن ، الحيُّ القيوم ، هو كل شيء .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الخامس من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

الأصل في الكافر إنكارُ اليوم الآخر :

هذا الإنسان المقصود به هو الإنسان الغافل ، وربما كان الإنسان الكافر ، هذا الإنسان الذي عطَّل فكره، هذا الإنسان الذي غفل عن ذكر ربه ، هذا الإنسان الذي عاش ليستمتع بشهوات الدنيا ، انغمس فيها وغفل عن سرِّ وجوده ، غفل عن سرِّ خلقه ، غفل عن الغاية التي خُلِقَ من أجلها..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

هذا الاستفهام هو استفهامٌ إنكاري ، كأنَّه يستنكِرُ ، أو يستغربُ أن يعود الإنسان بعد الموت حيَّاً ..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

الإيمان باليوم الآخر حافز للاستقامة والعمل الصالح :

مع أن الإنسان لا يستطيع أن يستقيم على أمر الله ، وأن يأخذ ما له ويدع ما ليس له إلا إذا آمن باليوم الآخر ، إلا إذا آمن بيومٍ يُحاسب فيه الإنسان عن أعماله كلها ، إلا إذا آمن بأن الله عزَّ وجل من أسمائه الحقُّ العَدْلُ ، إذا آمنْتَ باليوم الآخر تستطيع أن تستقيم على أمر الله .

فهذا الإنسان لماذا ينكر اليوم الآخر ؟ إنه يُنكر هذا اليوم ، ويكذّب به ليحقّق التوازن مع نفسه ، إنه يفعل ما يشاء مِن دون انضباط ، يأخذ ما له ، وما ليس له ، إنه يعتدي على أموال الآخرين ، إنه يعتدي على أعراضهم ، إنه يبني غِناه على فقرهم ، كيف يفعل هذا وهو مؤمن أنّ هناك يوماً آخر يُحاسب فيه الإنسان ؟ لذلك :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون : 1-2)

العلاقة بين التكذيب بالدين والانحراف في السلوك :

مِن لوازم التكذيب بالدين دَعُّ اليتيم ، ومِن دَعَّ اليتيم فقد كذَّب بالدين ، هناك علاقةٌ ترابطيَّة ، المُنحرف من شأنه أن يكذّب بهذا اليوم ، والذي يصدّق بهذا اليوم من شأنه أن يستقيم ، لأن الإنسان لا يتوازن مع نفسه ، ولا يتوازن مع عقله أن يفعل السيِّئات ، وهو موقنٌ بأنه سيحاسب عنها ، مستحيل ، كيف يطمئنُّ له بال ؟ كيف يقرُّ له قرار ، وهو يعلم أنه سيحاسب ؟ لو أنَّنا آمنا باليوم الآخر لهانت علينا الاستقامة ، ولهان علينا أن نأخذ ما لنا ، وندع ما ليس لنا ، إن كل المشقَّات التي يجدها الإنسان في الاستقامة على أمر الله تهون إذا هو آمن باليوم الآخر ، نَعَم تهون .. أقلِلْ من الشهوات يسهُل عليك الموت .. إنك لن تستطيع أن تؤمن باليوم الآخر وأنت مقيمٌ على المعاصي ، فاعلموا علم اليقين أن لكل معصيةٍ عقاباً في الدنيا ، وفي الآخرة .

فلاحظْ أنّ هناك علاقةً ترابطيَّةً بين عدم الإيمان باليوم الآخر وبين الانحراف في السلوك ، يؤكّدها قوله تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من آية " 50 ")

يؤكّدها قوله تعالى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون :1-2)

لذلك ؛ الركن الثاني من أركان الإيمان هو الإيمانُ باليوم الآخر ، فلو أن في الإنسان حساسيةً عالية المستوى وقال لك أحدهم : أشكوك إلى الله عزَّ وجل ، يجب أن ترتعد فرائصك من هذه الكلمة لأن الله سبحانه وتعالى هو الحق المبين .. وإليكم هذا الحادث وما فيه من عبرة .

دخل إنسان إلى بيت في العصور القديمة ، وقد أُبيحت المدينة للجُند ، أعطى قائد الجند أمراً أنَّ هذه المدينة مباحة لكم ، دخل أحد الجنود إلى أحد البيوت فرأى فيه امرأةً ، ورجلاً ، وولدين ، فقتل الرجل ، وقال للمرأة : أعطني ما عندك ، أعطته سبعة دنانير ذهبيَّة ، فقتل الولد الأول ، فلمَّا رأته جادًّا في قتل الولد الثاني أعطته درعاً مُذْهَبَةً ، لقد أعجبته هذه الدرع ، قرأ عليها بيتين فوقع مغشياً عليه ، ماذا في هذين البيتين ؟ ..

إذا جَارَ الأميرُ وحاجِباه وقاضي الأرض أسْرَفَ في القضاءِ

فويلٌ ثمَّ ويلٌ ثمَّ ويلٌ لقاضي.... الأرض منْ قاضي السَّماءِ

* * *

في أثناء تعاملك مع الناس قد يأتيك طفلٌ صغير ، بكل بساطة تستطيع أن تأخذ ماله ، وأن تغشَّه ، قد تأتيك امرأةٌ بسيطة ، ليست خبيرةً بهذه البضاعة ، قد تبيعها الحاجة السيِّئة بالسعر المرتفع ، وهي لا تدري ، لكنَّك لو علمت أنّ لك مع الله وقفةً يحاسبك فيها عن هذا الغش في بيعك .. عن هذه المرأة .. لماذا عاملتها هذه المعاملة ؟ لاستقامت معاملتك .

هنا المشكلة ؛ الحياة تجمع بين المتناقضات فيها القوي ، وفيها الضعيف ، القوي مبتلى بالقوَّة ، والضعيف مبتلى بالضعف ، الغني مبتلى بالغنى ، والفقير مبتلى بالفقر ، وذو المكان الرفيع مبتلى بهذا المكان الرفيع ، وذو المكان الوضيع مبتلى بهذا المكان الوضيع ، والله سبحانه وتعالى ينظر إلينا كيف نعمل ، كيف نتحرَّك ، كيف نتصرَّف ، هل نقف عند حدودنا ؟ هل نقف عند حدود الله عزَّ وجل ؟ هل نأتمر بأمر الله ؟ هل ننتهي عما عنه نهى الله عزَّ وجل ، فالمشكلة كبيرة جداً ، أكثر الناس يظنُّون أنهم بذكائهم يُحَصِّلون ما ليس لهم ، هذا ليس ذكاءً ، هذا هو الحُمق بعينه ، لأن الله سبحانه وتعالى سيوقفك يوم الدين ليحاسبك عن أعمالك كلها ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها .

إذاً :

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

لماذا هو يُنْكِر ؟ ليفعل ما يشتهي ، ليُغَطّي انحرافه بهذه العقيدة الضالَّة ، متى تزيغُ العقيدة ؟ إذا زاغ السلوك ، هناك ترابطٌ ، وعلاقةٌ ترابطيَّة دائمة مستمرَّةٌ بين زيغ العقيدة ، وبين زيغ السلوك ..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً)

تذكير بأصل خَلق الإنسان : من ماءٍ مهين :

هو نقطةٌ من ماء مَهين ، كل ثلاثمئة مليون حيوان منوي تختار البويضة حيواناً واحداً منها ، من ثلاثمئة مليون ، هذا الحيوان المنوي الذي لا يُرى بالعين المُجَرَّدة ، فكيف يدخل إلى البويضة ؟ وكيف يلقِّحها ؟ وكيف تنقسم خلال يومين أو ثمانية أيَّامٍ إلى عشرات الألوف من الخلايا؟ وكيف تصل هذه البويضة المُلَقَّحة إلى الرحم ؟ وكيف تلتصق على جدار الرحِم ؟ وكيف تتشكَّل جنيناً صغيراً ؟ كيف يتشكَّل القلب والرئتان ؟ وكيف تتشكل الأعضاء والأجهزة ، والدماغ والأعصاب ، والشرايين والأوردة ، والعظام ، والعضلات ؟ هذه الأجهزة المُعَقَّدة صنع من ؟ يدُ من؟ ..

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)

ما منَّا واحدٌ إلا ، وله تاريخ ميلاد ، قل قبل خمس سنين من تاريخ ميلادك أين كنت ؟ ومن أنت ؟ ومن يعرفك ؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان : 1)

وبالمقابل ، سيأتي حينٌ من الدهر آخر نصبح جميعاً تحت أطباق الثرى ، ولا يبقى إلا العمل الذي فعلناه إن خيراً فخير ، وإن شرَّاً فشر ..

(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)

ما كنتَ شيئاً مذكورا ، هذا دليل ، فالإنسان إن لم يَذكر كيف خُلِقَ ابنه أمامه ، فهو إذاً يعلم علم اليقين أنه لم يُسهم في تخليق ابنه ، بل إنه ما فعل شيئاً إنما هي يد العناية الإلهيَّة ، هي التي خلَّقت هذه النطفة وهذه البويضة ، وجعلتْهُما علقة فمضغة ، فشكَّلت العظام ثم وكُسيت العظام لحماً..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ)

قسم الله على بعث الناس :

أيْ أن هؤلاء الذين ينكرون البعث ، هؤلاء الذين ينكرون اليوم الآخر ، ويفعلون أفعالاً لا تُرضي الله عزَّ وجل ، ويحتالون على الناس ، ويتباهَوْنَ بذكائهم أنهم أخذوا ما ليس لهم ، هؤلاء الذين فعلوا ما يشتهون ، وانغمسوا في المُتَع الرخيصة ، واعتدوا على الأموال والأعراض ، هؤلاء الذين كفروا بالله عزَّ وجل ، وكفروا بآياته ، وكفروا باليوم الآخر لن يُتركوا سُدى ..

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(37)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى(39)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

(سورة القيامة : 36-40)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

(سورة المؤمنون : 115 - 116)

تعالى الله أن يخلقكم عبثاً ..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ)

(سورة ص : 37)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

(سورة الدخان : 38)

هذه السماوات والأرض لم تُخْلَقْ باطلاً ، هذه السماوات والأرض لم تُخْلَق لعباً ، هذه السماوات والأرض لم تُخْلَق عبثاً ، لابدَّ من الحساب، لابدَّ من الجزاء ، لابدَّ من الدينونة ، لابدَّ من يوم الدين ، لابدَّ من اليوم الآخر .

(فَوَرَبِّكَ)

الله سبحانه وتعالى أقسم بذاته ..

(فَوَرَبِّكَ)

يا محمَّد ..

(لَنَحْشُرَنَّهُمْ)

(إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1)وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(2)وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا(3)يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(4)بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(5)يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(6)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

هذه السورة تلاها النبي عليه الصلاة والسلام على أعرابيٍّ جاء يطلب منه الموعظة ، قال : " يا محمَّد عظني وأوجزْ " ، فتلا عليه الصلاة والسلام هذه السورة ، فقال : " لقد كُفيت " ، والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه السورة لكَفَتْ ..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

قال : " قد كُفيت " ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " فَقُهَ الرجل" ، صار فقيهاً من سورةٍ واحدة ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ)

هؤلاء المكذِّبون ، هؤلاء الفاسقون ، هؤلاء الضالّون ، هؤلاء المنافقون ، هؤلاء العصاة ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ)

الشياطين الذين سَوَّلوا لهم المعاصي ، الذين وسوسوا لهم ، زيَّنوا لهم المُنْكَرات ، زينوا لهم خَرْقَ الحُرمات ، زينوا لهم مخالفة ربِّ الأرض والسماوات ، هؤلاء الشياطين سيُحشرون مع الكفَار الذين تعاونوا على إضلال الناس ..

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً)

معنى : جثيًّا :

ومعنى جثيًّا ، أي الوقوف على الرُكبتين ، وهذه وقفةٌ فيها ذُل ، كلكم رأيتم في بعض الصور كيف أن الأسرى يُساقون في وضعٍ ذليل ، هؤلاء الكُفَّار ، والمنافقون ، والفُجَّار ، والمنحرفون ، والذين طغوا وبغوا ، وعصوا وعَتَوْا عن أمر ربِّهم هؤلاء جميعاً يُساقون إلى جهنَّم ..

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً)

في وضعٍ ذليل ..

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(1)وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(2)عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(3)تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً)

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا

كل جماعةٍ ، كل فئةٍ ، كل مجموعةٍ من البشر ، كل قومٍ ، كل أمَّةٍ ، كل جماعةٍ لَنَنْزِعَنَّ منها أشدَّها كفراً ، وأشدَّها طغياناً ، وأشدَّها عصياناً ، وأشدها كِبْراً ، وأشدها انحرافاً :

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

أيهم أشدُّ على الرحمن تَمَرُّداً وانحرافاً ، أمَّا لماذا قال الله عزَّ وجل:

(أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ)

ولم يقل مثلاً : أشدُّهم على الله ؟ أيْ أن هذا الذي عتا على الرحمن ، وقد بعث سبحانه بالأنبياء ليرحمَه بهم ، أنزل الكتاب بالحق ليهتدي به ، بعث له من المصائب ما يوقظه من غفلته ، المصائب ، والأنبياء ، والرُسل ، والكتب ، والدعاة ، وكل هذه من أجل أن يعود إلى الله عزَّ وجل ، إن هذا كلَّه هو عينُ الرحمة ..

(أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

ومع ذلك كان ردُّه الكفر والجُحود ، والمعصية والانحراف ، والاتجاه نحو طريق الشهوات ..

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

يؤخذ الأكثر جرماً أولاً ، ويُلقى في النار ليكون في هذا موعظةً لأولي الألباب ، ليكون في هذا موعظةً لكل شيعةٍ من هذه الشِيَع ، وكيف أن الذي تولَّى كِبْرَهُ منها ، وتولَّى دعوتها إلى الكفر ، والفسق ، والفجور كيف أنه سيُحاسَب بادئ ذي بدء ، وسيلقى الجزاء العادل .

فإذا أُلقي القبض على عصابة يُحاسَب زعيم هذه العصابة قبل كل شيء ، وتُلقى عليه التبعة كلُّها ، ويلقى أشدَّ العذاب ، وهكذا ..

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)

أيُّهم عصى ، وبغى ، أكثرهم عصياناً ، وأكثرهم طغياناً ، وأكثرهم انحرافاً ، الذي ضلَّ وأضل ، والذي زَلَّ وأزل ..

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً)

النار لمَن استحقَّها

الله سبحانه وتعالى عليمٌ حكيم ، يعلم من الذي يستحقُّ العذاب أول شيء ، يعلم كل إنسانٍ ما درجة العذاب التي تناسبه ، والتي يستحقُّها ..

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً)

تفسير ورود جهنم :

المعنى الأول : ورودُ جميع الناس :

اختلف بعض العلماء في هذه الآية ، جمهور العلماء على أن الناس جميعهم ؛ مؤمنهم ، وكافرهم ، تقيِّهم ، وفاجرهم سيردُ النار ، وورود الناس شيء ، ودخولها شيءٌ آخر ، فرقٌ كبير بين أن تردها فتطَّلع على ما فيها ثمَّ تنجو ، وبين أن يردها الإنسان فيقع فيها ، قد يسأل سائل : ما الحكمة في أن المؤمنين ، الصالحين ، الصادقين ، التائبين ، الطائعين سيردون على النار ؟ قال بعضهم : " إن الحكمة من ذلك لتزيد سعادة المؤمنين في الجنَّة ، ليروا المكان الذي كانوا يستحقُّونه لو لم يؤمنوا بالله عزَّ وجل، ليروا المكان الذي سيُعَذَّبون فيه فيما لو لم يستقيموا على أمر الله " .

إنك إذا وُضِعْتَ أمام خيارين ، واخترت الأسلم ، وسعدت بهذا الاختيار ، ثم رأيت الشقاء الذي حلَّ بمن اختار الاختيار الآخر ، فإن هذا يضاعف سرورك وسعادتك لحسن اختيارك .

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى من بعض المعاني المستفادة من أن هؤلاء المؤمنين ، التائبين ، الطائعين ، الأتقياء لماذا يردون النار ؟ من تلك المعاني إنها لن تؤذيَهُم ، ولن يسمعوا حسيسها ، ولن يتأثَّروا بلهبها ولا بحرِّها ، إنهم سيرون فقط مصير الذين كانوا في الدنيا من أهل المعصية والفجور ، ليتحقَّق اسم الله الحق ، قد يكون لك في الدنيا جارٌ يؤذيك ولا تستطيع أن تَكُفَّ أذاه عنك ، وقد توافيك المنيَّة قبل أن يلقى جزاءه في الدنيا، يوم القيامة لابدَّ أن يتحقَّق اسم الحق وترى هذا الذي اعتدى ، وطغى ، وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، كيف أن الله سبحانه وتعالى وضعه في المكان الصحيح ، وقد لقي الجزاء العادل .

إنَّ ورود الإنسان المؤمن على النار ، والورود غير الدخول يزيد من سعادة المؤمن لسلامة اختياره ..

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

وليتحقَّق هدفان ؛ الأول أن تتحقَّق من أن الله هو الحقُّ المبين ، وأنه لن يُفلَتَ أحدٌ من جزائه العادل ، لن يُفْلَتَ أحدٌ من عقاب الله ، لن يُفْلَتَ أحدٌ من الحساب الدقيق ..

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء :47)

هذا الشعور بأن الناس جميعاً سيُحاسَبون ..

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55)قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(56)وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة الصافات 51-57)

إذاً أن يطَّلع المؤمن على أهل النار ، وكيف يعذَّبون يعلم أن الله هو الحقُّ المبين ، وأن إنساناً ما لن يستطيع أن يتفلَّت من قبضة الله عزَّ وجل ، فالذي مقدّرٌ أن تراه في الدنيا تراه في الدنيا ، والذي لم تره في الدنيا لابدَّ أن تراه في اليوم الآخر .. أما الهدف الثاني ليدرك مدى السعادة التي أدركها عندما نجا من النار ..

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة يونس : من آية " 46 ")

النبي عليه الصلاة والسلام قد يعيش ليرى جزاء الله العادل في الكفَّار ، أو قد تُدْرِكُهُ المنيَّة قبل أن يرى ، ولكنَّنا جميعاً لابدَّ أن نرى يوم القيامة ، فجمهور العلماء على أن هذه الآية تعني أن الناس جميعاً ؛ مؤمنَهم وكافرَهم ، تقيَّهم ، وفاجرَهم سيردون النار ، فالأتقياء لا تؤذيهم ، ولا يمسَّهم لهبها ، ولا يتأثَّرون بحرِّها ، ولا يَصْلَوْنَ سعيراً ، بل إنهم يطَّلعون على ما فيها لتتضاعف بهذا سعادتهم يوم القيامة، لتتضاعف بهذا لذَّتهم في الجنَّة ، إنهم يرون مصيرهم فيما لو لم يؤمنوا ، مصيرهم فيما لو عصوا ، مصيرهم فيما لو لم يستقيموا على أمر الله ، هذه واحدة .

أما الثانية : ليروا أن الله هو الحقُّ المبين ، فيجب أن توقن أن الله سبحانه وتعالى لا يضيِّع مثقال حبَّةٍ من خردل ، وإن تكن حسنة يضاعفْها ، ويؤت مِن لدنه أجراً عظيماً . وبعضهم قال : إن هذه الآية :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

المعنى الثاني : أنها خاصة بالكفار :

تعني هؤلاء الكفَّار الفجَّار حصراً ، ألم يقل الله عزَّ وجل :

(وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً * وَإِنْ مِنْكُمْ)

أيُّها الكفَّار ، كأن الله عزَّ وجل لا يخاطب المؤمنين ، بل يخاطب الكفَّار فقط دون غيرهم ..

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً)

هذا هو المعنى الآخر ، أنّ هذه الآية ليستْ لعامَّةِ الناس ، بل إنها خاصَّةٌ بالكفَّار .

كيف نتابع الآية ؟ يقول الله عزَّ وجل :

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)

نجاة المتقين من نار جهنم :

إما أن نقول : ثُمَّ ، وإما أن نقول : ثَمَّ ، ثُمَّ حرف عطفٍ يفيد الترتيب على التراخي ، لكنَّ ثَمَّ ظرف مكانٍ ، فإذا فسَّرنا الآية بأن جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، تقيَّهم وفاجرهم سيردون على النار ليتعظوا بها نقول :

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)

وهذا الذي قال عنه بعض العلماء : من أن الله سبحانه وتعالى يَنْصِبُ على النار صراطاً لابدَّ أن يمرَّ عليه كل الناس ، فالمؤمن يقطعه بلمح البصر ، أيْ يقطعه سريعاً ، ربما اطّلع على أهل النار ، وعلى ما فيها من عذابٍ أليم بلمح البصر تجاوزها ، ودخل إلى الجنَّة ، فسرعة عبور الصراط المستقيم متوقفة على استقامة المرء ، وصلاحه ، وحُسن عمله ، إذاً إن جميع الناس لابدَّ أن يَردوا هذه النار وروداً لا دخولاً ..

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)

(سورة القصص : من آية " 23 ")

أيْ وصل إلى مدين ..

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا)

الأتقياء يجتازون الصراط سريعاً إلى الجنَّة ، وتزيد بهذه النظرة سعادتهم ، وتزيد بهذه النظرة قناعتُهم بأن الله هو الحق المبين .

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

(سورة يس : 52)

لذلك الميت يُلَقَّن فيقول : أشهد أن النار حق ، وأن الجنَّة حق ، وأن البَعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الحَشْرَ حق ، فهذا الذي شهدتَ به أنه الحق ستراه عين اليقين .

فعلى معنى أنّ كل الناس سيردون النار تأتي ثُمَّ حرف عطفٍ يفيد الترتيب على التراخي ..

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً)

واقفون وقفة ذليلة ينتظرون أن يلقوا العذاب الأليم ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا)

هؤلاء في الدنيا ، هؤلاء الذين سيقفون على النار جثيًا ، وقفة ذليلة ، هؤلاء كانوا في الدنيا ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً)

مقياس الكفار الدنيا ومفاتنها :

أي أنه استنباطٌ مُضحك ، أهل الدنيا الكفَّار في الدنيا إذا ناقشتهم ، إذا دعوتهم إلى الله عزَّ وجل ، إذا لفتَّ نظرهم إلى آيات الله ، إذا دللتهم على الحق المبين ، إذا فسَّرت لهم آية يقولون : أنت لا تفقه شيئاً ، أنت جاهل ، نحن كل شيء ؛ والدليل أن الله أكرمنا بهذه الدنيا ، وأعطانا إكراماً منه ، واستحقاقاً ، يَعُدُّون عطاء الله لهم إكراماً ، فيستنبطون أن الله يحبهم لا من استقامتهم على أمره ، ولا من عملهم الطيِّب ، ولكن لأن الله أعطاهم الدنيا ، فيعدُّون الدنيا مقياساً لمحبَّة الله عزَّ وجل ، مع أن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب .

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص : 76 -77)

" ... فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى "، فهؤلاء الكفَّار في الدنيا كانوا ..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

آيات القرآن ، أو آيات الكون ..

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً)

انظر إلى بيوتنا ، انظر إلى المال الذي بين أيدينا ، انظر إلى مكانتنا ، انظر إلى وجاهتنا ، انظر إلى دنيانا العريضة ، ماذا عندك أنت ؟ عطاء الله لنا دليل محبَّته لنا ، يستنبطون من هذا أن الله يحبُّهم ، وما أشدَّ خطأهم في هذا الاستنباط ، وما أسخفه من استنباط ..

(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلا)

(سورة الفجر : 16-17)

حرف نفي وردع ، كلا ليس عطائي إكراماً ، ولا منعي حرماناً ، عطائي ابتلاء ، وحرماني دواء .

لو كانت الدنيا تساوي عند الله ... !!!

أيُّها الأخُ الكريم ... لا تتخذ الدنيا مقياساً لمحبَّة الله لك ، دخل سيدنا عمر رضي الله عنه على النبي عليه الصلاة والسلام وقد اضطجع على حصير ، فأثَّر الحصير في خدِّه الشريف ، فبكى عمر ، قال : " يا عمر ما يبكيك ؟ " ، قال عمر رضي الله عنه : " رسول الله ينام على الحصير ؛ وكسرى ملك الفُرس ينام على الحرير ؟! " . قال : " يا عمر إنما هي نبوَّةٌ وليست مُلكاً أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا ؟ " .

عديٌّ بن حاتم كان مَلِكاً ، دخل على النبي عليه الصلاة والسلام في مجلسهِ قال : " من الرجل ؟ " ، قال : " عديٌّ بن حاتم " ، رحَّب به ، ولمَّا انتهى المجلس أخذ به إلى البيت ، وفي الطريق استوقفته امرأةٌ مُسِنَّة فوقف معها طويلاً تكلّمه في حاجتها ، قلت في نفسي : " والله ما هذا بأمر ملك "، وحينما دخل بيت النبي قال عدي : " تناول وسادةً من أدمٍ محشوةً ليفاً وقال: " اجلس على هذه " ، قلت : " بل أنت " ، قال : " بل أنت " ، قال : "وجلست عليها وجلس النبي على الأرض ، لأنه لم يكن في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلا هذه الوسادة " .

أفَتُعَدُّ الدنيا مقياساً أيُّها الإخوة ؟! هل بقي عندكم ذرَّة شكٍّ بأن الدنيا ليست مقياساً ؟ لا والله ، ما هي بمقياس مهما غلا عطاؤها .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام : 44)

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا صلَّى قيام الليل حين السجود تُنَحّي السيدة عائشة رجليها ، لأن غرفة النبي لا تتسع لصلاته ونومها ، هذه غرفة النبي ، وهذا الأثاث الذي عنده وسادة واحدة ، لما جلس عليها عدي جلس النبي على الأرض ، فلينظر ناظرٌ بعقله كما قال الإمام علي : " إن كان الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال : أهانه فقد كذب ، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا " . لا تنظر إلى الدنيا لا إن أقبَلَتْ ولا إن أدبَرتْ ، لأنها إن أقبلت لا تدوم ، وإن أدبرت لا تدوم ، لا تنظر إلى الدنيا وانظر إلى الآخرة ..

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

(من سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

هؤلاء الكفَّار بسذاجةٍ ، وسخافةٍ يرون أن الله عزَّ وجل يُحِبُّهم أكثر من المؤمنين ، لا لشيء إلا لأنهم قد نالوا من الدنيا الكثير ؛ ودعواهُم :

(أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً)

أنت أين ساكن ؟ يفتخر بحيِّه الراقي الذي يسكنه ، وبمساحة بيته الكبيرة ، وبفرشه الأنيق ، وبتزييناته الرائعة ..

(أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً)

معنى : ندِيًّا :

النَدِيّ من النادي ، أي نحن نرتاد النوادي الراقية ، أنت أين تسهر؟ تسهر في بيتك ، أنت فقير ، لكننا نسهر في المكان الفُلاني ، وندفع الثمن الفلاني ثمن العشاء ، ونسهر مع فلان وعلاّن ، أين أنت منَّا ؟ هؤلاء الكفَّار يظنون أن هذه الأموال ، وهذا البيت ، وهذا الفرش ، وهذا الأثاث ، وهذه النشاطات الاجتماعيَّة الراقية زيفاً وغروراً ، وهذا المجتمع المُخْمَلِي .. كما يقولون .. هو مقياسٌ رفيعٌ عند الله عزَّ وجل ..

(أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

كأن لم تَغْنَ حضارةٌ بالأمس :

أقوامٌ كثيرون بلغوا أوْجَ الحضارة ، لا تزال حضارة المصرين مجهولة الأسرار ومع ذلك أهلكهم الله عزَّ وجل ، أين الرومان الذين عمَّروا القصور ، وأنشؤوا المدارج ؟ أين أصحاب الآثار ؟ بلادنا كُلُّها آثار أين أصحابها ؟ أين عادٌ وثمود ؟

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي(9)وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ(11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر 9-14)

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

أي إذا أقاموا في مكان فمكانهم جميل ، وبيتهم أنيق ، وفرشُهُم وثيرة .. فمدن بأكملها تُصيبها الزلازل، أغادير من أجمل مدن الساحل الأطلسي في دقائق معدودة أصبحت قاعاً صفصفاً .

(لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا)

(سورة طه : 107)

صور عن تدمير الله للكفار :

1 - كولومبيا :

قبل سنوات ثار فيها بركانٌ قريبٌ منها فأحرقها وأهلكها ، وأذاب الثلوج ففاضت عليها فأغرقتها ، خمسة وثلاثون ألف إنسان ماتوا في يومين ، استمعوا إلى الأخبار ، هناك قُرى بأكملها تتلاشى ، قد يركب الإنسانٌ طائرةً ، ويظنّ أن هذا من منجزات العصر ، ما هي إلا دقائق حتى يقال : وقد مات جميع رُكّابها ، أين هم ؟ ..

(وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

2 - سفينة التيتانيك :

أجمل سفينةٍ صُنعَتْ في القرن الماضي اسمها (تيتانيك)، هذه أضخم البواخر في العالم ، ساهم في بنائها أمهر الصُنَّاع ، زيِّنَت بأجمل النجفات ، الخشب من أعلى الأنواع ، الأثاث ، في أول رحلةٍ لها من بريطانيا إلى أمريكا ، رَكِبَ فيها أثرياء أوروبا ، قُدِّر ثمن الحِلي التي زُيِّنَت بها النساء بمئات الملايين ، وكانوا يقولون : إن القَدَرَ لا يستطيع إغراق هذه السفينة ، لم تُصْنَع لها قوارب للنجاة ، وانشقّتْ السفينة نصفين في أول رحلةٍ لها ، فيما أذكر قبل سنة أو أقل وصل الغوَّاصون إليها ، في سنة ألف وتسعمئة واثنتي عشرة غرقت هذه السفينة ، ومن فيها ، وما فيها ، وقال بعض القساوسة : " إن غرق هذه السفينة درسٌ من السماء للأرض"..

(وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

3 - المركبة الفضائية (شلنجر) :

أما سفينة الفضاء (شلنجر)ترجمتها المُتَحَدِّي ، فقد تحدوا بها السماء ، وما هي إلا سبعون ثانية من إقلاعها حتى أصبحت كتلةً من اللهب، أين هي ؟ ..

(وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً)

كانوا أغنياء ، كانوا مرفَّهين ، كانوا يعرفون أين يسكنون ، وكيف يزينون البيوت ، ويقتنون أجمل الأثاث ، ويزينون بيوتهم بالتحف الراقية ، ويعرفون كيف يأكلون ما لذَّ وطاب من الطعام ، فإذا جاء مَلَكُ الموت أخذهم ، ولا يَلْوون على شيء .

(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً)

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون :

هذا استدراج ..

(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً)

الآية الأخيرة في جلستنا هذه :

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

إذا اختار الإنسان الهُدَى زاده الله هُدى ..

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف : 13)

لمجرَّد أن تطلب الهُدى يأتيك الهدى أضعافاً مضاعفة .. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ :

((إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه]

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت :69)

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

مَن اختار الهدى هداه الله :

تختار الهُدى فيعينك الله على أمر دنياك كي يُفَرِّغَكَ للهدى ، يعينك الله على أمر دينك بزوجةٍ صالحة ، يلهمك رُشدك ، يجمعك مع أهل الحق، يفتح بصيرتك ، هذا كلُّه مما يُفْهَم من هذه الآية ..

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً)

تفسير : الباقيات الصالحات :

الباقيات جمع ، مُفْرَدُه الباقية ، كل شيءٍ يبقى بعد الموت ينضوي تحت هذه الآية ، فتعلُّمك كتاب الله ، وعملك الصالح ، واستقامتك على أمره ، وخدمة الخلق ، وأداء العبادات ، وأداء الأمانات ، أيُّ عملٍ

تعمله ابتغاء وجه الله يبقى لك بعد الموت ، اجعل الموت فَيْصَلاً في أعمالك ، الشيء الذي ينتهي عند الموت لا تُعْنَى به كثيراً ، مهما بَلَغْتَ فيه ، مهما حَصَّلت منه ، مهما تفوَّقت فيه ، مهما علوت في الأرض من خلاله يأتي مَلَك الموت ، ويأخذ منك ما حصَّلته في ثانيةٍ واحدة ، وأما الشيء الذي يبقى بعد الموت فهذا الذي يجب أن تُعنى به ، هذا الذي يجب أن تكرِّس .. إن صحَّ التعبير .. كل جهودك من أجله ، هذا الذي يجب أن يأخذ كلَّ اهتمامك، هذا الذي يجب أن ينال إعجابك ، الشيء الذي يبقى بعد الموت .

طلب العلم فرض عينٍ ، وآثار طلب العلم تبقى بعد الموت ، تعلُّم كتاب الله فرض عينٍ ، وآثار هذا التعلُّم تبقى بعد الموت ، الاستقامة على أمر الله تبقى آثارها بعد الموت ، الأعمال الصالحة تبقى آثارها بعد الموت ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تبقى آثارهما بعد الموت ، أداء العبادات ؛ إقامة الصلوات ، حج بيت الله ، صيام رمضان ، تعليم القرآن ، خدمتك للناس ، تربيتك لأولادك ، أي عملٍ تبقى آثاره بعد الموت هذا الذي عليه المُعَوَّل ، هذا الذي يجب أن تُفني عمرك من أجله ، هذا الذي يجب أن تُمضي شبابك فيه ، هذا الذي يجب أن تَهُزَّ كتفيك من أجله ..

" أيُّها الناس شمِّروا فإن الأمر جَد ، وتأهَّبوا فإن السفر قريب ، وتزوَّدوا فإن السفر بعيد ، وخفِّفوا أثقالكم فإن في الطريق عقبةٌ كؤود لا يجتازها إلا المُخِفّون ، وأخلصوا النيَّة فإن الناقد بصير " .

هذا هو الفَيْصَل ، هذا هو المقياس ، اجعل الموت حدًّا ، فالعمل الذي ينتهي عند الموت دعه ..

كل ابن أنثى وإن طالت سلامت ه يوماً على آلةٌ حدباء محمولُ

فإذا حملتَ إلى القبور جنازةً.. يوماً فاعلم أنَّك بعدها محمولُ

* * *

لكنَّ الذي يبقى بعد الموت هو الباقيات الصالحات ..

(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً)

طبعاً :

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقَّة : 19-32)

فيا أيُّها الإخوة الأكارم ... هذه الآيات دقيقةٌ جداً ، ومحورها أن الدنيا ليست مقياساً ، لا تحزن على الدنيا ، سيدنا الصديق رضي الله عنه قيل عنه : " إنه ما نَدِمَ على شيءٍ فاته من الدنيا قط " ، الأصل أن تعرف الله عزَّ وجل ، والأصل أن تعمل عملاً يبقى بعد الموت ، أما الذي ينتهي بالموت فلا جدوى منه، والخاسر هو الذي أمضى وقته في نشاطٍ سخيف..

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف : 104)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة مريم 019 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 77 - 98

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-01-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من سورة مريم ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا

فهذا الكافر الذي أنكر عظمة الله عزَّ وجل ، ولم يعبأ بآياته ، لا آياته القُرآنية ، ولا آياته الكونية ، هذه الآيات التي بثَّها الله في السماوات والأرض لم يعبأ بها ، واستخف بها ، ولم تلفت نظره ، ولا آيات القرآن المُعْجِزَة ، لا هذه ، ولا تلك ، وما كان منه إلا الكفر ، الإنكار ، والإعراض ، أمَّا الإيمان والتصديق والإقبال فهو حظّ المؤمن ، يصدِّق بآيات ربه الكونية والقرآنية ويقبل عليه ، والكافر يكذِّب بآيات ربه الكونية ، والقرآنية ، ويُعْرِضُ عن الله سبحانه ، فالكافر يكذب بآيات الله ، لا يعبأ بها ، لا يؤمن بها ، لا يوقِّرُها ، لا يُعظمها ، لا تملأ قلبه ، وهو كذلك يعرض عن الله عزَّ وجل ، يدير ظهره لهذا الدين ، يلتفت إلى الدنيا ، يَنْكَبُّ عليها ، تشغله دنياه ، يسعى لمصالحه .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

أفرأيته أيها المؤمن ، انظر إلى أخلاقه ، انظر إلى قيمه ، انظر إلى صفاته النفسية ، انظر إلى علاقاته الاجتماعية ، انظر إلى تعامله مع الناس، انظر إلى الكبر الذي سيطر عليه ، انظر إلى العُجْبِ الذي استحوذ على لُبِّه ، انظر إلى حبه لذاته ، انظر إلى بغضه للآخرين ، انظر إلى قسوة قلبه ، انظر إلى إخلافِهِ مواعيدَه ، انظر إلى أخذه ما ليس له ، انظر إلى بذاءته ، انظر إلى حقارته ..

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

أيْ ..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون : 1-2)

هذا الترابط الوجودي بين الكفر وبين الانحراف ..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص : من آية " 50 ")

أفرأيت أيها المؤمن ؟ يَدَعَمُ هذه الآية آية أخرى :

(أرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق : 9-10)

انتهت الآية ، أي هل نظرت إليه ؟ هل نظرت إلى أخلاقه ؟ هل نظرت إلى علاقاته ؟ إلى معاملته ؟ إلى صفاته ؟ إلى قِيَمِهِ ؟ .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

جعل الدين وراء ظهره ، جعل هذا القرآن العظيم مهجوراً ، لم يَرَ في هذا القرآن نظاماً معجزاً شاملاً كاملاً ، يصلح للتطبيق في كل مكانٍ وزمان ، رآه كتاباً انقضى وقته وانتهى زمنه ، ولا يصلُحُ لهذا الزمان .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا)

هذا الترابط كله في حاليته : إيماناً وكفراً يلخصه قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((فَالنَّاسُ رَجُلان : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي : عن ابن عمر)

فالكافر من لوازم كفره الإعراض ، ومن نتائج الإعراض الأخلاق الذميمة ، ومن لوازم الإيمان الإقبال، ومن نتائج الإقبالِ الأخلاق الفاضلة ، فكأن الإيمان مجموعة من القِيَم الخُلُقِيَّة ، لذلك الذي يميز المؤمن عن غير المؤمن ليس الصلاة والصيام ، لا ، ولكن الذي يميّز المؤمن عن غير المؤمن أخلاقه الإيمانية العالية ، إن الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام دعائم لهذا الدين :

((بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ))

(من صحيح البخاري عن ابن عمر)

هذه الخمس ليست هي الدين ، إنما بني عليها الدين ، فمن ظن الدين صلاةً جوفاء ، وصياماً لا معنى له ، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

لأُوتَيَنّ مالً وولَدًا

هذه الآية مطلقة ، فبعضهم قال في معناها : إن هذا الكافر يتبجَّح ، ويتحدَّى ويقول : " حتى في اليوم الآخر لي حظٌ كبير في هذا اليوم " ..

(لَأُوتَيَنَّ)

في اليوم الآخر ، إذا رُدِدتُ إلى ربي لأوتيَنَّ مالاً وولداً ، وبعضهم قال : في الدنيا ، هذا الذي يحسب حساباتٍ دقيقة وينسى أن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ، فهو مستغنٍ عن رحمة الله ، مستغنٍ عن حفظه ، مستغنٍ عن توفيقه ، مستغنٍ عن إمداده ، مستغنٍ عن ألوهيته ، يقول : أنا سأفعل كذا وكذا ، يخطط لمستقبله ، سأشتري البيت في عام كذا ، سأتزوَّج ، وغاب عنه أنه ربما وقع ضحية حادثٍ طفيفٍ جعله مشلولاً ، أو ربما نَمَتْ بعض الخلايا في جسده نمواً غير منضبط فأصبحت حياته جحيماً ، فهذا الذي يخطط لمستقبله ويقول :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

ولا ينتبه إلى أن الله عزَّ وجل هو الموفّق ، وما توفيقي إلا بالله ، لا يتحقق هدفٌ على وجه الأرض إلا بتوفيق الله ، لا في زراعةٍ ، ولا في صناعةٍ ، ولا في تجارةٍ ، ولا في زواج ، ولا في صحةٍ ، ولا في معالجةٍ.

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

يُخَطّطون وقد غفلوا عن الواحد الديَّان ، قالوا : هذه المركبة (شلنجر)سوف تنطلق في الساعة كذا وكذا من القاعدة ، بعد سبعين أو ثمانين ثانية ستكون في المدار الأول ، بعد كذا وكذا ، تعود بعد ثمانية أيام ، وسنسميها المتحدي ، وبعد ثوانٍ معدودة أصبحت كتلة من اللهب ، مثلها مثلُ الذي قال :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

مَن هو صاحب الأفق الضيق ؟

إن الذي يخطط لمستقبله ويغفل عن الله عزَّ وجل إنسانٌ غبي ضيق الأفق ، بل هو معتوه لأنه ينسى القوة الكبرى في الكون ، في الكون حقيقة كُبرى هي كل شيء ، وهي الله عزَّ وجل ، لأن هذه الحقيقة إذا غفلتَ عنها فلألف سببٍ وسبب يمكن أن تُخْفِقَ في كل مسعاك ، لألف سببٍ وسبب يمكن أن تحبطَ كل أعمالك ، لألف سببٍ وسبب يمكن أن تكون صفر اليدين ، قد يفقد الإنسان بعض أعضائه ، قد يفقد عقله ، فهذا البيت الذي اشتراه لا يستمتع به ، يؤخذ إلى المستشفى ، يفقد أهله ، يفقد أولاده ، فالإنسان كما يقول العامة ، وهو كلامٌ لطيفٌ جداً : الإنسان تحت ألطاف الله عزَّ وجل .

لا تقل : لأفعلنَّ كذا وكذا ، هذا كلام الأحمق ، هذا كلام الجاهل ، هذا كلام الغافل ، هذا كلام الذي لا علم له ، قل : إن شاء الله ، إن مكنني ربي ، إن يَسَّرَ لي ، إن وفَّقني ، إن أراد لي ، إن سمح لي .

فهذا الكافر الذي كفر بآيات الله الكونية والقرآنية ، ولم يعبأ بها ، لم يعظمها ، لم تملأ عقله ، لم تملأ وجدانه ، لم تملأ حياته ، حياته ليست معنيةً بهذه الحقائق الدينية ، فلذلك يقول : سأفعل كذا وكذا ، وهذا

متمثّل أكثر ما يبدو في المجتمعات الغَربية ، يفعلون كل شيء ، وكأن الله غير موجود ، فتتوالى عليهم الآفات ، يأتي مرضٌ يجعل حياتهم جحيماً ، يَدُبُّ القلق فيهم ، ترتعد فرائصهم خوفاً من هذا المرض الذي انتشر الآن في بلاد الغرب بأرقامٍ خيالية ، إنه نقص المناعة ، أين تخطيطهم ؟ خططوا لدنيا عريضة ، بَنَوْها على أنقاض الآخرين ، بنوها على أنقاض الشعوب ، بنوها على فقر الشعوب وعلى استغلالهم ، فجاءت الأمراض والأوبئة ، وانتشرت المخدرات في مجتمعاتهم ، فهذا الذي يقول :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

هذا الكلام من لوازم الكُفر ، من لوازم الغَفْلَةِ عن الله عزَّ وجل ، فربُّنا سبحانه وتعالى يقول :

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ)

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

أيْ هل عرف في عِلِم الغيب أنه سيكون كذا ، وكذا كما خطط ؟ إنه أحمق ..

(أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)

هل سبق عهدٌ من الرحمن له ، أم أنه اطّلع على علم الغيب ؟ فلا يستطيع إنسانٌ أن يقول : سأفعل كذا وكذا إلا بسببين ، أن يكون قد اطّلع على علم الغيب الذي هو من خصوصيات الله ، والذي لا يعطيه الله عزَّ وجل إلا لمن يصطفي من أنبيائه ..

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن : 26-27)

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ)

إنما الغيبُ للّه :

لا يعلم الغَيْبَ إلا الله ، وكل من يزعم أنه يعلم الغيب فهو كذّاب ، قل لا أعلم الغيب ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام ، كما في قوله تعالى :

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف : 188)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو مَن هو في رفعة الشأن ، إنه قمة البشر ، إنه سيِّد ولد آدم ، إنه سيد الأنبياء والمرسلين ، ومع ذلك لا يعلم الغيب ، فمن يدَّعي ممن دونه أنه يعلم الغيب فهو كذَّاب .

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ)

حتى يَصِحَّ أن يقول هذا الكلام :

(لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً)

ألَه علمٌ بأن المستقبل سيكون كما أراد ؟ هل اتخذ عند الله عهداً ، والله سبحانه وتعالى لن يخلف عهده ؟ لا ..

(كَلَّا)

أداة ردع ونفي ..

(كَلَّا)

ردعُ الله لمن قال هذا الشطط مِنَ القول :

فرقٌ كبيرٌ بينها وبين لا ، قد تُسأل : هل أنت جائعٌ فتقول : لا ، تنفي أنك جائع ، لكن قد يُسأل الإنسانُ فيقال له : هل أنت سارقٌ ؟ فلا ينبغي أن يقول كلمة : لا ، بل يجب أن يقول : كلا ليس هذا من شأني ، إن الذي يقول : كلا ، لا ينفي فقط ، بل ينفي ، ويرْدَع السائل ..

(كَلَّا)

الله سبحانه وتعالى يردع هؤلاء عن هذا الشطط في القول ، عن هذا القول الفاسد ، عن هذه الفِرْيَة ، عن هذا الكذب ..

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

كُلّ شيء مكتوب مسجَّلٌ :

هذه الكلمة سُجِّلتْ عليه ، وسوف يواجه بها يوم القيامة .

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

أيها الإخوة المؤمنون ، الإنسان عليه أن يضبط لسانه مع حضرة الله عزَّ وجل ، الذنب كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه ، إن ذكره فقد اغتابه ، إن عَيَّرَهُ فقد ابتلي به ، إن رضي به فقد شاركه في الإثم))

[الديلمي في الفردوس عن أنس]

لا ينبغي للإنسان أن يقول لإنسان مرتكب معصية : هنيئاً له ، إن قلت هكذا فأنت شريكه في الإثم ، ولا ينبغي أن تعيِّره ، إن فعلت تبتلى به ، ولكن يجب أن يكون الإنسان دقيقاً في ألفاظه دقة مُتناهية ،

وإلا وقع في شَرِّ عمله .

(كَلَّا نَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو يعلم الإنسان مَغَبَّة هذه الآية أن الذي يقول ، ويتبجَّح ، ويتحدى ، وينسى أنه عبدٌ فقير ، ينسى أنّ حياته بيد الله العلي الكبير ، ينسى أن رزقه بيد الله ، ينسى أن نجاحه بتوفيق الله ، ينسى أن الذي حَصَّلَهُ في هذه الدنيا من رحمة الله ، هذا الذي ينسى :

(كَلَّا نَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

هذه الكلمات الغبيَّةُ الجاهلة سجلت في صحيفته ، وسوف يحاسب عليها في الآخرة ، البشر مع من هُم من طينتهم ، لو أنك تورَّطت بكلمة ، وكتبت عليك ، ثم استدعيت فووجهْتَ بها ، ترتعد فرائصك من إنسان لا يملك من أمره شيئاً ، فكيف لو كانت هذه الكلمة بحقِّ الواحد الديَّان ؟ وسألك عنها يوم القيامة ، وحاسبك عنها حساباً عسيراً .

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً)

ونمدُّ لهُ مِن العذابِ مدًّا

هناك رجل عنده معمل للحلويات ، في قُطر عربي مجاور ، حدَّثني بعض من أثق بحديثه عنه ، قال : إنه يُصَدِّرُ كل يومٍ طائرةً محملة بهذه الحلويات إلى بعض دول النفط ، فقد كان هذا الإنسان في أوج نجاحه ، فالملايين تتدفق عليه ، دخل مرةً إلى معمله ، وقد رأى بعض العُمَّال لا يجيدون عَجْنَ العجين، فوضع كتلة العجين على الأرض ، وعركها بقدميه ، وبحذائه ، وقال لعماله : هكذا يُعْرَكُ العجين ، ما هي إلا أشهرٌ معدودة حتى قُطِعَتْ رجلاه من ركبتيه ، هذا الذي يتحدى ، هذا الذي يتكبَّر ، هذا مصير الذي يظن أنه كل شيء ، وهو لا شيء ، هذا مصيره التَّلَف والهوان .

(سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ)

كُتبتْ هذه الكلمة في صحيفته ، سُجِّلَتْ ، وسوف يواجه بها يوم القيامة، وقد يواجه بها في الدنيا قبل الآخرة .

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً)

وسوف يتحمَّل مَغَبَّة هذه الكلمة ، سوف يلقى ألوان العذاب جزاءً وفاقاً لهذه الكلمات التي تفوَّه بها .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

مع الموت نفقد كل شيء :

هذا الذي أوتي المال والولد ، وأوتي الجاه العريض ، وجاءته الدنيا ، وهي راغمة ، واستعلى بها على الناس ، كل مكتسباته ، وكل عِزّه ، وكل جبروته ، إنما جاءه من المال الوفير الذي هو بين يديه ..

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

لابدَّ أن يموت ، وحينما يموت يفقد كل شيءٍ في ثانيةٍ واحدة ، ليس في الكَفَن جيب ، هل أحدٌ منكم رأى في الكفن جيباً لوَضْع دفتر الشيكات ؟ لا ، وألف لا ، قماشٌ أبيضٌ من أرخص أنواع الأقمشة يُلَفُّ به ، ويوضع في القبر ، أحد كبار الأثرياء بنى لنفسه قبراً جعله آيةً ، هذا القبر آيةٌ في الجمال والفخامة، كَلَّفَ الملايين ، بناه في جبلٍ أخضر مُشْرِفٍ على البحر ، أيْ حتى لو مات في أقصى الأرض فعليهم أن يحضروه ، فهذا قبره ، كان يركب طائرته الخاصة فوق البحر ذات يوم ، فسقطت الطائرة في البحر، استقدمت زوجته مجموعة من أمهر الغواصين من بلاد الغرب لانتشال جُثَّتِهِ من البحر ، ودفعت هذه الزوجة أيضاً مئات مئات الألوف ، فما تمكَّن الغوَّاصون إلا أن ينتشلوا جثة الطيار ، أمَّا هو فلم يُتَح له أن يدفن في هذا القبر ..

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

أحد أكبر أغنياء العالم كان يُقْرِضُ الدولة من حينٍ لآخر ، دخل إلى بعض مستودعات الذهب التي يملكها ، فأغلق عليه الباب خطأً ، فجعل يصيح ملء فمه ، ولا أحد يستمع إليه ، إلى أن جرح يديه ، وكتب على حائط هذا المستودع : أغنى أغنياء العالم يموت جوعاً .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

فهذا البيت الذي تتباهى به ليس لك ، البيت الحقيقي هو المثوى الأخير ، هذه المركبة التي تتيه بها ليست لك ، إنها لله وضعت بين يديك ، أعرابيٌ أجاب أَدَقّ إجابةٍ وأصح إجابةٍ وأوجز إجابةٍ ، كان يقودُ قطيعاً من الإبل قيل له : لمن هذا القطيع ؟ قال : لله في يدي ، أي أن هذا البيت لله تسكنه أنت الآن ، ليس لك ؟ والدليل لابدَّ من أن يخرج أحدنا من بيته بشكلٍ أفقي دون أن يعود ، والذي يُعَدُّ بطلاً فليتحدَّ ، ولا يخرج من بيته ، مهما كنت قد اعتنيت بهذا البيت لابدَّ أن تخرج منه بشكلٍ أفقي من دون أن تعود .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)

وكذلك مركبته ، وكذلك محله التجاري ، وكذلك وجاهته ، وكذلك ممتلكاته .

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً)

ويأتينا فَرْدًا

أين جماعتك ؟ ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً)

أين عُزْوَتُك ؟ ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً)

أين خُطورتك ؟ ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً)

الإنسان أحياناً في الحياة الدنيا يلتفُّ حوله أشخاص ، هذا حوله إخوة ، هذا حوله أقارب ، هذا حوله تلاميذ ، هذا حوله أتباع ، كل إنسان يعتز بمن حوله ، لكن البشر جميعاً سيقدمون على الله عزَّ وجل فُرادىً ..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام : من آية " 94 ")

لا تخلو الحياة الدنيا من بعض الأصدقاء ، تتصل بفلان ، تُوسِّط فلاناً الآخر صديق فلان ، يُخرجك بسند كفالة ، ممكن ، هذه في الدنيا ، فلان يكتب كلاماً لمصلحتك في الضبط ، هذا ممكن في الدنيا ، لكن يوم القيامة ..

(وَيَأْتِينَا فَرْداً * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً)

هذا هو الحُمْقُ بعينه ، أن تتخذ من دون الله إلهاً لتعتزَّ به ، فقد يعتزُّ فلانٌ بقريبه إذا كان في مكانٍ مرموق ، وقد يعتز الإنسان بماله ، ويَعُدُّ ماله إلهاً له ، يعتز به ، وقد يعتز فلانٌ بكذا وكذا ..

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً)

كل معبود بالباطل يصير عدوا لعابده يوم القيامة :

قال علماء التفسير : إن كانت هذه الآية موجَّهَةً إلى من اتخذ أشخاصاً من بني البشر ، اتخذهم آلهة يعبدهم من دون الله ، ويرجوهم ، ويخشاهم ، ويطيعهم ليكونوا له عزاً ، فهؤلاء الأشخاص يوم القيامة سيكفرون بهذه العبادة ، ويقولون : يا من كنت مغفلاً نحن بشر مثلك ، لا نستحقُّ العبادة ، نحن ضعاف، نحن مفتقرون إلى الله ، إن هؤلاء الذين اتّخذوا آلهة من دون الله سيكفرون بعبادتهم ، وسيشهدون ضدهم .

(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً)

وقال علماء التفسير : وإذا كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أصناماً فإن الله عزَّ وجل ينطقهم يوم القيامة ليكونوا شهودَ إثباتٍ على كفر هؤلاء .

(كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً)

معنى : تؤزّهم :

معنى تؤزُّهم أي تُهَيِّجُهُم ، تستفزّهم ، تحرّضهم ، الذي يجعلك في حيرةٍ من أمر بعض الناس أن هذا الإنسان يحب أن يؤذي ، لماذا يؤذي؟ ولا مصلحة له شخصية في هذا الأذى ، لكن يحب أن يؤذي ، هذا الإنسان تنطبق عليه هذه الآية :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

لو أن الله عزَّ وجل قال : ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين عليهم ، لكان هذا المعنى غير مستقيم ، لكن الله عزَّ وجل يقول :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

أيْ أنهم بعد أن كفروا ، واختاروا الكفر بمحض اختيارهم استحقوا أن تأتيهم الشياطين لتؤزُّهم أزّاً ، فعندئذٍ تجد الكافر لا هم له إلا إيذاء الناس ، يؤذيهم ، يسلبُهُم بعض ممتلكاتهم ، يأخذ ما عندهم ، يوقِع بهم الضَرَر ، فقد يكون الجار كذلك ، يرتاح إذا أوقع جاره في ورطة ، يشفى غليله إذا سَبَّب لجاره بعض المتاعب ، هناك أشخاصٌ تحارُ في أمرهم ، لماذا يؤذون ولا مصلحة لهم في هذا الأذى ؟ هؤلاء كما قلت قبل قليل تنطبق عليهم هذه الآية ، لذلك قال بعضهم : " إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك" ، فهناك أشخاصٌ يحبُّهم الله عزَّ وجل يستعملهم في الخير ، إذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه ، إذا أحب الله عبداً طَرَقَ الناس بابه ، إذا أحب الله عبداً أجرى الخير على يديه ، خَلَقَ الفضل ، ونسبه إليه ، وهناك أشخاصٌ مفاتيح للشر ، يستخدمهم الله عزَّ وجل لتأديب عباده ، فلا يجري على يديهم إلا الشر .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً *فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً)

الإنسان بضعة أيام معدودة :

كل شيءٍ معدود هو شيءٌ قليل ، حياتنا في هذه الدنيا أيامها معدودة، إذاً هي قليلة ، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضْعٌ منه ، كل شيءٍ معدودٌ هو قليل ، فهذا الذي يتمنَّى على الله عزَّ وجل أن يُدَمِّرَ هذا الجار الظالم أو هذا القريب الجاحد ، فلا ..

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً)

أيْ أنَّ أيامهم معدودة ، لابدَّ من أن تنقضي ..

الليل مهما طال فلا.. بدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر.

* * *

وسبحان من قهر عباده بالموت .

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة .. ...فاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا .

القضية سهلة ، محسومة ، واضحة ..

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً)

أحياناً تُستخدم بعض العبارات يقالُ لك : فلان انتهى ، ولكن القضية قضية وقت ، أي أنه بقي له أيام معدودة ، أحياناً يقول الطبيب هكذا: انتهى . أي بقي له أيام ، ميئوسٌ من شفائه ، فهذا الذي أعرض عن الله عزَّ وجل وركب رأسه ، وعصى ربه ، وجحد نعمته ، وتنكّب طريق الحق ، وأراد أن يطفئ نور الله ، الإنسان قد يقول فيه : ليت الله يهلكه . فلا ..

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ)

له عند الله أجلٌ لا ينقص ولا يزيد :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا)

(سورة طه)

لزاماً هلاك الكفار .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

(سورة طه : 129)

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً)

تكريم الله للمؤمنين وفدا وفدًا :

ما هذا التبجيل ؟ ما هذا التكريم يا رب العالمين ؟ هؤلاء المتقون يذهبون إلى الرحمن وفداً ، علامة التكريم ، وعلامة الإسعاد ، وفدٌ كريم يَقْدِمُ على الله عزّ وجل ، يرحَّب بهم ، يقال لهم :

(سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر :73)

(لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا(25)إلا قِيلا سَلامًا سَلامًا)

(سورة الواقعة)

(نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً)

وفدٌ رفيع المستوى ، تقام له الزينات ، وينزل في أرقى البيوتات ، ويقدَّمُ له ما لذَّ وطاب ، هذا شأن الدنيا ، الوفود رفيعة المستوى يُحْتَفَلُ بها احتفالاً كبيراً ، فكيف بالمتقين الذين أمضوا حياتهم في طاعة الله ، أمضوا حياتهم في التقرُّب إليه ، أمضوا حياتهم في خدمة عباده ؟ هؤلاء يوم القيامة يحشرون إلى الرحمن وفداً ، هنيئاً لهم ، نرجو الله أن نكون منهم ، وأما المجرمون لا يحشرون ولكن يُساقون ..

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ ورْداً)

لابدَّ من أنكم رأيتم أحداً ألقي القبض عليه بجريمة ، كيف يساق إلى سيارة رجال الضابطة ؟ هل يقابَل بالترحيب ؟ وهل يقالُ له : تفضل ، أم يستقبل بالضرب والركل ؟

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمينَ إِلَى جَهَنَّمَ ورْداً)

إهانة الله للمجرمين وسوقهم على الجحيم بالسلاسل :

سَوْق ..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص : 61)

مُحْضَرًا ، أي ألقي القبض عليه ، ووضعت في يديه الكلاليب ، واقتيد إلى مصيره المحتوم ، هذه هي الخسارة ..

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ ورْداً * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)

لا شفاعة لمعبود بالباطل :

أيْ أنَّ هؤلاء الآلهة الذين عبدوهم من دون الله لا يملكون لهم الشفاعة ، تماماً (في الدنيا كعصابة سرقة مثلاً)ألقي القبض عليها ، زعيم العصابة كان قبل إلقاء القبض عليه ، يُصدر الأوامر لأفراد عصابته ، ويأمر وينهى، ويطمئن ، فإذا ألقي القبض عليه مع أفراد عصابته فليقل أحدهم له : خلّصنا يا زعيم ، يا فلان خلصنا ، إنه لا يستطيع ..

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)

هؤلاء الآلهة الذين عبدتموهم من دون الله ، يخاطب الله الكفار :

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)

لا يستطيعون كَشْفَ الضر عنكم ولا تحويله ، لا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً ، فإن كانوا عاجزين عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً أو ضراً فهم عن أن يملكوا لكم نفعاً أو ضراً أعجز .

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)

تفسير : إلاَ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

قال علماء التفسير : العهد هو الإيمان والعمل الصالح ، فمن كان في الدنيا مؤمناً ، ومن كان ذا عملٍ صالحٍ ربما نالته شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ، من مات غير مشركٍ بالله عزَّ وجل ، هكذا ورد في بعض الأحاديث الصحيحة فقد تناله الشفاعة .

(وَقَالُوا)

الفرية العظيمة : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

العرب قالوا : إن الملائكة بنات الله ، واليهود قالوا : عُزَير ابن الله، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله..

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً)

لمَ يتخذ الرحمن ولداً ؟ أهو كالبشر يحتاج إلى من يخلّد ذكره ؟ أهو كالبشر في سنه ، في خريف العمر يحتاج إلى من يساعده ؟

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء :43)

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً)

أيْ شيئاً عظيماً ، افتراءً كبيراً ، وصفاً لا حدود لفظاعته .

(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ تَتَفطر من نسبة الولد لله تعالى :

إذا كانت السماء بما فيها من أجرام تكاد تتفطَّرُ أنْ سمعت أنَّ هناك أُناساً يزعمون أن الله عزَّ وجل اتخذ ولداً ، فما بال هؤلاء الذين يعقلون يزعمون هذا الزَعم ؟! .

(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)

من هذا القول الفظيع ..

(وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً)

وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرّ الجِبَالُ هَدًّا

أيْ أنَّ هذا الجبل الأشَمّ لو سمع أن هناك من يدَّعي أن الله عزَّ وجل قد اتخذ ولداً ، إن هذا الجبل ينهَدُّ ويصبح رُكاماً ..

(وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً)

ليس من شأن الله أن يتخذ ولدًا

سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، ليس بمتبعضٍ ولا متجزِّئٍ ، ولا صورةٍ ، لا يُسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا أين هو لأنه خالق المكان ، وكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك ، عَلِمَ ما كان ، وعَلِمَ ما يكون ، وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ،

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

(سورة الإسراء : 43)

(وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً)

هو أعظم من ذلك ، ليس كمثله شيء ، هو فوق كل شيء ، وليس تحتَهُ شيء ، وهو في كل شيءٍ لا كشيءٍ في شيء ، ليس كمثله شيء .

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً)

كل مخلوق يأتي ربَّه عبدا فردا

بما فيهم سيدنا المسيح عيسى بن مريم سيأتي الرحمن عبداً ، بما فيهم عُزير سيأتي الرحمن عبداً .

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً)

قدرة الله وإحاطته بكل شيء علمًا :

معنى أحصاهم أي أحاط بهم ، وقد عدَّهُم عدًّا ، أحياناً إنسان يهرب من مكان عمله فيوقِّع عنه رفيقه ، يرفع الدوام للمدير يرى أن الكل في دوامهم كالمعتاد ، والأمور تجري على ما يرام ، ويكون أحد هؤلاء قد خَرَجَ قبل نهاية الدوام ، فهذا الذي يَقْبَع وراء مكتبه ليس في إمكانه أن يحيط بكل موظفيه ، وأن يحصيهم ، وأن يعدَّهمٍ عداً ، الإنسان قاصر ؛ فمعلوماته تأتيه من الآخرين ، لابدَّ أن يكلف أناساً بضبط الدوام ، لضبط الدخول والخروج ، متى دخل ؟ متى خرج ؟ لكن الله سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء لقد أحصاهم ، فما دام الله عزَّ وجل يسمع صوت النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظَلْمَاء ، نملة سوداء تمشي على صخرة صماء في ليلةٍ ظلماء يسمعها ويراها ، وما تسقط من ورقةٍ إلا هو يعلمها ، وقمْ تجوَّلْ في البساتين في الخريف ، ما أكثر الأوراق التي تتساقط .

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : من آية " 59 ")

لذلك :

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً)

معنى أحصاهم أحاط بهم .

(وَعَدَّهُمْ عَدّاً)

فرداً فرداً ، حالة حالة .

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)

فالإنسان يوم القيامة كما قلنا قبل قليل : ليس له جماعة ، ولا أقارب ، ولا من يقوِّي شأنه ، ولا من يُدافع عنه ، ولا من يتوسَّط له ، بل هو فرد مَهيض الجناح ..

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

مودة الله للمؤمنين :

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله من إكرامٍ للمؤمن إلا هذه الآية لَكَفَت ..

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

المعنى الأول للمودة :

قال العلماء : المعنى الأول أن الله سبحانه وتعالى يُلقي في قلب الناس جميعاً مَحَبَةَ المؤمن ..

يُنَادى له في الكون : أنا نحبه فيسمع مَن في الكون أمر مُحِبنا

* * *

وبعضهم يقول : إن المودَّة هنا تعني تحقيق ما يحب ، فكل مؤمنٍ يحب أن يلقى الله ، يحب أن يدخل الجنة ، يحب رضوان الله ، الله سبحانه وتعالى سيؤتيه سُؤْلَهُ ، والمعنى الثالث :

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

أيْ أنَّ هذه المودة بين الله وبين المؤمنين أثمن ما في الوجود ، يا محمد ، جبريل عليه السلام جاء سيدنا محمد قال له : " يا محمد قل لصاحبك : إن الله راضٍ عن أبي بكر ، فهل هو راضٍ عن الله ؟.

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

إذاً :

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

فالمودة مطلقة ؛ إما أنها بينك وبين الناس ، وإما أنها بينك وبين الله سبحانه ، فالله عزَّ وجل يجعلُ قلوب الناس تهفو إليك ، يحبونك ويعجبون لهذه المحبة ، لأن الله عزَّ وجل تجلَّى عليك ، فجعل القلوب تهفو إليك ، أنت كمؤمن هكذا يحبك الناس ، ومن علامة صدق إيمانك محبَّة الناس لك ، ومن علامة النفاق بُغض الناس لك ، علامة الإخلاص محبة الناس ، ألسنة الخلق أقلام الحق ، إذاً :

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم ، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

[البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة]

إذاً هذا هو المعنى الأول .

المعنى الثاني للمودة :

وأما المعنى الثاني فالمودة بينك وبين الله، ففي الحديث القدسي :

((وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتبادلين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، والمتحابون فيَّ جلالي على منابر من نور يغبطهم عليها النبيون يوم القيامة))

(أحمد)

وخلاصة المعنى الثاني أن الذي ترغبه وتحبه فإنّ الله سبحانه وتعالى سيؤتيك إياه ..

(سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

هذا الذي أحبوه سيجعله لهم ، سيقدره لهم ، سيكافئهم به .

المعنى الثالث للمودة :

والمعنى الثالث : هو أنك إذا كنت في طاعة الله ، وعبَدّتَهُ حق العبادة يدنيك منه ، إنك إذاً في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ، إذاً يدافع الله عنك ، تشعر بهذه المودة ..

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(15)فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة البروج : 14-16)

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً)

القرآن نذير :

لُدًّا أيْ : خَصمين ، شديدي الخصومة .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ)

اذهب إلى تدمر حيث آثار التدمريين ، مملكة ذات شأنٌ كبير كانت في بادية الشام ، وهذه آثارها تدلُّ على عظمة شأنهم ، اذهب إلى البتراء حيث قوم ثمود .

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

(سورة الفجر :9)

اذهب إلى أهرامات مصر .

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(10)الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ(11)فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(12)فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(13)إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ)

هل هناك أحدٌ يجيبك ؟ هل هناك أحدٌ يسمعك ؟ هل هناك أحدٌ تتحدَّثُ إليه ؟ .

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)

ركْزَاً يعني صوتاً ، أحد الشعراء ، وهو البحتري وقف في إيوان كسرى ، وقد نُقِشَت على حائطه لوحةٌ تصويريةٌ رائعة جداً عن معركةٍ تاريخيةٍ جرت بين الفُرس والروم ، فقال ، وقد كانت الصورة رائعة :

يَغْتَلي فيهمُ ارْتِيابـــــيَ حَتّى تَتَقرّاهُمُ يَدايَ بلَمْـــس
حَضَرَتْ رحليَ الهُمُومُ فوَجّهْـتُ إلى أبيَض المَدائن عُنْسِـي
أتَسَلّى عَنِ الحُظُوظِ ، وَآسَــى لمَحَلٍّ من آلِ ساســـانَ دَرْس
ذَكّرْتَنيهمُ الخُطُوبُ التّوَالــي وَلَقَدْ تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسِـــي
وَكَأنّ الإيوَانَ منْ عَجَبِ الصّنْـعَةِ جَوْبٌ في جنبِ أرْعَنَ جِلس
لَيسَ يُدرَى: أصُنْعُ إنْسٍ لجِـنٍّ سَكَنوهُ أمْ صُنعُ جنٍّ لإنْـــس
عَمَرَتْ للسّرُورِ دَهْراً، فصَارَتْ للتّعَزّي رِبَاعُهُمْ ، وَالتّأسّـــي

***

وهكذا ، ونحن على هذا الطريق سائرون ، لابدَّ من أن يأتي يومٌ لا يبقى فيه واحدٌ منا فوق الأرض ، بعد مئة عام كلنا تحت أطباق الثرى ، كلنا في قبور مبثوثة هنا أو هناك ، تقرأ شاهدة ؛ هنا قبر فلان ، كان إنساناً ، كان موظفاً ، كان تاجراً ، كان عالماً ، كان ذا شأنٍ كبير ، كان أديباً ، كان مؤرِّخَاً ، كان مهندساً ، كان طبيباً ، أين هم ؟.

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)

لذلك قالوا : الدنيا ساعة اجعلها طاعة ، والنفس طمّاعة عوّدها القناعة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 - 8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-01-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الأول من سورة طه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

تفسير كلمة (طه):

التفسير الأول :

أولاً : طه ، قال بعض المفسِّرين : " الله أعلم بمراده " .

التفسير الثاني :

وقال بعضهم الآخر : " إن القرآن الكريم إنما صيغَ من هذه الحروف ، وهذه الحروف الهجائيَّة بين أيديكم ، فإن استطعتم أن تأتوا بمثل هذا القرآن فأتوا بمثله ، وإن استطعتم أن تأتوا بسورةٍ منه فافعلوا "،

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(24))

(سورة البقرة)

التفسير الثالث :

أن هذه الحروف التي صُدِّرت بها بعض السور إنما هي أسماء لهذه السوَر " ، فهذه السورة اسمها سورة طه ، لكن الإمام الفخر الرازي في تفسيره الشهير يورد تفسيراً لتابعي جَليل هو سعيد بن جبير ، يقول هذا التابعي الجليل : " طه اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، الاسم الأول الطاهر ، والاسم الثاني الهادي ، والله سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علاّم الغيوب " ، وهناك تفسيرٌ آخر هو أن الطاء تمثّل طَرَبَ المؤمنين في الجنَّة، والهاء تمثّل هوان الكافرين في النار ، وبعضهم يقول : "طوبى لمن اهتدى " .

القرآن حمَّال أوجهٍ :

القرآن كما تعلمون أيها الإخوة حمَّال أوجه ..

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109))

(سورة الكهف)

فإذا قلت : الله أعلم بمراده فقد أصبت ..

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ)

(سورة آل عمران : من آية " 7 ")

وإن قلت : إن طه حرفان ، منهما ومن أمثالهما صيغَ هذا القرآن الكريم ، وهو الكتاب المعجز فقد أصبت ، وإن قلت : إن طه اسمٌ لهذه السورة فقد أصبت ، وإن قلت : إن طه اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علام الغيوب ، فقد أصبت ، وإن كانت طه إشارةً إلى العبارة طوبى لمن اهتدى فقد أصبت ، وإن رمزت إلى الطاء بطرب أهل الجنَّة بالجنَّة ، والهاء هوان أهل النار في النار فقد أصبت ، والله سبحانه وتعالى هو وحده يعلم سرَّ هذين الحرفين ..

(طه)

الراجح في كلمة (طه):

لكنَّ الذي يُرَجِّحُ أن هذين الحرفين اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

أي يا طه ما أنزلنا عليكَ ، فهذه الكاف هي كاف الخطاب .

شيءٌ آخر ؛ ورد في بعض التفاسير أن للنبي عليه الصلاة والسلام أسماء كثيرة منها طه و يس ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

قبل أن ننتقل إلى الآية الثانية ، إذا كان أرجح التفاسير أن الطاء تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام طاهرٌ من الذنوب ، وإذا كانت الهاء تعني أن النبي عليه الصلاة والسلام هادٍ إلى علام الغيوب ، وبما أن المؤمنين قد أُمِروا بما أُمِرَ به المرسلين ..

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(الترمذي عن أبي هريرة)

موقف المؤمن من معنى هذين الحرفين : الاقتداء :

فما موقفنا نحن المؤمنين من هذين الحرفين ؟ هل طهَّرنا أنفسنا من الذنوب ؟ وهل حاسبنا أنفسنا في الدنيا حساباً عسيراً ليكون حسابنا يوم القيامة حساباً يسيراً ؟ وهل راجعنا أنفسنا ؟ وهل أيقنا بقوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

هل راجعنا حساباتنا مساء كل يوم ؟ وهل تَبَصَّرنا بأعمالنا ، أفيها مخالفة ، أم فيها انحرافٌ ، أم فيها تقصيرٌ ، وهل فيها معصية ، أو فيها خرقٌ لحدود الله ، وهل طهَّرنا أنفسنا من الذنوب ؟ وهل ضبطنا سلوكنا وَفْقَ كتاب الله وسُنَّة رسوله ؟ إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يثني الله عليه بأنه الطاهر الهادي ، فأين نحن من هاتين الصفتين ؟ هل طهَّرنا أنفسنا ؟ وهل طهَّرنا قلوبنا مما سوى الله من الأمراض النفسيَّة ؟ ومن مشاعر الاستعلاء ومشاعر الأثرة ، ومن المشاعر التي لا تليق بالإنسان ، أين نحن من تطهير أنفسنا من الذنوب ؟

يا أيُّها الإخوة المؤمنون ... كل صفةٍ وُصِفَ بها النبي عليه الصلاة والسلام لابدَّ أن يكون للمؤمن منها نصيب ، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام قد وصفه الحقُّ جلَّ وعلا بأنه الطاهر الهادي فلابدَّ أن يكون المؤمن على شيءٍ ، ولو يسيرٍ من الطهر ومن الهدى ، يا طاهراً من الذنوب ، ويا هادياً إلى علام الغيوب .

رفعة النبي عليه الصلاة والسلام وحرصه على هداية الناس :

وشيءٌ آخر ؛ هو أن الله سبحانه وتعالى يبيِّن رفعة هذا النبي الكريم..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

كأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قد شَقِيَ بمعنى أتعب نفسه ، وحَمَّلها فوق ما تطيق ، إما لأنه تَحَسَّر على قومه ، وتأسَّف عليهم ، وحزن لصدِّهم عن سبيل الله ، وإما لأنه رأى أن كل إنسانٍ هو أخوه في الإنسانيَّة ، وإما لأن قلب النبي عليه الصلاة والسلام مُفْعَمٌ بالرحمة ، فحينما يرى البشر قد حادوا عن الطريق المستقيم تتفطَّر نفسه ، ويتفطَّر قلبه ألماً لِما سيحلُّ بهؤلاء الناس الغافلين من آلامٍ ومن عذابٍ في الدنيا والآخرة ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

معاني الآية :

المعنى الأول :

كأنَّ الله سبحانه وتعالى يُسَلّي نبيَّه الكريم ، فيُخَفّف عنه ، ويطمئنه ، وتجاوزت الحد المعقول ، تجاوزت الحد الذي كُلّفْتَ به ، ما كلّفناك هذا ، ما كلفناك فوق ما تطيق ، ما أردنا أن تتعب نفسك هذا التعب ، وما أردنا أن تشقى من أجل الناس ، فالله سبحانه وتعالى يخفّف عن نبيه ، ويسلّيه ، ويبيّن لنا النفس الكريمة التي انطوى عليها .

نحن إن اهتدى الناس فقد اهتدوا ، وإن لم يهتدوا قلنا : لا يهتدون ، فماذا أفعل لهم ، بماذا يُحِسُّ المؤمن إذا دعا إلى الله ، ولم يُستَجَب له ؟ فهل يحسُّ بهذا الإحساس المُضني ؟ وهل تتمزَّق نفسه ؟ وهل يتفطَّر قلبه لما يرى من إعراض الناس ، وغفلتهم ، وانغماسهم في الشهوات ، وبعدهم عن الحق ، وتورُّطهم في بعض المعاصي .

أيُّها الإخوة الأكارم ... النبي عليه الصلاة والسلام هذا حاله ، وهو على خُلُقٍ عظيم ، وهو سيِّد الخلق، وهو سيد ولد آدم ولا فخر .. كما يقول عن نفسه .. وهو العروة الوثقى ، وهو الوسيلة ، وهو صاحب الشفاعة ، وإن الله عزَّ وجل يبيِّن لنا رحمة هذا النبي الكريم ..

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

وإذا قرأت هذه الآية فلا شكَّ أنك تحسُّ عظمة النبي عليه الصلاة والسلام ، كما يقول عليه الصلاة والسلام :

((... يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

(صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ)

((ولو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ))

(ورد في الأثر)

والنبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يذكر أن روح الميِّت ترفرف فوق النعش فتقول : " يا أهلي يا ولدي لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حلَّ وحرُم فأنفقته في حلّه وفي غير حلّه فالهناء لكم والتبعة علي .. " .

ثم يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرَّات فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله ، وانقطع رزقه ألقى عليه غمَّ الموت فغشيته سكراته ، فمن أهل البيت الضاربة وجهها ، والناشرة

شعرها ، والصارخة بويلها فيقول ملك الموت : ممَّ الفزع ؟ وفيمَ الجزع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قرَّبت له أجلاً ، وإن لي فيكم لعودة حتى لا أبقي منكم أحداً ، فو الذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم))

ثم يقول عليه الصلاة والسلام :

((فو الذي نفس محمدٍ بيده لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ ، ولا شربتم شراباً ، ولا دخلتم بيوتكم تستظلون بها ، بل لذهبتم إلى الصُعُدات تبكون على أنفسكم وتلدمونها))

(ورد في الأثر)

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام يرى المصير ، مقام النبوَّة مقام الرؤيا ، لقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام مصير الإنسان إذا كان معرضاً عن الله عزَّ وجل ، رأى شقاءه الأبدي ، وهو أرحم الخلق بالخلق ، إذاً هو حينما يدعو الناس إلى الله عزَّ وجل ، وهم يعرضون إنه يتفطَّر عليهم ، ويتألَّم ، ويحزن ، من هذه المعاني قول الله عزَّ وجل :

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ)

(سورة الكهف : من آية " 6 ")

(فلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف : من آية " 2 ")

(وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)

(سورة النحل : من آية " 127 ")

(فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)

(سورة فاطر : من آية " 8 ")

هذه الآيات الأربع من هذا القبيل ..

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

هل يؤلمك أن ترى أخاً لك في طريق الضلال ، أم تقول في نفسك : ما لي وله ، ليفعل ما يشاء ؟ إن قلت : ما لي وله ، ليفعل ما يشاء ، فليس في القلب رحمة ، هل تتألَّم إذا دعوت إنساناً لطاعة الله ، وسخِرَ من هذه الدعوة ؟ وهل يتفطَّر القلب ألماً إذا رأيت مَن حولك في طريقِ الهاوية ؟ فإن كنت كذلك فأنت تقفو أثر النبي عليه الصلاة والسلام ، إن كنت كذلك فأنت من أمَّته ، لأن الراحمين يرحمهم الله .

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

هذا هو المعنى الأوَّل .

المعنى الثاني :

أن النبي عليه الصلاة والسلام لشدَّة عنايته بهذا الكتاب تلاوةً ، وتعليماً ، وقراءةً ، وتعبُّداً حمَّل نفسه فوق ما يطيق ، إنه يمضي معظم الليل يصلي قائماً إلى أن تورَّمت قدماه ، إنه يمضي معظم أوقاته في تعليم الناس ، وفي توجيههم ، وفي هدايتهم ، إنه يحفظ هذا الكتاب ، وينقله نقلاً أميناً للبشر الذين أنيط هداهم به ، فالله سبحانه وتعالى يخفّف عنه ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

بعض الجُهد ، لا تُحمِّل نفسك ما لا تطيق ، فجسدك له عليك حق ، استرح ولو قليلاً ..

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

(سورة المزمل : من آية " 20 ")

إذاً إما أن تفهم الآية :

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

على أن النبي عليه الصلاة والسلام لشدَّة ما انطوى قلبه على رحمةٍ مُزجاةٍ للبشر كافَّة إذا رآهم منحرفين ، أو معرضين ، أو ضالين يتفطَّر قلبه ، ويتحمَّل كما تتحمَّل الأم الرؤوم من الآلام حينما ترى أولادها على غير الطريق الصحيح سائرين ، فهو كالأم تماماً .

والمعنى الثاني : أن النبي عليه الصلاة والسلام حمَّل نفسه فوق طاقتها ، فأتعبها ، وكان في الليل قوَّاماً، وفي النهار داعياً ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعته السيدة خديجة إلى أن يأخذ قسطاً من الراحة بُعَيْدَ نزول الوحي عليه ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((انقضى عهد النوم يا خديجة))

(ورد في الأثر)

قام قومة واحدة ، ودعا إلى الله ، ولبث في قومه ثلاثة وعشرين عاماً ، حقَّق من خلالها ما لا يفعله البشر قاطبة ، قلبَ وجه الأرض ، إذْ أرسى قواعد العدل ، لقد جاء الحياة فأعطى ، ولم يأخذ ، وقدَّس الوجود ، ورعا الإنسان ، وكان مثلاً أعلى ، ألم يَدْعُه أترابه حينما كان صغيراً إلى اللعب ، فقال عليه الصلاة والسلام وهو في سنِّ الطفولة :

((لم أُخْلَق لهذا))

(ورد في الأثر)

ألم ينزل عليه قوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2))

(سورة الشرح)

هذا الحِمل الثقيل ، عبء الدعوة ، عبء الهداية كان يحمله ، ولا يدري ما المخرج ، كيف يدعوهم ؟ وبأية صفةٍ يدعوهم ؟ إلى أن أنزل الله عليه الوحي ، ألم يقل الله عزَّ وجل :

(وَالضُّحَى(1)وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(2)مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(3))

(سورة الضحى)

فلذلك هذه الآية :

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

ما أردنا أن يكون هذا القرآن مُتْعِبَاً لك إلى هذا الحد ، وما أردنا أن يكون القرآن يحمِّلك ما لا تطيق ، ونحن بعد ألفٍ وأربعمئة عام نتمنَّى على الأخ الكريم أن يحضُر إلى المجلس ليستمع ساعةً في الأسبوع إلى التفسير ، فقد يأتي في هذا الأسبوع ، وربما لا يأتي في الأسبوع الآخر ، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد حَمَّلَ نفسه فوق ما يطيق ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

في هذه الآية بيانٌ لِعِظَم شأن النبي عليه الصلاة والسلام ، في هذه الآية بيانٌ لما أُترِعَ قلبه من الرحمة، للرحمة البالغة التي ملأت جوانحه ، في هذه الآية بيانٌ إلى حرصه الشديد على هداية الخلق .

اقتداء المؤمن بحرص النبي عليه الصلاة والسلام على هداية الناس :

ويا أيُّها الإخوة المؤمنون ... هذا الذي لا يحبُّ الناس ليس أهلاً أن يهديهم إلى سواء السبيل ، فيجب أن تُحِبَّ الخلق ، وأن تحبَّ الناس جميعاً ، لأنهم عيال الله ، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله ، ويجب أن يمتلئ قلبك رحمة .. إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .. وما من عملٍ يفوق أن تدلَّ الناس على الله عزَّ وجل ، وأن تهديهم إلى سواء السبيل ، وأن تعرفهم بربهم ، وإذا عرفوه سعدوا به .. " ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّكَ َفاتَكَ كل شيء ، وأنا أحبُّ إليكَ من كل شيء".

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

القرآن تذكرة لمن يخشى :

إنه تذكرة ، من هو الذي يخشى ؟ في عالمنا ، وفي حياتنا اليوميَّة من الذي يخشى ؟ هو الذي يُفَكِّر ، فهذا الذي يعمل تفكيره في حياته يخشى، فقد يخشى الإنسان أن يتسرَّب الغاز فيحرق البيت ، تراه حريصاً على ضبط الأمور ، يفكِّر ، وهذا الذي يشتري دواءً سامَّاً يخشى أن يكون بين أيدي الأطفال ، يضعه في حرزٍ حريز ، ويخشى ، أيْ يفكِّر ، وهذا الذي يخشى أن يرسُب في آخر العام ، معنى ذلك

أنه يفكّر عاماً بأكمله ، ولو أنه أهمل الدراسة لكان ضياعاً من حياته ، فكأنَّ الذي يخشى هو الذي يفكّر، أي يُعْمِلُ فكره ، فيدرُس ، ويتدبَّر ، وينظُر في الأمر ، ويتأمَّل ، فهذا الذي لا يفكّر لا جدوى منه .
الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : " ما ناقشت عالماً إلا غلبته ، ولا ناقشني جاهلٌ إلا غلبني " ، لأنه لا يفكّر .

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

فكأنَّ الله عزَّ وجل لم يرِدْ هذا القرآن لكل الناس ، هو لكل الناس ، ولكن لا يستفيد منه إلا من أعمل فكره في أمور معاده ، أما هذا الذي يعيش لحظته ، ويعيش وقته ، وهو مع الناس إن أحسن الناس أحسن ، وإن أساؤوا أساء ، فهذا الذي لا يعنيه إلا أن يكسب المال ، ولا يعنيه إلا أن ينغمس في الملذَّات ، وهو غافلٌ عن ساعة الرحيل ، عن ساعة نزول القبر ، وهذا الذي لا يفكّر ليس مؤهَّلاً أن يفهم هذا القرآن الكريم ، الذي هو تذكرةٌ لمن يخشى لا لكل الناس ، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((مَن منح الحكمة غير أهلها فقد ظلمها ، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم))

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

فإذا كنت ممن يفكّر فأنت ممن يخشى ، وإذا كنت ممن يخشى فهذا القرآن لك ، فاقرأه وتدبَّر آياته ..

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

ولذلك يقول الله عزَّ وجل في آياتٍ أخرى :

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى(9)سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى(10))

(سورة الأعلى)

هذا المفكّر يتذكّر ، ومن السُخْفِ بالمرء أن يستخدم هذا الفكر العظيم ، الذي هو أثمن شيءٍ في الوجود لأغراض رخيصة ، أو لأهداف خسيسة ، ولمطالب محتقرة ، فالله كرَّمك بهذا الفكر من أجل أن تعرفه به..

(إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)

أي يا أيها النبي الكريم لا تتعب نفسك مع هؤلاء الذين لا يفكّرون ، ولا تجهد نفسك معهم ، لأنه لا جدوى منهم ، ومن لم يفكّر فأنت لن تستطيع أن تؤثّر فيه ، ما دام قد عطّل تفكيره ، ولذلك فربنا عزَّ وجل قال :

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(26))

(سورة التكوير)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(32))

(سورة يونس)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

(قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(58))

(سورة غافر)

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا)

الذي أنزل القرآن هو الذي خلق الكون :

1 - بعض مظاهر الإعجاز العلمي في الكون :

فماذا أقول في هذه الآية ؟ هل نعلم ممن هذا الكتاب ؟ ومن عند مَنْ أتى ؟ من عند الذي خلق السماوات والأرض ، ماذا نعلم عن السماوات ؟

المجرّات :

ومن منا يصدِّق أن الرقم التقديري الأولي أن في الفضاء الخارجي ما يزيد على مليون مليون مجرَّة ، أي واحد أمام اثني عشر صفراً ، وفي المجرَّة والواحدة ما يزيد على مليون مليون نَجم ، وبعض هذه النجوم المعتدلة يزيد حجمها على حجم الأرض والشمس مع المسافة بينهما .

الشمس :

والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة ، أي أن الشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، وبين الشمس والأرض مئة وخمسون مليون كيلو متر يقطعها الضوء في ثماني دقائق ، وهذا الكوكب المتوسِّط في برج العقرب واسمه قلب العقرب .. يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، وأن بعض هذه المجرَّات يبعد عنَّا ستة عشرة ألف مليون سنة ضوئيَّة .

وأن الإنسان حينما اجترأ وقال : غزونا الفضاء ، ما قطع من الفضاء الخارجي إلا ثانية ضوئيَّة واحدة

، في حين أن بعض المجرَّات يزيد بعدها عنا عن ستَّة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة .
والذي خلق المجرَّات وخلق الأرض والسماوات هذا كلامه ، وهذا كتابه ، وهذا المنهج الذي ينبغي أن نسير عليه ، وهذا هو كتابنا وهادينا إليه ، فلذلك شرفُ الرسالة من شرف المُرسل ، فإذا كنت في الخدمة الإلزامية ، وجاءتك ورقةٌ من عريف ، لك موقفٌ منها ، فإن جاءتك من رقيب فلك موقفٌ آخر، فإن جاءتك من الملازم ، أو ممن هو أعلى ، فإن جاءتك من قائد الجيش ، وقد وُقِّعَتْ بالأخضر فلك موقفٌ آخر، فإن جاءك هذا الكتاب من ملك الملوك ، من خالق السماوات والأرض ، ممن بيده حياتك وموتُك ، ممن بيده كل شيء ، فما موقفك ؟ أتلقيه وراءك ظهرياً ؟

(إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا(30))

(سورة الفرقان)

شرف الرسالة من شرف المُرسل ..

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا)

القرآن مفتاحُ سعادتِنا :

والله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا عظمة هذا الكتاب ، ولو عرفنا تماماً أنه كلام رب العالمين ، وأن كل سورةٍ ، بل كل آيةٍ ، بل كل كلمةٍ ، بل كل حرفٍ ، بل كل حركة من حركات هذا القرآن مفتاحٌ لسعادتنا، ومنهجٌ لنا ، لكان أمرنا غير ما ترون ، آية واحدة :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور : من آية " 55 ")

كم يعاني الناس من مشكلات ؟ فلو أن الإنسان قرأ القرآن ، وأيقن أن هذا القرآن كلام الله عزَّ وجل ، وأنه لا محالة واقع ، فماذا يفعل ؟ وماذا ينتظر ؟ ..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل : من آية " 97 ")

ولو أن الإنسان قرأ القرآنَ ، وهو موقنٌ بأن هذا الكلام كلام الله رب العالمين ، وأن هذا الكلام حقٌّ لا مِرْيَةَ فيها ولا شكَّ فيه ..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت : من آية " 43 ")

ولو قرأ قوله تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

فلو ملكت الملايين ، أو طرت إلى السماء ، ولو فعلت الأفاعيل ، ما لم تكن مقبلاً على الله عزَّ وجل ، فهذا الإنسان أشقى الأشقياء ، وهذا كلام رب العالمين ، ولو قرأت قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

لاختلفت حياتك ، ولذلك فما هو أملك حيال هذه الآية ؟ هذا الكتاب..

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا)

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر : من آية " 21 ")

على جبل ، وبعض الناس يقرؤونه ، وهم ساهون لاهون ، يقرؤونه ولا يعملون بأحكامه ، لا يحِلُّون حلاله ، ولا يحرِّمون حرامه ، ولا يتعظون بأخباره ، ولا يخافون وعيده ، ولا يرجون وعده ، يقرؤونه تبرُّكاً ، أو يقرؤونه تعبُّداً ، وهم عنه غافلون .

و

((ربَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

و

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَن اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(سنن الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ)

(تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

معنى الاستواء بين مذهب السلف ومذهب الخلف :

سُئِلَ الإمام مالكٌ رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة " ، لأن هذا السؤال متعلّقٌ بذات الله عزَّ وجل ، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نفكِّر في مخلوقات الله ، أما التفكُّر في ذاته فقد يودي بنا إلى الهلاك ، على كلٍ فهناك مذهب الخلف ومذهب السلف في تفسير هذه الآية ..

السلف الصالح قال : " هذه الآية يجب أن نفهمها من غير تكييف.. أي كيف استوى على العرش ؟ ومن غير تحريف ، ومن غير تشبيه .. أي هل هو كالملك يجلس على كرسي العرش ؟ لا .. ومن غير تعطيل لهذه الآية ، ومن غير تمثيل "، لا تمثِّل ، ولا تعطِّل ، ولا تُشَبِّه ، ولا تحرِّف ، ولا تكيِّف ، هذا مذهب السلف الصالح في فهم هذه الآية .

وأما مذهب الخلف أيضاً فمذهبٌ مقبول ، الخلف يقولون : " هذه الآية كنايةٌ عن الاحتواء على المُلْك ، والأخذ بزمام الأمور كلِّها " ، أي أن الله سبحانه وتعالى محيطٌ بالكون ، والله سبحانه وتعالى بيده كل شيء ، وتوحيد الربوبيَّة في هذه الآية ، فهو الذي خلق ، وهو الذي أمدَّ ، وربَّي ، وأعطى ، ومنع ، وعَلا ، وقهَر ، وأخذ ، ورفع ، وخفض ، فكل شيءٍ بيده .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

استواءٌ بمعنى السيطرة والأخذ بزمام الأمور ، هو الواحد القهَّار .

لكنَّ الذي يجذب النظر أن الله سبحانه وتعالى لم يقل : الله على العرش استوى ، ولم يقل : القوي على العرش استوى ، ولم يقل : الغني على العرش استوى ، ولم يقل : الربُّ على العرش استوى ، بل قال :

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

سرُّ اقتران الاستواء باسم الرحمن :

فأقرب اسمٍ من أسماء الله الحُسنى اسم الرحمة ، فهذا الذي خلق الكون رحيم ، والذي يحرِّك الأجرام السماويَّة رحيم ، والذي يسوق الرياح رحيم ، والذي يُنْزِلُ الأمطار رحيم ، والذي بيده كل مخلوقٍ رحيم، أي اطمئن أيُّها الإنسان الأمور بيد الرحمن الرحيم ..

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

وشيءٌ آخر : هو أن الله سبحانه وتعالى رحمنٌ في ذاته ، رحيمٌ في أفعاله ، العرش هو المُلْك ..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران : من آية " 26 ")

وقد جاء في بعض الأحاديث القدسيَّة :

" أنا ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد عصوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسُخط والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بالملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم " .

هو ملك الملوك ، ومالك الملوك ، وبيده كل شيء صغاَرٌ كان أو كبيراً ، جليلاً كان أو حقيراً .

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

من لوازم الاستواء الملكية المطلة للكون خَلقا وتصرفا ومصيرا :

ومن لوازم الاستواء له ، هذه اللام لام الملكيَّة ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

ولا توجد آية شاملة شمول هذه الآية ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

قال العلماء : " له بمعنى أن ما في السماوات وما في الأرض تعود إليه مُلْكِيَّتها ، ويعود إليه التصرُّف فيها ، ويعود إليه مصيرها " ، وهذا أوسع أنواع الملكيَّة ، لأنك قد تملك بيتاً ، ولست تنتفع به ، فأنت مؤجِّره ، وقد تنتفع بالبيت ولا تملكه ، وقد تملكه وتنتفع به ، ولكن لا تدري أيصدر قرارٌ باستملاكه ؟ إذ ليس لك مصيره ، أما أن تملك الشيء وأن تكون حرّاً في التصرُّف فيه ، وأن يكون إليك مصيره ، فهذا أوسع أنواع المُلكيَّة ، فالعلماء حينما قالوا : له بمعنى له ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)

من النجوم ، والمجرَّات ، والكواكب ، والمذنَّبات ، والكازارات ، والثقوب السود في الفضاء الخارجي، هي أماكن ضغط عالٍ جداً في الفضاء الخارجي ، فلو دخلت الأرض أحد الثقوب السوداء .. دقّقوا في هذا الكلام .. لأصبح حجمها كحجم البيضة ، وبقي وزنها كما هي .. الأرض بأكملها .

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)

من ثقوب سود ، ومن كازارات ، ومن مجرَّات ، ومن نيازك ، ومن مذنَّبات ، ومن فضاء ، ربنا عزَّ وجل قال :

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75))

(سورة الواقعة)

المواقع وحدها ، هذه المسافات التي بين النجوم ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيَّة ، إذا أحب أحدكم ليلاً أن يتسلَّى بعد الدرس ، ضرب ثلاثمئة ألف كيلو متر ، وهذا ما يقطعه الضوء في ثانيةٍ واحدة ، ضربها بستين دقيقة ، ثم ضربها بستين فصارت ساعة ، ثم ضربها بثلاثمئة وخمسة وستين فصارت سنة ، ثم ضربها بستة عشر ألف مليون سنة فيظهر رقم يحتاج إلى كرار ، ولذلك فهذه المسافات البينيَّة بين النجوم لا يعلمها إلا الله ..

معنى : وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

قال : وما تحت الثرى هذه إشارةٌ دقيقةٌ جداً إلى أن تحت الثرى هناك الثروات ، والمعادن ، والفوسفات، والبترول ، ومناجم الحديد ، ومناجم الفحم ، ومناجم النحاس ، ومناجم المعادن الثمينة واليورانيوم ..

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

وأحياناً يقال لك : هذه صحراء ، ونظنُّها صحراء ، فإذا هي مستودعات للمعادن ، والفِلِزات ، والأشياء الثمينة التي لا يعلمها إلا الله .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

يعلمُ السِّرَّ وأخفى :

أي إن جهرت بالقول أو لم تجهر ، أو إن تنحَّيْتَ مع إنسانٍ إلى مكانٍ بعيدٍ عن الناس ، إلى أرضٍ خاليةٍ عنهم ، وأسررت له كلاماً فإن الله يعلم ذلك .

قصة وعبرة : سبحان الذي وسع سمعُه كلَّ شيء :

صفوان بن أميَّة أخذ عُمَيْر بن وهب إلى خارج مكَّة ، إلى الصحراء ، فقال له عمير : " والله لولا خشية العَنَتِ على أطفالٍ صغار ، ولولا ديونٌ ركبتني لذهبتُ إلى محمدٍ وقتلته وأرحتكم منه " ، شخصان لا يعلم بوجودهما إلا الله ، فقال له صفوان : " أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت فامض لما أردت .. اقتله وأرحنا منه .. " . فما كان من عمير إلا أن حمل سيفه وسقاه سمَّاً ، وجهَّز راحلته وتوجَّه إلى المدينة .
وفي المدينة رآه سيدنا عمر متنكِّباً سيفه فقال : " هذا عدو الله عُمَيْر جاء يريد شرَّاً " ، أخذ سيفه وقيَّده بحمَّالة السيف ، وقاده إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، الأمر كان بُعَيْد معركة بدر ، بمعنى مجيء عمير إلى المدينة مغطَّى بسبب فكِّ أخيه من الأسر ، فلمَّا دخل على النبي عليه الصلاة والسلام قال له النبي الكريم : " فكَّ أسره يا عمر " .. فكَّ قيده .. ففَكَّ قيده ، ثم قال : " ابتعد عنه " ، فابتعد عنه ، قال: " ادنُ مني يا عمير " .. تعال .. قال : " سلِّم علينا " قال : " عمت صباحاً يا محمَّد " ، قال : " سلِّم علينا بسلام الإسلام " ، فقال عمير : " لست بعيد عهدٍ بالجاهلية " .. هذا سلامي .. فقال له النبي الكريم: " يا عُمير ما الذي جاء بك إلينا ؟ " ، قال : " جئت أفكُّ أخي من قيد الأسر " ، قال : " وهذا السيف الذي على عاتقك لماذا جئت به؟!" ، قال : " قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟! " ، قال : " ألم تقل لصفوان : لولا ديونٌ ركبتني ، وأطفالٌ أخاف عليهم العنت لقتلت محمَّداً ، وأرحتكم منه؟" .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

فوقف عمير وقال : " أشهد أنَّك رسول الله ، والله الذي قلته ما علمه إلا الله وأنت رسوله " ، صار هذا دليلاً قطعيَّاً ، فصفوان امتلأ قلبه فرحاً ، لأنه بعد أيامٍ قليلة سيأتي النبأ السار ، وهو قتل محمد عليه

الصلاة والسلام ، فكان يقول للناس في مكَّة : " انتظروا أخباراً سارَّةً بعد أيَّام " ، مضى يومان وأربعة، وخمسة وستَّة ، ومضى أسبوع وآخر ، وهذه الأخبار السَّارة لم تصل إلى مكة ، فكان يخرج إلى ظاهر مكَّة ويسأل القوافل : "ماذا عندكم من أخبار ؟ وماذا حدث في المدينة ؟ " لم يحدث شيء ، " ما أخبار عمير ؟ " ، قيل له : " لقد أسلم " ..

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

تتكلَّم بصوت عال ، تتكلَّم هَمساً ، تأخذ أخاً ، أو تأخذ صديقاً إلى مكان خالٍ من الناس ، تُحْكِم إغلاق الأبواب ، وتُسِرُّ له في أذنه ..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

تفكِّر في نفسك ، تضمر نيَّة ، العلماء قالوا : " السِر ما كان بينك وبين إنسان ، والذي هو أخفى من السر ما كان بينك وبين نفسك"، وبعضهم قال : " لا ، السر ما كان بينك وبين نفسك ، وأما الأخفى فهو الذي يخفى عنك أنت " ، لا تعلمه ، لذلك قال سيدنا علي كرَّم الله وجهه : " علم ما كان ، وعلمَ ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون " .

قد يقول أحدكم : أنا بهذا الوضع مستقيم ، فلو معي ألف مليون الله أعلم ، يا ترى تبقى معنا في هذا المسجد ؟ لا نعرف ، من الذي يعرف ؟ الله عزَّ وجل ـ وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ـ ولهذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني .

الآية الأخيرة :

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

المنفرد بالألوهية :

الله اسم الذات صاحب الأسماء الحسنى ..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

الإله المُنْفَرِد بالتسيير ، والذي ينبغي أن تعبده وحده ، والذي يستحقُّ أن تعبده هو الله وحده ، والمنفرد بالتسيير هو الله وحده ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو)

أي ليس في الكون من إلهٍ إلا الله ، والإله هو الذي يسيِّر ، وهو الذي يُعْبَد بالمقابل ، يُعْبَد لأنه يسير ، ولأن الأمر كلَّه بيده إذاً ينبغي أن يُعْبَد ..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من آية " 123 ")

لماذا ينبغي أن تعبده ؟ لأن الأمر كلّه راجعٌ إليه ، وما دام الأمر راجعاً إليه في كل شيء إذاً ينبغي أن تعبده .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)

(سورة مريم : من آية " 65 ")

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(65))

(سورة مريم)

مشابهاً ، ندًّا ، كُفُؤاً ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

أسماء الله كلّها حسنى :

أسماؤه كلُّها حسنى ، وصفاته كلُّها فُضلى ، حتى ما يبدو لك ، الجبَّار ، المنتقم .. مثلاً .. المُعطي ، المانع ، هو يمنع ليُعطي ، فهناك خطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام يوضِّح ذلك ، قال :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي))

(ورد في الأثر)

إذا أخذ الله منك شيئاً ليعطيك أضعافاً مضاعفة ، يبتلي ليجزي ، ويمنع ليعطي ، الضار النافع ، يضرُّ لينفع ، فالإنسان الضال الله عزَّ وجل قد يضرُّه في صحَّته ، أو بماله ، فيتوب إليه ، فيستقيم على أمره فيسعد بقربه ، فالمعطي والمانع ، والخافض والرافع ، يخفض ليرفع ، والمعز والمذل ، يذل ليعز ، المتكبر يذلُّه الله عزَّ وجل ليخضع له ، فإذا خضع له أعزَّه ، وهكذا أسماء الله كلّها حسنى ، وصفاته كلُّها فُضلى ، ولكن اسأل به خبيرا، وربنا عزَّ وجل قال :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

لا تسمح لنفسك أن تفهم الاسم الإلهي لوحدك ، قد لا تفهم أبعاده ، فالعلماء قالوا : هناك أسماءٌ لله عزَّ وجل يجب أن تُذكَر مَثنى مثنى " المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل لأنه يذل ليعز ، ويمنع ليعطي، ويخفض ليرفع ، ويضر لينفع ، وقد يقهر عبده ، القهَّار ، هذا العبد متكبِّر فيقهره ليتوب ، وهكذا ..

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

وفي الدرس القادم إن شاء الله عزَّ وجل نبدأ بقصَّة سيدنا موسى ، وفي هذه السورة وردت بأطول روايةٍ لها ، فأطول قصَّة عن سيدنا موسى جاءت في هذه السورة ـ سورة طه ـ وسوف نستعين بالله عزَّ وجل على توضيح بعض المعاني .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 9 – 41
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثاني من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

قصة موسى عليه السلام :

وذكرنا أيضاً أن قصة موسى هذه أطول قصص سيدنا موسى في القرآن ، قصة سيدنا موسى في القرآن وردت سبع عشرة مرة ، هذه هي أطول روايةٍ لهذه القصة .

أقوال العلماء في مغزى تكرار قصة موسى عليه السلام :

القول الأول :

وعلماء التفسير قالوا : " إن الله سبحانه وتعالى أراد من خلال هذه القصة أن يبيِّن لنا أنه لا إله إلا الله، فالتوحيد إما أن يلقى إلقاءً مباشراً ، وإما أن يعرض على شكل قصة ، فهذه القصة مِن ألِفِها إلى يائها ، من خلال كل حوادثها ، تبين حقيقةً واحدة ألا وهي التوحيد " ،

القول الثاني :

وبعض علماء التفسير قال : " إن هذه القصة تبيِّن سَعَةَ علم الله سبحانه وتعالى " ، وبعضهم قالوا : " إنها تبين توحيد الألوهية ، وعلم الله في وقتٍ واحد " .

على كلٍ أيّ قصة لها مغزى ، فإذا لم نقف على المغزى فكأننا ما قرأنا القصة ، وليست القصة في أهدافها تبتغي أن تُمْتِع أسماعنا بحوادث ، وبمواقف ، وبعقده ، ليس هذا هو الهدف ، بل الهدف هو استنباط حقيقة من هذه القصة ، وإن هذه الحقيقة التي ينبغي أن تستنبط منها هو المغزى ، فالعلماء قالوا: " مغزى هذه القصة على طولها التوحيد " ، أي أن نعرف أنه لا إله إلا الله ، وبعضهم قال : " مغزاها أن نعلم أن الله يعلم"، وبعضهم قال : " التوحيد ، وعلم الله سبحانه وتعالى هما المغزى الأساسي لهذه القصة " .

القول الثالث :

وفريقٌ ثالث من العلماء جَهَدوا إلى أن هذه القصة إنما كانت تسليةً ومواساةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام إذا تَلا هذه القصة يرى أن هناك أنبياء آخرين سبقوه من أولي العزم ، أصابهم ما أصابهم ، إنهم تجشَّموا المشاق ، وركبوا الأهوال ، تركوا بلادهم ، ورحلوا إلى أماكن بعيدة ، ومشوا في القِفار ، أصابهم البرد والجوع والخوف ، ثم عادوا إلى مواجهة فرعون ، وكأن هذه القصة أراد الله منها أن يسلّي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن يواسيه ، وأن يخفف عنه ، وأن يشجِّعه ، وأن يجعل من هذا النبي سيدنا موسى الذي هو من أولي العزم مثلاً للصبر والدأب ونشر الحق .

مختصر قصة موسى عليه السلام :

كلكم يعلم أن هذا النبي العظيم كان في قصر فرعون ، وفي مكانٍ آخر ، خرج من هذا القصر ذات مرة ، فرأى رجلين يختصمان ، يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، أي تسبب في قتله ولم يقتله في نظر القانون إلا ، خطأً فهو يعاقب عقوبة القتل الخطأ ، لأنه التسبب في القتل ، ثم جاء من يبيِّن لهذا النبي الكريم أن هناك قوماً يأتمرون بك ليخرجوك ، فخرج من مصر باتجاه مَدْيَن ، وتروي كتب التاريخ أنه قد قطع ألفين وخمسمئة كيلو متر مشيا على قدميه ، من مصر إلى مدين ، قطع سيناء مُساحِلاً ، أي على خليج السويس وخليج العقبة ، ثم انتقل منهما إلى مدين في شمال الجزيرة العربية ، وكلكم يعلم في موطن آخر في القصص كيف أنه وجد امرأتين تذودان .. قال تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

وكيف تعرَّف إلى سيدنا شعيب ، وكيف تزوج ابنته ، ثم عاد إلى مصر بعد أن قضى الأجل ، أي رعى لسيدنا شعيب ثماني أو عشر سنوات ، ثم هو في طريقه مع أهله إلى مصر ، وكان الجو ماطراً وبارداً، وكان مع أهله في وادٍ موحش ، شعر بحاجةٍ ماسةٍ إلى نارٍ يصطلي بها هو وأهله ، وهنا بدأت القصة .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)

أي يا أيها النبي هل أتتك هذه القصة ، هل سمعت بها ؟ فاستمع إليها .

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً)

رجوع موسى عليه السلام إلى مصر :

وهو في الطريق مع أهله من بلاد مَدْيَن إلى أرض مصر ، والطريق طويل ، والبرد شديد ، والظلام دامس ، والخوف على أشده ..

(إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آَنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ)

القبس في اللغة جذوة النار ، وهو عودٌ مشتعل تأخذه من نارٍ مُضْرَمة.

(لَعَلِّي آَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

والعلماء قالوا : " كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو " ، أيْ أن الإنسان ليس له أن يحتقر شيئاً ، ولا أن يستصغره ، ولا يهمله ، ولا أن يهمل طلباً ، ولا عرضاً ، ولا مناسبة ، ولا فرصة ، فهذا النبي الكريم رأى ناراً فتوجَّه إليها ليأخذ منها قبساً ، فكانت المُناجاة مع الله سبحانه وتعالى..

(فَلَمَّا أَتَاهَا)

أي أتى النار ليأخذ منها قبساً يصطلي بها هو وأهله ..

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى)

تكليم الله لموسى عليه السلام :

ولذلك فسيدنا موسى هو كليم الله ، خاطبه الله سبحانه وتعالى ..

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

طبعاً هذه الآيات فسرها المفسرون بطرق عدة ..

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

ربنا سبحانه وتعالى استخدم في هذه الآية الضمير المُفْرَد ، لم يقل : ضع ، على ما يجري في القرآن إننا ..

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(1))

(سورة الكوثر)

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة غافر : من آية " 51 ")

لا ، قال :

(إِنِّي)

العلماء قالوا : " حيثما كان الحديث عن ذات الله استخدم الله ضمير المتكلم المفرد ، وحيثما كان الحديث عن أفعال الله استخدم الله ضمير الجمع ، لأن فعل الله فيه الرحمة ، وفيه القدرة ، وفيه الغنى ، وفيه اللطف ، وفيه الحكمة ، وفيه الحنان ، أسماء الله الحسنى كلها داخلةٌ في أفعاله " ، أما الحديث عن ذاته فغالباً ما يستخدم ضمير المتكلّم المفرد.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

أنا ربُّك الأعلى

أقرب الأسماء الحُسنى إلينا الرب ، لأنه مُرَبِّينا ، خلقنا ، وأمدنا بالطعام والشراب ، والهواء ، والأهل، والأولاد ، وأعطانا كل ما في الأرض ، وسخَّر لنا كل ما في السماوات والأرض ، إنه ربنا ، أمدنا بأنواره ، وتجلياته ، وربَّانا في طريق الإيمان ، وخوَّفنا تارةً ، وطمأننا تارةً أخرى ، وأعطانا ومنعنا ، ورفعنا وخفضنا ، وأعزنا وأذلنا ، وهذه كلها تربية من الله عزَّ وجل ، فالإنسان مرةً يرفعه الله ، ويمتحنه بهذه الرفعة ، فإذا أساء استخدامها خفضه ، يمتحنه بالمال ، فإذا أنفقه على شهواته حرمه ، ويمتحنه بالزوجة فإذا نسي معها ذكر الله عَقَّهُ ، ويمتحنه بالأولاد ، فربنا سبحانه وتعالى كل شيءٍ يعطيك إيَّاه محض امتحانٍ وابتلاء .

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

وما حنان الأم ، وما حَدَبُ الأب ، وما رعاية الأهل إلا طرفٌ يسيرٌ ، ونقطةٌ من بحر من رحمة الله سبحانه وتعالى ، ومن عنايته ، ومن تربيته ، ومن إمداده ، فأقرب أسماء الله الحسنى إلينا اسم الرب لأنه يربينا ، ويُعطي ويمنع ، ويرفع ويخفض ، ويعز ويذل ، ويغني ويفقر ، ويكرِّم ويهين .

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(48))

(سورة النجم)

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(43))

(سورة النجم)

أحياناً يضحك الإنسان ، ومعنى أنه يضحك ، أي الله عزَّ وجل أنعم عليه براحة البال ، وأصلح له باله.

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5))

(سورة محمد)

فلو أنه أسمعه خبراً مؤلماً ، أو أراه شبحَ مصيبة خطيراً لجعل ضحكه بكاءً ، فإذا ضحكت فبفضل الله ونعمته .

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(43))

(سورة النجم)

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(48))

(سورة النجم)

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ)

تفسير : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ

التفسير الأول :

بعض المفسرين فسرَّ هذه الآية : أي دع حظ الدنيا من نفسك ، دع حظوظ الدنيا ، أي أعرض عن الدنيا بكل ما فيها ، وكأن الدنيا شيء تافه لا قيمة لها " ، " الدنيا جيفة ، وطلابها كلابها ، الدنيا دار من لا دار له ، ولها يسعى من لا عقل له " ، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً " ، " ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر " ، والنبي عليه الصلاة والسلام مر في طريقه مع أصحابه على شاةٍ ميتة متفسخة ، جيفة ، قال :

((انظروا كم هي هينة على أهلها ، للدنيا أهون عل الله من هذه الشاة على أهلها))

وقال عليه الصلاة والسلام :

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(من سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

لذلك :

(فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

ما هو الوادي المقدس ؟

المعنى الأول :

هذا الوادي وادٍ مقدس لأنه تمَّت فيه المناجاة .

المعنى الثاني :

وهناك معنىً آخر ، أي إن هذا النبي العظيم في مسلكٍ مقدس ، أو في همٍ مقدَّس ، أو في طموحٍ مقدس، وأهدافٍ مقدسة ، وغاياتٍ مقدسة ، ومشاغل مقدسة ، إذ هناك مشاغل تافهة ، وأهداف تافهة ،

وأعمال تافهة ، وطموحات تافهة :

((إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّس)

تشبه هذه الآية :

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(7))

(سورة النجم)

النبي عليه الصلاة والسلام كان في آفاق مقدسةٍ غير هذه الآفاق .

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

وطُوى اسم هذا الوادي ، أي وادي المناجاة ، أي أن هؤلاء الأنبياء العظام لسمو مكانتهم عند الله عزَّ وجل ، ولمحبَّتهم ، ولإقبالهم ، ولفنائهم في حب الله ، استحقوا أن يناجيهم الله عزَّ وجل .

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)

اصطفاء الله للأنبياء :

اخترتك ، أي اصطفيتك ، أو انتقيتك من بين عبادي جميعاً لتكون رسولاً لي .

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)

وإذا اختار الله سبحانه وتعالى نبياً عظيماً فلابدَّ أن يكون هذا النبي قمة في الكمال ، وأية قصةٍ أيها الإخوة تخدش من كمال الأنبياء فهي قصة مرفوضة ، لأن الله اختارهم على عِلم ، واصطفاهم على العالمين ، ولو أن في أخلاق الأنبياء خدشاً أو نقصاً كما تروي بعض الكتب المقدَّسة الأخرى ؛ أن هذا النبي شرب الخمر ، وأن هذا النبي فعل كذا وكذا بابنتيه ، وأن هذا وهذا ، ولو أن في أخلاق الأنبياء انحرافاً أو خدشاً لما كان اختيارهم حسناً ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي اصطفاهم ، وهو الذي اختارهم ، وأكرمهم ، ورفعهم ، إذاً من لوازم العقيدة الصحيحة أن تؤمن بعصمة الأنبياء .

إنهم معصومون في التبليغ ، ومعصومون في أقوالهم ، وأعمالهم، ومعصومون عن أن يعصوا الله سبحانه وتعالى ، وكل شيءٍ رابك أمرُه فاسأل أهل الذكر ، هكذا قال الله عزَّ وجل :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)

فاستمعْ لِمَا يُوحَى

والحقيقة أن الإنسان إذا طمِحَ أن يكون خادماً للخلق ، حبيباً للحق ، وإذا طمح أن يكون مفتاحاً للخير ، ومغلاقاً للشر ، وأن يجعل الله هدى الناس على يديه ، وأن يكون مِشْعَلاً يضيء للناس طريقهم ، وإذا طمح أن يكون كذلك فهناك امتحاناتٌ قاسية وشروطٌ صعبة ، منها أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة : من آية " 24 ")

من صفات الدعاة إلى الله الواجب توفرها فيهم :

1 – الصبر :

فيجب أن تصبر ، أن تصبر عن الشهوة ، وعلى الطاعة ، وعن المعصية ، وأن تكون مطيعاً لله عزَّ وجل فيما تعلم ، وفيما لا تعلم ، وفيما تعرف حكمته ، وفيما تجهلها ، وفي السرَّاء والضرَّاء ، وفي الرخاء والشدة ، وفي إقبال الدنيا وإدبارها ..

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة : من آية " 124 ")

من هذه الشروط قال :

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

2 – العفة عن أموال الناس :

فيجب أن تعف عن أموال الناس ، قليلها وكثيرها ، جليلها وحقيرها ، ويجب أن تجعل من دعوتك عملاً خالصاً لوجه الله عزَّ وجل ، فلا تسأل وجاهة ، ولا مكانة ، ولا شيئاً معنوياً أو مادياً .

3 – تبليغ الدعوة كاملة :

من هذه الشروط فيجب أن تكون جريئاً في إلقاء الموعظة وفي قول الحق ، لقوله تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب : من آية " 39 ")

4 – الدعوة عن علم وبصيرة :

يجب أن تدعوَ الناس على بصيرة ، وأن تأتي بالدليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، إذا كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مبتدعاً فالدليل :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف : من آية " 108 ")

5 – إظهار عظمة الله عزوجل :

وهكذا ينبغي أن تكون ، ويجب أن تظهر للناس كمال الله عزَّ وجل ، وعدالته ، ورحمته ، وحكمته ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران : من آية " 18 ")

6 – التواضع للناس :

ويجب أن تكون متواضعاً للناس ، لمن تعلّم :

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

ولا ينبغي أن تطالب الناس أن يكونوا متواضعين لك ، بل ينبغي أن تكون أنت قدوةً لهم في تواضعك..

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

وهذه الشروط التي إذا نَجَحْتَ فيها تستحق أن تكون بشكلٍ متواضع جداً مشعلاً وضَّاءً ، نبراساً في طريق الهدى وطريق الإيمان ، لذلك ..

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)

فلن يختار الله سبحانه وتعالى من يدعو إليه إلا إذا اجتاز امتحاناتٍ قاسية ، فعلِمَ اللهُ صدْقَه ، وعلِمَ زهده ، وعفّته ، وشرفه ، واستقامته ، وإخلاصه ..

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

ملخّص الأديان السماوية : إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ

فإذا أردت أن تلخِّص الأديان السماوية كلها في كلمات ، وأن تلخص كل هذا القرآن في كلمة ..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة فصلت : من آية " 6 ")

فهذا القرآن الكريم كله ، وهذا الدين الإسلامي كلُّه ، الديانات السماوية كلها إنما تتلخص في كلمةٍ واحدة ..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أي أن ليس في الكون إلا حقيقةٌ واحدة ، وهي الله سبحانه وتعالى ، فكل شيءٍ يؤدِّي إلى هذه الحقيقة ، استقامةً ، وتقرُّباً ، ومعرفةً فهو الحق ، وكل شيءٍ يبعد عن هذه الحقيقة إنكاراً ، أو معصيةً ، أو جحوداً فهو الباطل ، وكل شيءٍ يؤدي إلى مزيدٍ من الاتصال بالله سبحانه وتعالى فهو الحق .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

لا نافع ، ولا ضار ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا رازق، ولا قابض ، ولا باسط ، ولا مكرم ، ولا مهين ، ولا محيي ، ولا مميت ، ولا مغني ، ولا مفقر إلا الله..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

فإما أن تعرف هذه الحقيقة ، وإما أن تجهلها ، فإذا جهلتها كان الهلاك والدمار والشقاء .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

هذه هي الحقيقة ، فما الموقف الذي يجب أن تقفه منها ؟

(فَاعْبُدْنِي)

إذا كنت في أشدِّ الحاجة إلى الماء ، وعلى وشك الهلاك ، ورأيت النبع ، فماذا ينبغي أن تفعل ؟ ينبغي أن تذهب إليه ، ولذلك أخطر شيءٍ في الدين أن يبقى على مستوى الفكر ، وأن يبقى الدين ثقافةً ، أو قناعات ، وتصوُّرات ، ومفاهيم ، وكتباً مجلَّدة تقرأها ، وتعجب بها ، وتتكلم بها ، وتتبجح ، لا ، الدين مواقف ، والدين عبادة يجب أن تعبده ، وأن تعرفه أولاً ، وأن تعبده ثانياً ، تعرفه بالكون ، وتعبده بالشريعة ، يجب أن تكون فقيهاً حتى تعرف كيف تعبده ، وهذه آية دقيقة جداً لخَّصت الأديان كلها ، ولخصت جوهر الدين ..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

الحكمة من عطف الصلاة على العبادة :

الصلاة أبرزُ العبادات :

وهنا سؤال : أليست الصلاة من العبادة ؟ نعم ، فلماذا خُصَّت بالذكر مع العبادة ؟ ألا تعني العبادة إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان ؟ فقال علماء التفسير : " إنما خُصَّتِ الصلاة بذكرٍ منفصلٍ عن العبادة لأنها أبرزُ ما في العبادة .

((الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

(الجامع الصغير عن عمر بسند ضعيف)

إن أبرز ما في العبادة أداء الصلاة ، فالصلاة من أجل الصلاة ، والصيام من أجل الصلاة ، والحج من أجل الصلاة ، والزكاة من أجل الصلاة ، والأوامر التفصيلية ؛ غض البصر من أجل الصلاة ، وعدم أكل الربا من أجل الصلاة ، وعدم الغَبْن في البيع من أجل الصلاة ، كل الأوامر والنواهي إنما يفعلها الإنسان من أجل أن يبقي الطريق بينه وبين الله سالكاً ، فأية معصيةٍ ، أو أية مخالفةٍ من شأنها أن تكون عقبة كؤودًا بين العبد وبين ربه .

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

معنى الذكر في الآية :

والعلماء قالوا : " الذِكر هنا ، الصلاة فيها ذكرٌ لله عزَّ وجل ، وفيها قراءة الفاتحة ، والتسبيح ، والتعظيم ، والثناء ، والحمد ، وتلاوة القرآن ، فالصلاة ذكرٌ لله عزَّ وجل ، ومعنى آخر للذكر هو أن يكون هذا الذكر خالصاً لوجه الله عزَّ وجل ، لا أن تذكر مع الله أحداً ، وأن تذكره بإخلاص ، ومعنى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أن تذكره ، ولا تذكر شريكاً له ، ومعنى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

أن تذكره ، ولا تنساه ، قال موسى : " يا رب كيف أشكرك يا رب " ، فقال الله عزَّ وجل : " يا موسى إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإذا نسيتني كفرتني " ، تذكرني ولا تناسني ، من أجل أن تشكرني يجب أن تذكرني ، ولا تنساني ..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في كتاب الله عزَّ وجل إلا هذه الآية لكفت ، هذا الدين كله ..

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

الحكمة من إخفاء يوم القيامة :

وهنا سؤال دقيق : لماذا تعلّقت إرادةُ ربنا سبحانه وتعالى أن يخفي الساعة عن الناس ؟ لِمَ لمْ تكن الساعة جليةً ظاهرة ؟ ولِمَ لمْ تكن ساطعة كالشمس ؟ ولِمَ أخفاها الله عن الناس ؟ ومعنى أخفاها أن الإنسان أحياناً ينسى الموت ، ويحس بقوةٍ في عضلاته ، وبأملٍ في حياته ، ويظن أنه لن يموت ، وينسى الموت ، ويظن أن هذه الحياة لا تنتهي ، فهي مديدة ، ولن يموت ، إذ هكذا يتوهَّم ، فلماذا جعل ربنا سبحانه وتعالى جعل هذه الساعة التي هي آتية ولابدَّ ، والتي لا ريب فيها ، ولماذا أراد الله عزَّ وجل أن تكون خافيةً بعض الشيء ؟ فالإنسان أحياناً يصادف جنازةً ، فلو فكر بهذه الجنازة ، من في هذا النعش ؟ فيها إنسان ، كان البارحة ملء السمع والبصر ، وكان البارحة يسهر، ويضحك ، ويتكلم ، ويقول : سأذهب إلى المكان الفلاني في هذا الصيف ، وكان قبل ساعة يجمع أمواله ، ويُتابع هذا المسلسل ، فإذا هو الآن جثةٌ في نعش ، يتبع الجنازة ، وإذا هذا الإنسان يوضع في حفرة ، ويطمر فوقه التراب ، شيءٌ مخيف ..

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

وأصعب ليلةٍ يمضيها الإنسان هي أول ليلةٍ في قبره ، يقول الله عزَّ وجل : " عبدي رجعوا ، وتركوك، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت " .

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

لماذا يا رب تكاد تخفيها ؟ جاء الجواب :

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى

فمثلاً لو أنك صاحب محلٍ تجاري ، وأنت جالسٌ وراء الطاولة ، ولم تغادر هذه الطاولة التي فيها المال لحظة واحدة ، فهذا الصانع الذي أمامك يا ترى أهو أمينٌ أم خائن ؟ ما كان لك أن تعرفه ، ما دمت وراء الطاولة ، والمال تحت مراقبتك ، وأنت مهيمنٌ عليه ، وكيف تقول : هذا الصانع أمين أم خائن ؟ لم يُتَح لك أن تكشف عن أمانته أو خيانته ، إنك إذا تغافلت عنه قليلاً ، وخرجت من المحل إلى محلٍ مقابل ، وكانت عينك ترعى محلك التجاري ، وراقبت هذا الصانع كيف يبيع ويشتري ، هل يضع

هذا المال في الدرج أم يضعه في جيبه ؟ إنك إن تغافلت عنه تمتحن أمانته ، وتعرف أخلاقه ، فما كان لهذا الإنسان أن ينكشف على حقيقته لولا أنك تغافلت عنه ، ولذلك فالإنسان أحياناً يسيء حتى يظن أن الله غافلٌ عنه ، وكأن دابة لها حبلٌ مُرْخى تظن أنها طليقة ، ولكنها ليست بطليقة ، إنه في اللحظة المناسبة يشد الحبل فإذا هي في قبضة صاحبها ، لذلك :

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

وأحياناً يأتي الموت فجأةً ، وهذا الإنسان خطّط أن يمضي هذا الصيف في هذا المكان ، وهذا الشتاء في هذا المكان ، ومخطط لرحلات ممتعة ، ولسهرات عامرة ، وليالٍ حمر ، وموائد خضر ، فإذا بالموت على الأبواب ، ولذلك :

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

ولابدَّ أن تُكْشَفَ النفس على حقيقتها ، ولابدَّ أن تمتحن ، أن تُبْتَلى ، وأن يفتن الإنسان .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الدنيا دار ابتلاء ، والآخرة دار جزاء ، والدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف ، والدنيا دار عمل ، والآخرة دار إكرام ..

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

الحظوظ في الدنيا موزعةٌ توزيع ابتلاء ، وسوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

متى ينجح الطالب في الامتحان نجاحاً باهراً ؟ إذا كانت صورة الامتحان في ذهنه طوال العام الدراسي، وما دام يذكر هذه الساعة الحرجة ؛ ساعة الامتحان فأغلب الظن أنه سوف ينجح ، وما دام الإنسان في الدنيا يغفل عن ساعة الموت ، ولا يحسب لها حساباً ، ولا يعبأ لها ، ويُمَنِّي نفسه ببعض الأمنيات ، ويقول : هذا الحديث ليس له لزوم الآن ، إذا هرب من هذه الحقيقة فكأنه كالنعامة يغمس رأسه في الرمل ..

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

نصيحة ربّانية : فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا

نصيحة ربانية ، أيها المؤمن الكريم لا تستمع إلى إنسانٍ كافرٍ بهذا الدين ، كافرٍ بيوم القيامة ، والبعث ، والجنَّة ، والنار ، وبهذا الكتاب ، لا تُلق إليه سمعك ، ولا تصغ إليه ، ولا تصدقه ، ولا تهتم بكلامه .

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

التلازم بين الكفر باليوم الآخر واتباع الهوى :

وأروع ما في هذه الآية أن هناك تلازماً دقيقاً بين الذي لا يؤمن باليوم الآخر ، والذي يتَّبع الهوى ، فمن لم يؤمن باليوم الآخر لابدَّ أن يتبع الهوى ، ومن آمن باليوم الآخر يتبع الحق ، والحق أحق أن يُتَّبَع، فإما أن تقود نفسك إلى الحق ، وإما أن تقودك إلى الهاوية ، وإما أن تكون سيِّداً لنفسك ، وإما أن تكون هي سيدةً لها ، فإما أن تقودك ، وإما أن تقودها ، إما أن تتحكم فيها ، وإما أن تتحكم فيك ، ولذلك فالعاقل يقود نفسه نحو الحق ، والغافل تقوده نفسه نحو الباطل ، والهوى ..

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

فتسقط ، فتهلك ، فتنتهي ، فتشقى .

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

حلاوة المناجاة :

سؤال : رب العزة يناجي هذا النبي الكريم ، يسأله ، يا رب ؛ كيف تسأله وأنت الإله العظيم ، تعلم السر وأخفى ؟ تسأله عن هذه التي بيمينه ؟ هذا النبي الكريم حينما سأله رب العزة :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

رآها مناسبة ، مناسبة العمر أن يناجي الله عزَّ وجل ، فقال :

(قَالَ هِيَ عَصَايَ)

يبدو أنه ذاق حلاوة المُناجاة ..

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

هذا في البلاغة اسمه إطناب ..

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

ذاق من حلاوة المناجاة فأطال الخطاب ، عندها شعر بالخجل ؛ لعلني أطلت ،وأطنبت ، وتكلمت فوق الحد المسموح به ، فقال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

فإن كان الله سبحانه وتعالى يريد أن أتابع حديثي يقول له : يا موسى ما هذه المآرب الأخرى ، حدثني عنها ، قال :

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

فالله سبحانه وتعالى أراد من هذا السؤال أن يلفت نظره إلى أن هذه التي بيدك ما هي ؟ تأمل بها إنها عصا ، تأكَّد أنها عصا ، لأنها بعد قليلٍ سوف تكون هذا العصا آية كبرى للناس ، قال :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

معنى أهشّ :

المعنى الأول :

معنى أهش بها على غنمي قال بعضهم : " أي أضرب ورق الشجر ليسقط فتأكله الغنم " .

المعنى الثاني :

وبعضهم قال : " أضعها على ظهور غنمي كي أوجِّهها نحو الهدف المطلوب " ، ومن بلاغة القرآن ليس هناك كلمة أدق من هذه الكلمة ..

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى)

رب العزة يقول :

(أَلْقِهَا)

(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

والله سبحانه وتعالى ما أراد أن يخيفه ، ولكن أراد أن يعرِّفه بهذه المعجزة ، فقال :

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)

بمجرد أن تمسكها تعود عصًا ..

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

هذه حلاوة المناجاة ، ولذلك يروى أن مؤمناً وقع في غفلة ، أو وقع في مخالفة ، فظن أنه لابدَّ أن يعاقبه الله عزَّ وجل ، ولابدَّ أن يسوق له بعض المصائب تنبيهاً له لهذه الغفلة ، فانتظر أياماً عِدَّة ، والأمور تجري على شكلٍ طبيعي ، ففي الصلاة ناجى ربه فقال : " يا رب قد عصيتك فلم تعاقبني " ، فوقع في قلبه : " أن عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ، ألم أحرمك لذة مناجاتي " ، ألم يكفك عقوبة أنك وقعت في هذه الجفوة .

فهذا النبي الكريم حينما ناجى ربنا سبحانه وتعالى بماذا شعر ، إنك إن خاطبت إنساناً يبدو لك عظيماً تبقى أشهراً تستمتع بهذا الخطاب ، وهذا اللقاء ، ولهذا الحديث ، تقول : أدرت معه حديثاً ممتعاً ، فكيف إن كان الحديث مع الله سبحانه وتعالى ؟ .

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

جاء لقبس من نار فوجد قبسا من نور :

لقد جاء إلى هذا المكان ليأخذ قَبَسَاً من النار ، لذلك : كن لِما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فإذا دعاك إنسان إلى عمل صالح ، قد يكون الهدى في هذا العمل الصالح ، وإذا دعاك إنسان إلى بيته ، فلبِّ هذه الدعوة ، لعلك بهذه الدعوة تنقذ إنساناً من الضلال ، وأنت لا تعرف .

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ)

معجزة العصا واليد البيضاء :

ضع يدك تحت إبطك ..

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آَيَةً أُخْرَى)

منيرة ، مضيئة من دون بطارية .

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

منيرةً ، مضيئةً ، وهَّاجةً ، من غير سوءٍ ، وألمٍ ، وغيرِ أذى .

(آَيَةً أُخْرَى)

العصا آية ، وأن تخرج هذه اليد للناس وضَّاءةً ، منيرةً ، متألقة ..

(آَيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آَيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

تجاوز الحَد ، تجاوز حد العبودية ، فادعى الربوبية ، وتجاوز الحد المعقول ، وخرج عن دائرة القبول ، تجاوز الحد البشري ، تجاوز الحدود التي يجب أن يقف عندها الإنسان ، رحم الله عبداً عرف حده

فوقف عنده ، قال :

(قالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)

(سورة الزخرف : من آية " 51 ")

(فَقالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغَى)

يا رب ؛ كل شيء إلا فرعون هذا ، فأنا كنت عندهم ، وقتلت منهم رجلاً قبطياً ، وأنا مُلاحق ، فكيف أذهب إليه يا ربّ ؟ هذه قضية صعبة..

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغَى * قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

(اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي :

الإنسان أحياناً ربما لا ينشرح صدره لعملٍ ، مع أنه قادرٌ على إتمامه ، وقد ينشرح صدره لعملٍ ، وليس قادراً على إتمامه ، هذا التلازم ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

ولذلك فإذا أقدم الإنسان على عمل ينبغي أن يدعو الله فيقول : اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وما توفيقي إلا بالله ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

وهكذا ينبغي أن تدعو الله سبحانه وتعالى ؛ قبل أن تقدم على سفر ، وقبل أن تقدم على زواج ، وعلى عمل ، وعلى مشروع ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

قبل أن تقابل إنساناً مهماً ..

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

أدخلني مدخل صدقٍ ، وأخرجني مخرج صدق .

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

اتخاذ الأسباب وطلب الإعانة :

فكان سيدنا موسى عنده حبسة في اللسان ، وكان أخوه هارون أفصح منه ، ولكن يبدو أن قلب موسى أفصح من قلب هارون ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى جعل الرسالة في موسى ، ولم يجعلها في هارون، وهذه الآية دليل قطعي على أن الفصاحة وحدها لا قيمة لها ، فإذا أوتيت لساناً طليقاً ذرباً ، فصيحاً ، من دون قلبٍ كبير ، ومن دون قلبٍ مُفْعَمٍ بمحبة الله عزَّ وجل ، ومعرفةٍ بالله ، فهذه فصاحة لا قيمة لها.

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي)

أيْ إنساناً يعاونني ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة : من آية " 2 ")

تعاونوا ، وقال العلماء : " البر صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة".

(وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)

نتعاون معاً على هذه الرسالة ..

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً)

للناس ..

(وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (34)إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

فهذا النبي العظيم ؛ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام دعا ربه أن يشرح له صدره، وأن ييسر له أمره ، وأن يحلَّ عقدةً من لسانه ، ثم يدعو ويقول :

(يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي)

وزيرًا ، أي معيناً ..

(هَارُونَ أَخِي)

وكان نبياً ..

(اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

دعاء المؤمن مبنيٌّ على علمٍ بالله عزَّ وجل :

هذا الدعاء معقول ، دعاء المؤمن مبنيٌّ على علمٍ بالله عزَّ وجل ، لذلك أغلب الظن أن المؤمن إذا دعا الله عزَّ وجل يدعوه لشيءٍ عظيم ، والله سبحانه وتعالى يستجيب له ، قال :

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

أجبنا دعوتك ..

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)

هنا نقطة دقيقة جداً ، هو أن الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بفضلٍ كبير من دون أن يدعوه من قبل ، فلأن يَمُنَّ عليه الآن بفضلٍ وقد دعاه فمن باب أولى ..

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

من إعجاز القرآن : رجوع آخر القصة على أولها :

عناية الله بموسى عليه السلام الطفل الرضيع :

طبعاً فرعون بلغه أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه ، ولذلك أصدر أمراً بقتل جميع أطفال بني إسرائيل ، وكانت الأم إذا أنجبت مولوداً تأتيها الصاعقة ، لأن ابنها لابدَّ أن يذبح ..

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

فهنا الوحي وحي إلهام ، ألهمنا أمك ..

(أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ)

ضعيه في صندوق ..

(فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ)

في البحر ..

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ)

في هذه الآية إشارةً رائعة ، من الذي يلقيه بالساحل ؟ إنه اليم ، فهل اليم عاقل ؟ لقد أراد الله عزَّ وجل أن يعرفنا أن كل شيءٍ خلقه هو بإمرته ، فهذه المياه ، وهذه الأمواج هي بقدرة الله عزَّ وجل ، فهذه مأمورةٌ أن تلقي هذا الصندوق بساحل قصر فرعون ، فإذا كان الصندوق على سطح الماء يتحرَّك بإذن الله ، فتحرُّكُ الناس من باب أولى ، لذلك لا إله إلا الله ، وكما قال سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي)

أي فرعون ..

(وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

فما معنى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

مِن حفظِ الله لموسى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي :

أي ما رآك أحدٌ إلا أحبك ، فامرأة فرعون لما رأته أحبته ، وفرعون أحبه ..

***

فموسى الذي رباه جبريل كافرٌ وموسى الذي رباه فرعون مرسلٌ

فموسى الذي رباه جبريل كافرٌ ، فهذا هو موسى السامري ، إذا رباه الوحي ، وموسى الذي رباه فرعون مرسلٌ ، أي سيدنا موسى .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

ينادَى لـه في الكون أنَّا نحبـه فيسمع مَن في الكون أمر محبنا

* * *

إذا ألقى الله عليك محبة أحبك الناس جميعاً ، وإذا كنت محبوباً من الناس جميعاً فإيَّاك أن تتوهَّم أنك طيِّب ، فهذه محبة الله ألقاها علي ، ولو نزعها عنك لأبغضك الناس جميعاً ، فإذا دعا الإنسان ربه فليدعه أن يلقي عليه محبة منه ، وإذا أحب الله عبداً أحبه خلقه جميعاً .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

مِن حفظِ الله لموسى : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي :

أي بصدقك ، ومحبتك ، وإخلاصك ، وذوبانك في طاعتي ، واصطنعتك لنفسي ، أي هيَّأتك تهيئةً خاصة ، وأعددتك إعداداً خاصاً ، فجعلتك موطن عنايتي ، ورعايتي ، وإكرامي ، وجعلت قلبك يتسِّع لعلمي .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

فلما التقطه آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأبوا ، ولم يكن هناك إرضاع صناعي ، فأبوا ، فما من مرضعةٍ عرضتْ نفسها على هذا الطفل إلا أبى أن يلتقم ثديها ، فالطفل أيضاً بيد الله عزَّ وجل ..

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً)

مِن حفظِ الله لموسى : وَحَرّمْنا عليه المرَضِعَ :

وبطريقةٍ لطيفة استرقت أخته التي تتبعته ، فقصَّت أثره ، وقالت لأهل بيت فرعون : هل أدلكم على من يكفله ؟ طبعاً دَلَّتْهُم على أمه ، فلما جاؤوه بأمه التقم ثديها ، فاطمأنت أمُّه ، فقد كانت تخاف أن يموت ، فإذا هي ترضعه في قصر فرعون ، فإذا أحبك الله سخَّر لك عدوك لخدمتك .

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً)

القبطي ..

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع الحديث عن هذه القصة التي ذكرها الله عزَّ وجل لتكون موعظة لنا .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس الثالث من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)

الحكمة من عدم وقوع المعجزة أمام الملإ :

أولاً : هذا النبي الكريم .. سيدنا موسى عليه وعلى نبيِّنا أتم الصلاة والتسليم .. يجب أن يعلم هو قبْلَ غيره أنه نبي ، فحينما أمره الله عزَّ وجل أن يلقي العصا التي بيده فصارت حيَّةً تسعى ، فهذه معجزة ، قد يقول قائل : لِمَن ؟ هذه أولاً لسيدنا موسى ، ليعلم سيدنا موسى أنه نبيٌّ مُرْسَل ، وأن هذه معجزة أيَّده الله بها لتكون حُجَّةً له على الذين يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد يسأل سائل : لماذا كانت هذه المعجزة فيما بين موسى وبين ربِّه ، ولم تكن أمام الملأ ؟ هذه أولاً ليتعرَّف النبي بشكلٍ قطعي أنه نبيٌّ مُرْسَل ، وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه جبريل في غار حِراء ، عرف النبي يقيناً أنه نبي وأنه مُرْسَل .

من فقه الفتوى : جواز إجابة السائل بأكثر مما سأل :

وشيءٌ آخر : استنبط العلماء من هذا ، حينما سأل الله عزَّ وجل نبيَّه فقال :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

فإذا كان الجواب على قدر السؤال ينبغي أن يقول : هي عصاً ، فلمَّا قال :

(هِيَ عَصَايَ)

نسبها إلى نفسه .. فاستنبط بعض العلماء أنه يجوز أن يكون الجواب أكبر من السؤال ، أو أطول ، أو أوسع ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عن البحر فقال عليه الصلاة والسلام :

((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ))

(من سنن الترمذي عن أبي هريرة)

فالنبي عليه الصلاة والسلام أجاب أكثر من السؤال ، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن هذا النبي الكريم أراد أن يطيل المُناجاة مع الله عزَّ وجل لما في هذه المناجاة من سعادةٍ لا توصف ، فقال :

(هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

وكيف أنه قد شعر لعلّه أطال ، وأساء الأدب ، فقال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

فإذا كان الله يحبُّ أن يتابع نبيُّه الحديث والحوار والكلام يقول له : وما هذه المآرب الأخرى يا موسى؟ على كلٍ كانت الحكمة من هذا السؤال أن يُلْفِتَ الله نظر سيدنا موسى إلى أن هذه التي بيده هي عصاه ، أنها بعد قليلٍ سوف تكون حَيَّةً تسعى ، لتكون المفارقة حادَّةً بين ماضي هذه الحيَّة ، وبين حاضرها . لذلك تَروي كتب الأدب أن الحجَّاج لقي أعرابيًّا فقال له : " من أين أقبلت يا أعرابي ؟ " ، قال : " من البادية " ، قال : " وما في يدك ؟ " وكان في يده عصا ، قال : عصايَ أركُزها لصلاتي ، وأجعلها سترةً لي ، وأعدُّها لِعُداتي ، وأسوق بها دابَّتي ، وأقوى بها على سفري ، وأعتمد عليها في مشيتي لتتسع خطوتي ، وأثِبُ بها النهر ، وتؤمنني من العثر ، وألقي عليها كسائي .. أي ردائي .. فيقيني الحر ، ويدفئني من القر .. القر هو البرد .. وتدني إليَّ ما بَعُدَ عني ، وهي مَحمل سفرتي .. طعامه .. وعلاّقة إداوتي.. أي محفظة كتبه .. أعصي بها عند الضِراب ، وأقرع بها الأبواب ، وأتقي بها عَقور الكلاب ، وتنوب عن رمحي في الطعان ، وعن السيف في منازلة الأقران ، ورثتها عن أبي ، وأورثها بعدي ابني .

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

المئارب كثيرةٌ لا تُحصى ، فهذا هو التفصيل ، ما هي هذه المآرب ؟ مآرب كثيرة ، كان السلف الصالح يحمل بيده عصا يستعين بها في المشي ، ويقرع بها الباب ، ويقتل بها الحيوان العقور ، وهكذا..

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)

معجزة انقلاب العصا إلى ثعبان مبين :

ليس القصد إخافتك يا موسى ، خذها ، تروي بعض الكتب أنه خاف منها ، فأمسكها بطرف عباءته ، فقال : خذها بيدك ، ولا تخف ..

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

الخوف من طبيعة البشر :

والخوف من طبيعة البشر ..

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

(سورة النساء)

(وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا(11))

(سورة الإسراء)

فأن يكون الإنسان عجولاً ، وأن يكون ضعيفاً ، وأن يكون هلوعاً، وأن يكون جزوعاً فهذه من طبيعة البشر ، إنها ضعفٌ في بنيتهم ، ولكن هذا الضعف لصالحهم ، ولأن الإنسان حينما خُلقَ ضعيفاً من أجل أن يستعين بالله عزَّ وجل ، وأن يلتجئ إليه ، وأن يتوكَّل عليه ، فلو أن الله عزَّ وجل خلقه قوياً لاستغنى بقوَّته ، وشقي باستغنائه ، ومن حكمة الله عزَّ وجل أن الإنسان خُلِقَ هلوعاً .

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى)

آيتان : الآيةُ الأولى العصا ، وكيف أنه إذا ألقاها تصبح حيَّة تسعى ، والآية الثانية يده حين أدخلها تحت إبطه ..

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)

لا تؤذّى أنت ، ولا تؤذِي بها ، لكنها تخرج متألِّقة منيرةً كالشمس ..

(آيَةً أُخْرَى* لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى *اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

شرح الصدر مُقدَّمٌ على التيسير في الأمر :

وبيَّنت في الدرس الماضي كيف أن شرح الصدر مُقَدَّمٌ على التيسير في الأمر ، لأن الإنسان ينطلق أول ما ينطلق من حاجةٍ نفسيَّة ، فإذا كان هناك انشراحٌ لإبداء هذا الأمر أقدم عليه ، فإذا كان هناك انشراحٌ لإمضاء هذا الأمر ، ولم تكن وسائلهُ ميسَّرةً لم يحقَّق الهدف ، لذلك لابدَّ من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ..

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي *وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)

وبعض الآيات تؤكّد أن هذا النبي الكريم .. في هذه الآية طبعاً ، وفي آياتٍ أخرى أن في لسانه عقدةً ، أي لم يكن طليقاً في الكلام طلاقة أخيه هارون .

الفصاحة الجنان لا فصاحة اللسان :

وحول هذا الموضوع قصَّةٌ طريفة جرت بين واعظٍ ونحوي ، فقد جلس نحويّ .. أي عالمٌ بالنَّحو .. في مجلس واعظ ، فَلَحَنَ الواعظ .. أي أخطأ في حركة بعض الكلمات .. فقال النحوي : " أخطأت " ، هكذا قالها أمام تلاميذه ، فقال له الواعظ : " أيها المُعرض في أقواله ، اللاحن في أفعاله ، أكلُ هذا لأني رفعتُ ، ونصبت ، وخفضت ، وجزمت ؟ فهلاً رفعت إلى الله يديك بالدعاء ؟ ونصبت بين عينيك ذكر الممات ؟ وخَفَضْتَ نفسك عن الشهوات ، وجزمتها عن فعل المحرَّمات ، أفلا تعلم أنه لا يُقال للمسيء يوم القيامة : لِمَ لَمْ تكن فصيحاً مُعْرِبَاً ؟ وإنما يقال له : لِمَ كنت عاصياً مذنباً ؟ ولو كان الأمر بالفصاحة لجعل الله الرسالة في هارون ، ولم يجعلها في موسى ، فقال تعالى إخباراً عنه :

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)

(سورة القصص : من آية " 34 ")

فجعل الله تعالى الرسالة ـ في موسى ـ لفصاحة جنانه لا لفصاحة لسانه ، فالأمر تابعٌ للجنان .. أي للقلب .. لا للسان " .

فالفصاحة وحدها لا قيمة لها ، أما إذا أضيفت الفصاحة إلى قلبٍ مُفْعَمٍ بذكر الله عندئذٍ تؤتي ثمارها .. دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفد الحجازيين ، فقام غلامٌ لا تزيد سنُّه على إحدى عشرة سنة ، فقال الأمير : " اجلس أيها الغلام ، وليقُم من هو أكبر منك سنّاً " ، فقال : " أصلح الله الأمير ؛ المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه ، فإذا وهب الله العبدَ لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد استحقَّ الكلام ، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس " ..

فلذلك جعل ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة في أنبيائه مجتمعين أشياء كثيرة ، تكون هذه الأشياءُ دروسًا بليغة ، جعل في لسان نبيٍّ مُرسلٍ من أولي العزم عُقْدَةً ، وجعل لنبيٍّ آخر ابنًا ضالاً .. سيدنا نوح .. وجعل لنبيٍّ آخر زوجة ليست مؤمنة برسالته ، وجعل نبياً فقيراً ، وجعل نبياً ملكاً ، فحينما تدور الأمور كلُّها مع الأنبياء هذا من أجل أن يُفْصَل الإيمان عما يلابس بعض الناس من حالاتٍ متفاوتة ..

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

طبعاً التسبيح والذكر المقصود به الكثرة ، لقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا(42))

(سورة الأحزاب)

فلذلك المطلوب هو الكثرة ، ومن علامة المنافقين أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((من أكثر ذكر الله عزَّ وجل فقد برئ من النفاق))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف)

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً *قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

يا أيُّها الإخوة المؤمنون ... المؤمن حينما يدعو الإنسان دعاءً يتعلَّق بصلاح آخرته ، أو صلاح نفسه ، أو تطهيرها ، أو تحليتها بالكمال ، فهذا الدعاء دُعاءٌ طيِّبٌ جداً ، والله سبحانه وتعالى يستجيب له ..

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)

فإذا دعوت الله عزَّ وجل أن يهديك سواء السبيل ، وأن يجعلك هادياً مهتدياً ، وأن يحفظك من شرِّ ما خلق ، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

(من سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

و:

((الدعاء هو العبادة))

(الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه عن النعمان بن بشير)

و :

((ومن لا يدعني أغضب عليه))

(ورد في الأثر)

و :

((وإن الله يحبُّ الملحِّين في الدعاء))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

و :

((لا يردُّ القضاءَ إلاّ الدعاءُ))

(الترمذي عن سلمان بسند حسن)

القضاء الذي نزل يُرَدُّ بالدعاء .

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)

أي أنك هُنا سألتنا فأجبناك ، لكنَّنا في الماضي مَنَنَّا عليك مِن فضلنا من غير أن تسألنا ، فلأن نُجيبك هذه المرَّة فمن باب أولى ، وإذا كنت قد سألتنا فأجبناك ، لكنَّه في الماضي لم تسألنا فأعطيناك .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

أنواع الوحي :

1 - وحي الإلهام :

قال العلماء : " هذا وحي الإلهام " .

2 - وحي الغريزة :

وهناك وحي الغريزة .

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل : من آية " 68 ")

وهناك وحي الإلهام .

3 - وحي الرسالة :

وحي الرسالة عن طريق سيدنا جبريل .

وأغلب العلماء على أن هذا الوحي لأم موسى هو وحي إلهام ..

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ)

عناية الله وحفظه لموسى عليه السلام منذ ولادته :

أي في الصندوق ..

(فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ)

(فَلْيُلْقِهِ)

هذه اللام لام الأمر ، والبحر مأمورٌ أن يُلقي هذا الصندوق على شاطئ قصر فرعون ، فإذا كانت أمواج البحر أو ذرَّاتُ مياه البحر مؤتمرةً بأمر الله عزَّ وجل فهل في الحياة شيءٌ أكبر من ذلك يستعصي على الله عزَّ وجل ؟ إذاً الأمر كلُّه بيدِ الله .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود : من آية " 123 ")

وهذه الآية جزءٌ أساسيٌ من مغزى القصَّة ..

(فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

معنى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي

المعنى الأول :

من أوجه تفسيرات هذه الآية أن الله أحبَّه وحبَّبه إلى خلقه ، لذلك إذا أحبَّك الله ، فمن لوازم محبَّة الله عزَّ وجل أن الخلق كلّهم يحبُّونك ، فإذا أحبَّك الخلق فهذه علامة محبَّة الله لك ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

والحديث القدسي الذي أتلوه على مسامعكم كثيراً هو قول سيدنا داود :

((يا رب مَن أحبُّ الناس إليك حتى أحبَّه بحبِّك ؟ فقال : يا داود أحب الناس إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء ، أحبَّني ، وأحبَّ من أحبَّني ، وحبَّبني إلى خلقي))

(ورد في الأثر)

فدور العبد الصالح مع ربِّه أنه يحبُّ الله ، ويحبُّ أحبابه ، ويُحَبِّب الخلق إليه ، إذا أحبَّك الله عزَّ وجل حبَّب الناس إليك ، وإذا أحببته أنت يجب أن تحبَّه ، وأن تحبَّ من يحبَّه ، وأن تحبِّب الناس إليه .. فقال:

((أحبُّ الناس إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء ، أحبَّني ، وأحبَّ من أحبَّني ، وحبَّبني إلى خلقي ، فقال داود : يا رب إنك تعلم أني أحبُّك ، وأحبُّ من يحبُّك ، فكيف أحبِّبك إلى خلقك ؟ قال : ذكِّرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

(ورد في الأثر)

إذا ذكَّرت الخلق بآلاء الله ، وبنعمائه ، وببلائه فقد حببت الخلق إليه ، إن ذكَّرتهم بآلائه استعظموه ، وإذا استعظموه طبَّقوا أمره ، وإنك إن ذكَّرتهم بنعمائه أحبُّوه ، وإذا أحبُّوه طبَّقوا أمره ، وإنك إن ذكَّرتهم ببلائه خافوا منه ، وخوفهم منه يحملهم على تطبيق أمره ، فالهدف واحد ، وهو أن يطيعوه ، إما أن يطيعوه عن طريق التعظيم ، وإما أن يطيعوه عن طريق المحبَّة ، وإما أن يطيعوه عن طريق التخويف..

((ذكِّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

المعنى الثاني :

قال بعض المفسِّرين :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

أيْ رَحِمْتُكَ فأحبَّك الناس ، فإذا تجلّى الله على قلب الإنسان بالرحمات انصرفت قلوب الناس إليه ، لأن قلبه يصبح مهبطاً لتجلّي الله عزَّ وجل ، وعندئذٍ تهفو القلوب إلى هذا القلب المتصل ، فلو أن الإنسان أُتيح له أن يلتقي بنبيٍّ عظيم فلا توصف مقدار السعادة التي تتأتَّى من مجرَّد اللقاء ، ولو لم ينطق بكلمة، إن هذه النفوس العظيمة التي أقبلت على الله عزَّ وجل ، واستنارت بنوره فكانت مهبطاً لتجليَّات الله عزَّ وجل ، فإذا كان هناك لقاءٌ ، أو اتصالٌ ، أو محبَّةٌ ، أو محاككةٌ بينك وبين قلب المتصل سَرَت هذه الصلة إلى قلبك ، لذلك :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

من معانيها أنني أحببتك ، وجعلت الخلق كلَّهم يحبونك .

المعنى الثالث :

أنني تجلَّيت على قلبك فهفت القلوب إليك ، ولذلك يقال : إن النبي عليه الصلاة والسلام كان أصحابه لا يطيقون فراقه أبداً ، كان بعض أصحابه يخدمه ، فلمَّا حان وقت الانصراف بقي على عتبة داره لشدَّة أُنسه ، وسعادته بهذا القُرْب ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

أي أحببتك ، وجعلت الخلق يحبُّك ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

أي تجليت على قلبك فهفت القلوب إليك .

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

المعنى الرابع :

شيءٌ آخر ـ أي معنى آخر ـ أحياناً يلقي الله عزَّ وجل على إنسان محبَّته فيحبُّه الناس ، وهكذا قال بعض المفسِّرين ، أي أنه ألقى عليه مسحة من جمالٍ أخَّاذ ، فإذا كلُّ مَن النظر إليه هفا إليه ، وكان غلاماً صغيراً فألقى عليه مسحة من جمال ، فلمَّا رأته امرأة فرعون أحبَّته ، وقالت : لا تقتلوه ، عسى

أن ينفعنا ، فلمَّا رآه فرعون قَبِلَ أن ينجوَ هذا الغلام مِن القتل ، أي أنه ألقى عليه مسحةً من جمال .

والمرأة التي تُخْطَبُ ، ويتزوَّجها زوجها ، ويكرمها ، ويجعلها في موضع تكريمه ورعايته ، ويسكنها في بيتٍ مريح ، ويأتيها بالطعام ، والشراب ، واللباس ، إيَّاها أن تظنَّ أن هذا ضروريٌّ لها ، لولا أن الله عزَّ وجل ألقى عليها مسحةً لما خطبها أحد ، فالفضل لله عزَّ وجل ، لو تَعْلَم المرأة أن الذي جعل الناس يُقْبلون على خطبتها هو الله عزَّ وجل ، لأنه جعلها كاملةً مرضيَّةً في أعينهم ، ولو لم تكن كذلك لما أقدم أحدٌ على خطبتها ، إذاً هذه محبَّة الله أيضاً .

آتى الله الإنسان عقلاً ، وآتاه حواس تامَّة فبجَّله الناس ، وعظَّموه ، واحترموه مثلاً ، فهذا فضل الله عزَّ وجل ، ولو أن في العقل خللاً لما أقبل أحدٌ عليك ، لو أن في الخَلْق عيباً خطيراً لما أقبل أحدٌ عليك ، ولنفر الناس منك ، إذاً إذا أقبل الناس عليك فهذا من فضل الله عزَّ وجل ، وعلامة المؤمن أنه يرى فضل الله عليه دائماً ..

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

هذه كنايةٌ أن الله عزَّ وجل رعاه رعاية تامَّة ، فحينما يكون الابن في قلب أمِّه تراها تنظر إليه دائماً حيثُما انتقل ، فالآية إشارةٌ إلى أن الله عزَّ وجل هو الذي ألقى عليه مسحة من جمال ، وهو الذي ألقى عليه محبَّته ، وهو الذي أوحى إلى أمِّه أن اقذفيه في التابوت ، وهو الذي أمر الموج أن يسوق هذا الصندوق إلى شاطئ القصر ، وجعل الجواري يأخذن هذا الصندوق إلى امرأة فرعون ، وهو الذي ألقى في قلب امرأة فرعون محبَّة هذا الغلام ، وجعل فرعون يرضى أن ينجو هذا الغلام من الذبح ، هو الذي جعله يتربَّى في قصر فرعون ، كل هذه الحوادث إنها..

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

إنّ الله سبحانه وتعالى هو الرب المُمِدّ ، الذي يَهَبَ الجميل ، ويثيب عليه ، والدليل أن هذا الأمر كلَّه بيدِ الله ..

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ)

أي دخلت أختك إلى قصر فرعون ، وقد تروي بعض الأخبار أنها وضعت أخاها على ثديها فالتقمه ، بينما لم يرض أن يلتقم ثدي أي امرأةٍ أخرى ، وربنا عزَّ وجل قال :

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

(سورة القصص : من آية " 12 ")

فقال العلماء : " هذا تحريمُ منع لا تحريم شرع " .

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

إلى أن جاءت أخته ، ووضعته على ثديها فالتقم ثدي أخته ، لكنَّ أخته ليس في ثديها حليب ، قالت : أنا آتيكم بأمِّي ، أمي في ثديها حليب ، فجاءتهم بأمِّه فالتقم ثديها ..

(فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا)

إذاً :

(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً)

وقتلتَ نفسًا فنجيناكَ من الغمِّ :

وقد جاء في صحيح مسلم أن هذا القتل هو قتل خطأٍ ، وليس قتل عمدٍ ، وتصوُّر ، إنه قتل خطأٍ ، وقد ظهر من هذا القتل حِرْصُ هذا النبي الكريم على أن يكون مع الحق ، وليكن الثمن ما يكن ..

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ)

من غمِّ القِصاص ، ومن غمِّ المُلاحقة ، ومن غمِّ السجن ..

(فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

جئت في الوقت المناسب ، أو جئت على القدر الذي قدَّرناه نحن لك..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

تفسير : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي

الاصطناع من الصَنيع ، والصنيع هو المعروف ، فأولاً اخترتك ، ثم جعلتك محلَّ إكرامي ، وعطائي ، اخترتك ، وأعطيتك ، وكرَّمتك لتكون هادياً إليَّ ..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

فأنت قد هُيِّئت ، وأعطيت كل الوسائل التي تستطيع بها أن تكون هادياً إليّ ، وذلك لأن الله عزَّ وجل عَلِمَ منه الصدق ، وعلم منه الذوبان في محبَّة الله عزَّ وجل ..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

إنها أعلى مرتبةٍ يبلغها إنسان على وجه الأرض ، أن يكون هادياً إلى الله عزَّ وجل ..

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)

اذهبا إلى فرعون إنه طغى

(لاَ تَنِيَا)

أي لا تتباطآ في ذكري ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى)

تجاوز الحدَّ المعقول ، فخرج عن دائرة القبول ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى *فقُولَا لَهُ قوْلاً لَيِّناً)

من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف :

قال عليه الصلاة والسلام :

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

(ورد في الأثر)

وقال تعالى :

(وَلَوْ كُنْتَ فظًّا غَلِيظ الْقلْبِ لانْفضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرْ)

(سورة آل عمران : من آية " 159 ")

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

قال رجل لأمير : " سأعظك بغِلْظة " ، فكان هذا الأمير أفقه من الواعظ ، قال له : " لِمَ الغلظة يا أخي؟ لقد أرسل الله من هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌ مني ، أرسل موسى إلى فرعون ، فهل أنت كموسى ؟ لا ، وأنا كفرعون ؟ لا ، لمَ الغلظة يا أخي ؟ " .

(فقُولَا لَهُ قوْلاً لَيِّناً)

حتى إن بعضهم قال : " يا رب إذا كانت هذه رحمتك بمن قال :

(أنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى)

فكيف رحمتك بمن قال : سبحان ربي الأعلى ؟! وإذا كانت هذه رحمتك بمن قال : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

، فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ؟! المرسل إليه هو فرعون ..

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى * فقُولَا لَهُ قوْلاً لَيِّناً)

وقال بعض العلماء : " القول اللّيِّن أن تناديه بلقبه ، أو بكنيته ، أو بالاسم الذي يُحِبُّه ، هذا من القول اللين ، فإذا كنتَ مع إنسان ، وترجو منه الخير ، فإذا ناديته باسمٍ يحبُّه ، أو لقبٍ علميٍّ يحبُّه ، أو رتبةٍ

يحبُّها ، أو كُنيَةٍ يحبُّها فهذا من القول اللّيّن ، وإذا ناديته باسمٍ يحبُّه ، أو لقبٍ ، أو مرتبةٍ ، أو شيءٍ من هذا القبيل ، فهذا من القول اللّيّن ، وسوف ترون معي بعد قليل كيف كان قول هذا النبي العظيم لفرعون؟

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

إذاً الأمل واسعٌ وقائمٌ ، وفرص الهداية متوافرةٌ في فرعون ، وإلا لَمَا كان هناك من معنى أن يُرْسِل الله عزّ وجل موسى إلى فرعون .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

تفسير : يَفْرُطَ عَلَيْنَا

أيْ أن يسارع بالعقوبة ، أن يسارع في قتلنا ، أو في تعذيبنا ، أو أن يزداد طغياناً ، حينما يعارض فرعون الحق يزداد طغياناً على طغيانه ..

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

الخوف من جِبلّة الإنسان :

ورد في بعض الكتب : " أن الخوف من الأعداء سُنَّة الله في أنبيائه وأوليائه ، مع معرفتهم به ، وثقتهم بنصره " ، الخوف من طبيعة البشر ، يا ترى هل يُعَدُّ خوف هذا النبي الكريم من مواجهة فرعون نقصاً في إيمانه ، أو نقصاً في توكُّله ، أو ثغرةً في ثقته بالله عزّ وجل ؟ قال بعض العلماء : " لا " .. فقد روي أن رجلاً اسمه عامر بن عبد الله نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فحال سبعٌ مفترسٌ بينهم وبين الماء .. أي هم يبتغون هذا الماء ، وبينهم وبين الماء سبعٌ مفترس .. فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته .. هذا عامر بن عبد الله توجَّه إلى الماء ، ولم يبال بالسبع ، وأخذ منه حاجته .. فقيل له : " لقد خاطرت بنفسك يا عامر ، وغامرت ، فقال : " لأنْ تختلف الأسنَّة في جوفي أحبُّ إليَّ مِن أن يعلم الله أني أخافُ شيئاً سواه " ، بعضكم أُعْجِب بهذا الموقف ، أما سيدنا الحسن البصري ردَّ عليه فقال : " لقد خاف يا عامر من هو خيرٌ منك" ، وجاء بالآيات التي ذكرت قول مؤمن آل فرعون لسيدنا موسى ..

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ(20)فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص)

الآيات التي أثبتت خوف موسى من فرعون وقومه :

نبيٌّ عظيم ، نبيٌّ مُرْسَل ، من أولي العزم .. ومع ذلك :

الآية الأولى :

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

الآية الثانية :

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص : من آية " 18 ")

الآية الثالثة :

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى(67)قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى)

(سورة طه)

فإذا كان النبي المُرْسَل الذي هو من أولي العزم يخاف فهذا الخوف من طبيعة البشر ، وليس قدحاً في إيمانه ، ولا في توكُّله ، ولا في ثقته بنصر الله عزَّ وجل ، ولكنَّ طبيعة البشر هكذا ، والخوف من طبيعة البشر ليكون الخوف دافعاً لهم إلى التوكُّل على الله ، والالتجاء إليه ، والثقة بنصره .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا)

أفرط عليهم أي أسرع بعقوبتهم ..

(أَوْ أَنْ يَطْغَى)

الطغيان تجاوز الحد ..

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا)

معية الله : معكما أسمع وأرى :

أين أنا ؟ أنا معكما ..

(أَسْمَعُ وَأَرَى)

من هنا قال بعضهم : " إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ " ..

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

***

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

أي أن معيَّة الله ليست حكراً على أحد ، لكنَّها لكل الناس بهذا الشرط ، معيَّة الله لكل مؤمنٍ بشرط أن يكون مقيماً للصلاة ، مؤتياً للزكاة ، يرعى حقوق الله ، مُعَزِّراً لرسله وأنبيائه .

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

لقد طمأنهما ربنا عزَّ وجل ..

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ)

إيذاء فرعون لقومه :

يبدو أن هؤلاء القوم كان قد عذَّبهم فرعون كثيراً ؛ ذبَّح أبناءهم ، واستحيا نساءهم ، وجعلهم يعملون عملاً بلا أجرة ، أرهقهم في الأعمال ، وانتهب منهم الأموال ، وقتَّل أبناءهم ـ وهكذا ـ

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

السلام على من اتبع الهدى :

لم يقولا : " السلام عليك " ، السلام على من اتبع الهدى ، الذي اتبع الهدى وحده يستحقُّ السلام ، والسلام اسمٌ من أسماء الله عزَّ وجل ، من منحه الله السلام لا يستطيع مخلوقٌ على وجه الأرض أن ينال منه .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من آية " 30 ")

مُنِحوا السلام ..

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)

(سورة الأحزاب : من آية " 44 ")

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

من أساليب الدعوة : التوجيه الليّن اللطيف :

هذا من التوجيه اللطيف ، وهذا من القول الليِّن ، لم يقل سيدنا موسى: أن يا فرعون سوف يعذّبك الله عزَّ وجل ، لا ..

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

فإذا أردت أن تنصح إنساناً غارقاً في المعاصي فلا تقل له : أمامك مصائب ، وأمامك عقوبات شديدة ، بل قل : الله عزَّ وجل يعاقب المنحرف ، ويعاقب العاصي ، ولا تتوجَّه إليه بالذات ، بل بيِّن له بعض القواعد ، بعض السُنَن ، والقوانين في كتاب الله من دون أن تجعله هدفاً لموعظتك ..

(أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

حوار حول إثبات الربوبية :

من ربكما ؟ ..

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

أي أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم أعطاه فكراً ، وقوَّةً إدراكيَّةً يعرف بها الخير من الشر ، والحقَّ من الباطل ، وما ينفعه ، وما يضرُّه ، هداه إلى طريق سعادته ، وخلقه خلقاً كاملاً ، وأعطاه قوَّةً إدراكيَّة يهتدي بها إلى طريق سعادته ، أعطاه وهداه ..

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

مِن صور هداية الله لمخلوقاته :

1 - هداية الله للحيوان :

الحيوان خلقه في أبدع تكوين ، ثم هداه إلى طعامه وشرابه ، وهداه إلى بناء عشِّه ، وإلى رحلةٍ طويلةٍ، لا يزال العلم حتى الآن حائراً في طريقة اهتداء الطيور إلى أهدافها البعيدة ، أعطى السمكة الخَلق الأكمل ، ثم هداها لرحلةٍ تقطع بها عشرات الألوف من الأميال ، كل مخلوقٍ هداه الله إلى سُبُلِ العيش ، كيف يعيش ، وكيف يأكل ، وكيف يأوي إلى عشِّه أو إلى جحره ، هذه هداية الله عزَّ وجل ، عبَّر عنها بعض علماء الغرب "بالغريزة " ، والغريزة كلمة لا معنى لها ، فالحيوان يقوم بأفعال ذكيَّة جداً من دون تعليم .

2 - هداية الله للطفل الرضيع :

فهذا الطفل الصغير الذي يولد لتوِّه يلتقم ثدي أمِّه ، التقام الثدي عمليَّةٌ معقَّدة ، فيها إحكام شفتيه على حلمة الثدي ، وفيها سحب الهواء كي يخرج له الحليب ، وفيها أشياء كثيرة ، العلماء قالوا : " هذا منعكس المص يولد مع الإنسان " ..

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

فلو أن هذا الطفل الصغير لا يعرف كيف يلتقم ثدي أمِّه لمات جوعاً، وليس في الإمكان أن تُعلّمه ، وهو دون أن يُعَلَّم ، فليس عنده إدراك ، ولا لغة ، ولا قدرة على الاستيعاب ، ولذلك لولا منعكس المصِّ الذي خلقه الله عزَّ وجل في الطفل الصغير لما عاش إنسان على وجه الأرض .

وهذه الآية يمكن أن تؤلَّفَ حولها مجلّدات ..

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

أعطى الإنسان خلقه الكامل ، ثم هداه إلى طريق الخير والشر ، وأعطى الحيوان خلقه الكامل ، ثم هداه إلى كسب رزقه وإلى عيشه ، أما قوله تعالى :

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى)

سؤالٌ من فرعون : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى

قال بعض العلماء : " أراد فرعون من هذا السؤال أن يصرف موسى عن هدفه من المناقشة ، وأن يحوِّله إلى موضوع آخر ، أو أنه أراد أن يقول له : هؤلاء الأقوام الذين جاؤوا قبلنا لِمَ لمْ يهدهم الله عزَّ وجل كما تقول أنت ؟ أو أنه أراد بهذا أن يسأله عن غيب الماضي لتوَهُّمه أن هذا النبي الكريم يعلم الغيب " ..

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى *قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي)

جوابُ موسى عليه السلام :

أنا عبدٌ فقير لا أعلم من الغيب شيئاً ..

(عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

تفسير قوله : فِي كِتَابٍ

إنّ الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى كتابٍ يكتُب فيه الماضي ، ولكنَّ العلماء قالوا : " إن الكتاب هنا بمعنى أن يؤكّد لعباده أن علم هذه القرون الأولى لا يخفى عليَّ منه شيء " ، أي هو بحسب تصوُّر الخلق ، الله عزَّ وجل غنيٌّ عن أن يكتب ، أو أن يثبت هذا في كتاب ، لكن كلمة كتاب هنا جاءت لتبيِّن أن الله عزَّ وجل بحسب تصوُّرِ الناس أنه شيءٌ مكتوب ..

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

هذه الآيات تحتاج إلى تفصيلٍ ، أرجو الله سبحانه وتعالى في الدرس القادم أن يوفقني إلى توضيح بعض الأمثلة التي تعمِّق فهمنا لهذه الآيات ، ولاسيما الآية التي كما قلت قبل قليل يمكن أن يفصَّل فيها تفصيلاً كافياً .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 43 – 70
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-02-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الرابع من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

معية الله للمؤمنين :

أذكّركم أيها الإخوة بقوله تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

نريد أن نخرج من هذه الآية إلى قاعدة ، هي أن معيَّة الله سبحانه وتعالى معية نصرٍ ، وتأييدٍ ، ودفاعٍ، ومعونة ، وهذه المعيَّة لكل مؤمن ، لكن لها ثمناً توضح الآية الكريمة :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

لأنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ما من شيءٍ على وجه الأرض أعظم منالاً من أن يكون الله معك ، هل في الأرض كلها ، بل هل في الكون كله جهةٌ تستطيع أن تنال منك إذا كان الله معك ؟ إذا كان الله معك فأنت أقوى الأقوياء ، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

يوضح لنا ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى ثمن هذه المعية ، الخلق كلهم سواء عند الله عزَّ وجل ، لا تنسوا أن سيدنا عمر رضي الله عنه ، حينما أرسل سيدنا سعداً بن أبي وقاص قال له : " يا سعد ، لا يغرَّنك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له " ، الذي يرفعك عند الله طاعتك ، حجمك عند الله بحجم عملك .

((أنا جد كل تقي ، ولو كان عبداً حبشياً))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

((سلمان منا أهل البيت))

(الجامع الصغير عن عمرو بن عوف بسند ضعيف)

((نِعم العبد صهيب))

وقف أبو سفيان بباب الخليفة عمر رضي الله عنه ساعاتٍ طويلة فلم يؤذن له ، وكان يرى صهيباً وبلالا يدخلان ويخرجان من دون استئذان، آلمه ذلك ، فلما دخل على الخليفة عمر رضي الله عنه قال : " زعيم قريش يقف في بابك ساعاتٍ طويلة ، وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان !! " قال : " أأنت مثلهما ؟! " ، عظمة الإسلام أن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، قال تعالى :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات : من آية " 13 ")

((اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَإِن اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

(من صحيح البخاري عن أنس بن مالك)

((أنا جد كل تقي ، ولو كان عبداً حبشياً))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

هذه مبادئ الإسلام ، فإذا أردت معية الله عزَّ وجل ، إذا أردت نصره ، تأييده ، معونته ، توفيقه ، أن ينصرك على من عاداك فهذا هو الثمن فادفعه ، واقبض النتيجة .

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

بشرط :

(لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

هؤلاء الذين جاؤوا بعد عصور التألُّق والازدهار وصفهم عزَّ وجل فقال :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

غياً أي شراً ، أي قهرا ..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا(141))

(سورة النساء)

إذا كنت معه ، وقد أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة ، وآمنت برسله ، ونصرتهم أيتخلَّى عنك ؟! والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يكون ذلك .

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة : من آية " 12 ")

هذا هو الثمن ادفعه واقبض النتيجة .

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(1))

(سورة الإسراء)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد : من آية " 4 ")

((يا موسى ، أتحب أن أسكن معك - صعق هذا النبي الكريم - وكيف ذلك يا رب ؟ " قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني ، وحيثما التمسني عبدي وجدني)

(ورد في الأثر)

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

هذا حال المراقبة ، يتحدَّث عنه بعض الصوفيين ، أن تشعر أن الله معك دائماً ، اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك .

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

التلطُّف في الدعوة إلى الله ألاّ تواجه الإنسان بأخطائه ، استخدم ضمير الغائب ، هكذا فعل هذا النبي العظيم .

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

يا فرعون :

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

ليس من الحكمة مواجهة الناس بأخطائهم :

هذا الذي يواجه الناس بأخطائهم يقول له : أنت فاسق ، أنت كافر ، هذا أسلوبٌ لا يرضاه الله عزَّ وجل، لأنه من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : من آية " 159 ")

قل لـه : من يعص الله عزَّ وجل فسوف يحاسبه في الدنيا والآخرة ، استخدام ضمير الغائب ، ولا تستخدم الضمير المخاطب .

(قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

من ربكما يا موسى ؟ جاء الجواب بإيجاز رائع :

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(4))

(سورة التين)

صورٌ مِن هداية الرب للمخلوقات :

1 – الإنسان :

خلق له عينين ليرى بهما كل شيء ، ليرى الأشياء بأحجامها ، وألوانها ، وأبعادها ، الطولية ، والعرضية ، والعُمْقية ، يرى الإنسان بعينيه بالأبعاد الثلاث ، ولساناً وشفتين ، وباللسان ينطق ويعبِّر عن آرائه ، وعن أفكاره ، وعن مشاعره ، وبالشفتين يلتقم ثدي أمه ، خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم ، جعل له هيكلاً عظمياً ، وجعل له عضلاتٍ تحرِّك العظام ، وجعل لهذه العضلات أوتاراً ، وجعل الشرايين والأوردة ، وجعل القلب والرئتين ، وجعل المعدة والأمعاء ، وجعل جهاز الإفراز ، وبَثَّ في هذا الجسم الأعصاب والغدد الصماء ، حيث يُعدُّ الإنسان أعقد آلةٍ على وجه الأرض ، وأكثر الأعضاء تعمل ليلاً نهاراً بلا كلل ولا ملل ، تنام أنت والدماغ يقظان ، يقلبك في الليل ذات اليمين وذات الشمال ، الهضم يعمل وأنت نائم ، والتنفُّس يعمل وأنت نائم ، والقلب يضخ وأنت نائم ، وأعمالٌ معقدةٌ لا يعلمها إلا الله ، كلها تكون وأنت نائم .

(مَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

من جعل هذه العين ترى ثمانمئة ألف درجة من اللون الواحد ؟ عين الإنسان تستطيع أن تميز بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة من اللون الواحد بدقة بالغة ، عين الإنسان ترى الشيء بحجمه الطبيعي، أذن الإنسان تلتقط أدَقَّ الأصوات ، لك ذاكرةٌ سمعية تعرف بها أصوات كل من حولك ، تسمع هذه المكالمة الهاتفية فتقول لأول وهلةٍ : إنه فلان ، كيف عرفت أنه فلان ؟ لولا أن لك ذاكرةً سمعية ، وذاكرةً شمية ، وذاكرةً بصرية ، وذاكرة أسماء ، وذاكرة أرقام ، وذاكرة طعوم .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

لماذا لم يجعل الله عزَّ وجل في الشعر أعصاباً ؟ لو كان في الشعر أعصابٌ حسية لكان الإنسان بشكلٍ مخيف ، لأنه لن يستطيع أن يحلق شعره، يحتاج إلى عمليه جراحية وإلى تخدير :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(17)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(19)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(20))

(سورة عبس)

لـو اطلعتم إلى آلية الولادة لرأيتُم أعظم آيةٍ من آيات الله عزَّ وجل ، هذا الرحم الذي جعله الله في قرارٍ مكين ، وجعله يتمدد من(7 سم3 إلى 3500 سم3)، أي مئات ، بل ألوف الحجوم الكبيرة كي يتسع

لهذا الجنين ، ثم يتقلّص تقلُّصاً لطيفاً ليدفعه إلى خارج الجسم في الوقت المحدود ، فإذا خرج الجنين إلى خارج الرحم انقبض هذا الرحم انقباضاً شديداً ليسُدَّ الشرايين المفتوحة ، التي لولا انقباضه لماتت الأم من شدة النزيف ، من رَتَّبَ هذا ؟ من هيَّأ هذا ؟ من سيَّر هذا الجنين ؟ من جعل اللبن يخرج لهذا الطفل في الوقت المناسب ؟ معيراً في كل يومٍ من أيام نموه ، بارداً في الصيف دافئاً في الشتاء ، معقَّماً وفيه كل مناعة الأم .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9)وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(10))

(سورة البلد)

لو أمضيت الحياة كلها في الوقوف على دقائق خلق الإنسان لما انتهيت منها ، أليس خلقك أنت معجزة؟ أليس خلق ابنك الذي تعرف كيف كان أكبر آيةٍ دالةٍ على عظمة الله عزَّ وجل ؟ .

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)

يقول ربنا عزَّ وجل :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(49))

(سورة القمر)

هذه العين لها عتبة تقف عندها ، لو أن هذه العتبة ارتفعت لرأيت في هذا الكأس من الماء ألوف الألوف من الكائنات الحية ، ولعزفت نفسك عن شربه ، لكن الله عزَّ وجل لحكمته البالغة جعل البصر يقف عند حد ، وجعل السمع يقف عند حد ، لو أنه أسمعك كل شيء لسمعت حركات الأحشاء فلا تنام الليل :

(مَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

الأعصاب جعلها بحساسيةٍ معينة ، فلو زادت لاختل نظام الحياة ، هذا خلق الله للإنسان ، فماذا عن خلقه للحيوان ؟

2 – الإبل :

الجمل ..

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

(سورة الغاشية)

مَن جعل له هذا الخف ليستعين به على السير على الرمال ؟ من جعل لعينيه جفنين ، جفناً يقيه دقائق الرمل إذا ثارت ؟ مَن جعل لأذنه ساتراً أيضاً يقيه ثورة الرمال إذا ثارت ؟ مَن جعل الجمل يتحمَّل العطش أشهراً طويلة ؟

(أفلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

من جعل الجمل يستطيع أن يحيا سنواتٍ من دون طعام ؟ يستهلك سنامه كلّه ، شيءٌ يأخذ بالألباب .

3 – الطائر :

أنظر إلى الطائر كيف يكون ؟

(أوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحْمَانُ)

(سورة الملك)

4 – السمك :

انظر إلى الأسماك كيف تسبح في الماء ؟ لماذا خلق الله لها هذه الزعانف ؟ إنها أدوات توجيه ، وأدوات توازن ، وأدوات تحريك ، تحريك وتوجيه وتوازن ، من جعل لهذه السمكة مقياس ضغطٍ تعرف موقعها في الماء ، هل هي نحو السطح أقرب أم إلى القاع أقرب ؟ يقدر علماء الأحياء أن في البحر مليون نوع من السمك ، ألف ألف ، لو اطلعتم على بعض كتب البحار ، أو على بعض المصوَّرات لرأيتم العجب العُجاب ، سمكٌ لطيف ، سمكٌ للزينة ، سمكٌ كبير ، حوتٌ ضخم يزن مئةً وخمسين طناً ، هو الحوت الأزرق ، أرقام خيالية ، يوجد خمسون طناً من الدهن في هذا الحوت ، يعطينا تسعين برميل زيتاً .

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

الطير ، السمك ، هذه الحيوانات الأليفة ، من جعلها مذللة ؟

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس : من آية " 72 ")

لو أن الله عزَّ وجل ركَّب في الغنمة أخلاق الضَبع ، هل بإمكان الناس أن يرعوا الغنم ؟ من جعل هذه الغنمة مذللة ، وجعل هذا الجمل مذللاً ؟ من جعل للجمل له عينين تُريانه الصغير كبيراً ، والبعيد قريباً؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولو أمضينا الحياة كلها في الوقوف على آيات الله التي بثها في الأرض لما انتهينا من آيةٍ واحدة ، أليست هذه الآيات كلها دليلاً قطعياً على وجود الله وعلى ربوبيته ، وعلى ألوهيته ، وعلى عظمته ، وعلى أسمائه الحسنى ؟ إن الكون كله ما هو إلا تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، فماذا أقول حول هذه الآية ؟ إن الساعات الطوال لا تكفي لشرح هذه الآية من الوجهة العلمية ..

(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

السمع له درجة ، البصر له درجة ، الحِس له درجة ، من خلق آلية النطق ؟ كيف تتكلم ، وكل حرفٍ يحتاج إلى سبعة عشر عضلة تأخذ وضعاً مُعَيَّنَاً حتى يخرج هذا الحرف ؟ إذا كانت الكلمة خمسة أحرف فهل بإمكان الإنسان المتكلم أن يضبط أمره هو ، أم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ينطقه ؟ ولولا أن الله تولى عنه تحريك هذه العضلات لما أمكنه أن ينطق بكلمةٍ واحدة ؟ .

(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

أي أن الله جَهَّز كل مخلوقٍ ببنيةٍ ، وطبيعةٍ ، ونفسيةٍ ، وأجهزةٍ ، وأعضاء تناسب مهمته في الحياة ، الله ببنية كل مخلوقٍ من دون استثناء جهزٍ وطبيعةٍ ونفسيةٍ وقدراتٍ ، وإمكاناتٍ وأجهزة وأعضاء تتناسب مع مهمته تماماً ..

(ثُمَّ هَدَى)

وبعدئذٍ هداه إلى تحقيق مهمته على وجه الأرض ، زَوَّدَ الله الإنسان بهذا العقل الذي هو القوة الإدراكية ليهتدي به إلى الله عزَّ وجل ، وجهز الحيوان الله بهذه الغريزة ، وهي من أعقد الأفعال ، لكنها مجهَّزة تجهيزاً تاماً من دون جهدٍ أو تعلُّم .

من جعل سمك السلمون مثلاً ينطلق من أعالي الأنهار في أمريكا ، ويسير باتجاه المحيط الأطلسي ، ثم يتَّجه نحو غرب أوروبا وهنا يفرخ صغاراً ، هذه الصغار بعد وقتٍ معلوم تتجه إلى مسقط رأس أمها ، من دل هذه السمكة العَجْماء إلى الطريق المؤدِّي إلى مصب الأمازون مثلاً ؟ شيءٌ فوق إدراك البشر ، تجد قبطاناً يحمل شهادة عُليا في علم البحار ، وتدرب في مدارس عالية المستوى ، وقد يضل الطريق ، وهذه سمكةٌ تحت الماء تتجه من غرب أوروبا إلى مَصَب الأمازون ، لو أضافت إلى زاوية اتجاهها درجة واحدة لجاءت في أمريكا الشمالية ، من هدى هذه السمكة إلى منابع الأنهار ؟

يخرج ثعبان الماء من ينابيع النيل ، ويتجه نحو البحر المتوسط ، ثم يتجه غرباً إلى مضيق جبل طارق، ثم يتجه شمالاً على سواحل إسبانيا وفرنسا ، ثم يدخل في بحر المنش ليستقر في بحر الشمال ، ثعبان ماءٍ يستطيع أن ينتقل هذه الانتقالات من دون دليل ؟! من دون بوصلة ؟! من دون خرائط ؟! .

(ثُمَّ هَدَى)

5 – هجرة الطيور :

هذه الطيور تهاجر عشرات الألوف من الكيلو مترات ، بعض أنواع الطيور يهاجر إلى منطقةٍ تبعد عن مستقره سبعة عشر ألف كيلو متر، يطير طيراناً متواصلاً يزيد عن ستٍ وثمانين ساعة ، من دون توقف ، هل في الأرض كلها طائرة تستطيع أن تطير ستاً وثمانين ساعة من دون توقُّف ؟ من دَل هذه

الطيور إلى طريقها ؟ حـار العلماء في ذلك ، يا تُرى معالم الأرض ؟ فوجدوها تطير في ليلةٍ ظلماء ، يا ترى الشمس ؟ طارت في أيامٍ تحتجب فيها الشمس بفعل الغيوم ، بأي شيءٍ تطير ؟ أحدث نظرية أنها تطير وفق ساحةٍ مغناطيسية ، فلما وضعت في أماكن ذات ساحة مغنطيسية أخرى تشوَّشت ، هذه بعض النظريات ، لكن الجواب الشافي غير معروفٍ تماماً حتى الآن .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

هدى الإنسان إلى علة خلقه ، وهدى الحيوان إلى طعامه ، وإلى استطبابه ، وإلى قضاء حاجاته ، وإلى البحث عن طعامه .

ثم قال فرعون :

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى)

فالآية الأولى :

(فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

هذه آية لو أمضينا فيها دروساً طويلة إلى آخر هذا العام لا تنتهي ، لأنها بحثٌ في خلق كل شيء ، بدءاً من الإنسان ، مروراً بالحيوان ، انتهاءً بالنبات ، ثم إلى الكون ، كل شيءٍ مخلوقٌ في أبدع صورة، وفي أدق ترتيب ، وقد هُديَ هذا المخلوقُ إما بالغريزة ، وإما بالفكر ، وإما بالكشف ، وإما بالإلهام ، وإما بوسائل عديدة ، إلى هدفه ، وحاجته ، وسُبل معاشه ، وعلّة وجوده ، والإنسان أرقى هذه المخلوقات هداه الله إليه ، لذلك أنعم عليه بنعمة الإيجاد ، وبنعمة الإمداد ، وبنعمة الإرشاد ، نقف عند هذا الحد في هذه الآية ، ونتابع الآيات الأخرى ..

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي)

إنـه سؤال لصرف الأنظار عن الحقيقة :

أراد فرعون أن يصرف هذا النبي العظيم عن موضوع الدعوة ، فشغله بموضوعٍ جانبي ..

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى)

أو أنه أراد أن يستنبئه الغيب ، لأنه يظن أن النبي يعلم الغيب ، أو أراد أن يؤكّد له أن هؤلاء القرون الأولى كانوا على ضلالٍ مثلي مثلاً ، على كلٍ جاء الجواب الشافي :

(قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ)

جوابٌ ما لهم به مِن دافع :

أي علمٌ يقيني ..

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

تفسير : لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ ينسَى

فسر بعض العلماء

(لاَ يَضِلُّ)

بمعنى لا يخطئ ، أو لا يغيب عنه شيء ، فحكمته مطلقة ، هذا لا يضل .

(وَلاَ يَنْسَى)

أي الله سبحانه وتعالى ، فكلُّ شيءٍ محفوظ عنده .

وكلمة

(كِتَابٍ)

تطمينٌ لنا ، فالله عزَّ وجل غنيٌ عن الكتاب ، ولكن هذا بحسب تصوراتنا ، فإنه تكون المعلومات عندنا مثبَّتة في الكتاب .

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً)

من خصائص الربوبية :

1 - تمهيد والأرض وبسطها :

جعل هذه الأرض منبسطة ، كيف نعيش عليها لو جعلها منحدرات حادة ؟ فقد يعاني الإنسان أحياناً مشقةً بالغة في زرع سفوح الجبال ، يحتاج إلى مدرجات ، ويحتاج إلى مصاطب ، وتأتي الأمطار فتجرف التربة ، لو أن الأرض كلها سفوح مائلة ، هذه الأرض ليست مهداً ..

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً)

والأرض لها تربة ، لو أن سطح الأرض كلَّه صخري كيف نزرعها؟ كيف نعيش ؟ كيف نأكل ؟ ماذا نأكل ؟ جعلها مُمَهَّدة بأن جعلها منبسطة ، وجعلها ممهدة بأن جعلها ذات تربة ، والتربة أنواع ، هذه التربة كلسية ، وهذه لحقية ، وهذه غُضارية ، وهذه تصلح لهذا الثمر ، وهذه تصلح لهذا الثمر ، نوَّع

الله أنواع التُرَب ، ونوَّع النبات ، قال :

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً)

أي أنه جعل الطرق ، هناك طرق بين البلاد ، هناك طرق بين الجبال ، هناك طرق في الوديان ، هناك طرق بحسب سلاسل الجبال ، وجعل الأنهار طرقاً أحياناً ، وجعل البحار طرقاً ، فالسُبل مطلق الطرق، فالبحر طريق ، البحر كما يقولون : همزة اتصالٍ بين القارَّات ، لو أن البحر أرضٌ صلبةٌ لاحتجنا إلى تعبيد هذه الطرق ، ولدفعنا مئات ألوف الملايين ، ولكن البحر كله طريق ، تأتي هذه السفينة ، وتحمل ألف مليون طن ، الآن هناك سفن حمولتها مليون مليُون طن ، تسير في البحر كأنها جبلٌ شامخ لتبتغي من فضله ..

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)

2 – إنزال الماء وإخراج النبات المتنوّع :

الطعام نبات ، القمح نبات ، القمح ، والحمِّص ، والعدس ، والبقول ، والمحاصيل ، والخضراوات بجميع أنواعها ، والفواكه بجميع أنواعها ، هذه كلها قوتٌ وطعام ، القوت الشيء الأساسي ، والطعام الشيء الثانوي ، لأن الله عزَّ وجل كرم بني آدم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ)

(سورة الإسراء : من آية " 70 ")

رزقنا هذه الفواكه ، والثمار ، وهذه الخضراوات ، فنحن يمكننا أن نعيش دون بعض الخضراوات ، ودون بعض الفواكه ، ولكنها إكرامٌ لنا .

اللباس .. القطن نبات تصنع منه بعض المنسوجات ، تحتاج إلى خشب لبناء السقف ، هناك نباتٌ مختصٌ للأعمدة الطويلة ، تحتاج إلى خشب لصنع الأثاث ، تحتاج إلى خشب لصنع الأبواب والنوافذ ، تحتاج إلى شيءٍ تنظّف به بدنك ، فالليف نبات ، تحتاج إلى شيءٍ تنظف به أسنانك ، السواك نبات ، تحتاج إلى شيءٍ تخلل به ما بين أسنانك ، نبات الخلَّة ، تحتاج إلى نبات يكون حاجزاً بينك وبين جارك، نبات حدودي ، تحتاج إلى نبات للزينة لتمتع به النظر ، تحتاج إلى شجر يكون لك مظلة دائمة الخضرة، شكلها جميلٍ جداً ، لو تأمَّلت في الأشجار وحدها ، هناك أشجار زينة ، هناك أشجار غابات ، هناك أشجار ثمار ، أشجار أخشاب ، حدثني بعض الإخوة النجارين قال : نتعامل نحن النجارين تقريباً مع مئة نوع من الخشب ، هذا الخشب لا يتأثر بالماء ، بالمطر ، والبرد ، والحرارة ، هذا الخشب قاسٍ جداً لصنع الأثاث ، هذا الخشب طريٌّ جداً لصنع بعض الحاجات ، الأخشاب أنواع منوعة .

هناك أخشاب ذات منظر رائع لصنع الأبواب الخارجية ، أخشابٌ ذات قسوةٍ بالغة للأثاث ، أخشابٌ ذات ليونةٍ عجيبة ، حدثني بعض الإخوة أن معملاً اشترى بعض الآلات ، فلما وضعها على قاعدة من الإسمنت تقطَّعت الخيوط ، الآلات جديدة ، استقدموا خبيراً من دولةٍ أجنبية ، فماذا فعل ؟ جاء بأخشاب التوت ، وجعلها قواعد لهذه الآلة ، قال : خشب التوت له أليافٌ متينةٌ مرنةٌ في وقتٍ واحد ، تمتصُّ هذه القواعد صدمة المكوك ، هكذا درس في ألمانيا ؛ أن قواعد آلات النسيج تفضل أن تكون من خشب التوت ، السِندان له خشب خاص يمتص الضربة القاسية ، المعاول لها أخشاب خاصة ، فإذا ذهبت إلى أنواع الخشب شيءٌ يأخذ بالألباب ، إذا ذهبت إلى أنواع النبات :

(مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)

الأصبغة أصلها نباتات ، الورود والرياحين أشياء جميلة محضة نباتات ، الغذاء الأساسي نبات ، الدواء نبات ، يكاد يكون النبات أكبر ظاهرةٍ في الأرض دالةٍ على عظمة الله عزَّ وجل ..

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)

(أَزْوَاجًا)

لو أن الله سبحانه وتعالى خلق النباتات مرةً واحدة لفَنِيَت ولمات الناس جوعاً .

(أَزْوَاجًا)

هذا النبات له بذر ، وهذا البذر يُزْرَع ، وليس هناك حدود لإمكانية التوالد ، في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، دائماً نستقدم الأشتال ، نستقدم الفسائل نزرعها ، بقدر جهد الإنسان يزرع هذه الأرض ، فإذا رأيتم أرضاً قاحلة فهذا دليل كسل الإنسان ، الإنسان كسول ، لكن الله سبحانه وتعالى جَهَّزَ كل نبات بشيءٍ يكون استمراراً له ، كذلك الحيوان يتوالد ، الأبقار تتوالد ، الدجاج يتوالد ، الأغنام تتوالد ، وكل شيءٍ يتوالد .

(أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

كُلُوا وارعَوا أنعامَكُم

من أجل أن تأكلوا ، وأن تشكروا الله عزَّ وجل على هذا النبات الذي زوَّدكم به .

(وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

تتعلق حياتك بهذا الحيوان الذي تأكله ، وتتعلق حياة الحيوان بهذا الكلأ الذي ينْبُت ، أَلِفَ الناس أن يقولوا : ارتفعت أسعار مشتقات الحليب لجَدَبِ البادية ، فإذا جاءت الأمطار وفيرة في البادية تهبط أسعار هذه المشتقات من سمنٍ وجبنٍ لوجود الكلأ .

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)

حاجة الإنسان إلى الكلأ لا إليه بالذات ، ولكن إلى الحيوان الذي يعتمد عليه في غذائه ..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

إنّ في ذلك لآيات لأولي النُّهى

لأصحاب العقول ، وسُمِّيَت العقول نُهى لأنها تنهى أصحابها عن فعل المنكرات ، من هو العاقل ؟ هو الذي يملك عقلاً يحجزه عن المعاصي ، يحجزه عن السقوط ، يحجزه عن أن ينحرف ، يحجزه عن أن يعصي الله ، يحجزه عن أن يأخذ ما ليس له .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

أصحاب العقول ، فهذا الذي يرى كل هذه النعم ، وكل هذه الآيات ، ولا يفكر فيها ، هذا إنسانٌ ليس من أولي النُّهَى ، وليس من أولي الألباب ، وليس من أصحاب العقول ..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20))

(سورة المدثر)

أي أنه من احتقار العقل أن تستخدمه في أغراض دنيئة ، أن تستخدمه في الإيقاع بين الناس ، أن تستخدمه في جَمع الدِرهم والدينار ، ولكنك تُشَرِّفُ العقل إذا عرفت الله به ..

الأرض أصل خلق الإنسان ومآل رجوعه ومبدأ بعثِه :

(مِنْهَا)

من هذه الأرض :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

تفسير الآية :

المعنى الأول :

على سبيل المثال التاريخي سيدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام خُلِقَ من تراب ، فإذا قال الله عزّ وجل :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا)

أي منها خلقنا أباكم آدم ، وأنت من ذُرِّيَتِهِ ، هذا معنى أول .

المعنى الثاني :

وهذه النطفة التي يتخلّق منها الإنسان إذا لقحت البويضة أساسها من التراب ، من الغذاء ، لولا أن الأب تغذّى بكل أنواع الثمرات والمحاصيل ، والبقول ، والخضراوات ، والفواكه ، لما تشكّل هذا الحيوان المنوي ، هذا الغذاء أصله من التراب ، هذا المعنى الثاني ، إما أنا خلقنا أباكم آدم من التراب ، أو أن الحوين المنوي الذي هو أصل الحياة إنما أصله من التراب .

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)

كل الطموح تنتهي في القبر ، كل الثروات تنتهي في القبر ، كل الآمال تنتهي في القبر .. " عش ما شئت فإنَّك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به " .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ

فـإذا حملت إلى القبور جنازة ً فاعلم بأنك بعدها محمـولُ

* * *

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)

وحينما يوضع الإنسان في قبره أول مرة يقول الله عزّ وجل :

((عبدِي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبقَ لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت))

(ورد في الأثر)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدكم استعداداً له ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوُّد لسكنى القبور ، والتأهُّب ليوم النشور))

(ورد في الأثر)

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

هذا يوم البعث والنشور .

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)

إقامة الحجة والبرهان قبل الحكم :

(أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا)

لفرعون ، العصا ، واليد البيضاء ، وكيف أن هذه العصا أكلت كل الحيَّات التي صنعها سحرة فرعون، بل هذه الآيات رآها فرعون ، وسمع البيان :

(فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)

طبعاً هذه الآية ملخَّص لبيان طويل ، سمع البيان من سيدنا موسى .

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا)

آيات بيانية ، وآيات إعجازية ..

(فَكَذَّبَ وَأَبَى)

من صفات المكذبين : التكذيب ووسم الأنبياء بالسحر :

هذا هو الكفر ، تكذيب وإعراض ، والإيمان هو التصديق والإقبال .

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)

طبعاً كل إنسان عندما يتكلم يتخذ كلاماً عليه مسحة منطق ، أو مسحة من القيم ، لأن الإنسان لا يتكلَّم الحقيقة غالباً ، يخفي أغراضه الدنيئة تحت ستارٍ من بعض القيم الزائفة ..

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)

هذا سحر ، هذه ليست معجزات ، هذا سحر تعلَّمته أنت ، ونحن عندنا سحرة يقفون في وجهك ، أنت لست نبيًّا ، وهذه ليست آيات دالة على نبوَّتك ، إنما هي ألعاب سحرية قُمت بها أمامنا ، ونحن قادرون على أن نرد عليك بسحرٍ مثله ، هكذا قال فرعون ..

محاولة فرعون مجابهة آيات موسى بسحرتِه :

أي مكان متوسِّط يأتيه جميع الناس .

و:

(سُوًى)

بمعني مستوٍ ، و مكان منبسط ، فهو متوسط من حيث الموقع ، ومنبسط من حيث الطبيعة ، يا موسى أنت ساحر ، وأنا عندي سحرة مهرة سوف يقفون في وجهك ، وسوف يردُّون عليك ، لذلك اجعل بيننا وبينك موعداً ، الموعد أي وعداً ، بعضهم قال : الموعد اسم من الزمان ..

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً)

الموعد إما أن يأتي مصدراً ميمياً ، أي وعداً ، وإما أن يأتي اسم زمان ، قال :

(مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ)

(سورة هود : من آية " 81 ")

وإما أن يأتي اسم مكان ، موعدهم جَهَنَّم ، اسم مكان ، أو اسم زمان، أو مصدر ميمي ، يرجِّح علماء التفسير هنا أن تكون مصدراً ، لأن كلمة :

(لاَ نُخْلِفُهُ)

قرينة دالة عليه .

إذاً :

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى)

مكان مستوٍ ومتوسِّط ..

(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ)

ما هو يوم الزينة ؟

إما أنه يوم العطلة الرسمية ، أو يوم السوق ، كان في كل بلد يومٌ للتبادل التجاري ، كما هي العادة في معظم الأرياف ، سوق الأربعاء مثلاً ، سوق الأحد ، سوق الجمعة الذي بجوارنا ، فهذا يوم الزينة إما أنه يوم السوق ، أو يوم العطلة ، حيث الناس يتزيَّنون ، ويرتدون أجمل ثيابهم ..

(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)

وأنسب وقتٍ وقتُ الضُحى ، حيث الشمس ساطعة ، والأمور واضحة ، والناس مرتاحون .

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى)

جمع السحرة من أطراف البلاد ، ومنَّاهم ، وأغراهم بعطاءاتٍ لا حدود لها ، وأغراهم أن يقرِّبَهُم منه فيجعلهم من وزرائه .

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى *قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

بدء المجابهة بين الحق والباطل :

إنه نبيٌّ مرسل ، ومعه معجزة ..

(لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ)

يسحقكم بالعذاب ..

(وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى)

المفتري لا يفلح أبدا :

وهذه آية عامة ، يجب على الإنسان ألاّ يفتري ، لا يتهم اتهامات باطلة ، لا يزوِّر الحقائق ، لا يتكلم بشيء وهو غير مقتنع به ، لا يردد الأقوال الباطلة .

(وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

تنازع واختلاف السحرة في أمر موسى واستقرار رأيهم في تهمة السحر :

أي فرعون والسحرة :

(فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

أي عقدوا الاجتماعات ، واتفقوا فيما بينهم على خطط معيَّنة من أجل إحباط هذه الرسالة ..

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)

اتفقوا واستقر رأيهم مجتمعين على هذه المَقولة ..

(إِنْ هَذَانِ)

موسى وهارون ..

(لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ)

طبعاً إن هذان ، إن حرف مشبَّه بالفعل ، أما إن مخففة ـ تفيد التوكيد ـ هذان لساحران ، وفي ذلك أوجه في الإعراب ..

(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا)

الهدف مادي ، دائماً إذا أراد الكافر أن يتَّهم المؤمن يُسقط الأهداف المادية على دعوته ، يسقط الأهداف الدنيوية ، والمكاسب المادية على دعوته ، قال :

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ)

يريدان المُلك ، يريدان أن يحلا وقومهما محلكم ..

(بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)

إذاً هم يتصوَّرون أن طريقتهم في الحياة مُثلى . لذلك يقول ربنا عزَّ وجل :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

فهذا هو الضلال البعيد أن تكون على خطأٍ كبير ، وتتوهَّم أنك على صواب .. " من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالمٌ فاتبعوه ، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهلٌ فعلّموه ، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطانٌ فاحذروه " .. فهؤلاء ظنوا أنَّهم على طريقةٍ مُثلى ، وعلى شيءٍ بديع ، وعلى صراطٍ مستقيم ، وأن موسى له أهداف مادية يريد أن يحل هو وأخوه وقومهما محل فرعون ، أسقطوا على دعوته الطابع المادي ، وطابع المكاسب الأرضية .

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً)

يا أيها السحرة أجمعوا كيدكم ، كونوا يداً واحدة ، ثم ائتوا صفاً ..

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى)

لكن السحرة فيما تروي الكتب تأدبوا مع موسى ، فقالوا :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى)

فالخيار لكما ، اختر أنت يا موسى ..

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

أنتم ..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

إنما صنعوا كيد ساحر

أتوا بحبالٍ ، وأفرغوها من الداخل ، ووضعوا فيها زئبقاً ، ولوّنوها بألوان الأفاعي ، ووضعوها على أرض حارةً ، فلما حمي الزئبق تمدد فتحركت فخُيِّل إلى الناس أنها تسعى ، شيء عجيب ، هو نبي

ومعه آية ، وهذا الحبل يسعى ، ويتحرك وحده ..

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

خاف ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

ألق العصا ..

(تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا)

وغُلب السحرة ... ولا يفلح الساحر حيث أتى

فإذا هذه العصا تنقلب في ثانيةٍ واحدة إلى أفعى عظيمة تأكل كل هذه العصي والحبال ..

(تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

مبدأ عام ، لا يُفلح الساحر حيث أتى ، السحرة علماء بالسحر ، صنعوا حبالاً ، وزيَّنوها ، ولوَّنوها ، ووضعوا داخلها زئبقاً ، لكن هذا الذي رأوه أفعى حقيقية !! ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

عودة إلى الرشد واعتراف بالحق :

هذا ليس سحراً ، هذه نبوة ، لذلك :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : من آية " 82 ")

تعلَّم من أجل أن تخشى الله ، لا تعرف حقيقة الدين إلا إذا كنت متعلماً ، قال عليه الصلاة والسلام :

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

(من سنن الترمذي عن أبي أمامة الباهلي)

المسافة بين النبي الكريم وبين آخر مؤمنٍ هي نفسها بين العالم والعابد :

((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

(من سنن ابن ماجة : عن " ابن عباس ")

((إن الله عالم يحب كل عالم))

(ورد في الأثر)

((اغْدُ عَالِمًا ، أَوْ مُتَعَلِّمًا ، أَوْ مُسْتَمِعًا ، وَلا تَكُن الرَّابِعَ فَتَهْلِكَ))

(من سنن الدارمي عن عبد الله بن مسعود)

هؤلاء علماء بالسحر ، عرفوا أن هذا ليس بسحر ، ولكنه نبوَّة ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى* قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

عليكم أن تستأذنوني ..

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

تهديد فرعون باستعمال لغة القوة والبطش :

هو ساحر ، هو الذي علّمكم هذا السحر .

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

قال فرعون عندئذٍ : ستعلمون من هو أشد عذاباً أنا أم رب موسى ..

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

لنا عودة إلى هذه الآيات الأخيرة ، ولا سيما موقف السحرة الأخير نتطرق إليها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 65 – 79

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-02-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الخامس من سورة طه ، وصلنا في قصَّة سيدنا موسى مع فرعون إلى قوله تعالى :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى)

السائر على طريق الحق لا يخاف البحث والمناظرة :

لقد خَيَّرَ سحرةُ فرعون سيدَنا موسى ، فإما أن يبدأ هو بإلقاء عصاه التي هي من آيات ربِّه ، وإما أن يبدؤوا هم ، فاختار هذا النبي الكريم أن يبدؤوا هم ، ويعلّلُ بعض العلماء سبب اختياره أنه واثقٌ من أنه على حق ، والحق دائماً لا يخشى البحث ، والحق دائماً لا يعتمد على الكذب ، والحق دائماً واضحٌ جلي، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((تركتكم على بيضاء نقيَّة ليلها كنهارها))

(من الجامع الصغير عن العرباض)

إذا كنت مع الحق فلا تخشَ في الله لومة لائم ، البطولة أن تكون مع الحق لأن الحق أبديٌ أزليٌ سرمدي ، الحق هو الله سبحانه وتعالى ، وليس في الكون حقيقةٌ إلا الله ، فإذا كنت مع الحق فلا تخشَ أحداً ، وإذا كان الإنسان مع الباطل فالباطل سريع الزوال .

تعريف القرآن للحق :

لذلك في القرآن الكريم آياتٌ دقيقةٌ تعرِّف الحق :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ)

(سورة الحجر : من آية " 85 ")

خَلْقُ السماوات والأرض بالحق .

وفي آية ثانية :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا)

(سورة ص : من آية " 27 ")

في آيةٍ ثالثة :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

إذاً الحقُّ ضد اللَّعِب ، والحق ضد الباطل ، الباطل هو الشيء الزائل، واللعب هو الشيء العابث ، فالحقُّ إذاً هو الشيء الثابت ، والحق هو الشيء الهادف ، ثباتٌ وهدفٌ كبير ، هذا التعريف المستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ولذلك قال سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

هو يعلم أنه نبيٌّ مُرْسَل ، ومعه آيةٌ كُبرى ، وأن هناك فرقاً بين آيته وبين صُنْع السحرة ، صنع السحرة نوعٌ من أنواع الكيد ، عمل أرضي ، وآيته سماويَّة ، نوعٌ فيه بطلٌ ، ولكن آيته فيها حقٌّ ..

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

أكبر بطولة أن تكون مع الحق ، ليس للإنسان حالةٌ ثالثة ، إما أن يكون مع الحق يدور معه حيث دار ، وإما أن يكون مع الباطل ، من صفات الحق أنه أزليٌ أبديٌ سَرْمَدِيّ ، من صفات الحقِّ الثبوت ، الديمومة ، القوَّة ، الاستقرار ، الاستمرار ؛ أما الباطل فمن صفاته الزوال ، الانهيار ، التلاشي ، إذا بني الجدار بالباطل فلابدَّ أن يَنْقض ، لابدَّ أن يقع ، وإذا بني بالحق وَفْقَ الأصول الثابتة فسيبقى ، فالإنسان حينما يكون مع الباطل فقد قامر وغامر بمستقبله ، لأن الباطل له جولة ثم يضمَحل ، فإذا كنت مع الباطل كنت زاهقاً معه .

هناك استنباطٌ لطيفٌ جداً هو أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال :

(بَلْ أَلْقُوا)

الحقُّ لا يَخشى البحث ، والحق لا يحتاج إلى الكذب ، والحق لا يُلقى فيما بين الناس خِفيةً ، الحقُّ يُلقى أمام الناس جميعاً ، الحق معه الدليل العقلي ، والنقلي ، والواقعي ، الحق لا تستطيع جهةٌ على وجه الأرض أن تقف في وجهه ، هذا هو الحق ، أما الباطل فيقوى ، ويَضْعُف ، ولكنَّ مصيره إلى الاضمحلال وإلى الزوال ..

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

في القرآن الكريم إيجازٌ رائع ..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

كان من الممكن أن يقول الله عزَّ وجل : بل ألقوا فلمَّا ألقوا إذا حبالهم ، هذا الكلام الذي يُفْهَمُ من السياق لا يذكره القرآن الكريم ، وهذه هي البلاغة ، والبلاغة في الإيجاز ، وفي القرآن الكريم ولاسيما في قصصه الرائعة قفزاتٌ فنيَّة ، أي :

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا)

ثم ألقى السحرة حبالهم وعصيَّهم ، فإذا حبالهم وعصيِّهم ، كلامٌ فيه حشوٌ ، لذلك يعلمنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن البلاغة في الإيجاز ، وأن كل كلامٍ يُفْهَمُ من دون أن يُذْكر ينبغي أن يُحْذف..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ)

فإذا حِبَالُهُمْ

إذا فجائيَّة ، يبدو أنهم صنعوا شيئاً عظيماً ، يقول الله عزَّ وجل في آياتٍ أخرى تتعلَّق بهذه القصَّة :

(وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

(سورة الأعراف)

أي لم يكن هؤلاء السحرة من الغافلين أو من الأغبياء ، ولكنهم سخَّروا كل طاقاتهم ، كل إمكاناتهم ، كل تجاربهم ، كل خبراتهم وضعوها ، لأن فرعون وعدَهم أن يجزل لهم العطاء ، وأن يقرِّبهم منه ، لمعت أمامهم زخارف الدُنيا ، سال لعابهم على مكانةٍ عليَّةٍ عند فرعون ، ولذلك سخَّروا كل طاقاتهم ليردوا آية العصا التي جاء بها سيِّدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ..

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ)

الفرق بين الحقيقة والسحر :

هنا الفرق بين الحقيقة والسحر ، الحقيقة تُرى رأي العين ، لكن السحر يُخَيَّل إليه ، يعبِّرون عن حالة الضعف النفسي التي تؤثِّر فيها أعمال السَحَرَة بالتنويم المغناطيسي ، ولا يستطيع الساحر أو صاحب الحِيَل أن يؤثِّر في الإنسان إلا إذا كان ضعيف الشخصية ، ولذلك يفعل الساحر أحياناً أشياء ليس لها حقيقة ، ولكن يُخَيَّلُ إلى الناس من سحرهم أنها تسعى ، فلم يتأثَّر سيدنا موسى بها ، ولكنه رأى براعتهم في هذا الكيد فخاف على الناس أن يلتبس عليهم الأمر ، هنا المشكلة ، هو يعلم أنه نبيٌّ مُرْسَل ، وأن آيته هي الحق المبين ، وأن أعمال هؤلاء السحرة إنْ هي إلا كيدٌ بشري ، ولكن ما دامت على درجةٍ عاليةٍ من الإتقان خاف أن لا يفرِّق الناس بين آيته الدالَّة على عظمة الله عزَّ وجل وبين أعمال السحرة ، من هنا :

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

جاء في بعض الكتب أنهم وضعوا داخل بعض الحبال وبعض العصي الزئبق ، وأُحْسِنَ تزيينُها ، ورسمها ، ووضِعَت على مكانٍ حار ، فلمَّا تمدَّد الزئبق تحرَّك حركةً زئبقيَّة فتوهَّم الناس أن هذه الحبال وهذه العصي تسعى ، تتحرَّك ..

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

صورة حية عن خوف موسى عليه السلام :

بين الواجس والهاجس :

الواجس هو الذي يسبق الهاجس ، هناك واجسٌ وهاجس ، تأتي الإنسان أحياناً فكرة لا يظهر أثرها على وجهه ، ولكنْ هناك أفكار لها آثارٌ على السطح الخارجي ، قد تُلقي على إنسان خبراً فيصفر لونه ، أو ترتعد فرائصه ، أو يذهب اللُّعاب من فمه ، أو يشتد خفقان قلبه ، الأشياء التي تأتي على الإنسان ، وتغيِّر من طبيعته الخارجيَّة ، هذه ليست واجساً ، إنما هي هاجس ، هذا النبي الكريم أوجس ، أي خالطه بعض الخوف من ألاّ يفرِّق الناس ـ كما قلت قبل قليل ـ بين آيته وبين فعل السحرة ، أو أنه خاف أن يُعْجَبَ الناس بأعمال السحرة ، ثم ينصرفوا دون أن ينتظروا آية الله عزَّ وجل ، إنه بشكلٍ أو بآخر قَلِقٌ على إيمان الناس ، إنه يخشى ألاّ يستفيد الناس من هذه الآية ، إنه يخاف أن يذهب هذا العمل العظيم سُدًى .

النقطة الدقيقة في هذه الآية :

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

(خِيفَةً)

جاءت نكرة ، والتنكير أحياناً يفيد التحقير ، أو يفيد التقليل ، أو يفيد التصغير ، وهي على عظمها لا شيء إذاً ، مثلاً يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من آية " 58 ")

الرحمة كلُّها عنده ، ما أوتي النبي الكريم من رحمةٍ ـ على عِظَمها ـ لا شيء إذا قيست برحمة الله عزَّ وجل علماً ، أن الشيء الثابت أن في قلب النبي رحمة لا تعدلها رحمة ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام أرحم الخلق بالخلق :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

إن النبي عليه الصلاة والسلام أوتي أكبر مقدارٍ من الرحمة ، ومع ذلك إذا قيست هذه الرحمة برحمة الله عزَّ وجل فهي لا شيء ، من هنا قال الله تعالى :

(فبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران : من آية " 159 ")

أما رحمة الله عزَّ وجل فجاءت مُعَرَّفة ..

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف : من آية " 58 ")

قد يأتي التنكير للتصغير ، أو للتقليل ، أو للتحقير ، وقد يأتي التعريف للتعظيم ، فهذا النبي الكريم لم يُداخله خوفٌ كبير ، ولا خوفٌ أدَّى به إلى الجزع أو إلى الفزع ..

(فَأَوْجَسَ)

والواجس قبل الهاجس ، واجسٌ دون الهاجس ..

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

ربنا سبحانه وتعالى طمأنه سريعاً ..

(مُوسَى)

أي يا موسى ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

تطمين الله لموسى وإسكان رُوعه :

أنت مع الحق ..

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

بعض الآيات لو تدبَّرها الإنسان حقَّ التدبُّر لقلبت حياته رأساً على عَقِبٍ ، إن الذي يدمِّر سعادة الناس الخوف والقلق ، إذا علم الإنسان علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى هو كل شيء ، وبيده أمر كل شيء ، وإليه مصير كل شيء ، وما من دابَّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ، وإن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً ، إذا أيقن الإنسان هذا اليقين عرف أن أمره بيد الله . ولذلك ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

قال تعالى :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا(141))

(سورة النساء)

لن هذه لنفي المستقبل ، أي هكذا سُنَّةُ الله سبحانه وتعالى ، وهذه قوانينه ..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا(141))

آيةٌ ثانية :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور ، وتدور ، وتدور ، ثم تستقر على أن تكون العاقبة للمتقين..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

انظر حينما وقف أبو جهلٍ وأبو لهبٍ في وجه الدعوة الإسلاميَّة هل أطفأ الدعوة الإسلاميَّة أم كانت العاقبة عليهما ؟ التاريخ البشري كلُّه يؤكّد أن الحق لا يستطيع أن يقف في وجهه شيء أبداً ..

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

المؤمن هو الأعلى :

في آيات أخرى ..

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

(سورة آل عمران)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج : من آية " 38 ")

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور : من آية " 48 ")

وقد قيل : " إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139))

إذا كنت مع الله في كل علاقاتك الاجتماعيَّة ، في كل علاقاتك الإنسانيَّة فأنت الأعلى ، وإذا كنت مع غير الله فأنت الأدنى ، لكن هناك امتحاناتٍ قاسية ، قد يبدو لك أنك إذا كنت مع الله ستكون الأدنى ، وإذا كنت مع زيدٍ أو عُبيد ستكون الأعلى ، قد يبدو لك الأمرُ هكذا ، الله عزَّ وجل يمتحنك بهذا ، فإما أن تؤثر رضوان الله عزَّ وجل ، وإما أن تؤثر الدنيا ، وسوف نأتي على هذا الموضوع بالتفصيل بعد قليل .

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

لِمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل : وألق عصاك ؟ ألق الحيَّة ..

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

لا شيء إلا بإرادة الله :

قال علماء التوحيد : " إن هذه إشارةٌ رائعة إلى أن الشيء لا يكون على حقيقته إلا إذا أراد الله " ، هذه التي بيدِ سيدنا موسى ما هي ؟ إذا قلنا : هي عصا ؟ لا ليست عصا ، هل هي ثعبان ؟ لا ، إذاً اتصاف الشيء بصفاته لا يكون إلا بإرادة الله عزَّ وجل ، يجب أن نؤمن أن الحديد صُلْبٌ ، لأن الله أراد له ذلك ، وفي أية لحظة يصبح الحديد ليّنا ، إن اتصاف الأشياء بخصائصها ، واتصاف الأشياء بصفاتها ، إن هذه الطِباع التي أودعها الله في الحيوان إنها بإرادته ، وليست بذواتها ، فكل شيءٍ مخيفٍ لك يجب أن تعلم علم اليقين أنه بيَدِ الله ، اتصافه بهذه الصفة عائدٌ لأمر الله ولإرادته ، فألطف عبارةٍ يُعبَّر بها عن هذه العصا .

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ)

أن تكون هذه التي بيمينك عصا فهو بإرادة الله ، أو أن تكون هذه التي في يمينك أفعى فهو بإرادة الله ..

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا)

(تَلْقَفْ)

إنهم جاؤوا بحبالٍ وعصي وجوَّفوها ، ووضعوا في داخلها زئبقاً ، ولوّنوها تلويناً بارعاً ، وجعلوها فوق مكانٍ حار ، وهذا كلّه كذب ، هذا كله تزوير ، هذا كله حِيَل ، أما هذه التي ألقاها سيدنا موسى فهي أفعى بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لم يكتفِ ربنا سبحانه وتعالى أن جعلها ثعباناً ، أو أفعى ، أو حيَّةً كما تأتي بعض الآيات ، وهنالك تفسير لهذا التباين في الأوصاف ، لم يجعلها كذلك فقط ، بل جعلها تأكل حبالهم وعصيَّهم ، هذا أبلغ ، هل تستطيع أفعى أن تأكل عصا أو حبلاً ؟

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

الحق دامغ للباطل :

هل يقوى الباطل على أن يقف في وجه الحق ؟ هل يقوى صُنع نفرٍ من الناس بكيدٍ واضحٍ على أن يُسْكِتَ الحق ؟ ..

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

فإذا تخليت عن الحق افعل ما شئت لن تفلح ، لن تحقّق الهدف .

(إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال : من آية " 36 ")

هناك ما وراء السطور ، وما بين السطور ، الآيات واضحة ، لكن يمكن أن تقاس على كل آيةٍ أشياء كثيرة ..

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

أي إنك لن تفلح إذا أردت أن تُلفت نظر الناس إلى شيءٍ لا ينتمي إلى الحق ، لن تُفلح إطلاقاً إذا أردت أن تستعيض عن شرع الله بشرعٍ وضعي ، لا يمكن أي تشريعٍ وضعيٍ من صنع البشر أن ينجح ، ولا يمكن أن يحقّق أهدافه ، ولا يمكن أن يُفْلِحَ أصحابه لأنهم بشر ، الإنسان مقيدٌ بمصالحه ، مقيدٌ بنزواته ، مقيدٌ بمحدوديَّته ..

(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

حينما رأى السحرة ـ وهم على علمٍ بالسحر وفنونه ـ حينما رأى السحرة العصا أصبحت أفعى وحيَّةً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً)

هذا ما يصنعه الحقّ :

قد يسأل سائل : لِمَ لمْ يقل ربنا عزَّ وجل : فسجد السحرة ؟ قال :

(فَأُلْقِيَ)

وكأن قوَّةً كبيرة ، خطيرةً ، عظيمةً أرغمتهم على السجود ، أُلقي فعل مبني للمجهول ، شيءٌ أرغمهم على أن يسجدوا ، وهو الحق ، هذا الذي فعلوه سحر ، أما هذه فهي آية عُظمى دالَّةٌ على عظمة الله عزَّ وجل ..

(فَأُلْقِيَ)

وكأن شيئاً قد أرغمهم على أن يسجدوا ، إنه الحق ، لذلك الإنسان الذي لا يخفق قلبه للحق إنسانٌ ميِّتٌ، الإنسان الذي لا يقشعّر جلده لآيةٍ دالَّةٍ على عظمة الله إنسانٌ ميِّت ..

ليس من مات فاستراح بميِّتٍ إنمــا المـيِّت مـيِّتُ الأحياءِ

* * *

حسبكم الكون معجزة :

يقول بعض العلماء الذين اكتشفوا أحدث نظريَّة في الفيزياء ، وهي النظرية النسبيَّة ، هذه النظريَّة معقَّدةٌ غاية التعقيد ، إنها تعطي الأشياء بعداً رابعاً ، ألا وهو الزمن ، إنها تؤكد أن الشيء إذا سار بسرعة الضوء أصبح ضوءً ، وأن الشيء إذا تجاوز هذه السرعة عاد الزمن نحو الوراء ، موضوعٌ دقيقٌ لا مجال للحديث عنه ، لكن هذا العالِم يقول : " كل إنسانٍ لا يرى في هذا الكون قوَّةً هي أقوى ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون هو إنسانٌ حي ، ولكنَّه ميِّت".

أي أن هؤلاء السحرة سجدوا للـه عزَّ وجل بعد أن رأوا هذه الآية .

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105))

(سورة يوسف)

أليس ابنك الذي ولد من قريبٍ آية دالّة على عظمة الله ؟ هذا الطفل الصغير الذي يأكل ويشرب مزوَّدٌ بكل الأجهزة الدقيقة ؛ دماغٌ ، وعظامٌ ، وعضلاتٌ ، وأوردةٌ وشرايين ، وقلبٌ ورئتان ، وكليتان ، وعضلات ، هذا الطفل صنع من ؟ من خلقه ؟ من كوَّنه ؟ من صوَّره بهذا الشكل ؟ أليس الطفل المولود حديثاً آيةٌ من آيات الله عزَّ وجل ؟ أليس في خلقكم وفي خلق ما حولنا من حيوان ومن نبات آياتٌ دالّةٌ على عظمة الله ؟

نحن المعنيون بهذه السورة أو هذه القصَّة ، هؤلاء السحرة حينما رأوا هذه الآية سجدوا لله عزَّ وجل ، حسبكم الكون معجزة .

هذه البقرة التي تأكل الحشيش ، تعطي الحليب ، هل في الأرض كلّها جهةٌ تستطيع تحويل هذا الطعام الذي تلتهمه إلى هذا الشراب السائغ الذي يخرج .

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ(66))

(سورة النحل)

أليس في هذا آية ؟ هذه الدجاجة تأكل كل شيء وتعطيك هذه البيضة، تحوي كذا فيتامين ، كذا معدن ، كذا شبه معدن ، هي غذاءٌ كامل ، الآيات التي حولنا لا تُعدُّ ولا تُحصى ، خلق الإنسان ، خلق الحيوان، طباع الحيوان ، خلق النبات ، طباع النبات ، خلق الأرض ، اختلاف الليل والنهار ، الشمس والقمر ، المجرَّات ، الكواكب ، الهواء ، الماء ، آياتٌ لا تعدُّ ولا تحصى ، كأن الله عزَّ وجل يدعونا أن نسجد له..

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

أي هم آمنوا بالله وبرسله ، حينما قالوا :

(بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

أضافوا إلى إيمانهم بالله إيمانهم برسالة سيدنا موسى وسيدنا هارون ، هنا تدخَّل فرعون :

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

سلاح التهديد مفزَعُ الضعفاء :

غاب عنه أن لهذا الكون إلهاً عظيماً ، وأن له آياتٍ دالّةً على عظمته ، غاب عنه أن هؤلاء السحرة رأوا شيئاً جعلهم يوقِنون أن هذا الإنسان الذي ألقى العصا إنما هو رسول الله عزَّ وجل ، غاب عنه ذلك، فكأنه ظنَّ أنهم آمنوا ليفتنوا الناس عنه ..

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

لا يزال مُصِرًّا على أن هذا النبي العظيم هو ساحرٌ كبير ، وأنه إنما يهدِفُ من هذا العمل أن يصرف الناس عن فرعون ، وأن يحلَّ محلَّه في المُلك ..

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

لا يملك فرعون من سلطان من سلطانٍ على هؤلاء الناس إلا أن يقتلهم ، أو أن يعذِّبهم قبل أن يقتلهم ، فله أن يقطّع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، وله أن يصلِّبهم ، لا أن يَصْلِبَهُم ، أي يُكْثِرُ من صلبهم كقولك : قطَّعته و قطَعْتُهُ ، له أن يبالغ في صلبهم على جذوع النخل ، يضعهم على جذع النخل ، ويخرق فيهم المسامير ، وله أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، ثم يؤكِّد فرعون :

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

أنا أم ربُّ موسى ، عجيبٌ أمر هؤلاء السحرة ، قبل قليل ، قبل ساعة كانوا يقولون :

(بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ(44))

(سورة الشعراء)

قالوا لفرعون :

(بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44))

ماذا حصل ليؤمنوا بربِّ هارون وموسى ؟ جاء بهم فرعون ليقفوا في وجه هذا النبي الكريم ، فإذا هم معه ، هذه مشكلة ، أجابوه إجابةً دقيقة جداً ، وجعل بعض العلماء من المفسِّرين من كل فقرةٍ من إجاباتهم رداً على كلام فرعون ..

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

جرأة السحرة بعد إيمانهم برسالة موسى عليه السلام :

أي أننا عرفنا أن هناك إلهاً عظيماً أعظم منك ، وما عنده من خيراتٍ لا تملكها أنت ، وما عنده من عذاب لا تقوى على فعْله أنت لذلك :

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

هذه العصا التي أصبحت ثعباناً مبيناً دلّتنا على أن لهذا الكون إلهاً عظيماً ، وهذا الإله العظيم عطاؤه عظيم ، وعذابه عظيم ، فإذا وازنا بين ما وعدتنا من أن نكون مقرَّبين إليك ، وأن تعطينا بعض الأموال، أو إذا وازنا ما عند الله من عذابٍ عظيم ، وما تُوعدنا به من عذابٍ دنيوي .

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

أي افعل ما بدا لك ، إنك تملك شيئاً واحداً ، إنك تملك أن تقتلنا ، أو أن تقطع أيدينا وأرجلنا من خِلاف كما تقول ، أو أن تصلّبنا في جذوع النخل ، أنك تملك هذا كلُّه ، ولكنَّك لا تملك نفوسنا ، لا تملك قلوبنا إذا آمنت بالله عزَّ وجل ، ولا تملك ما بعد الموت ، تملك الحياة الدنيا فقط ..

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

ماذا شاهدوا من هذه المعجزة حتى حملتهم مشاهدتهم على أن يقولوا لفرعون ـ وفرعون له في ذلك العصر رهبة شديدة ـ أن يقولوا له :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

أي أن كل ما تملكه أن تنهي حياتنا ، وهذه حياةٌ دنيا ليست عُظمى، ليست عُليا ..

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

قال عليه الصلاة والسلام :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

(ورد في الأثر)

اغمس إبرةً في مياه البحر ، ثم اسحبها فانظرْ بِمَ ترجع ؟ هذا الذي أخذته الدنيا من الآخرة ، فلذلك :

(إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا*إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

ردُّوا عليه ، ألمْ يقل فرعون قبل قليل :

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

قالوا :

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

وَاللَّهُ خيرٌ وأبقى

أي ما عند الله من خير ليس بعده خير ، وما عند الله من خلود ليس بعده خلود ، لذلك وازنَّا فوجدنا أن الله خيرٌ وأبقى .

وهذه الآية أيُّها الإخوة ، والله الذي لا إله إلا هو لو تمثَّلناها جميعاً لاتجهنا إلى الله بكليَّتنا ..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

من الدنيا وما فيها ، من زيدٍ أو عبيد ، كل مكاسب الدنيا تنتهي عند الموت ، وكل ما وعد الله به المؤمنين يبدأ بعد الموت ..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

الدنيا زائلة ، الدنيا محدودة لكن الآخرة باقية وأبديَّة ، ماذا قال فرعون ؟ قال :

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

ردُّوا عليه ..

(إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

وعيد الله للمجرمين :

أنت إذا قتلتنا فسوف تنتهي هذه المصيبة بثوان وتبقى الجنَّة لنا ، أما الذي يأتي ربَّه مجرماً ..

(فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياةً فيخفف عن العذاب ، حالةٌ لا توصف ، لا موت ولا حياة ..

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

حينما قلت لنا بعد أن سألناك :

(إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(114)قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(114))

(سورة الأعراف)

ردُّوا عليه :

(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا)

أي أن مكانتنا عند الله إذا آمنا به وأطعناه أفضل بكثير من مكانتنا عندك لو تابعناك على باطلك ، أنت أوعدتنا بالقتل والتعذيب ، لكن ..

(إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

ووعدتنا بالزُلفى منك ، وأن تمدُّنا بما نشتهي ، لكن ..

(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا)

وعد الله للمؤمنين :

شتَّان بين وعدك ووعد الله عزَّ وجل ، وبين وعيدك ووعيد الله عزَّ وجل ، من هنا قالوا :

(لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا)

(جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)

فضل التزكية وثوابها :

من زكَّى نفسه ، ألم يقل الله عزَّ وجل :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2))

(سورة المؤمنون)

هذا جزاء من تزكَّى ، من زكَّى نفسه أيْ طهَّرها من الأدران ، طهرها من الشرك ، طهرها من الكِبر ، طهرها من العُجب ، طهرها من الأنانية ، طهرها من القسوة ، جعلها تصطبغ بالكمال الإلهي ، فالذي تزكَّى هذا جزاؤه عند الله عزَّ وجل .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً)

الأرض اليابسة بالتعريف الدقيق أرضٌ جَفَّ منها الماء ..

(فَاضْرِبْ لَهُمْ)

المعجزة الإلهية العظيمة : طريق في البحر يبَس :

لا على وجه الحقيقة ، أي أشر بعصاك إلى البحر ينفلق طريقٌ كالطود العظيم ، كما جاء وصفه في سورةٍ أخرى ..

(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى)

يبدو أن سيدنا موسى مع أصحابه كانوا قلّة .

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(54)وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55))

(سورة الشعراء)

(فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ(60))

(سورة الشعراء)

لا يوجد تكافؤ ، هم قلّةٌ قليلة مضطهدة ، مستضعفة ، خائفة لا سلاح بيديها تجاه فرعون وجنوده ، لذلك طمأن الله عزَّ وجل هذا النبي العظيم :

(لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى)

إنها معية الله حفظا ونصرا وتوفيقا :

لن يُدركك فرعون ، لن يلحق بك ، لن يطولك ، حينما رأى أصحاب موسى أن البحر من أمامهم ، وأن فرعون من ورائهم خافوا ..

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

هذا إيمان الأنبياء ، سيدنا الصديق رضي الله عنه قال وهو في الغار : " والله يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا " ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما))

(البخاري)

تروي بعض الروايات أنه وقعت عين بعض المشركين على عين أبي بكر ، وقعت العينُ على العين ففزع الصدِّيق وقال : " يا رسول الله لقد رأوني " ، قال : يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

بين قصة موسى في البحر وقصة الصحابة في الخندق :

فأصحاب سيدنا محمد خافوا في غزوة الخندق .

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا(11)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا(12))

(سورة الأحزاب)

أي حينما أحاط الكفَّار بالمسلمين ، وحينما خان اليهود العهد ، وحين انكشف ظهورهم ، وحين كان الإسلام على وشك أن ينتهي ، بقيت المشكلة مشكلة الزمن فقط ، انتهى الإسلام ، وضعهم الله عزَّ وجل في تجربةٍ قاسية حتى قال الضعفاء : " أيعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟! " ..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

فأصحاب سيدنا موسى حينما رأوا فرعون وجنوده من خلفهم والبحر من أمامهم ولا أمل لهم بالنجاة .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ(62))

(سورة الشعراء)

طمأنه ربنا سبحانه وتعالى فقال :

(لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى*فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ)

هلاكِ فرعون وشيعته :

تبعهم في هذا الطريق البحري ، فلمَّا صار فرعون في منتصف المسافة بين البر والبحر ، وكان سيدنا موسى مع أصحابه قد خرج إلى الضفّة الثانية من البحر الأحمر عاد البحر بحراً ..

(فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

هذا ردّ من الله عزَّ وجل على فرعون حينما قال :

(وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ(29))

(سورة غافر)

إذاً ليس هذا الذي هداهم له هو سبيل الرشاد ، إنه سبيل الهلاك ..

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

وفي آيةٍ أخرى ..

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى)

ليست طريقته مُثلى ، وهو لم يهدهم سبيل الرشاد ، بل ..

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

يوم القيامة يلقي الإنسان التبعة على من أضلّه ، فالشيطان يردُّ على هؤلاء :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

آياتٌ كثيرة فيها دعوى أنه : يا رب فلان قد أضلّنا ، وهؤلاءِ قد أضلّوني ، ولكنَّه في الحقيقة لا يضلُّ أحدٌ أحدا ، هذا الذي يبدو لك أن فلاناً قد أضلّه هو في الأساس ضال ، لـو لم يكن ضالاً لما اتبع فلاناً ، إذاً :

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى)

وهكذا قُضِيَ على فرعون ، لأنه أراد أن يقف في وجه الحق ، وإن شاء الله تعالى في درسٍ قادم نتابع هذه القصَّة .

كلمةٌ قصيرة : قصة موسى في حياة المسلمين اليوم :

القصَّة وقعت ، وانتهت ، ولكنَّ المقصود نحن ، فحينما أُلقي السحرة سجَّداً لما رأوا من آيات الله البينات ، نحن نرى في كل يوم ، وفي كل لحظة ، وفي كل ساعة آياتٍ لا حصر لها ، الكون في حدِّ ذاته معجزة ، فيا ترى هل سجدنا لله عزَّ وجل سجود التعظيم ؟ وهل آثرنا جانب الله عزَّ وجل على جانب البشر ؟ هل آثرنا ما عند الله على ما عند الناس ؟ هل آثرنا الآخرة على الدنيا ؟ هل آثرنا طاعة الله على طاعة الشُرَكاء ؟ الإنسان أمام موقف صعب ، وأمام خيار صعب ، إما أن يكون مع الحق ، وإما أن يكون مع الباطل ، إما أن يكون مع الله ربِّ العالمين ، وإما أن يكون مع آلهةٍ لا تملك له نفعاً ولا ضرًّا ، إما أن يصبَّ اهتمامه على الدنيا الفانية أو على الآخرة الباقية ، فهذا الخيار نجح به سحرة فرعون أيَّما نجاح ، وتفوَّقوا ، فالمفروض أن يقول الإنسان :

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

لا أن يؤثر الدنيا على الآخرة ، لا أن يؤثر رضاء زوجته على طاعة الله عزَّ وجل ، لا أن يؤثر رضاء أخيه أو أبيه أو صاحبته على ما عند الله من نعيمٍ مقيم ، الموضوع موضوع اختيار ، فإما أن تختار الأبقى ، وإما أن تختار الشيء الفاني ..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

فالخير من حيث الكميَّة والنوعية ، وأبقى من حيث الأبديَّة ..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(15)بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(16)وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(17)إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى(18)صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى(19))

(سورة الأعلى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 80 – 100

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-02-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

نِعَمُ اللهِ على بني إسرائيل :

بعد أن نجَّى الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من عدوِّهم فرعون يذكرهم في هذه الآيات البيِّنات بنعمه المتتالية ، فقال :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ)

علاقة المؤمن بهذه الآية :

ما علاقتنا بهذه الآية ، ما منا واحد إلا وقد جاءته مصيبة في وقت من الأوقات ، ربما دعا الله عزَّ وجل فصرفها عنه ، يجب أن يذكر دائماً أن الله عزَّ وجل تفضَّل ، وصرفها عنه ، ويجب ألاّ ينسى فضل الله ، وألاّ يعود إلى ما كان عليه ، ربما تأتي المصيبة لتعيد الإنسان إلى جادة الصواب ، ربما تأتي المصيبة لتعقد الصلة بين العبد وربه عزَّ وجل ، ربما تأتي المصيبة لتحمل المرء على التوبة ، ربما تأتي المصيبة لِتُزَهِّدَ في الدنيا ، ربما تأتي المصيبة لتقرِّب من الله عزَّ وجل فإذا جاءت ، ثم صُرِفت بفضل الله ونعمته لا ينبغي للرجل المؤمن أن ينسى فضل الله عليه ، فإذا نسي جاءته أخرى ، وإذا نسي في الثانية جاءته ثالثة ، فكأن الله سبحانه وتعالى أراد من هذه الآية أن يذكّر المؤمنين على الدوام ، أنه إذا جاءت مصيبة ، أو إذا لاح شبح مصيبة فالهدف الكبير أن تقرِّبك من الله عزَّ وجل، الهدف الكبير أن تحملك على التوبة ، أن تطهرك من أدرانك ، أن تعقد صلةً بينك وبين الله ، أن تجعلك أهلاً لرحمته ، أن تجعلك أهلاً لجنَّته، فإذا جاءت ثم صُرِفت بفضل الله ونعمته ، لا ينبغي للمرء أن ينسى ، لا ينبغي أن يُعْرِض ، لا ينبغي إذا ذهبت عنه المصيبة أن يعود إلى ما كان عليه ، لذلك قيل :" من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر "، أي إن أتت المصيبة ، ثم زالت ، فعاد الإنسان إلى ما كان عليه من تفلُّت ، من معاص ، من مخالفات ، من تقصير ، من حب للدنيا ، من

انكباب عليها ، إذا جاءت المصيبة ، وصُرِفت بفضل الله ، ولم تحدث الأثر المطلوب فلابدَّ من الثانية ، ولابدَّ من الثالثة ، إلى أن يحدث الأثر المطلوب ، فلذلك الإنسان العاقل يفهم على ربه ، ما أرسلتها لك يا عبدي إلا لتعود إلي ، ما ضيَّقت عليك إلا لتتوب ، ما حملتك على المكاره إلا لتحمل نفسك على الطاعات ، فلذلك يمكن أن نفهم من هذه الآية تلك الغاية ، والأعمق من ذلك أن نطبِّقها على أنفسنا .

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)

ووَاعَدْنَاكُم جَانبَ الطور الأيمنَ

فسيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وعده الله سبحانه وتعالى بالمُناجاة في جبل الطور ، فاختار من أصحابه سبعين رجلاً لميقاتنا ، وفي أثناء المناجاة نزلت التوراة ، على مَنْ يعود هذا بالنفع ؟ على المؤمنين ، على أتباع سيدنا موسى ، من هنا جاءت الآية :

(وَوَاعَدْنَاكُم)

يا بني إسرائيل ، لأن نفع التوراة عائدٌ إلى قوم سيدنا موسى ، ونفع المناجاة عائدٌ إلى قوم سيدنا موسى ، فجاءت الآية بصيغة الجَمع :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)

الطور هو الجبل ، وهو الجبل الذي تمَّت عليه المناجاة .

(وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ)

الأيمن صفة لجانب ، إذا قُلت : جانب الطور الأيمن فقد وصفت الطور ، فإذا قلت : فقد وصفتَ الجانب ، أي الجانب الأيمن من جبل الطور ..

(وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

المنُّ السلوى :

المَنُّ طعامٌ يشبه العسل ، والسلوى نوعٌ من أنواع الطيور طيِّبة المذاق ، سهلة الهضم ، هكذا جاء في بعض التفاسير ، المقصود أن الله سبحانه وتعالى خصَّهم بطعامٍ نفيس ، وبنبيٍ عظيم ، ووعد نبيَّهم بالمناجاة في جانب الطور الأيمَنَ ، والمناجاة أصبغت على هذا النبي الكريم الصفة الثابتة ، وهي أنه كليمُ الله .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

أمر بالأكل ونهي عن الإسراف والطغيان :

كُلْ من دون أن تطغى ، من دون أن تُفْسِد الحياة ، من دون أن تستعلي على الناس ، من دون أن تأخذ أكثر مما يجب ، من دون أن تقصِّر في الحقوق .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

الطُغيان الخروج عن الطريق المستقيم ، مجاوزة الحدود ، من تجاوز الحدود فهو من الحضرة مطرود، الطغيان أن تأخذ ما ليس لك ، الطغيان أن تقول ما ليس لك بحقٍ ، الطغيان أن تعتدي على الآخرين .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

إيَّاكم أن تتنافسوا في هذه الطيبات ، فتأخذوها من طريقٍ غير صحيح ، تأخذوها من غير حِلِّها ، تستعملوها في غير ما صُنعت له ، العنب من الطيِّبات ، الطغيان فيه أن تجعله خمراً ، فكل مجاوزةٍ في الحدود في الكمِّ ، والنوع ، وطريقة الكسب ، وطريقة الإنفاق ، هو من الطغيان ، فالإنسان إذا اتبع الشرع الحنيف في تعامله مع الأشياء ، وفي تعامله مع الناس ، وفي تعامله مع المواد حقق الهدف من وجوده على وجه الأرض .

(وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ)

لأنكم إن طغيتم فيه انقطعتم عن الله عزَّ وجل ، فإذا انقطعتم عن الله عزَّ وجل وقعتُم في العمى والشقاء، لقول الله عزَّ وجل :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

لا يضلُّ عقله ولا تشقى نفسه ، من ترك الهُدى الإلهي ضلَّ عقله وشقيت نفسه وأهلك نفسه ، فلذلك حينما يطغى الإنسان ينقطع عن الواحد الديَّان ، وإذا تم انقطاعه عن الله عزَّ وجل أصبح شقياً ، شقي بالبعد عن الله عزَّ وجل ، السعادة كل السعادة أن تكون قريباً من الله عزَّ وجل ، والشقاء كل الشقاء أن تكون بعيداً عنه ، لذلك حينما يلغي الله سبحانه وتعالى إنساناً بمعنى يبعده عنه ، ومتى يبعده عنه ؟ إذا خرج عن الطريق الصحيح ، فليحرص الإنسان حرصاً بالغاً على ألاّ يسقط من عين الله .

فليتك تحــلو والحياة مـريرة   وليتك ترضى والأنام غِضابُ

ولـيت الذي بيني وبينك عامـرٌ   وبيني وبين العـالمـين خرابُ

إذا صح منك الوصل فالكل هينٌ   وكل الـذي فوق التراب ترابُ

* * *

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله ، طغيانه في الحياة يسقطه من عين الله ، اعتداؤه على الآخرين يسقطه من عين الله .

يروى كما جاء في بعض الكتب أن حجراً عبد الله خمسين عاماً ضج بالشكوى إلى الله عزَّ وجل ، قال: " يا رب عبدتك خمسين عاماً ، ثم تضعني في أُسِّ كنيف ؟! " فتروي القصة أن الله عزَّ وجل قال له : " تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم " ، تأدب ، أن تكون في أُسِّ كنيف أفضل ألف مرة من أن تكون في مجلس قاضٍ ظالم ، فالإنسان إذا طغى في أي مجال من مجالات الحياة يغضب الله عليه ، وإذا غضب الله عليه فقد هوى ، سقط في الشقاء ، وأهلك نفسه وانتهى .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي)

الطغيان سببٌ لجلبِ غضب الله :

في الحياة شيئان : إذا كان الله راضياً عنك فأنت أسعد أهل الدنيا ، وإذا غضب الله عنك ، ورضي عنك الناس جميعاً فأنت أخسر من في الأرض ، لو رضي الناس عنك جميعاً ، لو رفعوك إلى الأوج ، لو عظَّموك ، لو صدقوك ، إذا غضب الله عنك فلا ينفعك ذلك منهم شيئاً ، فهذا الذي يغضب الله عليه قد هوى وانتهى الأمر .

(فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

من الهويّ أي السقوط ، ومع السقوط الهلاك ، ومع الهلاك الشقاء ، لذلك آياتٌ كثيرة تبيِّن أنه :

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب : 71)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون : 1 - 2)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى*وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى : 14 - 15)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين : 26)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات : 61)

هذا هو الفوز العظيم ، وهذا هو النجاح ، وهذا هو الفلاح .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا*وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا*هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة الأحزاب : 41 - 43)

(وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى)

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : << عجبت لثلاث ، عجبت لمؤَمِّلٍ والموت يطلبه ـ ملك الموت على الأبواب ، وهو يفكِّر في أمالٍ عريضة لا تنقضي في عشرين عاماً ، الكفن قد نُسِج وهو يفكر بتغيير هذا البيت ، وتصميم بيتٍ آخر وَفْقَ أحلامه التي كان يحلم بها .. عجبت لثلاث ، لمؤملٍ ، والموت يطلُبه ، وغافلٍ ، وليس بمغفولٍ عنه ـ هو غافل ، ولكن الله ليس بغافل ، هو يظن أن الله غافل، ولكن الله ليس بغافل ـ وضاحكٍ ملء فيه ، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أم راض .. >> .

كيف يضحك الإنسان قبل أن يتأكد أن الله راضٍ عنه ؟ كيف يقر له قرار ؟ كيف ينام ؟ كيف يغمض له جفن ؟ كيف ؟

(وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى* وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

يا لروعة القرآن ، كلما خفنا من بعض الآيات فُتِحَ باب التوبة ..

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

سَعَةُ مغفرة الله عزوجل للتائبين :

غَفَّار على وزن فعَّال ، صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، شديد المغفرة ، يغفر دائماً ، يغفر كل ذنب ، ومهما تعاظمت الذنوب ..

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(ورد في الأثر)

هكذا في الحديث القدسي ..

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر : من آية " 35 ")

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

شديد المغفرة ، وإذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن أيتها الخلائق هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله " ..

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد))

(من الجامع الصغير عن أبي هريرة)

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ)

أن تعتقد أنه غفور رحيم من دون شروط فهذا نوعٌ من الضلال ، يقول لك : " أخي الله غفورٌ رحيم "، وهو مقيمٌ على معصيته ، ويقول لك : الله غفور رحيم ، وهو مقيمٌ على هذا الذنب ، مجترحٌ لهذه الخطيئة ، مُقَصِّرٌ في هذه الطاعة ، ويقول لك: الله غفورٌ رحيم ، القرآن دقيق .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ)

هذه اللام للتخصيص .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

إن حرف توكيد ، إن حرف مشبَّه بالفعل ، ولكنه يفيد التوكيد ، إذا قلت : الله عليمٌ ، أو قلت : إن الله عليمٌ ، جملة (إن الله عليمٌ)آكدُ من جملة : (الله عليمٌ):

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

هذه اللام لام المُزحلقة ، زُحلقت من اسم إن إلى خبرها .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ)

توكيدان ، إني لغفارٌ ، ولكن :

(لِمَنْ)

هذه اللام للتخصيص .

(لِمَنْ تَابَ)

والتوبة كما تعلمون نَدَمٌ ، وإقلاعٌ ، وعزيمة ، ندمٌ على ما مضى ، وإقلاعٌ عن الذنب في الحاضر ، وعزيمة على ألاّ تقع في مثل هذا الذنب ما حييت ، هذه هي التوبة ، والتوبة تحتاج إلى علم ، لذلك الجاهل لا يتوب ، ذنب المنافق كالذُبابة ، وذنب المؤمن كالجبل يجسم على صدره ، الجاهل لا يتوب ، أما العالم فهو الذي يتوب ، لذلك احضر مجالس العلم كي تعرف أين أنت من الدين ؟ هل أنت في المقدمة ، أم في الوسط ، أم في المؤخرة ؟ هل أنت على الصراطِ المستقيم ، أم أنك بعيدٌ عنه ؟ كيف تتوب ؟ يجب أن تعلم موقعك من الدين ، فالتوبة تحتاج إلى علمٍ أولاً ، ومن لوازمها ندمٌ على ما مضى، وإقلاعٌ في الحاضر ، وعزيمةٌ في المستقبل .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ)

هنا قال بعض المفسرين : " إذا أُطْلِقَت التوبة انصرفت إلى التوبة من الشرك " ، إذا كان هناك تعلُّق بالسِوَى ، اعتماد على ما سوى الله ، اعتماد عليه ، إذا عقدت الأمل على جهةٍ غير الله عزَّ وجل فهذا الشرك يحتاج إلى توبة ، إذا وضعت ثقتك في غير الله فهذا شركٌ ويحتاج إلى توبة ، إذا خِفْتَ من غير الله فهذا شركٌ ، ويحتاج إلى توبة ، إذا رَجَوْتَ غير الله فهذا شركٌ ، ويحتاج إلى توبة ، فإذا أطلقت

التوبة انصرفت إلى التوبة من الشرك ، وسياق هذه الآية يُغَلّبُ أن هذه التوبة من الشِرك ، لمن تاب من الشرك بالله وآمن بالله ..

(لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

تلازم الإيمان مع العمل الصالح :

ما قيمة الإيمان من دون العمل الصالح ؟ إنه كلامٌ فارغ ، ما قيمة معتقدك إن لم يترجم إلى سلوك ، إلى انضباط ، إلى التزام ؟ ما قيمة أفكارك النيِّرة إن بقيت في الدماغ ، ولم تنقلب إلى مشاعر ، وإلى مواقف ، وإلى أخلاق ؟ إذاً :

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

العمل الصالح يشمل تطبيق الأوامر الإلهية في العبادات ، وفي المُعاملات ، وفي الأخلاق ، فيما بينك وبين الله ، وفيما بينك وبين الناس ، في تنفيذ الأوامر والبُعد عن النواهي ، لذلك قال رجل لأحد الأئمة : " عظني " ، قال : " احذر أن يراك حيث نهاك ، وأن يفتقدك حيث أمرك " ، هذه موعظة .

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

تفسير : ثُمَّ اهْتَدَى

بعض المفسرين حمل هذه الكلمة على الثبات ، تاب ، وآمن ، وعمل صالحاً ، وبقي كذلك إلى نهاية الحياة حتى عدَّ مهتدياً ، فلذلك عندما يتوب الإنسان إلى الله عزَّ وجل يجب أن يعقد العزيمة على أنه يعامل خالق الكون ، فهذه التوبة توبةٌ نصوح ، تاب إلى الله ، وانتهى الأمر ، هو يعامل خالق الكون ، هذا الذي ينقُضُ توبته كالمستهزئ بربِّه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم : من آية " 8 ")

(ثُمَّ اهْتَدَى)

أي بقي على ذلك مستمراً على توبته ، وعلى إيمانه ، وعلى عمله الصالح كلِّ حياته حتى عُدَّ مهتدياً ، أما هذا الذي يتوب ، وينقض ، يؤمن ، ويشرك ، يعمل صالحاً ، ويعمل سيئاً ، فهذا ليس مهتدياً ، فالعبرة من كلمة :

(ثُمَّ اهْتَدَى)

أن تكون مستمراً على الهدى ، مستقراً في الإيمان ، إذاً:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

استعجال موسى قومه لمناجاة ربه :

الآن بدأت فِقْرَةٌ جديدة في القصة ، الله سبحانه وتعالى واعَدَ سيدنا موسى في الميقات ، واعده في جبل الطور ليناجيه ، فاختار هذا النبي العظيم من قومه سبعين رجلاً من عَلِيَّةِ القوم ، اختارهم ليذهب معهم إلى المناجاة ، ليتلقَّوا عنه التوراة ، وذهبوا إلى جبل الطور على موعدٍ مع الله سبحانه وتعالى ، يبدو أن سيدنا موسى لما وصل قومه إلى سفح الجبل سبقهم إلى الجانب الأيمن من الجبل ليسعد باللقاء ، ويسعد بالمناجاة ، فعاتبه الله سبحانه وتعالى عتاباً رقيقاً فقال :

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)

لماذا سبقتهم ؟ اختلف العلماء في هذا ، بعضهم قال : " أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفت نظر هذا النبي الكريم إلى أنه لا ينبغي أن تسبق قومك " ، فمن أصول القيادة أن تكون معهم ، أن ترعى شؤونهم ، لا أن تسبقهم ، توجيهٌ لطيف إلى كل من يتولى أمر الناس ، إلى المعلمِ في صَفِّه إذا ذهبت بهم إلى نزهةٍ فلا ينبغي أن تتركهم ، أن تسبقهم إليه ، لعلهم ينقطعون، لعلهم يحرجون ، توجيهٌ لطيفٌ جداً .

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى)

ما الذي جعلك تتعجل إلي ؟ طبعاً الذي أعجله إلى الله شوقه ، أعجله إلى الله هذا اللقاء الذي لا يوصف، مع مَنْ ؟ مع خالق الكون .

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي)

هم قريبون مني ، على الطريق ، في طريقهم إليك يا رب ..

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

الاستعجال إلى طلب رضا الله أمر مطلوبٌ :

لترضى عني ، استنبط بعض العلماء من هذه الآية إذا عَجَّل الإنسان إلى الصلاة يرضى الله عنه ..

((أفضل الأعمال الصلاة في أوقاتها))

(ورد في الأثر)

إذا عَجَّل في أداء فريضة الحج ، إذا عَجَّل في دفع الزكاة ، إذا عجل إلى مجالس العلم ، إذا عجل بالعمل الصالح ، كلما خطر له عملٌ صالح ليعجل إليه ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

(الترمذي)

بادروا أي أسرعوا ، هذه الدنيا ماذا تخبِّئ ، كل يوم ينشق فجره يخاطب ابن آدم : " يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوَّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة " ، هذه الأيام تمضي ، وتمضي ، وتَمضي ، ولابدَّ من يومٍ نفاجأ بشيء يطرأ على صحَّتنا ، لأنّ الله سبحانه وتعالى تفرَّد بالبقاء ، وكل مخلوقٍ يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لابدَّ من الموت ، فالإنسان ولو كان شاباً لابدَّ أن يأتي يومٌ ، قريبًا كان أم بعيدًا يفاجأ بطارئٍ يطرأ على صحَّته ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا ..))

(سنن الترمذي : عن " أبي هريرة ")

صلِّ قيام الليل ..

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب : 41)

احضر مجالس العلم ، أنفق زكاة مالك ، حُجَّ البيت ، افعل الصالحات ، قدِّم خدمةً للناس تبتغي بها وجه الله .. بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا .. ماذا تخبِّئ الدنيا من مفاجآت ، هناك مفاجآت تخبئها الدنيا ولكن كلها سلبية .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا ...))

قد تكون في بحبوحة ، ثم يأتي بعد البحبوحة فقرٌ مدقع ، قد تكون الأمور ميسَّرة فإذا بالأمور تصبح معسَّرة ..

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ...))

غنى مع جهل يجعلك تطغى ، ثعلبة حمامة المسجد حينما صار غنياً ، وجاءه رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يطالبه بالزكاة قال له : قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة ..

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ...))

قد يأتي المال ليهلك صاحبه ، قد يأتي المال ليَحْمِلَ صاحبه على الكفر .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

يفسد عليك حياتك .

((أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

إذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل فهو من خيرٍ إلى خير ، ومن زيادة إلى زيادة ، ومن إقبالٍ إلى إقبال ، ومن رفعةٍ إلى رفعة ، ومن تمكينٍ إلى تمكين ، أما فإذا أمضى حياته في المعاصي فهو من ذُلٍ إلى ذل أشد ، ومن ضياع إلى أشد ، وهكذا ، إنه خطٌ بياني ، فإما أنه صاعد ، وإما أنه نازل ، فالمؤمن له خطٌ بيانيٌ صاعد ، إذاً قال :

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

الاستعجال في الصلاة محمود ، الاستعجال في الزكاة محمود ، الاستعجال في الحج محمود ، الاستعجال في حضور مجالس العلم محمود ، قد تكون أبرز فكرةٍ في الدرس موجودة في أوَّله ، تأتي بعد ربع ساعة مفتاح الدرس ضاع منك ، فالاستعجال محمود في حضور مجالس العلم ..

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

فتنة قوم موسى بالسامري :

سيدنا موسى وهو يناجي ربَّ العزّة إذا به يبلَّغ أن قومه قد فُتِنوا ، ما هذا الخبر السيّئ ؟ الحياة كلُّها متاعب ، المناجاة والسعادة في الإقبال على الله عزَّ وجل ، أما الانغماس في نعيم القُرب هذا مدَّخرٌ لك في الآخرة ، هنا درسٌ بليغ ، لكنَّك في الدنيا مكلَّفٌ أن تكون في خدمة الخلق ، خدمة الخلق مقدَّمةٌ على حظوظ نفسك العُليا ، لا أقول الدنيا بل العُليا ، إذا كنت مع أصحابك فكن معهم دائماً حُلَّ مشكلاتهم ، سيدنا موسى وهو في المناجاة قال له الله سبحانه وتعالى :

(فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

ما القصَّة ؟ ماذا حصل ؟ عندئذٍ قطع هذا النبي العظيم مناجاته ، وعاد سريعاً إلى قومه ..

(فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

رجوع موسى غضبان أسفًا :

قال علماء اللغة : " كلمة غضبان على وزن فَعْلان ، وهي صفة مشبهة باسم الفاعل ، والصفة المشبَّهة باسم الفاعل على وجه الثبوت دائماً ، بينما اسم الفاعل على وجه الحدوث " ، ولكن لأن النبي ليس من عادته الغضب ، فكلمة غضبان بحقِّ هذا النبي ليست صفة مشبَّهة ، بل هي اسم فاعل على وجه الحدوث ، لا على وجه الثبوت ، فهو غضب ، والغضب المقدَّس هو أن تغضب لله ، أن تغضب لله ، وأن ترضى لله ، وأن تحبَّ لله ، وأن تكره لله ، وأن تعطي لله ، وأن تمنع لله ، هذا هو الإيمان الكامل ..

"لا يكمل إيمان المرء حتى يحبَّ في الله ، ويبغض في الله ، ويغضب لله ، ويرضى لله ، ويعطي لله ، ويمنع لله " .

غَضِب لأن قومه قد ضلوا وفُتِنوا وعبدوا غير الله عزَّ وجل ، لذلك ضحَّى بمناجاته ، وعاد إلى قومه سريعاً .

(فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

غضبان على وزن فعلان صيغة مبالغة اسم الفاعل .. كما قلت قبل قليل .. وهي اسم فاعل لا صفة مشبَّهة ، أسِفْ على وزن فَعِلْ أيضاً صيغة مبالغة ، كأن تقول : حَذِرْ ، أسِفَ أي متأسِّف على ما حصل.

(قَالَ يَا قَوْمِ)

مواجهة موسى قومه وأخاه هارون والسامري :

ثلاث جهات : أولاً القوم ، وثانياً أخوه هارون ، وثالثاً السامري ، توجَّه إلى قومه ..

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً)

عدم الصبر باب للشرّ :

أنتم موعودون أن أعود إليكم ، ومعي التوراة ، ألَمْ تُبَلَّغوا هذا الوعد ؟..

(أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ)

ما تحملتم ثلاثين يومًا ؟ أشركتم ، عبدتم غير الله ، أين عقولكم ؟..

(أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي)

ما الذي حصل ؟ أردتم أن يغضب الله عليكم ؟ أردتم الشقاء ؟ ..

(أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي)

اعتذار قوم موسى :

الموعد هو الوعد ، مصدر ميمي ، وعد موعداً ، وركب مركباً ، أي فأخلفتم وعدي ..

(قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)

أي أنهم أرادوا أن يعتذروا إليه أنهم ما أرادوا ذلك ، لكنَّهم انساقوا إلى هذا سوقاً ، اعتذروا له بأنهم ما قصدوا أن يعبدوا غير الله ، ما قصدوا أن يشركوا بالله ، لم يبذلوا جهداً ليفعلوا ذلك ..

(قالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا)

أي باختيارنا ، لا نملك أن نفعل غير ما فعلنا ..

(وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ)

أوزار جمع وزر ، وهو الحِمْل ..

(حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ)

ألقى الفراعنة حليَّهم التي كانت معهم ، فأخذها قوم موسى ، وكانت بكميَّاتٍ كبيرة .

(حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا)

قذفوها في حفرةٍ ، وأضرموا بها النار لتسيح ..

(فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

السامري الفتّانُ :

فجاء رجلٌ فتَّانٌ ، داهيةٌ ، مراوغٌ ، ذو ذكاءٍ خبيث فصنع من هذه الحلي عجلاً جسداً ، أي تمثال من الذهب على شكل عجلٍ ، فُرِّغَ داخله فأصبح له خوار ، إذا دخلت فيه الريح صار له صوت صفير ..

(فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ)

كان بارعاً في صناعة الذهب ، كان صائغاً ..

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا)

استنبط العلماء أن السامري له أتباع وأعوان اتفقوا على إضلال قوم موسى ، وعلى فتنتهم ، وعلى أن يُزَيِّنوا لهم الذهب كإلهٍ يُعْبَدُ من دون الله .

(فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ)

هذا هو الإله الذي ذهب إليه موسى ليناجيه ، هو هنا أصلح الله موسى إلى أين ذهب ؟ هذا هو الإله ، هذا كلام الضالين من قوم موسى ..

(هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

نسي موسى أنه هنا ، ذهب إليه ، وهو هنا ، ما هؤلاء الأشخاص ؟ ما هؤلاء القوم ؟ أين عقولهم ؟ ألَمْ يروا بأمِّ أعينهم كيف أصبح البحر طريقاً يبساً ؟ وكيف صارت العصا حيَّةً مبينة ؟ وكيف كانت يد هذا النبي الكريم مشعلاً وضَّاءاً ؟ أين العقول ؟ إذا عطَّل الإنسان عقله أهلك نفسه ، هم عطَّلوا عقولهم ..

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

نسي موسى أن إلهه هنا ، هذا في بعض التفاسير ، قال ربنا عزَّ وجل :

(أفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً)

صفة الكلام كمال في الخالق المعبود :

هذا العجل من الذهب الخالص الذي يعبدونه ألم يروا أنه لا يكلّمهم ، إذا سألوه لا يجيبهم ، إذا رَجَوه لا يتحدَّث إليهم ، إذا استجاروا به لا يجيرهم ..

(أفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً)

فينبغي أن تعبد إلهًا يجيبك ، إذا سألته أجابك ، وإذا استغفرته غفر لك ، وإذا استغثته أغاثك ، وإذا استجرته أجارك ، وإذا تُبت إليه تاب عليك ، وإذا ناجيته سمعك ، هكذا يجب أن تعبد الله عزَّ وجل ..

(أفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً)

كل ما سوى الله لا يملك نفعا ولا ضراً :

لماذا تعبدونه إذا كان لا يجيبكم ولا ينفعكم ولا يضرُّكم ؟ هناك معاني عكسيَّة دقيقة أن الله سبحانه وتعالى يسمعنا إذا دعوناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، ويعطينا إذا طلبنا منه ، ويغفر لنا إذا استغفرناه ، ويتوب علينا إذا تبنا إليه ، وينفعنا بالخيرات ، وإذا عالجنا جعل حياتنا جحيماً ، بيده الخير ينفع ويضر ، أو يضر لينفع ..

(أفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

إنكار هارون على قومه عبادة العجل :

عرف سيدنا هارون حجم المشكلة ، وعرف أنهم قد ضلّوا ، وأنهم قد فُتِنوا ، ونبَّههم ، وحذَّرهم ، وبيَّن لهم المصير ..

(وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ)

ربكم الله الذي أنقذكم من فرعون ، الذي ذبَّح أبناءكم ، واستحيا نساءكم ، ورأيتموه كيف يغرق في البحر أمامكم ، مَنْ أهلكك فرعون ؟ الله سبحانه وتعالى ، رأيتم كيف أصبح البحر طريقاً ، والعصا حيَّةً ، واليد مصباحاً ..

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

لكنَّهم لم يستجيبوا لهذا النبي .. لسيدنا هارون .. ولم يعبؤوا بكلامه ، ولم ينصاعوا لأمره ، عندئذٍ :

(قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ)

لن نستجيب لك ، لن نترك عبادة هذا الصنم ..

(قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)

سيدنا موسى ترك القوم ، والتفت إلى أخيه الذي استخلفه على قومه ..

(قَالَ يَا هَارُونُ)

بين موسى وهارون :

كان سيدنا موسى عصبيَّ المزاج ..

(قَالَ يَا هَارُونُ)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((الحدَّة تعتري خيار أمَّتي))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف)

(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

حينما رأيتهم ضلوا ، وانحرفوا ، وفسدوا ، وعبدوا هذا الصنم ماذا فعلت أنت ؟ لِمَ لَمْ تتبع أمري ؟ لِمَ لَمْ تتبع كما أتبع أنا معهم أزجرهم ، أعاقبهم ، أنهاهم ، أحذِّرهم ، ألا تتبعني في قومي ، بأن تقلدني في فعلي معهم ؟ ..

(أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

وأدركه الغضب فأخذ لحية أخيه ، وجَرَّه إليه من لحيته ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ)

استرحاماً وتعطُّفاً ، أنا أخوك ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)

خفت أن أُجْبِرَ جماعةً على شيء ما ، وينشقَّ الآخرون فيصبحوا فريقين ، فيقتتلوا ، وتعود فترى فتنةً لا حدود لها ، ألم تأمرني أن أصلح بينهم ، وأن أوفِّق بينهم ؟ وقف بعضهم موقف المعاند ، وقف بعضهم موقف الرضى ، لو أنني فعلت كما تقول لانشقوا ، وفُتَّ هذا في عضدهم ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي)

قياس وعبرة :

قاسَ بعضهم على هذه الآية أنه عندما أمر النبي عليه الصلاة والسلام ببعث أسامة ، فأدركته المنيَّة ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن ينفذ هذا البعث ، وأراد سيدنا الصديق بعد وفاة رسول الله وظهور الفتن وحروب الردَّة أن يُنْفِذ بعث أسامة ، حيث تململ بعض الصحابة ، أن الجزيرة العربية فيها حروب الردَّة ، والعرب تركوا الإسلام ، وخرجوا منه ، فما معنى أن نذهب إلى بلاد الروم لنحاربهم ؟ علينا أن نطفئ هذه الفتن الداخليَّة أولاً ، سيدنا عمر أدرك أن هناك من يعترض على إنفاذ بعث أسامة ، فجاء هذا الصحابي الجليل ـ سيدنا عمر ـ إلى سيدنا الصديق ، وعرض عليه أنه ليس من الحكمة الآن إنفاذ ـ بعث أسامة ـ وأن العرب قد ارتدوا ، وأن الأولى أن نطفئ الفتن الداخلية قبل أن نلقى العدو الخارجي ، وأنَّ وأنَّ ، فما كان من هذا الخليفة الوديع الحليم الرقيق إلا أن أصبح كالأسد الهَصور ، أمسكه من لحيته ، وهزَّها حتى كاد يخلعها ، وقال : "ثكلتك أمَّك يا بن الخطَّاب ، أجبَّارٌ في الجاهليَّة خوارٌ في الإسلام؟! "

فسَّر بعضهم هذه القصَّة أن سيدنا عمر كان مع الصديق في إنفاذ بعث أسامة ، ولكنَّه أراد أن يعرض وجهة نظر المعارضة ، سيدنا الصديق حينما جعله عبرةً لمن يعتبر رضي أن يكون كبش الفداء ليقوِّي موقف سيدنا الصديق ، هذا تصرفٌ ذكيٌّ جداً من سيدنا أبي بكر ومن سيدنا عمر.

بعضهم يحمل هذه القصَّة على ذلك ، سيدنا موسى حينما أخذ برأس أخيه يجرُّه إليه أراد أن يضعضع عزيمة المُعارضين الذين فُتِنوا ، وأشركوا ، فلذلك ما أراد بهذا أن يهين أخاه إنما أراد أن يقوي مركز الحق ، وأخوه يعرف ذلك ، وقد غفر له ذلك ، لنفعل ما نشاء في سبيل الحق .

إذاً أراد هذا النبي الكريم أن يظهر قوَّة الحق ، ويبدو أن سيدنا هارون قبلَ أن يكون كبش الفداء إحقاقاً للحق ، فحينما رأوا سيدنا موسى قد غضب هذا الغضب الشديد ، وأخذ برأس أخيه يجرّه ارتعدت فرائص القوم ، وعادوا عن شركهم ، وأذعنوا إلى نبيهم ، وقضي الأمر .

حكمةٌ بالغة ، أحياناً يتجه الأب إلى الأم ، ويقرِّعها تقريعاً شديداً إذا هي عرضت وجهة نظر أولادها التي لا تُرضي الله ، فحينما يرى الأبناء أن الأب صبَّ غضبه على الأم ، وهي شريكته في الحياة ترتعد فرائصهم ، هذا التفسير يليق بهذا النبي الكريم ..

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ)

(أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

جاء برأس الفتنة ، هذا الخبيث ، تعال إلى هنا ، بعد أن وبَّخ القوم ، وعنَّف أخاه ..

(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

ما القصَّة ؟ ما الأمر ؟ ما الذي حدث ؟ ماذا فعلت ؟ لماذا فعلت هذا؟ ..

(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

هذه الآية اختلف المفسِّرون في تفسيرها ، من أوجه التفسيرات أن السامري عاش مع سيدنا موسى ، اقتبس منه ، من آثاره ، من بعض أقواله ، من بعض تفسيراته شيئاً ، وأوهم الناس أنه كذلك ..

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ)

أي من أثر سيدنا موسى ، وهذا أسلوبٌ متَّبَعٌ حينما تخاطب إنساناً بطريقة الغائب ، قد تقول للأمير وهو أمامك : ما قول الأمير في هذا الموضوع ؟ فسيدنا موسى حينما سأله : يا سامري لماذا فعلت هذا ؟ قال :

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ)

بحثت عن الزعامة ، بحثت عن السُلْطة ، عن القيادة ، أردت أن أكون مكانك ..

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا)

(وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

أي أردت أن أكون مكانك ، أردت أن أنازعك هذا المقام ، تعلّمت منك شيئاً ، وألقيته على مسامعهم فصدَّقوني ، وجئت بهذا العجل ، وصنعته لهم من الذهب الخالص بطريقةٍ رائعة ، وجوَّفته لهم فصار له صوت فقلت : هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب إليه ، ونسي أنه هنا ، هكذا ..

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ)

أراد أن ينازعه مقامه ..

(فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا)

أي أراد بهذا أنه استعان ببعض أقواله وأساليبه في تصرُّفاته مع القوم لينازعه الأمر ..

(فَنَبَذْتُهَا)

ألقيتها أمامهم ..

(وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

بعض التفاسير تقول : " إنه رأى جبريل عليه السلام وهو على فرس ، فأخذ أثراً من التراب التي داستها الفرس ، وألقاها على العجل فصار عجلاً حيًّا يتحرَّك " ، هذه الرواية ضعيفة ، قال سيدنا موسى:

(قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ)

مقاطعة الفتنة والفتانين :

أي أنه أمر الناس بمقاطعته ، لا يكلّمونه ، ولا يكلّمهم ، ولا يقربونه ، ولا يقربهم ، ولا يعاملونه ، ولا يعاملهم ، أي قطيعة تامَّة جزاء ما اقترفت يداه ..

(قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ)

وقال بعضهم : " أُصيب بمرضٍ مُعْدٍ جعله منبوذاً " ، وبعضهم قال: "حُرِمَ الذُرِّيَّة " ، كلُّها أقوالٌ توضِّح معنى ..

(لَا مِسَاسَ)

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ)

إضلال الناس جريمة في حقِّ الإنسانيَّة ، أن تُضِلّهم عن سواء السبيل ، أن تصرفهم عن الحق ، أن ترغِّبهم في الباطل ، أن تزيِّن لهم الكفر والضلال ..

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً)

هذا العجل حُرِّق إهانة له ، ثم ألقي في البحر ..

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

هذا هو الإله العظيم خالق السماوات والأرض ..

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

(سورة الشعراء : 79 – 81)

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ)

الله صاحب الأسماء الحسنى :

صاحب الأسماء الحُسنى ، والصفات الفضلى ، السميع البصير ، الرحمن الرحيم ، المعزُّ المذلُّ ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، هذا هو الإله ..

(الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

لا مسيِّر للكون إلا هو ، ولا معبود بحقٍ إلا هو ..

(وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)

وهكذا تنتهي هذه القصَّة عند هذه الآية بقوله تعالى :

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ)

هذا من الغيب الماضي ، وذكر هذه القصَّة على هذا النسق دليل نبوَّة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ..

(وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً)

هذا الذكر القرآن الكريم ..

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

الإعراض عن القرآن ضنك في الدنيا وخزي يوم القيامة :

يحمل عبئاً ثقيلاً ، عبء المعاصي التي اقترفها بسبب جهله ، عبء الذنوب ، عبء الانحرافات ، عبء الضلال ، عبء الإضلال ، عبء الفساد ، عبء الإفساد ، كل هذا الذي يحدث بسبب عدم حمل هذا الكتاب وعدم فهمه ، لذلك فالقرآن غنىً لا فقر بعده ، ولا غنىً دونه ، وليس على وجه الأرض عملٌ أجلُّ من أن تعرف كلام الله لتهتدي بهديه فتأتي يوم القيامة ، وقد حققت الهدف من وجودك .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 99 – 114

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-03-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس السابع من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً)

وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْرًا

الذِكْرُ هو القرآن الكريم ، فيه ذكر الحقيقة ، وفيه ذكر الأمر الإلهي ، والنَهي ، وذكر مصير الإنسان ، وفيه ذكر الجنة ، والنار ، والطريق المستقيم ، فيه خبر من كان قبلنا ، وفيه نبأ من سيأتي بعدنا ، إنه القرآن الكريم ، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا .

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

مخالفة القرآن والإعراض عنه أصلُ الشقاء :

هذا الذكر الحَكيم ، هذا القرآن الكريم الذي فيه طريق سعادتنا ، والذي فيه تعريفنا بأنفسنا ، وتعريفنا بخالقنا ، وما ينبغي لنا أن نفعل ، وما لا ينبغي لنا أن نفعل ، وما هو الحق ؟ وما هو الباطل ؟ وما هو الخير ؟ وما هو الشر ؟ وإلى أين المصير ؟ وأين كنا ؟

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

أي من اتخذه وراءه ظهريًّا ، ومن لم يعبأ به ، ومن استخف به ، ومن قال : إن هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمن ، ومن رأى أن أوامر الله عزَّ وجل في كتابه الكريم ثقيلة ، ومن رأى أن قوله تعالى :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور : من آية " 30 ")

من يقول : أين أذهب بعيوني ، وكأنه رأى هذا الأمر تكليفاً ثقيلاً ، فأعرض عنه ، وحينما قرأ قوله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة : من آية " 271 ")

فقال : هذا هو الربا الاستغلالي ، نحن نبيح الربا الاستثماري ، فالربا ربا ، والله سبحانه وتعالى قال :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة : من آية " 271 ")

صوَرٌ مِن الإعراض عن القرآن :

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ)

من لم يعبأ بهذه الأوامر ، ومن استخف بها ، ومن رأى أن الإجراءات الوضعية التي يضعها الإنسان فيها تلبية لحاجاته اليومية ، وتتمشى مع تطورات العصر ، ومن انطلق في اعتقاده من هذا الاعتقاد ، فهذا أيضاً يشمله قوله تعالى :

(مَنْ أعْرَضَ عَنْهُ)

أحياناً ترى على آلةٍ ضخمةٍ مِفتاحاً كتب فوقه التشغيل ، يا ترى ما مصداقية هذه الكلمة ؟ هل هي صحيحة ، أم مبالغ بها ؟ إذا ضغطت هذا المفتاح فتحركت هذه الآلة الضخمة ، أليس تحرك هذه الآلة الضخمة مؤكداً إلى مصداقية هذه الكلمة ، ولو أن الإنسان تتبع ما يجري في الكون ، أو ما يجري للناس في تحركاتهم اليومية لوجد أن كل من طبَّق كلام الله عزَّ وجل سعد في الدنيا والآخرة ، وكل من حاد عنه شقي في الدنيا والآخرة ، فإلى أن يمتلك الإنسان هذا اليقين القطعي أن كل الذي أمرنا به في هذا الكتاب خيرٌ مطلقٌ محضٌ ، وأن كل الذي نهينا عنه في هذا الكتاب شرٌ مطلقٌ محضٌ ، إذا تكوَّنت عندنا هذه القاعدة وهذه العقيدة ، عندئذٍ نقرأ كلام الله فنستسلم لأمره ، وننتهي عما عنه نهى ، فالقضية قضية موقف ، وكل المسلمين في هذا الزمان يقرؤون هذا الكتاب ، ويتبرَّكون به ، ويضعونه في أجمل أمكنةٍ في بيوتهم ، ويتباركون به ، ويضعونه في مكتباتهم ، وفي محلاتهم ، وفي غرفهم ، وفي أماكِنهم، ويزيِّنون جدران بيوتهم بآياته ، وهذا السلوك لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، فالقضية أن القرآن إذا أمرك بأمر هل أنت مع هذا الأمر ؟ إذا قال الله لك :

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة : من آية " 221 ")

الإعراض عن تزويج صاحب الدين الفقير :

فهل تؤثر في تزويج ابنتك المؤمن الفقير على المنحرف الغني ، إذا قرأت القرآن وقلت : صدق الله العظيم ، ولم تكن في هذا المستوى ، بحثت عن زوجٍ لابنتك غني ، وتساهَلت بدينه ، ورفضت زوجاً

فقيراً على الرغم من تمسكه بدينه ، وإذا فعلت ذلك فأنت لم تقل : صدق الله العظيم .

الإعراض عن غضِّ البصر :

وإذا أمرك الله عزَّ وجل أن تغض بصرك عن محارم الله ، ورأيت في إطلاق البصر متعةً لا تصور فأنت لم تقل : صدق الله العظيم ، بل أنت قد أعرضت عن هذا الكتاب ، فالقضية ليست قضية تبرك ، وقضية أن تضعه في جيبك ، وأن تضعه في مركبتك ، بل القضية أعمق من هذا ، فهل أنت مع أمره ونهيه ؟ وهل أنت موقنٌ يقيناً قطعياً أن في أوامره الخير الجزيل ، وأن في الحيد عن خطه المستقيم شقاءً لا يعدله شقاء ، فهذه الآية تؤكد ذلك :

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

فمثلاً في زواج الإنسان لو لم يتبع هدي القرآن الكريم لم يسعد بهذا الزواج ، وكذا في تجارته ، ومن لم يتبع هدي هذا القرآن الكريم لا يحقق أهدافه من عمله ، في كل حركاته ، وسكناته ، وفي صحته ، وفي علاقته بنفسه ، وبجسده ، وبربه ، وبزوجته ، بأولاده ، بجيرانه ، بزبائنه ، بمن حوله ..

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

جزاء الإعراض : تحمُّل الوزر :

كلمة يحمل ، و وزر ، الوزر الحمل الثقيل ، فقد تجد إنساناً عَلَتْهُ الكآبة ، فتسأله : مالك ؟ يقول لك : حملي ثقيل ، له قضيةٌ تستوجب مصالحة بمبلغٍ كبير ، فتراه لا ينام الليل ، ويخشى من شبح مصيبةٍ تُنْهِكُ قواه ، وتبدد أمواله ، يقول لك : حملي ثقيل ، فالإنسان إذا خالف أمر الله عزَّ وجل يحمل حملاً ثقيلاً ، ولو أنه انساق مع شهوته ، وسبب شقاء فتاةٍ كان من الممكن أن تكون زوجةً صالحة ، إنها تُلاحقه في كل أوقاته ، تلاحقه بخيالها ، لقد جعلتها امرأةً ساقطة بعد أن كان من الممكن أن تكون امرأةً شريفة ، لقد حمل من الوزر ما لا يطيق ، فالإنسان حينما يبني غِناه على فقر الناس ، أو حينما يبني سعادته على شقاء مهم ، يحمِّل نفسه ما لا يطيق ، فلذلك :

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً)

أي أنه ما من سعادة أعظم من أن تكون خالي الساحة من كل تبعةٍ أو مسؤولية ، فهذا الذي يطيبُ لونه دليل أن عمله طيِّب ، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى رَفَعَ راحة البال وصلاح البال إلى مستوى الهدى ، فقال :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5))

(سورة محمد)

أن تنام قريرَ العين ، وأن تنام مطمئن النفس ، فلو أن حياتك خشنة، ولو أن فيها متاعب مادية ، أو لو أن عملك يقتضي جهداً عضلياً كبيراً ، أو أنك واصلت الليل بالنهار من أجل قوت أولادك ، وتنام ساعاتٍ عديدة فتستعيد نشاطك ، ولكن هذا الذي بنى مجده على أنقاض الناس ، وبنى غناه على فقرهم ، وسعادته على شقائهم ، إنه يحمل حملاً ثقيلاً قد نقول في أنفسنا كيف يحمله ؟

وكيف تستطيع أن تنام الليل ، وقد آذيت حيواناً ؟ وهذا الذي يتسلَّى ، ويدهس كلباً في أثناء سيره كيف ينام الليل ؟ ويوم القيامة كما حدثنا النبي عليه الصلاة والسلام يأتي عصفورٌ وله دويٌ كدوي النحل يقول : يا ربي، لمن اصطاده لغير مأكلةٍ ، يقول :

((يا ربّ سَلْهُ لِمَ قتلني؟))

(ورد في الأثر)

فهذا الحمل الثقيل لا يعرفه إلا من ذاقه .

ومن وقع في مخالفةٍ لأمرٍ بشري ، وهذه المخالفة تقتضي غرامةً كبيرة ، أو تقتضي عقاباً أليماً ، قبل أن يضبط بهذه المخالفة تراه كأنه يحمل حملاً ثقيلاً ، يكادُ يسحقه ، فالحمل الثقيل لا يعرفه إلا من ذاقه ، وقد يكون الحمل الثقيل معنوياً ، أو إساءةً لإنسان ، أو هذا الذي يُطلِّق امرأته بلا سبب ، في ساعة غضبٍ شرَّدها وجعلها خارج البيت ، وله منها أولاد ، ولم تسئْ إليه ، إلا أنه أراد أن يشفي رغبة أمه أحياناً ، فهذه الزوجة المظلومة ، قد تخاطبه ليلاً نهاراً : ماذا فعلت له حتى عاملني هذه المعاملة ؟ هذا حملٌ ثقيل .

المعاصي حِمل ثقيل :

والمعاصي والذنوب والآثام ، حملها ثقيل ، والنفس لا تقوى على حملها ، وإن تعذيب الإنسان لذاته شيءٌ لا يعرفه إلا من ذاقه ، فالإنسان كلّما كان مستقيماً ، وكلما كان مُحسناً ، ومنضبطاً ، وأشد خوفاً لله عزَّ وجل ، شعر براحةٍ لا تعدلُها راحة ، والمظاهر المادية لا قيمة لها ، فإنها لا تَهَبُنا السعادة ، وإن المال الوفير ، والفراش الوثير ، والبيت الكبير ، والمركبة الوطيئة ، والسمعة المتألِّقة هذه كلها أقنعةٌ كاذبة لا تهبنا السعادة، إن السعادة تتأتَّى من أن تكون عضواً نافعاً في المجتمع ، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

ماذا قدَّمتَ مِن خدمات ؟

السؤال الخطير : ماذا أديت لبني البشر من خدمات ؟ هل دللتهم على الله عزّ وجل ؟ وهل ساهمت في تخفيف الآلام عنهم ؟ أكنت عضواً نافعاً ، أيتعلق عملك بخدمتهم أم بسلبهم حرّياتهم ؟ وكيف تعيش ؟ ومن أي جهةٍ تُرزق ؟ أترزق من نفع الناس أم بالإضرار بهم ؟

يا أيها الإخوة الأكارم ... كلما حَسُنَ عمل الإنسان سعد في الدنيا والآخرة ، وإن الحمل الثقيل حِمْلُ المعاصي والآثام ، وحمل البغي والعدوان ، والخروج عن أوامر الشرع ، والإساءة إلى الناس ، وإن هذا الحمل الثقيل يسحق الإنسان ، وربنا سبحانه وتعالى في آخر سورة البقرة قال :

(رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة : من آية " 286")

دخل رجلٌ إلى بيته ، وهو مخمور ، فقتل امرأته وخمسة أطفالٍ له ، فلما صحا ماذا فعلت يداه ؟ لو أن أحداً لم يحاسبه ، أو لم يلقَ القبض عليه ، ألم يحمل حملاً لا يحتمله ؟ طبعاً هذه حالةٌ حادةٌ ، مثلٌ حاد ، ولكن إذا غششت امرأً مسلماً في البيع قال لك : بالله عليك انصحني ، وأنت لم تنصحه ، ودللته على البضاعة الكاسدة ، وزينتها له حتى صرفتها عنك ، فإذا كان لك ضميرٌ يقظ ، فهذا المسلم سوف يكون حِمْلاً ثقيلاً عليك ، وهذا الذي يغش الناس ، والذي يعتدي على أعراضهم ، والذي يكذب عليهم ، والذي يحتال ، ويبني ثروته على فقرهم ، كيف يواجه الله سبحانه وتعالى ؟ فلذلك :

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(سورة الزخرف)

فحينما يأتي ملك الموت ، وحينما ينكشف العمل ، ويرى الإنسان مقامه ، ومكانه ، أفي الجنة أم في النار ، عندئذٍ أهل النار يصعقون ..

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

عن هذا الكتاب ، لا يوجد حالة ثالثة ، إما أن تأخذ به ، وإما ألاّ تأخذ به ، إن أخذت به هداك للتي هي أقوم .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء : من آية " 9 ")

في كل شيء ، والمُطْلَقُ في القرآن على إطلاقه ..

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

ففي حياتك الزوجية ، وفي حياتك المِهَنية ، والروحية ، والجسمية، والعقلية ، والاجتماعية ، والعاطفية ..

(يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ)

فهذه الهاء في (عنه)على من تعود ؟

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ)

الإنسان ..

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ)

معنى الوزر :

أي في هذا الوزر ، وبعض المفسرين قال : في جزاء هذا الوزر ، فما قولك أن يرتكب الإنسان معصية لساعةٍ أو لساعات ، أو لشهرٍ أو لسنوات ، ويتحمَّل شقاءها إلى الأبد ، فلو أن هذه المعصية دام نعيمها ، أو دامت لذَّتها طوال حياته ، وانقضت الحياة ، وجاء الحساب ، وأصبح خالداً في النار نظير هذه المعصية ، فهل كان هذا الإنسان عاقلاً ؟ " ابن آدم أطع ربك تسمَّ عاقلاً " .

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(سنن الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ)

لذلك هذه كلمة :

(خَالِدِينَ فِيهِ)

أي في الوزر ، وفي جزاء الوزر .

هذا مثل منتزع من حياتنا اليومية : لو أن إنساناً في ساعة غضبٍ قتل إنساناً ، وسيق للمحاكمة ، وحُكم عليه بأن يمضي في السجن ثلاثين عاماً مع الأشغال الشاقة ، يا ترى نشوة الظفَر بقتل هذا الإنسان هل تساوي أن يمضي في السجن ثلاثين عاماً مع الأشغال الشاقة ؟ الثلاثون عاماً تمضي ، والأربعون تمضي ، والخمسون تمضي ، ولكن الأبد لا يمضي ، الأبد أبد ، أي إلى الأبد ، فهذا الإنسان الذي لا يعرف معنى الأبد ، ومعنى الخلود رجلٌ أحمق ، وإذا عصى ربه الواحد المتعالي .

(خَالِدِينَ فِيهِ)

في هذا الوزر ، في تبعة هذا الوزر ، وفي شقائه ، وعِقابه ، أي في النار التي استوجبت هذا الوزر .

(وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً)

وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا

حملٌ ثقيل ، بين أن يأتي الإنسان إلى رب العالمين بوجهٍ نضر ، وبوجهٍ أبيض ، وبيدٍ محملةٍ بالأعمال الصالحة ، فشتان بين أن يأتي سيدنا الصديق رضي الله عنه ، وقد كان خادماً كما روى عن نفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان معه في السرَّاء والضرَّاء ، وساهم معه في نشر هذا الدين الحنيف ، وبين أن يأتي أبو جهلٍ ليقف إلى جانبه ليلقى جزاء عمله ، شتان بين من يأتي يوم القيامة ، وقد تزوَّج امرأةً صالحة فسعد بها ، وأسعدها ، وأنجب منها ذرية طيبة رباها تربية صحيحة ، وكان خيِّراً معطاءً ، وبين من يأتي وقد زنى بفلانةٍ وعلاَّنة ، وتسبب في شقائهما ، شتان بين من يقرض الله قرضاً حسناً وبين المُرابي ، شتان بين من ينصح في البيع والشراء وبين من يغش ، شتان بين من يصدق وبين من يكذب .

(خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)

من مَشَاهِد يوم القيامة :

1 - النفخ في الصور :

النفخُ في الصور هذا ورد في أكثر من موضع في كتاب الله ، لا نعرف كُنْهَ الصور ، ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا أنه في وقتٍ معين ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات والأرض ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ، فالنفخ في الصور إشارة إلى بعث الناس من قبورهم ، فالأشياء التي غابت عنا بذواتها وآثارها ، مسلك اليقين بها هو مسلك اليقين الإخباري ، الإخبار اليقيني ، أو اليقين الإخباري ، والله سبحانه وتعالى أخبرنا وهو الصادق المَصدوق في كتابه الكريم أن هناك نفخاً في الصور يستدعي قيام الناس من قبورهم ليلقوا نتائج عملهم .

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)

2 - حشر المجرمين زُرقا :

المعنى الأول للزرق :

فكلمة زرقاً تشبه قوله تعالى :

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(107))

(سورة آل عمران)

(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)

(سورة آل عمران : من آية " 106 ")

الزرق اللون الأزرق القريب من اللون الأسود ، فهو كناية عن سواد الوجه الذي هو سبب الخزي والعار الذي سببته المعصية والانحراف .

المعنى الثاني :

وهناك معنى آخر لكلمة زرق : وهو شخوص البصر ، وهو دليل الخوف الذي ملأ القلب ، يحشرون خائفين ، أو يحشرون بوجوه مسودَّة ، فالمجرم دائماً وجهه أسود تعلوه كآبة ، وتعلوه مسحة من سواد .

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ)

من حقارة الدنيا : قِصَرُ زمنها :

التخافُت الكلام السرِّي ، أي بصوتٍ مهموس ، وبصوتٍ غير مسموع..

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً)

أي أن هذه الدنيا التي سرحتم بها ، ومرحتم ، واستعليتم على خلق الله ، وفعلتم ما فعلتم ، وعصيتم ما عصيتم ، وانتهكتم ما انتهكتم ، هذه الدنيا التي ظننتم أنها طويلة جداً ، وأنها حياةٌ أمضيتموها في المتع الرخيصة هي الآن في نظر المجرمين إن هي إلا عشرة أيام ..

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً)

فإذا واجه الإنسان الألم ، تمضي أيام السرور عليه سِراعاً ، أيام اللذة تمضي وكأنها دقائق ، لذلك قالوا: ساعة اللّذة دقيقة ، ودقيقة الألم ساعة ، والأيام التي سُرَّ بها الإنسان ، وانقضى أجله ، وجاء يوم القيامة ليلقى جزاء عمله يراها ساعات ، وأياماً ..

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً)

يقول الله سبحانه وتعالى :

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً)

بل إن بعض هؤلاء المجرمين ليقولون قولاً مغايراً لم يلبثوا إلا يوماً واحداً ، ما قولكم ؟ فهل من العقل ومن الذكاء ومن رجاحة التفكير أن يمضي الإنسان عمراً قصيراً مشحوناً بالمتاعب والآلام والهموم بمعصيةٍ يلقى بعدها عذاباً أبدياً سرمدياً ؟!

(إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً)

يومًا ، لذلك سئلت السيدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى عن الإنسان فقالت : " هو بضعة أيام ، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه "، بضعة أيام ، وكلٌ منا له عُمُر ، ليسألْ نفسه هذا السؤال : كيف مضى هذا العمر ؟ يقول : والله بين عشيةٍ أو ضحاها صرت في هذا العمر ، فإذا كانت الأربعون عاماً مضت هكذا ، ألا يمكن أن تمضي العشرون الأُخَر بلمح البصر ؟ تمضي سراعاً ، نحن نستقبل الصيف ونودِّعه ، ونستقبل الشتاء ونودعه ، ونستقبل عام سبعة وثمانين ، وبعده عام ثمانية وثمانين ، وبعده بسنتين عام تسعين ، وهكذا ، الأيام تمضي سريعاً ، من هنا قال سيدنا علي كرم الله وجهه : " كل متوقعٍ آت وكل آتٍ قريب " .

وعلى كلٍ فهناك بشارة من الله عزَّ وجل أن الذي يخشى ذنبه ، ويسعى لتكفيره ، وأن الذي يُقلقه مصيره ، ويسعى لصلاح نفسه ، وأن الذي يخشى غضب الله عزَّ وجل ويسعى لبلوغ رضاه ، وأن الذي لا يرتاح لحالته النفسية ، ويسعى لتسليتها ، هذا الإنسان الذي يستغفر ، ويجهد في إرضاء الله عزَّ وجل هذا في بحبوحةٍ لن يعذبه الله عزَّ وجل لقوله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(33))

(سورة الأنفال)

أي :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

معنى هذه الآية :

هذه الآية أول معنى من معانيها : إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم لن يعذَّبوا لأن الدعوة قائمة ، وإذا انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى وبقيت سُنَّتُه ، وشريعته فيهم ، مطبقةً في بيوتهم ، وفي أعمالهم ، وفي تحركاتهم ، وفي سكناتهم ، إذا بقيت محبته فيهم لن يعذبهم الله عزَّ وجل ، فإذا كان الإنسان قد أقلقه مصيره ، وخاف على نفسه ألا يكون الله راضياً عنه ، ورأى في حياته خللاً ، وسعى لإصلاحه فهو في بحبوحة ، ليطمئن ، ما دام السعي حثيثاً لبلوغ الهدف النبيل ، فالله سبحانه وتعالى يعطي هذا العبد فرصةً كي يصلح من شأنه .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

3 - نسفُ الجبال :

ويبدو أن الجبال عند أهل مكة شيءٌ صارخٌ في حياتهم ، فحيثُما التفت المَكّيُ رأى جبالاً شاهقةً موزعةً في كل الأنحاء ، ومن يحج البيت الحرام يعرف مصداق هذه الآية ، ويبدو أن كفار قريش سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن مصير هذه الجبال ؟ فقال الله عزَّ وجل :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

لا يبقى منها شيء ..

(فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً)

أي يذر مكانها أرضاً منبسطة ملساء ، قاعاً أي أرضاً ممهدةً ملساء..

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

العوج والأمتُ :

العوج هو المنخفض ، والأمت هو المرتفع ، لا مرتفع ولا منخفض ، أو أن هذه الجبال تصبح كالرمال تذروها الرياح ..

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ(5))

(سورة القارعة)

هذه قدرة الله عزَّ وجل ، فجبل همالايا ارتفاعه اثنا عشر ألف وثمانمائة متر .. أي اثنا عشر كيلو متر تقريباً .. وأعلى نقطة فيه قمة إفريست ، هذا الجبل داخل في هذه الآية :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً)

جبال الألب بأوروبا ، وجبال أورال ، وجبال الأطلسي ، وهناك جبال كثيرة ، فهذا جبل قاسيون تلّة صغيرة ..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)

ولذلك :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1)وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2)وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5)وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ(6)وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ(7)وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

هذه كلها من مشاهد يوم القيامة ، ويومئذٍ هؤلاء المجرمون ، وهؤلاء الذين عصوا ربَّهم في الدنيا ، وعتوا عن أمره ، وتمرَّدوا ، واستعلوا ، ورأوا أنهم كل شيء ..

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)

4 - إجابة داعي الله يوم القيامة من غير امتناع ولا بطء :

أي لا يتلكَّأون ، ولا يتباطأون ، ولا يمتنعون عن تلبية الداعي ، نحن في الدنيا ، إذا جاء بعض الناس الداعي ليأخذه إلى مكانٍ معيَّن ، ليس في إمكانه أن يقول : لا أذهب ، فكيف إذا جاء الداعي من قِبَل الله سبحانه وتعالى ، إذا جاء الداعي من قبل إنسانٍ لا تستطيع ألا تلبِّي دعوته ، فكيف إذا جاء الداعي من قبل الواحد الديَّان ؟ فلذلك ارتكب أحدهم عملاً فظيعاً ، وذهب إلى الحج ليستغفر الله عزَّ وجل فكان يقول : " رب اغفر لي ذنبي ولا أظنك تفعل " ، فقال له أعرابيٌّ : " يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله؟! " ، فقال : " ذنبي عظيم " ، فذكر له قصةً مروِّعة ، يبدو أنه كان في بيت ، وقد قتل الزوجَ والولد فأعطته الزوجة ، طبعاً هو يهدف أن يأخذ ما في هذا البيت ، فأعطته الزوجة درعاً مُذْهَبَة كتب عليها بيتان من الشعر فوقع مغمياً عليه :

إذا جار الأمير وحاجــباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فـويلٌ ثم ويلٌ ثم ويـــلٌ لقاضي الأرض من قاضي السـماء

* * *

فإذا جاء يومئذٍ الداعي ..

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)

لا عوج ، ولا تلكُّؤ ، ولا تريُّث ، ولا رفض ، ولا تمرُّد أبداً ..

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)

فنحن في الدنيا إذا جاء داعي الموت ، مَنْ مِنَ الناس يستطيع أن يرفض هذه الدعوة ؟ ولو كنتم في بروجٍ مشَيَّدة .. لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس .. هكذا قال أحد الشعراء في العصر العباسي :

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس وإن تمنعت بالـحجاب والـحـرس

فما تزال سهام المــوت نـافذةً فـي جنـب مـدَّرع منـها ومُـتَّرس

أراك لست بـوقـافٍ و لا حذرٍ كالحاطب الخابط الأعواد في الغَلَسِ

ترجو النجاة ولم تسلك مســالكها إن السـفينة لا تجـري على اليَبَسِ

* * *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها .. فقد تجد الناس يقولون : " الله يرحمنا ، والله يغفر لنا ، ونحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان ، فالله يتولانا بعفوه ، ولا تسعنا إلا مغفرته " ، هذا كلام لا يسمن ولا يغني من جوع ، إذ لابدَّ من العمل ، فطلب الجنة من دون عمل ذنبٌ من الذنوب ، هذا الذي يطلب الجنة بلا عمل كالمستهزئ بربه ..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا   فـإنا منـحنا بالرضا من أحبنا

و لُذ بحمانا و احتمِ بـجنابنـا   لنحميك مما فيه أشــرار خلقنا

و عن ذكرنا لا يشغلنك شاغلٌ   وأخلص لنا تلق المسرَّة و الـهنا

***

وبعدئذٍ يقول ناظم هذه القصيدة :

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي   رأوه لما ولَّيت عنا لغيـرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا   خلعت ثياب العجب عنك وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرةً   عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسـمة   لـمت غريباً و اشتياقاً لقربنا

***

فما حبنا سهلٌ .. هنا بيت القصيد :

فما حبنا سـهلٌ ، وكل من ادعى   سهولته قلنا لـه : قد جهلتـنا

فأيسـر ما في الحب للصبِّ قتـله   وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول :

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)

5 – خشوع الأصوات :

وفي الدنيا ينفجر الإنسان أحياناً بالصوت ، ويعلو صوته على صوت الآخرين بدافع من استعلائه أو تمرُّده ، ولكن هذا المجرم يوم القيامة لا تسمع له صوتاً ..

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ)

خشوع الصوت أي سكونه ..

(فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)

لشدة هول الموقف

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً   إنما من يتقي الله البطل

***

البطولة أن تعد لهذا الموقف عُدَّته ، والبطولة أن تعد لهذا الموقف الاستقامة التامة ، والعمل الصالح ، وفهم كتاب الله ، والعمل به ، وأن تحضر مجالس العلم ، وأن تعرف الأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، فهذه هي البطولة .

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً* يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)

6 – مشهد الشفاعة :

والله سبحانه وتعالى ينفي نفع الشفاعة إحقاقاً للحق وتنفيذاً لوعده ووعيده ، وعد الله بالجنة ، ووعيده بالنار ، فإذا نفعت الشفاعة بمعناها الضيِّق ، تعطَّل الوعد والوعيد ، وتعطَّل الثواب والعقاب ، ولم يحق الحق، وكان ذلك مخالفاً لما ذكره الله سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى ، لكن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام حقٌ ولها تفصيلٌ ذكرناه في دروس العقيدة ، شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينالُها إلا من مات غير مشركٍ بالله عزَّ وجل ، هذا ورد في صحيح الأحاديث .. " لا تنال النفس شفاعة النبي إلا إذا كانت موحدةً في الدنيا " .. ولها شروطٌ ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : " يا فاطمة .. مشيراً إلى المعنى الساذج للشفاعة الذي يتعلق به عامة الناس ، يظنون أنهم إذا آمنوا بشفاعة النبي فلهم أن يفعلوا ما يفعلون من المنكرات والآثام والمعاصي والنبي صلى الله عليه وسلم يدخلهم الجنة ، وانتهى الأمر ، إذن تعطل الدين كله ، فالشفاعة لها معنىً آخر لا مجال الآن لذكرها بالتفصيل ، ولكنها حقٌ ويجب أن نعتقد بها ، وهي من العقائد التي يجب أن تعلم بالضرورة ، لكن بمفهومها الساذج أن يفعل الإنسان ما يفعل من شرورٍ ، وآثامٍ ، ومعاصٍ ، وأن يمتنع عن أداء الحقوق والواجبات ويقول : سَيُشْفَعُ لي ، فأنا من أمة محمد ، هذا الكلام ليس مقبولاً في نص هذه الآية ، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((يا فاطمة بنت محمد ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

وفي قولٍ آخر إن النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة يرى بعضاً من أمته يسحبون إلى النار فيقول:

((أمّتي أمّتي ، فيقال له : لا تدري ماذا أحدثوا بعدك ، فيقول : سحقاً سُحقاً))

(ابن ماجه عن أبي هريرة)

(يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)

لا شفاعة إلا بإذن الرحمن ورضاه :

فالشفاعة كما قلت قبل قليل حقٌ ، ولكن لمن أذن له الرحمن ، والنبي عليه الصلاة والسلام صاحب الشفاعةِ العُظمى ، ولكن شفاعته مقيدةٌ بأن يموت المرء غير مشركٍ بالله عزَّ وجل ، فمن لم يشرك بالله عزَّ وجل ، واتبع سُنَّته في الدنيا ، شفع له النبي عليه الصلاة والسلام في الآخرة ، فكانت كرامة الله عزَّ وجل لهذا النبي بأن يسوق الخير للمؤمنين على يديه ، أما في القسم الأخير من هذه الآية :

(إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قوْلاً)

فحتى الشفاعة نفسها لا تجدي إلا في حالةٍ واحدة :

(إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قوْلاً)

و هذا مِصْداق قوله تعالى :

(وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنْ ارْتَضَى)

(سورة الأنبياء : من آية " 28 ")

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم أعمال كل الخلق ..

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أمَّا هم ..

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

فلذلك من السذاجة أن تظن أنك تعلم كل شيء ..

(وَمَا أوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ)

(سورة البقرة : من آية " 255 ")

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

العَجز عن الإدراك إدراك :

إنّ الإنسان أحياناً كما قال بعض العلماء : العَجز عن الإدراك إدراك ، فحينما ترى أن الله سبحانه وتعالى لا نهائيّ في كل شيء ، وأن علمه لا يُحَد بحد ، وأن قدرته لا تحد ، وأن عظمته لا تحد ، عندئذٍ تستسلم لهذه الذات الكاملة ، ولا يسعك إلا أن تعبد الله سبحانه وتعالى ، وأن تشكره على عطائه ، وهذا

مصداق قوله تعالى :

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ)

أي خضعت .

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً)

الظالم ما أشدِّ الناس خسارةً يوم القيامة :

أي من حمل ظلماً يأتي يوم القيامة وهو من أشد الناس خسارةً ، خاب ، ولم يحقق الهدف ، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ)

من أنواع ظلم الإنسان نفسَه :

وأشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه ، ومعنى ظلم النفس أن يحرمها معرفة الله عزَّ وجل ، وهذا أشد أنواع الظلم .

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57))

(سورة البقرة)

وحينما تحرم نفسك لذَّة معرفة الله وسعادة القرب منه ، فهذا من أشد أنواع الظلم .

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

والله الذي لا إله إلا هو لَزوالُ السماوات والأرض أهون على الله من أن تستقيم على أمره ، وأن تعمل صالحاً ، وأن يَخِيبَ مسعاك ، وأن تُهْضَمَ حقوقك ، ولذلك هذه الآية تبثُّ التفاؤل في النفس ، وتبثُّ البشر .

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

اقتران الإيمان بالعمل الصالح :

عرف الله وخدم الخلق ، وكان مستقيما في علاقته بالناس ، وقدَّم للناس خدماتٍ صحيحة مخلصة ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل ، وانطلق من قول النبي عليه لصلاة والسلام :

((الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

(الجامع الصغير عن الحسن مرسلا بسند حسن)

فمن كان عمله صالحاً ، ومن خدم بني البشر ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل ، ومن صَدَقَهُم ، ومن أخلص لهم ، ومن أعانهم على مصائبهم ، ومن خفف عنهم تبعات الحياة .

(فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

ولكن العمل الصالح مقيدٌ بالإيمان ، ومن دون إيمان ربما كان هذا العمل الصالح ذكاءً ، وكياسة ، وسياسة ، وحِذْقاً في تصريف الأمور ، وربما تكون محسناً ليقول الناس عنك كذلك ، وليرتفع اسمك لدى من تعاشره ، ولكن البطولة أن تعمل صالحاً وأنت مؤمن ، فالعمل الصالح إذا بني على الإيمان كان ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل .

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً)

لا يُظْلَم ، ولا تُهْضَمَ حقوقه .

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)

معنى عربياً أي واسع البيان ..

(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ)

معنى تصريف الوعيد في القرآن :

أي نوَّعنا فيه ، وتارةً يأتي الأمر ، وتارةً يأتي النهي ، وحينما يأتي الوَعْدُ ، أو يأتي الوعيد ، وقد تأتي القصة ، أو يُضْرَبُ المثل ، أو يُذَكَّرُ الإنسان بماضيه ونشأته ، ثم يصوَّر له مصيره بعد الموت ، ومرةً يذكر لنا الله سبحانه وتعالى أخبار من سبقنا ، ومرةً يحدِّثنا عما سيكون ..

(وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً)

ولعل هذا القرآن بسوره ، وآياته ، وقصصه ، وأمثاله ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، وحكمه ، يُحْدِثُ في هذه النفس أثراً بَيِّنًا .

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

وجوبُ تنزيهِ الله من كل نقصٍ :

تعالى عن كل نقيصة ، سبحانه وتعالى ، هذا من ألفاظ التنزيه ، أي تعالى الله علواً كبيراً عن أن يخلقنا عبثاً ، وأن يهضم حقوقنا ، وأن يظلمنا ، وألا يرحمنا ، تعالى الله سبحانه وتعالى :

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

المقياس الرباني : وقل ربّ زدني علمًا

هذه الآية أيضاً إشارةٌ دقيقة إلى أن القيمة الأساسية التي أرادها الله لتكون عاملاً مُرَجِّحَاً بين بني البشر هو العلم ..

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر : من آية " 9 ")

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

لذلك أعلى مرتبةٍ ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يتعلّم ، وأن يعرف الله عزَّ وجل ، وإن الله عالمٌ يحب كل عالم ..

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

(البخاري عن عثمان)

ليس فوق العلم مرتبة :

وليس فوق مرتبة العلم مرتبة ، فإذا أردت الكرامة عند الله ، فتعلَّم هذا القرآن ، وعلِّمه الناس ، فعندئذٍ تكون من خير الناس .

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

(البخاري عن عثمان)

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

لم يقل : زدني مالاً ، ولم يقل : زدني جاهاً ، لأن المال زائل ظلٌّ زائل ، وعاريةٌ مستردة ، ولأن الجاه ينتهي بالموت ، ولكن الله عزَّ وجل قال :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((لا بورك لي في شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

وفي روايةٍ أخرى :

((لا بورك لي في يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

فيجب أن تزداد في كل يومٍ علماً وقرباً ، تعلَّم كتاب الله ، احضر مجالس العلم تزدد علماً ، افعل الصالحات تزدد قُرباً .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

فلذلك العلم يستمر أثره إلى ما بعد الموت ..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ ، صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ))

(سنن الترمذي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

فلذلك باب العلم مفتوح ، وأبواب المساجد مفتَّحة ، ولحكمةٍ بالغة جعل الله عزَّ وجل بذل العلم مُتاحاً لكل إنسان ، فالعلم مبذول من دون مقابل ، ولا تستطيع أن تطرق باب الطبيب إلا والمال في جيبك ، ولا أن تطرق باب المحامي إلا والمال في جيبك ، ولا أن تدخل إلى حانوتٍ إلا والمال في جيبك ، ولكنك تدخل أي بيتٍ من بيوت الله لتستمع إلى تفسير كلام الله من دون مقابل ، لا جزاءً ولا شكوراً ، فلذلك العلم مبذول ، فعلى كل مؤمنٍ أن يتعلم كلام الله وأن يعلمه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 115 – 128
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-03-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس الثامن من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي من هذه السورة إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

حال المؤمن في الجنة :

هذه الآيات لابدَّ أن تنقلنا إلى موضوع الجنَّة ، فالإنسان في الجنَّة له حالٌ خاص تختلف اختلافاً بيِّناً عن حاله في الدنيا ، فإنه في الجنَّة نفسٌ مرتكزةٌ إلى جسد ، فالنفس ترى مباشرةً لا من خلال عينين كما هي الحال في الدنيا ، إن النفس كلها أعينٌ ، لمجرَّد أن تتجه إلى جهةٍ معيَّنة حتى ترى كل شيء ، والنفس كلُّها آذانٌ ، إنها نورٌ مركّبٌ على جسده ، لذلك في الجنَّة لا شقاء ولا تعب ، ولا سعي ، ولا كدَّ ، ولا إرهاق، ولا جهداً يُبْذَل ، ولا أي شيء مما يُحِسُّه الإنسان في الدنيا .
فربنا سبحانه وتعالى لابدَّ أن يجعل من هذا النبي العظيم سيدنا آدم الذي بدأ به الخلق خليفته في الأرض، وقبل أن يجعله خليفته أراد أن يعطيه درساً بليغاً ، إن نزول سيدنا آدم من الجنَّة إلى الأرض نزولٌ محقَّق ، ولكن كان بطريقةٍ فيها تعليمٌ له ولنا على مرِّ العصور والدهور .
والإنسان في الجنَّة نفسٌ مركّبة على جسد ، لكنَّه في الدنيا على الأرض جسدٌ في داخله النفس ،و هذا الجسد يشغل حيِّزاً إذ يحتاج إلى غذاء ، وإلى ماء ، ومتى تناول الغذاء ، والماء يحتاج إلى إخراج الفضلات ، وإلى سعي ، فطبيعة الحياة على وجه الأرض طبيعة فيها سعيٌ وكدٌ ، وتعبٌ ، وجوعٌ وعطشٌ ، يحتاج إلى طعامٍ ، وإلى شرابٍ ، ولباسٍ، ومسكنٍ ، وزوجةٍ ، بينما هو في الجنَّة لا يحتاج إلى أي شيءٍ من هذا ، فإن النفس تسعد فيها مباشرةً لا عن طريق الوسائط .

حكمةُ المحظور من أجل تربية الإرادة البشرية :

فربنا سبحانه وتعالى أراد أن يربي هذا الإنسان من خلال هذا الدرس البليغ الذي علّمنا إياه ، فما هذه التربية ؟ لابدَّ من محظور ، ولماذا المحظور ؟ أنه من أجل تربية الإرادة ، وإن أثمن ما يملكه الإنسان الإرادة الحرَّة التي منحها الله إياه ، وهذه الإرادة الحرَّة لا قيمة لها إلا إذا كانت منضبطة وفق القواعد والأصول ، فمن أجل أن تُرَبَّى هذه الإرادة لابدَّ أن يكون في الحياة شيءٌ محظور ، فهذا الذي ينساق وراء شهواته ضعيف الإرادة ، وليس أهلاً أن يكون خليفة الله في الأرض ، وهذا الذي يستجيب لكل رغبة ، وينساق مع كل شهوة ، يفعل كل ما يخطر بباله هذا إنسان ساقط ، مُتهافت ، ضعيف الإرادة ، إنه كتلة من الشهوات تتحرَّك ، لكنَّ الإنسان الذي أعدَّه الله ليكون خليفة في الأرض لابدَّ أن تنمو عنده الإرادة .

و لذلك فربنا سبحانه وتعالى فيما ترويه التفاسير عَهِدَ إلى سيدنا آدم أن لا يأكل من هذه الشجرة ..

(وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)

(سورة البقرة : من آية " 35 ")

من أي شيءٍ كُلا إلا هذه الشجرة ، إذاً في هذه إشارةٌ إلى أن المُباحات أكثر بكثير من المُحَرَّمات ، وأن الإنسان حينما يدع جميع المُباحات ، ويقترف المحرَّم فقد أساء وظلم ، لأن الله سبحانه وتعالى أباح كل شيء ، وقد قال علماء الأصول : " الأصل في الأشياء الإباحة " :

(وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة : من آية " 35 ")

نهيٌ واحد مع إباحة لكل شيء ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

تفسير الآية ومعناها وما يُستنبَط منها :

أوجه التفاسير أن هذا النبي الكريم الذي قال عنه سيد المرسلين :

((آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إلا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلا فَخْرَ))

(سنن الترمذي أبي سعيد)

فاستنبط من هذا الحديث أن سيد ولد آدم هو النبي عليه الصلاة والسلام ، ويأتي بعده سيدنا آدم ، فهو أعظم النبيين صلى الله عليه وسلَّم ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا)

أي وصَّيْنا ..

(إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ)

أي من قبل أن يأتي إلى الأرض ، ومن قبل أن يهبط إلى الأرض ، حينما كان في الجنَّة ، أبحنا له كل شيء عدا هذه الشجرة ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ)

لكنَّ هذا النبي الكريم ما كان يعرف الكذب ، ووَسْوَسَ إليه الشيطان أن :

(يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)

يبدو أن هذا النبي الكريم كان في حالةٍ من القرب شديدة ، وأنه أراد أن يبقى في هذه الحالة ، وأن يخلُد فيها ، ولم يكن يعرف ما الكذب ..

(فَنَسِيَ)

معاني : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

المعنى الأول : معصيةُ آدم معصيةُ نسيان وسهوٍ :

إنه ما عصى عن تصوُّرٍ وتصميم ، لكنَّ معصيته جاءت عن نسيانٍ وسهوٍ ، ولذلك قال العلماء : " إن هذه الآية لا تقدح في عصمة سيدنا آدم ، " ولله عزَّ وجل أن يقول ما يشاء عن سيدنا آدم ، أما نحن البشر فليس لنا أن نقول عنه : إنه عصى ربَّه بالمعنى الذي يفهمه عامَّة الناس ، لأن الله سبحانه وتعالى برَّأه من أن تكون معصيته عن تصورٍ وتصميم ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ)

وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((وضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطأ وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

(سنن ابن ماجة عن ابن عبَّاس)

إذاً نسيان هذا النبي هذا الحظرَ الإلهيَ لا يعني أنه عصى ربَّه بالمعنى الذي نفهمه نحن ، أي عصاه عن تصورٍ وتصميم ، ولكنَّ هذه المعصية جاءت عن نسيانٍ وسهوٍ ..

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

المعنى الثاني : عدمُ العزم على المعصية :

أيضاً من أوجه التفاسير أن هذا النبي الكريم ما كان يملك العزيمة على معصية الله ، فما كان عازماً على معصيته ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى سرعان ما غفر له ، واجتباه وقرَّبه ، ولو أنه عصى عن تصورٍ وتصميم ، أو كان يملك العزيمة الأكيدة على معصية الله عزَّ وجل لما كانت عودته واجتباؤه وتكريمه بهذه السرعة الفائقة ..

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

من فوائد الآية المسلكيةِ : لا بد في الحياة من المحظور :

إذاً هذه الآية تعلِّمنا أنه لابدَّ أن يكون في الحياة شيءٌ محظور، لأن هذا الشيء المحظور يربِّي الإرادة في الإنسان ، ولماذا الإرادة ؟ لأنها أثمن ما يملكه الإنسان ، فإنه بالإرادة يرقى إلى الله سبحانه وتعالى، فالإنسان مخيَّر ، وإن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن يكون الإنسان ذا مشيئةٍ حرَّة ، وإن الله سبحانه وتعالى منحه الاختيار ، فمنحه الإرادة الحرَّة ، والمشيئة الحرَّة ، وهذه المشيئة والإرادة لابدَّ لهما من تربية ، وتربيتهما تكون في أن هناك في حياة الإنسان شيئاً محظوراً .

فالصيام مثلاً ونحن على أبواب رمضان ، يربِّي في الإنسان الإرادة القويَّة ، فشيءٌ مباح ، شربةُ الماء ، وليست محرَّمة ، ولكنَّها في هذا الشهر محرَّمة من أجل أن تُربَّى في الإنسان الإرادة الصُلبة المتينة ، إذاً لا يمكن أن تكون الإرادةٍ ذات قيمةٍ إلا إذا كانت منضبطة لا وفق الهوى ، ولكن وفق الحق والقيم ، فهذا الذي يعطي نفسه ما تشتهي ، ومقاومته أمام الشهوات هَشَّة ، ضعيفة ، فسرعان ما ينهار أمام كل شيءٍ مُغْرٍ ، وهذا الذي تجذبه المغريات ، وتخيفه الضغوط هذا إنسانٌ ضعيف الإرادة ، لا يصلح أن يكون خليفة الله في الأرض ، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يعلِّمنا في نزول هذا النبي الكريم من الجنَّة إلى الأرض درساً لا يُنْسَى ، وهو أن الإنسان أثمن ما يملكه في حياته الإرادة الحرَّة ، وأن هذه الإرادة الحرَّة لا ترقى إلا بالمحظورات .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا)

أي وصَّيْنا ..

(عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ)

من قبل أن يهبط إلى الأرض ..

(فَنَسِيَ)

هذا العهد ، ونسي تلك الوصيَّة ..

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

لأنه لو لم ينسَ لبقي في الجنَّة ، ولابدَّ أن يهبط إلى الأرض ..

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

سجود الملائكة لآدم :

وأيضاً هذا السجود ليس سجود العبادة ، ولكنَّه سجود التعظيم ، فهناك سجود التكريم ، وهناك سجود التعظيم ، وهناك سجود العبادة ، أما سجود العبادة فهو لله وحده ، ولا ينبغي لبشرٍ أن يسجد لبشر إلا أن يكون السجود كناية عن التكريم والتعظيم كما ورد في بعض آيات القرآن الكريم .

نسي وصيَّتنا ، أو نسي أمْرنا ، ولم تكن عنده عزيمة على المعصية ، فهذا تعليلٌ لطيف ، وتخريجٌ يتناسب مع مقام هذا النبي الكريم ، ومع عصمة النبي ..

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

الحكمة من تكليف الملائكة بالسجود لآدم :

لماذا كُلِّفَ الملائكة السجود لسيدنا آدم ؟ لأن سيدنا آدم حمل الأمانة، والذي يحمل الأمانة يفوق بها من لم يحملها ..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

رُكِّبَ المَلَكُ من عقلٍ بلا شهوة ، ورُكِّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل ، ورُكِّب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان ، فالمؤمن إذا أخذ الأمانة بحقِّها ، وعرف ربَّه يفوق بهذا الملائكة المقرَّبين ، ولذلك قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((عبدي المؤمن أحبُّ إليَّ من بعض ملائكتي))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف)

ما من شيءٍ أكرم على الله من شابٍ تائب ..

(فَقُلْنَا يَا آدَمُ)

درس بليغ :

درسٌ بليغٌ له ولذريَّته ، وهو على وشك أن يكون خليفة الله في الأرض ..

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة : من آية " 30 ")

علّمه أن الشيطان عدوٌ له ولذريَّته ..

(فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

أي إذا أخرجك من الجنَّة تشقى ، بمعنى أنك عندئذٍ تحتاج إلى سعيٍ لكسب الرزق ، وتحتاج إلى عمل ، وإلى كدٍّ ، ودأبٍ ، وجهدٍ تبذله من أجل أن تأكل ، إنك في الجنَّة تتنعَّم ، وتأكل بلا وسائط ماديَّة ، أي أن هذه التفَّاحة يمكن أن تتصل بها نفس الإنسان فتأخذ كل ما فيها من طعمٍ طيِّب ، وهذا في الجنَّة ، فالإنسان في الجنَّة يمكن أن يأكل أعداداً لا حصر لها من الفواكه والثمار من دون أن يُضطرَّ إلى أن يُدخلها إلى جسده ، إذ يأخذ طعمها الطيِّب ، ويبتعد عن مادَّتها التي هي عبءٌ على جسده ، لكنه في الأرض لا يستطيع أن يذوق طعم هذه التفاحة إلا إذا وضعها في فمه ، فإذا وضعها أصبحت عبئاً على جهازه الهضمي ، فكانت هناك التُخمة ، وهناك أمراض الجهاز الهضمي ، أي أن الحياة في الأرض تحتاج إلى جهدٍ كبير ، فمن أجل أن تأكل طبقاً من الطعام تحتاج إلى ساعاتٍ لإعداده، ومن أجل أن تصل إلى هذا الشيء تحتاج إلى سنوات ، وهكذا فسَّر بعض المفسِّرين معنى تشقى .

لماذا تشقى وحدك فقط ؟

والشيء الذي يجذب النظر في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى لم يقل : فلا يخرجنَّكما من الجنَّة فتشقيا، بل قال : فتشقى ، لأن السعي والكدّ في نظر الدين على الرجل ، ولأن الأمومة والتربية على المرأة ، فالرجل يعمل ليكسِبَ الرزق ، والمرأة تربِّي الأولاد وتنشئهم تنشئة عالية ، من هنا المرأة التي شكت إلى النبي عليه الصلاة والسلام زوجها ، والتي قال الله في حقّها :

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة المجادلة : من آية " 1 ")

هذه المرأة حينما خاطبت النبي عليه الصلاة والسلام قالت له : " يا رسول الله إن فلاناً تزوَّجني وأنا شابَّة ذات أهلٍ ومالٍ وجمال ، فلمَّا كَبرَتْ سني ونثر بطني وتفرَّق أهلي وذهب مالي قال : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا .. فهو لا يربيهم .. وإن ضممتهم إلي جاعوا .. فأنا لا أطعمهم ولكني أربيهم ، وهو لا يربيهم ولكنَّه يطعمهم .. " فهذه المرأة حدَّدت بالضبط مهمَّة الرجل

في الحياة ، فالرجل يعمل خارج البيت لكسب الرزق ، والمرأة تعمل وأخطر عملٍ تقوم به المرأة على وجه الأرض وهو تربية الأولاد ، فمن أجل أن يكون الأولاد في المجتمع صالحين لابدَّ لهم من أمٍ رؤوم تحنو عليهم ، وتعطي وقتها من أجلهم ، فلذلك:

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

فتشقى وحدك ، هي في البيت ، وأنت خارج البيت ، وإنك مكلَّفٌ بكسب المال ، فالرجل أحياناً قد يأتي إلى البيت مُتْعَبًا ، وليس التعب تعباً مادياً ، فحسب بل هو تعبٌ نفسي ، فإن صعوبات الحياة ، وإن المتاعب ، وإن العقبات كلَّها يواجهها الزوج بشكلٍ صارخ ، بينما الزوجة هي في بيتها نَاعِمَةَ البال يأتيها رزقها رغداً ، فلذلك على الزوجة أن تقدِّر أحياناً ظروف كسب المال ، وظروف الحياة الصعبة ، فلا تثقل على زوجها ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وقد كانت الصحابيِّات رضوان الله عليهن يقُلن لأزواجهن : " يا فلان نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام ، فاتَّق الله فينا " ، فالمرأة التي تُحمِّل زوجها فوق ما يطيق هذه امرأةٌ لا يحبها الله ورسوله ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً))

(مسند أحمد عن عائشة)

وأقلّهُنَّ مهراً ، فهذه المرأة اليسيرة التي ترضى باليسير ، والودود الولود الستيِّرة ، التي تكتم نقاط الضعف في زوجها عن الناس ، ولا تفضحه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يكره المرأة التي تخرج من بيتها ، وتشتكي زوجها ، هذه امرأةٌ لا يحبُّها الله ورسوله ..

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

(سنن بن ماجة عن ثوبان)

فإذا أسكنها في بيت ، وأطعمها ، وكساها ، وأمورها ميسورة ، وكل حينٍ تقول له : طلقني ، فهذه امرأةٌ لا تروح رائحة الجنَّة ، ولا ينظر الله إليها، والمرأة الصالحة تكون عوناً لزوجها على الشيطان ، ولا تكون عوناً للشيطان على زوجها .

أراد رجل أن ينصح امرأته فقال : " إن في خُلُقي سوءاً " ، فقالت له زوجته : " إن أسوأ خُلُقاً منك من حاجكَ لسوء الخُلُق " .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى* فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا)

أي إن إبليس ..

(عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ)

وبالتالي لذريّتك ..

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ)

في الجنَّة ..

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

مشاهد ما في الجنة من النعم :

وربنا سبحانه وتعالى وصف الجنَّة ، فلك ألا تجوع فيها ، وإنك لست مضطرًا أن تُدخل الطعام إلى فمك كي تحيا ، وإنك تحيا من دون أن تكون محتاجاً إلى الطعام ، وإن الطعام في الجنَّة لا من أجل أن تحيا به ، بل من أجل أن تتمتَّع به ، ولذلك حيثما اتجهت نفسك في الجنَّة إلى أية فاكهةٍ تأخذ كل اللذَّة منها من دون أن تأكلها .. ولذلك ..

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى)

وهذه النفس التي هي الأصل في الجنَّة مركَّبةٌ على الجسد كلهيب الشمعة كيف أنه يحيط بالفَتيل ، وإنها عيون ، وآذان ، ومشاعر ، وأحاسيس ، خَطَرَ بباله فلان .

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

فأنت في الدنيا من أجل أن تلتقي بفلان لابدَّ أن تسافر إليه ، وتركب المركبة الساعات الطِوال ، ولكنَّك في الجنَّة لمجرَّد أن يخطر ببالك تطلع عليه ، فالحياة في الجنَّة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربِّه :

((أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

فما في بالجنَّة تقدُّم في السن ، ولا ضعف في القلب ، ولا بالأعضاء ، ولا خرف ، ولا ضعف في البصر ، ولا تشمع في الكبد ، ولا صمم ، ولا وهَن ، ولا أمراض ، بل شبابٌ دائم ، نقص مواد لا يوجد ، ولا غلاء . فالجنَّة مبذولةٌ للمؤمنين في أبهى مظاهرها ، فلذلك :

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

وفي قوله تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(17))

(سورة السجدة)

أما الدنيا .. فهي " دار التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح ، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء .. لأنه موقت .. ولم يحزن لشقاء .. لأنه موقَّت .. قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار

عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي " ..

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)

من ضروريات العبد في الدنيا : الطعام واللباس :

فأساس الحياة أن تكون شبعان البطن ، مكسوَّ البدن ، الثانويات أن تكون في مأوى ، وأن تكون في ريّ، فربنا سبحانه وتعالى فصل المتلازمين ، فكان بعضهم يقول : لو كان الله عزَّ وجل قال : إن لك ألا تجوع وألا تظمأ ، وألا تعرى وألا تضحى ، ومعنى ألا تضحى أي أنك لست بحاجةٍ إلى سكنٍ يحجُبُ عنك أشعَّة الشمس ، وضحًا بمعنى بَرَزَ إلى الشمس ، وهنا كناية عن المسكن ، لست في الجنَّة محتاجاً إلى طعامٍ وإلى مأوىً ، وإلى لباسٍ وإلى ماءٍ تطفئ به ظمأك ..

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ)

الشيطان أصل في الوسوسة والإضلال :

أي أنك في هذه الحالة الطيِّبة هل تحبُّ أن تستمرَّ بها ، وهل تحبُّ أن تخلُد في هذه الحالة ، هذه أول كذبةٍ يكذبها إبليس على أبينا آدم ، ما كان هذا النبي الكريم يعرف الكذب ، فحينما عصى لم يعص وهو يعلم أنه يعصي .. فنسي .. وحينما عصى لم يعص وهو عازمٌ على المعصية ..

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

والذي أغراه بهذا أن الشيطان توصَّل إلى نقطة الضعف فيه ، هل تحبُّ أن تكون خالداً في هذه الحالة ؟ قال : بلى ، قال : كل من هذه الشجرة ..

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا)

آثارُ الأكل من الشجرة : العصيان وظهور السوءة :

وحينما أكلا من هذه الشجرة ، أي حينما وضعا التفَّاحة في الفم أصبحت لهما طبيعة خاصَّة ، وأصبحت النفس داخل الجسد ، وصار الجسد محيطاً بالنفس كما هي الحال في الدنيا ، إذن بَدَت العورات ..

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا)

يخصفان أي يضعان ..

(عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

معنى غوى أي خرج من هذه الحالة المُريحة في الجنَّة ، الغَوِيِّ الخروج عن الطريق ، وهذه الحالة المريحة في الجنَّة خرج منها ..

(فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا)

صار هناك عورات ، ويحتاج إلى لباس ، واللباس يحتاج إلى خياطة ، والخياطة تحتاج إلى نسيج ، والنسيج إلى خيوط ، والخيوط إلى غَزْل ، والغزل إلى قطن ، والقطن إلى زراعة ، وإلى حرث أرض، فمن أجل أن يرتدي هذا الثوب لابدَّ من جهودٍ كبيرة ، وليضع هذه اللقمة في فمه يحتاج إلى زراعة ، وإلى أمطار ، وإلى بذار ، وإلى حصاد ، وإلى دراسة ، وإلى طحن ، وإلى عجن ، وإلى خبز ، وإلى نقود ، وإلى عمل..

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

انتقال آدم من درا النعيم إلى دار الفتن :

إنَّ هذا هو الدرس الأوَّل ، فانتقال هذا النبي الكريم من حالة أهل الجنَّة إلى حالة أهل الأرض ، وأهل الأرض جاؤوا إلى الدنيا للابتلاء ، والإنسان يُبْتلى بكسب رزقه ، وبزواجه ، وبالفقر ، وبالصحَّة ، وبالمرض ، وبالقوَّة ، والضعف ، وبالعُلوِّ في الأرض ، وبالذلَّة ، إنه دخل إلى دار البلاء ..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

دخل إلى دار الفِتنة ، ودخل إلى دار السَعْي ، والتكليف ، فهذا حلال ، وهذا حرام ، فهو الآن في الأرض ، وعلى الأرض بحاجةٍ إلى طعام ، والطعام يحتاج إلى كَسْب ، وكيف يكسب المال ؟ هل يكسبه حراماً ليأكل ، أم يكسبه حلالاً ليأكل ؟ دخل في الابتلاء ، وأصبحت فيه رغبةٌ إلى النساء لبقاء النوع ، فهل يُلَبِّي هذه الرغبة وفق الشريعة التي جاء بها الأنبياء أم وفق الشهوة العمياء كيف يلبي هذه الرغبة ؟ دخل آدم عليه السلام في حالة الابتلاء ، ودخل في حالة السَعي والشقاء ..

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

فإذا قلت : فلان عصى بمعنى خالف الأمر ، بصرف النظر عن دوافع المعصية ، فهناك من يعصي ساهياً ، أو مخطئاً ، ومن يعصي متعمِّداً ، أو متحدّياً ، أو فاجراً ، فكلمة عصى تعني الخروج عن الأمر ليس غير من دون أن يدخل الباعث على المعصية ، فإذا كان الباعث هو النِسيان فلهذه المعصية حُكْم ، وإذا كان الباعث هو المعرفة فلهذه المعصية حكم ، وإذا كان الباعث هو التحدِّي فهذا هو الفجور، ولذلك ربنا عزَّ وجل قال :

(وَعَصَى)

أي أنه خرج بسلوكه عن الأمر الذي أمرناه به ، فهبط من الجنَّة إلى الأرض ، ولأن هذا النبي الكريم عصى ناسياً ولم يعص عازماً ..

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)

توبة الله على آدم :

سريعاً جداً ، ولذلك فالإنسان إذا وقع في مخالفةٍ من دون قصدٍ ، أو من دون تصميمٍ وإرادةٍ ، ودون أن يكون راغباً في هذه المخالفة توبته سهلةٌ جداً ، أما إذا فعلها عن تَصَوُّرٍ وتصميم ، وإذا فعلها ، وهو يعلم أنه يعصي فهذه مشكلة كبيرة ..

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً)

أي اهبطا ، وكأن حالة أهل الجنَّة أرقى بكثير من حالة أهل الأرض ، حالةٌ كلُّها نعيم ، وكلُّها راحة ، أما الإنسان على وجه الأرض فحياته شاقَّة .

(يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(4))

(سورة البلد)

أي أن طبيعة حياته تحتاج إلى جهدٍ كبير ، ونحن في الدنيا يسكن أحدنا في بيت يكون أمامه زوجة وأولاد ، ويكون له دخل معقول ، ويقول: أربعون سنة وأنا أسعى ، وقد شقيت كثيراً حتى وصلت إلى هنا ، وهكذا طبيعة الحياة ، فيها ابتلاء ، وفيها امتحان في كل شيء ..

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

والإنسان في بعض الأحيان تكون امرأته عدوةً له إذا حملته بطلباتها على معصية الله ، وقد يكون الزوج عدواً لامرأته إذا حملها على معصية الله رغبةً في شهوته ، وقد يكون الابن عدواً لأبيه إذا سمح له الأب بشيءٍ يرفع مقامه في الدنيا على حساب دينه ، ويأتي يوم القيامة يقول : " يا رب لا أدخل النار حتى أُدْخِلَ أبي قبلي " .

(الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ(67))

(سورة الزخرف)

فكل إنسان حمل إنساناً على معصية ، أو دفعه إلى مخالفة ، أو كلَّفه ما لا يطيق فعصى الله عزَّ وجل فهذه هي العداوة الحقيقيَّة ..

(قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

ومع أن الإنسان في الدنيا مُبْتَلى ، وهو في الدنيا صاحب إرادةٍ حُرَّة ، لكن الله سبحانه وتعالى نَصَبَ الآيات ، فكل شيءٍ ينطق بحمده ، وكل شيءٍ دالٌ عليه ، ومع ذلك ..

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الآية لكَفَتْ ، فكلنا جميعاً هذه الآية تَبُثُّ في قلوبنا الطمأنينة ، فإذا اتبعت هُدى الله في كل شيء لا تضلُّ ولا تشقى ، ولا يضلُّ عقلك ولا تشقى نفسك ، بل تسعد ، وترقى ، وتنجح ، وتتفوَّق ، وتفلح ، وتحقِّق الهدف مِن خلقك على وجه الأرض ..

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

اتباع الهدى نفي للضلال والشقاء :

طمأنينة عقليَّة ، وهذا الذي لم يعرف الحق فيه خلل ، وعنده اختلال توازن ، وقلق ، وهذا الذي يعتقده لا يطمئن إليه ، دائماً في حالة غليان ، أو قلق ، أو خوف ، لكنَّ الذي اعتقد ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فجاءت عقيدته مطابقةً لهدي الله عزَّ وجل ، يطمئنُّ عقله أنه على حق ، وكم من البشر من سار في دربٍ ثم اكتشف في نهاية المطاف أنه طريقٌ غير صحيح ! وكم من إنسانٍ ظنَّ أن هذا الشيء هو كل شيء ، وفي نهاية الحياة عرف أنه شيءٌ يسير لا قيمة له ! ضيّع من أجله حياته ، ولذلك فخيبة الأمل في خريف العمر شيءٌ لا يُحتمل ، تكون قد أمضيت أربعين عاماً من حياتك في طريقٍ غير صحيح ، تسعى للمال والمال عَرَضٌ زائل ، وتسعى لاقتناص اللذَّة ، واللذَّة مُنقطعةٌ بالموت ، ولذلك :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

وهنيئاً لمن وافق سلوكه الهُدَى الربَّاني ، في زواجه ، وبيعه ، وشرائه ، وعقيدته ، ومعاملاته ، وعلاقاته ، ومشاعره ، وعواطفه ، ومن جاءت أحواله ، وأقواله وأفعاله مطابقةً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فقد اطمأن عقله إلى أنه على الحق ، وأحياناً الإنسان يُفَسِّر حادثة ، فإذا كان تفسيره مطابقاً للواقع ترتاح نفسه ، فإذا اكتشف أن هذا التفسير غير صحيح يحتقر نفسه ، ويحتقر عقله ..

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

الآن الناس على صنفين ، إما أن تتبع الهدى فلا تضل ولا تشقى..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

من نتائج الإعراض :

1 - المعيشة الضنك :

هذا القرآن هو ذكر الله عزَّ وجل ، الذِكْرُ الذي أنزله الله ، إنه الدستور ، والمَنهج ، والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

(فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ)

معنى الإعراض وصوَرُه :

ما معنى أعرض عنه ؟ أي قد يقرؤهُ ، ولكنَّك إذا أعرضت عن تطبيق أحكامه ، فالله عزَّ وجل قال لك:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة : من آية " 221 ")

فهذا المشرك عنده معمل ، وله مركبة فخمة ، وعنده بيت فسيح ، ودخله كبير ، وشكله جيِّد ، وجاءك خاطب مؤمن أقل من هذا المشرك بكثير ، إذ لا يملك ثمن البيت ، ودخله محدود ، فأنت إذا آثرت المؤمن على إيمانه ، ورفضت المشرك على دنياه العريضة فقد عرفت أن هذا الكلام حقٌّ من عند الله ، لكنَّك إذا خالفت كلام الله عزَّ وجل فهذا نوعٌ من أنواع الإعراض عن الله ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

إذا قال الله لك :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور : من آية " 30 ")

وأنت لم تلتزم بهذه الآية ، فأطلقت لبصرك العِنان وأنت بهذا أعرضت عن ذكر الله ، وجعلت أحكام القرآن وراء ظهركَ مع أن المؤمن ليس هذا شأنه ..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من آية " 36 ")

فإذا حرَّم الله الربا انتهى الأمر ، ولا يوجد رأي ثالث ، ولا محاولة لإقناع الناس أن الربا مقبول ، وإذا حرَّم الله الاختلاط انتهى الأمر ، وإذا حرَّم الله النظر إلى الأجنبيَّات انتهى الأمر ، لذلك ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

أي أنه أعرض عن تطبيق هذا القرآن الذي جعله الله تذكرةً للإنسان..

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

ما هو الشيء الضنك ؟

والشيء الضَنك هو الشيء الضَيِّق ، ضيقٌ ماديٌّ أو ضيقٌ نفسي ، أي إما أن يكون الضيق ماديًّا يكاد يُعْصَر ، وإما أن يكون الضيق نفسياً ، فلو أنه يملك أكبر ثروة في العالَم ، لمجرَّد أن هذا الإنسان أعرض عن ذكر الله إنه في ضيقٍ نفسي لا يعلمه إلا الله ، ولذلك سُئل بعض العلماء: هذه الآية كيف نفسِّرها في حقِّ الأغنياء الفَسَقَة ، أو أولي الحول والطول؟ فقال بعضهم : " إن الآية تعني ضيق النَفْس"، ففي قلبه ضيق لو وزِّع على أهل بلدٍ لكفاهم ، ولو وزِّع على أهل الأرض لماتوا همًّا وغمًّا ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

لا سعادة لمعرض أبدا :

ويا أيُّها الإخوة المؤمنون ... هذه الآية لو أن على وجه الأرض إنساناً واحداً أعرض عن ذكر الله ، وهو في سعادةٍ فهذا شيءٌ مستحيل ، مستحيل أن تتركُه وتسعد ، فهذه النفس لا تسعد إلا به ، ولا تطمئنُّ إلا بذكر الله ، ولا ترضى إلا بقضاء الله ، ولا ترتاح إلا لمشيئة الله ..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

فما كانت له صلةٌ بالله عزَّ وجل كان في نور ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((الصَّلاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ))

(سنن بن ماجة عن أنس)

وبهذا النور ترى به الحقَّ حقًّا فتتبعه ، وترى به الباطل باطلاً فتجتنبه ، ولكنَّ الإنسان المُنْقَطِع عن الله عزَّ وجل أعمى ..

2 – العمى يوم القيامة :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً)

كنت ذا عينين في رأسي ..

(قَالَ كَذَلِكَ)

كنت أعمى القلب ، قال عليه الصلاة والسلام :

((يشيب المرء على ما شَبَّ عليه ، ويموت على ما شاب عليه ، ويُحْشَرُ على ما مات عليه))

(ورد في الأثر)

فلذلك :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

هذا الذي جعل هذا القرآن وراء ظهره ، واشتغل بالدنيا ، إذا حُشِر يوم القيامة يُحْشَر أعمى ، لأنه لو كان يصلي لكان في قلبه نور ، وكان مقطوعاً عن الله سبحانه وتعالى ، وكانت الدنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه لذلك كان أعمى ..

(قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً *قالَ كَذَلِكَ)

أنت لم تكن في الدنيا بصيراً ، لك بصرٌ ، ولم تكن لك بصيرة ، ولك عينان ترى بها صور الأشياء ، ولم تكن لك بصيرةٌ ترى بها حقائق الأشياء ، غَرَّتك الحياة الدنيا ، فرأيتها كل شيء ، مع أنها ليست كل شيء ، ورأيت المال كل شيء ، ورأيت المباهج الدنيويَّة كل شيء ، ورأيت العُلوَّ في الأرض كل شيء ، ورأيت الشهوة كلَّ شيء ، بل إن معرفة الله هي كل شيء ..

(كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا)

لا هلاك ولا عذاب إلا بعد إقامة الحجة :

الآيات بثَّها الله في الأرض ، وبثَّها في السماء ، وجعلها في خلقك، وفي أولادك ، وفي زوجتك ، وفي طعامك وشرابك ، وفي عملك، وأوجدها بتتابع سِنِيٍّ ، حياتك من طفولةٍ إلى شبابٍ ، إلى رجولةٍ إلى كهولةٍ، إلى شيخوخةٍ إلى ضعفٍ ، فإلى موت ، وكل ما حولك آيات ، وبعث لك الأنبياء ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، وبعث من يَدُلُّك عليه ..

(أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا)

جعلت الدنيا أكبر همِّك ومبلغ علمك ..

(وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

الجزاءُ مِن جنس العمل : وكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى :

أي كذلك اليوم نُترَك ، لم تستكمل موجبات الرحمة ، ولم تتعرَّف لي في الدنيا حتى تسعد في الآخرة ، ولم تجعل الدنيا دار ابتلاء ، بل جعلتها دار عطاء ، لم تجعل الدنيا مزرعة الآخرة ، لم تجعلها دار

تكليف ، بل جعلتها دار تشريف ، ومع أن الدنيا دار تكليف ، والآخرة دار تشريف ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ)

أسرف على نفسه ، أي أنه أعطى نفسه ما تشتهي فحرمها كل الخَير ، واستهلك وقته استهلاكاً رخيصاً، وأمضى الساعات الطِوال في القيل والقال ، وفي لغو الحديث ، وفي التَمَتُّع بما لا يرضي الله عزَّ وجل..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأبْقَى

عذاب الدنيا ما أخذ من عذاب الآخرة شيئاً ..

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب لإرسالُك بي إلى النار أهون عليَّ مما ألقى ، وإنه ليعلم ما فيها من شدَّة العذاب))

(الجامع الصغير عن جابر بسند ضعيف)

نارٌ محرقة ، تَلفَحُ الوجوه ، وتشوي الجلود ، ومع ذلك فهو في ضيقٍ نفسي ، وفي عذابٍ نفسيٍّ لا يُحتمل ، لهذا ورد في بعض الأحاديث أن الإنسان إذا اطلع على مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا ، وربنا سبحانه وتعالى يؤكّد هذا المعنى :

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

(فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

لذلك هنيئاً لمن أَعَدَّ العدَّة لهذا اليوم العصيب ، هنيئاً لمن عرف أنه سيموت قبل أن يموت ، وسيدنا عمر بن عبد العزيز اختار أحد كِبار العلماء ليكون مرافقاً له ، قال : << يا مُزاحم ، وظيفتك إذا رأيتني ضللت أمسكني من تلابيبي ، وهزَّني هزاًّ شديداً ، وقل لي : اتق الله يا عمر ، فإنَّك ستموت >> ، هذه وظيفتك . لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدُّكم استعداداً له ، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوّد بسكنى القبور ، والتأهُّبِ ليوم النشور))

(ورد في الأثر)

وسيدنا علي رضي الله عنه يقول : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> ، فلا يُسَمَّى الغني غنياً في الدنيا ، بل إنه مبتلى بهذا المال ، ولا يسمى الفقير فقيراً ، فإن الله سبحانه وتعالى وزَّع الحظوظ في

الدنيا توزيع ابتلاء ، فالغني امتُحِنَ بالغنى ، فإما أن ينجح ، وإما أن يرسب ، والفقير امْتُحِنَ بالفقر ، فإما أن ينجح به فيصبر وإما أن يضجر فيرسب ، والصحيح امتحن بالصحَّة ، والسقيم امتحن بالسَقَم ، والقوي امتحن بالقوَّة ، والضعيف امتحن بالضعف ، فهذه الحظوظ وزِّعت في الدنيا توزيع ابتلاء ، وسوف توزَّع في الآخرة توزيعاً آخر ، إنها توزَّع توزيع جزاء ، فكم من غنيٍّ لم ينجح في امتحانه ! وكم من فقيرٍ نجح في امتحانه ، فأصبح الفقير في الآخرة غنياً والغني فقيراً والآية عُكِسَت ، لذلك :

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

قد ينجح الفقير في الامتحان فيصبر ، وقد يرسب الغني في الامتحان فيُسْرِف ، ويتكبَّر ، ويبخل ، وعندئذٍ تكون الحظوظ في الآخرة موزَّعة توزيعاً آخر ، وربما كان الغني فقيراً ، والفقير غنياً ، ولذلك العبرة لما بعد الموت ، وهذه الدنيا عرضٌ زائل يأكل منه البَر والفاجر ،

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

(سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

فليسعَ الإنسان إلى جوهر الحياة ، وجوهرها أن تعرف الله ، وأن تستقيم على أمره ، وأن تتقرَّب إليه ، فإذا كنت كذلك فأنت الفالح .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1))

(سورة المؤمنون)

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

الآية الأخيرة :

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)

كفَّار قريش يذهبون صيفاً وشتاءً إلى الشام ، وفي طريقهم إلى الشام مدائن صالح ، وديار لوط ، وديار عادٍ وثمود ، وهؤلاء الأقوام الجبابرة الأقوياء الذين طغوا في البلاد ، والذين جابوا الصخر بالوادي ، والذين فعلوا ما فعلوا ، والذين أكثروا فيها الفساد ، أين هم الآن ؟ .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)

لأصحاب العقول ، فالإنسان السعيد من يتعظ بغيره ، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 129 – 135
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-04-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ... مع الدرس التاسع والأخير من سورة طه ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

أيها الإخوة ... لولا حرف امتناعٍ لوجود ، أداة شرطٍ غير جازمة، تقول مثلاً : لولا المَطر لهلك الزرع ، امتنع هلاك الزرع لوجود المطر :

(فَلَوْلَا كَلِمَةٌ مِنْ رَبِّكَ)

(وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى)

شيئان .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

لكان لزاماً هلاكُهم :

أي لكان لزاماً هلاكهم ، أي أن قومك يا محمد بعد أن كذَّبوك ، وبعد أن عصوا ، وبعد أن ردّوا هذه الدعوة ، كان يجب أن يهلكوا ، وكان يجب أن يعاقبوا عقاب تدمير ، وعقاب استئصال ، ولكن سبقت من الله عزَّ وجل كلمة ، وكان لهم أجلٌ مسمى .

معاني الكلمة في الآية :

عند هذه الآية ، وقف العلماء وقفاتٍ متعددة ، فما هي هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل ؟

المعنى الأول :

قال بعضهم : هذه الكلمة هي قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال : من آية " 33 ")

فما دُمت بين ظهرانيهم فالله سبحانه وتعالى لن يعذبهم ، لأن الدعوة قائمة ، وهذه بعض تفسيرات هذه الكلمة .

المعنى الثاني :

وهناك شيء آخر ، فإكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يستأصل أمة سيدنا محمد استِئْصالاً ، فهي في بحبوحةٍ من أمرها ، وهذا هو المعنى الثاني ، أي إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام ، فإن الله عزَّ وجل لن يعذبها عذاب استئصال ، إذ عنده عذاب مُعالجة ، وهناك عذاب استئصال، فعذاب الاستئصال التدمير الكامل ، فقوم عادٍ ، وثمود ، وقوم فرعون دُمِّروا تدميراً كاملاً ، فالعلماء قالوا : هذا التدمير تدمير استئصال ، هذا العذاب عذاب استئصال ، فالله سبحانه وتعالى لم يشأ لهذه الأمة التي كرَّمها الله بهذا النبي العظيم أن يعذبها عذاب استئصال ، وهذا هو المعنى الثاني .

المعنى الثالث :

والمعنى الثالث : أن الله سبحانه وتعالى عَلِمَ أن في هذه الأمة خيراً فأعطاها مهلاً .

المعنى الأول :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

والمعنى الثاني : أنه إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام قد جعل هذه الأمة في بحبوحةٍ من أمرها .

والمعنى الثالث : أن الله عزَّ وجل علم في هذه الأمة خيراً فأعطاها مهلة لعلها تتوب أو لعلها ترجع .

المعنى الرابع : الأمانة والتكليف

وبعض العلماء قال : " إن هذه الكلمة التي سَبَقَت من الله عزَّ وجل هي أن الله عزَّ وجل حينما خلق الإنسان في الدنيا كَتَبَ على نفسه أن يعطيه سُؤلَهُ كائناً من كان ، وكائناً ما كان " ، كائناً من كان من بني البشر ، وكائناً ما كان من السُؤل ، فالإنسان لن يموت حتى تلبَّى له طلباته ، أو حتى يُعْطَى سُؤلَهُ ،

لقوله تعالى :

(كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

أي أن الإنسان حينما قبل الأمانة التي حَمَّلَهُ الله إيَّاها :

(إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)

(سورة الأحزاب : من آية " 72 ")

أمانة التكليف :

قال العلماء : هي التكليف ، ومعنى التكليف أنه رضي أن يأتي إلى الدنيا ، وأن يعطى حرية الاختيار ، وأن يزوَّد بالعقل ، وأن يزوَّد بالشهوة ، وأن يكون مسؤولاً عن تصرُّفاته ، فما لم يعط الإنسان في الدنيا سؤْله لا يكون مسؤولاً عن تصرفاته ، ولذلك سبقت من الله كلمةُ أن هذا الإنسان له مشيئةٌ حرة ، ويقتضي ذلك أن يعطى سُؤْلَهُ ، وأي شيءٍ يختاره فالله سبحانه وتعالى يعطيه إياه ، فحينما يُطلق الله الإنسان لتحقيق اختياره فليس معنى هذا أن الله راضٍ عنه ، ولا معنى هذا أن الله أجبره ، قد يختار الإنسان شيئاً لا يرضي الله ، والله سبحانه وتعالى لم يجبره ولكن سبقت من الله كلمةُ أن يعطي الإنسان سُؤْلَهُ .

مسألة الاختيار وعلاقتها بالتكليف :

فأنت مخَيَّر ، اختر ما تشاء والله سبحانه وتعالى يعطيك ما تريد إذا كنت صادقاً فيما تريد ، أما التمنِّي فشيء والإصرار شيءٌ آخر ، لذلك لو أن الإنسان عصى الله عزَّ وجل لا يستحق الهلاك الفوري لأنه لم يستنفذ سُؤْلَهُ ، إذ له عند الله سؤْل ، فالله سبحانه وتعالى لابدَّ أن يعطيه سؤله ، ولولا هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل لأهلك الكفار ، والفُجار لأول بادرةٍ من معصية ، ولولا أن الله عزَّ وجل جاء بهم إلى الدنيا وكلَّفهم حمل الأمانة ، وأعطاهم اختياراً ، وأودع فيهم شهوةً ليرقوا بها إلى الله ، وبَثَّ في الكون الآيات الدالة عليه ، وأنزل إليهم الكتب ، وبعث إليهم الرُسُل ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن يعطيهم سؤْلَهُم لأهلكهم .

وتوضيحاً لهذه الفكرة : لولا أن هناك نظاماً عاماً في الجامعة يقتضي أن لا يفصل الطالب من الجامعة إلا بعد أن يرسب سنتين ، فهذا الذي يمتنع عن الدراسة إطلاقاً لن يطرد حتى يأتي الامتحان الأول فيرسب ، وحتى يأتي الامتحان الثاني فيرسب ، وحينما تنطبق عليه مواد النظام الداخلي عندئذٍ يُفصل من الجامعة ، أما أن يُفصل لقناعة المدرس فلا تكفي ، لابدَّ أن يجري امتحانًا ، وأن يرسب فيه ، ولابدَّ

أن يعطى فرصة ثانية ، ويجري امتحانًا ، ويرسب فيه ، وبعدئذٍ يفصل ، فالقضية ليست تابعة لقناعة المدرس ،ولا لرغبته في فصل هذا الطالب الكسول ، وهناك نظامٌ عام .

فلذلك خَلَقَ ربنا سبحانه وتعالى حينما الإنسان على هذه الأرض أعطاه حريَّة الاختيار ، وشيءٌ آخر أعطاه أجلاً محدداً ، بالإضافة إلى حرية الاختيار ، ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى الإنسان أجلاً ثابتاً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، فلذلك إن الإنسان في عقيدة أهل السنة والجماعة لا يموت إلا بأجله ، حتى إن المقتول يُقتَل لأجله .

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(34))

(سورة الأعراف)

إذاً ما الذي يمنع أن ينزل بالكفار عقابٌ أليم ؟ وما الذي يمنع أن يستأصل الكفار من أصلهم ؟ وأن يدمَّر الكفار ؟ أن الله سبحانه وتعالى خلقهم في هذه الدنيا وكتب على نفسه أن يعطيهم سؤْلَهُم ، وحدد لهم أجلاً لا ريب فيه ، فعلى الإنسان ألا يتمنَّى لو كان له قريب ، أو له عدو، فقضية الآجال بيد الله عزَّ وجل ، أي أن هذا الإنسان له عند الله أجل ، لا يموت إلا بأجله ، وله عند الله أمانة ، فلابدَّ أن يستنفذ شروط الأمانة ، وهذا هو المعنى الرابع .

المعنى الخامس : رحمة الخلق

وهناك معنى آخر ، قال به بعض العلماء : ما هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل ؟ هذه الكلمة هي أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليرحمهم لا ليعذبهم ، ولذلك هو يعطيهم الفرصة تلو الفرصة ، فحينما تنشأ مدرسةٌ لا من أجل أن يفصل الطُلاب منها ، فلو أن الطالب غاب عن المدرسة أسبوعين متتاليين تنطبق عليه مواد النظام الداخلي ، ولكن المدير يعطيه فرصة ، إذ ليس القصد فصل الطالب ، إنما القصد تعليمه ، وتهذيبه ، وتربية عقله ، ونفسه ، وخلقه ، هذا هو القصد ، وليس القصد أن الله سبحانه وتعالى كلما رأى الإنسان قد انحرف أنزل به العقاب الأليم إنه رحمنٌ رحيم :

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود : من آية " 119 ")

وهذا المعنى الأخير ، معنى دقيق ، فليس القصد إنزال العقاب بالكفار والفجَّار ، بل القصد أن يرحمهم الله عزَّ وجل ، وأن يهديهم إليه ، وأن يسعدهم ، وأن يقرِّبهم ومن هنا جاء حلم الله سبحانه وتعالى ، فهو يعطيهم الفرصة تلو الفرصة فلعلهم يرجعون إلى الله عزَّ وجل ، ولذلك فهذه الآية تفعل في نفس المؤمن فعلاً مؤثراً ..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ)

أي هل قصد الأب أن يطرد ابنه من البيت أم القصد أن يربيه ؟ ولذلك يعطيه فرصة ..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

المعنى السادس : وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

وبعضهم قال : حينما قال الله عزَّ وجل :

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36))

(سورة البقرة)

هذا عهدٌ على الله عزَّ وجل ، ولكم يا بني آدم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين ، فلذلك حينما يخلق الله الإنسان في الدنيا يعطيه هذا الاستقرار ، وهذا المتاع ، كافراً كان أو مؤمناً .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

المعنى السابع : الكلمة هي الأجل المسمى :

وبعضهم قال : الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل هي نفسها الأجل المُسمى ، يؤكِّد هذا بعض الآيات القرآنية الأخرى ، إن هذه الكلمة التي سبقت من الله عزَّ وجل هي الأجل المُسمى الذي حدده الله للإنسان لا يزيد ولا ينقص ، وعلى كلٍ نحن في حلم الله وفي رحمته ، والسعيد من عرف الله قبل فوات الأوان ، ومن أدرك الحكمة من خلقه على وجه الأرض ، ومن عرف ربه ، واستقام على أمره ، ومن أعَدَّ لساعة الفراق عُدته .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

وربما كان في الآية تقديمٌ وتأخير ، وربما يفهم معناها لو وضعت بعض الكلمات بحسب ترتيبها اللغوي .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

ولولا كلمةٌ سبقت من ربك ، وأجلٌ مسمى لكان لزاماً هلاكهم ، واستئصالهم ، وإنزال العقوبة بهم ، فكأن الله سبحانه وتعالى يُسلِّي النبي عليه الصلاة والسلام ويقول له : يا محمد ما دمت قد أعطيتهم أجلاً لا ريب فيه ، وما دامت قد سبقت مني كلمة ألا أستأصلهم إكراماً لك ، أو علماً لما في نفوسهم من خير،

إذاً أنت فاصبر على ما يقولون ، فأقوالهم، واستخفافهم ، وتكذيبهم ، وردُّهم ، وهذه الكلمات التي قد تحزُنك ، وقد تؤلمك اصبر عليها .

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف : من آية " 35 ")

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

ما عند الله لا ينال إلا بعد امتحان :

في هذه الآية حقيقة أساسية ، وهي أن ما عند الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينال إلا بعد امتحان ، ومن لوازم الامتحان أنه شديد ، وهذا العطاء الكبير لن يُنال والإنسان في بحبوحة ، وكما يشتهي ، فلابدَّ من امتحان :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فحينما دعا الله سبحانه وتعالى نبيَّه إلى الصبر ، فقد كان من الممكن أن يخلق الله النبي وأصحابه الكرام من دون أعداء ، وهؤلاء الأعداء الكفار الفُجَّار المعارضون الذين كادوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، كان من الممكن أن يأتي بهم قبل بعثة النبي أو بعدها بكثير ، ولكن العبرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ لكل مؤمن ، فيجب أن يتحَمَّل المتاعب ، حتى تكون سيرته قدوةً لنا ، ومثلاً أعلى يحتذى .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

حتى تكون متاعبه التي تحملها مسلية لنا إلى آخر الزمان ، النبي عليه الصلاة والسلام عصمه الله من أن يقتل ، أو أن الله سبحانه وتعالى عَصَمَ النبي عليه الصلاة والسلام من أن يناله المشركون بالقتل لئلا تغتال الدعوة باغتياله ، ولكن لم يعصمه عن إيقاع الأذى الذي تحمَّله أيَّما تحَمُّل وصبر له أيما صبر ، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف : من آية " 35 ")

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

أي إذا عارضك إنسان ، وسفَّه دعوتك إنسان ، واستخفَّ بك فلك أسوةٌ حسنة بهذا النبي العدنان ..

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

الصبر مقرون بالصلاة :

دائماً جاء الصبر مع الصلاة ..

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

(سورة البقرة : من آية " 45 ")

الصبر وحده قد لا يكفي ، لكن الصبر إذا جاءت معه الصلاة إذ في الصلاة يأتي التجلي الإلهي ، ويأتي التثبيت ، والبُشرى ، ويأتي وعد الله عزَّ وجل ، ووعيده ، فالإنسان إذا صلَّى ، واتصل بهذه الصلاة ، وعقل ما يتلو في الصلاة ، إن هذا كله يثبت قلبه ويطمئنه ، فلذلك جاء الأمر :

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

تنزيه الله وتسبيحه :

(سَبِّحْ)

أي نزه يا محمد ، نَزِّه ربك عن كل ما لا يليق به ، نزهه عن كل صفات النقص ، ونزهه عن أن يكون مثل البشر ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، فكلمة : سبحان الله تعني التنزيه ، فسبحان الله عن أن يكون ظالماً ، وسبحان الله عن أن يكون قاسياً ؛ إنه رحيمٌ ، إنه عدلٌ ، إنه لطيفٌ ، إنه عليمٌ ، إنَّه حليمٌ ، فكلما نفيت عنه صفات النقص بشكلٍ أو بآخر أثْبَتَّ له صفات الكمال ، أو نزِّهه عما لا يليق به ، ومجِّده بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، وعلى كلٍ سبِّح، بعضهم استنبط من هذه الآية أن التسبيح هو الصلوات المكتوبة ، لأن الصلاة المكتوبة فيها تسبيحٌ سبحانك اللهم ، وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، فيها تسبيحٌ ، وفيها تنزيةٌ ، وتمجيدٌ ، وتعظيمٌ ، وتكبيرٌ، وحمدٌ ، وتوحيدٌ ، وربوبيةٌ ، وألوهية .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

متى ؟ يقول ربنا سبحانه وتعالى :

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)

تفصيل الآية لأوقات الصلوات :

1 - صلاة الفجر :

هذه صلاة الفجر ، قبل طلوع الشمس ، " ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله "، لا تعجز ، وفي بعض الأحاديث الصحيحة بما معناه أنه :

((من صلى الفجر في جماعة ، ثم جلس يذكر الله عزَّ وجل حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانتا له حجة وعمرةً تامة تامة))

(الترمذي عن أنس)

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

قال تعالى :

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا(6))

(سورة المزمل)

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(1)قُمْ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا(2)نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا(3)أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا(4))

(سورة المزمل)

(أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78)وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(79))

(سورة الإسراء)

إذاً :

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

لأني أمهلتكم ، ولأن كلمة سبقت مني ألاّ آخذهم إلا في أجلهم المحدد ، فقد أمهلتهم فلعلَّهم يؤمنون ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام وهو بالطائف حينما جاءه جبريل عليه السلام يقول له :

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين " ، ماذا أجاب النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((لا يا أخي اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله))

(السيرة النبوية)

وهذا الذي حصل ، فقد جاءته وفود ثقيف تُعلن إسلامها بعد حين ، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى علم بهذه الأمة خيراً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((أمتي كالمطر لا يدرى أولها خير أم آخرها))

(الجامع الصغير عن عمرو بن عثمان مرسلا بسند ضعيف)

(ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ(39)وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ(40))

(سورة الواقعة)

هؤلاء أصحاب اليمين ، وأما السابقون السَّابقون :

(ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ(13)وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ(14))

(سورة الواقعة)

إذاً :

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)

هذه صلاة الفجر ..

(وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)

2 - صلاة العصر :

هذه صلاة العصر ..

(وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ)

3 – 4 صلاة المغرب والعشاء :

من أوقات الليل صلاة المغرب والعشاء .

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ)

5 - صلاة الظهر :

صلاة الظهر ، لأنها تقع بين طرَفَيّ النهار ، حينما تكون الشمس في كبد السماء ينتصف النهار ، فنصفه الأول ونصفه الثاني ، وتقع صلاة الظهر في الجزء الأول من نصفه الثاني ، إذاً فسر بعض العلماء هذه الآية بأنها تشتمل على الصلوات الخمس المكتوبة .

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

المحافظة على الصلوات والذِّكر طلباً لرضا الله تعالى :

لعلك إذا أقبلت على الله عزَّ وجل ، وإذا ذقت طعم القرب ، ولعل الله إذا تجلى على قلبك ، تقول : ليس في الأرض من هو أسعد مني :

(إنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ألا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من آية " 30 ")

هذه الطمأنينة لا يعرفها إلا المؤمن .

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : من آية " 103 ")

(يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأصِيلا(42)هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43))

(سورة الأحزاب)

(لَعَلَّكَ تَرْضَى)

لعلك إذا أقبلت على الله عزَّ وجل وإذا ذُقت طعم القُرب ، وإذا ألقي النور في قلبك قلت : ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ، ولذلك من علامات الإيمان أن المؤمن يحسُّ بسعادةٍ حقيقية ، لكن الذي له معصيةٌ أو انحرافٌ أو تقصيرٌ ، مقطوعٌ عن الله ، يبقى الإسلام عنده ثقافة ، أي معلومات ، وقناعات ، وأفكار ، وثقافات ، الإسلام في فكره لا في قلبه ، أما إذا استقام على أمر الله فتنعقد الصلة بينه وبين الله عندئذٍ يعرف قيمة هذه الآية ..

(لَعَلَّكَ تَرْضَى)

فهذا الذي سأل عنه النبي عليه الصلاة والسلام عَقِبَ معركة أحد فلم يره أحد ، فكلَّف أحد أصحابه بتفقد شأنه ، فتوجَّه إلى أرض المعركة فإذا هو على وشك الموت ، قال له : " يا ربيع لقد سأل عنك النبي عليه الصلاة والسلام فهل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ " إنسانٌ في مقتبل الحياة ، وفي النزع الأخير ، وعلى وشك الموت فما هي حاله ؟ من كلماته تعرفون أحواله ، قال : " أبلغ رسول الله مني السلام ، وقل له : جزاك الله عنا خيراً ما جزى نبياً عن أمته ، وقل لأصحابه : لا عذر لكم عند الله إذا خُلِصَ إلى نبيكم ، وفيكم عينٌ تطرف " ، كم هو سعيد وهو على وشك الموت ، وهو في مقتبل العمر ، اسأل الأطباء الذين يشاهدون حالات الموت ، كيف أن الإنسان إذا أوشك على الموت انهارت أعصابه ، وصرخ بأعلى صوته أحياناً ، وندم عل ما فات ، لكن هذا الإنسان الذي تربَّى على يدِ النبي عليه الصلاة والسلام ، وقذف الله في قلبه النور وتجلَّى على قلبه عرف طعم القرب ، إذاً :

(فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)

وآية أخرى تؤكّد هذا المعنى :

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

(سورة الضحى)

الله سبحانه وتعالى كما أنك تبتغي رضاه هو يريد أن يرضيك ، ولكن إذا أرضاك قبل الوقت المناسب فربما قعدت وتكاسلت .

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى(5))

فلابدَّ أن يأتي اليوم الذي ترضى أشد الرضى ، ولابدَّ أن يأتي اليوم الذي تذوب فيه خجلاً للعطاء الإلهي ، ولكن من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، ولسوف ترضى ..

(لَعَلَّكَ تَرْضَى)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

حقيقةُ النهي موجَّهة إلى المسلمين لا إلى النبي عليه الصلاة والسلام :

قال بعض العلماء : " هذه الآية صياغتها موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكنها في حقيقتها موجهة إلى أمته ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان أبعد الناس عن أن يمد نظره إلى الدنيا ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها موجَّهة إليه رأفة بقومه ، فالكلام موجهٌ إلى النبي ، وهو في الحقيقة موجهٌ إلى كل مؤمن ..

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

معنى الآية :

المعنى الأول :

فإذا وقفت أمام بيتٍ جميل ، ونظرت إليه فامتلأ القلب حسرةً ، تنظر إلى مساحته ، وتنظر إلى هذا الذي يبالغ في التأمُّل في زينة الحياة الدنيا ، فهذا فيه نهيٌ بنص هذه الآية ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إياكم وفضول النظر ، فإنه يبذر في القلب الهوى))

(ورد في الأثر)

فالعلماء قالوا : " ليس النهي نهياً عن النظر ، ولكن النهي نهيٌ عن مد العينين إلى ما متعنا به أزواجاً

منهم " ، أي المبالغة في التأمُّل ، وفي التدقيق ، وفي التنهُّد بعد النظر ، هنيئاً له على هذه المركبة ، ما هذه المركبة ؟ هذا النظر ، والتنهُّد ، والتحسُّر ن ليس من أخلاق المؤمن ، النبي عليه الصلاة والسلام كلما نظر إلى شيءٍ من متاع الدنيا قال :

((اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَة ...))

(من صحيح البخاري عن سهل)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)

إذاً النهي عن مدّ العينين ، وكأن العين تخترق ، وتنظر ، وتشتهي ، والقلب يتحسَّر ، والفكر يطمح ، لا ، لم تُخْلَق لهذا ، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دعي إلى اللعب وإلى اللهو يقول :

((لم أخْلَقْ لهذا))

أنت لم تخلق لهذا :

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ)

(سورة الأحقاف : من آية " 33 ")

كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي :

((أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين !! خلقت السماوات والأرض من أجلك وخلقتك من أجلي ، خلقت السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

(ورد في الأثر)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)

فلا تقف أمام بيتٍ فخمٍ وتبالغ في النظر إليه ، ولا تقف أمام مركبةٍ فخمةٍ جداً وتبالغ في النظر إليها ، لا تدقق في هذه الرياش والأثاث التي قد تطالعك إذا دخلت إلى بعض البيوت ، ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه: " من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط" ، أي أن هؤلاء الأغنياء المترفين غير المؤمنين يعرضون على الزائر ما عندهم من طنافس ومن رياش ومن متاع ، ويتحدثون عن قيمتها ، وعن ثمنها ، وكيف اشتروها ، وما شأنها ؟ وكم قطعة في دمشق منها ؟ فهذا الحديث عن الأثاث ، والرياش ، والمتاع يبعد عن الله سبحانه وتعالى ، يا عائشة :

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ ، وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

(من سنن الترمذي : عن " عائشة ")

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ)

المعنى الثاني :

الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء يقول : لهذه الآية معنىً آخر ، إنك إذا دخلت إلى بيت مترف لسببٍ أو لآخر ، وكان صاحب هذا البيت بعيداً عن الله عزّ وجل ، وقيمته في هذا المتاع ، كما قال الإمام عليٌ كرم الله وجهه : " يأتي على الناس زمان قيمة الرجل متاعه " ، أي يستمد قيمته من نوع مركبته ، ومن موقع بيته ، وثمنه ، وأثاثه ، فهذه مكانته ، وليس له مكانة أخرى إطلاقاً ، وهو في نظر الله صغير جداً، لهم صغارٌ عند الله ، ولا شأن له عند الله فهو ساقطٌ من عينه ، ولكن يستمد مكانته من هذه الرياش، وهذه الطنافس ، وهذا الأثاث ، وهذه الإمكانات ، فلذلك إذا دخل عليه المؤمن ، وبدا عليه الدهشة ، وبدا عليه مد النظر ففي هذا زعزعةٌ لمكانة المؤمن ، وكأن الكافر بهذا استعلى على المؤمن ، ولذلك يجب أن لا تبالي إذا دخلت على مُترف ، بما عنده منها ، وألا تلقي لها بالاً ، ولا تدقق النظر إليها ، ولا تمدن عينيك إليها ، كن عادياً ، وأعرض عنها ، ولا تكترث بها ، فهذا شيءٌ ترد به على أهل الدنيا الذين يستمدون مكانتهم فقط من رياشهم ومن متاعهم ، ومما عندهم منها .

وهذا أيضاً يظهر بشكلٍ واضحٍ عند النساء ، فإذا كانت امرأةٌ لها زوجٌ غني وقد أعطاها كثيراً من الحلِيّ ، فإنها تضع هذا الحلي لتباهي به النساء الأخريات ، أو لتضع في أنفسهن الحَسرة ، فالمرأة المؤمنة لا تبالي بهذا ، ولا بهذه الحلي ، ولا بهذه الألبسة الغالية ، ولا بهذا البيت الفخم ، إنها إن تعلقت بهذا فقد ضعضعت مكانتها ، قال عليه الصلاة والسلام :

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلاثا دينه))

(الترغيب والترهيب عن أبي الدرداء بسند ضعيف)

وإذا أطلعك على شيءٍ فخمٍ فلا تحملق عينيك فيه ، ولا تندهش ، ولا تقل ما أجمله ، بل أعرض عنه ، فهكذا الأمر الإلهي ..

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ)

قال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ)

أقوال الصحابة في ذم الدنيا :

وهذه الدنيا لا تستأهل فوق ذلك ، إنها دار الموقت ، وليست دار القرار، هي ممرٌ وليست مقراً ، عش في الدنيا كأنك غريب ، عش في الدنيا كأنك مسافر ، << ما لي وللدنيا ، يا دنيا طلقْتك بالثلاث طلاقاً لا

رجعة فيه ، فشأنك حقير ، وخطرك كبير ، فإليك عني يا دنيا >> ، هذا قول سيدنا علي . وقد دخلوا على سيدنا أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه ، وقد قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام :

((أمين هذه الأمة))

(متفق عليه عن أنس)

وكان قائد الجيوش الإسلامية في بلاد الشام ، فرأوا غرفة صغيرةً لا تتسع لشخصين ، ورأوا قدر ماءٍ غطي برغيف خبزٍ ، وجلد غزالٍ ، وسيفاً معلقاً على الحائط ، هذا هو كل ما عنده ، فقال له بعض أصحابه : ما هذا يا أبا عبيدة ؟ قال : << هو للدنيا ، وعلى الدنيا كثير >> .

ودخل عدي بن حاتم على النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : << والله ما هذا بأمر ملك ، دخلت عليه فدفع إلي وسادةً من أدمٍ محشوةً ليفاً ، فقال : " اجلس عليها " ، قلت : " بل أنت " ، قال : " بل أنت " ، قال : " فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض " ، وليس في بيته إلا وسادةٌ واحدة ، فلما جلس عليها عدي بن حاتم جلس النبي عليه الصلاة والسلام على الأرض ، هي للدنيا وعلى الدنيا كثير >> .

ودخل عليه سيدنا عمر وقد أثر الحصير على جبينه الشريف ، فبكى، فقال : " يا عمر ما يبكيك ؟ " قال : " رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير !! " ، قال :

((يا عمر ، إنما هي نبوة وليست ملكاً ، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا))

هذه الدنيا الحقيرة التي لا شأن لها سريعة الأفول والزوال ، هي لهم ، إذاً :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً)

وحينما يشتهي الإنسان الدنيا يصبح معها كالزوج ، فهو مغرمٌ بجمع الدرهم والدينار ، وهو عبد للدرهم والدينار ..

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ))

وهذا مغرمٌ بالشهوات :

((تعس عبد الفرج))

وهذا مغرمٌ بالطعام والشراب :

((تعس عبد البطن))

وهذا مغرمٌ بالأناقة واللباس والرياش :

((تعس عبد الخميصة))

فلذلك المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام :

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(من مسند أحمد عن معاذ بن جبل)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً)

فهو والنساء زوج ، وهو والمال زوج ، وهو والرياش زوج ، وهو والسفر زوج ، فهذه هوايته في الحياة ..

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الدنيا كالزهرة سريعة الذبول والانقراض :

والله سبحانه وتعالى شبَّه هذه الدنيا ، وزينتها ، وبهرجها ، وزخارفها ، ورياشها ، ونساءها ، ومالها ، وبيوتها ، وبساتينها ، ومركباتها ، شبهها بالزهرة ، والزهرة سريعة الذبول ، فقبل أسبوع كانت الغوطة كلها أزهار ، فأين هي الآن ؟ انتهت ، ولذلك قال بعض الشعراء يعاتب خليفةً ويقول :

لا يكن عهدك ورداً إن عهدي لك آسُ

* * *

ما معنى ؟ لا يكن عهدك ورداً ؟ أي سريع الذبول ، فربنا عزَّ وجل شبَّه الدنيا بأنها زهرة ، حتى يستكمل الإنسان مقومات حياته في الأربعين ، وقد يموت في الخمسين ، عشر سنوات ، قبل الأربعين كلها تعب ، تعبٌ كلها الحياة ، فما أعجب إلا من راغبٍ في زيادة ، زهرة الحياة الدنيا ..

(كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف : من آية " 19 ")

فلذلك خيركم من طال عمره وحسن عمله ، والنبي عليه الصلاة والسلام :

((أكثروا ذكر هادم اللذات ، ومفرق الأحباب ، مشتت الجماعات))

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا ، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ)

لنمتحنهم أيؤثرون الله عزَّ وجل أم يؤثرون الدنيا ؟

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

رزقُ اللهِ خير وأبقى :

تقول أنت : صدق الله العظيم ، فهل أنت مصدقٌ ربك في هذه الآية؟

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

إذا كنت مستقيماً على أمر الله ، وطائعاً لله فالآخرة لك ، والعقبى لك ، وأنت الفائز ، وأنت الرابح ، والناجح ، والمتفوق ، والأول .

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت : من آية " 30 ")

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية : من آية " 21 ")

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

الدنيا أقل وأقصر ، وكلها متاعب ، وإنها دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي " .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

وعن قوله تعالى :

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

(ورد في الأثر)

والله سبحانه وتعالى يقول :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من آية " 77 ")

وإذا كان الجليل يقول عن متاع الدنيا : قليل ، فهل تراه أنت كثيراً ؟

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء : من آية " 77 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)

وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ

والإنسان لحكمة أن الله سبحانه وتعالى جعل نظام المجتمع أساسه الأسرة ، فالإنسان لا يسعد إذا كان هو مهتدياً ، وأهله في ضلال ، وإن هناك المخاصمات ، والمُشاحنات ، والتناقضات ، والصراعات ، فمن أجل أن تسعد لابدَّ أن يكون أهلك معك على خطّك ، وعلى طريقتك ، ولابدَّ أن يشربوا من مشربك، وأن يهتدوا بهداك ، فلذلك جاء الأمر الإلهي :

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

الأمرُ بالاصطبار :

أي اصطبر كي تصبح صلاتهم كما أرادها الله عزَّ وجل ، مُرهم بالصلاة ، واصطبر عليهم .

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً)

الله هو الرزاق ذو القوة المتين :

أي أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين ، فهذه الصلاة فيها اقتطاعٌ للوقت ، والوقت كما تعلمون أصل كسب المال ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الرزَّاق ، وما دام الله هو الآمر فهو الضامن والناصر ، وما دام الله هو الآمر بالصلاة فهو الذي يتكفّل برزقك ، وهو الذي يرزقك من حيث لا تحتسب ، فعلى الإنسان ألا يحتج بالرزق لتقاعسه عن حضور مجالس العلم ، ولا يحتج بالرزق لتقاعسه عن أداء الصلاة ، فالله سبحانه وتعالى هو الرزاق ، فلذلك كم من إنسانٍ اقتطع من وقت قسطاً ليصلي فيه ، فجاء رزقه وفيراً ، وكم من إنسانٍ ضن بوقته عن أن يصلي فيه ، فجاءت مصيبةٌ أتلفت ماله ، فلذلك فما عند الله لا ينال بمعصيةٍ ، ومن ابتغى شيئاً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما

اتقى .

(وَأمُرْ أهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)

أي زوجتك وأولادك ، ومن في عهدتك ، ومن في رعايتك ، ومن أنت عليهم ولي .

(وَأمُرْ أهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَأَدْرَكَهُ كَانَ لَهُ كِفْلَانِ مِنَ الأجْرِ ، فَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنَ الأجْرِ))

(سنن الدارمي عن واثلة بن الأسقع)

((أبى الله إلا أن يجعل رزق عبده المؤمن من حيث لا يحتسب))

(ورد في الأثر)

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

نزلتْ فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنتُ يظن لا تفرجُ

* * *

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

العاقبةُ للتقوى :

هذا كلام الله ، خالق الكون ، يقول لك : العاقبة للمؤمن ، للتقي ، والزمان يدور ، وينتهي بفوز المؤمن وهلاك الكافر :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فالعاقبة للمتقين ..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى * وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ)

أسلوب التحدي عادةُ الكفار :

كما فعل سيدنا موسى ، أو سيدنا صالح .

(أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

أليس هذا هو الآية ؟ أليس في هذا القرآن أخبار الأمم السابقة ؟ هل عرف النبي هذا إلا عن طريق الوحي ؟ أنَّى له أن يعرف ما جرى في الأقوام السابقة لولا أنه نبيٌّ يوحى إليه ، أليس هذا الكتاب آيةً كافية على نبوته ؟ .

(وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

أي أن الله عزَّ وجل يرسل الأنبياء ، ويرسل المرسلين ، وينزِّل الكتب لتقوم الحجة على العباد ، ولو لم يُذكِّر :

(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا)

كلُّ فريق يُجزَى بما كسب :

والله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالخيرات ، ووعد الكافرين بالعقوبات ، وعليه :

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(22))

(سورة المطففين)

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(14))

(سورة الانفطار)

الناس رجلان : برٌ تقي كريمٌ على الله ، وفاجرٌ شقي هينٌ على الله .

(قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا)

وكل إنسـان ينتظر ما وعده الله به ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر.

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)

يوم القيامة يُكشَف كُلُّ مخبوءٍ :

هذه السين للاستقبال ، ولابدَّ أن يأتي اليوم الذي تعرفون فيه مصداق هذا القرآن الكريم :

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(52))

(سورة يس)

ولابدَّ أن تأتي الساعة التي يتحقق فيها هذا الوعد والوعيد ، ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان ، فالبطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان ، أما أن تعرفها بعد فوات الأوان فهذه لجميع الناس .

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-04-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الأنبياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ(3))

أيها الإخوة الأكارم، هذه السورة ـ سورة الأنبياء ـ مكيَّة، تتحدَّث عن قصص بعض الأنبياء، وعن أمور العقيدة الأساسية، كالإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالله خالقاً، ومربياً، ومسيِّرا، يقول الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

الحركة في الحياة تعني الوصول إلى النهاية الأبدية

ومعنى اقترب، أي أنهم سائرون في طريقٍ ينتهي بالحساب، فكل حركةٍ تعني الوصول، فأيَّةٌ مركبةٍ ما إن تنطلق في طريقها حتى تصل، وأيَّة طائرةٍ ما أن تقلع حتى تهبط، وأي قطارٍ ما أن يتحرَّك حتى يصل، فالحركة تعني الوصول، فالله سبحانه وتعالى وضعنا على وجه الأرض، والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، فكل يومٍ يمضي هو جزءٍ من حياتنا، وكل أسبوع يمضي هو جزءٌ أكبر، وكل شهرٍ يمضي هو جزءٌ أكبر، وكل سنةٍ، والسنوات والفصول تنتهي جميعها بمجيء ملك الموت..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

والآن الحبل مُرخَى لهم، يتكلَّمون حقاً أو باطلاً، ويأخذون ما لهم، وما ليس لهم، ويحكمون بالحق إذا حُكِّموا بين شخصين أو بالباطل، ويتكلَّمون بما تهوى أنفسهم أو بما تُمليه عليهم مبادئهُم، فالناس في بحبوحة مخيَّرون، ولكن كل عملٍ عنه محاسبون، وكل موقفٍ من مواقفهم عنه سيُسْألون، وكل دِرْهَمٍ من دراهمهم كيف اكتسبوه، وكيف أنفقوه سيوقفون، هكذا..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

ما دمت أنت على وجه الأرض، والأرض تتحرَّك، والعمر مجموعة أيَّامٍ وأسابيع، وأشهر وسنوات فلابدَّ من أن نصل إلى النهاية، ولذلك كل متوقع آت، وكل آتٍ قريب، ومن هنا عبَّر الله سبحانه وتعالى عن يوم القيامة بالفعل الماضي:

(اقْتَرَبَ)

أي اقترب وانتهى، والآن لو أنك راكبٌ في سيَّارة، ما دامت واقفة في مركز الانطلاق، ولا تدري متى تتحرَّك، فالوصول غير محدَّد، ولكن ما أن تتحرَّك حتى تصل، والطائرة ما أن تقلع حتى تهبط، وكذلك القطار ما أن ينطلق حتى يصل إلى الهدف، إذاً:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

حسابٌ دقيق..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر:93)

وفي الحديث:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟))

(من سنن الترمذي عن معاذ بن جبل)

ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اغتنم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هرمك، وصحَّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

[الحاكم في مستدركه، وابن أبي شيبة في المصنف عن عمرو بن ميمون]

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

الدولاب يمشي، وأنا في طريقي إلى هذا المسجد، وفي بعض المواقف عند الإشارات الضوئيَّة جاءت جنازة، ونحن في رمضان، هو في طريقه إلى التراب، وإلى الحساب، وإلى نعيمٍ مقيم، أو إلى عذابٍ أليم، وهكذا، ولذلك فما دام الإنسان غافلاً عن هذه الساعة، وعن هذه اللَّحظة، عن تلك النهاية فهو في ضلالٍ مبين.

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ)

لم يقل الله عزَّ وجل: اقترب للناس يومُ الدين، أو اقترب للناس يوم القيامة، بل اقترب للناس حسابهم، يقول لك: مفتِّش محاسبات ـ حينما الإنسان يُحَاسَب يتعرَّى، فينكشفُ على حقيقته ـ ويقول لك: الصندوق

مكشوف، يعرف هذا، ويتذوَّقه أمناء الصناديق، فلو جاءهم تفتيشٌ حسابيٌّ مفاجئ، وكانوا قد تصرَّفوا في بعض الأموال، يكادون يُصْعَقون، من منا يدري متى يأتيه الحساب ؟ ومتى يأتيه مَلَك الموت ؟

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ

فهذا الغافل عن تلك الساعة، وهذا الغارق في مشاريعه، وفي ملذَّاته، وأحلامه، وطموحاته، ومُتَعِهِ، وتجارته، ومعمله وحانوته، وظيفته وهواياته، وشهاداته ومراكزه التي يطمح إليها، هذا الغافل يأتيه الموت كالصاعقة.

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

في غفلةٍ، وفي إعراض، في غفلةٍ عن هذا اليوم، وفي إعراضٍ عن هذا القرآن، كلام الله رب العالمين لا يأخذونه مأخذاً جدِّياً !! ولا يطبِّقونه، كما لو أنه كلامٌ من إنسانٍ يخشون بطشه، أو يرجون عطاءه، والناس في تعاملهم اليومي حينما يقرؤون نصًّا لإنسانٍ يُرجى خيره، أو يُرْهَب بطشه ينفِّذونه بحذافيره، ويدقِّقون في تطبيقه أدقَّ التدقيق، فما لهم إذا قرؤوا كلام الله عزَّ وجل، وكلام الله عزَّ وجل فيه أمرٌ، وفيه نهيٌ، فهل قُرَّاء القرآن الكريم عند أمر الله وعند نهيه ؟ هل هم صَدَّقوا وعده ووعيده ؟..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور: من آية " 55 ")

هل صدَّقوا وعده ووعيده ؟ وهل ائتمروا بأمره، وانتهوا عن نهيه ؟ وهل طمعوا في جنَّته، وخافوا من ناره ؟ وهل رضوا بما قسمه الله لهم ؟ وهل وسعتهم السُنَّة، ولم تستهوهم البدعة ؟ وهل رأوا في الدين خلاصاً من كل مشاكلهم ومشكلاتهم ؟ وفي الإقبال على الله سعادةً لقلوبهم ؟ وفي تطبيق الشريعة الغَرَّاء إنقاذاً لهم من مآسيهم ؟..

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 33 ")

في حياته وأنت فيهم، وبعد مماته وشريعتك بين ظَهْرَانيهم في حياتهم مطبَّقة..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

غافلون.. فبئس العبد عبدٌ سها ولها، ونسي المبتدى والمنتهى، وبئس العبد عبدٌ تكبَّر، واختال، ونسي الكبير المتعالي، وبئس العبد عبدٌ تجبَّر وطغى، ونسي الجبَّار الأعلى، ولا حبذا هذا العبد ـ وساء العبد عبدٌ طَمَعٌ يقوده، ورغبٌ يُذِلُّه، نعوذ بالله من الغفلة، فهذا هو الغافل:

أيـا غافـلاً تبدي الإساءة والجهلا متى تَشْكُرُ المَولَى على كلِّ ما أولَى

عليكَ أيَادِيه الكِرَامُ، وأنتَ لا تراها   كــأنَّ العين عمياءُ أو حَــولا

لأنت كمزكومٍ حوى المِسـكُ جَيبُه   ولكنَّه المَـحْرُومُ ما شَمَّه أصــلا

* * *

إلى متى أنتَ باللذّاتِ مشــغُولُ   وأنتَ عنْ كلِّ مـا قدَّمْتَ مَسؤولُ

* * *

فيا خَجَلي مِنه إذا هو قـال لي   أيـا عبدَنا هـلا قـرأتَ كِتَّابنا

أما تَسْتَحي منَّا ويكْفيكَ ما جَرى   أما تَخْتَشي من عُتْبنَا يومَ جَمْعِنا

أما آنَ أن تغدو عن الذنْبِ رَاجِعاً   وتَنْظُرْ فيما به قد جرى فيه وعْدُنَا

* * *

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

هجر القرآن من الغفلة الكبيرة

أخطر ما في حياتنا غفلتنا عن مصيرنا، وغفلتنا عن هذا الكتاب الذي فيه وعدٌ ووعيد، وأمرٌ ونهيٌ، وجنَّةٌ ونار، وتشريعٌ دقيق، ونظامٌ حكيم، ومنهجٌ قويم، وعبرةٌ لمن يعتبر، وذكرى لمن يتذكَّر، وإخبارٌ عن أقوامٍ مضوا، ووصفٌ لحالتنا الراهنة، وحديثٌ عما سيكون، ويلٌ لمن جعله وراءه ظهرياً، وقال:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)

(سورة الفرقان: 30)

هجروه، وقرؤوه على الأموات، ولم يقرؤوه على الأحياء، وقرؤوه في المناسبات، ولم يقرؤوه في المُلِمَّات، وقرؤوه وكأنه كتابٌ لا يعنيهم، وأحكامه لا تتصل بحياتهم.

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

إن السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه، نعوذ بالله من الغفلة، ومن الإعراض، وأن يدير الإنسان ظهره للدين، ولأوامر الله سبحانه وتعالى، وألاّ يقيم لها وزناً، وألاّ يهتمَّ بها، وألاّ يأخذها مأخذاً جدِّياً.

حالتان مرَضيتان: الغفلة والإعراض

حالتان مَرَضيتان خطيرتان مدمِّرتان، الغفلة والإعراض، ومن علامات المؤمن الصحوة والإقبال، ومن علامات الكافر الغفلة والإعراض، المؤمن صاح، يعرف حجمه الحقيقي، ويعرف لماذا هو على وجه الأرض، ويعرف مهمَّته في الحياة، ولماذا أرسله الله إلى الدنيا، وماذا ينتظر منه، وما الذي وراءه، وما الذي أمامه، ولماذا يتزوَّج ؟ لا من أجل المتعة ولكن من أجل أن ينجب أولاداً صالحين يذكرون الله من بعده، يتزوَّج ليأخذ بيد هذه الزوجة إلى ما يحبُّ الله ويرضاه، ولماذا يعمل ؟ لخدمة المسلمين لا ليستغلَّهم، ولا ليبني ثروته على فقرهم، ولا ليغشَّهم، ولا ليحتال عليهم ؛ بل ليخدمهم وينصحهم والله سبحانه وتعالى يتولَّى أن يرزقه رزقاً حلالاً طيِّباً.

المؤمن صاح يعرف ما له وما عليه، ويعرف ما يجوز، وما لا يجوز، وما يمكن، وما لا يمكن، وما يصح، وما لا يصح، ويعرف ذلك، ويعرف حدوده ـ " رحم الله عبداً عرف حدَّه فوقف عنده " ـ ويعرف أن لكل مخلوقٍ إلهاً يحاسب عنه، الناس في تعاملهم اليومي يقولون: الله وكيلك، لو تعرف معنى هذه الكلمة لارتَعَدَتْ فرائصك، فالله وكيله، وتغشُّه ؟ والله وكيله، وتحلف له يميناً كاذباً ؟ وتحتال عليه ؟ ولذلك من علامات الإيمان الصحوة، والإقبال، هل هو صاح، وحضر مجالس العلم، فأنَّى لإنسانٍ أن يأخذ شهادة عُليا، وهو لا يداوم على الجامعة، مستحيل، من أين يأتي العلم، وأنت جالس في البيت تتابع برامج ترفيهيَّة ؟ ومن أين يأتيك العلم، وأنت في دكَّانك تبيع وتشتري ؟ ومن أين يأتيك العلم، وأنت مع أهلك وأولادك تمزح معهم ؟ لابدَّ من أجل أن تكسب العلم أن تذهب إلى مواطن العلم، إنها مجالس العلم، ولابدَّ من حضورها لتعرف الحلال من الحرام، والحقَّ من الباطل، والخير من الشر، ولتعرف كيف يعامل الله عباده، وقد يأتيك رجل يقول لك: إنّ الله سبحانه وتعالى لا يعذِّب أحداً من عباده، وهذه الآيات التي يتحدَّث فيها عن النار إنما هي من أنواع التخويف، فإن لم تكن تعرف الحقيقة فكيف تواجه هذا الإنسان، إن صدَّقته أهلكت نفسك.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر:93)

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل:32)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِي)، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ

رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

طلب العلم وقاية من الغفلة

أنَّى لك أن تعرف الحقيقة من دون أن تحضر مجالس العلم ؟ ومن دون أن تستمع إلى تفسير كتاب الله، وأن تتعرَّف إلى سُنَّة رسول الله، وأن تعرف الأحكام الفقهيَّة في كل موضوع، أنىَّ لك أن تتحمَّس إلى الله من دون أن ترى من سبقوك مِن أصحاب رسول الله، ومن التابعين الأجلاء، ومن العلماء العاملين، هؤلاء الذين تستمع إلى قصصهم هم مشاعل في الطريق، مشاعل وضَّاءة، ونبراسٌ لك في طريق الإيمان، لذلك:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

(من سنن ابن ماجة: عن " أنس بن مالك ")

طلب العلم فرض عين وليس فرض كفاية، فرض عين، كن في أي مستوىً أردت، وفي أي عملٍ شئت فلابدَّ من طلب العلم..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

إذا كان الإنسان ذاهباً إلى بلد يسأل: ماذا أفعل ؟ وأي فندقٍ أنزل ؟ وكيف شراء الحاجات هناك ؟ دُلَّني على مكانٍ مناسب، وعلى فندقٍ مناسب، وطريقةٍ مناسبة أُحَصِّل فيها قوت يومي، ما من إنسان يسافر إلا، ويسأل الخبراء عن هذا البلد، وهل في هذا البلد مشكلات، وميّزات، وملابسات، وخصائص، فكيف إذا كان الإنسان ذاهباً إلى الدار الآخرة - قولاً واحداً - ألا يسأل عن هذه الرحلة الأبديَّة الطويلة التي لا عودة منها، ذهاب بلا عودة، أبداً، فالإنسان أحياناً يسافر فيغيب شهراً، أو شهرين، أو سنة، أو سنتين، أو خمس سنوات، ثمَّ يعود، وأحياناً الإنسان يدخل السجن، وبعد كذا سنة يعود إلى أهله، لكنَّ الموت ذهابٌ بلا عودة، فالذي لا يعرف كيف يستغل حياته، هو إنسانٌ في منتهى الضلالة..

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)

نعوذ بالله من الغفلة ومن الإعراض، ونرجو الله أن نكون ممن تيقَّظت قلوبهم، وممن أقبلوا على ربِّهم.

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ

أي أن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّماً على قلب سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلّم يستمعونه، وهم يلعبون، إنه كلامٌ خطير ومَصيريّ، وإذا قرأه الإنسان، وعرف أبعاده لا يقرُّ له قرار، ولا يهدأ له بال حتى يعرف أين هو منه، هل مع الفائزين أم مع الضالين ؟ وهل مع الناجحين أم مع الخاسرين ؟ فلذلك:

(إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

موقف المؤمن عند سماعه القرآن

ولكنَّ المؤمن لا يلعب، إذا استمع إلى آيةٍ أخذها مأخذاً جدياً، وطبَّقها في حياته تطبيقاً صحيحاً، إنها كلام ربِّ العالمين، فلماذا تأخذ كلام البشر بجِد ؟ وإذا مُنِعْت من شيءٍ بقوَّة قانون، وقرأت في نهاية القانون الروادع التي كُتِبَت من أجل أن تحاسب المخالفين، وعرفت أن الذي أصدر هذا القانون لن يتساهل في تطبيقه، وأنه يفعل ما يقول، فلماذا تأتمرُ به ؟ ولماذا تحرصُ على تطبيقه ؟ أيعقل أن تكون خشيتك من إنسان أعظم من خشيتك من الرحمن ؟! أيعقل هذا ؟! أيعقل أن تحسب لإنسانٍ حساباً ولا تحسب لخالق الكون حساباً ؟!!..

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

ونحن في كل زمانٍ نستمع إلى هذا الكتاب، وهذا الكتاب يُتْلى علينا، ويأتينا تأويله، أما أنه يُتْلى علينا فهذا شيءٌ مفروغ منه، يُتلى علينا صباحاً ومساءً، أو نتلوه نحن، أما أن يأتينا تأويله فإن كل وعدٍ ووعيدٍ وعد به القرآن أو توعَّد به نجده واقعاً لا محالة، فالله وعد المرابي بإتلاف ماله، فكل مرابٍ يُتْلَف ماله، إنما هو تأويلٌ لهذا الكتاب، وعد المؤمن بالحياة الطيِّبة، فحياة المؤمن الطيبة تأويلٌ لهذه الآية، ووعَدَ المُعْرِضَ عن ذكر الله بالمعيشة الضنك، فالمعيشة الضنك تأويلٌ لهذه الآية، وعد القاتل بالقتل، ووعَدَ الزاني بالفقر، ووعَدَ على كل سيئةٍ عقاباً، فحينما يُطَبَّق القرآن فإن هذا التطبيق هو تأويل، وهذا التأويل مما يزيد في إيماننا بهذا الكتاب.

إذاً فالله سبحانه وتعالى يُصَرِّف لنا الآيات الكونية والقرآنية، يصرِّف لنا الآيات الكونيَّة ؛ الليل والنهار، والشمس والقمر، والصيف والشتاء والربيع، والأمطار، والبحار، والأنهار، والينابيع، وهذه الأرض المُزدانة بالنباتات الخضر والأزاهير الحِسَان أليست آيةً من آيات الله الدالَّة على عظمته، هذه آية..

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ)

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ

هناك لهوٌ، وهناك غفلةٌ، فهم في مُتَعِهِم الرخيصة، وفي مباهجهم المنحرفة، وفي شهواتهم الدنيئة، وفي تطلُّعات الأثرة، إنهم لاهون بها.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى

هل يُعْقَل أن يُرْخِي الإنسان لشهواته العِنَان ويقول: أنا على غلط ؟ لا، إنه يقول عكس ذلك..

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

أي وأسرَّ النجوى الذين ظلموا..

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

النجوى أي الحديث الخفي، قالوا:

(هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

حجج الكفار في ردّ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم:

1 - هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

ما من إنسانٍ ينحرف عن طريق الحق إلا ويتّهم أهل الحق بالزيَغ، يقول لك: هؤلاء معقَّدون، وغير واقعيين، وحالمون، لا يعرفون مباهج الحياة الدنيا، وما ذاقوا طعم الدنيا، إنهم زاهدون ولو عرفوها لما زهدوا فيها، وهكذا يدَّعي أهل الفسق والفجور، فما عرفوا أن المؤمنين ذاقوا من طعم القُرْب ما أذهلهم - **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف "** - ما عرف أهل البُعد والضلال أن المؤمنين لو عَرَضْت عليهم أن يُلقوا في النار، أو أن يتركوا دينهم لفضَّلوا أن يُلقوا في النار، لأنهم عرفوا أن لهم رباً عظيماً، أما عرفوا أن سحرة فرعون قالوا:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه: 72-73)

وما عرف هؤلاء الضالُّون أن في حياة المؤمن شوقاً إلى الله عزَّ وجل، من أجله يضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وأن في حياة المؤمن سعادةً لا يحلمُ بها أثرياء العالم، ولو أن حياته في ظاهرها متقشِّفة، خشنة، متواضعة، محدودةٌ ؛ ولكنَّ في قلبه من السعادة ما لو وزِّع على أهل بلدٍ لكفاهم، وما عرف هؤلاء الضالون أن من..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه:124)

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

يقول لك: أخي، هذا محمَّد إنسان عبقري وذكي، ساق هذا القرآن بحكمةٍ بارعة، وأقنع الناس أنه كلام الله عزَّ وجل، ووحَّد القبائل، وصار زعيماً عليها، وانتهى الأمر، هذا الدين كله عندهم..

(الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

لكن على أذكى..

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

2 - أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

إنكم إن اتبعتموه سَحَرَكُم، سحركم بأخلاقه، وبالحق الذي بين جنبيه، وبنفسيِّته التي أقبلت على الله عزَّ وجل وبأُنسه..

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)

هذا ساحر، فلا تستمعوا إليه، فهو يأخذكم من بين أحضان أهلكم، نعَم إنّ المؤمن يَسْحَرُ الناس بُخلقه الكريم، وبتواضعه العظيم، وحلمه، وكرمه، وسخائه، ولطفه، وأُنسه، هكذا المؤمن، إنه بإقباله على الله اشتقَّ شيئاً من كماله، فهو رحيم، ولطيف، وعفوٌ كريم، فشيءٌ طبيعي أن تُحِبَّ المؤمن، أما إذا التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام فربَّما بقيت أيَّاماً لا تنام الليل شوقاً إليه، وهؤلاء الذين رأوه في المنام يبكون أياماً طويلة وأشهراً، وهم يذكرون هذه الرؤيا.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

أي وأسرَّ الذين ظلموا النجوى، الذين بدل من الواو في أسرّوا.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)

من هم الذين أسروا النجوى ؟ الذين ظلموا، بدل من الواو..

(هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

أي أن النبي الكريم ما هو إلا بشرٌ مثلكم، هكذا يدَّعي الذين ظلموا.

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(4))

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

إن الله وحده يعرف الحقيقة، ويعلم القول، فهو يعلم ما تقولون من كذب، ويعلم ما أقول من صدق، ويعلم أني رسولٌ من عند الله ولست بمفترٍ عليه، وأنكم تفترون على الله كذباً..

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

لذلك أهون شيء التعامل مع الله عزَّ وجل ألا تحتاج إلى يمين، ولا تحتاج إلى بيان، ولا وثيقة، ولا شاهد، ولا كتاب، لا تحتاج إلى شيء لأن الله يعلم السرَّ وأخفى، والقضيَّة سهلة جداً، فلا يكفيك إلا أن تكون مخلصاً له، فالتعامل مع الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى إثبات، إنه مطلعٌ على قلبك.. قال سيدنا جبريل: **" يا إبراهيم، ألك حاجةٌ عند الله ؟ قال له: " منك ؟ قال له: " لا من الله "، قال له: " علمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

إذا كـنـت في كـل حالٍ معي فعن حملِ زادي أنا في غنى

* * *

إذا أخلص الإنسان لله عزَّ وجل، وتقرَّب إليه أغناه عن استجداء الاستحسان، وعن استجداء المديح، وأغناه عن أن يعرف الناس فضله، جاء رسولٌ إلى عمر بن الخطَّاب من بعض المعارك.. وأظن من معركة القادسيَّة.. فقال: " يا أمير المؤمنين مات خَلَقٌ كثير "، قال: " من هم ؟ " قال: " إنَّك لا تعرفهم "، فبكى عمر بكاءً مُرًّا، وقال: **" وما ضرَّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم "**، ومن أنا حتى لا أعرفهم ؟..

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

إحاطة علم الله بكل قول ظاهر وخفيّ

أي قولٍ يُقال في الأرض والسماء يعلمه الله، صدقاً كان أو كذباً، فيه إخلاصٌ أم فيه خيانة، وفيه وضوحٌ أم فيه غموض..

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وشيءٌ آخر:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف:128)

يعلم القول، وهو الحَكَمُ الفَصْلُ، وهو أحكم الحاكمين.

(بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلَامٍ)

3 - بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلَامٍ

هذا الذي يقوله النبي الكريم إنما هي أحلامٌ يراها في الليل، أحلامٌ تكاثفت وتواردت عليه فهو يعبِّر عنها، إنها ليست حقيقةً، إنها أضغاث أحلامٍ..

(بَلِ افْتَرَاهُ)

4 - بَلْ افْتَرَاهُ

إن هذا القرآن قد افتراه من عنده، هم يقولون: لقد افتراه محمَّد من عنده، وليس من عند الله..

(بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ)

5 - بَلْ هُوَ شَاعِرٌ

هذا نوعٌ من الشعر، يا أخي فيه سحر، كلامٌ له حلاوة، وعليه طلاوة، إنه نوعٌ من الشعر، إنه شاعر، وقالوا: هو شاعر..

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ)

فلو أنه نبيٌّ مُرْسَل فليأتنا بآيةٍ كما جاء بها موسى، وكما جاء بها عيسى عليهما السلام، يحيي الميت، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويضرب البحر فإذا هو طريقٌ يَبَس بين جبلين عظيمين، إن كان نبياً صادقاً فليأتنا بآيةٍ كما جاء بها الأوَّلون، فيَرُدُّ عليهم الله سبحانه وتعالى، ويقول:

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

مصير تكذيب الأنبياء

قوم صالح طلبوا الناقة لتخرج إليهم من الجبل، فهل آمنوا بالله عزَّ وجل على إثرها ؟ وقوم موسى رأوا البحر قد أصبح طريقاً يَبَسَاً، ورأوا عدوَّهم فرعون قد غَرِقَ فيه، وبعد إذٍ جاءهم السامري..

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

(سورة طه:88)

فصدَّقوه، أنفع بني إسرائيل ما رأوا من آياتٍ بيِّنات ؟ أنفعتهم العصا التي أصبحت حيَّة ؟ وقوم سيدنا عيسى أنفعهم أنه أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى، وأنبأهم بما في بيوتهم ؟..

(مَا آَمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

الكـون مـعـجزة

إنّ الكون هو المعجزة، ومن لم يؤمن بالكون وبوضعه الراهن من دون أن تُخْرَقَ قوانينه لن يؤمن بخرق قوانينه، خلقك معجزة، وابنك معجزة، إذ هو نقطةٌ من ماءٍ مهين فيها ثلاثمئة مليون حوين، حوينٌ واحد أقوى هذه الحوينات وقف أمام بويضةٍ ففتحت له الباب فدخل وأغلقت الباب، وبقي الثلاثمئة مليون حوين آخر خارج الحساب، فهذا الحوين وهذه البويضة تكاثرا، وانقسما إلى عشرة آلاف قسم في ثمانية أيَّام، وهما في طريقهما إلى الرحم، وفي الرحم التصقا بجداره، فتشكَّل الدماغ، والقلب، والأحشاء، والأعضاء، فما هذا ؟ في تسعة أشهر يصبح ابنك إنساناً فيه معدة، وأمعاء، وقلب، ورئتان، ودماغ، وعينان، وأذنان، وأنف، ولسان، وشفتان، ويدان، وأصابع، وسُلاميَّات، وأظافر، وعظام، وعضلات، وأوردة، وشرايين، ففي تسعة أشهر من فعل هذا أنت أم زوجتك ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور:35)

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59))

(سورة الوقعة: 58-59)

الكون نفسه معجزة، خلقك معجزة، فابنك معجزة، وكأس الحليب الذي تشربه معجزة، وهذه البقرة لها خليَّة ـ الخليَّة الثديية على شكل قبَّة ـ ومحاطة هنا بشرايين دمويَّة كثيفة جداً، يجول حولها الدم هنا فتسقط قطرات الحليب من هنا، وحتى هذه الساعة لا يعرف العلماء ـ علماء الأحياء ـ ما آليَّة تصنيع الحليب، وكيف يتحوَّل الدمُ إلى حليب ؟ إن لتر الحليب الواحد يحتاج إلى أربعمئة لترٍ من الدم يجول حول الخليَّة الثديية حتى يصبح هذا اللتر من الحليب صالحاً لك أنت، وَفْقَ بنيتك الجسميَّة، فيه بروتين، وسكَّر، ودسم، ومواد، وفيتامينات، ومواد معدنيَّة، شيءٌ يأخذ بالألباب، فتركيب الحليب وحده من الذي صنعه أهذه الخليَّة الثديية ؟ أهي عاقلة ؟ هذه البقرة معمل حي يأكل الحشيش فيعطيك الحليب، فتصنع منه السمن، والجبن، واللبن، وكل حاجاتك..

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل: 66)

هذه آية من آيات الله الكُبرى.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

(سورة النحل: من آية " 5 ")

طبع الغَنَم طبعٌ وديع مسالم، غير مخيف، وغير متوحِّش، مذلَّل، تأكل لحمه، ودهنه، وأحشاءه، وتستعين بجلده، وبصوفه، وتأخذ روثه وفضلاته سماداً لأرضك..

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

خصيصى، وتطلب معجزة ؟! الغنمة معجزة، والبقرة معجزة، والدجاجة معجزة، وابنك معجزة، وزوجتك معجزة.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

المرأة لها بنية خاصَّة، لـها بنية فيزيولوجية خاصَّة، وبنية نفسيَّة.

الثمار معجزة، فهذه الشجرة تسقيها ماءً فتعطيك تفاحاً له شكلٌ لطيف محبَّب، ورائحةٌ محبَّبة، وقِوامٌ، وحجمٌ، ونكهةٌ، وغذاءٌ، فكم أنواع أشجار الفاكهة، وأنواع المحاصيل، وأنواع الخضار ؟

هذه الشمس معجزة تبعد عنَّا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، ومع هذه المسافة الشاسعة نورها وضَّاء، ودفؤها فيه خيرٌ عميم. والقمر تقويمٌ في السماء.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً(13))

(سورة الإسراء:12-13)

والمطر معجزة، وهذا الكون أيضاً، وحسبكم الكون معجزة.

إذا لم يؤمن الإنسان بالكون لم يؤمن بخرق قوانينه، والدليل:

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

إذا لم تؤمن بهذه الآيات الدالَّة على عظمته التي بثَّها الله في السماوات والأرض لن تؤمن بخرق القوانين.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

الأنبياء بشر تجري عليهم خصائص البشر

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الأنبياء من بني البشر، فلو كانوا ملائكة لما اتبعهم أحد، ولقالوا لأي نبي: أنت ملك فهل أنت بشر ؟ أنا عندي شهوات، وقد جعل الله عزوجل الأنبياء العِظام من بني

البشر يحسُّون ما نحس، ويشعرون بما نشعر، ويغضبون لما نغضب، وجعلهم مثلنا يأكلون ويشربون، ويتزوَّجون وينجبون، ويمشون في الأسواق.

هذا بحثٌ نؤخره إن شاء الله تعالى إلى درسٍ قادم.. الحديث عن الأنبياء.. ولماذا قال الله في حقِّهم:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان: من آية " 20 ")

لماذا هم يتزوجون كما يتزوج البشر ؟ لماذا هم من بني البشر ؟ ما الحكمة التي وراء ذلك ؟..

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ(8))

يموتون..

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر:30)

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

هذه الفِقْرَة التي تتحدَّث عن أنبياء الله سبحانه وتعالى فيها تعليقٌ دقيق نؤخره إلى درسٍ قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-04-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنين... وصلنا في الدرس الماضي الذي كان الدرس الأول من سورة الأنبياء، وهذا هو الدرس الثاني، وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)

بشرية الأنبياء خالصة

فقد شاءت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يكون الأنبياء الذين ينقلون للبشر رسالات ربهم، أن يكونوا من بني البشر، وأن يكونوا رجالاً على وجه الخصوص، أما أن يكونوا من بني البشر فلأن الأنبياء لو كانوا ملائكة لما أقيمت الحُجَّة على بني البشر، ولأن أيّ أمرٍ أو أيّ نهيٍ ينطق به هؤلاء الملائكة الأنبياء لقيل لهم: أنتم ملائكة، ونحن بشر، نحن أودع الله فينا شهوات ونزوات، فلذلك هذا الكلام ليس واقعياً، وأنتم حالمون، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن يكون الأنبياء من بني البشر، فمعنى من بني البشر أنهم يحسون إحساس البشر، ويرضون كما يرضى البشر، ويغضبون كما يغضب البشر، وأن الله أودع فيهم شهواتٍ كما أودعها في البشر، وأودع فيهم طموحاتٍ كما أودعها في البشر، فالأنبياء من بني البشر.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف: من آية " 110 ")

فلماذا تفوق الأنبياء ؟ ولأنهم بشر، لو أنهم ملائكة لما تفوقوا، لأنهم من بني البشر، وقد أودع الله فيهم كل الشهوات التي أودعها في بني البشر، ولكنهم ضبطوا هذه الشهوات، وارتقوا إلى رب الأرض والسماوات ولذلك تفوقوا.

أيها الإخوة الأكارم، لكن الأنبياء فعلاً كانوا من بني البشر، وكانوا رجالاً، فليس في تاريخ النبوة امرأةٌ أرسلها الله نبية، لاعتباراتٍ كثيرة فصَّلها علماء العقيدة، ولكن أراد الله عزَّ وجل أن يؤكّد للناس أن هؤلاء بشر على الرغم من المعجزات التي أجراها على أيديهم، ومن الكتب التي أنزلت عليهم، جعلهم بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

أما انهم يأكلون الطعام فلإظهار عبوديتهم لله عزَّ وجل، فالإنسان من دون طعامٍ أو شراب يقضي نَحْبَهُ، وهو مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، مقهورٌ بالطعام والشراب، ولولا الطعام والشراب لما مشى

إنسانٌ على وجه الأرض.

وأما أنهم يمشون في الأسواق فلأنهم مفتقرون إلى الطعام والشراب، ومفتقرون إلى كسب الطعام والشراب، فالمشي في الأسواق تعبيرٌ عن كسب الطعام والشراب، والطعام والشراب تعبيرٌ عن افتقار الأنبياء إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك لا ينبغي للإنسان إلا أن يكون طبيعياً، فعن أبي أمامة قال: قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ حَمَلَ بِضَاعَتَهُ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْكِبْرِ))

[البيهقي في شعي الإيمان]

إنّه لا يغضّ من شأنك أن تأكل أمام الناس، لكن ليس من المروءة أن تأكل في الطريق، ولكن إذا كنت تأكل فهذا لا ينقص من قدرك عند أحد، فالأنبياء يأكلون، وأن تجوع فالأنبياء يجوعون، وأن تعطش فالأنبياء يعطشون، وأن تغضب إذا انتهكَت حرمةٌ من حرمات الله فالأنبياء كذلك، ولا يغضُّ من شأنك أن تكون عبداً لله، تأكل، وتشرب، وتشعر بحاجةٍ إلى النوم، هذا الجسد له قوانين، وهذا الجهاز العَصَبيّ لابدَّ من أن يرتاح، فالنوم من خصائص بني البشر، لكن هناك نومٌ طبيعياً، ونومٌ يُعَبِّر عن كسلٍ شديد، فمن أمضى عمره بالنوم أتى يوم القيامة مُفْلِساً..

(كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الذاريات:17-18)

((وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ))

(من سنن الترمذي عن عثمان بن عفان)

انفراد الأنبياء عن البشر بصفة النبوة

والنقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى كي يقيم الحُجَّة علينا جعل هؤلاء الصفوة المختارة من الأنبياء من بني البشر، وجعلهم من طبيعةٍ واحدة، ومن نفسٍ واحدة، فإذا تفوَّقوا فبفضل صدقهم، وانضباطهم، وشوقهم، واعتمادهم على الله سبحانه وتعالى.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)

صحيحٌ أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً ؟ ولكنه يوحى إليه، وحينما يوحي إليه الله سبحانه وتعالى فهو أعلم علماء الأرض، لأن خالق ومُبدع الكون يوحي إليه، إذاً هذه أعلى مرتبةٍ علمية ينالها مخلوقٌ على وجه الأرض، فالأنبياء علمهم من الله سبحانه وتعالى، وعلم الناس كَسْبِيّ، فقد تدرس في جامعة، وقد تقرأ كتاباً، وقد تستمع إلى درسٍ فتفهم بعضه أو لا تفهم، وقد يكون الدرس صحيحاً أو غير صحيح، فعلم البشر كَسْبِيّ، ولكن علم الأنبياء من قبل الله سبحانه وتعالى، إذاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

معاني الآية:

هذه الآية لها معنيان:

المعنى الأول: المعنى السياقي:

المعنى السياقي المُستنبط من سياق الآية: لو أن هذه الآية نزعتها من بين أخواتها فلها معنى آخر، فمعناها السياقي: اسألوا أهل الكتاب، اسألوا من أوتوا الكتاب من قبلكم، كيف كان أنبياؤهم جميعاً من بني البشر، وكانوا رجالاً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ)

يا أهل مكة، يا كفار مكة أتعجبون أن الله سبحانه وتعالى أرسل إليكم رسولاً من أنفسكم ؟! من بني جلدتكم ؟ ومن جنسكم ؟ بشراً مثلكم ؟ رجلاً ؟ أتعجبون ؟!!

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

اسألوا أهل الكتاب كيف أن أنبياءهم جميعاً كانوا من بني البشر، هذا هو المعنى السياقي.

المعنى الثاني: معنى طلب العلم وسؤال العلماء في الدين والدنيا:

ولكن المعنى الآخر الذي يمكن أن يكون معنىً دقيقاً جداً، هو أن هذه الآية قاعدةٌ في طلب العلم:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

وهم العلماء..

(إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

التعقيب اللطيف: أن السؤال الذي أباحه الله سبحانه وتعالى أن تسأل إن كنت لا تعلم، ففي حالةٍ واحدة يباح لك السؤال، وتكون في نظر الله كبيراً، ونصف العلم لا أدري، والسؤال نصف العلم، ومفتاح العلم السؤال، أما أن تعلم الحقيقة، وتسألها لتمتحن الآخرين، فهذا السؤال لا يرضي الله عزَّ وجل، أن تسأل من أجل أن تحرج المسؤول، أو أن تُظْهِرَ علمك، أو أن توقع فتنة بين عالمين، أو أن تعرض عضلاتك العلمية أمام الآخرين، أو من أجل التَعَالُم، كل هذه الأهداف رخيصة لا قيمة لها، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

فالحقيقة التي لا تعرفها اسأل عنها، وليس العار أن تكون جاهلاً، بل العار أن تبقى جاهلاً، والله سبحانه وتعالى في كل عصرٍ وفي كل مصرٍ سَخَّرَ أناساً لتعليم الخلق، فهؤلاء مسخَّرون من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى، جعلهم في خدمة عباده، فاسألوهم، من استشار الرجال استعار عقولهم، وقبل أن تُقْدِمَ على هذا الزواج، أو على هذه الشركة، أو على هذه التجارة، أو أن تتورَّط في هذه السفرة، أو أن تقترف هذه المعصية بحجة أنك مُضَّطر، وفي الحقيقة لستَ مضَّطراً، وهذا الذي تدعيه ليس ضرورةً، والضرورة حددها العلماء، فلماذا لا تسأل ؟ ولماذا تضن أن تسأل سؤالاً، وتأخذ رأي الشرع فيه، وتأخذ رأي القرآن فيه ؟ فالله سبحانه وتعالى جعل هؤلاء ـ أهل الذكر ـ في خدمة الخلق، وقال لعباده:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أيجوز أن أفعل هذا ؟ أيُرضي الله أن أقترف هذا ؟ أيرضي الله أن أُطَلِّقَ امرأتي، ولهذه الأسباب ؟ يقول لك: لا يرضي الله، فهذه الأسباب ليست كافية، أيرضي الله أن أعمل بهذه التجارة ؟ أيرضي الله أن أتعامل بهذه البضاعة ؟ أيرضي الله أن أُشارك فلاناً ؟.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ)

ما معنى هذه الآية ؟ قرأت هذه الآية فشعرت أن الله لا يريد أن يهدي عباده..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة: من آية " 13 ")

تسأل: ما معنى هذه الآية ؟ إذا قرأت الآية، وكانت من المُتَشَابهات، ولم تشعر أن لها معنىً يستقيم مع كمال الله سبحانه وتعالى فلا تبقَ ساكتاً، اسأل عنها، فلعل الله سبحانه وتعالى يلهم المسؤول أن ينطق بالحق، فيشفي صدرك من هذا التساؤل، وهذه الحيرة.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

فحينما تسأل يأتيك جواب الشرع، إن سألت فقيهاً يأتِك رأي الفقه، وإن سألت عالماً بالتفسير أتاك بتفسير الآية الصحيح، وإن سألت عالماً بالحديث أتاك بمعنى الحديث الصحيح، وإن سألت عالماً بالعقيدة أتاك بالاعتقاد الصحيح، فلماذا تسكت ؟ ولماذا تجعل نفسك نُهْبَةً للمخاوف، أو للأفكار الخاطئة، أو للعقائد الزائغة، أو للتُرَّهات الباطلة ؟ لماذا ؟

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

هذا في أمر دينك، وفي أمر دنياك، اسأل أهل الخبرة في كل موضوع، وقبل أن تقدم على فتح هذا المحل اسأل: هل مناسبٌ مكانه في هذه المنطقة ؟ وقبل أن تفعل شيئاً مَصيرياً في حياتك اسأل أهل الإيمان، والخبرة في وقتٍ واحد.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

وإجابتهم ليست ملزمة، خذ منهم، ووازن بين أقوالهم وبين ما تعرف، فإن جاؤوك بالرأي الصحيح مُدَعَّمَاً بالآية الكريمة، وتفسيرها الصحيح، وبالحديث الصحيح، وبرأي العلماء من السلف الصالح، عليك أن تنقّذ هذا الرأي الصائب، فهذه الآية أصلٌ في طلب العلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، وإنما الكرم بالتكرم))

[الطبراني في المعجم الأوسط (2663) عن أبي الدرداء]

ما من إنسانٍ وُلِد عالماً، وثمة رجُلان لا يسألان ؛ المُستحي والمتكبِّر، المتكبر لا يسأل لئلا يظهر جهله، لأن نفسه وكِبْرَها أغلى عليه من الحقيقة، ولكن المؤمن يسأل، فإذا سأل عن موضوع ما، لا ينتقص هذا من قدره، يبقى في أوج مكانته، لأنه يسأل عن الحقيقة، وطلب الحقيقة مقدسٌ عند الله سبحانه وتعالى، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

شيءٌ آخر، لكن السؤال المبني على الإيقاع بين المسؤولين، وعلى إظهار العلم، وعلى الإحراج، وعلى التضييق، وعلى التعالُم والتفاخر، وعلى إضاعة الوقت.

قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم:

((يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام لهذا الأعرابي: وماذا صنعت في أصل العلم ؟، قال: وما أصل العلم ؟ قال: هل عرفت الرب ؟ - هذا هو أصل العلم - فقال: ما شاء الله، قال: " فماذا صنعت في حقه ؟ - إن كنت قد عرفته فأيّ ما الموقف الذي وقفته بناءً على معرفة الله سبحانه وتعالى ؟ قال: هل عرفت الموت ؟ قال: ما شاء الله، قال: فماذا أعددت له ؟، ثم قال له: اذهب فأحكمْ ما هنالك، ثم تعال لأعلمك من غرائب العلم))

[أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن المسور]

السؤال في المهمات لا السفاسف

لا تسأل عن التوافه وعن الجُزئيَّات، بل اسأل عن المعضلات، وعن جوهر الدين، وعن حقيقة الدين، وعما يرضي الله سبحانه وتعالى، فلذلك السؤال نصف العلم، والسؤال مفتاح العلم.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أهل الذكر ليس معصومين

أهل الذكر أيضاً ليسوا معصومين، هذه نقطة مهمة جداً، فالله سبحانه وتعالى عَصَمَ الأنبياء من أن يقعوا في غلطٍ في إبلاغ العلم، وغلطٍ في سلوكهم، لأنهم قدوة، إنك مطالبٌ أن تتابعهم، فإذا وقعوا في

غلط، وتابعتهم فكأن الله يأمرك بالمعصية، وما دام الله قد عصمهم من الزلل والخطأِ في نقل العلم، وفي اتباع الدليل فإنهم معصومون في أقوالهم وأفعالهم، وفي تبليغ رسالات ربهم، لذلك عليك أن تتابعهم..

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

قولاً واحداً، ولكن ما سوى الأنبياء فليسوا معصومين، لكن لا يعقل أن يخطئ العالم خطأً فاحشاً، فإذاً ليس هو بعالم، فهناك أصول للإسلام كبيرة، وهناك مسلَّمات، وهناك أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وهناك أساسيَّات، ولكن العالم ليس معصوماً عن أن يغلط في أمورٍ جُزئيةٍ، وليس هذا الغلط مقصوداً، فيجب أن ينزَّه العالمُ عن الغلط في الأمور الكبيرة، وعن الغلط المقصود، هو فوق ذلك، العالم محفوظٌ وليس معصوماً، ومعنى أنه محفوظٌ أيْ لا يضرُّه خطؤه، فما سوى الأنبياء، وما جاءنا عن صاحب هذه القبة الخضراء فعلى العين والرأس، نبيٌّ كريم لا ينطق عن الهوى، وما جاء عن أصحابه فعلى العين والرأس لأنهم سمعوا منه الحقيقة، وما جاء عن سواهم فنحن رجالٌ وهم رجال، لابدَّ من الدليل.

الأدلة على عدم عصمة العلماء

خطب سيدنا أبو بكرٍ رضي الله عنه خُطبة تُعَدُّ أساساً في هذا الموضوع، قال: **<< أيها الناس، إني قد ولِّيتُ عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، الضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم >>.**

إنّ الطاعة العمياء ليست واردة إطلاقاً، أي: راقبوني، وقيسوا أحكامي على أحكام الشريعة، فإن وافقتها فأطيعوني، وإن خالفتها فلا تطيعوني، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

ليس هناك بعد الأنبياء إنسان مؤهَّلٌ أن تطيعه على عمى، لا، فهناك دستور، وهو القرآن، وهناك شرع، فلذلك ما الذي أهلك بعض الناس ؟ أنهم تابعوا من يعلّمونهم على عمى من دون دليل..

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام: من آية " 148 ")

هذا هو الدليل، لا ينبغي أن تستمع إلى فكرةٍ من دون دليل، وهذا دليلٌ نقلي من كتاب الله، قطعيّ الثبوت، وقطعي الدلالة، ودليلٌ نقلي من سُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما صَحَّ من سنة رسول الله، دليلٌ عقلي ودليلٌ واقعي، وإذا تضافرت الأدلة النقلية من الكتاب والسنة مع الأدلة العقلية، ومع الأدلة الواقعية فعندئذٍ يجب أن تأخذ بهذا الكلام، أما أن تتبع أهواء الناس، فلا تقرأ مثلاً مقاله يقول لك:

" هذا الدواء يطيل العمر "، وهذا خلاف القرآن، فلو أن الإنسان يكتب ضبطاً لكل ما يسمع، من قصص، ومن أفكار، ومن مقالات، ومن كلام، إذا قاس هذا الكلام كله بكلام الله سبحانه وتعالى فربما ألقى وراء ظهره أربعة أخماس ما يسمعه، لأنه كلامٌ خلاف القرآن، وخلاف الحديث الشريف، أهذا هو المنهج ؟

قلت لكم سابقاً: لو أن إنساناً اقتنى آلةً بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النفع، تراه يبحث عن كُتَيِّبٍ تصدره الجهة الصانعة، في هذا الكتيِّب تعليمات الاستعمال، وطرق الصيانة، إنه حريصٌ حرصاً بالغاً على اقتناء الكتاب، ترجمته، وعلى فهمهِ، وعلى تنفيذ تعليماته بدقةٍ متناهية.

إنه القرآن، أنت الآلة، وهذا هو القرآن، والإنسان أعقد آلةٍ على وجه الأرض، له جسدٌ معقدٌ جداً، فكيف يصونه ؟ وكيف يعيش به سليماً معافىً ؟ له نفسٌ دقيقةٌ جداً، فكيف يضمنُ صحتها ؟ وله عقلٌ خطيرٌ جداً، وكيف يضمن صوابه وعدم تزويره ؟ إنه القرآن،

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من آية " 9 ")

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة: 38)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه:123)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل:97)

فالإنسان ليس له حق أن يتلقى معلومات غير مُدَعَّمَة بالأدلة، فإذا قبل هذه المعلوماتٍ ضل وأضَل، وهلك وأهلك، فكثير من التوجيهات في التجارة والصناعة، والسكنى والاختلاط، والعلاقات الاجتماعية، توجيهات عامية لا أساس لها من الصحة، إنها توجيهات جاهلية مدمِّرة، ينبغي لك أن يكون توجيهك من الله عزَّ وجل، من هذا الكتاب الذي هو منهجك تسير عليه، فيقيك الخطأ، والزلل، والعطب، والعبث، هذا الكتاب منهجٌ فيه مبادئ سلامتك ؛ سلامة الجسد، والنفس، والعقل، هذا الكتاب فيه مبادئ سعادتك في الدنيا والآخرة، وفيه تنظمٌ لعلاقاتك كلّها، مع نفسك، وربك، وأهلك، وأولادك، جيرانك، ومن هم أعلى منك، ومن هم أدنى منك، إنه دستور دقيق جداً.

فلذلك سيدنا الصديق رضي الله عنه، قال: **<< أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.**

أي أنتم يا أصحابي، فدققوا في تصرُّفاتي، فإن جاءت مطابقة لكتاب الله ولسنة النبي فأطيعوني، وإلا فلا تطيعوني.

إذا كان العلماء هكذا، وكان المسلمون في وعيهم هكذا، لعاش الناس حياةً صحيحة معافاةً سليمةً من كل ضلالة، أما إذا قبِلنَا أفكاراً من دون دليلٍ نقلي، ومن دون دليلٍ عقلي، أو دليلٍ واقعي فعندئذٍ وقعنا في الضلال.

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

لكن الأنبياء معصومون، والعلماء غير معوصمين، متى يجب أن تتابع العلماء ؟ إذا وجَّهوك توجيهاً، ودعَّموه بالكتاب والسنة، أي أنهم نقلوا عن المعصوم، هم ليسوا معصومين، ولكن إذا نقلوا عن المعصوم لزمَكَ أن تأخذ بتوجيهاتهم، وسألته عن الربا فقال الله عزَّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

يقول لك: أخي العالم غير معصوم، لا الآن صار معصوماً، عصمته الآية، نقل لك عن الكتاب القطعي الثبوت القطعي الدلالة، ونقل لك عن كلام النبي الكريم، فلذلك النقطة دقيقة جداً.

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

أي أن الله عزَّ وجل سخَّر العلماء لخدمة خلقه، هم مسخَّرون لخدمة الخلق، فلا تقدر أن تقابل أي إنسان لتأخذ خبرته إلا بمبلغ كبير، فالأطباء، والمحامون، والمهندسون، والمستشارون الماليُّون، لا تقدر أن تلتقي معهم إلا نظير أسعار مُسْبَقَة، ولكن العلماء الذين سخَّرهم الله لخدمة الخلق هؤلاء يرجون وجه الله سبحانه وتعالى، فاسألهم ولا تقع في حيرة، ومعصية، وشك، وضلالة، ولا تعتقد اعتقاداً خاطئاً زائغاً..

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

حاجة الأنبياء إلى الطعام والشراب

فقد كان من الممكن أن يكون الأنبياء بشراً مثلنا، لكن مُعفَوْن من تناول الطعام، فلا يجوعون، فإذا جاء شهر الصيام يقول لك: هنيئاً للنبي، فهو لا يجوع، ونحن نجوع، لكنه يجوع مثلك، ويعطش مثلك، إنهم لهم أجسادٌ كأجسادنا، فالقوانين التي تحكم أجسادهم تحكم أجسادنا، ومن هنا جاءت عظمتهم، لأنهم من بني البشر هم عُظماء، لأنهم تفوَّقوا على أبناء جلدتهم.

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

(سورة الزمر:30)

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن:27)

لما سمع الملائكة هذه الآية استبشروا وقالوا: " الحمد لله نحن لسنا عليها "، فجاء قوله تعالى:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص: من آية " 88 ")

إذاً:

كل بن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمولُ

* * *

(وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

لا خلود للأنبياء

وسيدنا عمر لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام قد مات لم يحتمل هذه الصدمة، فشهر سيفه وقال: **<< من قال: إنه مات فسأعلوه بهذه الدرة >>**، وسيدنا الصديق استوعب كلام الله كله:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

(سورة آل عمران:144)

فسيدنا أبو بكر ذكّرَ عمر بهذه الآية فتراجع عن موقفه،

((فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا))

[متفق عليه عن عائشة]

فالأنبياء يأكلون ويشربون، ويجوعون وينامون، ويشعرون بالحَر والقرّ، وبالتعب، ولا يُخَلَّدون، يموتون كغيرهم من بني البشر.

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

تصديق الله لوعد الأنبياء

إنّ الأنبياء جاءوا بوعدٍ ووعيد، والله سبحانه وتعالى صدَّقهم، أي أنجز لهم ما وعدهم، وسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام نزل من الطائف ولم يلق إنسانٌ على وجه الأرض من المتاعب والمصائب مثل ما لقيه، ذهب إلى الطائف على قدميه، مشى مئة وعشرين كيلو متراً، ودعاهم إلى الإيمان بالله عزَّ وجل، والإيمان بنبوَّته، فردُّوه شر رد، وجاءه جبريل فقال: " يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو

شئت لأطبقت عليهم الجبلين "، قال: **" يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله "**. ومع ذلك قال له أحدهم:

((لو أن الله بعثك أنت نبياً لمزَّقتُ أثواب الكعبة "، وقال آخر: لم يجد الله رجلاً غيرك يبعثه نبياً ؟ وقال ثالث: إن كنت كما تقول فأنت أعظم من أن تكلّمنا، وإن كنت كذّاباً فنحن أعظم من أن نكلمك، هكذا حدَّثوه في الطائف، ومع ذلك عاد إلى مكة، وقد شمت به كفار مكة، فلما سئل، قال: إن الله ناصر نبيه، ألم ينصره الله عزَّ وجل ؟ ألم يُعلِ رايته ؟ ألم يجعل كلمته هي العُليا ؟ ألم تفتح مكة تحت رايته؟ ألم يجعل كفار مكة في قبضته ؟ قال: ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا: أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطُلَقاء))

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

(سورة الفتح:3)

فالله سبحانه وتعالى وعده قطعي الثبوت، فإذا الله عزَّ وجل وَعَدَ مؤمناً.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص:61)

أي أن الله عزَّ وجل إذا وَعَدَ المؤمن فكأن هذا الوعد قد تحقق، في حكم الواقع.

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل:1)

هذه آية عجيبة، كيف أنه أتى ثم لا تستعجلوه ؟ معنى ذلك أنه لم يأت، فالاستعجال لشيء لم يأت بعد، والإنسان يستعجل قدوم الصيف قبل أن يأتي الصيف، ويستعجل قدوم الشتاء قبل أن يأتي الشتاء، فكيف يقول الله عزَّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

بعدئذٍ:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

أيْ:لم يأت، ولكن الله سبحانه وتعالى نظراً لأن وعده مَأْتيٌ حقاً، ولأن زوال السماوات والأرض أهون على الله من أن لا يأتي وعده، إذاً يُعَبِّرُ الله سبحانه وتعالى عن شيءٍ سيكون بالماضي، أي سيأتي أمر الله فلا تستعجلوه، قال:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ)

أي أن الله عزَّ وجل وعد المؤمن بالحياة الطيبة، ووعد المُعِرضَ بالحياة الضنك، وبالمعيشة الضنك، والمستقيم بالتوفيق، والخائن بالفَضيحة، والزاني بالفقر، والقاتل بالقتل، هذه كلُها مواعيد لابدَّ أن تتحقق.

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ)

فأصحاب موسى كانوا معه، وفرعون وجنوده وراءهم، والبحر أمامهم، فكلما اقتربوا من البحر اهتزَّت وعود سيدنا موسى عندهم، إلى أن قالوا:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء:61)

هذا البحر وهذا فرعون..

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء:62)

فربنا عزَّ وجل جعل البحر طريقاً يبساً، فمشى فيه بنو إسرائيل، فلما خرجوا منه تبعهم فرعون، فلما كان في وسط البحر أعاده الله بحراً، فأغرقه ومن معه تحت سمعهم وبصرهم، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ والله هو هُو في كل زمان وفي كل مكان، الإله الذي جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم الآن موجود، والإله العظيم الذي جعل البحر ينفلق كالطود العظيم هو هوَ، موجود الآن، معنا، وهو معكم أينما كنتم فادعوه، الدعاء سلاح المؤمن، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله أن يحفظك من كل مكروه، واسأله التوفيق، وزوجة صالحة، ومأوى تسكنه..

((إن الله يحب المُلحين في الدعاء))

[القضاعي في مسند الشهاب عن عائشة]

((من لا يدعني أغضب عليه))

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ، وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

(من سنن الترمذي عن أنس)

هكذا..

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)

الذين أسرفوا على أنفسهم، أهلكهم لأنهم لم يتوبوا، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

إذاً: حتى المُسْرف لو أنه عاد في الوقت المناسب لغفر الله له.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أي أن الكتاب إذا طبَّقتموه، وأخذتموه بقوةٍ، وجعلتموه دُستوراً لكم في حياتكم، ووعيتموه، وتدبَّرتموه، وجعلتموه أساساً لعلاقاتكم، فالله سبحانه وتعالى يرفع به ذكركم..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

(سورة النور: من آية " 55 ")

ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح:4)

أي أنت مجدُك في هذا الكتاب، فإذا طبَّقته رفعك الله به، ورفع الله لك شأنك، وقرَّبك منه، وجعل لك عنده مكاناً عظيماً، جعل لك مقعد صدقٍ عنده.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

الحياة الناجحة باتباع الشرع الحكيم

الزواج الناجح في تطبيق هذا الكتاب، والتجارة الناجحة في تطبيقه، فالتجارة لا يوجد فيها كذب، ولا غش، ولا إساءة، ولا بضاعة محرَّمة، ولا مخالفة مع قواعد الشرع في التعامل، فالله سبحانه وتعالى يجعلها رائجة وتعيش منها حياةً كريمة، في كل عمل، وفي كل علاقة، وفي كل مَيْدَان وحقل وتصرُّف، وكل موقف إذا طبقت هذا الكتاب رفع الله لك ذِكْرَك.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آَخَرِينَ)

القصم عاقبة المخالف للشرع

القصم مرتبط بالظلم.

(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آَخَرِينَ)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل:112)

(وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آَخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ)

هذا الفَزَعُ الأكبر.

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)

البطولة معرفةُ حقيقةِ الحياة الدنيا قبل فوات الأوان

ارجعوا إلى حياتكم المترفة، الظالمة، وإلى مساكنكم التي تنافستم في تزيينها، فماذا تنفعكم الآن ؟ الله سبحانه وتعالى يذكِّرهم بظلمهم، ويذكرهم بحبهم للدنيا، ويذكرهم بإعراضهم عن الله سبحانه وتعالى.

(قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

الآن ؟ بعد فوات الأوان ؟ وبعد أن جاء العقاب الذي لا مردَّ له ؟ ليست هذه بطولة، إنما البطولة أن تعرف مقامك قبل فوات الأوان، وأن تعرف الله في الرخاء، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض إلا ويعرف الله في الشِدَّة، وأي إنسان، فليركب الإنسان طائرة الآن، وليُعلن ربَّانها أنها في خطر، فلو أتيح لإنسان أن يرى وجوه الركاب كلهم يقول: يا رب، لا يصلون، ولا يصومون على الأرض، ولكنهم في الطائرة يا رب نعاهدك على التوبة، كل إنسان إذا جاءه الخطر يتوب إلى الله، ولكن البطولة أن تعرفه في الرخاء، **"عبدي اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة "**، أما إذا عرفته في الشدة، فرعون نفسه وهل من إنسانٍ أشد كفراً منه ؟ هو نفسه قال:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس: من آية " 90 ")

قاله له:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس: من آية " 91 ")

الآن ؟ بعد فوات الآن ؟ طبعاً كل طالب يعرف الإجابة الصحيحة بعد الامتحان، سيأتي السؤال، فلا يحسن الجواب، فيأخذ صفراً، ويذهب إلى البيت، ويفتح الكتاب فيعرف الإجابة، ولكن متى عرفها ؟ بعد فوات الأوان، لا قيمة لهذه المعرفة.

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ)

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

سألوا فيلسوفاً عن الحرب العالمية الثالثة ؟ فقال: " لا أعرف عنها شيئاً، ولكن الحرب العالمية الرابعة بالحجارة "، أي أن الثالثة تدمير شامل.

(فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

هذه الآية نشرحها إن شاء الله تعالى في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 16 - 22

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-05-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

حقيقة اللعب وتنزيه الله تعالى عنه

الحقيقة التي لا ريب فيها أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما لَعِبَاً، إذا عرفنا معنى اللَّعب فهمنا الآية، اللعب هو العمل الذي لا طائل منه، والذي لا هدف له، والذي لا يستقِرُّ ولا يستمر، والذي ليس وراءه هدفٌ كبير، فجلّت عظمة الله سبحانه وتعالى، وجلّت حكمته، وجلّت قدرته، وجلّت أسماؤه الحسنى وصفاته الفُضلى عن أن يخلق السماوات والأرض لعباً، لم يخلقهما لعَباً، ولم يخلقهما باطلاً، إنما خلقهما بالحق.

الحكمة من خلق الإنسان

لو أردنا أن نتوقَّف قليلاً، ونعود إلى أنفسنا، كلٌ منَّا موجودٌ على هذه الأرض ؛ في المكان الفلاني، والبلد الفلاني، والبيت الفلاني، وله معطيات، يا تُرى أليس من المهمِّ جداً أن يعرف الإنسان لماذا هو على وجه الأرض ؟ ولماذا هو مخلوق ؟ الله سبحانه وتعالى حينما خلقه لماذا خلقه ؟ هل ليعذِّبه ؟ قد يقول قائل: ليس في الأرض كلها إنسان مستريح إنها ؛ هموم، ومشكلات، وظروف صعبة، ومتاعب، ومُنْزَلَقات، وأمراض، وأوبئة، وهم، وحزن، فهناك مشكلة كبيرة فقبل أن تتحرَّك أية حركة لابدَّ أن تعرف الحقائق الأولى التي بني وجودك عليها، قبل أن تتعرَّف إلى كذا وكذا، وقبل أن تقرأ الكتاب الفُلاني والمقالة العلانيَّة، وقبل أن تطلع على ما جرى في البلد الفلاني، فهذه كلها أشياء ثانويَّة، فيجب أن تعرف أنت لماذا وُجِدْتَ ؟ هل وجِدَت عبثاً ؟ أم هل وجدت لعباً ؟ أم وجدت بالحق ؟ أنت لأنك جزءٌ من هذا الكون ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

ما دام ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

فأنت أيها الإنسان جزءٌ من هذا الكون، أيُعْقَلُ أن تُمضي أربعين عاماً في الإعداد لحياةٍ لا تزيد عن عشرين عاماً ؟ أليس معترك المنايا بين الستين والسبعين ؟! أليست الآجال تخطف الإنسان خطفاً ؟ فهذا جَمَّعه في عمره المديدة ؛ من بيتٍ مريح، ومن زوجةٍ، وأولادٍ، وعملٍ، ومكانةٍ، أيخسره كلَّه في ثانيةٍ واحدة ؟ فماذا بعد الموت ؟ ولماذا كان الموت ؟ ولماذا كان العُمُر في هذا الحد المحدود ؟ ولماذا خلقنا ؟ ولماذا كانت المصائب ؟ والهموم والأحزان ؟ والتفاوت بين الناس ؟ والغنى، والفقر ؟ والقوَّة، والضعف؟ فهذه أسئلة كبيرة جداً ومصيريَّة، والإجابة عنها تحدِّد مصير الإنسان، فإذا أهملها الإنسان والتفت إلى دنياه يبحث عن رزقه فقد يباغته الموت، ويأتيه فجأةً، فيكتشف عند الموت حقيقة مُرَّة، حقيقة تنزل عليه كالصاعقة، هو أن هذه الدنيا ليست هي المقصودة، وليست دار استقرار أو دار محطِّ الرحال إنما هي دارٌ كالممر ليس فيها مستقر، إنما هي إعدادٌ لحياةٍ أبديَّة.

فهذه المعلومات، وهذه الحقائق، وإن شئت فسمِّها فلسفة، هذه قبل الطعام والشراب، وقبل الزواج، وقبل تأمين الرزق، لأنك تحيى، ولا تدري لِمَ تحيى، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مثل المنافق كالنَّاقة عقلها أهلها، فلا تدري الناقة لا لمَ عُقِلَت ولا لمَ أطْلِقت))

[ورد في الأثر]

فلماذا الصلاة ؟ ولماذا الصيام ؟ فهذه الحقائق الكُبرى لا ينبغي أن تأخذها عفواً، تأخذها أو لا تأخذها، تأخذها صحيحة أو مشوَّهة، فهذه القضية مصيريَّة، أي أن حياتك، وسعادتك، ومستقبلك، خريف عمرك، وزواجك، وعملك من دون فلسفة فالإنسان قد يعمل عملاً فيه إيذاءٌ للناس، ويدرُّ عليه أرباحاً طائلة، ويحسب أنه بهذا العمل متفوِّق وذكي، فلذلك الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

نحن جزءٌ من هذا الكون، بل إن الكون كُلَّه مسخَّرٌ من أجلنا..

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

بل إن الخلق كلَّه، والخلق ما سوى الإنسان مسخَّرٌ لهذا الإنسان، أيعقل أن يكون هذا الإنسان قد سُخِّرَت له السماوات والأرض، وهو لا يدري لِمَ هو على وجه الأرض ؟ فكم يكون جاهلاً، وكم يكون ضالاً، وتائهاً، وضائعاً، وشارداً لو كانت حياته خالية من هدفٍ يسعى إليه، ولو أن حياته خاليةٌ من عملٍ جليلٍ يعرضه على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

فيا أيُّها الإخوة المؤمنون، أردت من هذه الأسئلة التي طرحتُها عليكم أن تتيقّنوا أن طلب العلم ليس فرضَ كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل، لا والله، طلب العلم فرض عينٍ، أي أن على كل إنسان مهما تكن صنعته، ومهما يكن اختصاصه، وثقافته، ومكانته، ووجاهته فرض عين، إنك إن لم تعلم وقعت في شرِّ عملك، فالإنسان بدافعٍ من حرصه على سلامته، وهذا الحرص على سلامته فطرة، وبدافعٍ من حرصه على نجاحه وتفوّقه عليه أن يعلم، ومعنى عليه أن يعلم أي أن عليه أن يأخذ العلم عن الرجال، وقد قال ابن عطاء الله السكندري: " من لم يأخذ هذا العلم عن الرجال فهو ينتقل من مُحَالٍ إلى مُحال "، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة:119)

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف:28)

أردت من هذه المقدِّمة أنْ أبيِّن لكم أنَّ هذا الموضوع خطير جداً، ما دام الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما لاعباً، وما خلقهما باطلاً، إنه خلقهما بالحق، فما هو الحق ؟ الحق خِلاف اللعب، والحق خلاف الباطل، واللعب هو الشيء العابث الذي لا هدف له، والباطل هو الشيء الزائل والزاهق، فالحق إذاً هو الشيء الثابت الهادف، فأنت خُلِقت لتبقى، وما الموت إلا نقطة تحوُّلٍ في خطِّ سيرك، ثيابٌ تخلعها هذا هو الموت، أنت أنتَ، كل نفسٍ ذائقة الموت، أنتَ أنت، لكن في الحياة لك بُنْيَة، فهذا الجسد محيطٌ بهذه النفس، وبعد الموت هذه النفس تحيط بهذا الجسد، ففي الحياة سعيٌ لكسب الرزق، والحياة فيها تناقض، بينما الحياة في الدار الآخرة ليس فيها سعيٌ لكسب الرزق، إذاً ليس فيها حسد، ولا تنافس، ولا حزن، ولا أي مرض يحولُ بين الإنسان وبين بلوغ سعادته، وفي الآخرة تزايد.

فيا أيها الإخوة المؤمنون...

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

الحقيقة أن الإنسان حينما يظن أن دينه ينتهي عند حضور مجلس علم من دون أن يدخل في صميم هذا الموضوع، حضر، ويقول لك: تباركنا، كلام ليس له معنى، فما معنى تباركت هذه ؟ يقول لك: والله، الحمد لله أنا أصلي الأوقات الخمسة، بني الإسلام على خمس، الصلاة دِعامة، وليست هي الإسلام، والصوم دعامة، وليس هو الإسلام، والحج دعامة، وليس هو الإسلام، والزكاة دعامة، وليست هي الإسلام، وإعلان الشهادة دعامة، وليس هو الإسلام، الإسلام شيءٌ آخر.

سيدنا جعفر بن أبي طالب سأله النجاشي.. ملك الحبشة.. عن طبيعة دينه، فأجابه بقوله:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ))

[أحمد في مسنده عن أم سلمة]

هذه هي الجاهليَّة، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب: من آية " 33 ")

هذه الآية فيها إشارةٌ دقيقة جداً إلى أن هناك جاهلية ثانية، هذه دفعة أولى، ما معنى هذا ؟ المعنى أن هناك دفعة ثانية، أما هذا الرصيد فيحتاج إلى بحث آخر..

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ،

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، فَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ))

[أحمد في مسنده عن أم سلمة]

هذا هو الإسلام إنه بناء أخلاقي، الإسلام يسمو بالإنسان، فيجعله إنساناً صالحاً للتنعُّم في الجنَّة إلى ما شاء الله، فالدنيا دار إعداد، وتكليف، وعمل، والآخرة دار جزاء، ودار نعيم مقيم، لا قلق، ولا حزن، ولا شقاء، ولا خوف، ولا ارتفاع حر، ولا انخفاض البرودة، ولا ضيق، ولا قهر، ولا فقر، ولا مزعجات، ولا مقلقات، ولا مخاوف، ولا أحزان.. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[متفق عليه]

أين أنت من تطبيق ما تعلّمتَ ؟

يا أيها الإخوة الأكارم، والله الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان سمع هذا الكلام الواضح كالشمس، المأخوذ من كتاب الله، المأخوذ من هذا الدستور، لو أن الإنسان سمعه ولم يأخذه مأخذاً جدياً، ولم يبلغ من نفسه مبلغاً يدفعها إلى تغيير سلوكها، والله الذي لا إله إلا هو سوف تطول حسرته يوم القيامة لأنه عرف الحق وحاد عنه، فحضور هذا الدرس مسؤوليَّة كبيرة، فهناك دروس تحضرها فتستمتع لما فيها من طُرَف، ومن طرائف لطيفة، وحكاية، وقصص، وأشياء مسلّية، فهذا درسٌ ممتعٌ غير نافع، وهناك درسٌ نافعٌ غير ممتع، وهناك درسٌ تحضره فتبدأ متاعبك، أيَّةُ متاعب ؟ لأن هذه الآيات تضعك أمام مسؤوليةٍ كبيرة، وأمام مصير، وأمام رسالة أنت مكلَّفٌ بحملها، وأمام هدفٍ أنت مكلَّفٌ أن تسعى إليه.

فلذلك قضية: " والله سمعنا الدرس ومشينا، والله الدرس كان لطيفاً، ممتعاً، واللغة جيدة، والله هناك إقبال شديد، ما شاء الله "، فهذه كلُّها كلمات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، والذي يقدِّم ويؤخِّر أين أنت من هذا الدرس ؟ هل عرفت أن الله سبحانه وتعالى قد خلقك لهدفٍ كبير ؟ ما هو هذا الهدف، هل عرفته ؟ هل سألت عنه ؟ إذا عرفت هذا الهدف فكل حركاتك في الدنيا يجب أن تُستنبط من هذا الهدف، فمن عرف أن الله سبحانه وتعالى خلقه ليسعده في الدنيا والآخرة، وأن جوهر السعادة في طاعة الله والعبوديَّة له،

ومعرفته، فعندئذٍ لا يختار عملاً يكسب منه رزقاً لا يرضي الله، فصار اختيار عملك له علاقة بدينك، واختيار الزوجة له علاقة بالدين، واختيار تمضية أوقات الفراغ له علاقة بالدين.

ليس من السهل أن تمضي وقتاً فراغاً فيما لم تُخْلَق من أجله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان صغيراً كان يُدْعى إلى اللهو، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((لم أخْلَق لهذا))

[ورد في الأثر]

أي أن هذا النمط المسلم، طبعاً المسلم لا يرتكب كبيرة، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يشرب خمراً، ولكن حياته مثقلة بالصغائر، وهذه الصغائر كالكبائر في المفعول، وفي النهاية كالكبيرة تحجبكم عن الله سبحانه وتعالى، فإذا أطلق الإنسان بصره، واستمع إلى صوت قَيْنَةٍ، واختلط مع نساءٍ لا يحللن له، وأكل درهماً من حرام، وأنفق المال في غير محلّه، وتساهل في تربية أولاده، ومع زوجته، إذا عصت الله سبحانه وتعالى فأقرَّها على هذه المعصية، هذه كلها في ظنِّه صغائر وهي في الحقيقة كالكبائر، ونحن في رمضان.

حقيقة طلب العلم

يا أيها الإخوة المؤمنون، لئلا يعتب أحدٌ على هذه المجالس ويقول: حضرتها عشر سنوات، وما أفادتني شيئاً، إن لم تُطبِّق فلن تستفيد، لأن هذا الدرس وصفة، إن لم تأخذ الدواء بالتمام والكمال وفق التعليمات التي وصفها الطبيب فلن تشعر بالراحة، فلذلك أن تحضُر الدرس بُغْيَةَ الاطلاع شيء، وأن تحضره بغية تمضية وقت الفراغ شيءٌ آخر، وأن تحضر الدرس من أجل أن تعرف الله ومن أجل أن تكون هذه المعرفة أساساً في تعاملك مع الله، ومع الناس، وفي زواجك، وبيعك وشرائك، وعملك هذا شيءٌ آخر.

فيا أيُّها الإخوة المؤمنون... النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((شمِّروا فإن الأمر جد))

[ورد في الأثر]

الأمر جِدّ. قال لي أخٌ كريم قبل أسابيع: لي صديقٌ كان يمشي في الطريق فوقع ميِّتاً.

الاستعداد إلى الرحلة الأخيرة

إن حالات الوفاة المفاجئة كثيرةٌ جداً، وكلكم يعلم إلى أين ذهب هذا الإنسان ؟ وماذا أعدَّ لهذه الرحلة الطويلة ؟ والله إن رحلة إلى مدينة قريبة جداً تُخَطَّط لها ساعات طويلة، وتكتب الحوائج على قوائم، فقد أحتاج إلى كذا وكذا، كلُّه يُسَجَّل، ويُحضَّر، ويُعد، ويوضع في حقائب، وهذه الرحلة الطويلة يعطونك

تأشيرة خروج بلا عودة، فلا توجد رجعة، بل رحلة أبديَّة، فماذا أعددت لها ؟ قال رجل:

((يا رسول الله، علِّمني من غرائب العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: وماذا صنعت في أصل العلم ؟ قال: وما أصل العلم ؟، قال: هل عرفت الرب ؟ قال: نعم، قال: فماذا صنعت في حقّه ؟))

[أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسور]

السؤال لكم: إذا كنت قد عرفت الله فما الموقف الذي وقفته من أجله ؟ وماذا أعطيت من أجله ؟ وماذا مَنَعْتَ من أجله ؟ ومن صاحبت من أجله ؟ ومن عاديت من أجله ؟ ما العادة التي تركتها من أجله، والتي فعلتها من أجله ؟ هذا السؤال اسأله نفسك دائماً: ماذا صنعت من أجل الله ؟ إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيمَ أقامك، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيمَ استعملك.

فهذه الآية:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

ليس من قبيل العَبَث..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون:115)

أي لعباً بلا هدف، هكذا، يغتني الإنسان، ويأكل مالاً حراماً، ويستمتع بالدنيا كما يشاء، ويموت وانتهى الأمر، أهكذا ؟ ويفتقر إنسان آخر ويذوق الأمرَّين ويموت، أهكذا، لا توجد آخرة، ولا يوجد جزاء ؟ أين اسم الله الحق ؟ أليس الحقُّ اسماً من أسماء الله ؟ إذا كسب الإنسان المال الحرام، واستمتع به طوال حياته، ومات معزَّزاً مكرَّماً، وإنسان آخر ذاق مرارة البؤس والحرمان، ومات، وانتهى الأمر، فأين اسم الحق ؟ أليس الله هو الحقُّ المبين.

حظوظ الدنيا والآخرة

لذلك يا أيها الإخوة الأكارم، لقد وزَّع الله سبحانه وتعالى الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، جعل الغني غنياً وابتلاه بالغنى، هل يكون شاكراً، سخياً ؟ وهل يعرف حقَّ الناس جميعاً ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((يُحْشَر الأغنياء أربع فرقٍ يوم القيامة ؛ فريق جمع المال من حرامٍ، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار - هذا حسابه سريع جداً، كلمة واحدة - وفريقٌ جمع المال من حلال، وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال من حرام، وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريقٌ جمع المال في حلال، وأنفقه في حلال قال: هذا قفوه فاسألوه))

[ورد في الأثر]

هذا حاسبوه، هذا الذي يُحَاسَب، أما الذي جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، أو جمعه من حلال وأنفقه في حرام، أو جمعه من حرام، وأنفقه في حلال فهؤلاء إلى جهنَّم وبئس المصير، وأما الذي جمعه من حلال وأنفقه في حلال فهذا يقال له: قفوه فاسألوه: هل قصَّر في صلاةٍ ؟ وهل قصَّر في تأدية الحقوق ؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقّنا ؟ هل ماله جعله يتكبَّر على خلق الله ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام لبلاغته الرائعة قال ليعبِّر عن شدَّة السؤال قال: فما زال يُسأل ويُسْأل، أي أنه انتظر، وانتظر، فهناك قائمة أسئلة طويلة جداً، فتركهم ومشى ـ فما زال يسأل ويسأل ـ. الموضوع خطيرٌ جداً، فأنت مخلوق لهدفٍ كبير، فهل عرفت هذا الهدف ؟ لك ربٌ عظيم، فهل عرفت هذا الرب ؟ وله منهج، فهل عرفت هذا المنهج أولاً ؟ وهل طبَّقته ثانياً أم ماذا كنت تصنع ؟ فأحياناً أحد الإخوة الحاضرين يرفع معنويات الداعي إلى أعلى درجة إن كان ملتزماً، مطبِّقاً، عند الأمر والنهي، وواحد آخر يحضر الدروس، ولا يطبِّق ما جاء فيها، فهذا الإنسان يخفض معنويات الداعية إلى أدنى درجة، فإذاً كلَّما عَرَضَ لك شيءٌ من الحق اسأل نفسك هذا السؤال: أين أنا من هذا ؟ هل أنا مطبِّق ؟

الإنسان مخلوق للعبادة

إذاً الله سبحانه وتعالى ما خلق السماء والأرض وما بينهما لعباً، بمعنى أن اللعب العمل العابث الذي لا هدف منه، جلَّ وعلا، تنزَّهت أسماؤه، وتنزَّهت ذاته عن أن يخلق الكون عبثاً، لا عباً من دون هدفٍ عظيم، فما هو هذا الهدف ؟..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات:56)

ما هي العبادة ؟ طاعةٌ طوعيَّة، فلو أن هذه الطاعة قسرية لما كانت عبادة، وطاعةٌ طوعيَّة، تسبقها معرفةٌ يقينية، فتفضي إلى سعادةٍ أبديَّة، فإذاً أنت أيها المخلوق خُلِقْتَ من أجل أن تسعد إلى الأبد..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من آية " 119 ")

إنّ الإنسان خُلِقَ ليسعد بالله سبحانه وتعالى إلى الأبد، وفي الأثر:

((خلقتُ لك السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضه عليك))

[ورد في الأثر]

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

أي سبحانه وتعالى وتقدَّس أن يخلق الحياة لهواً، لكن فرضاً لو أن الله سبحانه وتعالى.. وهو أعظم وأجلَّ من ذلك.. أراد أن يخلق السماوات والأرض لهواً ولعباً لما كان هذا اللهو واللعب على حساب الناس، هناك زلازل، ومصائب، ومجاعات، وأمراض، وفقر، وقهر، وأُناس معذَّبون، لو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يلهو لما كان الإنسان ضحيَّة هذا اللهو، بل مستحيل ذلك، فهذا لا يتناسب مع رحمته جلَّ وعلا، ولا مع عدالته، ولا مع عظمته..

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا)

فإذا أراد الإنسان أن يتسلَّى بتجريب قلم، أيجرِّبه على جدول علامات طلاب الاختصاص الصف الرابع الجامعي ؟ يضع هنا صفراً، هل خطّه جميل ؟ وصفر، وصفر يعني أنك رسَّبته، تجرِّب قلماً على حقل العلامات ؟ أيعقل أن يُجرِّب القلم على حقل علامات لاختصاص الصف الرابع ؟ سيُبْنَى على التخرُّج مصالح كبيرة جداً ؟ فإذا سأله طالب: لماذا أنا رسبت يا أستاذ ؟ يقول: واللهِ كنت أجرِّب القلم فوضعت هنا صفرًا، هذا كلام غير معقول، فهل يخلق معقول الله عزَّ وجل السماوات والأرض لهواً ولعباً على حساب الناس ؟ جهنَّم مُلئت، لماذا ؟ هكذا، ما هذه هكذا ؟ أيعقل أن يُبنى سجنٌ فخمٌ، ويُساق الناس جميعاً إليه، لماذا ؟ لإملاء السجن، أيعقل هذا ؟

فالذي يظنُّ أن الله سبحانه وتعالى يخلق الخلق لَعِبَاً ولهواً هذا ضال مضل، طبعاً الناس يقولونها بأساليب أخرى، يقول لك: سبحان الله لا أحد مرتاح، فما معنى هذه الكلمة ؟ معناها كأن الله عزَّ وجل خلق الناس ليعذِّبهم، لا والله..

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ:17)

اسمعوا كلام ربنا عزَّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء:147)

واسمعوا كلام ربنا عزَّ وجل:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى: من آية " 30 ")

حصراً..

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من آية " 59 ")

الآيات التي تؤكِّد أن كل مصيبةٍ دَقَّت أو جَلَّت إنما هي بسبب ذنبٍ أو حكمةٍ أو ظلمٍ اقترفه الإنسان لأنه

((ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدَّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب موقوفا]

إذاً:

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

ولكن الله سبحانه وتعالى أن يكون لاعباً في خلق السماوات والأرض، سبحانه أن يخلق السماوات والأرض عبثاً..

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

اسمعوا الآية الثانية:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة:36)

هكذا، ظلمت دون أن تسأل، ودون أن يأخذ المظلوم حقَّه، إن ذلك لا يكون، فأحد أسباب الإيمان باليوم الآخر أن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحق، وأن الحقَّ هو الذي يجب أن يُقام إلى الأبد يوم القيامة، فأحياناً إنسان يظلم زوجته، فيأكل مالها ويطلقها، وانتهى الأمر ؟ولا يوجد إله يحاسبه ؟ أو شريك يتعلَّم من شريكه المصلحة وبعدها يضعه خارج المحل، ويقول له: المحل لي، والإيجار باسمي، أخي هذه المصاريف، ويضع له خمسين ألفاً والشركة كانت سبعين ألفاً، ويقول له: فهذه خمسون ألفاً، فما هذه الخمسون ألفاً، هذه الآن قيمتها خمسمائة ألف، ويعطيه خمسين ألفاً ومع السلامة، فأين الله ؟ هذا الذي يظن أن الإنسان بذكائه يحصِّل المال، وأن القوي هو بقوَّته يأكل أموال الناس هذا هو الضلال بعينه.

وربنا عزَّ وجل ما خلق السماوات والأرض وما بينهما لاعباً..

(لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ)

الباطل إلى زوال واضمحلال

والله عزَّ وجل جعل الحق كأنَّه صخرةٌ صَمَّاء ألقيت على الباطل فسحقته، والباطل هذه التخرُّصات والضَلالات، فالباطل أن الدنيا هي كل شيء، وأن القوي هو الذي يعيش في هذه الدنيا، يقول لك: البقاء للأقوى، وكأنه لا يوجد إله، والأقوى يأكل الأضعف وانتهى الأمر، فهذا باطل، أو أن هناك في عام كذا مجاعةٌ كبرى، لماذا ؟ لأن البشر يتوالدون بسلسلة هندسيَّة بينما الغذاء بسلسلة عدديَّة إذاً هناك نقص في المواد، فأين هو الرزَّاق ذو القوَّة المتين ؟.

أحياناً يفاجأ الناس بأمطار مذهلة، يقول لك: هذا العام توجد محاصيل لا يعلمها إلا الله، محاصيل قمح، ومحاصيل قطن، ومحاصيل فواكه، وأشجار مثمرة لا يعلمها إلا الله، ومعدَّل الأمطار في دمشق مئتان، أو مئة وخمسون، والسنة مئتان وخمسون أو ثلاثمائة، والله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، ولا يوجد إله، والقضيَّة هكذا، الحياة هي كل شيء، والموت نهاية كل شيء، والحق للأقوى، والأقوى يأكل الأضعف، وهناك نقص في المواد، وهذه أفكار الشياطين، وأفكار الكفَّار، والشيطان هو الأساس..

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران:175)

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ)

(سورة البقرة: من آية " 268 ")

هذه لوازم الشيطان، يخوِّف، ويأمر بالفحشاء، ويَعِد بالفقر، فكلَّما جاءتك خواطر ؛ إياك أن تنفق مالك، المال ثمين جداً، والأمور صعبة تضيق في المستقبل، فهذا من الشيطان، إذا جاءك خاطر يمنعك من أن تنفق المال في سبيل الله بدعوى أن المال أصبح شيئاً ثميناً جداً، وأصبح تحصيله صعباً، وأصبحت الحاجات باهظة التكاليف، وأنت أولى بهذا المال، قُل: هذا هو الشيطان بعينه..

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

(سورة آل عمران:175)

هذه يَعِدُكُم الفقر، أما إذا جاءك خواطر أنْ: لا تصلِّ هذا أفضل، لا تصم أفضل..

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

فالشيطان يخوِّف، ويعد بالفقر، ويأمُر بالفحشاء، فأي خاطر من هذه الأبواب الثلاثة فهو حصراً من الشيطان..

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة سبأ:39)

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنَّمَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ...))

[مسلم، الترمذي، واللفظ له]

((حصِّنوا أموالكم بالزكاة))

[الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود]

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة التوبة:103)

فهذه الأفكار أن الله خلق الناس ليعذِّبهم، أو أن الله خلق الناس ليزعجهم، أو أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا هي كل شيء، وأنه لا شيء بعد الموت، فهذا هو الباطل وهي أفكار الشيطان..

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ)

معنى: يَدْمَغُه

معنى يدمغه أي يهشِّمه، فينتهي، لو ضُرِبَ الإنسان على دماغه بحجرٍ هكذا من مسافةٍ بعيدة، وأصاب الحجر الهدف، فأصبح الدماغ أشلاء، يكون الإنسان قد مات، فمعنى يدمغه أي يحطِّمه..

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

أيّ دعوة باطلة يدمغها الحق

فكل دعوى في التاريخ الإسلامي أرادت أن تطفئ نور الله، ألم يدمغها الله سبحانه وتعالى ؟ اقرأ التاريخ، فلا توجد دعوى أرادت أن تطفئ نور الله إلا دُمِغَت لقوله تعالى:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ)

أيّ تغيير لهذا الكتاب، وأي تحوير، وأي تبديل، وأي شيء وضعي يُرجى له أن يحلَّ محلَّ الشيء الإلهي فيدمغه..

(فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ

بعض الصحفيين في دولة أجنبيَّة متقدِّمة جداً يرى أن نهاية التحضُّر قطع يدي السارق، لأن ست عشرة سرقة تمَّت في سنة واحدة، وفي مجتمعات يُطبَّق فيها حكم الله فالسرقات تُعدُّ على أصابع اليد، لذلك قال أحد الشعراء سائلاً الإمام الشافعي:

يدٌ بعشر مئينٍ عسجدٍ وُديت ما بالها قُطِعَت في ربع دينار؟

* * *

مفارقة عجيبة.ـ يدٌ بعشر مئينٍ أي ألف دينار ذهبي ديتها لو قُطعت بحادث ـ

يدٌ بعشر مئينٍ عسجدٍ وديت ما بالها قُطِعَت في ربع دينار

* * *

فقال الإمام الشافعي:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لمَّا كانت أمينة كانت ثمينة

فلـمَّا خانت هـانـت

***

إذاً:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

أُبيح الطلاق في إيطاليا، فقدِّم في يومٍ واحد مليون طلب، فدائماً الحق هو الذي يستقر، وفي بعض البلاد مُنِعَ الزوج من تطليق زوجته، فإذا طلَّقها فلها نصف ماله قطعاً فوراً، ويحكم عليه بالسجن ستَّة أشهر، ماذا كان من نتيجة ذلك ؟ أن بارت سوق الزواج، فصار الوالد يرجو خطيب ابنته أن يقبل بابنته، ويعطيه سنداً بالأمانة فيما لو طلَّقها فاستحقَّت نصف ماله، فالمبلغ جاهز سلفاً، أي محاولة لتغيير شرع الله عزَّ وجل هناك نتائج خطيرة جداً، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

(من سنن الترمذي عن أبي هريرة)

إذا كنتم تريدون شروطاً صعبة، وتريدون بيتاً موقعه ممتاز، ومركبة جيِّدة، ودخلا كبيرًا..

((إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

قال عليه الصلاة والسلام:

((من تزوَّج المرأة لجمالها أذلَّه الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً فعليك بذات الدين تربت يداك))

[الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس]

وربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

الآيات التالية:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

المخلوقات كلها لله ملكا وتصرفا ومصيرا

له ملكاً، وتَصَرّفاً، ومصيراً، قد تسكن بيتاً ولا تملكه، وقد تملكه ولا تسكنه، وقد تملكه وتسكنه، وفي النهاية ليس لك، يُنَظَّم، فيُستملك، أعلى درجة للملكيَّة أن تملكه، وأن تطلق يدك في التصرُّف فيه، وأن يكون المصير لك، أي ؛ الملك، والتصرُّف، والمصير، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ملكاً، وتصرُّفاً، ومصيراً..

(عِنْدَهُ)

من الملائكة..

(لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

أي أنهم يعبدونه ليلاً ونهاراً، وحينما يعبدونه لا يَتَحَسَّرون على هذه العبادة، لأن الله سبحانه وتعالى كافأهم عليها أضعافاً مضاعفة..

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21))

كل الآلهة سوى الله مخلوقة

أي أن هذه الآلهة آلهة من الأرض، أي مصنوعة من الحجارة، آلهة من الأرض، من جنس الأرض، وهناك آلهة من تمر، فقبيلة ود صنعت إلهاً لها من تمر، فلمَّا جاعت أكلته، فالعرب قالت: " أكلت ودٌ ربَّها "، أكلته لأنها جائعة، وهناك شاعر رأى صنماً يبول الثُعْلُبَانُ على رأسه فقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟! لقد ضلَّ من بالت عليه الثعالب

***

أفهذا إله هذا ؟! فهذه الآلهة من الأرض، صنم من الحجر..

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الصافات:96)

أنتم والحجارة..

(أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

هل بإمكان هذه الآلهة أن تبعث الموتى من القبور ؟ مستحيل..

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

معنى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا

المعنى الأول:

يصير هناك تنازع، ومن صفات الإله أنه كامل القُدْرَة، فإذا وجد إله آخر بنفس القدرة فإنهما يتنازعان، فتفسد السماوات والأرض، بعضهم فسَّر هذه الآية: " لو أن في الكون آلهة إلا الله لما كانت السماوات والأرض "، وهذا معنى لفسدتا.

المعنى الثاني:

والمعنى الآخر: لو أن ما في الكون آلهة غير الله لم تَقُم السماوات والأرض على هذا النظام البديع، والآن عندك مدرسة فتعيِّن لها مديرَين فتخرب، ومعمل ضع له مديرَيْن فيخرب، وبيت تتنازع الأم والأب في تربية الأولاد فيسقط الأولاد، كلّما زجرت ابنها يقول لها: لا اتركيه أنا أحب أن أعطيه حريَّة، يطلع الولد مائعاً، وإذا كان الأب يربي والأم تربي.

كل مركب له قائدان يتحطّم، و كل الطائرة لها ربَّان واحد، والثاني مساعد، فهل من الممكن أن يقود الاثنان الطائرة ؟ تقع الطائرة، هل يوجد قطار له ربَّانان، وهل رأيتم مركبة ـ سيارة ـ لها مقودان بجانب بعضهما ؟ هذا يريد الانحراف بها هكذا، والثاني عكسه، فلا يمكن هذا أن يحدث..

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

لا يوجد إلا إله واحد معبود بحقٍّ، لا إله إلا الله، فالحياة فيها أمثلة، أحياناً يكون لك محل فيه شريكان، والاثنان رؤوس يتنافسان، يحطمّان المحل، وبعد هذا يتفاككان ويفلسان، ويريد أن يغيظه، لا، لا تنفع هذه البضاعة، لا نربح منها، وهذا يرخِّص، وهذا يغلي، فمحل لا يستقيم بقيادتين، ولا مركبة، ولا سيارة، ولا طيارة، ولا سفينة، ولا أسرة، ولا معمل، ولا مدرسة، ولا أي مكان في العالم إلا قيادة واحدة، لذلك خالقٌ واحد، وربٌ واحد، وإلهٌ واحد، وقرآنٌ واحد، ونبيٌ واحد.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

سوف نقف عند هذه الآية بفضل الله وعونه وتوفيقه في درس قادم إن شاء الله تعالى، ونشرح معنى قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 19 - 25

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-05-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الأنبياء، يقول الله سبحانه وتعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

الملائكة في عبادة دائمة من غير حسرة

هؤلاء الذين عنده هم الملائكة يسبحونه بالليل والنهار، لا يسأمون، ولا يستكبرون، ولا يستحسرون، معنى ذلك أن الإنسان إذا سَبَّحَ الله سبحانه وتعالى دخل في سعادةٍ لا توصف، وإذا دخل في هذه السعادة لن يتكبَّر عليها، ولم يسأم منها، ولم يستحسر عليها، وحينما يعمل الإنسان عملاً لا جدوى منه، أو يُقَدِّمَ جهداً كبيراً ليأخذ مردوداً صغيراً يستحسر، يتحسَّر على الوقت الذي بذله من أجله، وعلى الجهد، وعلى المال، فمتى يستحسر الإنسان إذًا ؟ إذا رأى المردود أقلَّ من الجُهد، وإذا رأى النتائج أقلَّ من المُقدِّمات، والأرباح أقلَّ من رأس المال، عندئذٍ يستحسر.

فهؤلاء الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يستكبرون، ولا يستحسرون، ولا يسأمون، وكأن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية يدعونا بشكلٍ غير مباشر إلى أن نسبِّحه، فإذا سبَّحناه لن نستحسر على هذا التسبيح، ولن نسأم هذا التسبيح، ولن نستكبر.

معنى التسبيح

والتسبيح هو التنزيه والتمجيد، ومن معاني التسبيح أن تنزِّه الله عن كل صفةٍ لا تليق به، وعن كل حالٍ لا يليق به، فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فالله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، إنه صَمَد.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2))

(سورة الإخلاص:2)

أهمية علم التوحيد

ولذلك فعلم التوحيد علمٌ مهمٌ جداً في الدين، بل إن رأس العلومِ كلّها علم التوحيد، لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء،

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فـاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير(302/2)]

أحياناً يتعَرَّف الإنسان على شخص له مكانة، فهو على جانب من العلم والكَرَم والحكمة، تراه غارقاً في سعادةٍ لا توصف، لأنه تعرف إليه، فكيف إذا عرف الله سبحانه وتعالى، وإذا عرف عن أسمائه الحسنى، وعن صفاته الفُضلى، وعن جلاله وكرمه، وعن جماله، وغناه، وقدرته ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[متفق عليه]

معنى

((مَنْ أَحْصَاهَا))

أي من عرفها اسْماً اسماً، فمعرفة أسماء الله الحسنى جزءٌ أساسيٌ من الدين، بل جزءٌ أساسيٌ من علم العقيدة، وفي كل كتب علم التوحيد وكتب علم العقيدة فصلٌ كبيرٌ جداً عن أسماء الله الحسنى، وأنت امتحن نفسك، قل: ماذا تعرف عن اسم الرحيم ؟ ما الدلائل، والوقائع، والمعلومات، والمشاهدات التي تؤكّد اسم الرحيم ؟ الله سبحانه وتعالى رحيم، إلى أي درجة تظنُّه رحيماً ؟ هو أرحم بالخلق من الخلق، والله سبحانه وتعالى لطيف، وغني، وكبير، ولهذا شُرِعَ التكبير يوم العيد..

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة البقرة:185)

حقيقة << الله أكبر <<

الحقيقة الأولى:

ما من مسلمٍ على وجه الأرض إلا وهو في طريقه إلى المسجد ليؤدِّيَ صلاة العيد إلا ويكَبِّر، يقول: " الله أكبر، الله أكبر "، هذه الكلمات قالها أصحاب رسول الله ففتحوا العالم بها، ويقولها الآن ألف مليون

وهم على ما تعلمون، لماذا ؟ لأن المسلمين اليوم يقولون: الله أكبر دون أن يروا أن الله أكبر من كل شيء، وبمجرد أن تعصي الله سبحانه وتعالى إرضاءً لمخلوق فأنت لم تر أن الله سبحان وتعالى أكبر من هذا المخلوق، ولو رأيت الله أكبر من هذا المخلوق لم تعص الله من أجل هذا المخلوق، ولذلك: من قال الله أكبر ألف مرة ومرة، وعصى الله سبحانه وتعالى ما قالها ولا مرة.

إنّ الفرق بين أصحاب رسول الله وبين المسلمين في هذا العصر كبيرٌ جداً، فأقوالهم تعبِّر عن إيمانهم، ولكن أقوال المسلمين يقولون: الله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، هذه الباقيات الصالحات لو عرفها المسلمون حق المعرفة لطاروا إلى سماوات المعرفة، وسماوات السعادة.

فلذلك يجب أن لا تكون كلماتنا عادات ألفناها، الله أكبر، هذه الذي يطيع زوجته، ويعصي ربه ما قال: الله أكبر ولا مرة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، وهذا الذي يغش، ورأى أن الربح الناتج من الغش أغلى من طاعة الله سبحانه وتعالى، فالذي يغُش في البيع، والشراء ما قال: الله أكبر ولا مرة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، والذي يَدَعُ عبادةً لله عزَ وجل خوف إنسانٍ ما، هذا ما قال: الله أكبر ولا مرة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، فلذلك نحن مقدمون على أيام العيد، وفي العيد نُكّبِّر، ويجب أن تعلموا ما التكبير ؟

التكبير يعني أن الله أكبر من كل شيء، ومن كل ربح.. فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له في دينه ودنياه))

[أبو نعيم في الحلية]

الله أكبر من كل إنسان، ومن كل مكسب، وإنجاز، وهَدَف، وهذا معنى الله أكبر.

الحقيقة الثانية:

ولها معنى آخر، أنَّك كلما عرفت الله سبحانه وتعالى ترى أن الله عزَّ وجل أكبر مما عَرَفْتَ، إذ لا حدود لعظمته، ولا نهاية لجلاله ولجماله ولقدرته ولكرمه.

(أم اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

وما ادَّعى العرب أن هذه الآلهة تحيي الموتى، ولكن الله سبحانه وتعالى لفت نظرهم إلى أن الإنسان إذا اتخذ إلهاً من دون الله فهل هذا الإله الذي اتخذه قادرٌ على أن يحيي الموتى ؟

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

(سورة الشعراء: 69-72)

الإله يجب أن يسمع..

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

(سورة الشعراء: 73 -82)

ربنا عزَّ وجل يُوجه نظرنا إلى أن الإله هكذا يجب أن يكون قادراً على أن يحييك، ويشفيك، ويُطعمك، ويسقيك، ويسمع خَلَجَات قلبك، سميعٌ عليم، سميعٌ بصير، هذا هو الإله.

(أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22))

فلو أن الله سبحانه وتعالى معه شريك لما انتظمت الحياة، ولما انتظم الكون، ولاختل نظامُ الكون، ولكانت المُنازعات، لأن كل إلهٍ..

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

(سورة المؤمنون:91)

وحدة الكون تدل على وحدانية الخالق

شيء آخر، إذا فكّرت في آيات الله في الأرض ترى أن هناك وَحْدَةً في الكون.

لنضرب مثلا نابعًا من حياتنا: قد تشتري دواءً مصنوعاً في بلدٍ يبعُدُ عنك عشرات الألوف من الأميال، وقد يستعمل الدواء إنسان في قارة في طرف الأرض، فإذا بهذه المواد الفعَّالة في الدواء تؤثِّر في بُنية هذا الجسد، ما تفسير ذلك ؟ أن الخالق واحد، والذي خلق الإنسان المولود في كندا هو نفسه الذي خلق الإنسان في أستراليا، فإن إنسان أستراليا بإمكانه أن يشتري دواءً مصنوعاً في كندا مثلاً، مع ما بين القارتين من بعدٍ شاسع، وهناك وحدة في الوجود، وبُنية الإنسان واحدة، وعاداته، وطباعه، وبُنيته النفسية، وقوانينه واحدة..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعارج: 21)

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء: من آية " 37 ")

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء:28)

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام:81-82)

البُنية واحدة، ولذلك فمن وحدة البُنية، ووحدة الخَلق، والتربية والتسيير تعرف إلى أن هناك إلهاً واحداً، لكن كل إنسان له ملامح خاصة، فما من مخلوقٍ إلا وله خطوطٌ في وجهه يتميَّزُ بها، وبصماتٌ في أصابعه ينفرد بها، ونبرةً لصوته يتميَّز بها، ونوعٌ لرائحة جسده يتفرَّد بها، فقد كان العلماء يظنون أن في الإنسان البصمة التي ينفرد بها، فكل إنسان له طبقة صوتية لا يشركه فيها أحدٌ من الناس، ومن هنا تعرف على الهاتف فلاناً، تقول له: فلان ؟ معناها ربنا عزَّ وجل أعطاك هويةً من صوتك، ومن رائحة جلدك، فكل إنسان له رائحة جلد خاصة يتميَّزُ بها، وأعطاك هويةً من تركيب دمك، والدم في الإنسان له بنيةٌ خاصة، أعطاك هوية من ملامح وجهك..

إذاً ستة آلاف مليون إنسان مع أن بنيتهم جميعاً متساوية، ليس هناك إنسان واحد يشبه في ملامحه الخارجية، ولا في نبرة صوته، ولا في رائحة جلده، ولا في بصمة أصابعه إنساناً آخر، لذلك قال بعض العارفين بالله، وأظنه الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى: " والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون لما سُمِّيتَ الواسع "، فالله سبحانه وتعالى من جهةٍ واحد، ومن جهةٍ واسع.

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

سبحانه وتعالى أن يكون له شريك، وسبحانه وتعالى أن يكون له مُعِين،

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف:26)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر:62)

وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.. فبالتوحيد ترتاح نفس الإنسان، ويطمئن قلبه، وتستريح أعصابه، وبالتوحيد يدفع عنه القلق، والخوف، والحزن، والسوداوية، والتشاؤم..

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

معنى: لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ

المعنى الأول:

أي أن مقام الألوهية يقتضي ألاّ يستطيع أحد من الخلق أن يسأل الله سبحانه وتعالى، فمهما علا الإنسان فهو مسؤول، فلو أن هناك دائرة حكومية، ورأس هذه الدائرة يبدو للموظّفين أنه لا يُحاسَب، ولكن لو اطلعت على الواقع لرأيت أنَّه هو يخشى من هو فوقه، فهو مسؤول، وكل مسؤول فوقه مسؤول، لكن الله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل، فمقام البشر أنهم مسؤولون..

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات:24)

مقام الألوهية لا يستطيع أحد أن يسأل الله سبحانه وتعالى، وليس معنى أن الله سبحانه وتعالى إذا كان لا يُسْأل عما يفعل أنه ظالم ؟ سبحانه وتعالى هو العدل،

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي↓فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود: 55-56)

فهو من تلقاء ذاته ألْزَمَ نفسه أن يكون على صراطٍ مستقيم، وألزم نفسه برِزْقِ العباد..

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

(على) تفيد الإلزام، إذا جاءت على في حق الله سبحانه وتعالى تفيد أنه ألزم نفسه.

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل: من آية " 9 ")

أي أن الله عزَّ وجل ألزم نفسه أن يهدي العباد إلى سواء السبيل، وألزم نفسه أن يهديهم إليه، وأن يعرِّفَهُم به، ونَصَبَ لهم الآيات الدالة على عظمته، وبَثَّ في الأرض الآيات، فأقام في السماء الآيات، إذاً فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل، لأن هذا المقام مقام الألوهية، وما من مخلوقٍ على وجه الأرض إلا ويسأل ؛ يُسأل ممن هو أعلى منه، أو يسأل ممن هو أدنى منه، فيقول لك: أخاف على سمعتي، ويسأل من أية جهة، ولذلك من شأن الإنسان أنه مسؤول، ومن شان الله سبحانه وتعالى أنه لا يُسأل عما يفعل.

المعنى الثاني:

وهناك معنى آخر لهذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى لعدالته المُطلقة، ولإحسانه الذي لا حدود له لا يسأل عما يفعل، لأن عدله يُسكت الألسنة، ورحمته تسكت الألسنة، ومثلاً: إذا وزع المعلم على طلاّبه

أوراق الامتحان، وقد صُحِّحَت تصحيحاً متناهياً في الدقة، ووزع عليهم السلالم، وعرض عليهم الأوراق والعلامات، وانتظر، قد تمضي ساعة ولا أحد من الطلاب ينبس ببنت شفة، لماذا ؟ لأن عدل المعلم أسكت الألسنة، فالعدل يسكت، ولفرط عدالته لا يسأل عما يفعل، هذا معنى آخر.

والمعنى الأول: أن مقام الألوهية يقتضي ألا يسأل، ولا أحد في الكون يسأله، وليس بإمكانه أن يسأله، وليس من حقه أن يسأله، لأنك في مُلك الله عزَّ وجل.

والمعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى لعدالته وكرمه وإحسانه لا يُسأل عما يفعل.

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

فلذلك ربنا عزَّ وجل قال على لسان سيدنا عيسى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة:118)

الآية لا تنتهي بـ: الغفور الرحيم، ليست كذلك، أنت تألف أنها " فإنك أنت الغفور الرحيم، وهي:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فما علاقة العزة هنا بالمغفرة ؟ لأن الإنسان إذا غفر يخشى أن يحاسب على هذه المغفرة، لمَ لَمْ تطالب فلاناً بهذه الوثيقة ؟ لمَ تساهلت مع فلان، ولم تتساهل مع فلان ؟ لمَ أعفيت فلانًا من هذا الرسم ؟ لماذا ؟ ولماذا عفوت عن فلان ؟ هذا الذي يعفو محاسب، لكن الله سبحانه وتعالى:

(وَ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة:118)

أي أن عزتك لا تنال، فلا يستطيع أحدٌ أن يحاسبك يا رب، لماذا غفرت لفلان ؟ ولم تغفر لفلان ؟ فالقرآن كما قال سيدنا علي: **" حَمَّال أوجه "**، أي ذو وجوه، فإذاً:

مقام الألوهية: لا يُسألُ عَمَّا يَفْعَلُ

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)

هذا مقام الألوهية..

(وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

مقام العبودية: وَهُمْ يُسْأَلُونَ

هذا مقام العبودية، والإنسان لا يسعد إلا إذا عرف مقام العبودية، فأنت عبدٌ لله، وليس من شأنك أن تَحْشُرَ أنفك فيما هو من شأن الله، كأن تقول: الله عزَّ وجل يعلم أو لا يعلم ؟ هذا من شأن الله، الله عليمٌ

حكيم، وكلمة عليم مُطلقة، والمُطلق على إطلاقه، وسيدنا علي رضي الله عنه يقول: **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".**

فالله سبحانه وتعالى كيف يكون مع الخلق جميعاً في وقتٍ واحد ؟ هذا السؤال من شأن الله أنت عبد، وليس من شأنك أن تحيط علماً بالله عزَّ وجل، ولا يعرف الله إلا الله، فلذلك مقام العبودية يقتضي أن تعرف مقامك.. **" رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده ولم يتعدَّ طوره ".**

فهناك أسئلة مقبولة، وأسئلة غير مقبولة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف]

فلما يطرح الإنسان أسئلة متعلّقة بذات الله يهلك، لأن المحدود لا يستطيع أن يحيط باللامحدود، وذو النهاية لا يستطيع أن يحيط باللانهاية، والممكن الوجود لا يستطيع أن يحيط بالواجب الوجود، والحادث لا يستطيع أن يحيط بالقديم، والفاني لا يحيط بالأبدي السرمدي، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، فالإنسان يجب أن يصنف الأسئلة لتصنيفين، أسئلة يمكن أن تطرح، وهذا من شأن الإنسان أن يفهمها، وأسئلة أخرى لا يمكن أن تُطرَح لأنها تطاولٌ على مقام العبودية، مقام العبودية أن تقف عند هذا الحد دون أن تسأل.

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

مقام العبودية: وَهُمْ يُسْأَلُونَ

هاتوا برهانكم، فكأن التعامل مع الله عزَّ وجل وفق الأدلة، والبراهين والحجج، فخالق هذا العقل والمنطق، ينبغي له أن يكون في دينه المنطق كله والعقل كله، إذاً كل حكمٍ فقهي فيه دليلٌ نقلي، وفيه دليلٌ عقلي، فهل خالق العقل دينه غير معقول ؟ مستحيل، لا عقل لمن لا دين له، ولا دين لمن لا عقل له، **"تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما، وبرهما، وصومهما، وصلاتهما، ويختلفان في العقل، كالذرة جنب أحُد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين".**

محدودية العقل

وما دام العقل من خلقه، والكون من خلقه، فلابدَّ من أن يكون الكون معقولاً، ولابدَّ من أن يكون الدليل العقلي أساساً في الإيمان، ولكن العقل على أنه أعظم شيءٍ أودعه الله فينا ليس مؤهَّلاً أن يتحكم في العقيدة، ولا في العبادات، ولكنه مؤهَّلٌ أن يستنبط الأحكام التفصيلية من الأحكام الكلية، فالعقل مسموح

له أن يستنبط الأحكام الفرعية من الأدلة الأصلية، من الكتاب والسنة، والعقل مؤهَّل لذلك، ولذلك بَرَعَ الفقهاء والمجتهدون في استنباط الأحكام التفصيلية من الأدلة الأصلية من الكتاب والسنة، ولكن العقل لا ينبغي أن يُحَكَّم بالنقل، بمعنى أن يسمح للعقل بإثبات ما صح وروده أو نفيه، دور العقل في العقيدة أن يفهمها لا أن ينفيها، فالعقل له حدود.

والعقل ميزان ولكن الشرع ميزانٌ على الميزان، العقل ميزان، والشرع ميزان على الميزان، كما لو أعطيت مسألة رياضية، فأنت بعقلك تَحُلُّ هذه المسألة، ولكنه مع المسألة أعطي الجواب الصحيح، فإذا جاء الحل مُطابقاً لهذا الجواب فالحل صحيح، وإذا جاء الحلُّ مخالفاً لهذا الجواب فالحل غير صحيح، إذاً الشرع ميزان على الميزان، والإنسان من دون شرع قد يَضل، وقد يَغْتَرّ.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

(سورة المدثر:18-27)

العقل أيها الإخوة يشبه تماماً العَين، فهي بالغة التعقيد، ولكن ما قيمتها من دون النور ؟ فلو ألغي النور فجأةً هل نرى شيئاً ؟ ولو أن للإنسان عينين من أعلى درجة من الحساسية، لو أطفأ الضوء هل يرى شيئاً في الغرفة ؟ كذلك العقل، العقل جهاز فذٌّ، عظيم، فما من جهازٍ أعقد من العقل في الكون، وما من عطاءٍ أثمن من العقل في الكون، ومع ذلك هذا العقل لا يُجدي إلا إذا كان هناك نورٌ إلهي..

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور:40)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال: من آية " 29 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الحديد: من آية " 28 ")

العقل تابع للنقل

فالنور هو الهُدى، فالعقل من دون نور قد يُلْحِد، وقد يُنكر الدين، وقد يقول: هذا الكتاب ليس كلام الله، وقد يقول: إن الزنا أفضل من الزواج، وإن السرقة أفضل من الكسب الحلال، ونحن نقول: أوروبا أمامكم، ألا ترى أوروبا الآن أن المتعة مهما تكن رخيصة دنيئة فهي محببة عندهم ؟ ألم يصابوا

بأمراضٍ وبيلة تفتك فيهم فتكاً ذريعاً ؟ هذا المرض العُضال ـ مرض الإيدز ـ حطَّمَهُم لماذا ؟ لأنهم اعتمدوا على عقلهم وحده في تخطيط حياتهم، فعقلهم ضَلَّ وأضل، وأراهم أن اللّذة هي كل شيء، فانكبوا عليها فانهارت علاقاتهم الاجتماعية، وانهارت قِيَمُهُم الأخلاقية، وتحطَّمت الأسر عندهم، وأصبحت حياتهم كالبهائم، وأحد الكتاب وصف أوروبا فقال: " أوربا عقلها من ذهب وقلبها من حديد "، نفوس مُقْفِرَة من القِيَم، لماذا ؟ لأنهم يبنون سعادتهم عل أنقاض الآخرين، ويبنون رفاهة شعوبهم على جوع الشعوب الأخرى، وعلى فقرها، وعلى تدميرها، إذاً هم ليسوا مُثُل عليا في الحياة.

فيا أيها الإخوة الأكارم... العقل وحده من دون الهدى لا يكفي، العقل وحده قد يهتدي، وقد يضل، ولكن الشرع هو الحصن الحصين، والإنسان بالعقل يعرف الله عزَّ وجل وبالشرع يعبده.

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ)

التعامل مع الله بالبرهان..

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: من آية " 117 ")

(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

الأدلة إما عقلية أو نقلية أو واقعية أو تاريخية

وعندنا دليل عقلي، ودليل نقلي، ودليل واقعي، ودليل تاريخي..

(هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي)

هذا دليل تاريخي..

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

إذاً الإعراض يأتي من الجهل، فإذا لم يعرف الإنسان قيمة هذه الجوهرة يعرض عنها، أو يرميها في الأرض، لكنه إذا عرف قيمتها يَحْرَصُ عليها حرصاً شديداً، فالحرص سببه المعرفة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

والله هذه الآية من أدق الآيات، ولو أننا كلفنا إنسان يقرأ الإنجيل، والتوراة، والزَبور، والقرآن الكريم، وهذه الكُتُب السماوية الأربع يضغطها في سطرٍ واحد كلّها، ربنا عزَّ وجل لَخَّصَ في هذه الآية جميع الرسالات السماوية..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي)

نقطتين..

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل العبادة.

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

فإذا عرفت أن الله وحده لا شريك له، فليس معقولاً أن تطيع مخلوقاً وتعصيه، أمرك كله بيده، وصحتك بيده، وزوجتك بيده، ومستقبلك، وأولادك وجيرانك، ورؤساءك ومرؤوسوك، وزبائنك، وأقرباؤك، وأعضاؤك، وقلبك، ودسام القلب، والشرايين التاجية بيده، والكليتان، وهبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، هذه بيد من ؟ ومرض خطير بلا سبب، وهبوط مفاجئ، وتوقف الكلى عن التصفية، إذ يحتاج في كل أسبوع مرتين تصفية، ومعامل كريات الدم الحمر بيده، يقول لك: فقر دم لا مُصنِّع، مرض خطير جداً، أي أن معامل كريات الدم الحمر بلا سبب معروف تَكُفُّ فجأةً عن صنع كريات الدم الحمر، وهذه المعامل تصنع في الثانية الواحدة مليونين ونصف مليون كرية حمر، وهذه المعامل تَكُفُّ فجأةً عن تصنيع كريات الدم الحمر، إذاً هذه المعامل بيده.

يقال الكلية توقفت، والبنكرياس توقّف عن عمله، وارتفعت نسبة السكر في الدم، وحصل انسداد بالشريان وبالدماغ فأحدث شللاً نصفياً، فهذه الجلطة الدموية بيد من ؟ من جعلها تتجمد ؟ كانت في الدم سائلاً في هرمون تجلد بالكبد، وفي هرمون تميُّع، من إفراز هذين الهرمونين إفرازاً متوازناً يبقى الدم بهذه الحالة السليمة، ولو أن أحد الهرمونين أفرز زيادة عن اللزوم فيصبح الدم مائعاً، فيموت الإنسان من شكة دبوس، يموت بسبب نزف دمه كله، أو يموت من تجلط الدم، ويصبح الدم كله كالوحل في الشرايين والأوردة، فالشريان بيده، والقلب بيده، والتجلط بيده، والتميُّع بيده، وعمل الكليتين بيده، وعمل الغدة النخامية بيده، والدرقية هذه مشكلة، والطحال مشكلة..

أعرف رجلاً شاباً في ريعان الشباب، وهو في الصف الرابع بالطب، وعلى مشارف التخرُّج، حدث معه فقر دم، فنزل التعداد إلى ثلاثة ملايين بالميليمتر المكعب، صحته طيبة، وغذاؤه جيد، فبعثوا عيِّنة من الطُحال إلى بلد أجنبي لفحصه، والطحال له مهمة، وهي أن يحلل الكريات الميتة إلى عواملها الأولى.. أي أن المهمة اقتصادية.. هذه الكريات الحمر الميتة بدل أن تلقى خارج الجسد تذهب إلى الطحال، وتحلل إلى هيموغلوبين وإلى حديد، والحديد يعاد شحنه إلى معامل كريات الدم الحمر في نقي

العظام، والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ليشكّل الصفراء، فالصفراء والحديد الذي يرسل إلى نقي العظام هذه من أنقاض كريات الدم الحمر.

والآن هناك معامل لضغط الحديد، سيارة مستعملة، انتهى استعمالها تضغط بمكعب، وترسل مرة ثانية إلى معامل الحديد، وعندنا معمل في مدينة حماة من أجل أنقاض الحديد أيضاً، فربنا عزَّ وجل جعل كل كريات الدم الحمر الميتة تذهب إلى الطحال والطحال يحللها إلى حديد وإلى هيموغلوبين، فهذا الشاب الذي في ريعان الشباب طحاله يعمل بنشاطٍ أكثر مما ينبغي، بمعنى أنه يأخذ الكرية الحمراء الميتة فيحللها، ويأخذ الحيَّة فيميتها، فصار معه فقر دم وتوفى بهذا المرض، مرض غريب: زيادة نشاط الطحال.

فنحن يهددنا خمسون خطراً، إذا توقف الطحال إنها مشكلة، وإذا اشتغل زيادة فمشكلة، والبنكرياس، والغدة الدرقية مشكلة، وإذا زادت إفرازاتها فإنها تعمل فرط توتر، وتعمل تبدد طاقة، وتعمل مشكلات كبيرة جداً، وإذا كسلت فتجد أن الإنسان ازداد وزنه لوزن غير طبيعي، لأن الغذاء عندئذٍ لا يتحول إلى طاقة، فهل يجب أن نهتم ونخاف من الدرقية، أم من النخامية، أم من الكظر، أم من البنكرياس، أم من الصفراء، له خمسة آلاف وظيفة، أم من جهاز الهضم المعقد، أم من ثقب بوتال بالقلب، أم من تضخم الشرايين ؟

طبيب شَرَّح قلباً، فالقلب له دَسَّامات، والدسام هو أعقد ما في القلب، ثلاث وريقات مع انقباض الأذين تنفتح هكذا فيمر الدم، فترجع فجأةً فتغلق الطريق إغلاقاً محكماً، لا يوجد في الأرض أي مضخة إلا وهي مبنية أساسا على أن تسمح للماء بالمرور في اتجاه واحد، فالقلب فيه دسامات خطيرة جداً.. وطبيب صنع دسَّاماً تقليداً عرضه بمئة وخمسين ألف ليرة، فإذا واحد دسامه تعطل يركب واحداً اصطناعياً، يخدمه سنتين فقط، ويحتاج بعدها لعملية ثانية، ولدسام آخر.. على كلٍ تفتح الوريقات هكذا، وتغلق، لكن الطبيب رأى في ظهر الوريقة كرية لحم صغيرة، لماذا هذه ؟ كرية لحم في ظهر الوريقة استأصلها من حيوان فتوفى الحيوان، فهل حياة الحيوان مرتكزه على هذه الوريقة الصغيرة، بقدر رأس الدبوس ؟ ثم اكتشف بعد ذلك أن هذه الوريقة حينما تنفتح هكذا لئلا تشكل مع جدار الشريان سطح تماس فتلتصق، هذه الكريَّة تشكل مع الجدار نقطة تماس، فتعود إلى مكانها..

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة لقمان:11)

ويوجد مليون جهاز، ومليون قضية بجسمنا، وهذا شيء معقد جداً، فهذا الطفل لما يولد ففي الأذينين مفتوح ثقب بينهما، وهو ثقب بوتال، في الرحم لا يوجد في تنفس، ولا يوجد هواء، والرئتان معطلتان، وجهاز التنفس معطل، إذاً كيف تتم الدورة الصغرى ؟ من أذين، من بطين، للرئة، لأذين، عن طريق

الرئتين، الرئة معطلة في الرحم، إذاً الله عزَّ وجل فتح فتحة بين الأذينين، يمر الدم مباشرةً، وحينما يولد المولود ـ هكذا قال الأطباء ـ تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، فأي يد تدخل إلى الداخل، وسط الأذين ؟ وتأتي جلطة، فمن ربُّها ؟ ومن سيَّرها ؟ تغلق، وإذا لم يغلق الثقب ؟ فربنا عزَّ وجل أعطانا أدلة، يترك لنا كل مئة ألف حالة، حالة واحدة اسمها داء الزرق، طفل لونه أزرق، فالدم بدلاً من أن يذهب إلى الرئة لينقى من غاز الفحم، ويأخذ غاز الأكسجين، يذهب إلى الأقرب لأنه يوجد ضغط، وانقباض، وهناك فتحة صغيرة، فلما ينضغط القلب عوضاً عن الدم لا يذهب إلى الرئتين بل يذهب للأذين الثاني، فيصير دمه أزرق، ويظل الطفل دائماً لونه أزرق، وأعرف صديقاً ابنه أصيب بهذا المرض، وقد توفي وهو في الثانية عشرة، يصعد الدرج كل ثماني درجات يطلعهم في خلال ساعة، لا يوجد عنده قوة على الإطلاق، فيدُ من دخلت إلى القلب فأغلقت هذا الثقب ؟ الله سبحانه وتعالى، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

مليون جهاز بيد الله عزَّ وجل، إذا آمنت أن يد الله عزَّ وجل، فالمطابقة هل هي سهلة ؟ عدسة مرنة، وعضلات هدبية دقيقة جداً، وهذا الشكل أو هذا الجسم على مدى أربعين متراً، كأن هذه العضلات عاقلة المسافة أربعين متراً، خيال الجسم يقع خلف الشبكية، إذاً تنضغط هذه العدسة بحيث يقع الخيال على الشبكية، فيد مَن ؟ فالمطابقة وحدها عملٌ معجز، وكل إنسان عنده مطابقة.

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

فيا أيها الإخوة الأكارم، نهاية العلم أن ترى أنه لا إله إلا الله، ونهاية العمل أن تعبده، ونهاية العلم أن توحِّدَهُ، ونهاية العمل أن تعبده، فإذا جمع الله عزَّ وجل في هذه الآية فحوى رسالات الأنبياء من دون استثناء، فهذه هي الآية، فلو قال لك أحدهم: أخي لخّص لي فحوى رسالات السماء كلها، فاتلُ عليه الآية:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

فإذا وحدته وعبدته نجوت من عذابه، وسعدت بقربه وفي جنته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 26 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-05-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

الملائكة عباد مكرمون

أي أن هؤلاء الذين ظنّهم الكفّار بنات الله ليسوا كذلك، إنهم هم عبادٌ مكرمون أي مقرّبون..

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

ومعنى لا يسبقونه بالقول أي أنهم في مرتبة العبوديّة، فلا يقولون إلا ما يُقالُ لهم، وهم منصاعون لأمر الله سبحانه وتعالى..

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أي أن علم الله سبحانه وتعالى محيطٌ شامل بما هم فاعلون، بما قد فعلوا، وما خلفهم..

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

الشفاعة

الشفاعة الزوج، الشفعُ هو الزوج، والشفاعة أن تضمّ شيئاً إلى شيء، فما من شيئين على وجه الأرض يجتمعان إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، وما اجتمع شيئان بنفع أو ضُر إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، والمؤمن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، حتى لو أنه قد وصل إليك خيرٌ عن يدِ إنسان، أو قد استطاع إنسان أن ينالك بالأذى، فلا هذه ولا تلك من عند زيدٍ أو عُبيد، إنما هما من أمر الله سبحانه وتعالى..

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)

أي أن هذا الإنسان الذي يملك الخيرات بحسب الظاهر لا يستطيع أن يعطيك منها شيئاً إلا أن يأذَنَ الله، وهذا الذي يملك القدرة على الأذى لا يستطيع أن يؤذيك إلا بعد أن يأذن الله ويرضى، إذاً الحقيقة أن علاقتك كلّها بيد الله سبحانه وتعالى، لكن..

((إنّ مِنَ النّاس مَفاتِيح لِلْخَيْر مَغالِيقَ لِلشَرّ، وَإنّ مِنَ النّاس مَفاتِيح لِلشَرّ مَغالِيقَ لِلْخَيْر، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللّهُ مَفاتِيحَ الْخَيْر عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللّهُ مَفاتِيحَ الشَرّ عَلَى يَدَيْهِ))

(سنن بن ماجة عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ)

إذاً:

(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

أي من بطشه، أو من عقابه مشفقون أي يخافون، هذه الآيات شُرِحَت في الدرس الماضي، وقد مررت عليها تمهيداً للآيات التي بعدها، إذاً هؤلاء الملائكة الذين زَعَمَ كفّار قريش، والوثنيون أنهم بناتُ الله سبحانه وتعالى ليسوا كذلك، إنما هم عبادٌ مكرمون أي مقرّبون، أوكل الله إليهم بعض المهمّات التي تتناسب وإمكاناتهم وطبيعتهم، وهم في مرتبة العبوديّة المطلقة..

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

الملائكة عباد طائعون خائفون لا يعصون الله

وهم أيضاً يخافون الله سبحانه وتعالى ويخشون عقابه، والله سبحانه وتعالى مُحِيطٌ بهم إحاطةً كاملة..

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

فهذا الذي يتطاول على مرتبته، ويدّعي أنه إله ـ من باب الفرضيّة ـ هم لا يفعلون ذلك، الملائكة فوق ذلك، إنهم مُنَزّهون، وإنهم مكرّمون، فلا يعصون الله ما أمرهم، ولكن فرضاً..

(وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

فهذا قانون، فالذي يدّعي ما ليس له، والذي يدّعي الألوهيّة، وأن بيده أمور الناس هذا متطاولٌ على مقام الألوهيّة، ولذلك لابدّ من أن يُعذّب في الدنيا والآخرة.

وربنا سبحانه وتعالى بعد هذه الآيات المتعلِّقة بالملائكة بيّن لنا إحدى أكبر الآيات الكونيّة قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

بعض مظاهر الإعجاز العلمي

أحياناً تظهر الآية لنا ظهوراً لتعبّر عن نظريّةٍ لم يتمّ تحقيقها، فمن النظريات ـ وإذا قلت: نظريّة، فمعنى ذلك أنها لم تصبح حقيقة، ولكنها فرضيّة، النظريّة شيء والحقيقة شيءٌ آخر ـ ولذلك لا يمكن لحقائق الدين أن تتناقض مع حقائق العلم، لماذا ؟ لأن الدين من عند الله، ولأن العلم من قوانين الله،

والإله واحد، وهذا خَلقه، وهذا شرعه، فمن المستحيل أن تجد تناقضاً بين القرآن وبين حقائق العِلم، ومن عظمة القرآن الكريم، ومن إعجازه أنه لم توجد حقيقةٌ علميّةٌ منذ أن أُنْزِلَ هذا القرآن على النبي الكريم وحتى الآن تتناقض مع آياته، وهذا مما يؤكِّد أن هذا الكلام كلام الله.

فمن كان يظنُّ أن الإنسان سيصعد إلى الفضاء ؟ وأن الصعود في الفضاء يسبِّب قلّةً في الضغط الجوي، وضيقاً في النفس ؟ الله سبحانه وتعالى أشار إلى هذه الآية قبل أن يغزو الإنسان الفضاء ـ على حدِّ قول الإنسان ـ وماذا غزا من الفضاء ؟ غزا ثانيةً واحدة، بين الأرض والقمر، أما بين الأرض والشمس فثماني دقائق، وطول المجموعة الشمسيّة ثلاث عشرة ساعة، وطول مجرّة درب التَبّانة مئةٌ وخمسون ألف سنة ضوئيّة، بعض المَجَرّات تبعد عنّه ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيّة، فماذا غزا الإنسان ؟ غزا ثانية ضوئيّة واحدة، وملأ الدنيا صياحاً وضجيجاً، وكلّفت هذه الرحلة آلافاً مؤلّفةً من الأموال التي كانت من الممكن أن تسهم في نشر الرخاء على وجه الأرض.

وعلى كلٍ، لا يمكن لحقيقةٍ في القرآن أن تعارض حقيقةً في العلم، ولكن إذا كان هناك تناقض فبين نظريةٍ وبين حقيقةٍ في القرآن، أو بين خرافةٍ في الدين، أو حقيقةٍ في العلم، أو بين نظريّةٍ لم تَثْبُت صحّتها، وبين حقيقةٍ في القرآن، أما أن نجد بين حقائق القرآن، وبين حقائق العِلم تناقضاً فهذا مستحيل، لأن العلم اليقيني الذي وصل الإنسان إليه عن طريق التجربة هو عِلْمٌ ثابت، وهو تعبيرٌ عن خلق الله، وهو تعبيرٌ عن علاقاتٍ ثابتة بين الأشياء، وإن الحقيقة القُرآنية هي وحيٌ من السماء، وهل يُعْقَل أن يتناقض كلام الله مع خَلْقِهِ ؟ مستحيل، لكن هناك علماء في الأصول يُحَذِّرون من أن تَجُرّ الآية إلى تفسير نظريةٍ لم تَثْبُت صحّتها، أو أن تجرّ الحقيقة العلميّة إلى أن تلتقي مع آيةٍ، والآية لها معنىً آخر ما أراده الله سبحانه وتعالى لتكون مطابقةً لهذه الحقيقة.

منشأ الكواكب السيارة

على كلٍ هناك من يَزْعُمُ أن منشأ الأجرام السماويّة، أو أن منشأ الكواكب السيّارة هو دوران كتلة الشمس الشديدة حول ذاتها، فبحكم القوّة النابذة انفلت منها بعض الكواكب ثم تبرّدت فكانت الأرض، فمن يؤمن بهذه النظرية يرى أن هذه الآية تناسب هذه النظريّة:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)

والشيء الغريب هو أنه ما دامت المجموعة الشمسيّة، والشمس كانت جميعاً كتلةً واحدة إذاً ينبغي أن تكون هذه المجموعة من طبيعةٍ واحدة، فلمّا صعد الإنسان إلى القمر وجاء ببعضٍ من تراب القمر، وُجِدَ أن بين تراب القمر، وبين تراب الأرض فَرْقًا في النوع، فهذه العينات من تُراب القمر لم تؤكِّد تلك

النظريّة، والذي يُبْعِدُ أن تكون هذه الآية تأكيداً لهذه النظريّة أن الله سبحانه وتعالى صَدَّرها بقوله الكريم..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

فهذا شيءٌ حصل قبل ألوف ألوف ملايين السنين، قبل أن يُخْلَقَ الإنسان على وجه الأرض، فجواب الذين كفروا على هذا التفسير أنهم لم يروا ذلك، ولكنّ الآية في أوجه تفسيراتها تشير إلى أن السماوات والأرض كانتا رتقاً أي شيئًا متجانسًا، السماء لا تُمطر، والأرض لا تُنبت..

(فَفَتَقْنَاهُمَا)

معنى: فَفَتَقْنَاهُمَا

فتقنا السماء عن المطر، وفتقنا الأرض عن النبات، السماء انفتقت، فنزل منها المطر، والأرض انفتقت فخرج منها النبات، ويُعَدُّ النباتُ أكبر آيةٍ كونيّةٍ تحت سَمْعِ الإنسان وبصره، وتعدُّ ظاهرة النبات أكبر آيةٍ كونيةٍ موضوعةٍ تحت سمع الإنسان وبصره.

ظاهرة النبات

إن النبات داخلٌ في حياتنا دخولاً صميمياً، فأنت تأكل الخُبز وهو من نبات القمح، وتشرب الحليب، والحليب من نتاج الحيوان، والحيوان غذاؤه النبات، وأنت تأكل الخضراوات، والبقول، والمحاصيل، والفواكه، والثمار، وأنت تستخدم الأخشاب في أثاث بيتك، وفي النوافذ والأبواب، والأخشاب من النبات، وأنت تستخدم الدواء ومعظم الدواء من النبات، وأنت تستخدم بعض الحاجات، الليف من النبات، والسِواك من النبات، والخُلّة من النبات، وهناك أشجارٌ تستفيد من جذوعها، ومن أخشابها.

وتعدُّ أنواع الأخشاب بالغة التعقيد، فهناك أخشابٌ لها ميزاتٌ خاصّة، فأخشابٌ لا تتأثّر بالبرد والأمطار، وأخشابٌ ليّنة الاستعمال، وأخشابٌ صَلدة، وأخشابٌ مرنة، فالأخشاب كلُها من ظاهرة النبات، فهناك نباتاتٌ حدوديّة جعلها الله حاجزاً بينك وبين جيرانك، وهناك نباتات الزينة، ونباتاتٌ كالمظلات، ونباتاتٌ تستخدم أخشابها وأخرى جذورها، ومن ثمّ أوراقها، ونباتاتٌ تستخدم أزهارها، فظاهرة النبات تُعَدُّ أخطر ظاهرةٍ، وأوضح آيةٍ بيّنةٍ موضوعةٍ بين يدي الإنسان على وجه الأرض، لذلك:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

هذه الطاولة من النبات، وهذه الوردة من النبات، وهذا السجّاد الذي تجلسون عليه ما كان ليكون كذلك لولا النبات، إنه من الصوف، وهذه الثياب من القطن، فلو استعرضت الحاجات التي تستعملها كل يوم لرأيت النبات يدخل في معظمها، فالفراش الوثير، واللحاف الذي تتغطّى به، وكل حاجةٍ تقريباً أصلُها من النبات..

(أوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوا)

أليست هذه الآية أمامهم ؟ أليست هذه الآية تحت سمعهم وبصرهم ؟ أو أليست هذه الآية في متناول حواسِّهم ؟ أي واضحة أمامهم ؟ وداخلة في حياتهم حيثُما كانوا ؟ ودائرة معهم حيثما داروا..

(أوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوا أنّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً)

هذه الأرض البُنية اللون كيف أصبحت في الربيع ذات بساطٍ أخضر يبعث البهجة في النفس ؟ فمن أين جاءت هذه الأزهار ؟ عدد الحشائش لا يعلمها إلا الله، وأنواع الحشائش التي تظهر في فصل الربيع لا يعلمها إلا الله، عدد الأزهار ـ أزهار الزينة ـ لا يعلمها إلا الله، من أين جاءت ؟ على اختلاف أشكالها، وألوانها، وروائحها، وطبائعها، وخصائصها، وبُنيتها، وأزهارها، وأوراقها، وثمارها..

(أوَلَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوا أنّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً)

لو أن السماء بقيت رتقاً فلم تنفتق عن المطر ماذا حلّ بنا ؟ فأقطارٌ في قارّة إفريقيا أصابها الجفاف سبع سنواتٍ متتالية، ولم يبقَ فيها شيء، وجميع الأشجار ماتت ويبست، وجميع النباتات أصبحت كالهشيم، وتبعتها الحيوانات، وتبعها الإنسان، والبقيّة الباقية هاجرت إلى أقطارٍ أخرى، ماذا كان من الممكن أن يكون لولا الماء الذي انفتقت عنه السماء ؟ إن الله عزّ وجل جعل من الماء كل شيءٍ حي، ومع ذلك فقد قلت لكم في خطبةٍ سابقة إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبّكَ إلّا هُوَ)

(سورة المدثر: من آية " 31 ")

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبّكَ إلّا هُوَ

يتحدّثون عن الجراد، والجراد يستطيع أن يأكل كل يوم بقدر وزنه تماماً، فإذا كان هناك بعض أسراب الجراد التي يزيد وزنها عن ثمانين ألف طن، إنها تأكل في اليوم ثمانين ألف طن، وإن الكيلو متر مربّع من أسراب الجراد يَعُدُّ مئتي مليون جرادة، إذ هناك إحصائيّاتٌ خطيرة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبّكَ إلّا هُوَ)

قد يأتي الجراد إلى بلد فيؤخّرَهُ ثلاثين عاماً، أي لا تعود النباتات إلى ما كانت عليه إلا بعد ثلاثين عاماً، اللهمّ اصرف عنّا الجراد والوباء يا ربّ العالمين..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

ظاهرة الماء وخصائصه وأهميته

هذا الماء تلك الآية العظيمة، هل فكّرت في خصائصه ؟ وهل فكّرت لماذا كان الماءُ لا لون له ؟ ولماذا كان الماء لا طعم له ؟ و لا رائحة له ؟ ويتبخّر بدرجة أربع عشرة ؟ ولماذا كان الماء ذا سيولةٍ دقيقة بحيث ينفُذُ في أدقّ المَسام ؟ ولماذا كان الماء يتمدّد في التسخين، وينكمش في التبريد إلا في درجة واحدة تنعكس معها الآية ؟ لماذا يتمدّد الماء في الدرجة زائد أربع ؟ لولا هذه الظاهرة لما بقي مخلوقٌ على وجه الأرض أبداً، ولأصبحت البحار محيطاتٍ متجمِّدة، ولانعدم التبخُّر، ولانعدم هطول الأمطار، ولمات النبات، وتبعه الحيوان وكان الإنسان مصيره الهلاك، فلو أن الماء لا يتمدّد في الدرجة زائد أربع، هذا الماء بهذه الخصائص.

لماذا تثبُتُ درجة غليان الماء ؟ الزيت ليس كذلك، إنّ درجته ترتفع إلى أرقامٍ عالية، بينما الماء لو استمرّ يغلي عشرات الساعات لا تزيد حرارته عن مئة درجة، فدرجة غليانه، هي درجة تبخُّره، ثم إن درجة ذوبانه، هي درجة تجمُّده، ودرجة انكماشه، درجة توَسُّعه، لا لون له، ولا طعم، ولا ورائحة، له خاصة نفوذيته، من جعل الماء بهذه الصفات ؟

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

من منّا يُصدِّق أن سبعين بالمئة من وزن الإنسان ماء، ومن منّا يصدق أن بعض الفواكه سبعةٌ وتسعون بالمئة من وزنها ماء، فالبطيخ ماء مجمّد، ولكنه مجمّد لا على أساس التبريد، بل على أساس التكوين، فهذا البطيخ ماءٌ مجمّد مُحَلّى، فيه مواد مفيدة، وفيه معادن، وفيتامينات، وفيه مواد سكرّية، ومجمّد من دون تبريد، فلذلك أراد ربنا عزّ وجل أن يلفِتَ النظر إلى أن الماء أساس الحياة، وأن الإنسان لا يستغني عن الماء أكثر من أيامٍ ثلاثة، وبعدها يموت، ولا يستغني عن الهواء أكثر من دقائق ثلاث، وبعدها يموت، ولذلك فالهواء في كل مكان، والماء في أماكن متفرّقة، أما الطعام فقد يستغني عنه الإنسان أيّاماً عديدة تزيد على ثلاثين يوماً، ولذلك يحتاج الطعام إلى كَسْب، أما الماء والهواء فهو مبذولٌ لجميع الناس من دون ثمن.

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

أليست هذه الآية كافية ؟

اطلعت مرّة على كتاب مؤلّف من ثمانية عشرَ جزءًا، كل جزءٍ تزيد أوراقه على ثمانمئة صفحة، وفي كل صفحة صورةٌ لوردةٍ تختلف عن أختها، فإذا كان الكتاب ثمانية عشر جزءًا، وكل جزء فيه ثمانمئة صفحة، وكل صفحة نباتٌ يسبّح الخالق، إذاً هذه النباتات كلُّها من أجل إمتاع النظر، لا من أجل القوت، أليس هذا إكراماً إلهياً ؟ أليس في هذا تودُّدٌ للإنسان ؟ أليس هذا مسخّراً للإنسان ؟ فالإنسان حينما يرى أن الله سبحانه وتعالى كرّمه..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء:70)

كم أنواع الشراب الذي تشربه ؟ وكم أنواع الطعام الذي تأكله ؟ وكم أنواع الفواكه التي خلقها الله سبحانه وتعالى، كم ؟ كم هي كثيرة !

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ

ماذا ينتظر الإنسان حتى يؤمن ؟

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (31) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(32))

(سورة عبس:32)

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور:35)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف:105)

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

ظاهرة الجبال

هذه السلاسل الجبليّة العظيمة كيف جعل الله في منتصفها سُبُلاً، ومضائق، وممرّات ؟ فلولا هذا لكان انتقال الناس من سَفْحٍ إلى آخر شيئاً مستحيلاً، فإذا وجدت الجبلين بينهما وادٍ هكذا، أو بينهما ممر جبلي،

فليس هذا مصادفة إنه آيةٌ واضحةٌ على رحمة الله بالإنسان..

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

أمّا أن تكون الجبال رواسي أن تميدَ بهم، فلأن الجبال جعلها الله سبحانه وتعالى في أماكن دقيقة جداً من الأرض، بحيث إذا دارت الأرض حول نفسها دورةً سريعة كانت محصّلِة هذا الدوران استقراراً، آيةٌ من آيات الله العُظمى..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: من آية " 61 ")

من جعلها ساكنة ؟ لو أن هناك اضطراباً طفيفاً لما بقي هذا المسجد على ما هو عليه، ولم يبقَ على وجه الأرض بناء، ولو لا أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض قراراً، مستقرّةً مع حركةٍ تأخذ بالألباب، ونحن جئنا إلى هذا المسجد، وبدأ الدرس في تمام الساعة الثامنة وخمس دقائق تقريباً، والآن الساعة الثامنة وخمسٌ وثلاثون دقيقة، فقد مضى على بدء الدرس ثلاثون دقيقة، من منكم يصدّق كم من الكيلو مترات قطعتها الأرض في هذه النصف ساعة ؟! في كل ثانيةٍ تقطع الأرض ثلاثين كيلو متراً، فبالدقيقة ثلاثين في ستين، أي ألف وثمانمئة، ففي الثلاثين دقيقة ألف وثمانمئة ضرب ثلاثين، ألف وثمانمئة إلى عشرة، ثمانية عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألفاً في ثمانية عشر ألفاً، أربعة وخمسون ألف كيلو متر قطعت الأرض منذ أن بدأت كلامي وحتى الآن..

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ)

الأرض تنتقل حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، وفي دورتها حول نفسها بسرعة ألف وست مئة كيلو متر في الساعة، إذاً هذه الدورة وهذه الحركة تحتاج إلى استقرار..

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: من آية " 61 ")

تجد بناء يقول لك: هذا مُعَمّر من ثمانين سنة، ما فيه ولا شَق، فما معنى ما فيه شق ؟ أي لا يوجد اهتزاز، لأن أي اهتزازٍ أصاب الأرض لكان أثره واضحاً في الأبنية.

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ)

مرّة أوضحت ذلك، أن العجلة التي يصنعها الإنسان، مهما كان القالب التي صُبّت فيه هذه العجلة دقيقاً محكماً متوازناً، لابدّ لهذه العجلة من أن تضطرب على السرعات العالية، يأتي الإنسان ويضع هذه العجلة في الميزان، فيخبره الميزان أنها في هذا المكان تحتاج إلى قطعةٍ من الرصاص مقدارها خمسون غراماً، توضع هذه القطعة في العجلة، فإذا دارت العجلة بسرعةٍ بالغة بقيت مستقرّةً دون اضطراب، فهذا المثل اللطيف يمكن أن يُطبّق على الأرض.

الأرض فجاج وسبل ممهّدة للسير

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

الفجاج أي الطرُق بين الجبال..

(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

إلى أهدافهم وإلى ربّهم، لعلّ هذه الجبال الشامخة، وهذه الأرض المستقرّة، والسماوات المنفتقة عن الأمطار، والأرض المنفتقة عن النبات، لعلّ في هذا دليلاً قاطعاً على وجود الله، وعلى عظمته، وتربيته، وتدبيره، ومَحَبَّته، وإكرامه..

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)

عظمة خلق السماوات

هذه السماء سقف، قال العلماء: محفوظة من أن تُنَالَ بأذى، أو محفوظة من أن تتبدّل طبيعتها، فيكفي أن تعلموا أن في الجو طبقةً من الأوزون، هذه الطبقة لا تزيد سماكتها عن الميليمترات، هذه الطبقة تمنع وصول الأشعّة التي تؤذي الإنسان، فالأشعّة الشمسيّة فوق هذه الطبقة تؤذي الإنسان، ولكنّها بعد هذه الطبقة لا تؤذيه، وإنّ هذه السماء كأنّها سقفٌ محفوظٌ، أي حافظٌ للإنسان محفوظةٌ من أن تُمَسّ بأذى، ومن أن تتبدّل طبيعتها..

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)

عن آيات السماء، وعن مذنّباتها، فالمذنّبات آية، والكويْكبات آية، والنيازك آية، والثقوب السوداء آية، والكازارات آية، والمجرّات آية، والنجوم آية، والكواكب آية، والأقمار آية، وحركة الكواكب آية، والتجاذُب فيما بين الكواكب آية، وقانون الجاذبيّة آية..

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا)

السماء لها آيات، هي آيةٌ واحدة ولها آياتٌ كثيرة..

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(33))

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ)

آية الليل والنهار

الليل يُخْلَق، ومن آياته الليل والنهار، الليل والنهار من دوران الأرض حول نفسها، والليل والنهار آيةٌ عُظمى على رحمة الله بالإنسان، ساعةُ نومٍ في الليل لا تعدلها ثلاث ساعاتٍ في النهار لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الليل سَكَنَاً، وجعل الليل مُظلماً، وجعل الكائنات كلِّها تأوي إلى أوكارها في الليل، ولذلك إذا استيقظ الإنسان في منتصف الليل يُحسُّ بسكونٍ يُخَدِّرُ الأعصاب، هذا هو الجو المناسب للنوم، أصواتٌ قليلة وضوءٌ خافت، أمـا النوم في النهار فقلّما يرتاح الإنسان فيه، فالليل جعله الله سكناً، وجعله سِتْراً، يقول لك: لو نقلنا الليل، فالإنسان له أغراض بعضها مقبول، وبعضها غير مقبول، جعل الله الليل ستراً، وجعله سكناً، وجعله وقتاً مناسباً لمناجاة الله عزّ وجل، لذلك:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة القدر:1)

(رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ)

(سورة المزمل: من آية " 20 ")

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)

(سورة الإسراء: من آية " 1 ")

الليل مناسبة للعبادة والمناجاة

جعل الله الليل مناسباً لمناجاته، مناسباً لعبادته، وذكره وتلاوة كتابه.. وفي الحديث:

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

(صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ)

فقم في الدجى لا تخشَ وحشة

***

هؤلاء الذين يمشون إلى المساجد في الليل هؤلاء في أعين الله، وهؤلاء لهم عند الله أجرٌ كبير، فلذلك يقول ربنا عزّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

هذا الضياء، وهذه الحرارة، وهذه الشمس التي تبعث الدفء والنور والتطهير للأجسام فهذه من آيات الله العُظمى، ولذلك قالوا: **" كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت "..**

الليل مـهـما طـال فلابدّ من طلوع الفجر

والعمر مـهما طـال فلابدّ مـن نزول القبر

* * *

ولو أن لا يوجد ليل ونهار، فيسألك أحدهم: كم عمرك ؟ فتجب: لا أعرف، ولكن بوجود الليل والنهار صار أيام الأسبوع ؛ السبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وأسبوع، أربعة أسابيع، شهر، ثلاثة أشهر، فصل، أربعة فصول سنة، أربع سنوات سنة، العقد الأول، يقول لك: أنا ولدت في الأربعينات، وهذا بالخمسينات، وثالث بالستينات، ورابع بالسبعينات، وخامس بالثمانينات، وسادس بالتسعينات، وعندنا قرن، وبعد القرن يوجد حِقَب، وبعده ذلك:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن)

فلولا دورة الأرض حول نفسها لما كان الليل والنهار، ولما كان الزمن.

إذاً الليل سَكَن، والنهار للكسب، والليل مأوى، والليل ستر، والليل ذكرى، والنهار لنعلم عدد السنين والحساب..

(وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ)

هذه الشمس التي تكبُر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، أي أن مليون أرض وثلاثمئة ألف أرض تدخل في جَوف الشمس، والشمس حرارتها في نواتها أكثر من عشرين مليون درجة، بينما حرارتها على سطحها تزيد على ستّة آلاف درجة، أما ألسنة اللهب المُنْبَعِثَة منها فيزيد طول بعضها على مليون كيلو متر، والشمس مُتَوَقِدةٌ بتقدير بعض علماء الفلك منذ خمسة آلاف مليون سنة، ولو أن الأرض ألقيت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة.

(وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

يقول لك: الطاقة الشمسيّة، الآن هناك أجهزة كثيرة للتسخين على الطاقة الشمسيّة، فهناك سيّارات تتحرّك على الطاقة الشمسيّة، وهناك مواقد تعمل على الطاقة الشمسيَة، عن طريق مرآة مُقَعَّرة ولها مكان تضع عليها القدر، وهذه المرآة بحسب أشعّة الشمس، وانعكاسها، ومِحْرَق هذه المرآة المقعّرة تستطيع أن تسخِّن الماء، وأن تطهي الطعام، إذاً هذه الشمس شيءٌ عظيمٌ جداً..

(وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

الكواكب: كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

فكلمة كلٌ نَكِرَة، العلماء استنبطوا أن هذه الآية تنطبق على الذرّة، وعلى المجرّة، بدءاً من الذرّة، وانتهاءً بالمجرّة، نظام الكون يقوم على أن كل جرمٍ فيه يسبح في فَلَكٍ حول نواته، لماذا ؟ لو لا أن الكواكب تتحرّك في مساراتٍ بيضاويّةٍ أو دائريّة حول كواكب أخرى لأصبح الكون كلّه كتلة واحدة، لأن هذه الحركة ينتج عنها قِوىً نابذة، وهذه القُوى النابذة محسوبةٌ حساباً دقيقاً كي تكافئ القِوى الجاذبة، كل جرمٍ سماوي ينجذب إلى جرمٍ آخر، فلماذا ؟ لأنه يدور، وماذا إذا دار ؟ من دورته تنشأ قوّةٌ نابذة، هو ينجذب إلى النواة، ومن دورته تنشأ قوّةٌ نابذة، ومن توازن قِوى الجذب مع قِوى النبذ ينشأ هذا الاستقرار الحركي، فلذلك:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

فكل كوكبٍ له مسارٌ حول كوكبٍ آخر، وشيءٌ لا يُصدّق أن هذا الكون مستقرُ على مبدأ التجاذب، تجاذب حركي، فالكوكب ينجذب بحسب الكُتلة، وبحسب مُربَّع المسافة والسرعة، وبحسب أشياء كثيرة كلُّها متداخلة والمُحَصِّلة استقرارٌ في الكون، هذه:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: من آية " 61 ")

وتوجد آية قرآنيّة أخرى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

هناك عمد، لكنّ هذا العمود لا ترونها، ما قولك أن يُنْشَأ بناءٌ من مئة طابق بعيدٌ عن الأرض مسافة خمسين متراً، من دون أعمدة ؟ هذا فوق طاقة البشر، فهناك أعمدة ولكنّها شَفّافة تخترقها، هكذا:

(بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

هناك عَمَد، فالقمر مجذوبٌ إلى الأرض بما يساوي كبلاً فولاذياً مضفوراً قطرُه خمسون كيلو متراً، ولو كان ربنا عزّ وجل رَبَط القمر بالأرض بكبلٍ فولاذي، وربط الأرض بالشمس بكبلٍ أكبر، والشمس بالقمر بواحد، لرأيت السماء شبكة سوداء، وهذا شيءٌ مستحيل، إنه قال:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

أي أنها بعَمَدٍ ولكنّكم لا ترونها، وهذه قِوى التجاذب، إنه شيءٌ لا يُصدّق، من آيات الله الكُبرى الدالّة على عظمته.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ(34))

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ

إنّ كفّار قريش تَمَنّوا أن يموت النبي عليه الصلاة والسلام فتنتهي دعوته، وتنتهي هذه الرسالة، وتنتهي هذه المشكلة، فهم ينتظرون موته، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ)

أتكون الشماتةُ بالموت ؟ لأن الناس جميعاً سيموتون، والقائلون سيموتون..

(أفإنْ مِتّ فهُمُ الْخَالِدُونَ)

والإنسان أحياناً يمشي في جنازة فيقول لك: مسكين لقد مات، وكأنه هو لا يموت، مسكين، وأنت مسكين كذلك، أمر محتوم..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ)

(سورة القصص: من آية " 88 ")

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

(سورة الرحمن:26)

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنّك بـعدها محمولُ

* * *

(أفإنْ مِتّ فهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بالشّرّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإلَيْنَا تُرْجَعُونَ(35))

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

لا تبقى إلا المواقف، الخير يزول والشر يزول، هناك قولٌ دقيقٌ جداً:**" فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر ".**

لماذا ؟ لأنك لو أنشأت مسجداً، وصلّى فيه الناس إلى يوم القيامة، بعدئذٍ سوف ينتهي هذا المسجد ولكن ما الذي يبقى ؟ هذا العمل الطيّب الذي تسعد به إلى الأبد، ولو أنّك أنشأت دار أيتام، أو سُبْلاناً للماء، وأطعمت الناس، كل هذه الأفعال الطيّبة على عِظَم شأنها تنتهي مع نهاية الحياة، وكل الأفعال الشريرة

مهما تكن شريرة تنتهي مع نهاية الإنسان، فما الذي يبقى ؟ تبقى نيّة الخير، ونيّة فعل الخير، بهذه النيّة تسعد إلى الأبد، وتبقى نيّة فعل الشر، وبهذه النيّة يشقى بها الإنسان إلى الأبد، ولذلك: **" فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر "..**

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

أصول الابتلاء: الخير والشر

أحياناً يبتلي الله عزّ وجل الإنسان بالخير، فيعطيه مالاً، أينسى الله عزّ وجل ؟ أيستعلي به على خلق الله ؟ أيمسكه ؟ أيبخل به ؟ أينسيه دينه كما فعل ثَعْلَبَة ؟ وأحياناً الإنسان يُبْتَلى بالفقر، أيكفر ؟ أيعترض ؟ أيَلِجّ أم ماذا يقول ؟ والإنسان يُبتلى بالزوجة، بزوجة صالحة، أو بزوجة سيّئة، ويبتلى بعمل مريح، أو بعمل مُتعب، ويبتلى بجار طيّب، أو بجار سيئ، وبصحّةٍ طيّبة فهل قوي بها على طاعة الله ؟ أو بمرضٍ فهل صبر فيه على قضاء الله ؟.

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

أي أن الشر والخير يظهرانكم على حقيقتكم..

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً)

سنة الكفار الاستهزاءُ بالأنبياء والدعاة

فإذا اسْتُهْزِئَ بمؤمن فله في النبي أسوةٌ حسنة، سيّد الخلق وحبيب الحق، الذي قال الله عنه:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم:4)

ونوح عليه السلام استهزأ به قومه..

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

(سورة هود:38)

فالبطولة للساخر الأخير، وليس للأول، فالإنسان أحياناً يسخر من أهل الإيمان لجهله ولعدم معرفته..

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين:34)

(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111))

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

(سورة المؤمنون)

فالبطولة للأخير، لمن يسخر آخر الأمر لا لمن يُسْخَرُ منه أول الأمر..

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

(أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)

إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين عبادتهم لأصنامهم

أي أن هذه الآلهة التي صنعوها من تمْر، أو من حجارة، أو من خشب لأن النبي عليه الصلاة والسلام نبّههم إلى أنها لن تكون آلهة، إنها من صنع أيديهم، هؤلاء غضبوا وقالوا:

(أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ)

أي بسوء..

(وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام وجّه نظرهم إلى أن هذه الأصنام من صنع أيديهم، وانزعجوا، وزمجروا، وثاروا، وغضبوا، وهم لا يغضبون حينما يكفرون بالرحمن خالق كل شيء..

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

الإنسان مطبوع على العجلة والضعف

هناك آياتٌ ثلاث تؤكد ذلك: الأولى:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

وضعفه لمصلحته، لو أن الله سبحانه وتعالى خلقه قويا لاستغنى بقوّته فشقي باستغنائه عن الله.

والثانية:

(إنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

ولأنه خُلِقَ هلوعاً إنه شديد الإنابة إلى الله، لو لم يكن هلوعاً لما التجأ إلى الله عزّ وجل، لكنّه هلوع يخاف كثيراً فيأوي إلى الله سريعاً.

والثالثة:

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

ومعنى عجولا أي طبيعته يحبُّ أن يأخذ الشيء القريب، ويدع الشيء البعيد، فإذا خالف الإنسان طبيعة نفسه، وآثر الآخرة على الدنيا فعندئذٍ يرقى عند الله سبحانه وتعالى، يرقى بمخالفة طبيعة بُنْيَتِهِ..

(وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الهوى يدعوك أن تأكل هذه الأكلة، ولكنّها من حرام، والهوى يدعوك أن تجلس هذه الجلسة وفيها مُنكرات، وأن تذهب لهذه الرحلة وفيها معصية الله سبحانه وتعالى، وأن تأخذ هذا المبلغ وهو من حرام، فالإنسان لأنه خُلِقَ عجولاً يسعدُ بعمله الصالح إلى الأبد، لماذا ؟ لأن عمله الصالح يكون مدافعةً لطبيعة نفسه، ولولا هذه المدافعة والمشادّة بينه وبين نفسه لما كان لهذا العمل الصالح من عظيم أجرٍ وعظيم ثواب، إذاً:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

وضعفه لمصلحة إيمانه، و خلق الإنسان..

(إنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

وأن يكون هلوعاً لمصلحة إيمانه.

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

وأن يكون عجولاً لمصلحة إيمانه. ولو أن الله خلقه ليس بعجول فاختار الدنيا وفق طبيعته هكذا، أما الإنسان فيمشي في طريق مريح، ويَدَع الطريق الوعر، فهل له أجر ؟ لا ليس له أجر، لأن طبيعة الإنسان هكذا، أما عندما يخالف الإنسان هوى نفسه يرقى عند الله سبحانه وتعالى، فالله عزّ وجل خلقنا في الدنيا كي نرقى إليه بعملٍ طيبٍ يُكَلِّفُنا جهداً ومخالفةً لطبيعتنا..

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ

والعلماء قالوا: معنى الآيات هنا وعدُ الله ووعيده، أي أن الله وعد المرابي بمحق المال، فيقول هذا المرابي ؟ متى هذا الوعد ؟ ومتى سيُمْحَق مالي ؟ وعندي آلاف مؤلّفة لا تأكلها النيران، يسخر، يستهزئ، وهذا السؤال ليس سؤال استفهام إنما هو سؤال سُخْرِيَة..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

والله عزّ وجل قال:

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

وعد الله واقعٌ لا محالة، ووعيد الله واقعٌ لا محالة، قل: إن لكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أيضاً هنا يستهزئون..

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

مصير المستهزئين بالأنبياء والدعاة

فهذا الذي يستهزئ بوعيد الله لو يعلم حالته يوم يأتي هذا الوعيد ويُلقى في النار، كيف أن النار تلفح وجهه، وكيف أنه يعضُ على إصبعه، وكيف أنه يقول:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)

(سورة الفرقان)

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر)

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

مصير المستهزئين بالأنبياء والدعاة

أي أن الساعة، ساعة العقاب، أو ساعة الموت، أو ساعة الحريق تأتيهم بغتة فتبهتهم، ولذلك فالمؤمن وحده يُعِدُّ نفسه للموت منذ معرفته بالله عزّ وجل، ويعلم علم اليقين أن هذه الساعة في حقِّه ساعةٌ مباركة، وأن عُرْسَهُ في هذه الساعة، وأن هذه الساعة ساعة انتقالٍ من ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الآخرة،

ومن هموم الحياة إلى نعيم الآخرة، من الابتلاء إلى الجزاء، ومـن التكليف إلى التشريف، ومن التعب إلى الرخاء، ومن الهَم إلى الطمأنينة، أي أن كل الخير بعد الموت، فالمؤمن يعرف ذلك، وينتظر ذلك، ويعدُّ العُدّة لهذه الساعة، ولكنّ الكافر وضع كل اهتمامه في الدنيا، وكل آماله في الدنيا، وكل طاقاته وكل إمكاناته في الدنيا، فإذا أُخِذَ منها فجأةً كان أخذه منها كالصاعقة، ولذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة الزخرف)

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

هذا الاستهزاء نفسه كان مدمِّراً لهم، فقد أحاط بهم ودمّرهم، فالإنسان يتأدّب مع الله سبحانه وتعالى، ومع كتابه، ومع رسله، ومع من لهم صِفَةٌ دينية، ليجعل سخريّته في موضوعاتٍ أخرى، أما أن يجعل الأمور المُقَدّسة موضوعاتٍ لسخريته فربّما كانت هذه السخرية نفسها مدمِّرةً له..

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

كتب أحدهم مصحفاً في ثلاثة أيّام، فلمّا دُهِش إنسان أنه كُتِب في ثلاثة أيام قال الكاتب مستكبراً: " وما مسّنا من لغوب "، أي أنه أعطى نفسه صفة الإله، فشُلّت يمينه على الفور، كلام الله لا يُسْتَهْزأ به، ولا يُستعار لذاته، من أنت ؟ فالإنسان إذا أنجز إنجازاً يقول: الحمد لله الذي وفّقني لهذا العمل، وإذا حقّق الله عزّ وجل له آماله فيقول: الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، إذا رزقه الله عزّ وجل زوجة صالحة وبيتاً وأولاد كلّما دخل البيت يقول: الحمد لله رب العالمين، هذه نعمة الله، وهذا من فضل ربي، هكذا المؤمن.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ(43))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 42 - 70
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-05-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الأنبياء، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

حفظُ الله عبادَه بالليل والنهار

يكلؤكم بمعنى يحفظكم، من الذي يحفظكم ؟ يحفظ أجهزتكم، وصحتكم، وأولادكم، وأهلكم، وأموالكم، لابدّ من رحمةٍ وعنايةٍ وحفظٍ من قبل الله عزّ وجل.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ)

هل في الأرض كلِها جهةٌ تستطيع أن تحفظكم ؟ لأن أجهزة الإنسان بيد الله عزّ وجل، أن تعمل بانتظام من دون خلل فهذا بإذن الله، وهذا بقدرة الله، ولثالث برعاية الله، والرابع بحفظ الله..

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

(سورة الطارق: 4)

وربنا عزّ وجل يقول:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف:64)

آلاف القصص التي أسمعها من كل أخٍ كريم أن الله عزّ وجل حفظ مالي من التلف، وحفظ ابني من حادثٍ مروع، ورعى زوجتي من عمليةٍ جراحية خطيرة، ولولا أن الولادة تمت في الوقت المناسب، وصان صحتي من الخلل، هذا الذي يحفظكم، يحفظ كل شيءٍ متعلقٍ فيه، مَن ؟ الله سبحانه وتعالى.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة يوسف:64)

الأدلة من القرآن الكريم:

لقد علّمنا الله سبحانه وتعالى كيف نستعيذ به..

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3))

(سورة الفلق)

الشيطان إذا دخل نفس الإنسان..

(وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق)

وعلمنا أن نستعيذ به في سورةٍ أخرى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ(6))

(سورة الناس)

الأدلة من السنة النبوية:

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه يقول:

((اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَا وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ))

(من صحيح البخاري: عن " البراء بن عازب ")

وعلمنا أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام أن نقول:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

(من سنن الترمذي: عن " أنس بن مالك ")

وعلمنا النبي عليه الصلاة السلام في أدعيته أن نقول:

((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ))

(من صحيح البخاري: عن " شداد بن أوس ")

وحينما يلتجئ الإنسان إلى الله عزّ وجل يحفظه الله،

((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء))

[الجامع الصغير عن واثلة بن الأسقع]

هذه الاستعاذة إن كانت بآيات القرآن الكريم التي وردت في معرض الاستعاذة والالتجاء، أو كانت في الأحاديث الشريفة التي وردت في معرض الالتجاء والاستعاذة، فهذه كلها إذا قرأها الإنسان وقلبه

حاضر، ونفسه طاهرة، وعمله مستقيم، فإن الله سبحانه وتعالى يحفظه من كل شر، فهل في الكون جهةٌ بقدرتها أن تحفظكم إذا سألتموها الحفظ ؟

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

إن الإنسان أحياناً تحمل زوجته وهي على وشك الوضع، فترى الزوج يلجأ إلى الله عزّ وجل أن يكون المولود سليماً، فإذا جاء المولود سليماً فهذا بفضل الله عزّ وجل، وإذا جاء مشوّهَاً أو فيه خلل فتجده ينفق آلاف الآلاف من أجل أن يعود بشكلٍ صحيح، وقد يكون هذا غير ممكن.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ)

رحمة الله تقتضي حفظ العباد

لم يقل الله سبحانه وتعالى من الخالق، بل قال:

(مِنَ الرَّحْمَنِ)

لأن الله سبحانه وتعالى برحمته يكلؤكم، لأنه رحمنٌ رحيمٌ يحفظكم، لأنه رحمنٌ رحيمٌ يقيكم من شر ما خلق، فكلمة الرحمن هنا جاءت مُنَاسِبَةً للحفظ والرعاية، أي أنه إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ولكن الله سبحانه وتعالى بين لنا أن مَعِيَّتَهُ لها قانون..

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

إعراض العباد عن ذكر الله

فيُقبل على الدنيا، ويُقبل على مصالحه، وتجارته، وما يَعْنِيه منها، وبيته، أما إذا ذُكِرَ بربه فإنه يعرض عنه، وإذا دُعي إلى مجلس علم فإنه يعتذر، وإذا دعي إلى عملٍ صالح يدّعي أنه متعب، أما إذا دعي إلى صفقةٍ أو إلى شراء أرضٍ أو إلى شراء حانوتٍ، أو إلى رحلةٍ ممتعةٍ فإنه لا ينام الليل..

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

" يا رب كيف أشكرك ؟ "، **قال: يا موسى تذكرني ولا تنساني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني "**، أي أنه بمجرد أن تذكرني فأنت شاكرٌ لي، فإذا ما نسيتني كفرتني.

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

والله سبحانه وتعالى يقول:

(ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أعْمَى)

(سورة طه)

هذا قانون..

(ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري)

(مَنْ) اسم شرط جازم يأتي بعدها فعلان، يقع الثاني حتماً إذا وقع الأول، هذا معنى الشرط

(ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري)

هذا فعل الشرط:

(فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

معيشة شقية، ولو كنت من أصحاب الملايين، ولو كنت من أقوى الناس، لأن الله سبحانه وتعالى يَسْلُبُ المُعْرِضَ السعادة، ويبقي له الضيق، والقلق، والحيرة، والقهر..

(ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ)

(سورة الصافات)

أما المؤمن فإذا ذُكِّرَ يذكر، إذا ذُكِّرَ بآيات ربه خر لله ساجداً، إذا ذكر بأمرٍ إلهي نفّذه، وبنهيٍ تركه، وبعبادةٍ قام إليها، وبمجلس علمٍ بادر إليه، وبالقرآن قرأه.

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ)

هؤلاء الذين أعرضوا عن ذكر الله فعلى أي شيءٍ يعتمدون ؟ وإلى أي قوةٍ يستندون ؟.

(أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا)

نظام جسم الإنسان تحت رحمة الله

فهؤلاء الكفار، هؤلاء الفجار حينما أعرضوا عن ذكر الله، وحينما استغنوا عن رحمته، هل لهم قوةٌ تمنعهم من الله عزّ وجل ؟ هذا سؤال، أي أن هذا الكافر المُعرض على أي شيءٍ يستند ؟ إن كل عقله متوقفٌ على سلامة شرايين المُخ، فإذا تجمدت نقطة دمٍ في أحد شرايين المخُ دخل مستشفى الأمراض العقلية، أو أصيب بالشلل، أو أصيب بالعمى، كل قوة الإنسان نابعة من حِفْظِ الله له، فلو أن شرياناً صغيراً، أو وعاءً شعرياً تجمدت فيه قطرة دمٍ لاختل توازنه، ولفقد ذاكرته، وبصره، وسمعه، ومحاكمَته، وحركته، وقوته، فعلى أي شـيءٍ تعتمد ؟

أيّ غدةٍ من غدد الإنسان لو أنها قصّرت أو نشطت أكثر مما يجب، تصبح حياة الإنسان جحيماً، فهذه الغدة الدرقية لو أنها قصّرت لأصيب الإنسان بالتكاسل، ولو أنها نشطت أكثر مما ينبغي لأصبحت حياة الإنسان قلقةً لا ينام الليل، لفرط توتُّره ونشاطه، وهذه الغدة النخامية، غدة الكظر، فمراكز بالإنسان معقدة جداً، فمركز توازن السوائل لو اختل لشربَ الإنسان في اليوم مئات اللترات من الماء، ولطرحها في البول فوراً، ولابدّ له أن يقيم إلى جانب صنبور ماءٍ، وإلى جانب دورة مياه، لو أن غدةً صغيرةً اختل توازنها.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار)

الكبد يفرز هرمون التجلُّط، وهرمون التميُّع، ومن إفراز هذين الهرمونين بشكلٍ متوازن ترون الدم على وضعه الطبيعي، فيه سيولة بين التجلُّط وبين التميُّع، ولو أن هرمون التميع زاد قليلاً لخسر الإنسان دمه من جُرْحٍ بسيط، أو لو أن هرمون التجلط زاد قليلاً لمات فوراً بجلطةٍ فجعل الدم كله كالوحل في شرايينه وأوردته..

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار)

ولو أن الإنسان التهبت القنوات النصف دائرية في أذنيه لا يستطيع أن يمشي على قدميه، بل يحتاج إلى من يمسكه، ويفقد توازنه، والتوازن نعمة من نعم الله الكُبرى.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار)

فمن أمّنَ لك التوازن ؟ ومن الذي جعل هذه الأجهزة تعمل بانتظام ؟ تأكل اللُّقمة، فاللعاب فيه مواد هاضمة، ولسان المزمار لولا أنه يعمل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، وطريق الهواء وطريق الطعام، وهذا اللسان إذا أردت أن تأكل يُغْلِقَ طريق الهواء ويفتح طريق المريء، فإذا أردت أن تتكلم أغلق طريق المريء وفتح طريق الهواء، ولو اختل عمله قليلاً لمات الإنسان، ولو دخل إلى رئتيه بعضٌ الماء لأصبحت حالته خطيرة، فلولا أن الله سبحانه وتعالى جعل في هذه الرغامى، القصبة الهوائية أشعاراً تطرد المواد الغريبة نحو الأعلى، وهذا هو القشع لما استقامت حياة الإنسان، ولولا أن المريء مزود بعضلات دائرية تسوقُ اللقمة من الأعلى إلى الأسفل، فالإنسان وهو نائم يأكل، والطعام يمشي في المريء، ولو علق من رجليه وأطعمته لقمةً تنطلق نحو الأعلى بفضل هذه العضلات التي تتقلّص تباعاً.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار)

فالإنسان ينام، لكن لسان المزمار لا ينام، وكلّما تجمّع الريق في فمه، وهو نائم يأتي أمر من الدماغ إلى لسان المزمار بإغلاق القصبة الهوائية وفتح المريء، فيقال: بلع ريقه وهو نائم، وكل فترة يحس على حاله، وهذان الجفنان يرفّان بشكل منتظم، ست عشرة حركة في الدقيقة، أنت لا تدري، فكلما تشكّل على

القرنية غبارٌ أو شيءٌ غريب جاء الجفن ومسح هذه القرنية، وجعل هذه الأجفان لئلا تلتهب أطراف الأجفان.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

والحديث عن الهضم شيءٌ لا ينتهي، فالبنكرياس، والصفراء، والكبد، والزُغابات المعوية، والحديث عن جهاز الدوران لا ينتهي، القلب، والدسّامات، والدورة الصغرى، والدورة الكبرى، والشرايين ذات مرونة عالية جداً والأوردة أقل مرونة، فمن جعل الشريان في الداخل والوريد في الخارج، فلو أن الآية معكوسة، أي أن الشريان في الخارج، والوريد في الداخل، فأي جرحٍ أصاب الشريان يفقد الإنسان دمه كله، أما الشرايين ذات الضغط العالي في الداخل، والأوردة ذات الضغط المُنخفض في الخارج، من رَتَّبَ هذا الترتيب ؟

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ)

من جعل هذا الشعر، وهذه الأظافر بلا أعصاب حِس، الإنسان برأسه في ربع مليون شعر، وبكل شعرةٍ شريانٌ ووريد وغدةٌ دهنية، وعصبٌ محرك وعضلةٌ وغدة صبغية، لكن لا يوجد عصب حسي من أجل أن تقص شعرك من دون عملية جراحية، ومن دون مستشفى، من دون تخدير، تقصُ شعرك وأظافرك، وأنت في راحة.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا)

إذا سُدّت قناة الدمع تصبح حياة الإنسان جحيماً، فيحتاج إلى منديل دائم، وكل دقيقة يمسح دمعه، وعندئذٍ يفيض الدمعُ على خده، والدمع مادة قلوية، وبعد أيام يلتهب الجلد، وأدق قناةٍ في الإنسان قناة الدمع، ولشدة دقتها لا تُرى بالعين، فتأخذ الدمع الفائض وتضعه في الأنف كي يكون المكان رَطِبَاً، ورطوبة الأنف ضرورية من أجل أن تلتصق المواد الغريبة في السطوح المتداخلة التي هي في طريق الهواء.

(قُلْ مَنْ)

إنّ الإنسان زوده الله عزّ وجل في أنفه بشرايين غاية الرقة والهشاشة، فإذا ارتفع ضغط دمه قليلاً تمزّقت هذه الشرايين، وسال الدم من أنفه، وهنا يجب إجراء عملية لتلافي الخطر، فإذا ارتفع الضغط الشرياني في الدم تمزقت هذه الشرايين، وسال الدم وهو الرُعاف، والرُعاف صمام أمان، وأحياناً الآلات الغالية جداً يضعون في طريق الكهرباء نقطة ضعف، شريطاً رفيعاً جداً، على أي ارتفاع للتيار يسيخ هذا الشريط فينقطع التيار، وهذا ضروري جداً، وهكذا الأنف.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

المخلوق ضعيفٌ لا يملك نصرا ولا نفعا ولا ضرا

أي أن هؤلاء الذي أعرضوا عن الله، وأعرضوا عن ذكره، واستغنوا عن رحمته لا يعتمدون على شـيء، لكن يعتمدون على أوهام..

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

معنى يصحبون أي يلتجئون، لبعدهم عن الله عزّ وجل، وعدم استجابتهم له لا يستطيعون أن يلجؤوا إليه فيحميهم من عدوّهم.

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

أي:

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ)

متاع الدنيا زائل بالفقر أو الموت

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من آية " 77 ")

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

(سورة البقرة)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

(سورة الإسراء: من آية " 18 ")

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

(سورة لقمان: من آية " 24 ")

فعلى الإنسان ألا يفرح بمتاع الدنيا، وإنما سُمِّيَ متاعاً لأنه موقت.

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من آية " 77 ")

خالق الكون ينصحك،

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

أترضى به ؟ أيعجبك أن تستمتع بالحياة سنوات عِدّة ثم يساق الإنسان إلى النار وبئس المصير، هذا هو التمتع، لذلك:

(نُمَتِّعُهُمْ قليلاً)

(سورة لقمان: من آية " 24 ")

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

أعظم العقوبة ترك الإنسان هملا بلا معالجة

والله الذي لا إله إلا هو إنّ أشد عقوبةٍ يعاقب بها الإنسان أن يتركه الله هملاً بلا معالجة، فلما تأتي الإنسان المُعالجات الربّانية تباعاً فهذه والله الذي لا إله إلا هو إشارةٌ طيبة، والدليل أن الله سبحانه وتعالى عَلِمَ فيك خيراً فأدَّبَكَ في الدنيا، فإذا أحب الله عبده ابتلاه، الإنسان يتألم إذا فعل المعصية، وتركه الله هملاً بلا معالجة، هنا يتألم، عندئذٍ كأنه مُهْمَل، وكأنه مُهان،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

خُذوا الدنيا، وسوف تردون إلى عالم الغيب والشهادة، هذه والله الذي لا إله إلا هو حقيقةٌ خطيرة إذا رأيت الله يتابعك بالمعالجة فهذه بشارةٌ طيبةٌ طيبة، أما إذا رأيت أن الله سبحانه وتعالى يُعطيك الدنيا كما تشتهي، ولا يُعالجك فهذه والله علامةٌ سيئة، وإذا رأيت الله يُتابع نِعَمَهُ عليك، وأنت تعصيه فاحذره.

(حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ

ترى رجلاً عمره ستون سنة يلعب طاولة، أذن الظهر فلم يصل، من أربعين سنة هكذا، هذا مهان عند الله عزّ وجل، بالستينات يمضي وقته كله في لَعِب النَرد، من دون صلاة، وصحته جيدة **!!**

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)

كأنهم لا يموتون، تجده جالساً مع نساء لا يحللن له، وهو يمتّع نظره بهن، ويدير معهن أحاديث غاية في الخبث، وهو مقيمٌ على المعاصي، ويقول لك: لم أفعل شيئاً، فأنا طاهر، وأنا مستقيم، وأنا كذا، فهذا الذي ينشأ على المعصية، ويستمر عليها فيقسو، ويعمى قلبه، عندئذٍ يجعله الله خارج المعالجة.

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

الاتعاظ بالموت والموتى

أليس هناك موت ينهي هذه الحياة ؟ يُنهي هذا النعيم، وهذه المباهج، وهذه الملذّات، وهذه الحماقات، أليس هناك موت ؟!

(أفَلَا يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)

شريط متحرك عليه أشخاص، في نهاية المكان يتساقط الناس، ويأتي أناسٌ آخرون، هكذا الحياة، أُناسٌ يولدون، وأناسٌ يموتون، فعلى مستوى البشر، وعلى مستوى النبات، وعلى مستوى الجماد، وعلى أي مستوى، هناك فناء، وهناك ولادة جديدة، إن ربك هو الخلّاق العليم، فهناك خلق مستمر، وفناء مستمر، وكل إنسان له عمر، مهما اعتنى بصحته، ومهما كان أكله مدروساً، ومهما كانت ممارساته رياضيّة عالية المستوى بعد ذلك ينتهي أجله، ولو أن بالرياضة، وبالمشي، وبالدقة التامة في الطعام والشراب، يتمكن أن يعيش صحيح الجسم، ولكن لابدّ من الموت، يأتي ملك الموت..

(بَلْ مَتّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

فإذا طال على الإنسان العمر بالمعصية قسا قلبه، وظن أنه مُخَلّد، وظن أنه لن يموت، وهكذا يتوهّم.

(قُلْ إِنّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ)

القرآن بشير ونذير، وعد ووعيد

هذا الوحي، لأن هذا الوحي فيه وعدٌ ووعيد، وفيه ذِكْرٌ لأهل الجنة، وما ينعمون به، وفيه ذكرٌ لأهل النار، وما يَشْقَوْنَ به.

(قُلْ إِنّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ)

أي أن هذا كتاب فيه إنذار، وفيه تبشير، وتحذير، وأمر، ونهي، وحكمة، وقواعد، وكُلِّيات، وأخبار، وتنبُّؤات للمستقبل، وقصص الأنبياء السابقين، ومشاهد من يوم القيامة، وآيات كونية، وكل شيء..

(قُلْ إِنّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)

لكن هذا الذي جعل في أذنه وقرا عن أن يسمع الحق هذا لا يسمع، ما هو الوقر ؟ الشهوات، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((حُبُّكَ الشّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ))

(من سنن أبي داود: عن " أبي الدرداء ")

فالشهوات الدنيوية بمنزلة وقرٌ يصم الآذان عن سماع الحق.

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

مشابهة الكافر للبهيمة من حيث التصرف في حال الخطر

سبحان الله ! الكافر لا يخاف إلا بعينه، فهو يقترب في هذه الناحية من البهيمة، والإنسان إذا رأى في غرفة شقّاً عرضياً، وكان مهندساً، والبناء قائم، والبيت مسكون، يتوقّع أن هذا الشق خطير، أن الأساس فيه انهيار بسيط، فيملأ الشق مادة، ثم يمتحن هل الشق يتفاقم ؟ لأنه فيه فكراً، ودماغاً، وتفكيراً، وعقلاً، ولو كان هذا الشق في حائط إصطبل، وفي هذا الإصطبل دابة فهل تخاف الدابة ؟ أم تقلق ؟ أم تفكر ؟ أم تسأل مهندساً ؟ مستحيل، دابة، متى تهرب الدابة من الإصطبل ؟ إذا وقع عليها السقف، في هذه الحالة فقط، أما الإنسان فأذكى من ذلك، الإنسان يخلي البيت، والبيت قائم، ويقول: أصبح البيت في خطر، فمن علامات العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، وأن ترى الأخطار القادمة، أما كل إنسان إذا واجه الخطر فيخاف حتى البهائم، لكن الإنسان كرّمه الله بالعقل، فبالعقل يرى الأخطار المتوقعة قبل أن يقع فيها، فلذلك الكافر يقترب من البهيمة حيث إنه لا يخاف إلا بعينه، فهو في بحبوحة وصحة، فتجده أعرض عن ذكر الله.

(أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا)

لِمَ قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ)

ولم يقل: مسّهم عذابٌ.

(نَفْحَةٌ)

وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ

فالله عزّ وجل ذكر النفحة تصغيراً لهذا العذاب، إنها شيء طفيف جداً، نفحة، جعلها نكرة، وجعلها مفردة، وعبّر عنها بالمس، وليس أصابهم، بل مس، فلو كان التيار الكهربائي عالي التوتر، ومسه الإنسان مساً خفيفاً لانتفض من أخمص قدميه إلى قمة رأسه، على المس، أما لو أمسكه فيصبح فحماً على الفور، فالمس غير الإمساك، إذا أمسك الإنسان تياراً كهربائياً يتفحم على الفور إذا كانت شدته ستة آلاف فولط، أما لو اقترب من ساحة هذا التيار فيصعق، فربنا عزّ وجل عبّر عن أن عذاب الله لا يحتمل، لو أن نفحةً منه مسّت بعضهم مساً !..

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

أين استغناؤهم ؟ أين إهمالهم ؟ وإعراضهم ؟ وكبرهم ؟ واستخفافهم، واستهزاؤهم ؟ كله تلاشى، لأن الكافر يخاف بعينه، ولا يتّعظ إلا بعد التأديب، لا يُصلي إلا بعد المرض، ولا يصلي إلا، وهو فاقد الحُرِّيَة، أهكذا المؤمن ؟ ألا يكفي هذا الكون العظيم كي يقودك إلى الله عزّ وجل بعظمته ؟ ألا تكفي هذه النِعَم التي سخّرها الله لك كي يجذبك إلى الله عزّ وجل ؟ ألا تكفي هذه المودة من الله عزّ وجل ؟ هذا الخلق القويم ؟

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هذا الخلق الكامل، وهذه الصحة، والأجهزة، والسمع، والبصر، والبيان، والعقل، والقلب، والرئتان، والمعدة، والأمعاء، والعضلات، والزوجة، والأولاد، والبيت، والعمل، والرزق، فهذه النِعَم التي أسبغها الله عليك ظاهرةً وباطنة.

ولذلك كان الإنسان البطل هو الذي يأتي ربه طوعاً، والإنسان الآخر يأتيه بعد قَهْرٍ، أو بعد معالجةٍ، والثاني جيد، ولكن ما أشرف من يعرف ربه في الرخاء، وما أعظمه، وأنبله، وأكثر وفاءهُ، وشكره.

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ)

نفحة فقط..

(لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

الشدة علاج الغافلين

حدثني أخ كان راكباً طائرة، وكانت على وشك السقوط، قال لي: منظر لا يوصف، فثلاثمائة راكب كل واحد منهم شخصية مهمة، فتاجر، وسائح، وكل واحد معتز بشكله، وبجماله، وبماله، هذا رجل أعمال مثلاً، حينما شعر الرُكاب أن الطائرة على وشك السقوط شيءٌ لا يوصف، فأين اعتزازه بنفسه ؟ وأين استغناؤه عن رحمة الله ؟ واستخفافه بالدين ؟ وتعاليه ؟ وأين هذه الصفات كلها ؟ ذهب كبرياؤه، وذهبت عزته الفارغة، وذهب اعتزازه بنفسه وماله، وقوله: أنا وأنا، صار كالأطفال تماماً، كالطفل. حتى إن قائد الطائرة أمر بعض المضيفين أن ينبّه الركاب إلى وضع أحزمة الأمان، ولم يسمع أحد من الركاب مقالته، لشدة الهول الذي هم فيه، هذا المُضيف نظر إلى الركاب، فإذا هم غارقون في الدُعاء، وفي البكاء، ويندبون حظّهم، ويندبون حياتهم، ويستغيثون، إلا أن هذا المضيف رأى واحداً من الرُكاب أهْدَأَهم أعصاباً، فتوجه إليه فإذا هو مغمى عليه.

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ)

مستهم..

(لَيَقُولُنّ يَاوَيْلَنَا إِنّا كُنّا ظَالِمِينَ)

الآن عرفت الله عزّ وجل ؟ بالطائرة عرفته ؟ وعلى الأرض لم تعرفه ؟ وأنت جالس في بيتك لم تعرفه؟ وأنت بين أهلك وأولادك، وأنت في معملك، وفي دكانك، وفي متجرك ما عرفته ؟ وأنت في نزهتك ما عرفته ؟ إلا حينما تركب الطائرة تعرفه، أو تركب السفينة ويهيج البحر !!

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)

نصب الموازين يوم القيامة للحساب

أي الموازين المُقْسِطَة العادلة، ميزان دقيق جداً، فهنيئاً لمن قاس عمله بميزان الله، فقد يقاس عمل الإنسان بميزان الأرض ؛ فلان حَصّل مالاً وفيراً، بمقياس الناس يُعَد ذكياً، يقول لك: ركّز وضعه، اشترى بيتاً، وعنده كل وسائل الرفاهة، فبمقياس أهل الأرض يعد ذكياً، ونبيهاً وماهراً، ولكن بمقياس السماء، وبمقياس خالق الكون يُعَدُّ هذا الدخل غير مشروع يحاسب عليه، فهنيئاً لمن قاس أعماله لا بمقياس الناس، ولكن بمقياس رب الناس، فإذا قِسْتَ أعمالك بمقياس رب الناس عرفت أن هناك حساباً دقيقاً، وسؤالاً دقيقاً..

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

السؤال صعب، لو قيل لإنسان: تعال إلينا بعد يومين لنسألك بعض الأسئلة، أنا أؤكد لكم أنه لا ينام الليل، إنسان لإنسان، طبعاً إذا كان إنساناً مُهماً، فكيف إذا كان رب العالمين سيحاسِبُكَ عن كل أعمالك ؟

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

عدلُ الله تعالى المطلق

لا أعرف حبة الخردل إذا كانت تُرى بالعين، لو أن لك عملاً صالحاً، أو لا سمح الله عملاً سيئاً بما يعادل حبّة الخردل..

(أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

أحياناً ابتسامة في غير موضعها، فيها استعلاء، أو استهزاء تحاسب عليها، فلو حبة من الرز ألقيتها، ولم تأكلها تحاسب عليها، فهذه الحبة خلقت لك، كأنها تقول لك: لماذا لم تأكلني، أنا خلقت من أجلك ؟

لماذا رميتني في المهملات ؟ لماذا ؟

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

فحتى الأب يحاسب إذا قبّلَ ابناً دون آخر، يحاسب، أين العدالة ؟

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))

[أبو داود عن عائشة]

تملك أن تكون عادلاً بين أولادك، وقد لا تملك قلبك، أنت معذور فيه، لكن السلوك تملكه، أن تقبل الاثنين، وأن تأتي للاثنين بحاجات متشابهة.

(وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

الله عزّ وجل حسيب، يحاسب كلاً بحسب عمله.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ)

الكتب السماوية السابقة غير المحرّفة نور وذكر

الفرقان هنا أي التوراة لأنه يفرّقُ بين الحق والباطل، والضياء نورٌ في قلب المؤمن، يريه الخير خيراً، والشر شراً.

(وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ)

يذكره بآخرته، فهذه صفات كتب الله عزّ وجل، التوراة والإنجيل والقرآن، فرقانٌ وضياءٌ وذِكر، فرقان فيه تفريقٌ بين الحق والباطل، وضياءٌ فيه نورٌ يقذف في القلب ترى به الخير خيراً، والشر شراً، وفيه تذكيرٌ للمتقين، من هم المتقون ؟..

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

خشية الله بالغيب

هذا الذي يخشى بالغيب، فمن الطالب الذي ينجح ؟ هو الذي يتصور الامتحان قبل مجيئه ويستعد له، فإذا جاء الامتحان كان في مستوى الامتحان، أما الذي لا ينتبه الامتحان إلا وقت الامتحان فهذا لا ينجح.

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)

فقبل أن يروا بطشه، وقبل أن يروا عقابه الأليم، وآياته تقع كما وَعَدَ الله بها، وأن يذهب مال المُرابي، وأن يصاب الزاني بأمراضٍ وبيلة، وأن يَتْلَفَ مالُ من أكل أموال الناس بالباطل، وأن تقع هذه الويلات

يعرف الله عزّ وجل في الوقت المناسب.

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ

أي أن التوراة فرقان، وضياء، وذكر للمتقين، وهذا القُرآن ذكرٌ مباركٌ، أي كثير الخير..

(أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

أتنكرون أحقيّتَهُ، أتنكرون أن فيه الخير الكثير ؟ وأنه يهدي للتي هي أقوم ؟ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ وأن هذا الكتاب تعليماتٌ من عند الخالق لو نفّذت بحذافيرها لسعد الإنسان بها ؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

قصة إبراهيم عليه السلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم

الآن جاءت قِصَصُ الأنبياء لتسلّيَ النبي عليه الصلاة والسلام، وتطمئنه، وتخفف عنه، ولتجعله يستأنس بأن أنبياء سابقين جاؤوا إلى أقوامهم، وعارضوهم، وبالغوا في إيذائهم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ)

معنى الرشد:

قيل: الرشد هنا هدي إلى التوحيد، وإلى معرفة أنه لا إله إلا الله، لأن التوحيد نهاية العلم.

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

أي أن علم الله عزّ وجل يشمل كل شيء.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ)

فكّر..

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

الدعوة إلى التوحيد صنعة الأنبياء

قطعة حجر منحوتة على شكل صنم يأتي الناس فيعبدونها، ويسألونها الحفظ، ويخضعون لها، ويخشعون أمامها، إنه عمل غير منطقي، فالله عزّ وجل كرّمنا بالمنطق والعقل، قال:

(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

طبعاً:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ(53))

هذا تُراث، اسمعوا كلام الناس: هذه عادات، وتقاليد، وأعراف اجتماعية، أتريد أنت أن تُعَطِلَ هذه الأعراف، وأن نعطل هذه التقاليد، أنعطل هذه العادات، وهكذا نشأنا، وهكذا تربينا، وهكذا كان آباؤنا وأجدادنا، والمجتمع، فأنا مع الناس يا أخي، سيدنا إبراهيم كان حر التفكير، قال:

(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53))

لا تكن إمّعة وذيلاً

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا))

[الترمذي]

أي لا يكون تابعا، بل يكون متبوعاً، من هو الإمّعة ؟ الذي يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس، وإن أساؤوا أسأت.

فالكلمة التي يقولها الناس: أخي الناس كلهم هكذا، لماذا تغش ؟ الناس كلها تغش، لماذا تأكل مالاً حراماً؟ الناس كلها تأكل مالاً حراماً، فهل هذا جواب ؟! هذا جواب البهائم، فأنت مؤمن، ومفكِّر، وهذا لا يرضي الله عزّ وجل، فهذا محرّم، أخي كيف دخلت على النساء ؟ والله استحيت، ما هذه الكلمة: استحيت ؟ هؤلاء النساء في هذه الحفلة مزيّنات بأبهى زينة، فكيف دخلت عليهن ؟ مراعاةً للأعراف والتقاليد هكذا المجتمع، هكذا، فكيف حضرت هذا العرس المختلط في فندق، والله لأني دعيت، النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لبوا الدعوة "، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْوَلِيمَةِ فَلْيَأْتِهَا))

[متفق عليه]

أي دعوة هذه ؟ أنا أردت أن هذه التقاليد والعادات والأعراف التي تخالف صريح القرآن يجب ألا نعبأ بها، أنت عبد لله الواحد الديّان، ولست عبداً للمجتمع، أنت عبدٌ لله، ولستَ عبدًا للتقاليد، والعادات، والأعراف، وما تعارف عليه الآباء والأجداد، أما كلام سيدنا إبراهيم:

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

الحق لا يُعرَف بكثرة التابعين

الحق لا يعرف بالكثرة، نحن لا نعرف الحق بالرجال، ولكن نعرف الرجال بالحق، وعندك مقياس دقيق، هذا المقياس يطبّقُ على الناس فتعرف ما إذا كانوا على الحق أم على الباطل، وعندنا كتاب بيننا، إذا ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

فالذي يُطْلِقُ بصره ليس على الحق قولاً واحداً، وربنا عزّ وجل يقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

فالذي يأكل مالاً حراماً أساسه الربا ليس على الحق، ولو أول هذا بألف تأويلٍ وتأويل.

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(54))

لا عبرة للكثرة..

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 116 ")

(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)

رد الكفار لدعوة التوحيد وتأكيد الأنبياء لألوهية الله وحده بالقول والعمل

فكلامك هذا خطير، هل نحن في ضلال ؟ وآباؤنا كذلك ؟ أنت جادٌ في هذا الكلام أم أنت تسخر منا ؟

(قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ)

الذي ينبغي لكم أن تعبدوه هو الله، وليس هذه الأصنام، هذه أحجار لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع، ولا تستجيب.

(قَالَ بَل رَبُّكُمْ)

أي يجب أن تعبدوا ربّكم. فمن ربكم ؟.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

أشهد لكم أن خالق الكون هو وحده يستحقُ العبادة، وأن الذي خلق السماوات والأرض هو وحده ينبغي له أن يعبد من دون غيره.

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)

سأريكم ماذا سأفعل بأصنامكم ؟

(فجَعَلَهُمْ جُذَاذاً)

دخل إلى معبدهم، وقطّع رؤوسهم بفأسه..

(فجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلّا كَبِيراً لَهُمْ)

إقامة الحجج المادية والعقلية على بطلان عبادة الأوثان

إلا أكبر صنم لم يقرب إليه، بل وضع الفأس في رأس الصنم الكبير..

(لَعَلّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

تعبدونهم من دون الله، أصنام، فهذا الكبير هو الذي فعل هذا، والفأس بيديه، فلما دخلوا إلى معبدهم:

(قالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنّهُ لَمِنَ الظّالِمِينَ (59) قالُوا سَمِعْنَا فَتًى)

فتىً، عليه الصلاة والسلام قال:

((ريح الجنة في الشباب))

[ورد في الأثر]

مقابلة الكفار لدعوة التوحيد بتنكيل وتعذيب أهلها

(قالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنّهُ لَمِنَ الظّالِمِينَ (59) قالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاسِ لَعَلّهُمْ يَشْهَدُونَ)

تعذيبه..

(قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)

لقد جيء به ليحاكَم..

(قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

العقل السليم يرفض عبادة غير الله تعالى

سامح الله بعضهم إذ نسب إلى هذا النبي الكريم الكذب، هذا ليس بكذب، هذا جذب نظر، هو يريد أن يوقظهم من غفلتهم، أن يصحوا من سكرتهم، هؤلاء آلهة يعبدون من دون الله ؟! لو أنكم تعتقدون أنهم آلهة فيجب أن تقبلوا أن الذي فعل هذا هو كبيرهم ؟ إنه إله، أليس في إمكانه أن يقطع رؤوس من هم دونه ؟ هو أراد أن يوقظ فكرهم، وأراد أن يحررهم من الأوهام..

(قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

اسألوهم، لا ينطق أحد منهم، إن كان لا ينطق أيعبد من دون الله ؟! إذا كان عاجزاً عن النطق فهو عن الحركة أعجز، فهو لا يتكلّم، لا كلام، ولا سمع ولا بصر، أيضاً لما يعتمد الإنسان على إنسان آخر، والإنسان الآخر ميت، أو سيموت، وقع كذلك بالشرك، وأحياناً يكون للشخص أب، وهذا الأب ليس على ما يرام، ولكنه غني، فيتابع أباه على ضلال طمعاً في ماله، فأنت بهذا أغضبت ربك، وأحياناً يكون لشخص صديق قوي، يعتمد عليه، وينسى الله عزّ وجل، فهذا شرك أيضاً.

(فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ)

فكروا..

(فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)

والله كلامه منطقي، كيف ننفي عن هذا الصنم الكبير أنه فعل هذا بالأصنام الأخرى ؟ إذاً نحن كيف نعبده ؟ أنعبد حجراً لا يتكلّم ولا ينطق ولا يتحرك ؟!

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ)

حمية الجاهلية حجاب بين العبد والتوحيد

أخذتهم الحمية، وسيطرت عليهم العادات والتقاليد، ورجعوا إلى كفرهم.

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)

تعلم أنت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق..

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ)

كيف ؟ فلما قال لهم:

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

للحظاتٍ قليلة أدركوا أنه على حق، وأنهم على باطل، ثم قالوا: تعلمُ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق، فكيف تُطالبنا أن نسألها ؟! عندئذٍ تناولهم بالحجة القاطعة قال:

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ)

أفٍّ اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، أي ما أتعسكم، ما أشقاكم، وما أغباكم، ثم ما أضْيَقَ تفكيركم..

(أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

لكن روح الجماعة الضالّة غَلَبَت على الحق و..

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

تآمر المشركين على إحراق إبراهيم عليه السلام

هنا المعجزة، الله سبحانه وتعالى كان من الممكن ألاّ يعثروا عليه، وإن لم يعثروا عليه فليس هناك معجزة، وكان من الممكن أن تأتي سحابة تمطر مطراً غزيراً تطفئ النار، فليس هذا معجزة، ولكن الله سبحانه وتعالى مكّنهم من إلقاء القبض عليه، ومَكّنَهُم من أن يجمعوا حطباً لأسابيع عديدة فجعلوها كالتلّة الكبيرة، وأشعلوا هذا الحطب حتى اتقدت النار، وفي هذه اللحظة الحرجة ألقوه في النار.

تروي بعض الكتب أن سيدنا جبريل عليه السلام جاءه وقال له: "أتريد من الله شيئاً ؟ ألك من حاجة ؟ " قال: " منك ؟ "، قال: " لا من الله "، قال: " **علمه بحالي يغني عن سؤالي** "، أي أن الإنسان إذا وقع في أزمة فرب إبراهيم موجود، هوَ هو، كن صادقاً مع ربك، وكن مستقيماً على أمره، وكن مخلصاً له ورب إبراهيم بالوجود، الذي أنقذ إبراهيم ينقذك من كل ورطة، والذي أنقذ يونس من بطن الحوت..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

هو موجود..

(قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ)

أخذتهم العزة بالإثم، كلمة واحدة..

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً)

معجزة: يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا

قال: لو أن الله عزّ وجل قال لها: كوني برداً لمات من البرد، وهو في النار، لكن:

(كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً)

لا تؤذيه، فالعلماء بعضهم قالوا: **" إن الله سبحانه وتعالى أفقد النار قوة الإحراق "، وبعضهم قال: " أعطى جسم إبراهيم عليه الصلاة والسلام تحملاً "، وبعضهم قال: " جعل بينه وبين النار حاجزاً "**، وأصَحُّ الأقوال أن النار نفسها فقدت قوة الإحراق لقوله تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

هذه معجزة، لكن والله الذي لا إله إلا هو على شكل مُخَفَّف يقع منها كل يوم، أما بهذه الحدة فهذه لسيدنا إبراهيم، هذه معجزة، لكن إذا دعا المؤمن ربّه، واستجار به، والتجأ إليه، وكان في ورطةٍ كبيرة وهو مُحِق فالله سبحانه وتعالى ينقذه من كل شدة..

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل: من آية " 62 ")

قصة إبراهيم دعوة إلى الصبر في الشدائد والمحن

فهذه القصة ليست للتسلية، هذه قصة مغزاها أن تلتجئ إلى الله في ساعات الشدة كما التجأ إبراهيم عليه السلام في هذه الساعة الشديدة، والله لن يتخلّى عنك، والله سبحانه وتعالى يُدافع عنك وينصرك ما دمت على الحق..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

ما الذي يدعوك إلى التوكل على الله ؟ لأنك على الحق المبين..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)

وسيدنا رسول الله اللهم صل عليه وسلم لمّا كان في الهجرة ألم يأت سراقة طمعاً بمائتي رأسٍ من الإبل ليأخذ النبي إلى قريش، فما الذي حصل ؟ غاصت قدما فرس سراقة في الرمال فوقع عنها، في المرة الأولى والثانية والثالثة، حتى شَهِدَ أن هذا الإنسان معصوم من أن يناله أذى، وأنت أيضاً مؤمن..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

فإذا كنت مع الله صادقاً ومخلصاً فالله عزّ وجل لن يُسْلِمَك..

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

لن يخذلك، ولن يسلمك، ولن يتخلّى عنك، وزوال السماوات والأرض أهون على الله من أن يتخلى عن عبده المؤمن.

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)

وسوف تأتي في الدرس القادم قِصَصُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ سيدنا لوط، وسيدنا نوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون.

(إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

لهذا سميت هذه السورة سورة الأنبياء، فيها ذكر الأنبياء بشكلٍ مقتضب، وجاءت قصة سيدنا إبراهيم بشكلٍ مُفَصّل، وسوف تأتي قصص الأنبياء بشكلٍ مقتَضب، وعن كل نبيٍ الحدث الكبير في حياته، والصفة التي يتميّز بها، وإلى درسٍ آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 74 - 94

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-06-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

من خصائص الأنبياء

وذكرت لكم في الدرس الماضي أن طائفة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين سيأتي ذكرهم في سورة الأنبياء بشكلٍ موجز، والحقيقة أن الفضيلة لا قيمة لها ما لم تتجسّد في الإنسان، لذلك أثر القدوة الحسنة في النفوس أثرٌ كبير، بينما أثر الكلام النظري في النفوس أثرٌ قليل، لهذا جعل الله سبحانه وتعالى الأنبياء العِظام قدوةً حسنة وأسوةً نتأسّى بها، ولولا أن الفضيلة تجسّدت في سلوكهم لما سار الناس على هذا الدرب، ولما اقتفوا آثار هؤلاء الرُسل الكرام.

الشيء الذي يجمع بين هؤلاء الأنبياء جميعاً أنهم عبيدٌ لله سبحانه وتعالى، كلُّهم عبيدٌ لله في قِصَصَهم، وفي مواقفهم، وفي تصرُّفاتهم، وفي أقوالهم، وفي أفعالهم ما يؤكِّد عبوديتهم لله عزّ وجل.

الشيء الآخر، أن هؤلاء الأنبياء بشر، وليسوا آلهة، لذلك هم معصومون عن أن يقعوا في خطأٍ في تبليغ الرسالات، معصومون عن أن يعصوا الله عزّ وجل، ولكنّهم ينسون كما ينسى البشر، وقد يتركون الأولى، والله سبحانه وتعالى يوجّههم الوجهة الصحيحة، إنهم بشر، وليسوا فوق البشر، هذا هو القاسم المشترك بينهم، إنهم أيضاً يحبُّون الله عزّ وجل حبّاً لا حدود له، يطيعونه طاعة لا حدود لها، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلُوطاً)

من خصائص الأنبياء

وقد ورد في كتب التفسير أن سيدنا لوط عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام كان ابن أخ لسيدنا إبراهيم، فكان إبراهيم عَمَّه..

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

وإذا تتبّعنا مثل هذه الآيات:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة القصص: من آية " 14 ")

فأكبر عقابٍ يقع على إنسان أن يحظر الله عنه العِلم والأدب، فإذا آتاك ربك أيها الأخ الكريم طرفاً من العل، م وطرفاً من الحكمة فقد أُوتيت من بضاعة النبوّة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

ولا شيء في الأرض عند الناس وعند الله، في الدنيا وفي الآخرة يرفع الإنسان كالعلم، لذلك عَن مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ...))

[متفق عليه]

وما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه.

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

(من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك)

رتبة العلم أعلى الرُتَبْ.. فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا

قال بعضهم: **" الحُكم هو النبوّة، والعِلم هي أوامر الشرع "**، وبعضهم قال: **" الحُكم أن يضع الإنسان كل شيءٍ في مكانه الصحيح "**. والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من آية " 269 ")

فأعظم شيءٍ يناله الإنسان من ربّه أن يجعله حكيماً، فبالحكمة يجلب المال، وبالحمق يبدِّدُه، بالحكمة يجعل الزوجة السيئة صالحة، وبالحمق يفسد الصالح، ما من عطاءٍ أعظم عند الله من أن يؤتيك الحُكْمَ أي الحكمة، بالمعنى الثاني من معاني الحكم..

(وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ)

إهلاك الله لقوم لوط

والقرية التي كانت تعملُ الخبائث قريةٌ اشتهرت بعمل الفاحشة مع الذُكور، وهذا العمل قذِرٌ وقبيحٌ إلى أبعد الحدود، لذلك في كتب الفقه من يرتكب هذا العمل يُقتَل، لأن الله سبحانه وتعالى أهلك قوم لوطٍ بأن جعل قريتهم عاليها سافلها، وفي آيةٍ أخرى:

(فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ)

(سورة الأنفال)

وما هذا المرضُ الخطير الذي يستشري في العالم اليوم إلا عقابٌ عاجلٌ لهذه الفاحشة الشاذّة التي يندى لها جبينُ الإنسانيّة خجلاً..

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

من علامات الإيمان

1 ـ الابتعاد عن أهل الكفر والفسوق

إذاً المؤمن من لوازمه أنه يبتعد عن أهل الكفر والفسوق، لذلك فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ، فَاعْتَصَمَ نَاسٌ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ، وَقَالَ:

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِمَ ؟ قَالَ: لَا تَرَايَا نَارَاهُمَا))

[الترمذي، أبو داود]

أي أنّك إذا طمحت إلى أن تكون في بلدٍ أموره الماديّة مُيَسّرة، ولكن فسقه شديد فهذه مقامرة ومغامرةٌ بدينك..

((أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ))

لشيوع المعاصي، وشيوع الفساد، وشيوع الرذيلة، وتفكّك الأسرة، وانحراف الشباب، وانحراف الفتيات..

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(75))

2 – الاشمئزاز من فعل الفاحشة

فمن علامات الإيمان أن المؤمن يشمئز من فعل الفاحشة، فضلاً عن أنه لا يفعلها، إنه يشمئز من أخبارها، يشمئز من مرتكبيها، أصبحت له نفسٌ صافية، وعنده حساسية أخلاقية عالية، فكلّما التقى بأناسٍ يرتكبون الفاحشة، أو يباهون بها يبتعد عنهم، ولا يطيق أن يلتقي معهم، أما الذي يلتقي مع أهل الفسق والفجور، ويقيم معهم علاقاتٍ حميمة، ويستمتع في العلاقة بهم إنّ حالته مَرَضِيَّة تستوجب المُعالجة..

(إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ)

أي من قبل سيدنا إبراهيم، ومن قبل سيدنا لوط، هذا النبي الكريم من أولي العزم..

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)

(سورة القمر: 10)

يا رب انتصر لدينك إني مغلوب..

(وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ)

الدعاء في الشدة والرخاء

وكأن الله سبحانه وتعالى يُعَلِّمنا أن الأنبياء ينادون الله عزّ وجل فيستجيب لهم، ويا أخي المؤمن أنت مَدْعوٌّ لأن تُنادي ربَّك، كلّما ألمّت بك ملمّة، أو كلّما نزلت بك نازلة، أو كلما ضاق بك الأمر، أو كلما كاد لك عدو، كلما شعرت بالضيق نادِ ربّك كما نادى نوحٌ ربّه..

(وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الأرض تنبع بالماء، وأنزل من السماء ماءً منهمراً حتى أغرق الماءُ كلَّ شيء، وكان سيدنا نوح على ظهر السفينة مع أهله، ومع المؤمنين فنجا من الكربِ العظيم، فالبلاء خاص، والرحمة خاصّة، لا كما يقول بعض الناس: الرحمة خاصّة، والبلاء عام..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

دائماً المؤمن له نجاة من كل بلاءٍ عام، إذا قد عرف الله عزّ وجل، واستقام على أمره قبل وقوع البلاء.

(وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

هؤلاء قوم آخرون، قوم لوطٍ كانوا:

(قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

فأهلكهم الله عزّ وجل، وقوم نوح كانوا:

(قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

نستنتج من هذا أن العاقبة للمتقين، وأن الكفر، والفِسْقَ، والفجور، والعصيان مآله إلى الهلاك..

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ)

قصة داود وسليمان في حكمهم في الحرث

هذان النبيّان الكريمان الأول والدٌ للثاني..

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ)

الحرث الأرض المزروعة، بعضهم قالوا: أرضٌ مزروعة قمحاً، وبعضهم قالوا: أرضٌ مزروعةٌ كَرْمَاً.. أي عنباً..

(إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ)

غنمٌ تعود ملكيّتها لقومٍ، دخلت الغنم هذه الأرض، ورَعَتْ فيها فأصابت منها أضراراً بليغة، هؤلاء الخصمان رفعوا قضيّتهم إلى سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، يبدو أن هذا النبي الكريم وجد أن الأضرار التي لَحِقَت بالأرض المزروعة تكافئ المغانم التي لحقت في قطيع الغنم، فأعطى أمراً، أو أعطى حكماً أن يتبادل الفريقان ملكيّتهما، يأخذ أصحاب القطيع الأرض، ويأخذ أصحاب الأرض القطيع.

ويبدو أن سيدنا سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عُرِضَت عليه هذه القضيّة أيضاً، فحكم بوحيٍ من الله عزّ وجل، ويبدو أن حكمه كان عن الله سبحانه وتعالى، ولا ينفي أن يكون حكم سيدنا داود أيضاً حكماً صائباً، ولكن حكم سليمان بأن يأخذ صاحب الأرض القطيع فينتفع من لبنه، وأن يأخذ صاحب القطيع الأرض فيصلحَ ما أصابها، وبعد عامٍ يستردُّ كل فريقٍ أرضه أو غنمه، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ)

معنى نفشت أي رعت هذه الغنم في الأرض ليلاً..

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

قال بعضهم: لا يمنع أن يتفوّق الابن على أبيه، وهذا ليس فيه غضاضةٌ في حقّ الأب، بل إن الأبَ وحده لو أن ابنه تفوّق عليه لكان هذا مُطمئناً له، هذه حالة.

والحالة الثانية: إنّ تربية سيدنا داود لابنه سليمان التربية العالية كانت من نتائجها هذه الفتوى، وهذا الحكم الصائب، فهذا في صحيفة سيدنا داود، وبعضهم قال: لقد حكم داود بحكم الله عزّ وجل، لكن الله

أوحى إلى سليمان حكماً نَسَخَ الحكم الأوّل، على كلٍ الذي حدث الكلمة التي جاءت في هذه الآية..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

الإنسان مفتقر إلى الله عزّ وجل في فهمه للأمور، فربما فهم شيئاً بفعل صفائه، واستقامته لقوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة: 282)

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة التغابن: 11)

العلم الإشراقي: ففهمناها سليمان

استنبط علماء الأصول من هذه الآية أن بعض العلم يمكن أن يكون إشراقياً، وقد مرّ بنا في عِلم العقيدة أن هناك اليقين الحسي، وهناك اليقين العقلي، والاستدلالي، وهناك اليقين الإخباري، وهناك اليقين الإشراقي، واليقين الإشراقي مأخوذٌ من هذه الآية:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

إذاً: أن الإنسان وقف موقفاً صعباً، واستلهم الله سبحانه وتعالى لأمدّه الله بالحقيقة.. يروى عن هذين النبيين أن سيدنا سليمان رُفِعَت إليه قضيّةٌ، أن امرأتين كان لكل منهما طفلٌ صغير، وقد وُضِعَا الطفلان في مكانٍ، وجاء ذئبٌ فأكل أحدهما، فادّعت كل امرأةٍ أن الابن الباقي لها، ورُفِعَت القضيّة إلى سيدنا سليمان، فلمّا تنازعا أمامه فقال: " الحل بسيط ؛ نأتي بسكين، ونقطع هذا الطفل بينكما "، فما كان من الأم الحقيقيّة إلا أن صاحت: " هو لها، وليس لي "، فعرف هذا النبي الكريم من عاطفة الأم الحقيقيّة أن هذا الابن لهذه الأم.. فالله عزّ وجل يُلهم القضاة الحقيقة أحياناً إذا كانوا صادقين..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً)

وكل واحد منّا معرّض في حياته إلى أن يقع في مشكلة، ولا يدري لها حلاً، الله سبحانه وتعالى يتفضّل عليه ويوحي إليه، والوحي له أنواع..

أنواع الوحي

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل: من آية " 68 ")

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)

(سورة طه: 38)

هناك وحي غريزة كوحي النحل، وهناك وحي إلهام كالوحي الذي نزل على أمّ موسى، وهناك وحي رسالة كالوحي الذي نزل على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فكل واحد معرّض إلى أن يقع في أزمة، فإذا استلهم الله سبحانه وتعالى ربّما جاءه حلٌّ لم يكن يخطر له على باله، وليست العبرة من هذه القصص إلا أن نتأسّى بهؤلاء الأنبياء العِظام..

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آَتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)

أي كلاً من داود وسليمان آتيناه حكماً وعلماً، جاءت هذه الآية لتقرّر أن حكم داود كان صحيحاً، وأن حكم سليمان جاء حكماً أقرب إلى الصواب وكان بوحيٍ من عند الله سبحانه وتعالى من دون أن نضع من قدر سيدنا داود.

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

معجزات داود عليه السلام

فسيدنا داود آتاه الله معجزاتٍ ما لم يؤتها بعض الأنبياء منها، فلقد سخّر الله مع داود الجبال يسبّحن والطير، كان يسمع تسبيح الجبال، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة الإسراء: 44)

لقد آتى الله سيدنا داود القُدرة على سماع تسبيح الجبال والطير..

(وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)

وعلّمناه صنعة لَبوس لكم

صنعة اللبوس أي صناعة الدُروع، هذه الصناعة مما تفضّل الله سبحانه وتعالى على سيدنا داود، وعلّمه إيّاها، أي حينما كانت الحروب وجهاً لوجهٍ، وسيفاً لسيفٍ، ويداً بيدٍ، هذه الحروب كان فيها رحمة، لماذا ؟ لأن الأشجع هو الذي ينتصر، أما الحروب التي لا تُفَرّقُ بين مقاتلٍ وغير مقاتل، هذه حروب، وإن كان المسلمون اضطروا إليها، ولكنّها في الأساس ليست شرعيّة، لأنه لا ينبغي أن يُقْتَل إلا المُقاتل، أما الطفل البريء، أما المرأة الضعيفة، أما الشيخ الضعيف فهؤلاء لا ينبغي أن يُقَتَلوا، لذلك المُنَظّمات الدولية تحرّم أن يقتل العُزّل من المدنيين، فهذه الحرب التي سنّها الله سبحانه وتعالى:

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)

والدروع يتقي المُقاتل بها ضربة السيف، وهذه رحمة للمقاتلين..

(لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)

فلا ينبغي أن يُقتَل إلا من يقاتل، أما الطفل الصغير، أما المرأة الضعيفة هذه في أعراف السماء، وأعراف الأرض، في شرائع السماء، وفي قوانين الأرض لا ينبغي أن تقع..

(فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ(81))

ذَكَرَ ربنا سبحانه وتعالى أنه سَخّر لسيدنا سليمان الريح عاصفة، في بعض التفاسير، وفي بعض الروايات أن هذا النبي الكريم كان يمتطي الريح لينتقل بها من مكانٍ إلى مكان بوقتٍ قصيرٍ جداً، الشأن في هذا كشأن الطائرات السريعة..

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)

الأرض التي باركنا فيها: أرض الشام

أمّا هذه الأرض التي باركنا فيها كما تروي معظم التفاسير هي أرض الشام، ولماذا بارك الله فيها ؟ لأنها كانت مَهْبِط الرسالات السماويّة، ولماذا بارك الله فيها ؟ لأن الله سبحانه وتعالى أجرى فيها الخير، وجعلها بلاداً مقدّسة فيها خيرٌ كثير، وفيها جوٌ معتدل، وفيها أناسٌ صالحون، في بعض الأحاديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((الشام صفوة الله من أرضه وفيها صفوته من عباده))

[مجمع الزوائد عن أبي أمامة]

وفي أحاديث كثيرة.. أحاديث قيام الساعة.. تذكر:

((إِنّ فُسْطاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْغُوطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشّامِ))

(سنن أبي داود: عَنْ " أبي الدّرْدَاءِ ")

والشيء الذي يلفت النظر أن في هذا البلد الطيب الكريم اتجاهٌ نحو الله سبحانه وتعالى يتجلى في حضور مجالس العلم، وفي بحث الناس عن أمور دينهم، وفي تمسُّكهم بشريعة ربّهم، هذه كلها تؤكِّد ما جاء في بعض الأحاديث الشريفة عن فضل بلاد الشام..

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82))

والله سبحانه وتعالى سَخّرَ لسيدنا سليمان الشياطين، سخّرهم له لأن هذا النبي الكريم دعا ربّه فقال:

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص: 35)

أي أن سليمان طلب من ربّه أن يؤتيه المُلك، وحينما يطلبُ نبيٌّ من ربّه أن يأتيه الله الملك، فمعنى ذلك أن هذا المُلك أراد أن يستخدمه في نشر الحق، وإذا طلب الإنسان أن يكون في موقعٍ دقيق فمن أجل أن يهدي الناس بهذا الموقع لا أكثر ولا أقل، الدنيا لا تُبْتَغى لذاتها، لا يبتغيها لذاتها إلا أهل الدنيا، ولا يبتغيها لذاتها إلا أهل الكفر والفسوق والعصيان، أما المؤمن فيما لو طلب الدنيا لا يطلبها إلا لغيرها لتكون قوةً له على هداية الآخرين..

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ)

أي أنهم يغوصون في البحار، ويستخرجون له اللؤلؤ..

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ)

مما يأمرهم به..

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)

فقصّة سيدنا داود، وقصّة سليمان فيها من العجب العُجاب، لأن الله سبحانه وتعالى سخّر لهم الجبال والطير، وسخّر لهم الشياطين، وسخّر لهما الرياح.

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ)

قصة أيوب عليه السلام وصبره على الضر

سيدنا أيوب..

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

فبعض التفاسير تشير إلى أن النبي متى يَمَسُّه الضر ؟ إذا أعرض قومه عنه، إذا لم يستجيبوا له، إذا لم يهتدوا لدعوته، إذا لم يلتزموا أمره، الداعية إلى الله عزّ وجل لا يمسّه الضُر إلا إذا أعرض الناس عن دعوته، فلذلك ما ترويه بعض الكتب الإسرائيليّة من مصائب لا حصر لها، من أن الدود قد أكل لحمه كلّه، هذه مبالغاتٌ ما أظنُّ أن الله سبحانه وتعالى أرادها، إلا أنّ الأقرب إلى الواقع، والأقرب إلى مقام النبوّة أن هذا النبي الكريم كان الضرُّ عنده إعراض الناس عنه، وكيف أن الشياطين كانت تصرفُ الناس عنه، فهذا ضرٌّ لا شكّ أصابه، ولا يمنع هذا التفسير من أن يُبتلى النبي الكريم ببعض المصائب التي تصيب إخوانه من النبيين، أما تلك المبالغات التي لا حدود لها في الأمراض التي نهشت لحمه وأصابته هذه ربّما كانت لا أصل لها..

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا)

هذه الآية الثانية تؤكِّد أن الضرّ الذي أصابه هو ضرٌ من نوع إعراض الناس عن دعوته، فلمّا استجاب الناس إليه، واستجاب أهله المقرّبون، واستجاب قومه أيضاً، فسعد بهذه الاستجابة..

(رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ(85))

الأنبياء الذين ذَكَرَهُم الله عزّ وجل في القرآن ليسوا هم جميع الأنبياء، إلا أن الله سبحانه وتعالى ذكر في بعض الآيات من أن النبيين..

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر: من آية " 78 ")

فربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة يفيض في الحديث عن بعض الأنبياء، ويختصر في الحديث عن بعض الأنبياء الآخرين، وقد يذكر اسم نبيٍّ فقط من دون أي تعليق، كل هذا لحكمةٍ يعلمها الله سبحانه وتعالى..

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ)

الصبر من صفات الأنبياء

فالصبر من صفات الأنبياء، وهو بالتالي من صفات المؤمنين، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

بل إن الإيمان نصفان ؛ نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، والصبر لا يفوقه شيء، وذلك لحكمةٍ بالغة وأن الأمر كلّه بيد الله، فالموحِّد الذي يعرف أسماء الله الحُسنى، وصفاته الفُضلى يصبر، لماذا يصبر ؟ لأن المعالجة في النهاية تعود عليه بالنفع، والأمثلة كثيرة، والأنبياء العِظام هم قدوةٌ لنا في الصبر، والإنسان إذا أصابه ضرٌّ، أو أصابه بلوى، أو أصابته مصيبة، أو أصابه مكروهٌ ينبغي أن يتجلّد وأن يصبر، والله سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ويقول:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف: من آية " 35 ")

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ)

(سورة النحل: من آية " 127 ")

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

إن كنت مؤمناً حقّاً، وإن كنت مَعْنِيًّا بهذا الخطاب، وكل خطابٍ خوطِب به النبي الكريم فالمؤمنون معنيُّون به بالتبعية، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

فكل أمرٍ موجّهٌ إلى النبي الكريم هو أمرٌ موجّهٌ لنا بالتبعيّة، لأننا مأمورون أن نقتدي بهم في كل أحوالهم، والأنبياء من أولى صفاتهم الصبر.

أنواع الصبر: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر عن الشهوة

والصبر كما يقول العلماء على ثلاثة أنواع ؛ صبرٌ على الطاعة وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ عن الشهوة، فالإنسان رُكِّبَ من عقلٍ وشهوة، الحيوان رُكِّب من شهوةٍ بلا عقل، المَلَك رُكِّب من عقلٍ بلا شهوة، لابدّ من صراعٍ بين الشهوة وبين العقل، بين الحاجة وبين القيَم، بين المصلحة وبين المبدأ، هذه طبيعة الحياة، إن الصراع بين الحاجات وبين القيم، بين المصلحة وبين المبدأ، بين العقل وبين الشهوة هذا الصراع ينتهي بمصلحة العقل عند المؤمن، وينتهي بمصلحة الشهوة عند الكافر، لذلك المؤمن يقوده عقله، والكافر تقوده شهوته، من هنا قال الله عزّ وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

علامة المؤمن أنه يتملّك زمام نفسه فهو يقودها إلى الخير، ومن علامات المنافق أن نفسه تتملّكه فتقوده إلى الشر، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: من آية " 27 ")

هذه إرادة الله..

(وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا(27))

(سورة النساء)

دائماً أهل الأهواء، أهل الشهوات، أهل الفسق، والفجور يتمنّون على جميع الناس أن يتابعوهم، لذلك يزيّنوا لهم الدنيا، يخوّفونهم من الدين.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 175 ")

يخوفونهم من الإنفاق..

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ)

(سورة البقرة: من آية " 268 ")

انظروا عمن تأخذون دينكم

دائماً الشيطان يخوّف الإنسان من الإنفاق في سبيل الله، ويخوّفه من التَدَيُّن، يذكّر له آلاف القصص عن أناسٍ تديّنوا فسقطوا، وهذه قصص مُخْتَلَقة ليس لها أصل، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب ابن عمر فيقول له:

((يا ابن عمر دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[حلية الأولياء لأبي نعيم]

وقد روى الإمام مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قوله:

((إنّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

(من صحيح مسلم عن محمد بن سيرين)

لو أن الإنسان أخذ دينه عن أهل التقصير، عن الذين مالوا إلى الدنيا واستمرؤوها، عن الذين خلطوا الدين بالدنيا، عن الذين اتخذوا الدين مطيّة إلى الدنيا، لو أن الإنسان أخذ دينه عن هؤلاء لرأى في الدين رُخَصَاً لا حدود لها، إذا تتبّع هذه الرُخَص رأى نفسه مقطوعاً عن جناب الله عزّ وجل، لأن المعاصي والمخالفات والتقصير من شأنها أن تجعل بين العبد وبين الله حجاباً كثيفاً، لذلك:

((دينك دينَك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

القضية خطيرة جداً، القضية مصيريّة، فحينما يأتي ملك الموت، وتكون قد تابعت إنساناً ضالاً في الدنيا من أهل الأهواء تجد أنه لا ينفعك مالٌ ولا بنون، ولا ينفع هذا الذي تابعته في الدنيا، كل إنسانٍ يحاسب عن عمله وحده..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

(وَكُلّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)

(سورة الإسراء: من آية " 13 ")

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر))

[الترمذي]

فأخطر شيء في الحياة الدين، من هنا سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني.. "**، فأي مصيبةٍ إن لم تكن في الدين فهي هيّنة ولو أنها أودت بالحياة، لأن الآخرة أبديّة، والذي مات على الإيمان يسعد في جنّة ربّه إلى الأبد، لكن المصيبة الكبيرة أن تكون المصيبة في الدين، فإذا كانت في الدين ذهبت الدنيا والآخرة، لذلك سيدنا عمر كلّما أصابته مصيبة قال: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلْهِمْتُ الصبر عليها "**.

على كلمة:

(كُلّ مِنَ الصّابِرِينَ)

هكذا الأنبياء، هؤلاء القدوة، هؤلاء الأسوة تحمّلوا المتاعب، فمن نحن ؟ فيجب أن يتحمّل المؤمن كل مشقّةٍ في سبيل الله.

(وَذَا النُّونِ)

قصة سيدنا يونس عليه السلام

سيدنا يونس..

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

المعنى الصحيح لقوله: فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

المعنى الأول:

بعض السذّج يفسّرون هذه الآية تفسيراً مضحكاً، يقولون: " إنّ هذا النبي الكريم ظنّ أن الله لا يقدر عليه "، لا، ما كان لنبيّ أن يقول هذا الكلام، معنى نقدر هنا بمعنى نُضيّق.

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فيقول ربي أهانن)

(سورة الفجر: 15-16)

قَدَرَ الرزق ضَيَّقَهُ، ومعنى هذه الآية هنا:

(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

أي أنه عندما ضاق ذرعاً بقومه ظن أن الله سبحانه وتعالى لا يحرّج عليه أن يغادرهم إلى أُناسٍ آخرين، لم يكن يظن أنه يجب أن يبقى مع هؤلاء إلى النهاية..

(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

أي ظنّ أنه لا حرج من أن يترك قومه بعد أن يَئِس من هداهم، لأن اليأس ليس من صفات الأنبياء، الأنبياء ليسوا أكثر الناس يأساً، لكنّهم كما قال الله عزّ وجل.. لكنّهم آخرهم يأساً.. والدليل قوله تعالى:

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)

(سورة يوسف: من آية " 110 ")

أي لأنهم بشر فالنبي، دعاهم ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، سرّاً وعلانيّةً، أغراهم بالجنّة، خوّفهم من النار، ضَرَبَ لهم الأمثال، بيّن لهم، وعظهم، لم يستجيبوا له، ضاق بهم ذرعاً، فتركهم وغادر قومه، فظنّ هذا النبي الكريم أن لن نقدر عليه، أي أنه ليس عليه من حرج لو تركهم إلى أناسٍ آخرين، فتركهم.

المعنى الثاني:

ظنّ هذا النبي الكريم أن الله سبحانه وتعالى لن يُقدِّر هداهم على يديه، فأحياناً تدعو إنساناً كثيراً وكثيراً لا ترى استجابة فتظن، تقول في نفسك: ربّما كانت هداية هذا الإنسان ليست على يدي، تيأس من دعوتهم، فالمعنى الذي يليق بحق هذا النبي الكريم لا يزيد عن أنه ظنّ أنه لا حرج من ترك قومه، أو أن الله سبحانه وتعالى لن يُقدِّر هدايتهم على يديه، فغادرهم..

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً)

مغاضباً من قومه..

(فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

ركب سفينة بعد أن هَجَرَ قومه، وفي أثناء إبحارها في البحر، وكانت حمولتها زائدة اقترح صاحب السفينة على رُكّابها أن يلقوا بأحدهم في البحر، فاقترعوا فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت.

إذا ذكر الإنسان هذه المصيبة لا تبقى أمامها مصيبة، دخل بطن الحوت، والحوت في ظلمات البحر، وفي ظلمات الليل، في ظلماتٍ ثلاث، تصوّر نفسك في بطن حوتٍ، وفي بحرٍ، وفي الليل، هذه هي المصيبة.

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

أي ظلمت نفسي حينما تركت قومي، كنت ظالماً، حرمتُها الخير، أنت يا رب رَشّحتني بأن أكون هادياً لهؤلاء، فيئست منهم، وتركتهم، وغادرتهم فكنت إذاً من الظالمين، ولعلّ هذا عقابٌ لي، سريع الفهم، لذلك الإنسان كلّما ألمّت به ملمّة فلينظر أو فليتعظ بهذه المصيبة، هذه المصيبة، ومع ذلك أنقذه الله منها، فضع مصيبتك جنب هذه المصيبة ترى أنها لا شيء، لو أنها بهذا المستوى فالله موجود.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)

إذا ألمّت بأحدنا مصيبة فهل يذكر الله عزّ وجل ؟ هناك أناسٌ ينسون الله، لأن المصيبة تُنسي أحياناً، قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ـ هناك نوع من الفقر ينسيك كل شيء ـ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة ")

في هذه القصّة لقطة مهمّة جداً، أنه من علامة الإيمان أن الله سبحانه وتعالى إذا ساق للمؤمن مصيبةً لا ينسى ربه أثناء المصيبة، وقع في البحر، التقمه الحوت، دخل بطن الحوت، وهو في بطن الحوت.

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

لا إله إلا أنت سبحانك

لذلك أُثِرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام الدعاء الشهير:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

(من سنن الترمذي: عن " أنس بن مالك ")

كلّما ألَمَّ بنا أمرُ فلنقل:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

بعضهم قال: **" إنّ الثناء دُعاء "**، ماذا فعل هذا النبي ؟ وَحّدَ وأثنى على الله.. لا إله إلا أنت سبحانك، هنا وحّد.. سبحانك

وأثنى عليه، سبّحه، ومجدّه، هذا دعاء..

(إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم)

انتهت القصّة، وما أروع التعقيب..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

قصة يونس قانون وعبرة

هنا الموعظة، ليست هذه القصّة خاصّة بهذا النبي الكريم، إنها محتملة الوقوع مع كل مؤمن، كن صادقاً، كن مستسلماً، كن راجياً، كن مستقيماً وادعُ ربّك وانظر كيف يستجيب لك..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذا التعقيب يجعل من القصّة قانوناً في التعامل بين الله وبين عباده، هذه التعقيبات مهمة جداً..

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

هذه قصّة..

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(14))

(سورة القصص)

جعلها قانوناً..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

هذه قصّة، جعلها الله قانوناً..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هل بعد هذه الآية من بشارة ؟ كن مؤمناً وكفى، يقول الله لك: هكذا أنا أُنجي كل مؤمن، ليست هذه خاصّةً بسيدنا يونس إنها لكل نبي بل لكل مؤمن، كن مؤمناً وكفى..

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً)

قصة زكريا عليه السلام

هذا النبي لم يكن له ولد، فلمّا كبرت سنُّه، واشتعل رأسه شيباً، نظر إلى إخوانه المؤمنين، خاف عليهم من بعده، فطلب من الله عزّ وجل غلاماً يخْلُفُهُ في توجيه هؤلاء، لذلك:

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

كلّها حالات ميؤوس منها، هناك عقم، امرأته كانت عاقراً، الآن كل إنسان عقيم ليس لديه أمل، هناك ضعف في المبيض، عُقم، لكن ربنا عزّ وجل بيده كل شيء، حينما توقِن أن الأمر كله بيد الله يختلف الأمر..

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

معنى: وأصلحنا له زوجه

بعضهم قال: **" أصلحنا له زوجه بأن جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقرا ".**

وبعضهم قال: **" بأنّا جعلناها ذا أخلاقٍ رضيّة بعد أن كانت ذات أخلاقٍ سيّئة "**، فإذا شكا شخص من سوء خلق زوجته فلا ييأس منها، لأن الله سبحانه وتعالى قد يُصلحها له، قد تنقلب هذه الزوجة المُشاكِسة إلى امرأة طيّبة، كلّه بيد الله، لذلك كان الإمام الشعراني رضي الله عنه يقول: " أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، قد يجعل الله تأديب الزوج على يدِ الزوجة، فإذا صَلَحَت العلاقة بين الزوج وربّه كانت الزوجة أطوع له من بنانه.

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى)

سيدنا يحيى..

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

كلمة وأصلحنا له زوجه تحتمل المعنيين، تحتمل أنها أصبحت ولوداً بعد أن كانت عاقراً، وتحتمل أنها أصبحت ذات أخلاقٍ رضيّة بعد أن كانت ذات أخلاق شَرِسَة..

(إِنَّهُمْ كَانُوا)

المسارعة إلى الخير

هؤلاء الأنبياء..

(يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 21 ")

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 133 ")

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)

الإنسان عبارة عن بضعة أيّام كلّما انقضى منه يومٌ انقضى بضعٌ منه، أخطر شيء بحياة الإنسان الزمن، الزمن يسير، فالمغبون من تساوى يوماه، ومن لم يكن في زيادة فهو في نُقصان..

(وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

هذه حالة الرجاء، العلماء قالوا: الرجاء يعني ثلاثة أشياء ؛ يعني شوقاً إلى المرجو، وخوفاً من فَوْتِهِ، وعملاً لتحصيله، فكل شيءٍ ترجوه لابدّ أن تحبّ أن الوصول إليه، ولابدّ أن تخاف أن لا تصل إليه، ولابدّ أن تسعى كي تصل إليه، شوقٌ وخوفٌ وسعيٌ، إذاً أنت ترجو وإلا أنت تتمنّى، والله سبحانه وتعالى لا يتعامل بالتَمَنِّيات..

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء: من آية " 123 ")

لا يتعامل إلا بالرجاء، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا)

(سورة الكهف: من آية " 110 ")

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

قصة مريم الصدِّيقة

هذه السيّدة مريم، إنها صدِّيقة وليست نبيّة، ولكنّها جاءت هنا ليبيّن الله سبحانه وتعالى أيضاً لطيف امتنانه، وعظيم فضله وإحسانه على هذه المرأة التي هي من بين أربع نساءٍ كملن بنصّ الحديث الشريف، قال عليه الصلاة والسلام:

((كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَإِنّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي موسى ")

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا)

كانت عفيفة طاهرةً إلى أبعد الحدود..

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

معجزة ولادة عيسى عليه السلام

فمع أنها كانت عفيفة لم يَمْسَسْهَا بشر الله سبحانه وتعالى شاء أن يجعلها تَلِدُ نبيًّا عظيماً هو سيدنا عيسى، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام..

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا)

من جيب درعها، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا)

خيانة دعوة لا خيانة فراش..

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10)وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11)وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ(12))

(سورة التحريم)

في بهذه الآية نُكتة بلاغيّة دقيقة، تقول مثلاً: " أقرَّ الله عين الأمير، وأجرى له ماءها، وكفاها الله شرّها، فالعين الأولى عين الأمير، والعين الثانية.. كفاه الله شرّها.. هي عين الحسود، والعين الثالثة عين الماء، أقرَّ الله عين الأمير، وكفاه الله شرّها، وأجرى له ماءها، هذه الطريقة البلاغيّة اسمها الاستخدام، أن تذكر اسماً وتعيد عليه ضميراً بمعنىً آخر من معاني هذا الاسم..

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ)

بمعنى آخر..

(مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ(12))

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

وحدة مَعِين الأنبياء

أي أن هؤلاء الأنبياء أخذوا من معينٍ واحد، وتلقّوا من مصدرٍ واحد، ودعوا دعوةً واحدة، واستهدفوا هدفاً واحداً، بأن الله واحد، ودعوته واحدة، وأنبياؤه لا نفرّق بين أحدٍ من رسله، وفحوى دعوة الأنبياء واحدة، إنها التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

هذه فحوى رسالات الأنبياء جميعاً، إذاً:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

هناك وحدة في الكون، وحدة في الخلق، وحدة في التسيير، وحدة في التربية، وحدة في التبليغ، وحدة في مضمون الرسالات، هناك وحدةٌ في هذا الكون تبدّت لأن هؤلاء الأنبياء جميعاً على اختلاف تواريخ بعثهم، وعلى اختلاف أقوامهم، وعلى اختلاف بيئاتهم، وعلى اختلاف طِباعهم إنهم يمثِّلون دعوة الله للبشر..

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ(94))

منعطفاتٍ في تاريخ العلوم الغذائيّة

ثمة موضوعٌ دقيقٌ عرضته في خطبة الجمعة، وهو أن هناك منعطفاتٍ في تاريخ العلوم الغذائيّة، هذه المُنعطفات منها اكتشاف الجراثيم، ومنها اكتشاف الفيتامينات، وكيف أن الجراثيم سببٌ لبعض الأمراض الكثيرة، وكيف أن نقص الفيتامينات أيضاً سببٌ لبعض الأمراض الكثيرة، أما الشيء الذي اكتُشِف حديثاً والذي يُعَدُّ منعطفاً خطيراً في علوم الصحّة والتغذية أنّ الغذاء الخالي من الألياف.. أي أن المدنيّة الحديثة عَلّمتنا أن نشرب الفاكهة عصيراً، وأن نأكل الخبز أبيض نقيّاً، وأن نستخدم السكّر الأبيض الناعم، وأن تكون أغذيتنا كلُّها مصفّاة نقيّة.. العلماء اكتشفوا أن الألياف التي جعلها الله قِوام الفاكهة، وقِوام الخضراوات، وقِوام البقول والحبوب، ألياف أقرب مثل لها القمح، فيه مادّة نشويّة صرفة وفي قشور القمح.. أي النخالة.. فهذه ندعها جانباً، ونجعلها علفاً للحيوان، ونأخذ لُبّ القمح، كل شيء سكّري أيضاً توجد معه ألياف.. سيلولوز.. هذه ندعها جانباً ونأخذ المادّة السكريّة المُصفّاة. قال بعض العلماء: كان العلماء يظنّون أن الألياف عُنصراً زائداً عن الحاجة، وأن دورها يتميّز بالسَلبيّة، لذلك عرّفوها على قدر علمهم المحدود بأنها جزءٌ من الطعام يعبُر القناة الهضميّة إلى أن

يُهْضَم، إذاً هي عبءٌ على جهاز الهضم، لذلك عمدوا إلى تنقية الطعام منها، فقدّموا ما يسمّى بالأطعمة النقيّة، السكّر النقي، والدقيق الأبيض، وعصير الفاكهة، وما شاكل ذلك، الآن اكتشف أن هذه الألياف هي سبب للهضم الجَيّد، لأن حجم الألياف في الأمعاء يؤثِر على جدران الأمعاء فيجعلها تتحرّك حركةً تعينُ على هضم الطعام، هذه واحدة، فمن دون ألياف تتكاسل الأمعاء ويصاب الإنسان بالإمساك، مع وجود هذه الألياف بحجمها، وفاعليتها تجعل الهضم في أعلى درجة، هذه واحدة.

الثانية: اكتشف أن هذه الألياف تمتّصُ الماء، وبامتصاص الماء يصبح الهضم ليّناً.

الشيء الثالث: اكتشف أن هذه الألياف تمتصُ المواد الدسمة في الجسم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأنبياء 021 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 92-112

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-06-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن والأخير من سورة الأنبياء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إنّ هَذِهِ أمّتُكُمْ أمّةً وَاحِدَةً وَأنَا رَبُّكُمْ فاعْبُدُونِ)

إنّ هَذِهِ أمّتُكُمْ أمّةً وَاحِدَةً

(هذه) اسم إشارة، وكأن الله سبحانه وتعالى يشيرُ إلى قصص الأنبياء، وكيف أن هؤلاء الأنبياء الكِرام عرفوا ربّهُم، ووحدوه، وأفردوه بالألوهية والربوبية، وعبدوه عبادةً خالصة، ودعوا أقوامهم إلى هذا، فإن هذه المواقف، وهذا التوحيد، وهذا التسليم، وتلك العبادة..

(إنّ هَذِهِ أمّتُكُمْ)

أي مِلّتُكُم، كلمة أمة في هذه الآية معناها المِلّة، أي أن هذا دينكم، هذا مذهبكم، هذه عقيدتكم، هذا دستوركم، هذه شريعتكم، إن هذه مواقف الأنبياء سيدنا إبراهيم، وسيدنا نوح، وسيدنا أيوب، وسيدنا داود، وسيدنا سليمان، وسيدنا إسماعيل، وإدريس وذا الكفل، هؤلاء الأنبياء جميعاً يجمعهم شيء واحد، هذا الشيء هو أنهم عرفوا ربّهم، ووحدوه، وعبدوه، فسعدوا بقربه، ودعوا أقوامهم إلى هذا، فهذا الذي مر بنا في الأسبوع الماضي عن قصص الأنبياء الكرام، إن سيرة هؤلاء، واعتقاد هؤلاء، وتضحية هؤلاء، وإقبال هؤلاء هو جوهر دينكم أيها الأمة العربية.

(إنّ هَذِهِ أمّتُكُمْ أمّةً وَاحِدَةً)

أي أن هذا الدين دينٌ واحد، هذا الدين مبادئه واحدة، سننه واحدة، قِيَمُه واحدة، أوامره واحدة..

(لا نُفَرّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(285))

(سورة البقرة)

طبيعة الرسالات السماوية واحدة، لا تتبدّل ولا تتغير، فإذا تبدّلت، فإذا زاد بعضُها على بعض فبحكم تطور البشر، كلما ارتقت البشرية من طورٍ إلى طور جاء التشريع السماوي ليغطِّي هذا الطور الجديد، ولكن طبيعة الرسالات السماوية واحدة.

(إنّ هَذِهِ أمّتُكُمْ)

كلمة لو أن اسم الإشارة جاء بعده اسمٌ معرفٌ بأل لكان بدلاً، إن هذه الأمة أمة واحدة.. أما:

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ)

أمتكم هي الخَبَر، كأن الله سبحانه وتعالى يشير بهذا الاسم، اسم الإشارة، إلى قصص الأنبياء جميعاً، وإلى عقيدتهم، وإلى توحيدهم، وإلى عبادتهم، وإلى استقامتهم، وإلى أعمالهم الصالحة، وإلى تضحياتهم، وإلى دعوة الناس إلى ربهم..

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ)

والخطاب موجهٌ لمن أنزل هذا القرآن إليهم، وهذا القرآن الذي أنزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام نحن المسلمين مخاطبون به، نحن مخاطبون به، وكأن الله عزّ وجل يبيّنُ لنا أن هذه القصص التي ذكرتها لكم لم تُذكَر من أجل الاطِّلاع، ولكن من أجل أن تتخذ أساساً لعقيدتكم، ولاستقامتكم، ولأعمالكم.

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً)

وهذه المِلّة وهذا الدين دينٌ موحّد لأن الخالق واحد، والبشر هم خَلْقُهُ، ولهم طبيعةٌ واحدة، خلقكم من نفسٍ واحدة، إنسانٌ يسكن في أقاصي البلاد في القُطب الشمالي، وإنسانٌ آخر يسكن في القُطب الجنوبي، وإنسانٌ من شرق الأرض وإنسانٌ من غربها، كل هؤلاء لهم طبيعةٌ واحدة

(فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

فطرة واحدة، كل هؤلاء البشر حريصون على سلامتهم، كل هؤلاء البشر حريصون على سعادتهم، كل هؤلاء البشر يخافون المُصيبة، يخشون الهلاك، يحبّون الخير، يحبون الحق، يحبون الرحمة، يحبون العدالة، هذه فطرة الله عزّ وجل، فكلمة أمةً واحدة، أي أنه لا ينبغي أن يكون هناك تناقضٌ بين الأديان، لأن الأصل واحد، لأن المِشْكَاةَ واحدة، ألم يقل النجاشي حينما بلغته رسالة النبي عليه الصلاة والسلام: " إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاةٍ واحدة.. " من أصلٍ واحد، ولو أن الإنسان اطّلع على الإنجيل كما أنزل، وعلى التوراة كما أنزلت قبل أن يطرأ عليها التحريف والتبديل، لوجد الكتب السماوية من روحٍ واحدة، لأنها كلها كلام الله سبحانه وتعالى.

(إِنّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

افتراق الناس أحزابا وطوائف

وربنا هوَ هو، ربنا الذي نعبده هو ربُّ هؤلاء الأنبياء الذي أوحى إليهم الكتب، وأنزل عليهم الشرائع، وأمرهم بدعوة الناس للإيمان بالله وعبادته.

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

لكن أتباع هؤلاء الأنبياء تقطّعوا أمرهم، أمرهم هو دينهم، تقطّعوه جعلوه قِطعَاً، هذا أخذ من الدين هذا الجانب وضخّمه، وجعله الدين كله، وهاجم فريقاً آخر أخذ جانباً آخر، أساس الأديان واحد، لكن أتباع الأنبياء أخذوا من الدين ما يناسب أهواءهم، وتركوا ما يعارض شهواتهم، وتعصبوا لما أخذوه، وتهجموا على من لم يأخذوه، فأصبحت الديانات من بعد الأنبياء طرائق وقطعاً، وأصبحت متناقضة، و:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(53))

(سورة المؤمنون)

أي أن هذه الخلافات التي جاءت بعد الأنبياء ما أنزل الله بها من سُلطان، وما أرادها الله، إن أتباع الأنبياء اتبعوا شهواتهم، ولم يتبعوا أنبياءهم، باتباعهم شهواتهم أخذوا من الدين ما يروقُ لهم، وتعصبوا له، وهاجموا كل طرفٍ آخر لم يأخذ ما أخذوا، هذا على مستوى الأديان.

أما على مستوى الدين الواحد، الإسلام كما ترون، فريقٌ رأى أن الفقهَ كل شيء، مع أن الفقه هو جوهر الدين، وفريق رأى أن التفكير كل شيء، وآخر رأى أن علم الحديث كل شيء، ورابعٌ رأى أن التوحيد كل شيء، وخامس رأى أن علم الأصول كل شيء، وسادس رأى أن المواجد والأحوال هي كل شيء، وكلٌ فرقةٍ تعتزُّ بما عندها وتهاجم أختها، لذلك أصبح الدين مِزَقَاً وفِرَقَاً، هذه كلها أشياء متكاملة، فالدين يجب أن يلم بكل هذه العلوم، ويجب أن يراها متكاملة وليست متناقضة، متعاونة لا متنافسة، الدين له جناحان جناح العقل وجناح القلب، فالدين لا يقوم على جناحٍ واحد، لابدّ من علم الشريعة، ولابدّ من علم الحقيقة، لابدّ من الإيمان ولابدّ من العمل، لابدّ من الفقه، ولابدّ من الحُبِّ، لابدّ من ضبط الحديث ولابدّ من ضبط التفسير، كل إنسانٍ يظن أنه وحده على حق، والآخرون على ضلال هذه نظرةٌ ضيقةٌ لا يرضاها الإسلام.

بعضهم يرى أن الدين طرب وأناشيد ومدائح، بعضهم يرى أن الدين كتاب، بعضهم يرى أن الدين سلوك، والحقيقة أن كل هذه الأقوال صحيحةٌ إذا كانت مجتمعة ومتكاملة ومتعاونة..

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

دعوة إلى التوحيد ونبذ الفرقة

يجب أن يكون الناس متجهين اتجاهاً واحداً، يجب أن يكون الناس متكاتفين، أما هذه الخصومات بين الفرق الدينية، وبين المذاهب ما أنزل الله بها من سلطان، هذه الخصومات مُفتعلة، هذه الخصومات ما أرادها الأنبياء، ولا أرادها صاحب الرسالة العُظمى، لذلك كلما توحّدت القلوب، وكلما أحب بعضنا بعضاً وعذر بعضنا بعضاً، كلما كثرت القواسم المشتركة، وكلما ازدادت نقاط اللقاء فنحن في خير، لذلك الإنسان ينبغي أن يكون ذا أفقٍ واسع، وأن يرى أنه عضوٌ في أسرة، وليس هو الأسرة كلها، يرى

أنه جنديٌ للحق وليس هو الجيش كلّه، هذه النظرة المتواضعة، وهذه النظرة المنفتحة هي سِرٌ تقدّم المسلمين، إذاً:

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)

لكن..

(كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

رجوع الخلق إلى الله بعد الموت

هؤلاء الذين اختلفوا، وتناحروا، وتباغضوا، وتحاسدوا، وتخاصموا، واتهم بعضهم بعضاً كلٌ يتهم الآخر بأنه على ضلال، وأن في عقيدته زيغًا، وأن في سلوكه انحراف، وأنه وحده على الحق، هذه النظرة الضيقة سوف يحاسب الإنسان عليها.

(كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

كل هؤلاء الأطراف الذين فهموا الدين فهماً جزئياً، أخذوا منه قطعة وأعلنوا أنها هي الدين كله، هؤلاء سوف يرجعون إلينا وسوف نحاسبهم على هذه الفرقة التي أحدثوها، وتلك الخصومات التي افتعلوها، وهذا التمزق الذي صنعوه.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

فمن أساء الظن بأخيه فقد أساء الظن بربه، الأخ المؤمن من غلب عليه الصلاح والتستُّر، يصلي الخمس، يصوم رمضان، يعلن الشهادتين، يأكل مالاً حلالاً، يغض بصره عن محارم الله، هذا أخٌ لك ولو كان تابعاً لأحد العلماء الآخرين، هو أخٌ لك حقيقةً، أما هذه النظرة الضيّقة، هذا من جماعتنا، وهذا من جماعتكم، وهذا منا، وهذا منكم، هذه نظرةٌ ضيقةٌ لا تليق بالمسلمين أبداً.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

في بعض العصور بلغت الحماقة بالناس أنه لا يجوز أن نزوج الحنفية للشافعي، وقد خاف الناس إذا تزوج الحنفي بالشافعية أن يأتي ولدٌ حنفشعي كما يقولون.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ)

من هؤلاء الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم الأنبياء..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

هذه الآية دقيقة جداً، أي أن بعد هذه الفرقة، وبعد هذا الخلاف، وبعد هذا التمزّق، وكلٌ يدعي أنه على حق، وأن أخاه على باطل، كل فرقةٍ تدعي أنها تعرف جوهر الدين، وأن الأخرى لا تفقه شيئاً، وسط هذه الزحمة من المذاهب، والاتجاهات، والتعصُّبات، والأفق الضيق، من هؤلاء جميعاً..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

انظر إلى مقياس ربنا عزّ وجل ؛ أن يكون عملك صالحاً، وأن يُبنى هذا العمل الصالح على إيمان، لو تعلّمت علم الثقلين، وكان عملك سيّئاً لست عند الله مقبولاً، لو صحّت عقيدتك، وساء عملك فلست عند الله مقبولاً، لو صلح عملك، وساءت عقيدتك لست عن الله مقبولاً، عند الله شيئان، مقياسان دقيقان إذا توافرا في الإنسان رفعه الله سبحانه وتعالى، وقبله، وتجلّى عليه، ورضي عنه..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

هذا الذي يصلي ويكذب مرفوضٌ عند الله عزّ وجل، هذا الذي يصلي ويغتاب الآخرين مرفوضٌ عند الله عزّ وجل، هذا الذي يصلي، ويأكل مالاً حراماً، يصلي في أول صف، ولم تفته الصلاة في وقتها، ويأكل مالاً حراماً مرفوضٌ عند الله عزّ وجل، وكما قال سهل التستُري "والله لترك دانقٍ من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام "، والله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لأن أمشي مع أخ مؤمنٍ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافي في مسجدي هذا))

[مجمع الزوائد (191/8) نحوه عن ابن عمر]

للبشر مقاييس، أنت إذا درست في جامعاتٍ راقية، وحصّلت شهاداتٍ عالية، وأعلنت للناس أنك تحمل هذه الشهادة، وأنه قد مضى عليك كذا من السنوات حتى حصّلتها، ربما كنت عند الناس عظيماً بمقياس أهل الأرض، وإذا عرف الناس أنك غني تملك ألوف الألوف ربما عَظُمْتَ في نظر الناس، لأن مقياس الناس المال، ومقياس الناس الشهادات الرفيعة، وإذا عرف أنك ذو حولٍ وطول، وأنك من أولي الحل والعَقْد، فربما هابوك بمقياس الناس، ولكن البطولة أن تنجح بمقياس السماء، بمقياس الله سبحانه وتعالى، هذا مقياس الله عزّ وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ)

هذا هو جوهر الدين، عملٌ طيّب، استقامةٌ على أمر الله، ائتمارٌ بما أمر الله، وانتهاءٌ عما نهى عنه، وأعمالٌ طيّبة، كل هذا مبنيٌ على عقيدةٍ صحيحة إيمانٍ صحيح، إذا توافر فيك هذان الشرطان، إيمانٌ صحيح، وعملٌ صالح، أي استقامة، وعملٌ صالح فأنت بمقياس الله سبحانه وتعالى مقبولٌ، سعيدٌ في الدنيا والآخرة.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنّا لَهُ كَاتِبُونَ)

لا يضيع عملُ عاملٍ: وَإِنّا لَهُ كَاتِبُونَ

أما كلمة (كاتبون) هذه كي نطمئن، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج أن يكتب..

(لا يَضِلُّ رَبّي وَلا يَنسَى(52))

(سورة طه)

ولكن خطابٌ على مستوى عقولنا، الشيء إذا كتب أصبح ثابتاً، فالذي يتملّك البيت دون مستندات رسمية يبقى قلقاً، أما لو معه مستند رسمي مكتوب موقّع، مختوم، له رقم، وتاريخ، يطمئن يقول لك: بموجب العقد الفلاني، وفيه رقم، وتاريخ، فربنا عزّ وجل يخاطب عباده بحسب معطياتهم:

(وَإِنّا لَهُ كَاتِبُونَ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنّا لَهُ كَاتِبُونَ)

أي أن حقك محفوظ، وزوال السماوات والأرض أهون عند الله من أن يضيّعَ عليك عملك الصالح، عملت عملاً صالحاً لن يضيع عليك هذا العمل.

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أنّهم لاَ يَرْجِعون

أحياناً يتوهّم الإنسان أن هذه القرية أهلكها الله، وانتهى الأمر، ليس هلاكها نهايةً لها، ولكن هلاكها بدايةٌ لحسابها حساباً عسيراً، ليس الموت نهاية إنه بداية، المؤمن تنتهي مشكلاته الدنيوية بالموت، ولكن غير المؤمن تبدأ مشكلاته بعد الموت، يحاسب حساباً عسيراً..

(فَوَرَبّكَ لَنَسْأَلَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

المعنى الأول:

حرامٌ، أي واجبٌ على أية قريةٍ أهلكناها أنهم لابدّ من أن يرجعوا إلينا، حرامٌ أن لا يرجعوا، أي مستحيل أن لا يرجعوا، أي لابدّ أن يرجعوا إلينا، وبعد الرجوع إلينا يحاسبون على ظلمهم وعلى أعمالهم وانحرافاتهم.

المعنى الثاني:

وفي بعضهم التفاسير يعدُّون (لا) زائدة، وهم يرجعون، أي لا يرجعون إلى دنياهم، أي أنهم ماتوا لا يعودون إلى مساكنهم، ولا إلى شهواتهم، ولا إلى ملذّاتهم، ولا إلى بيوتهم الفَخْمَة، ولا إلى أعمالهم الرائعة، إذا أهلكوا فكان هذا الهلاك نهاية له، ولا مانع من أن نجمع بين المعنيين، هذه القرية الظالمة إذا أهلكها الله عزّ وجل لن ترجع إلى الدنيا لتستمتع كما كانت تستمتع، بل سوف ترجع إلى الله عزّ وجل لتلقى حسابها عن كل عملٍ قامت به، وما ينطبق على الجماعات ينطبق على الأفراد، الإنسان حينما يموت لن يرجع إلى بيته، ولن يستمتع بغرفته، ولن يستمتع بأهله، ولن يستمتع بمكانته، ولن يستمتع بماله، إذا مات انتهى الأمر، وسوف يرجع إلى ربه..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

فيمكن أن نجمع بين المعنين الدقيقين لهذه الآية.

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

الآن الآية التي تليها:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ(97))

مِن أشراط الساعة: يأجوج ومأجوج

كلمة (حتى) تفيد انتهاء الغاية، أي أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء والمرسلين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليدعو الناس إلى عبادة الله، فمن استجاب أكرمه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يستجب أهلكه الله، وما تزال هذه السنن قائمة حتى، أي حتى تحين الساعة، حتى تحين ساعة النهاية، لا يزال الله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى طاعته، وإلى الإيمان به، وإلى التقرُّب إليه. فمن استجاب أكرمه في الدنيا، ومن لم يستجب عذّبه في الدنيا، فإن كان الكفر عاماً أهلك الله القرية ومن فيها، وما يزال الله عزّ وجل يبيّن وينزّل على عباده الكتب والأنبياء، وينزل على أنبيائه الكتب، ولكن بعد أن جاء النبي عليه الصلاة والسلام، وهو خاتم الأنبياء، وبعد أن نزل عليه القرآن وهو آخر كتابٍ سماوي، هذا يستمر إلى أن يأتي يأجوج ومأجوج، ويأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، وللعلماء مذاهب مثيرة في تفسير هذه الظاهرة، أوجه هذه التفاسير:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ)

يأجوج ومأجوج مُطَلَقُ الأمم والشعوب التي تستفزُّ بعضها بعضاً، فحينما يطلِّق الناس الدين كله، وحينما ينصبون على شهواتهم، وعلى دنياهم، وحينما تصبح حروبُهم حروب منافع، وحروب مكتسبات مادِّية، وحينما يأكل القوي الضعيف، وحينما يُصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، وحينما يوسَّد الأمر إلى غير أهله، وحينما تَلِدُ الأمة ربّتها، وحينما يأتمن الخائن ويخوّن الأمين، وحينما يقترب الوعد الحق..

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ)

فشعوبٌ كثيرة، انفجارٌ في السُكّان، وبعدٌ عن الرحمن، بشرٌ لا يعدُّون ولا يحصون ينسلون من كل جانب وهم جميعاً معرضون، غافلون، يرتكبون الفواحش، يفعلون كل شيء من دون قيدٍ أو شرط، لا قيم تردعهم، ولا دين يحجزهم، ولا منطق يسيّرُهُم، ولا حكمة تقودهم، إنما هي شهواتهم تحرّكُهُم إلى مصيرهم، وإلى هلاكهم.

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)

بعض المُفَسِّرين فَسَّر هذه الآية، ووجهها إلى موجات التتار التي خرجت من شرقي آسيا، وغزت معظم البلاد، وقوّضَت العروش والممالك، ففي حينه كانت هذه الهجمات تنطبق عليها هذه الآية، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي أمية الشعباني ")

أي بشرٌ لا يعدون ولا يحصون، كلُّهم كفار، كلهم غافلون، ينكرون وجود الله عزّ وجل، دينهم شهواتهم، إذا بلغت البشرية هذا المستوى فاعلم أن الساعة قد اقتربت،

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

القرآن حمّال أوجه، القرآن ذو وجوه، انفجار سكاني وقِيَم مُدَمِّرَة، لا يوجد قيم أبداً، أحياناً تحس أن القوي يأكل الضعيف على مستوى الكرة الأرضية، الحق للقوة، وليس هناك قيم ثابتة أبداً، كل إنسانٍ دينه شهوته، ولا يعنيه ربه، ولا آخرته، ولا حياته، ولا سعادته، إنما يبحث عن لذّته الآنية، إذا كان هناك انفجار في السكان، وبعد عن الرحمن فهذه ملامح هذه الآية:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)

الحدب المكان المرتفع..

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

علماء اللغة يقولون: شخصَ البصر أي نظر مع الخوف، عندنا في اللغة نظر، وعندنا حَدّجَ.. قال عليه الصلاة والسلام:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[روي في الأثر]

حدّج نظر مع محبّة، وعندنا رنا نظر مع السرور، رنوت إليه، شخص نظر إلى منظر طبيعي جميل، يقال: رنا إليه، وحدّج، وبحلَقَ، وحَدّق، وحملق، ظهر حملاق العين، واستشرف، واستشفّ، ونظر شزراً، وشخص، ولاح، ولمَحَ، يوجد خمسون كلمة تقريبًا، تعبّر كل كلمةٍ عن حالةٍ دقيقةٍ من حالات النظر، شخص هنا معناها نظر مع الخوف.

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

لذلك البطولة، ليس من يقطع طرْقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل، البطولة أن تعُدّ لهذه الساعة عُدَّتَها، البطولة أن تعد لساعة الموت عدتها، الذكاء أن تتوقع هذا اليوم قبل أن يأتي هذا اليوم، أما أن يفاجأ الإنسان بساعة الوفاة، وقد قدّم الأعمال السَيّئَة، وكان غافلاً عن الله سبحانه وتعالى عندئذٍ يصعق، قال تعالى:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ(83))

(سورة الزخرف)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(45))

(سورة الطور)

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

في الدنيا لما يتيه الإنسان، ويشرُد، ويرتكب الموبقات، ثم يُلقى القبض عليه، وقد يفاجأ، لكن انظر إلى وجهه لا ترى فيه لوناً، إن الخوف يظهر من ملامح وجهه.

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا)

البطولة ؛ أن لا تكون في غفلة..

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ)

(سورة إبراهيم: من آية " 42 ")

لا ينبغي أن تكون غافلاً، ولا ينبغي أن تظن أن الله غافل.

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنّا ظَالِمِينَ)

فيأتي جواب الله عزّ وجل:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

إنكم وما تعبدون من دون الله

حينما نزلت هذه الآية وجدت قريش أن فيها ثَغْرَة، أليس المسيح رسول الله ؟ أليس عُزَيْر رسول الله، نبيٌ من أنبياء الله ؟ فكيف يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

أيكون هؤلاء الأنبياء الكرام حصب جهنم ؟ فلما جاءوا النبي عليه الصلاة والسلام ليبّنوا له هذه الثُّغْرَةَ في الآية، تبسم، وقال لأحدهم: " كأنك لا تفهم لغة قومك "، هذه (ما) لغير العاقل، لم يقل الله عزّ وجل: إنكم ومن تعبدون من دون الله، قال:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ)

و(ما) تنصرف إلى الأصنام، فهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله أيها الكفار كما جاءت الآية:

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

ومعنى حصب جهنم أي وقود جهنم.

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

واردون أي داخلون..

(لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا)

إنكم وما تعبدون من دون الله

مناة والعُزّى، هذه الآلهة التي زعمها العرب لو كانت آلهة حقاً ما دخلتْها..

(لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)

المعبود والعابد، الذي عَبَدَ هذه الأصنام، وهذه الأصنام التي عُبِدَت من دون الله إنها جميعاً حصب جهنم.

زفير أهل جهنم من شدة العذاب

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

الزفير: حينما يتألّم الإنسان ألماً شديداً يتنفس بصوت، وحينما يتألّم يحدث مع تنفُّسه صوتاً تعبيراً عن ألمه الشديد.. فهؤلاء وهم في النار..

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ)

وربما كان هذا الزفير مُرتفعاً إلى درجة أنه يتعطّل السمع..

(وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

فهي صورة من صور العذاب في نار جهنم، نارٌ تلفح الوجوه، وأصواتٌ تُصِمُّ الآذان.

(إِنّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

من زحزح عن النار فقد فاز

هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا، اهتدوا إليه، فكّروا في مخلوقاته، قرؤوا كتابه، أطاعوه، تقرّبوا إليه، هؤلاء سَبَقَ لهم من الله وعدٌ أن ينجّيهم من هذا الهول، هؤلاء الذين عرفوه في الدنيا، عرفوا عظمته، عرفوا مقامه، خافوا مقامه، أطاعوا أمره، طبّقوا سُنّة نبيّه، تقربوا إليه، هؤلاء وعدهم الله وعداً حسناً، لهم البشرى في الحياة الدنيا، هؤلاء الذين سبق من الله وعدٌ لهم..

(إِنّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا)

لا يسمعون حسيسها

صوت النار، أحياناً لو وضعت في النار شيئاً يكون له صوت، الحطب حينما يحترق له صوت، وأي شيء حينما يوضع في النار له صوت، هذا هو الحسيس، هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحُسنى لا يسمعون حسيسها، أي لئن كانوا مبعدين عن سماع حسيسها، فهم بعيدون عن نارها من باب أولى، لئن كانوا بعيدين عن صوتها فهم عن لهيبها أبعد، وهذه بلاغة في التعبير.

(لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ)

هذا هو الفوز، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو الذكاء، هذا هو العَقل، هذه هي الحكمة، هذا هو الإنسان الراقي الذي عرف ربّه، وأطاعه.

" ابن آدم أطع ربك تسمّ عاقلاً، ولا تعصه فتسمى جاهل "، " وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله وكفى به جهلاً أن يعصيه ".

(إِنّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)

الفزع الأكبر

إذاً هناك فزعٌ أكبر نعوذ بالله منه، نعوذ بالله أن يصيبنا هذا الفزع الأكبر.

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)

أحياناً في الدنيا يفزع بعض الناس، وأناسٌ آخرون في طمأنينة، تثور قضية، أناسٌ يحاسبون عليها حساباً شديداً، وأناسٌ بريئون مستقيمون، هم في دعةٍ وطمأنينة، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة ؟

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ

هذا هو اليوم الذي وعدتم به، لذلك حال الشيطان يوم القيامة:

(وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: من آية " 22 ")

(هَذَا يَوْمُكُمُ الّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

ولابدّ من أن يأتي هذا اليوم، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون فيه من الناجين، وأن نكون تحت لواء سيّد المُرسلين، والبطولة أن نعرف الله الآن، لا بعد فوات الأوان.

(يَوْمَ نَطْوِي السّمَاءَ كَطَيّ السّجِلّ لِلْكُتُبِ)

من أهوال القيامة العظمى

حينما تنتهي المحاضرة من قِبَلِ الأستاذ في الجامعة، حينما يُغلق كتابه ما معنى ذلك ؟ المحاضرة انتهت، والدرس انتهى، حينما يُغلق القاضي الإضبارة، معنى ذلك أن القضية انتهت، تشبيهٌ رائع..

(يَوْمَ نَطْوِي السّمَاءَ)

هذه السماء..

(إِذَا السّمَاءُ انفَطَرَتْ(1))

(سورة الانفطار)

انتهت وظيفتها،

(إِذَا الشّمْسُ كُوّرَتْ(1))

(سورة التكوير)

انتهت وظيفتها،

(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

انتهت وظيفتها..

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(3)وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(4)وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(5))

(سورة التكوير)

فهذا الكون قائمٌ على هذا الشكل، وعلى هذا النحو، لأنه الآن يحقق هدفاً عظيماً، وهو أنه دليلٌ على الله عزّ وجل، وسيلةٌ من وسائل الإيضاح، هذا الكون قائم كي تعرف الله به، فإذا نُفِخَ في الصور وجاء يوم القيامة، وختم العمل، وانتهى الاختيار، وانتهى التكليف، وانتهى كل شيء، فلماذا الكون ؟ لماذا السماء ؟ ولماذا الشمس ؟ ولماذا القمر ؟ ولماذا الأرض ؟ ولماذا الجبال ؟

(الْقَارِعَةُ(1)مَا الْقَارِعَةُ(2)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ(3)يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ(4)وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ(5)فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(6)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(7)وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(8)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(9)وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ(10)نَارٌ حَامِيَةٌ(11))

(سورة القارعة)

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(3)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39)فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(40)عَنْ الْمُجْرِمِينَ(41)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(42)قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(43)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(44)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(48))

(سورة المدثر)

فلذلك:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ)

كيف يطوى الكتاب، وتُرْفعُ الجلسة ؟ كيف يطوى الكتاب، وتنتهي المحاضرة ؟ كيف يطوى الدفتر، وينتهي التحقيق، ويصدر الحكم ؟ كيف ؟

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)

حينما تنتهي الحياة الدنيا يُعاد الخلق مرةً ثانية بالطريقة التي خُلقوا بها أول مرة، كيف أن الله سبحانه وتعالى قال: كن فيكون في البداية، وفي الخلق الثاني كن فيكون، في الخلق الأول كن فيكون، وفي الخلق الثاني كن فيكون وانتهى الأمر.

(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

وعدُ الله عزّ وجل في حُكْم الواقع، وعد الله كأنه واقع، لذلك ربنا عزّ وجل في أكثر آيات القرآن التي يتحدّث بها عن المُستقبل يستخدم الفعل الماضي..

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

(سورة المائدة: من آية " 116 ")

هذا شيء لم يقع بَعد، لكن لتحقق الوقوع، حينما يستخدم الفعل الماضي في معرض الحديث عن المستقبل فهذا لِتَحَقُّق الوقوع.

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105))

إنا كنا فاعلين

أي أن من الحقائق الثابتة، من المبادئ الكُلِيّة التي كتبت في اللوح المحفوظ، أو في القرآن الكريم، أو في التوراة والزبور، ليس المقصود الكتاب، ولكن المقصود المكتوب، ما المكتوب ؟

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

العاقبة للصالحين

أي أن الكُفار مهما علا شأنهم، ومهما سخّروا الطبيعة لمآربهم، لو وصلوا إلى أطباق السماء، لو غاصوا إلى أعماق البحار، لو اخترعوا كل الآلات الحديثة التي تأخُذ بالألباب، لو أصبحت لهم حضارةٌ لا يُشَقّ لها غبار..

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

حينما يطيب الإنسان قلبه، وينضج عقله، حينما تنمو مشاعره، ويتّقِدُ ذهنه يصبح أهلاً أن يكون خليفة الله في الأرض، حينما يوازن بين عقله وقلبه، ولكن أحياناً قد يفترق العقل عن القلب، قد ينمو العقل عند الكُفّار على حساب قلبهم، وقد ينمو القلب عند المؤمنين على حساب عقلهم، يفترقان، وقد يسمح الله لأهل الكفر أن يعلو في الأرض، فالآن بالعالم الغربي ليست كلمة الله هي العُليا، ربما كانت كلمة الكفر هي العليا، ومع ذلك الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

قال بعض العلماء: **" هذا الوعد في الآخرة، العباد الصالحون هم الذين يدخلون الجنة ويتنعّمون بها إلى الأبد، وهم حينما تنتهي الأرض يدخلون الجنة "**، وبعضهم قال: **" في الدنيا "**، الله سبحانه وتعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من آية " 55 ")

بعضهم قال هذا، وبعضهم قال هذا، والأصح أن يُجْمَعُ بين التفسيرين، أي أن العباد الصالحون لابدّ من أن يرفع الله شأنهم في الدنيا، فليصبروا، فإذا انتهت الدنيا لابدّ من أن يدخلوا جنة ربّهم، فليستبشروا.

كتابة: والكتابة لنا، تطمين لنا.

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ)

الذِكر القرآن في بعض التفاسير، والذِكر اللوح المحفوظ في بعضها الآخر.

(مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ)

كيف جاء الزبور بعد القرآن ؟ قال: هذا ترتيبٌ رُتَبِيّ وليس ترتيبًا زمنيًا، اللوح المحفوظ، أو القرآن، ومن بعده في الدرجة الزبور كتب فيهما..

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

حتى على المستوى الفردي، إذا صلح عمل الإنسان فلابدّ أن يرفع ذِكْرُهُ، لابدّ وأن يرفع الله شأنه، هذه بشارة.

(إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين

معنى بلاغاً، أي إن في هذا الكلام وهذا التطمين، وهذه الحقائق، وهذه القصص، وهذه التأكيدات، وهذه المُنطلقات..

(إنّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً)

أي إن في هذه بُلْغَةً شيءٌ يكفي، والله الذي لا إله إلا هو آيةٌ واحدة في القرآن تكفي، أعرابيٌ جاء النبي عليه الصلاة والسلام قال: " يا محمد عظني وأوجز ".. (لا تطِل علي).. قال له:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال له: **" قد كُفيت "**، فقال عليه الصلاة والسلام: **" فقُهَ الرجل "**، هذه الآية تكفي.. لكن:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(1))

(سورة النساء)

ألا تكفي هذه الآية ؟

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(14))

(سورة الفجر)

ألا تكفي هذه الآية ؟

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

ألا تكفي هذه الآية ؟

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

ألا تكفي هذه الآية ؟ والله الذي لا إله إلا هو كل آيةٍ في كتاب الله تكفي، ربنا عزّ وجل ذَكَرَ آيات، وذكر قصصاً، وذكر أخباراً، وذكر مشاهد ليوم القيامة، وذكر أوامر، وذكر نواهي، ووعداً، ووعيداً، وأمثالاً من أجل أن نهتدي، وكل آيةٍ، وكل قصة، وكل مثلٍ، وكل حقيقةٍ، وكل مشهدٍ، وكل خبرٍ يكفي..

(إنّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً)

إنه شيءٌ كافٍ.

تعقيباً على هذه الكلمة، دخل بعض أصحاب رسول الله على الصحابي الجليل سيدنا أبي عبيدة بن الجراح وكان قائد الجيوش في الشام، دخلوا إلى غرفته، فإذا فيها جلدُ غزال، وقدر ماء مغطى برغيف خبز، وسيفٌ معلق على الحائط، فقالوا: " ما هذا يا أبا عبيدة ؟ "، قال: " هو للدنيا وعلى الدنيا كثير، ألا يُبَلِّغُنا المقيل ؟ " معنى يبلِّغُنَا..

(إنّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً)

هذا التفصيل يكفي، بقي العمل، بقي التطبيق، بقي الانطلاق، بقي السَيْرُ إلى الله عزّ وجل، ففرّوا إلى الله جميعاً.. **" شمِّروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، وخففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبةً كؤود، وأخلصوا النية فإن الناقد بصير ".**

" يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد ".

ما الذي بقي علينا ؟ أن نتحرّك لتطبيق هذا القرآن والعمل بأحكامه.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

إنّمَا أنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ

قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّمَا أنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ))

(من سنن الدارمي عن أبي صالح)

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

أرسل أحد الولاة لسيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه: " إن الناس جميعاً دخلوا في الإسلام، وانقطعت الموارد.. انتهت الجزية.. " فقال هذا الخليفة الراشد: **" إن الله لم يبعث محمداً جابياً، ولكن بعثه هادياً، والله كم أتمنى أن أكون أنا، وأنت راعيين نرعى الإبل، ويدخل الناس في الإسلام أفواجاً"**.. الواردات قلّت، لأن الناس دخلوا في الإسلام.. هكذا.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

النبي عليه الصلاة والسلام للعالمين، للبشر ولغير البشر، رأى رجلاً يذبح شاةً أمام أختها فقال:

((هلاّ حجزتها عن أختها، أتريد أن تميتها مرتين ؟))

في قلبه رحمة..

وعَنْ شَدّادِ بْنِ أَوْسٍ قالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ:

((إنّ اللّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذّبْحَ، وَلْيُحِدّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم]

لو قتل رجلٌ عقرباً، وعَذّبه فهو مؤاخذ، هكذا النبي الكريم أمرنا، فإذا قتلتم عقرباً فأحسنوا القتل، ضربة واحدة، وليس تعذيب..

((وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذّبْحَ، وَلْيُحِدّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

وليس بسكين غير حادّة.

((إنّمَا أنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ))

(من سنن الدارمي: "عن أبي صالح ")

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيّ أَنّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

ملخص القرآن: قل إنما يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد

هذه الآية تُلخِّص القرآن كله:

(قُلْ إِنّمَا يُوحَى إِلَيّ أَنّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

والله الذي لا إله إلا هو.. ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.. فما دمت ترى أن زيداً، وعبيداً، وفلاناً، وعِلاناً، بيده أمرك، بيده نفعك، بيده ضرك، بيده رفعك، بيده خَفضك، لست مؤمناً، هذا هو الشرك، قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوةٌ خفية، وأعمالٌ لغير الله))

[ابن ماجه قريبا من هذا اللفظ]

هذا هو الشرك الخفي.. الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصمّاء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيءٍ من الجَور، وأن تبغض على شيءٍ من العَدل.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

فلذلك:

(قُلْ إِنّمَا يُوحَى إِلَيّ أَنّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

إله السماء هو إله الأرض..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

إن الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يقول:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال: من آية " 17 ")

هذا هو التوحيد، هذا هو الإيمان، اجعل الهموم هماً واحداً يكفك الهموم كلّها.. من أصبح وأكبر همه الدُنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة.

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

الحضّ والحثّ على الإسلام

يقول ربُكم سبحانه وتعالى:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

نعم يا ربنا، نعم إنا مسلمون لك.

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

هل أداة حَض، الله سبحانه وتعالى يحضُكم على أن تسلموا له..

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آَذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ)

إذا أعرَضوا، ورفضوا ولم يستجيبوا، واستهزؤوا، واستكبروا، واستَعلَوا..

(فَقُلْ آَذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ)

الناس أمام البلاغ الإلهي سواء

أنا بلّغتكم، بلغتكم جميعاً، أنتم جميعاً أمام البلاغ الإلهي واحد.

(وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ)

النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب

لا أدري، إنما أنا بشر، الله الذي يدري، أما أنا فلا أدري، هذه (إن) حرف نفي بمعنى ما أدري..

(وَإِنْ أَدْرِي)

أي لا أدري..

(أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

إن تكلّمت يعلم كلامك، وإن سكت يعلم سرك.

(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

لعل هذا امتحانٌ لكم.

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

الحكم بالحق

هذه الآية دقيقة جداً، احكم بالحق هذا القيد.

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)

فهل يحكم الله بالباطل ؟ لا، قال: هذا قيدٌ توضيحي لا قيدٌ احترازي، المعنى دقيقة جداً، إذا قلت لإنسان: احكم بالحق أي إيّاك أن تحكم بالباطل، هذا نقول له: قيدٌ احترازي، أنا أحذرك أن تحكم بالباطل، ولكنك إذا قلت لله عزّ وجل داعياً:

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)

هذا قيدٌ توضيحي، أي يا ربي احكم حكمك الذي هو بالحق دائماً، هذا المعنى، احكم حكمك الذي هو بالحق دائماً.

(قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1 - 6
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-06-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الحج.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2))

الخطاب بـ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ:

أيها الإخوة الأكارم، يوجّه ربنا سبحانه وتعالى الخطاب إلى الناس كافّة، لأن الناس جميعاً مدعوٌّون إلى الإيمان به، ومعرفته، والاستقامة على أمره، والدين الإسلامي رحمةٌ للعالمين، وهو دين البشريّة، لذلك تكثُرُ كلمة.. يا أيها الناس..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة: من آية " 21 ")

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

معنى الربوبية ولوازمها:

أمّا كلمة " ربّ " فهذا اسم من أسماء الله، الربُّ، وفي معنى الرب تتلخّص الربوبيّة، والرب هو الذي يُمِدُّ المخلوق بما يحتاج إليه من أشياء مادية تعينه على حياته، ومن تربيةٍ نفسية، فإذا قُلت:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

أي أن هذه العوالم جميعاً ربُّها الله الذي يمدُّها، هذا الهواء الذي نستنشقه هو من عند ربِّ العالمين، هذا الماء الذي نشربه، هذا الماء العَذْبُ الذي صفّاه الله لنا عن طريق الشمس، والسُحب، والأمطار، والينابيع، هو من عند الله رب العالمين، هذا القمح الذي نأكله، وهذه الخضراوات التي نأكلها، وتلك الفواكه التي نأكلها، وهذه الحاجات، هذه المعادن التي أودعها الله في الأرض، وهذه المخلوقات التي سُخِّرَت لنا، إنها كلّها من عند الله رب العالمين، لذلك أوّل آيات الفاتحة..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

المُربي الذي يربّي أجسادنا، والذي يربي مشاعرنا، والذي يربي عقولنا، والذي يربي نفوسنا، والذي يؤهِّلنا كي نسعد في الدنيا والآخرة، إن معنى التربية واضحٌ في كلمة الرب.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الذي خلقكم، والذي ربّاكم، والذي يسيّركم..

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

معنى التقوى ولوازمها: ما معنى اتقوا ؟ اتقوا، مِن فعل وَقَى، أي قوا أنفسكم عذابه بطاعته، قوا أنفسكم شقاء الدنيا بالاستقامة على أمره، قوا أنفسكم نار جهنّم بالإيمان به، فهذه التقوى بعض العلماء عبّروا عنها تعبيراً لطيفاً فقالوا: **" هو أن يُذْكَر فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَر فلا يُكْفَر، وأن يُطَاع فلا يُعصَى ".**

ولها تعريفٌ آخر: الإنسان متى يتقي الخطر ؟ إذا رآه، كيف نتقي الأخطار ؟ إنسان يمشي في غابة في ظلامٍ دامس، وفيها حفر، وفيها أكمات، وفيها حشرات، وفيها أفاعٍ، وقد يكون فيها ثمرات، كيف يتّقي الخطر؟ كيف يتقي الوقوع في الحفر ؟ كيف يتقي الأكمات ؟ كيف ينجو من الأفاعي والحشرات ؟ هذا يكون بمصباحٍ كشّاف يرى به الحفرة فيحيد عنها، يرى بهذا المصباح الحشرة فيقتُلها، يرى الثمرة فيأكلها، فأصل التقوى أن تقي نفسك الخطر بطاعة ربّك، هذا الأصل.

ولكن السؤال الآخر: كيف تتقي هذا الخطر ؟ أن تستنير بنوره، بنور الله ترى الخير خيراً والشر شراً، بنور الله ترى الحقّ حقّاً والباطل باطلاً، بنور الله ترى ما يجوز، وما لا يجوز، ما يُسعدك، وما يشقيك، بنور الله تهتدي، بنور الله تُبْصِر.

كيف أن العين على عظمتها، وعلى دقة تكوينها لا قيمة لها من دون أنوار، لو أن الإنسان يملك عينين حادّتين، أعلى درجة في الرؤية، وجلس في بيتٍ مظلم ما قيمة العَينين ؟ لا قيمة لهما إلا بضياء الشمس، أو بضياءٍ آخر، قيمة العين بالنور الذي يسقط على الأشياء فتراه العين، وقيمة العقل بنور الله عزّ وجل، العقل من دون نور الله عزّ وجل يتيهُ، ويضلُّ، ويكفر.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20))

(سورة المدثر)

فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي اتقوا عذابه في الدنيا، اتقوا بأسه، اتقوا ناره، اتقوا غضبه، اتقوا معصيته، مُطْلَقَة، الفعل إذا لم يُذْكَر مفعوله أُطْلِقَ معناه، اتقوا ماذا ؟ اتقوا معصيته، اتقوا البعد عنه، اتقوا عذابه في الدنيا، واتقوا عذابه في الآخرة، كيف ؟ بمعرفته، بمعرفة أمره، بطاعته، بالتقرُّب إليه، باستغفاره، بالتوبة إليه، بالإنابة إليه.

(اتّقُوا رَبّكُمْ)

الآن السؤال اللاحق: كيف نعرفه ؟ لابدّ أن تستقيم على أمره، لأنّك إذا استقمت على أمره تُقْبِلُ عليه، فإذا أقبلت عليه ألقى الله في قلبك نوراً يهديك إلى سواء السبيل.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

بنور الله عزّ وجل تهتدي..

(يَا أيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ)

فليس العاقل هو الذي يعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، والله الذي لا إله إلا هو لابدّ أن نعرف الحقيقة جميعاً، ولكنّ البطل منّا من يعرفُها في الوقت المناسب، والخاسر مَن يعرفها بعد فوات الأوان، ألم يعرف فرعونُ الحقيقة ؟ نعم عرفها ولكن بعد أن أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أنّهُ لا إلَهَ إلا الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرَائِيلَ وَأنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

هل نفعه إسلامُهُ ؟ لم ينفعه إسلامه، هل نفعته معرفته ؟ لم تنفعه معرفته، فلذلك:

(يَا أيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ)

وأنتم في الدنيا، وأنتم أصحّاء، وأنتم أشدّاء، وأنتم في أوْج نشاطكم اتقوا ربكم، اعرفوا أمره أولاً كي تطيعوه ثانياً، كي تنجوا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولا يكون معرفة أمر الله عزّ وجل إلا بمعرفة كتابه وبالإقبال عليه.

والله سبحانه وتعالى بعد هذا الأمر يأتي بالمؤيّد القانوني، ما من نظامٍ، ولا قرارٍ، ولا مرسومٍ إلا ويُذَيّل بالعقوبات التي تنزل بساحة المُخالِف، فربنا سبحانه وتعالى يبيّن أنكم إذا لم تتقوا الله عزّ وجل، إذا لم تتقوا ربكم.

حقيقة الزلزلة العظمى:

(إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

إذا كان العظيم يقول عن هذه الزلزلة:

(إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

فما هي هذه الزلزلة ؟ العظيم يقول لك: إنه شيء عظيم، لو قال لك طفلٌ صغير: معي مبلغٌ كبير، قد يكون هذا المبلغ صغيراً جداً، ولكن بالنسبة إليه رآه كبيراً، ولكن إذا قال لك رجلٌ من أغنى أغنياء العالَم: معي مبلغٌ كبير، فكلمة كبير إذا لفظ بها إنسانٌ غنيٌ جداً فلها معنىً كبير، فإذا قال الله عزّ وجل،

ولله المثل الأعلى، إذا قال:

(إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

ونحن في الدنيا نسمع ببعض الكوارث، ببعض الفيضانات، ببعض البراكين، ببعض الزلازل، الأخبار التي نستمع إليها لشدّة هولها لا تُصَدّق، ونحن في الدنيا نسمع هذه الأنباء، فما بالك بالأخبار التي يخبرنا الله عنها يوم تقوم الساعة ؟!..

(إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ)

الزلزلة الاهتزاز الشديد الذي يغيّر كل شيءٍ عن موقعه، فعل زَلّ فعل ثلاثي مضعّف، أما فعل زَلْزَلَ ففيه مبالغة، وفيه تكرار، قلّ وقلقل، دمّ ودمدم، جرّ وجرجر، عسّ وعسعس، هذا الثلاثي المُضَعّف فيه معنى المبالغة، طبعاً زلّ الشيء عن مكانه أيْ ابتعد عن مكانه، أما زلزله أي لمرّاتٍ كثيرة حدثت الزلزلة..

(إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

يبدو أن هناك زلزلة تهزُّ أركان الدنيا ؛ تهزُّ الجبال، تهزُّ الأبنية، تهزّ كل شيء، تَهُزُّ النفوس.

(إنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا)

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ

جميعاً..

(حَتّى إذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

ليلاً على أناس، ونهاراً على أناس، أي أن هذا الأمر يَعُمُّ الكرة الأرضيّة، وهذه إشارةٌ لطيفة إلى كرويّة الأرض، ليلاً أو نهاراً..

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ)

الفرق بين مرضِع ومرضِعة:

السؤال الآن: لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: يوم ترونها تذهل كل مرضع ؟ لأن الصفات الخاصّة بالنساء لا تؤنّث، تقول: امرأةٌ طالق، وامرأةٌ ثيّب، وامرأةٌ بكر، وامرأةٌ مُرضع، وامرأةٌ حامل، أما إذا قلت: امرأةٌ حاملةٌ أي على ظهرها، إذا قلت: امرأةٌ حامل أي في بطنها، إذا قلت: امرأةٌ مُرضع أي أنها في طور الإرضاع، ولو أنها الآن لا ترضع طفلها، هذه امرأةٌ مرضع، يعني منذ فترةٍ قد ولَدَتْ، وهي في طور

إرضاع صغيرها، أما إذا قلت: امرأةٌ مرضعةٌ أي أنها تضع صغيرها على ثديها، هذه أبلغ، كلَ امرأةٍ في طور الإرضاع اسمها مرضع، أما المرأة التي تضع صغيرها على ثديها، وهو يرضع من ثديها يقال لهذه المرأة الآن: امرأةٌ مرضعةٌ، هذا هو الفرق بين مُرضع ومرضعة، و..

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا)

أيها الناس ترونها جميعاً..

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)

تنصرف عنه، وليس من دافعٍ على وجه الأرض أقوى من دافع الأمومة، هناك دافعُ الطعام والشراب، هذا الدافع الأوّل، وهناك دافع الجنس، وكذلك دافعُ الأمومة، أقوى الدوافع التي خلقها الله في الجِنْس البشري هو دافع الأمومة، ومع ذلك:

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)

تذهل عن وليدها، تلقيه جانباً لهول ما ترى، وفي الآية لفتةٌ لطيفة:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

هنا ترونها، وهنا ترى، هؤلاء الناس رأوا زلزلة الساعة، ثم أغمي عليهم جميعاً، والخطاب الآن للمؤمن، يوم ترونها أيها الناس جميعاً، حينما تبدأ فإنّ جميع الناس يرونها، ولكن بعد قليل:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

في هذه الآية لفتةٌ بلاغيّة، كونُ فعل ترونها بالجَمْع، ثم أن يأتي هذا الفعل بالمُفرد، فهذه المرضعة والرضيع على ثديها تلقيه جانباً لهول ما ترى..

(وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

الحِمْل الشيء المادي، وأما الحَمْل هو الشيء الذي في بطن المرأة، أو الثمرُ الذي على رؤوس الأشجار، يقال له: حَمْل، فأيضاً لشدّة الهول ربما يحدث الإسقاط، وهذا معروف في الطب، أن هَزّةً عنيفة جداً تودي بالجنين، ويصبح سِقطاً، ويسقط لهول الفاجعة، وبعضهم يفسِّر هذه الآية: أن كل نفسٍ تحمل شيئاً من الشهوات، فإذا رأت هذا الفزع الأكبر ألقت ما فيها من شهواتٍ، ومطامح، وآمال ؛ والتفتت تبحثُ عن طريقٍ للنجاةِ من هذا الخطر..

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

لذلك يا أيها الناس اتقوا ربّكم، هذا هو المؤيّد القانوني، اتقوا ربكم لئلا تقعوا في هذه الورطة، لئلا تصيبكم هذه الزلزلة التي عندها..

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى)

حقيقة أم مجازاً ؟..

(وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى:

من علامات المَجاز أنه يَصْدُقُ عليه ضِدُّه، فلانٌ بهيمة، وليس بهيمة، يعني فلانٌ في تفكيره كالبهيمة، هذا مجاز وليس حقيقة، لو قلنا: هذه بهيمةٌ، وأشرنا إلى دابّة، فهذه حقيقة، أما إذا أشرنا إلى إنسان بأنه بهيمة، ثم قلنا: وليس ببهيمة، أي أنه يفكّر، ويتصرّف كما لو أنه بهيمة، لذلك:

(وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

ليسوا سُكارى، ولكنّ هول الفاجعة، وهول الزلزلة جعلتهم كالسكارى، وقلت لكم مرّةً: إن طائرةً كانت على وَشَكِ الوقوع، وكان احتمال سقوطها تسعين في المئة، أراد قائد هذه الطائرة أن يُبَلِّغ الرُكّاب بضرورة وضع الأحزمة، كلّف أحد المضيفين أن يبلغ الركّاب، لا أحد يستمع، هؤلاء الذين أمامه كأنهم لا آذان لهم، خاطبهم أول مرّة، ثاني مرّة، ثالث مرّة لا أحد يستمع إلى قوله، إنهم غارقون في همومهم، هذا يتصوّر نفسه، وقد خلّف أولاداً أيتاماً، وهذا يذكر امرأته، وهذا يذكر ثروته، وهذا يندب حظّه، وهذا يلطِمُ وجهه، وهذا، وهذا، هذا المضيف توسّم خيراً في أحد الرُكّاب الهادئين قال: هذا الراكب لعلّه بإمكانه أن يقنع الركّاب بوضع الأحزمة، فتوجّه إليه فإذا هو مُغْمَى عليه..

(وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ)

فهذا في الدنيا، فرُكّاب سفينة إذا هاج البحر، وركّاب طائرة إذا واجهت مَطَبّاتٍ في الجو، وسُكّان بناء إذا احترق البناء، فهذا شأنهم..

(وَتَرَى النّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيدٌ)

فيكف بهذه الزلزلة التي لابدّ واقعة ؟! فيا أيها الناس اتقوا ربكم، فهذا الفكر لا ينبغي أن يُعطّل، هو أثمن هديةٍ أهدانا الله إيّاها، يجب أن يعمل، إذا أعملنا فكرنا عرفنا ربنا، واستقمنا على أمره، وسعدنا في الدنيا والآخرة..

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ)

أيْ اتقوا غضبه، اتقوا معصيته، اتقوا عذابه، اتقوا هذه الزلزلة بطاعته، بمعرفته، بالاستقامة على أمره، بالائتمار بما أمر، بترك ما نهى عنه..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

وقوله تعالى: وترى، وكأن المؤمن ينجو من هذا العذاب، يُخَاطب الآن: يا أيها المؤمن..

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى)

أنت في صحو، ولست في سُكر، أنت مخَاطَب..

(وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

إذا أخذ ربنا عزّ وجل القرى وهي ظالمة، فإنّ أخذه أليمٌ شديد، فهذه الآية لا تحتاج إلى برهان، أخبار الفيضانات، والزلازل، والبراكين، والأوبئة، هذا المرض الذي انخلعت له القلوب في أوروبا وأمريكا.. مرض الإيدز، شبحٌ مخيف خيَّم على الناس، هذا عذاب الله في الدنيا، وعذاب الله في الآخرة أشد، فإذا عرفنا شِدّة العذاب التجأنا إليه من عذابه، لأنه لا ملجأ منه إلا إليه..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

الإنسان أحياناً يُقْحِم نفسه في موضوعات لا علم له بها، يتحدَّث عن ذات الله، وعن أفعاله، وكأنَّه هو نِدٌ له، يتحدث عن ذات الله، وعن أفعاله، وهو ليس أهلاً أن يعرف بُنْيَة جسمه..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ)

يقول: لا بعث بعد الموت، تقول هذا الكلام، فما الدليل ؟ من قال لك: إنه لا بعث بعد الموت ؟ يقول لك: إن الله لا يحاسب الناس كما تقول، هل معك دليل ؟ أنا أقول لك آية قرآنيّة، هذا الكتاب قَطعي الثبوت قطعي الدلالة، أنا آتيك ببرهان، ببرهان عقلي، وواقعي، ونقلي، أنت تقول: الله لا يحاسب الناس فأين الدليل ؟ قال أحدهم: إن الله لم يُحَرِّم الخَمْرَ، كيف؟ قال: لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة)

لم يقل: هو محرَّمٌ، قال: بل فاجتنبوه، أي اجتنابهُ خيرٌ لكم، وهذا يعني أنه لم يحرِّم الخمر، ونحن نقول: الاجتناب أشدُّ أنواع التحريم، لأنك إذا أُمِرْتَ أن تجتنب شيئاً يجب أن تبقي بينك وبينه هامشَ أمان، هذا

الاجتناب، وربنا عزّ وجل في آيةٍ أخرى تحدّث عن الأصنام فأمرنا أن نجتنب عبادتها، فالأمر بالاجتناب من أعلى درجات النَهْي، فقال تعالى:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

(سورة الحج)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

ليس لديه علمٌ، وما تعلّم حقائق، بل يناقش بالهوى، يناقش ليُثْبِت للناس أنه على حق بينما وهو على باطل، يناقش بمنطق تبريري لا بمنطق تقريري، بالتبرير، يريد أن يؤكِّد لك أنه ليس مخطئاً، هذا هو الأمر، هو يدافع عن نفسه فقط، يريد أن يجعل للباطل أرجلاً يقف عليها، وما عَلِمَ أنّ الباطلَ باطل وهو زاهق لا محالة..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

من نتائج موالاة الشيطان الضلال في الدنيا والجحيم في الآخرة:

فهذا الشيطان الذي يتبعه تَمَرَّد على الله عزّ وجل، وهذا الشيطان الذي يتبعه.

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

فمن الحقائق الثابتة القَطْعِيّة أنّ كل من تولى شيطاناً وسار بتوجيهه، واتبعه، فإن هذا الشيطان سيهدي صاحبه إلى العذاب في الدنيا والآخرة، كُتِبَ عليه، كلمة " كُتِبَ " في القرآن الكريم تعني الحقيقة الثابتة، السمة الرئيسية، القانون الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتحوّل..

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

هذا الشيطان إذا اتبعه الإنسان يضلّه عن هدفه، يضله عن ربه، يضله عن سعادته، ويهديه لا إلى الجنّة، لا إلى السعادة، يهديه إلى عذاب السعير..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

تقرير مسألة البعث والاستدلال عليها:

فالإيمان بالبعث بعد الموت حقٌّ، أي أن الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان، بل من أركان الإيمان، بل هو الركن الأول الذي يأتي بعد الإيمان بالله عزّ وجل، لأنك إن لم تؤمن أن هناك حياةً أبديّة، وأن فيها حساباً دقيقاً لكل ما يجري على وجه الأرض فإنك لن تستقيم على أمر الله، لن تستقيم على أمر الله إلا إذا آمنت بحياةٍ بعد هذه الحياة، تُوفّى فيها كل نفسٍ ما عَمِلت، يُعطى كل ذي حقّ حقّه، يُؤخذ على يد الظالم ويُعطى المظلوم حقّه من الظالم، إن لم تؤمن بهذا اليوم بعد الموت فالإيمان باطل، لأن أركان الإيمان أن تؤمن بالله، وباليوم الآخر، وبملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه من الله تعالى..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ)

أيْ إن كنتم في حالة شك، وفي حالة ليس فيها تصديق كافٍ..

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

معنى: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ

التفسير الأول:

كل واحد له وزن، ستون، سبعون، خمسة وسبعون، ثمانون، حينما وُلِد كان يزن ثلاثة كيلوات، فمن أين جاء بهذا الوزن ؟ من الطعام والشراب، وهذا الطعام والشراب من أين جاء ؟ من التراب، يُسقى بماءٍ واحد، هذه المحاصيل، هذه الخضار، هذه الفواكه، هذا العُشب والكلأ الذي تأكله الأغنام فتُصبح سمينة، إن كل المخلوقات من بشرٍ ومن غير البشر أصلها من تراب، و..

هذا بعض التفاسير.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

التفسير الثاني:

تفسيرٌ آخر، سيدنا آدم الذي هو أبو البشر خُلِقَ من تراب، ثم نفخ الله فيه من روحه فجعله بشراً سويًّا، إذاً إمّا أنّ سيدنا آدم وهو أبو البشر خُلِقَ من تراب، وإما أن هذا الماء الذي يُقْذَفُ في رحِم المرأة أصله من تراب، وإما أن هذا الجسم الذي نما أصله من ترابٍ بمعنى أن الغذاء أصله من تراب، وان الغذاء أصل هذا الجسم، فالإنسان أصله من تراب، كل هذه المعاني واضحة وجيّدة، و..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

مراحل الجنين في بطن أمه:

1 - المرحلة الأولى: النطفة:

هذه النطفة، هذا الماء الذي يُخَلَّق في الخصيتين، وهناك حكمةٌ بالغة من كون هاتين الخِصيتين خارج الجسم، لأن حرارة الجسم تُفْسِدُ تصنيع هذه الحيوانات المنويّة، لو أن الحرارة في الخصيتين كانت كما هي في الجسم لما خُلِّقَت هذه الحوينات المنويّة، على كلٍ هناك حكمةٌ بالغة في هذا الخلق.

شيءٌ آخر، أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحيوانات، و يزيد عددها في اللقاء الواحد بين الزوجين عن ثلاثمئة مليون حيوان منوي، لا يصل منها إلى البويضة التي سوف تلقّح بأحدها إلا خمسمئة حيوان، وأن هذه الحيوانات المنويّة تُخْتَبَرُ قوّتها في أثناء الطريق إلى لقاء البويضة، البويضة تخرج من المبيض في أحد الأنبوبين اللذين يؤديان إلى الرحم، هنا يتم اللقاء بين الحيوانات المنوية وبين البويضة، من ثلاثمئة مليون حُوين منوي لا يصل إلى البويضة إلا خمسمئة، وهذه الخمسمئة تختار البويضة واحداً منها هو أقواها.

وفي رأس هذا الحُوين المنوي مادّة، فحينما يتجه نحو البويضة تنفجر قلنسوة في رأسِهِ فيخرج منها سائلٌ يذيب جدار البويضة، والبويضة تستجيب لهذا الدخول، وبعد أن يدخل هذا الحيوان المنوي إلى البويضة تُغْلِق الطريق على جميع من كان حولها من هذه الحوينات الخمسمئة، فهذه النطفة المكوّنة من ثلاثمئة مليون تختار البويضة أقواها للتلقيح.

أما مبيض المرأة فالله سبحانه وتعالى يخلق فيه ستة ملايين بويضة، أيْ في مبيض الفتاة الصغيرة ما يزيد عن ستة ملايين بويضة فإذا بَلَغَت هذه الفتاة سنّ المحيض لا يبقى في مبيضها إلا ثلاثين ألف بويضة، والله سبحانه وتعالى لا يُنْضِجُ من هذه الثلاثين ألف إلا أربعمئة بويضة فقط، وسبعٌ وثمانون بالمئة من هذه البويضات تَسْقُطُ في أثناء الدورة من دون أن تعلم المرأة أن هذه البويضة قد لُقِّحَت، ولقد أُشير إلى هذا في بعض الآيات القرآنيّة وبعض الأحاديث النبويّة، حين الحديث عن المضغة المخلّقة وغير المخلّقة، أنه يقول عليه الصلاة والسلام أشار إلى الحقيقة العلمية الكُبرى، أن هذه الحوينات البالغة ثلاثمئة مليون، وأنّ الجنين يُخْلَقُ من بويضةٍ ملقّحةٍ بحوينٍ منويّ واحد، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام مسلم:

((مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ))

(من صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري)

هذه الحقيقة لم يُتح من قبل أن تُكتشَف بالمخابر، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

((مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ))

من بعضه القليل، من أقلّ من بعضه، ويقول عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى الحقيقة الثانية:

((إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا رب مخلّقة أو غير مخلّقة ؟ فإن قال الله عزّ وجل: غير مخلّقة مجّتها الأرحام دماً فكان المَحيض))

(فتح الباري[419/1]عن ابن مسعود موقوفا)

أيْ أن هذا الحيض هو مضغةٌ غير مخلّقة، والشيء الذي يلفت النظر أن المجرى بحسب التحاليل الطبيّة حامضي القِوام، والمجرى الحامضي هدفه أن يقتُل كل جرثوم، بينما الحوين المنوي يسبح في سائلٍ قلوي، والقلوي لا يتأثّر بالحامضي، وهذه من حكمة الله سبحانه وتعالى، لو أن المجرى حامضي، والماء الذي تسبح فيه الحوينات حامضي لهلكّت هذه الحوينات، ولكنّ السائل الحامضي يتناسب مع السائل القْلوي..

شيءٌ آخر عجيبٌ جداً، وهو أن كل خليةٍ في الإنسان في نواتها ستة وأربعون موَرّثًا صبغيًا، كل خليّةٍ؛ خلايا العظام، وخلايا الشعر، وخلايا النسيج، وخلايا الجلد، أية خليّةٍ على الإطلاق مؤلّفة من غشاء خارجي، ومن هيولي، ومن نُويّة، والنوية فيها مورّثات، كروموزومات، إلا المبيض والحُوين المنوي، هاتان خليّتان، بل إن البويضة أكبر خليّةٍ في الجنس البشري، البويضة فيها ثلاثة وعشرون مورّثاً بدل ستة وأربعين، وكذلك الحُوين فيه ثلاثة وعشرون مورّثًا، فإذا التقت البويضة بالحوين، واتحدا أصبحت خلية فيها ستة وأربعون مورّثاً، هذه قاعدة لا تشُذ أبداً إلا في البويضة وفي الحوين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ)

أساساً في الخصية مجرى يزيد طوله على نصف كيلو متر تُصَنّع فيه الحوينات، وهذه الحوينات يجري تصنيعها في ثماني عشرة مرحلة، فهذا الماء الذي يُقْذَف كان قد صُنِّعَ قبل ثماني عشرة مرحلةً حتى أصبح جاهزاً للقذف، شيءٌ يأخذ بالألباب، شيءٌ لا يُصَدّق..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)

فنطفة الذكَر الحيوان المنوي، ونطفة المرأة البويضة.

وأما النطفة الأمشاج فقال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)

(سورة الإنسان)

قال العلماء: **" النطفة الأمشاج هي البويضة الملقّحة "**، فمورّثات الحيوان المنوي التقت مع مورّثات البويضة فشكّلت ستةً وأربعين زوجاً، لذلك عُقِدَ في دمشق قبل سنواتٍ عدّةٍ أسبوعٌ للعلم، وقد أُلْقِيَت فيه

محاضراتٌ من شَتَّى أنحاء العالم حول تحسين النسل، فما كان من أحد الأطبّاء رحمه الله إلا أن وقف وقال: " إنّ فحوى كل هذه المحاضرات لخّصها النبي عليه الصلاة والسلام في كلمات فقال:

((اغربوا لا تضووا))

(تلخيص الحبير، ابن حجر[146/3])

فهذه المورّثات إذا كان هناك قرابة فالضعف يُكَرّس، أما إذا كان هناك تباعد فالصفات الأقوى تغلب الصفات الأضعف، فدائماً كلّما تباعد الزوجان جاء النسلُ قوياً، وكلّما اقترب الزوجان جاء ضعيفاً، فإذا كان هناك رضاعة جاء النسل مشوّهاً، لذلك..

((يَحْرُمُ مِنَ الرّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النّسَبِ))

(من صحيح مسلم عن السيدة عائشة)

فلذلك حكمة بالغة أن البويضة وحدها، والحوين المنوي وحده فيه من المورّثات ما يساوي نصف كل خليّة، حيث لو اتحدا لأصبحا خليّةً كاملة، هذه أوّل مرحلة:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ)

2 - المرحلة الثانية: العلقة

قال العلماء: هذه البويضة الملقحة.. تصاحبُها حقائق مذهلة.. فهذه البويضة الملقّحة بعد أربعين ساعة تصبح أربع خلايا، وبعد ثمانين ساعة تصبح اثنتين وثلاثين خليّة، وبعد خمسة أيّام تصبح كالتوتة تماماً، تُسمّى عند العلماء.. التوتة لشدّة انقسامها، أيْ أنها تنقسم إلى عشرة آلاف خليّة، من خليّةٍ واحدة خلال خمسة أيّام تنقسم إلى عشرة آلاف خليّة، يُسميها العلماء التوتة، هذا الانقسام يجري في القناة ما بين المبيَض وبين الرحم.

والشيء العجيب أن هذا الانقسام لو رافقه تَبَخُّر لعلق في الطريق، لأن هذه القناة كالأنبوب، لو كبُرت هذه البويضة في أثناء انقسامها لما أمكنها أن تتابع سيرها، لذلك يجري هذا الانقسام الشديد إلى عشرة آلاف خليّة دون أن يزداد الحجم من أجل أن تصل هذه البويضة إلى الرحم.

الآن ربنا عزّ وجل سمّاها علقة، العُلماء القُدامى فسّروا العلقة بأنه دمٌ مُتَجَمِّد، ولكن البحوث الحديثة تثبت أن التسمية لها علاقةٌ وشيجة بطبيعة العلقة، إنها من التَعَلّق.

أولاً: هذه البويضة في سطحها الخارجي لها خمائل، كيف ؟ إنّ بعض المحافظ الحديثة لها بدل القفل قطعة من القِماش عبارة عن خملات وخَملات أخرى تعلق عليها، كذلك هذه البويضة لها خمائل، لمجرّد أن تصل إلى جدار الرحم، وفي منطقةٍ خاصّةٍ من جدار الرحم فإنها تَعْلَق، وأما خلايا التوتة.. أو هذه البويضة الملقّحة.. هي خلايا آكلة تأكل من جدار الرحم حتى تنغرس فيه، وبعد ذلك تأتي المَشيمة

وتُساعد على لصوق هذه البويضة في جدار الرحم، وبعدها يأتي المِعْلاق، وهو غشاءٌ يربط هذه البويضة بالرحم ربطاً كلياً.

هذه أربعة أنواع من التَعْلِيق، تعليق خميلة البويضة، وتعليق خميلة المشيمة، والخلايا الآكلة، والمِعلاق، هذه كلُّها من أجل أن تلتصق البويضة بجدار الرحم، وجدار الرحم كأنه عاقل يعرف أن هناك ضيفاً عزيزاً، طبيعة الجسم البشري تلفظ كل شيء إلا الرحم فإنه يستقبل هذه البويضة مع الترحيب ومع الضيافة، فإن الدماء في هذه المنطقة التي تعلق فيها البويضة تزداد بشكلٍ غريب، وما الدورة الشهريّة إلا هذه الدماء التي أُعِدّت لاستقبال البويضة فلمّا سقطت البويضة نزلت معها هذه الدماء، شيءٌ لا يُصَدَّق في هذه العلقة..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)

من خمسة إلى سبعة أيّام، هذه العلقة تصبح كُرَةً مجوّفة، ويتشكّل لها طبقة خارجيّة وطبقة داخليّة، الطبقة الخارجيّة تُسهم بأخذ الغذاء، والطبقة الداخلية تسهم بتشكيل الجنين، هذه علقة منظرها من بعيد كقطعة من الدم المتجمِّد.

بالمناسبة لا تزيد ثخانتها على ربع ميليمتر، والحديث لا يزال عن هذه البويضة الملقّحة التي أصبحت كرةً مجوّفة، وقد انقسمت إلى عشرة آلاف خليّة، ولصقت بجدار الرحم، ولا يزيد حجمها عن ربع ميليمتر، لا تزال علقة، ثُمّ يقول الله عزّ وجل:

(ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)

3 - المرحلة الثالثة: المضغة المخلقة وغير المخلقة:

في اليوم العشرين، وبعد عشرين يوماً تنقلب هذه العلقة إلى مضغة، مضغة أي قطعةٌ فيها ملامح، فيها خطوط، أو فيها كُتَل، أو فيها نتوءات.. مضغة مخلّقة.. يسميها العلماء الكتل البَدَنِيّة، يقولون: هذا الرأس، سهم، وهذا الجذع، وهذه الأطراف، شيءٌ غريب، كتلة لحم تشبه المُضغة، أيضاً حجمها صغير جداً، حجمها صغير لكن فيها بعض المَلامح، فيها كتل، فيها نتوءات، فيها خطوط، فيها أقواس، هذه المضغة..

المخلّقة وغير المخلّقة، المخلّقة تبدو ملامح الأعضاء ؛ ملامح الرأس، ملامح الجذع، ملامح الأطراف، غير المخلّقة هي قطعة من اللحم أي مضغة بشكل موحّد، وبعضهم قال: " غير المُخلّقة التي تسقط، والمُخلّقة التي يستمرُّ بناؤها "، هذا تفسيرٌ آخر، كل هذا في الأسبوع الرابع، ولكن في الأسبوع الخامس والسادس تتحوّل هذه المُضغة التي يسميها العلماء.. الكتل البدنيّة.. إلى عظام، وفي الأسبوع السادس

والسابع تُكسَى هذه العظام بالعضلات، ويقول عليه الصلاة والسلام في حديثٍ شريفٍ يُعَدُّ من معجزات النبوّة، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم:

((إِذَا مَرّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ.. أي ستّة أسابيع بالضبط، أي ستّة في سبعة يساوي اثنين وأربعين.. إِذَا مَرّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى.. وليس في الإمكان لو شققنا بطن المرأة وأخذنا هذه المضغة، ليس في الإمكان أن نعرف جنسها قبل مرور اثنتين وأربعين ليلةً.. ثُمّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ))

(صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود)

هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلم يُعدُّ من معجزات النبوّة، أي في الأسبوع السادس مع بداية الأسبوع السابع تنقلب المُضغة المُخَلّقة إلى عظام ثمّ تُكسى هذه العظام عضلاتٍ.. أي لحماً.. وعندها تتحدد الأعضاء ويُعرف ما إذا كان ذكراً أو أنثى بنصّ الحديث الشريف..

(يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ لِنُبَيّنَ لَكُمْ)

فلو وازنت بين صورة الطفل المولود حديثاً بما حباه الله من جمال وتناسق، وإلى منظر الجنين في بطن الأم لهالك المنظر، منظرٌ مخيف، الجنين وهو مُضغة، وهو علقة، وهو في أطوار خلقه منظره غير مألوفٍ إطلاقاً، ولكن الله الجميل يُسْبغُ على هذا المخلوق بعد الولادة جمالاً، وتناسقاً، ونضرةً..

(لِنُبَيّنَ لَكُمْ)

علة خلق الإنسان في هذه المراحل لبيان عظمة الله

نحن جميعاً كنّا كذلك، كنّا حيواناً منوياً دخل إلى بويضة، وانقسمت هذه البويضة إلى أربع خلايا، ثم إلى اثنين وثلاثين خليّة، ثم إلى عشرة آلاف خليّة، وهذه البويضة سارت في القناة إلى الرحم وانغرست، وتمّت بأشكال تأخذ بالألباب.

الآن توصّل العلماء إلى إدخال مناظير إلى الرحم، وتصوير الجنين، فعندي صور حول هذا الموضوع لا تصدّق، لِما تسبّب لدى الإنسان من دهشة، هكذا يتمُّ الخلق ؟ كيف هذا الجنين الصغير يسبح في سائل حوله غشاء، وغشاء، وغشاء، شيءٌ يدعو إلى العجب، وإلى تسبيح الله وتعظيمه..

(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ)

تقدير ما يستقر في الأرحام من الأجنة:

فهناك الجنين الذي يَسْقُط يسمى السِقط، وهناك الجنين الذي ينمو ويولد، أما الحكمة البالغة أن كل جنينٍ مشوّهٍ يسقط، هذا هو الأصل، رحمة بالأم والأب، رحمة بالإنسان أن كل جنينٍ مشوّهٍ يسقط، وهذه الأجنّة التي تولد مشوّهة نادرةٌ جداً، وهذه النُدرة لها حكمةٌ بالغة من أجل أن يبقى الأب والأم متعلِقين بفضل الله عزّ وجل، يرجوان من الله السلامة لهذا المولود، أمّا في الأصل فكل جنينٍ فيه خَلَلٌ في بنيته فإنه يسقط، وهذا مصداق قوله تعالى:

(وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

والأجل محدّد بالساعات والدقائق، ولكن لصعوبة الحساب لا يدري الزوج ولا الزوجة متى بالضبط تمّ التلقيح، لكن لو عَرَفَ الزوج أو الزوجة متى تمّ التلقيح لعرفا بالضبط متى الولادة، لأن هذا الأجل مسمّى لا ينقص ولا يزيد.

(ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً)

مراحل الإنسان بعد خروج إلى الدنيا:

1 ـ مرحلة الطفولة:

لو أنّ أحدنا اطّلع على علم الأجنّة، ورأى كيف بدأ هذا الطفل في هذه الأشهر تكوّن الهيكل العَظمي، ثم كُسيت العظام لحماً، ثم جاء المَلَك، ثم ترى شيئاً لا يُصدّق.

هذه آية أيها الإخوة تحت سمعنا وبصرنا، هذه آيات الله..

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان: من آية " 11 ")

ماذا فعلوا ؟..

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

هذا الطفل يحتاج إلى طعام خاص، إلى حليب، يحتاج إلى عناية فائقة، إلى تنظيف، لا يُمسك أمعاءه، هذا الطفل يحتاج إلى من يعلّمه القراءة والكتابة، والنُطق والمشي، والحركة، إلى أن يصبح هذا الطفل الصغير شابّاً يافعاً، ثم يبلغ أشدّه، وقال بعض العلماء: **" أشدُّ الإنسان في الأربعين "**، حيث أصبح عاقلاً، قوي البنية، مُتّزن العاطفة، بعيد النظر، يحسن التكلّم، يحسن التَصرُّف..

(ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)

2 – مرحلة الشدة والقوة:

فهذا الذي بلغ أشدّه من العلم، والاكتمال الجسمي، والاتزان العاطفي، وبُعد النظر قد ينسى أنه كان طفلاً صغيراً يضحكه كل شي، ويبكيه كل شيء، ينسيه كل وشيء، يرضى لأتفه شيء، ينفعل لأتفه سبب، يبكي لأتفه سبب، يرضى سريعاً، يغضب سريعاً، ذاتي، سويعاتي، هذا الذي بلغ أشدّه نسي يوم كان طفلاً ؟..

(ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى)

3 – الوفاة للبعض:

في الأربعين يتوفّى، بأوج نشاطه، بأوج صحّته، باكتماله.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

4 - الرد إلى أرذل العمر:

ضَعُفَت قوّته، وانحنى ظهره، وضعف عقله، وضعفت ذاكرته، وكثر نسيانه، وأصبحت له أخلاق ذميمة، أصبح حُشَري المزاج، يسأل كثيراً، يعلِّق كثيراً، ينتقد كثيراً، يعيد القصّة آلاف المرّات، يكرهه من حوله، ينسى، يضيّع، يفضح أهله..

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

نعوذ بالله من أرذل العمر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

(فيض القدير[114/6])

هذه ضمانة أيها الإخوة،

((من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

تعلّموا القرآن كي يُنْعِمَ الله علينا بشيخوخةٍ وقورة، هناك من يتقدّم به العمر فيُهان، يُهان من أولاده، يُهان من زوجته، يُهان من قِبَلِ أقرب الناس إليه، يصبح منبوذاً، يكره الناس الجلوس معه، يبتعدون عنه، يتحاشونه.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

لكنّ المؤمن معافى من هذا..

(لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا

سمعت عن رجلٍ بلغ قمّة المَجْدِ في اختصاصه العلمي صار أستاذاً في الجامعة، وصار وزير العدل.. القصّة قديمة جداً.. وله مؤلّفات ضخمة، وفي أرذل العمر خرج من البيت ولم يعد، بحثوا عنه ساعاتٍ طويلة فوجدوه في أحد أطراف المدينة لا يعرف كيف يعود إلى بيته،

(ثمّ يُردُّ إلى أرذل العمر)

أحياناً يفقد الإنسان إمكانية ضبط نفسه، يضطر أهله إلى تغيير ملاءات الفراش مرّات عديدة، فتغضب زوجته عليه، وتسبّه أحياناً، وتلعنه أحياناً، وتقول له: الآن نظّفتك..

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

التقوى أقوى أيُّها الإخوة، من عاش تقياً عاش قوياً، فالإنسان العاقل هو الذي يتقي الله في شبابه..

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

لو وازنت بين شيخوخة مؤمن وشيخوخة إنسان عاصٍ لوجدت البَوْنَ شاسعاً، هذا كلّما امتدّ به العمر يزداد قيمة، ورفعة، وشأناً، ووقاراً، وعلماً، وفهماً، وذكاءً، ومحبّة، والناس يتعلّقون به ؛ وذاك كلّما امتدّ به العمر يزداد إهمالاً، وازوراراً، يبتعد الناس عنه، يتفكّهون بقصصه، والذي يريد أن يعرف فليبحث..

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هناك رجل حَصّل أموالاً طائلة، استغل علمه وطبّه، وكان قاسياً في معاملته للمرضى، قاسياً جداً، لا يعرف أن المريض قد يكون فقيراً أبداً، لا يخرج بمريضه إلا بليرة ذهب.. قصّة قديمة جداً.. في آخر حياته رُدَّ إلى أرذل العمر، أخرجوه من بيته، ووضعوه في القبو، رائحته غير المقبولة فاحت وانتشرت، نُقِلَ إلى بيتٍ بعيد، تُلْقِي إليه الخادمة بالطعام إلقاءً، وتذهب، يسأل عن زوجته فتقول له: مشغولة، ثمانية أعوام قضّاها في بيت أرضي، أو قبو يلاقي أشدّ أنواع الإهانة والعذاب، لكن..

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

أين ذكاؤه ؟ أين جبروته ؟ أين عقله ؟ أين قوّته ؟.

شيءٌ آخر:

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ)

الاستدلال على البعث بإحياء الأرض بعد موتها

انظر إلى الأشجار في الشتاء تجد أنها خشب، والأرض تراب، ثم في الربيع هذه الأشجار اكتست حلّة قشيبة، فمن أين جاءت هذه الحُلّة البيضاء ثم حلّة خضراء ؟ وهذه الأرض من أين جاءها الربيع ؟..

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6))

فإذا قال الله عزّ وجل: إنكم سوف تُبْعَثون بعد الموت لحياةٍ أبديّة يجب أن نُصَدِّقَهُ، والدليل هذه الآيات، كيف مررنا من حالةٍ إلى حالة ؟ وفعل هذه الأشجار التي اهتزّت وربت، قال تعالى:

(وَأَنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنّ اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 6 - 15
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-06-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الحج، يقول الله سبحانه وتعالى بعد قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

معنى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

المعنى الأول:

معنى أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، أي أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، بينما ما سواه من المخلوقات فممكن الوجود، أيّ شيءٍ غير الله سبحانه وتعالى يمكن أن يوجد، ويمكن ألا يوجد، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية فوجود الأشياء ليس بذاتها، بل بقدرة الله..

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

أيّ شيءٍ قائمٌ به، فوجود الأشياء ليس ذاتياً، إنما الوجود وجود الموجودات، مستمدٌ من الله عزّ وجل، فوجودها ليس حقيقي، وجودها متعلقٌ بوجود الله، وجودها متوقفٌ على وجود الله إذاً:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

أيْ أن في الكون حقيقة واحدة ألا وهي الله سبحانه وتعالى، أول معنى أن الله هو الحق أي أنه أزليٌ أبديٌ سرمدي، لا يتعلق وجوده بشيءٍ آخر..

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

معنى:

(اللَّهُ الصَّمَدُ)

أي ذاتي الوجود، أما نحن مفتقرون إلى الهواء، فإذا انقطع عنا الهواء نفقد الحياة، مفتقرون إلى الماء، مفتقرون إلى الطعام والشراب، مفتقرون إلى جهاز القلب، فلو تعطل هذا العضو الخطير لأصبحنا جثةً هامدة، مفتقرون إلى أجهزة كثيرة جداً ؛ إلى أجهزة عصبية، وأجهزة هضمية، فحياة الإنسان مفتقرة إلى ما لا نهاية له من المقوّمات، بل إنها مفتقرةٌ إلى الروح التي هي قوة الله في الإنسان، فوجود الكون وجود وهمي، لأن هذا الكون، كن فيكون، زل فيزول،

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

إذاً وجود المخلوقات ليس وجوداً أصلياً، بل هو وجود مبني على وجود الله عزّ وجل، فالحق هو الله، هو الأبدي السرمدي، أما الأرض كل من عليها فان.

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

لذلك من تعلّق بالحق سَعِدَ إلى الأبد، ومن تعلق بالباطل زال مع الباطل، وزهق مع الباطل..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني:

أن الله سبحانه وتعالى هو حقٌ ومخلوقاته بالحق، معنى بالحق أي بحكمةٍ بالغة، كل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل بدرجةٍ، وبحجمٍ، وبشكلٍ، وبنوعٍ وبتعقيدٍ، وبإمكاناتٍ، وبأجهزةٍ، وبطباعٍ بحيث لو اختل بعضها لكان هذا نقصاً في حكمة الله عزّ وجل، إذاً فأول معنى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

أيْ هو الأبدي السرمدي، كل شيءٍ سواه يفنى، لا بقاء لشيءٍ سواه، هو الحي الباقي.

المعنى الثالث:

أن الله سبحانه وتعالى هو الحق بمعنى: أنه واجب الوجود، بينما غيره ممكن الوجود، إنه مصدر الوجود، وقوام الوجود، ولا وجود إلا وجوده.

المعنى الرابع:

مخلوقات الله عزّ وجل بالحق، كل مخلوقٍ له شكل، له حجم، له خصائص، له صفات، له أجهزة، له طباع، إنها بالحق حيث لو زادت درجة أو نقصت درجة لكان هذا خللاً في خلق الله عزّ وجل،

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: من آية " 3 ")

فهذا المعنى ينطبق على الكون كله، بُعد الأرض عن الشمس بالحق، لو زاد هذا البعد لاختل توازن الأرض، لو قل هذا البعد لاحترق من على الأرض، بعد القمر عن الشمس، بعد الأرض عن القمر، طبيعة الجبال، طبيعة البحار، أنواع النباتات، أنواع الحيوانات، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، كل مخلوقٍ ليس في الإمكان أبدع مما كان، كل مخلوق ؛ كبيراً كان أو صغيراً، جليلاً كان أو حقيراً، هذا المعنى الثالث، الله سبحانه وتعالى هو الحَق الأبدي السرمدي، وهو الحق واجب الوجود، وغيره ممكن الوجود، وهو الحق قوام الوجود.

الآن مخلوقاته بالحق، أي بوضعٍ كاملٍ كمالاً مطلقاً.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

نظامه بالحق، مخلوقاته، أنواعها، أعدادها، أشكالها بالحق، تسييره بالحق، نظام المجرّات بالحق، نظام الكواكب بالحق، المجموعة الشمسية بالحق، خلق الإنسان بالحق، خلق الجنين بالحق، خلق النبات بالحق، أي بوضعٍ كاملٍ لا يقبل تعديلاً،

هذا مثل ما بين أيديكم:

هل علمتم أن خلق الإنسان طرأ عليه تعديلٌ ؟ لا، ولكنّ صُنعَ الإنسان يطرأ عليه ألف تعديل وتعديل، أنظر إلى مركبةٍ صنعت عام ألف وتسعمئة وعشرة، وانظر إلى مركبةٍ صنعت عام ألف وتسعمئة وثمانين، أو ثمانية وثمانين، ترى أن بينهما بوناً شاسعاً، بوناً كبيراً جداً، إذاً خلقُ الإنسان يتكامل، ولكنَ خلق الله عزّ وجل كاملٌ كمالاً مطلقاً، معنى بالحق: لا يمكن أن يطرأ عليه تعديل، فمثلاً لن يقال: الإنسان الفلاني مولود عام ألف وسبعمئة وعشرة، وكان في خلقه نقص كثير، ليس هذا الكلام معقولاً، وأن هناك تعديلات جوهرية أُجريت على أجهزته، مستحيل هذا الكلام، في حق الله هذا مستحيل، خلقُ الإنسان خلقٌ كامل لم يطرأ عليه أي تعديل..

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

كلمة بالحق من معانيها أيضاً، نأخذ معناها من آيتين:

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

(سورة ص: من آية " 27 ")

الباطل هو الزائل لا محالة، والحق هو الثابت والدائم، فربنا عزّ وجل هو ثابت وخَلَق الكون ليبقى، وما حياته الدنيا إلا طورٌ مِن أطواره، الإنسان خلق ليبقى، لأن الإنسان مخلوق بالحق، ومعنى بالحق أي خلق ليسعد إلى الأبد في جوار الله عزّ وجل، وما الموت إلا ثوبٌ يخلعه ويرتدي ثوباً آخر، فالخلق

بالحق، أي الخلق لم يكن خلقاً باطلاً أي زائلاً، بل خُلِقَ الإنسان ليبقى أبد الدهر، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

فمعنى الحق هو الشيء الهادف، أيْ أنّ ربنا عزّ وجل خلق الإنسان لهدفٍ عظيم، أمّا أن يقول بعض الناس: إن الإنسان خلق للشقاء، فهذا ليس بالحق، فأنت مثلاً حينما تبني بناءً ضخماً لابدّ من هدفٍ كبير وراء هذا البناء، تبني جامعة، يُبنى هذا البناء ليبقى، ويبنى لهدفٍ كبير، نقول: هذا البناء بالحق بمعنى أن أساساته متينة، بناؤه يبقى إلى عشرات السنين، وله هدفٌ كبير من بنائه، لذلك معنى " الحق " أنه يعني مجموعة من المعاني، فمن معاني الحق البقاء، ومن معاني الحق الكمال، من معاني الحق الدَيْمومة، من معاني الحق أنه واجب الوجود، من معاني الحق أنه أصل الوجود.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

الحق تأتي وصفاً، وتأتي صِفَةً، نقول مثلاً: هذا القرآن حقٌ، نَصِف القرآن بأنه حق لأنه لا يوجد فيه باطل، ولا تناقضٌ، ولا خلل، ولا رَيب، ولا زَيغ، ولا فيه آية تصادم حقيقة علمية، هذا القرآن حقٌ وما دام حق إذاً ثابت، دائماً الشيء الحق ثابت، لو بني بناءٌ بشكلٍ صحيح، لو بني الجدار بالحق، أي على شاقول، يبقى هذا البناء، لو بُني الجدار من دون شاقول، بُني مائلاً، هذا البناء لابدّ أن يسقط، فالبناء الذي بُني على شاقول حق، والجدار الذي بُني بلا شاقول باطل، لابدّ أن يسقط، فلذلك:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى)

وإحياء الموتى حقّ

فهذه الآية ما دام الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان:

(مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ)

هذا الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار قادرٌ على أن يخلقه خلقاً ثانياً، لذلك:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيُّ شيءٍ، ما من كلمةٍ في اللغة أشمل وأوسع من كلمة شيء، لأن كلمة شيء تشمل كل شيء.

(وَأَنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قُدْرَةُ الله عزّ وجل لا تُحَد، بينما قدرة الإنسان محدودة، أي أنك أيها الإنسان ؛ هل تأمّلت في الكون ؟ هل أجَلْتَ فكرك في خلق السماوات والأرض ؟ هل فكّرت في خلقك ؟ هل فكرت في خلق طعامك ؟ في خلق شرابك ؟ في خلق ما تأكله من حيوانات ؟ في خلق ما تستعين به من حيوانات ؟ هل فكرت في خلق الأطيار ؟ في خلق الأشجار ؟ في خلق الأسماك ؟ هل توصّلت من هذه الجَوْلات إلى أن الله هو

الحق ؟ فليس في الوجود حقيقةٌ إلا الله، وما سوى ذلك صور وأخيلة لا تقدِّم ولا تؤخِّر، هنيئاً لمن ربط مصيره بالحق، والويل لمن ربط مصيره بالباطل، فالباطل زاهق، والباطل لابدّ من أن يسقط.

(وَأَنّ السّاعَةَ آَتِيَةٌ)

والساعةُ حقٌ

أيْ أنّ الإنسان إذا فكّر تفكيراً بسيطاً، توصّل من هذا التفكير إلى أن هذا الكون عظيم، وخالقه عظيم، وفي الحياة الدنيا حظوظ متفاوتة، هذا مريض، وهذا صحيح، هذا قوي، وهذا ضعيف، هذا غني، وهذا فقير، هل يعقل أن يستمتع الغني بالغنى، ويموت، وأن يشقى الفقير بالفقر، ويموت، وأن يسعد القوي بقوته، ويموت، وأن يشقى الضعيف بضعفه، ويموت، وينتهي كل شيء !! نقول: يا رب أين حق الفقير؟ أين حق الضعيف ؟ أين حق المريض والعليل ؟ لابدّ من يومٍ يحاسب فيه الإنسان على أعماله كلها، لابدّ من يومٍ يعاد فيه تقييم كل شيء، لابدّ من يومٍ ينال الإنسان جزاء عمله إن صغيراً أو كبيراً، لابدّ من يومٍ يعود الحق إلى نِصابه، لابدّ من يومٍ يأخذ كل ذي حقٍ حقه، إذاً:

(وَأَنّ السّاعَةَ آَتِيَةٌ)

أيْ أنّ مِن لوازم الإيمان بالله الإيمانُ باليوم الآخر، من لوازم إيمانك بعظمة الله أن تؤمن بعدالته، وعدالته لن تتحقق كاملةً إلا في يوم الدين، يوم البعث والنشور..

(وَأَنّ السّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنّ اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

لذلك يتوهّم الإنسان أحياناً أن الموت نهاية الحياة، والأصح من ذلك أن الموت بداية الحياة، لهذا قيل: " الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء "، ولذلك فالإنسان في الدنيا في دارِ عملٍ ولا جزاء، وهو في الآخرة في دار جزاءٍ ولا عمل، لا عملَ بالآخرة، لقد خُتم العمل، وبقي الجزاء، أمّا الآن فالعملُ مفتحةٌ أبوابُه، ولكنّ الجزاء يوم القيامة.

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

إذا أردت المناقشة والجدال فعليك بالعلم والهدى والقرآن

العلماء وقفوا عند هذه الآية، هذا الذي يجادل، يماري، يناقش، من دون علمٍ يَسْتَنِدُ إليه، ومن دون هدىً يهتدي به، ومن دون كتابٍ يعلم تأويله، لا علمٌ ولا هدىً ولا كتابٌ منير، بعض العلماء قالوا: العلم هو علم أهل الأرض، والهُدى سلامة التفكير، والكتاب المنير هو الكلام الذي أوحاه الله عزّ وجل إلى بعض أنبيائه، فكأن الإنسان إذا أراد أن يناقش فعَليه أن يستند إلى علمٍ قد تَعَلّمه، أو إلى هدىً يهتدي به، أو إلى

كتابٍ منير يُضيئ له السبيل، أمَا الذي يُناقش بلا علم فهو إنسانٌ أحمق، إنسانٌ غبي، إنسانٌ مبطل، إنسانٌ مفترٍ، والذي يناقش بلا منطقٍ سليم، لا يستخدم وسائل المنطق الصحيحة، في الوصول من المقدمات إلى النتائج، هذا أيضاً مناقشته باطلة، والذي لا يهتدي بكتاب الله عزّ وجل، ولا يأخذ آياته مأخذَ الجَد، ولا يعتمدها في المناقشة، هذا إنسان أيضاً مناقشته باطلة.

فكأن الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أنك إذا أردت أن تناقش فهل عندك علمٌ حَصّلتَهُ ؟ أو هل عندك منطقٌ سليم تدرّبت عليه ؟ أو هل عندك آياتٌ بينات من قِبَلِ الله عزّ وجل تهتدي بها ؟ فإن كان لا علمٌ ولا هدىً ولا كتابٌ منير، فهو جدال مَن يسخر من نفسِهِ.

بعضهم قال: العلم هو المُسَلّمات: إن الجزء أصغر من الكُل، هذه مسلمة، وإن الجمع أكثر من الواحد هذه مسلمة، هناك مجموعة مسلّمات في المنطق، وهذه لا برهان عليها، لأن البرهان يعتمد عليها.

بعضهم قال: العلم هو المسلمات والبديهيات، والهدى هو إشراق الحقيقة في قلب الإنسان، والكتاب المنير هو القرآن الكريم، أو أي كتابٍ سماوي، على كلٍ إذا أردت أن تناقش مهندساً فينبغي أن تكون مهندساً، وإذا أردت أن تناقش طبيباً فينبغي أن تكون طبيباً، الطبيب لا يسمح لك أن تناقشه، وأنت جاهل، والمهندس كذلك، وإذا أردت أن تناقش لغوياً فلابدّ أن تكون لغوياً مثله، هذا العلم، والهدى لابدّ من قواعد منطقية في التعامل مع الأفكار، هذه المقدمة تُفضي إلى هذه النتيجة، أو أنْ تأتينا بآية، أي أنه إمَا أن يكون لدينا دليل عقلي، أو دليل نقلي، أو دليل واقعي، العلماء قسّموا الأدلة إلى أنواع ثلاثة، الدليل النقلي ما جاء عن الله عزّ وجل في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة، هذا دليل نقلي، أخي هذا الأمر حرام، ما السبب، قال الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة: من آية " 90 ")

الاستهزاء يا أخي حرام..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

(سورة الحجرات: من آية " 11 ")

شيء جميل، إما أن تأتي بالدليل النقلي، قرآن أو حديث، النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال:

((لا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))

(من سنن الترمذي عن حكيم بن حزام)

فإذا باعَ واحد بضاعة على المسطرة، فهذه مخالفة في البيع، فإذا وجدتَ تاجراً يبيع بضاعةً قبل أن يقتنيها فلك أن تنهاه عن ذلك، يقول لك: والدليل، تقول له: قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))

أنواع الأدلة:

هذا دليل نقلي، فإذا أردت أن تناقش الناس فأنت بحاجة إلى دليل، والدليل ثلاثة أنواع، دليل نقلي وعقلي وواقعيّ.

1 - الدليل نقلي:

وهو أعلى أنواع الدليل من الكتاب الكريم ومن السنة المطهرة، أو الأصح ما صح من السنة المطهرة، يعني آية قرآنية، أو حديث متواتر صحيح، حديث حسن مقبول، لكنّ الحديث الضعيف مرفوض في الأحكام الشرعية، لكنه مقبول في الفضائل، في فضائل الأعمال، وفي المكارم الأخلاقية، هذا هو الدليل النقلي.

2 – الدليل العقلي:

وأمّا الدليل العقلي فهو المنطقي، تقول له: هذا المخدرات حرام أم حلال ؟ وتجيب من فورك: حرام، يقول لك: هات لي آية، فالله حرّم الخمر فقط، تقول له:

((كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ))

(من صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري)

بالمنطق، لماذا حرّم الله الخمر ؟ لأنها تسبب السُكْرَ، فأي مادةٍ أخرى تنطبق عليه، علّة التحريم إذاً هي محرّمة أيضاً، هذا دليل عقلي، بالقياس، أي أننا قسنا كل أنواع المخدرات على الخمر، فهي إذاً محرمة، محرمة بالقياس، أي بالدليل العقلي، ما دامت العلة متحدة إذاً حُكِمَ الخمر ينسحب على كل مسكر آخر، شيء جميل، هذا دليل ثانٍ.

الدليل الواقعي:

الدليل الثالث الواقعي، من خلال العلوم الوضعية تكتشف أن تربة القمر ليست من طبيعة تربة الأرض، فإذا أردت أن تذهب مع بعض العلماء من أنّ السماوات كانت كتلة واحدة، ثم بفعل الدوران انفصلت بعض الكواكب عن بعضها، وهذا يجب أن يَتْبَعَهُ أن تكون تربة القمر من نوع تربة الأرض، فإذا كانت تُربة القمر من نوعيةٍ أخرى، فهذه النظرية مرفوضة، هذا دليل واقعي.

إذاً نحن بالمناقشة نحتاج إلى دليل واقعي، وإلى دليل عقلي، وإلى دليل نقلي، أعلى درجة في الأدلة للمسلمين الدليل النقلي، أعلى درجة في الأدلة لغير المسلمين.. إنسان غير مؤمن بالأديان.. الدليل الواقعي والعقلي، فالإنسان عليه أن يكون حكيماً إذا ناقش الناس، إذا ناقشت إنساناً مسلماً يؤمن بكتاب الله وبسنة رسوله يكفيك أن تأتيه بالدليل النقلي، آيةٌ قرآنية أو حديثٌ شريف، أما إذا ناقشت إنساناً غير عابئٍ بكتاب الله ولا بالسنة المُطَهّرة، يجب أن تبدأه بالدليل العقلي أو الدليل الواقعي، فلو أن واحداً قال

لك: هناك دواء يطيل العمر وهو مسلم، تقول له: لا يا أخي، لأنّ الله سبحانه وتعالى في الكتاب الكريم يقول:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

(سورة الأعراف)

فهذا الدواء لا تصدقه، هذه دعاية إعلامية لا قيمة لها، أما إذا خاطبت إنساناً آخر غير مؤمن بالقرآن والسُّنة فعليك أن تتبع الدليل العقلي أو الدليل الواقعي، هذا معنى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

إنه يجادلُ لا بالدليل الواقعي: العلمي، ولا بالدليل العقلي: الهُدى، ولا بالدليل النقلي: الكتاب المنير، وأمّا آداب المناقشة أن تتغير بهذه الأدلة الثلاثة.

(ثَانِيَ عِطْفِهِ)

معنى: ثَانِيَ عِطْفِهِ:

العطف هو الجانب يثني جانبه كبراً، كقوله تعالى:

(وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

(سورة لقمان: من آية " 18 ")

تصعيرُ الوجه يعدّ كبراً، وثني العطف كذلك يُعدّ كبراً..

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

حينما يناقش بغير علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منير، فيقول لك: لابدّ من الاختلاط، تقول له: الأجانب حينما رأوا آلافاً مؤلفة من اللُقطاء في الحدائق جعلوا الجامعات هناك ذكوراً وإناثاً، هؤلاء الذين لا يؤمنون بالأديان حفاظاً على بنية مجتمعهم جعلوا الأمر هكذا، عندنا دليل واقعي.

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

هو يريد الشهوة، يريد أن يستمتع بالمرأة بطريقٍ مشروع أو بطريقٍ غير مشروع، لذلك يحبذ الاختلاط، يحبذ الانحلال، يحبذ اختلاط الأنساب، يحبذ التبدُّل، يحبذ خروج المرأة بأبهى زينة، من أجل أن يروي نهمته، ويحقق شهوته بشكلٍ غير مشروع فلذلك:

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

هو يريد أن يصُدّ الناس عن سبيل الله، يريد أن يبعدهم عن طريق الحق، يريد أن يكون هؤلاء الناس مُنْحَلّين.

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ)

مصير المضِلّ عن سبيل الله في الآخرة:

هذا وعدٌ إلهي، كل إنسانٍ يريد أن يُضِلّ الناس عن سبيل الله، كل إنسانٍ يريد أن يصد الناس عن طريق الحق، كل إنسانٍ يريد أن يضل الناس عن طريق سعادتهم لابدّ أن يناله خزيٌ في الدنيا، لابدّ أن يفضح على رؤوس الأشهاد، فضيحة مالية، فضيحة أخلاقية، فضيحة علمية في عمله، لابدّ أن يُشهّر به عقاباً له على صده عن سبيل الله، هذا عقابٌ أليم..

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ *ثَانِيَ عِطْفِهِ)

أيْ كبراً، هذه اللام لام التعليل..

(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

هدفه إضلال الناس عن سبيل الله..

(لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

هذا الإنسان يقال له: ذُق عذاب الحريق..

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

مصير الإنسان يحدّده ما قدمت يداه

فالإنسان يوم القيامة يرى أنه لمُ يظلم، وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه حقّه غير منقوص.. ذق إنك أنت العزيز الكريم..

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

بعضهم يقول: الله سبحانه وتعالى ينفي أن يكون ظلاّماً، وظلاّم على وزن فعّال، وهي صيغة مبالغة، فهل هو ظالمٌ، وأنه ينفي المبالغة في الظلم فقط ؟ فهل يليق بحق الله تعالى الظلم ؟ فهي صيغة لا لنفي المبالغة، إن مجيء صيغة المبالغة ظلاّم بعد النفي ليس لنفي المبالغة، بل للمبالغة في النفي، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة وإن تكن حسنةً يضاعفها.

الآن عندنا نمط آخر من الناس، هؤلاء أيضاً خطرون، هذا النمط:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

نمط من الناس: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ

الحرف هو الطَّرَف، إن صح التشبيه، وإن صح التمثيل، هذه الطاولة مثلاً هناك من يعبد الله على هذا الحرف منها، هو يقف على حرفٍ، أي على طرفها، فإذا هو على شف هاوية، على وشك السقوط، أيُّ شيءٍ يسقطه، أية هزةٍ توقعه، أية عاصفةٍ ترميه، أية موجةٍ تسحبه، موجة تسحبه، عاصفة تسقطه، دفعة قليلة تجعله يسقط.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

أحياناً يتصورُ الإنسانُ الدّينَ في أنه إذا استقام على أمر الله ستضاعف غَلّته عشرة أضعاف، سيشتري بيتاً بأرقى حي فوراً، سيشتري مركبة فخمة، سيتزوج امرأة كما تحلو له، سيعيش حياة أين منها حياة الملوك، هذا الوهم خطير، هو يوظِّف الدين من أجل الدنيا، هو يتاجر بالدين، هو يجعل من الدين مَطِيّةً للدنيا، هو يعبد الله على حرف، ما دام صحيح الجسم فهو يعبد الله، يؤدِّي صلواته، يصوم رمضان، يحجُّ البيت، ما دام دخله وفيراً يعبد الله، ما دامت أسرته سعيدةً يعبد الله، ما دام يرقى في سلم الوظائف يعبد الله، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به، هذا الإنسان الوصولي، يريد أن يصل إلى الدنيا عن طريق الدين، الحقيقة أن الإنسان لمّا الإنسان يستقيم على أمر الله يسعدُه الله في الدنيا، لكن لا ينبغي أن يكون هذا شرطاً، فالله سبحانه وتعالى لا يُشارط، ولا يجرب، فيتوهَّم أن الإنسان إذا آمن واستقام وصلى يجب أن ينجح من دون دراسة، يجب أن أنجح، يجب أن يربح من دون جهد، يختار بضاعة سيّئة يقول لك: اتركها لسيدك يعني حسب تصوره أن الله يروّجها، كلا، فإنه إذا اختار بضاعة سيئة أسعارها مرتفعة يعرضها بالسوق فلا تباع معه، ينصرف الناس من عنده، فتجده يقول: أهكذا الدين ؟ بعد ما صليت، وعبدت الله بارت بضاعتي وكسدت، وربما ترك الصلاة سُخطاً على الله.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

إذا لم ينجح يترك الصلاة، ولسان حاله يقول: لم نتفق هكذا. لم يتفق مع الله أن الله لا ينجحه، هذا الإنسان إنسان واهم ساذج، إنسان ضعيف التفكير، يريد الدنيا بالدين، يوظف الاستقامة لِيُتاجر بها، لو تصورنا إنساناً استقام استقامة تامة، وهو يطمع من هذه الاستقامة أن يزداد ربحه وأن تحل كل مشكلاته، إذا استقام بهذه النية، فربما على الرغم من استقامته لا يحصل ما يبتغي، لأن هذه استقامة مشوبة، كأن تصادق إنساناً كي يعطيك مالاً، فإذا أعطاك المال تمدحه، وإذا منع عنك المال تذمه، هذه

ليست صداقة، هذه وصولية، هذا انتفاع، وهذا سلوك مغلوط، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

أنا أخشى من هؤلاء الناس كثيراً، ما دامت تجارة رائجة تجده يحضر الدروس، أين أنت ؟ حدثت معنا مشكلة بالتجارة، هناك صفقة لم تربح، فلماذا لا تأتي لحضور الدروس ؟ غضبان، فانقطع عن الدروس، هذا موقف ضعيف، أنت تعامل خالق الأكوان، الإيمان الصحيح أن تحبّه، وأن تعرفه في السراء والضراء، في إقبال الدنيا وإدبارها، في الصحة والمرض..

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

* * *

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدلٌ و إن عدلوا

واللهِ إن فتتوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ لما فعلوا

* * *

هنا البطولة، البطولة أن تحبّه في الضرّاء، أن تحبه في أثناء المصيبة، أن تقول له: يا رب لك الحمد، مشى على قدميه مئةً وستين كيلو متراً اللهم صلّ عليه، ليصل إلى الطائف، أقام فيها أياماً عِدّة يدعو أهلها إلى الإسلام، ردُّوه رداً قبيحاً، استهزؤوا به، استهزؤوا برسالته، قال بعضهم: " سأمزق أثواب الكعبة إن كنت رسولاً !! "، وقال آخر: "لم يجد الله أحداً غيرك يجعله رسولاً ؟! "، وقال ثالث، وقال رابع، أغرَوْا به سفهاءهم، ألجؤوه إلى حائط، قال صلى الله عليه وسلم:

((رب إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

(من الجامع الصغير)

في السرّاء والضرّاء، كان النبي الكريم راضياً، ولذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى قال في حقه:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من الآية " 21 ")

فقد ذاق النبي الكريم الضرّاء فصبر، وذاق السرّاء فشكر، حينما فتح مكة طأطأ رأسه لله شكراً، وحينما قُهِرَ بالطائف قال:

((رب إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي))

ذاق الضعف البشري، وذاق النصر، وكان في الحالين إنساناً كاملاً، كان صابراً راضياً، وكان شاكراً محباً حامداً، ذاق حياة الرخاء قال رجل: " لمن هذا الوادي ؟، قال عليه الصلاة والسلام: " هو لك "، قال: " أشهد أنك تعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر"، وذاق الفقر..

((هل عندكم شيء ؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

(مسلم عن السيدة عائشة)

ذاق اليسر، وذاق العسر، ذاق الرخاء، وذاق الشدة، ذاق النَصر، وذاق الضعف، ذاق مرارة أن تُطَلّق بناته نكاية به، هكذا فعل بعض كفار مكة قُبَيْلَ البعثة، حينما جاءته الرسالة طلقوا بناته من أجل أن يغيظوه، وذاق وهو في المدينة أراجيف تُرجف في حق السيدة عائشة، وشيءٌ لا يحتمله الإنسان، ذاق هذه، وذاق تلك.

ذاق من الصحابة الأجلاء المودة الراقية، وذاق من بعض الناس طباعاً جلفةً قاسية، يا محمد اعدلْ، قال له:

((ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

قال له: يا أعرابي، هل أحسنت إليك ؟ قال: لا ولا أجملت، ذاق غلظة أبناء البادية بعضهم، وذاق نعومة أصحابه الكرام ورأفتهم، وفي كل الأحوال كان إنساناً كاملاً، ذاق ما ذاق، فقد عاش مع زوجةٍ تكبُره بخمسة عشر عاماً وكان وفياً لها، وعاش مع امرأةٍ في مِيْعَةِ الصبا، تقول له السيدة عائشة: ألم يبدلك الله خيراً منها ؟ قال: لا والله، لا والله، لا والله، عن السيدة خديجة، ذاق كل الأحوال، ذاق لذة النصر، وذاق مرارة الضعف في أحد وفي حنين، لذلك جعله الله سبحانه وتعالى أسوةً حسنة..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

أصيب رجلٌ بورم خبيث في أمعائه، زاره إنسان في المستشفى، فقال له: اشهدْ أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد، كلما زاره زائر يقول هذه الكلمة إلى أن توفاه الله عزّ وجل، مريض آخر على عكس ذلك.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

المؤمن الصادق يوطِن نفسه على أن يذوق حلو الحياة ومُرّها..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

هذا الثبات على المبدأ، عرضوا عليه امرأة جميلة، وأن يكون زعيماً لقريش، وأن يكون أغنى أغنيائها، فقال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته))

(السيرة النبوية)

أحياناً أحدنا لسببٍ بسيطٍ بسيط ينتكس، لسببٍ تافهٍ تافه يترك الصلاة، يا أخي أنت عاهدت خالق الكون، أنت فاوضت كف الرحمن في الحَج، أنت تبت إلى الله توبة نصوحا، ببساطة، بسهولة، لسببٍ تافه،

لضغطٍ ضغط عليك به، لمشكلةٍ ألمّت بأسرتك، لعقبةٍ نشأت في عملك، لإنسان يضايقك تترك الدين ؟ أهكذا ؟.

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ)

على حرف، هنا هذا المكان خطر، يعني نفخةٌ توقعه، موجة تأخذه، دفعة تُسقطه، على حرف، ولكن هناك مَنْ يعبُد الله في الأعماق، أحدُ الرجال مِمّن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق قال: أيعدنا صاحبكم، لم يقل: رسول الله، قال: " أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته !! ".

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ)

إذا كنت مؤمناً صادقاً فيجب أن توطِّن نفسك على طاعة الله في كل الأحوال، وأنت مالكٌ لحريتك، وأنت فاقدٌ لحريتك، في البيت وفي غير البيت، في الحضر وفي السفر، في الصحة والمرض، في الغنى والفقر، في العُسر واليسر، في ضيق الدنيا وفي سَعَتِها، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، هذه البطولة، هذه الآية تهز مشاعر المؤمنين..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلا)

(سورة الأحزاب)

أحد الصحابة الكرام جاء به كفار قريش ليصلبوه، قال له أبو سفيان يوم كان مشركاً: " يا خُبَيْب، أتريد أن يكون محمدٌ مكانك ؟ " قال: " والله ما أريد أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة "، هذا ليس على حرف أيها الأخ، بل في الأعماق، شوكة، ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة، ليس على حرف.

أسمع إخواناً كثيرين ـ جزاهم الله كل خير ـ بعضهم حالته ضيّقة تجد دوامه منظومًا، في البحبوحة دوامه منظم صحيح، في الضيق كذلك، قبل الزواج، بعد الزواج، في عسره، في يسره، والله شيء جميل، والله مثل هؤلاء يُرفع الرأس بهم، مثل هؤلاء يعتمد عليهم، هؤلاء المؤمنون الصادقون، فهل الإنسان طفل ؟ الطفل لأتفه سبب يضحك، لأتفه سبب يبكي..

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ)

فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اِطْمَأَنّ بِهِ

يقول لك: جيبٌ مليء، بطن مليء، الحياة في تمام.

(فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ)

وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ

مشكلة، مرض، نتيجة: " فيه أسيد أوريك " مرتفع جداً، مُنع من كل الطعام تقريباً، هذه فتنةٌ، صهره طلق له ابنته، من الممكن أن يقع مرضٌ بأهله، بأولاده، بنفسه، ويمكن أن يوقف عمله نهائياً.

(وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ)

سمّاها الله فتنةٌ، لأنها سوف تكشفه على حقيقته..

(وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ)

أيْ أنه انتكس، ومن ثم يقول لك: هذا الدين كله خلط، رأساً، ودون تردد، أصبح خلطاً، لم نستفد شيئاً، لأن دنياه ضيقة، لأنه لم يجد عملاً، مر أسبوع أو أسبوعان، شهر أو شهران لم يجد عملاً، ضاقت به الدنيا قال: الدين باطل، رأساً اتهم الدين بالبُطلان.

(انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ)

أيْ انتكس.

(خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ

خسر الآخرة بكفره، وخسر الدنيا بسوء ظنه بالله عزّ وجل.

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

الإنسان لابدّ له من جهة يعتمد عليها، فإذا ترك الله عزّ وجل يلتجئ إلى جهات أرضية أخرى، فتجده يتقرب من إنسان من أهل الدنيا، من أهل الحول والطول، يعتمد عليه، يخدمه، هذا جعله بديل الله عزّ وجل، كان معتمداً على الله عزّ وجل، فإذا هو يعتمد على زيدٍ أو عُبيد أو على فلان أو علاّن.

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ)

مآل الشرك الضلال في الدنيا والخسران يوم القيامة

هذا الذي اتجه إليه وجعله مكان الله عزّ وجل، اعتمد عليه، هذا الذي التجأ إليه لا يضرُّه، ولا ينفعه، عبد مثله، ضعيف..

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

عندنا عبارة " ضلال كبير"، وعبارة " ضلال بعيد "، بعضهم شبّه الضلال الكبير كَمَنْ لو كان في طريق إلى حمص مثلاً، وعلى يمين الشارع لوحة كبيرة جداً طولها أربعة أمتار بعرض ثلاثة أمتار مكتوب: تدمر على اليمين، رغم هذه اللوّحة الكبير الواضحة الفسفورية، المضاءة ليلاً اتجه إلى تدمر، وهو يبتغي حمص، نقول له: هذا ضلال كبير، ليست اللوحة تشير إلى ذلك، أما إنسان دخل بطريق سار فيه مئتين من الكيلو مترات، وبعد ما مشى هذه المسافة عرف أن هذا الطريق غلط، فقد مشى مسافةً بعيدةً جداً في طريق الضلال، فربنا عزّ وجل أحياناً يقول: " الضلال الكبير " وأحياناً " الضلال البعيد"، فقال:

(يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

لا نافع ولا ضارّ إلا الله

قد يقول لك قائل: يا أخي هذا الإنسان الذي سِرْتُ معه أعطاني شيئا من المال، استفدت منه في الدنيا، صار لي شأن حينما تقرّبت منه، فربنا عزّ وجل انسجاماً مع تفكير هؤلاء..

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ)

إذا كان هناك نفع فالضرر الذي حصل من هذا الإنسان كبير جداً.

التوفيق بين قوله: مَا لاَ يَضُرُّه و قوله: يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ

هنا يُطالعنا سؤال: كيف يقول الله عزّ وجل:

(مَا لَا يَضُرُّهُ)

أي ينفي عنه الضرر، وهنا:

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ)

العلماء قالوا: الإنسان الذي يُعْبَدُ من دون الله لا يستطيع أن ينفع، ولا أن يضر إلا بإذن الله، ولكن مَن عبده من دون الله يضرُّه، طبعاً لأنه يبعده عن الله عزّ وجل.

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)

لَبِئْسَ الْمَوْلَى ولَبِئْسَ الْعَشِيرُ

بئس هذا الوليّ الذي تولاّه، وبئس هذا العشير الذي عاشره. كل الذي أريده من هذه الآية ألا تنطبق هذه الآية عليك، يعني أن نعبد الله ما دام الله يعطينا، فإذا منع عنا انقلبنا على وجوهنا، هذه الآية تصف حالة

مَرضية، بين المؤمنين أناسٌ يعبدونه على حرف، ما دامت الأمور على ما يُرام يعبدونه، فإذا جاءت على غير ما يرام لا يعبدونه، أحياناً الإنسان يصاب بمرض، وقد يكون مرضاً عُضالاً، هكذا مشيئة الله عزّ وجل، ألا تحب مشيئة الله ؟ هكذا أراد الله، هذه إرادته وهذه مشيئته، لذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "، أيْ أنّ أعلى درجة من درجات اليقين أن ترضى بمكروه القضاء.

(إنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

إنّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

أيْ أنّهُ إذا أراد الله شيئاً وقع، وإذا وقعٌ شيءٌ أراده الله، والإرادة الإلهية متعلِّقةٌ بالحكمة، والحكمة متعلقةٌ بالخير المُطلق، هذه كلمات يجب أن تحفظوها، إذا أراد الله شيئاً وقع، قولاً واحداً، وإذا وقع شيءٌ فقد أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة، أيْ أن كل شيءٍ أراده الله فلابدّ له من حكمةٍ قاطعة، وحكمة الله متعلقةٌ بالخير المطلق، أما الدليل:

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: من آية " 26 ")

الإعزاز خير، والإذلال خير، والإيتاء خير، والنَزْعُ خير، الحكمة متعلقة بالخير المطلق، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة، وكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، هذا هو القول الفصل، لذلك:

(إنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

هنا إذا نسبنا الفعل إلى الله عزّ وجل، بمعنى أن الله يمتحن هذا الإنسان، فإذا كان صادقاً، مؤمناً، مُخلصاً هداه، أو تعزا الإرادة إلى الإنسان.

(إنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

الإنسان ماذا يريد ؟ يريد الهدى.

(إنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إمّا شَاكِرًا وَإمّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

إذا أردت الهدى هداك الله، وإذا أردت الضلال أضلك الله، كلاهما يصح.

إن اللهَ ناصرٌ نبيّه،

(مَنْ كَانَ يَظُنّ أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلَى السّمَاءِ ثُمّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

معنى: فَلْيَمدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّمَاءِ ثُمّ لْيَقْطع

المعنى الأول:

هناك أناسٌ من قريش غاظَهُم أن ينصر اللهُ النبيّ، وأن يُعلي شأنه، وأن يمدّه بأصحابه الكرام، وأن يُقدِّر على يديه فتح البلاد وهداية العباد، كفار قريش غاظهم ذلك، فكانوا يظنون أن الله لن ينصر النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الرجل مُدّعٍ، هكذا يظنون، سَبَّ آلهتهُم، عاب دينهم، هل يعقل أن ينصره الله عزّ وجل ؟ فهم يظنون أن الله لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام، أما وقد نصره، ورفع شأنه، وأعلى ذِكْرَهُ، وفتح البلاد على يديه، وهدى العباد بهُداه، غاظهم ذلك، فامتلؤوا غيظاً وحقداً وكادوا ينفجرون، ربنا عزّ وجل رد عليهم:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ)

أي سيدنا محمد..

(فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّمَاءِ)

ليصعد إلى السماء، ثم ليمنع هذا النصر عن محمد، إذا كان بإمكانه أن يفعل ذلك، إذا غاظه أن ينصر الله النبي عليه الصلاة والسلام فليمدد بسببٍ إلى السماء، ليصعد إلى السماء، ثم ليقطع نصر الله عن هذا النبي الكريم، هل بإمكانه أن يفعل ذلك ؟ إن كان ليس بإمكانه أن يفعل ذلك فماذا يفعل إذاً ؟ هل يُذْهِبَنّ كيده ما يغيظ ؟ هذا لا يُذهبنّ كيده ما يغيظ، هذا هو المعنى الأول، وأوجَهُ المعاني التي جاءت في بعض التفاسير.

فبعض الناس أحياناً يرى مؤمناً قد نصّره الله عزّ وجل، ورفع شأنه، وأجرى على يديه الخير، فقد يغتاظ لذلك، والله سبحانه وتعالى حينما يُجري الخير على يدِ إنسان لا ينتظر أن توافق على ذلك، لا ينتظر أن توافق، ولا ينتظر أن تبارك، ولا ينتظر أن تسمح، هذا من معاني هذه الآية.

المعنى الثاني:

المعنى الآخر أنّ الإنسان إذا كان منقطعَ الرجاء من الله عزّ وجل، لا يرجو الله عزّ وجل، سوداوي المزاج متشائماً، هذا موته خيرٌ من حياته، والإيمان من لوازمه الثقةُ بالله، والرجاء بالله، فهناك أُناس يُيئِسون غيرهم هم ناس سوداويون، يحبون الأخبار المؤلمة السيئة، هؤلاء الناس بعيدون عن حقيقة الإيمان.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ)

أيّ ظنه بالله سيّئ.

(فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

أيْ أنّ هذا الإنسان موته خيرٌ من حياته، هذا معنى، والمعنى الثاني: مَن غاظه أن ينصر الله النبي عليه الصلاة والسلام فليفعل ما يشاء، إن الله ناصر نبيّه، وليس بإمكان هذا الذي اغتاظ أن يقدِّم أو أن يؤخِّر، أيْ أن الله عزّ وجل حينما يرفع مِن شأن عبدٍ من عباده لا ينتظر من أحدٍ أن يوافق، أو لا يوافق.

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 14 - 23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-07-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

وصف الله لأصناف من البشر:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الحج، ربنا سبحانه وتعالى يصف أصنافاً من بني البشر ؛ مُتَّبعون ضالون، ومَتْبُوعون ضالون، وأناسٌ مذبذبون يعبدون الله على حرف:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

الله سبحانه وتعالى يصف لنا نماذج من بني البشر، ويتبعُ ذلك بقوله سبحانه وتعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

وصفُ الله بالإرادة

إرادة الله في الذين آمنوا أن يدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً وقع، وإذا رأيتم شيئاً قد وقع فقد أراده الله عزّ وجل، لأنه لا يقع شيءٌ في ملك الله إلا بإرادة الله، فإذا أراد شيئاً وقع، وإذا وقع الشيء أراده الله، من هنا يَعْتَقِدُ المؤمن أنّ لكل شيءٍ حقيقة، وحقيقة الإيمان أن تعتقد أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة ")

كلمة " لو" ليست واردةً في قاموس المؤمن، لو أني فعلت كذا وكذا، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقع شيءٌ في ملكه إلا بإرادته، وكل شيءٍ أراده لابدّ أن يقع لأن الله سبحانه وتعالى فعّالٌ لما يُريد..

أما هذه الإرادة، هذه الإرادة الإلهيّة متعلِقة بالحكمة، يعني أن الله عزّ وجل يريد وإرادته ملابسة للحكمة تماماً، الإنسان أحياناً يريد تحت ضغطٍ، يفعل شيئاً بضغطٍ، ولكنّه لا يريد أن يفعله، أو يفعل شيئاً بجهلٍ فبعد أن ينكشف الأمر يتمنّى لو لم يفعله، هذا شأن الإنسان، لكنّ شأن الله سبحانه وتعالى أن إرادته متعلقة بالحكمة، وحكمته متعلِقةٌ بالخير المُطلَق، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله

وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات إرادة الله فيهم أن يدخلهم الجنّة إلى أبد الآبدين.

لذلك ليس هناك تناسبٌ بين خلق السماوات والأرض وبين العمر القصير الذي يعيشه الإنسان، هذه السماوات والأرض شيءٌ عظيم، وهي كلّها مسخّرةٌ لهذا الإنسان، أفيعقل أن تكون حياة الإنسان هذه الحياة القصيرة التي تنتهي بالموت ؟! الحقيقة أن حياة الإنسان تبدأ بالموت، والله سبحانه وتعالى يقول على هذا الذي يأتيه الموت ولم يقدّم العمل الصالح يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي*فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ*وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

الشيء الآخر في هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الإيمان مقرون بالعمل الصالح

في أكثر من مئتي موضع في كتاب الله وردت الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن الإيمان من دون عمل لا قيمة له، اعتقاد، لو أنّك اعتقدت أن هذه المراوح تعمل بالكهرباء، ماذا فعلت ؟ وهي كذلك، ماذا قدّمت ؟ لكنّك إذا عملت عملاً صالحاً فيه ترقى إلى الله عزّ وجل، إذا اعتقدت اعتقاداً صحيحاً ولم يكن هناك عملٌ يؤكِّدُ اعتقادك أو يجسّده فإن هذا الاعتقاد لا قيمة له، لذلك: " الإيمان من دون عمل كالشجر بلا ثمر "، حيثما كان الإيمان وجب العمل، وحيثما صَحّ العمل صَحّ الإيمان.

هناك صِنفان من الناس: صنفٌ يدّعي أن عمله صالح ولا حاجة إلى أن يعبد الله عزّ وجل، يقول لك: أخي القضية بالقلب، وأنا قلبي أبيض، لا أكنّ حقداً لأحد، نقول: لو أن عملك صالح من دون إيمان هذا شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، وصنفٌ آخر يدّعي أنه مؤمن، وأن القضية بالقلب لا بالعمل، أيضاً هذا مُخطئ والرد عليهما هذه الآية الكريمة..

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل))

(الجامع الصغير عن أنس بسند لا يصح)

ما من مسلمٍ على وجه الأرض إلا ويتمنّى أن يكون من أهل الإيمان، وما من مسلمٍ على وجه الأرض إلا ويتحلّى ظاهراً بمظاهر أهل الإيمان، ليس التحلي كافياً وليس التمني كافياً، لابدّ من إيمانٍ ومن عملٍ صالح، مهما صحّت عقيدتك إن لم يدعمها التطبيق والعمل فلا قيمة لها، ومهما صحّ عملك إن لم ينطلق

من عقيدةٍ صحيحة فلا قيمة له..

(إنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

الآن:

(مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السّمَاءِ ثُمّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

معنى: مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ

أيْ ما يغيظه، والكيد هو التدبير، والسبب هو الوسيلة، هذه الآية فسّرها المفسّرون في اتجاهاتٍ عديدة.

المعنى الأول:

بعضهم قال: **" لابدّ أن ترجو الله عزّ وجل، لابدّ أن تُحسن الظنّ بالله عزّ وجل، لابدّ أن تضع آمالك بالله عزّ وجل، لابدّ أن ترجو ربّك "**، أما اليأس والقنوط، والسوداويّة والتشاؤم ليس لها مكانٌ في الدين إطلاقاً، عند الله ما ليس عند العبيد، إذا أعطى أدهش.

وأنتم كما ترون كيف أن الله سبحانه وتعالى بعد أن يئسَ الناس من رحمة السماء، لجهلهم بربِّ السماء، جاءتهم الأمطار بشكلٍ لم يسبق له مثيل، هذا نموذج، فالذي ييأس من رحمة الله، الذي يقنَطُ من نصر الله، الذي يظنُّ أن الله سبحانه وتعالى ليس مع المؤمنين، ولن ينصرهم، ولن يأخذ بيدهم إلى ما يصبون إليه إنما هو إنسانٌ بعيدٌ كل البعد عن الإيمان..

(مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

هذا ليس مؤمناً، لا قيمة لحياته إطلاقاً، موته خيرٌ من حياته، هذا معنى.

المعنى الثاني:

أن هذه الهاء لا تعود على الذي يظن..

(مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

أيْ أن الشخص الذي يظن ذلك هو سوداوي يقطع أمامك كل الآمال، يسفّه لك كل التفاؤلات، يحبط لك كل الطُموحات، يبيّن لك أن الله لن ينصر أحداً من المؤمنين، وأن الأمر مِن سيئ إلى أسوأ، هكذا يصور لك، هذا ليس مؤمناً لأنه لا يعرف الله عزّ وجل، إنه مشرك ليس موحّداً، هذا الإنسان ما عرف أن الأمر كلّه بيد الله عزّ وجل، وان يد الله فوق أيدي كل الناس، هكذا قال الله عزّ وجل:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

هذا الذي ينطلق من يأسٍ، وقنوطٍ، ومن سوداويةٍ، ومن تشاؤمٍ ليس مؤمناً وحياته لا قيمة لها، بل موته خيرٌ من حياته، هذا المعنى الأول.

إذاً المعنى الثاني: أن الهاء في

(يَنْصُرُهُ)

تعود على النبي عليه الصلاة والسلام، فكفّار مكّة ما كانوا يظنون أن الله سبحانه وتعالى سيرفع شأن النبي عليه الصلاة والسلام، سينتقل إلى دار الهجرة، فيؤمن به أصحابٌ مخلصون صادقون، سينتصر على كفّار قريش في بدر، فتنشأ دولةٌ إسلاميّة فتيّة، هالهم هذا النصر المُبين، وهذا الفتح العظيم، لذلك امتلأت قلوبهم حقداً لِمَا رفع الله به نبيه، وبوّأهُ عاليَ المقام، قال: من كان يظن أن الله عزّ وجل لن ينصر نبيّه، ولن يرفع شأنه، ولن ينصره على أعدائه، ولن يُعلي ذكره، ولن يرحمَ المؤمنين بدعوته، هذا الذي يتمنّى الشر أن يكون بالمسلمين، هذا الذي يظنُّ أن الله يحبُّه على معصيته، وأن الله لا يحبُّ المؤمنين على طاعتهم..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

سنة الله مع أنبيائه: النصر المبين

وقد نصر الله نبيّه، وامتلأ قلبه حقداً لهذا النصر، هذا الذي يظنُّ كذلك ليس أمامه إلا أن يموت غيظاً، الله سبحانه وتعالى تمّت كلمته بنصر عباده المؤمنين.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

(سورة غافر)

وعداً عليه حقّا، هذا وعدٌ عظيم..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من آية " 55 ")

من كان يظن من مشركي قريش أن لن ينصره الله، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، أمّا حينما نصره امتلؤوا غيظاً وحقداً، هؤلاء ليموتوا غيظاً، لن يغيّر الله سنّته في خلقه، إنه ينصر رسله والمؤمنين.

لذلك لو أن أخوين صديقين، لو أن هناك جارين، زميلين، أحدهما مستقيم، والثاني منحرف، والمنحرف أُوتي ذكاءً، وهو يظنُّ أنه أذكى من هذا المؤمن المستقيم، وأن الأمور تجري لصالحه، وأنه سيرتقي من مكان إلى مكان، ومن مرتبة إلى مرتبة، وأن ذكاءه يكفي ليجلب له المال، حينما يفاجأ هذا المنحرف أن

المؤمن رفعه الله، ورفع اسمه، ولمع نجمه، وتوفّق في حياته توفيقاً عجيباً، لا ينبغي لهذا المنحرف أن يغتاظ وأن يحقد عليه لأن هذه سُنّة الله في خلقه..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

هذه الآية لها مفهوم واسع، مفهومها التطبيقي على المؤمنين أنه إذا كان هناك رجلان، جاران، صديقان، زميلان، أخوان، شريكان، واحد مستقيم يخشى الله عزّ وجل، ويرجو رحمته، والثاني منحرف لا يبالي بقِيَم الدين، الشيء الذي لابدّ من أن يقع أن هذا المؤمن سوف ينصره الله في الدنيا، سوف يرزقه رزقاً حلالاً كافياً، سوف تَقَرُّ عينه بأهله، سوف يرتقي من حالٍ إلى حال، من مرتبةٍ إلى مرتبة، سوف يحبُّه الناس، سوف يلمع اسمه، سوف يعلو ذِكْرُهُ، هذا المنحرف لا ينبغي أن يحقد عليه، ويقول: أنا أذكى منه، فأنت منحرف، فلا تقل: أنا لي معارف أكثر، أنا أحمل شهادة أعلى، لا، هذه سُنّة الله في خلقه..

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرّحْمَانُ وُدًا)

(سورة مريم)

هذا المعنى الثاني، فالذي غاظه، وجعل قلبه يمتلئ حقداً عندما نصر الله نبيّه، وجعله وأصحابه أصحاب شأنٍ رفيع، هذا الذي اغتاظ ليمُتْ غيظاً.

المعنى الفرعي لقوله: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ

هناك معنى فرعي، هذا الذي امتلأ قلبه غيظاً لمّا نصر الله نبيه عليه الصلاة والسلام إذا كان بإمكانه أن يمنع النصر، إذاً فليفعل ما يشاء، ليصل إلى السماء، ليمدُد بسببٍ إلى السماء، وفي السماء ليقطع هذا الوحي عن النبي، وليقطع هذا النصر إن أمكنه، إن أمكنه ذلك فليفعل، وحتماً لن يستطيع ذلك، هذا المعنى الذي يُضاف إلى المعنى الثاني، فإذا كنت قد آلمك أن ينصر الله نبيّه الكريم فامدد بسببٍ إلى السماء، توصّل إلى أن تصبح في السماء، وعندها امنع عن النبي الوحي إذا أمكنك ذلك، وهذا من باب المستحيل، أي لن تستطيع أن تفعل شيئاً، إذا سبقت إرادة الله أن يُكْرِمَ نبيه الكريم فلن تستطيع أن تفعل شيئاً، لأن الله سبحانه وتعالى حينما يكرم النبي عليه الصلاة والسلام، أو حينما يكرم المؤمنين لا ينتظر

موافقة أحد، إذا شاءت إرادة الله عزّ وجل أن يرفع شأن المؤمن فلا ينتظر أن يوافق أحدٌ على هذا القرار، هكذا ربنا سبحانه وتعالى فعّالٌ لما يريد.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

الجواب: لا، لو أنه وصل إلى ذلك هل بإمكانه أن يمنع نصر الله عن نبيّه ؟ لا، هل بإمكانه أن يقطع عنه الوحي ؟ لا.

المعنى الثالث:

وهناك معنىً ثالث.. أتمنّى عليكم أن تدقّقوا في هذه المعاني، هناك معنىً ثالث.. وهو من ظنّ أن الأمور كلّها مسدودةٌ في وجهه، أُعلِنَ عن هذه المسابقة فلم ينجح، رُشِّحَ لهذا العمل فلم يُقْبَل، طرق هذا الباب فسُدَّ في وجهه، فحينما يبدو لك أن الأمور مُعَسّرة، وأن الطرق كلّها مغلقة، وأن الأبواب كلُّها مسدودة، حينما تظنُّ ذلك هناك علاجٌ لهذه الحالة، الله سبحانه وتعالى ليس ضدّك، لا ينفعه أن يكون ضدّك، من أنت ؟ أنت عبدٌ..

((لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى ليس له معك خصومة حتى يجعل الأمور كلّها مسدودة في وجهك، لا، إنها معالجة، إنها معالجةٌ لتقصيرٍ، أو انحراف، أو معصية، فمن كان يظن أنْ لن ينصره الله في الدنيا، لن يرزقه، لن يصلح بالَه، لن يريحه من المصائب، مصيبة تلو مصيبة، مشكلةٌ تلو مشكلة، ورطةٌ تلو ورطة، ما هذه الحياة ؟ يقول في ساعة اليأس: أريد الموت، لا، الله غني، الله كريم.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

معنى: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ

ليعمل عملاً صالحاً، أيْ ليفعل سبباً يستدعي رضوان الله عزّ وجل، ليعمل عملاً صالحاً يستلزم أن يرضى الله عنه..

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

ليخدم إنساناً، يتصدّق، يبر والديه، يترفّق بجيرانه، يدل إنساناً ضالاً، يكرم إنساناً معذّباً، يعين إنساناً مريضاً، يميط الأذى عن الطريق، يدفع من ماله الذي كسبه مِن حلال..

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

إذا ضاقت بالإنسان الدنيا، الأمور معسّرة، الدخل قليل، الأمراض كثيرة، الهموم بعضها فوق بعض، كما قال الشاعر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشــاءٍ من نبال

فكنت إذا أصابـتني سهامٌ تكسّرت النصالُ علـى النصالِ

* * *

إذا اصطلحت على الإنسان الهموم، أحاطت به المصائب من كل جانب، الأبواب كلُّها مغلقة، الطرق كلُّها مسدودة، مصيبةٌ تلو مصيبة، مشكلةٌ تلو مشكلة ؛ في ماله، وفي صحّته، وفي أهله، وفي أولاده، ومع من هم أعلى منه، ومع مَن هم أدنى منه، كل يوم مشكلة، ما هذه الحياة يا رب ؟!..

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

فما عليه إلا أن يتصدّق، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((استمطروا الرزق بالصدقة))

(الجامع الصغير بسند فيه ضعف)

تصدّق، اخدم إنسانًا، اكفل يتيماً، برّ والديك، افعل صدقة، عاون إنساناً ضعيفاً، اعمل عملاً صالحاً، تقرّب إلى الله، ابحث عن سبب يرضى الله عنك به..

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ)

معنى: ثُمّ لْيَقْطَعْ

المعنى الأول:

أي ليقطع دابر الشيطان، ليتوقف عن كل معصية، عن كل مخالفة، هذه لا تجوز دعها.

المعنى الثاني:

إذا كان الإنسان يائساً من نصر الله عزّ وجل، يائساً من أن يرزقه الله عزّ وجل فعليه أن يعمل عملاً صالحاً مبنياً على استقامةٍ تامّة.

المعنى الثالث:

ثم لينظر كيف أن هذا التدبير يذهب ما في قلبه من الغيظ، ومن الحقد، ومن الشعور بالحرمان.

القرآن كما قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه: " حمّال أوجه "، والقرآن ذو وجوه.

لك أن تأخذ بالمعنى الأوّل، من لوازم الإيمان أن ترجو الله عزّ وجل، وأن تضع في الله كل ثقتك، فإن لم تكن كذلك فلست مؤمناً ولا قيمة لحياتك.

المعنى الثاني: أنك إذا حقدت على أهل الإيمان إذا رفعهم الله عزّ وجل فحقدك عليهم لن يغيّر من معاملة الله لهم.

والمعنى الثالث: إذا ضاقت بك الدنيا أو ألمّت بك الخطوب، وجاء الشيطان وقال لك: إن الله يريد أن يعذّبك، إنه خلقك ليعذّبك، إنه سوف يحرمك كل شيء، انظر هو مع الكفّار يعطيهم القوّة، والمال، والصحّة، و، و.. وأنت يحرمك، إزاء كل هذا الذي يوسوس به الشيطان، فعلاجُه ودفعه يكون بالصدقة، أو أيّ عمل صالح مع استقامة واضحة.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

إخوةٌ كرام كُثُر حدّثوني: حينما ضاقت بهم الدنيا تصدّقوا، فكانت هذه الصدقة مفتاحاً لرزْقِهم، يعني اعمل عملاً صالحاً يرضى الله به عنك، لكن هذا العمل الصالح لا قيمة له إذا رافقته معصية..

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلِّط))

(ورد في الأثر)

اعمل عملاً صالحاً مبنياً على استقامةٍ تامّة، وبعدها لابدّ من أن ترى أن الله يغيّر الأحوال، إذا أعطى أدهش، والله سبحانه وتعالى يقول:

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا)

(سورة الكهف)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

هذا وعد قطعي، فإذا أنت طبّقت أمر الله عزّ وجل فلابدّ من أن تقطف ثمار وعد الله، فهذه الآية تنفي كل أنواع اليأس، كل أنواع القنوط، كل أنواع الضجر، كل أنواع الحرمان، كل أنواع السوداويّة، كل أنواع التشاؤم، هذه الآية تبُثُّ التفاؤل، حتى إن الإنسان لو كان مريضًا، وقد أكّد له الأطبّاء أن مرضه لا شفاء له، مرضٌ عُضال، واللهِ الذي لا إله إلا هو لو أنه أخلص لله عزّ وجل ودعاه وعمل عملاً صالحاً يسترضي الله به فإنه لابدّ من أن يشفيه الله عزّ وجل..

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

لا حدود لقدرته، الأطبّاء حينما يرون حالة مستعصية تُشفىَ تلقائياً وذاتياً يقولون: هذا درسناه في الجامعة، هو الشفاء الذاتي، أي حينما تتدخّل يد الله مباشرةً لتزيل هذا المرض هو الشفاء الذاتي، فالإنسان لا يقنط، لا يقنط من شفاء، ولا مِن رزق، ولا من صحّة، ولا من إصلاح زوجة، أحياناً إنسان يقول لك: هذه الزوجة لا سبيل إلى إصلاحها، ومن يدريك ؟ ربّما بين ليلةٍ أو ضحاها تصبح امرأةً

أخرى، من أدراك أنها لا تصلح ؟ ليس هناك يأس في الإسلام، ليس هناك تشاؤم، لا تقل: لن يكون هذا، ما عند الله ليس كما تظن، ما عند الله خير.

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

أم لا يُذْهِبْ ؟ هنا الجواب يُذْهِب.

أما في المعنيين الأولين الجواب لا يُذْهِب، إذا حقدت على النبي الكريم، لأن الله نصره فافعل ما تشاء، هذا التدبير لن يفعل شيئاً، تدبيرك لن يُذهب ما بك من غيظ.

في المعنى الأوّل والثاني الجواب لن يُذْهِبْ، وفي المعنى الثالث الجواب يُذْهِبْ..

(هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

نعم، بعضهم قال: هل يذهبن كيده ما يغيظه، أو هل يذهبن كيده غيظه، إما أن تكون (ما) مصدريّة أو موصولة، إن كانت مصدريّة نقول: هل يذهبن كيده غيظه، وإن كان موصولة نقول: هل يذهبن كيده الذي يغيظه..

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

هداية الله لها ثمن

يهدي طالب الهدى، يهدي الذي دفع ثمن الهدى، يهدي مَن أطاع الله عزّ وجل، هذه الجامعة تعلِم مَن ؟ تعلِم مَن قبِلَ أن يكون طالباً فيها، أما مَن رفض أن يكون فيها طالباً كيف تُعلِمه ؟..

(وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

أيْ أنّكَ إذا أردت الهدى أراد الله لك الهدى، وإذا أردت الضلال أراد الله لك الضلال، لماذا ؟ لأن الله خيّرك، أنت مخيّر..

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة الصف)

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون)

(لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

لا يهدي القوم الكاذبين، فالهدى له أسباب، والضلال له أسباب، فمن فعل أسباب الضلال أضلّه الله، ومن فعل أسباب الهدى هداه الله..

(اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

والله سبحانه وتعالى جعل للهدى طريقاً فمن سلكه أراد له الهدى، فالدولة جعلت لمهنة الطبِّ طريقاً، تأخذ ثانويّة بمجموع مرتفع، تدخل كليّة الطب، وتتخرّج، فمن سلك هذا الطريق شاءت له الدولة أن يكون طبيباً، ومن لم يسلك هذا الطريق منعته من مزاولة الطب وعاقبته بتهمة أنه دجّال، أليس كذلك ؟ طريق هذه المهنة معروف، من سلكه سُمح له أن يزاول هذه المهنة، ومن لم يسلكه لم يُسْمَح له بمزاولة هذه المهنة، فإرادة الجهات الصحيّة منوطة بأن تسلك الطريق القانوني لهذه المهنة، هذا مثل بسيط، وربنا عزّ وجل رسم للهدى طريقاً، من سلك هذا الطريق أراد الله له الهدى، ومن لم يسلك هذا الطريق أراد الله له الضلال.

الهدى الابتدائي والهدى الجزائي:

لذلك عندنا هدى ابتدائي وعندنا هدى جزائي، وعندنا ضلال ابتدائي، وعندنا ضلال جزائي، فإذا عُزي الضلال إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، نعم أمر إذا عزي الهدى أو الضلال إلى الله مباشرةً، فمعنى ذلك أنه هدىً أو ضلالٌ جزائي بني على هدىً أو ضلال اختياري، هذا معنى:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

وأن الله يهدي من أراد الهدى الله سبحانه وتعالى يهديه..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

المسلمون واليهود والصابئون والمجوس والمشركون

هناك أناس ينتمون إلى أهل الإيمان، وأناسٌ آخرون ينتمون إلى النصرانيّة، وأناسٌ آخرون ينتمون إلى اليهوديّة، وهناك أناسٌ آخرون صابئون، هؤلاء بين النصرانيّة واليهودية، وأناسٌ آخرون مجوس عبدوا النار، ورأوا أن الكون فيه خيرٌ وشر، فيه نورٌ وظُلمة فعبدوا النار اتقاءً لشرّها، ومنهم مَن هو مشرك بالله عزّ وجل، كمشركي العرب، وهؤلاء على اختلاف مللهم، ونِحَلِهم، ومشاربهم، ومعتقداتهم،

وأفكارهم، وقيمهم، وتشريعاتهم كلهم يقيمون على شركهم، والحق واحد ولا يتعدد، فهؤلاء ست ديانات.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذه الأولى.

(وَالَّذِينَ هَادُوا)

هذه الثانية.

(وَالصَّابِئِينَ)

هذه الثالثة.

(وَالنَّصَارَى)

هذه الرابعة.

(وَالمَجُوسَ)

هذه الخامسة.

(وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

هذه السادسة.

هذه سِتُّة مذاهب، أو ستُّ ديانات، والحق واحد، لابدّ من أن يكون الحق مع أحدها فقط، الباقون ليسوا على الحق، فمن يفصل بينهم ؟ الله سبحانه وتعالى، كل أناسٍ يزعمون أنهم على الحق والآخرون على الباطل، كل حزبٍ بما لديهم فرحون، هكذا في الدنيا، كل جهةٍ تظنُّ أنها محور العالم، وأنها على حق، وأن ما سواها في ضلالٍ مبين، هكذا يعتقد البوذيّون، والسيخ في الهند هكذا يعتقدون، وأصحاب المِلَل والنِحل هكذا يعتقدون، والمسلمون يعتقدون هكذا، والنصارى هكذا، واليهود هكذا، هذا اعتقاد كل فريقٍ منهم، وكلٌّ منهم يقول: نحن على حق والآخرون على الباطل..

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

فصل الله بين الناس يوم القيامة

لكن الحق بيّنَهُ الله عزّ وجل في هذا الكتاب، وهذا الكتاب أنزله الله سبحانه وتعالى وتولّى حفظه، فمن كان على هذا الكتاب فهو على حق، ومن خالف هذا الكتاب فهو على باطل، فلذلك هذا الكتاب مقياس، هو مقياسٌ لك.. فلو أن خمس قطع من الأقمشة، أو ست قطع، كل قطعة مكتوب عليها الطول، هذه القطعة كُتِبَ عليها عشرة أمتار، هذه خمسون مترا، هذه خمسة عشر متراً، نحن معنا متر، وهذا المتر يحل كل مشاكلنا، نقيسها يا أخي، هذه ليست عشرة، بل هي سبعة، ثم نقيس الأخرى، هذه ليست

خمسين، بل خمسة وعشرون، فنحن معنا مقياس.. فالله عزّ وجل لرحمته بنا أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام هذا القرآن الذي:

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: من آية " 43 ")

لا ريب فيه، فمن انطبقت عقائده وسلوكه على هذا القرآن فهو على الحق المبين.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل)

أما الانتماء الشكلي، يقول لك: أنا مسلم، ماله حرام، نساؤه كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مُميلات، له علاقات حميمة جداً مع غير المسلمين، هم أقرب إليه من إخوانه المؤمنين، أي إسلامٍ هذا ؟

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

(الطبراني عن ابن عباس)

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ الأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا)

(سورة البقرة: من آية " 264 ")

إذا صلّيت، ولم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر فلست بفالح، وإذا صمت، ولم ينهك صيامك عن قول الزور والعمل به فلست بصائم، وإذا أنفقت مالك، ولم تكن هذه النفقة عن إيمانٍ بالله فليس بنافعٍ لك شيئاً، إذاً هذه العبادات إن لم تكن صادرةً عن إيمانٍ وإخلاص، وعن طهرٍ ورُقي إيماني فلا قيمة لها..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

تصوّر ستّة محلات تجاريّة، كل محل عليه لافتة برّاقة جداً، مع إضاءة صارخة، ولكن لا توجد بضائع في الداخل، فما قيمة بهرجة اللافتات مع أن كل هذه المحلات ليس فيها بضاعة إطلاقاً ؟ لا تجدُ في الحقيقة فرقاً بين مسلم وغير مسلم، المسلم ماله حرام، مُنحرف، علاقاته الاجتماعيّة كغيره من الناس، صَلاته شكليّة، والنصراني كذلك، يصلي في الكنيسة صلاة شكليّة، ويعطي نفسه ما تشتهي، إذاً الخلاف صار شكلياً، إلى أن يأتي الرجل الذي يؤمن بالله إيماناً صحيحاً، ويلتزم أمره، ويفعل الصالحات فهذا هو الذي يرفعه الله سبحانه وتعالى، الانتماء الشكلي إلى الأديان لا قيمة له إطلاقاً، البطولة في العمل، هناك آيات أخرى تقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

فمِن هؤلاء جميعاً فقط..

(مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

فالعبرة أن تكون أنت وَفْقَ جوهر الدين، لا وفق شكله الخارجي..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا وَالصّابِئِينَ وَالنّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوا إِنّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

معنى: إنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

لأنه على كل شيءٍ شهيد يفصل بينهم، لأنه يرى ما يعتقدون، ويرى أعمالهم الصالحة والطالحة، يرى صدقهم أو كذبهم، يرى إخلاصهم أو خيانتهم، يرى حبَّهم للدنيا أو زهدهم بها، إنه على كل شيءٍ شهيد، لأنه على كل شيءٍ شهيد، إنه يفصل بينهم يوم القيامة.

فلو فرضنا أن واحداً أحضر عُملة مزوّرة، والإنسان الآخر معه عُملة صحيحة، الآن توجد أجهزة دقيقة تفحص هذه القطع الورقيّة، فيقال: أنت عُملتك مزوّرة قف هنا، وأنت عُملتك صحيحة قف هنا، وكلٌّ مجزيٌّ على عمله، وواقع أمره، هناك أجهزة دقيقة جداً لفحص الأشياء..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشّجَرُ وَالدّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثِيرٌ حَقّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

أنواع السجود باعتبار المخلوقات

السجود نوعان: سجود القهر، وسجود العبادة

قال العلماء: **" السجود نوعان، سجود القهر وسجود العبادة "**، فالكون كلّه مقهورٌ بالله عزّ وجل، ليس في الكون شيءٌ إلا وهو مؤتَمِرٌ بأمر الله ؛ السماوات والأرض، الشمس والقمر، المجرّات والنجوم، الجبال، والدواب، فكل شيءٍ خلقه الله عزّ وجل مفتقرٌ إليه، خاضعٌ له، كن فيكون زل فيزول، هذا سجود الحاجة، أيْ أنّ هذه الشجرة مفتقرةٌ إلى الله عزّ وجل، لولا أن الله يمدُّها لماتت، أي مخلوقٍ مفتقرٌ إلى الله، إذاً هو ساجدٌ له سجود الخُضوع، سجود الحاجة، سجود الافتقار، إن وجود الأشياء متوقفٍ على الله عزّ وجل.

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

فهو سبحانه مصدر حياة الأشياء وقيامها، لكن الإنسان إذا سجد فسجوده سجود العبادة، فرقٌ كبير بين سجود القهر والحاجة والافتقار ؛ وبين سجود العبادة، فالإنسان لأنه مكلّف بمحض اختياره، بمحض مشيئته الحُرّة، فحينما يطيع الله عزّ وجل ويسجد له فهذا سجود العبادة، والله سبحانه وتعالى يثيبه عليه أيّما إثابة..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشّمْسُ)

سجود الكون كله لله

لماذا ذكر الله الشمس بالذّات ؟ لأن هناك أناساً عبدوا الشمس..

(لا تَسْجُدُوا لِلشّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقَهُنّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ)

(سورة فصلت)

(وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)

هناك من عبد القمر والنجوم..

(وَالْجِبَالُ وَالشّجَرُ وَالدّوَابُّ)

وهناك من يعبد البقر، يضعون روث البقر في غُرَفِ الاستقبال، يتعطّرون ببول البقر، وإذا وقفت بقرةٌ في الطريق قُطِعَ السير إلى أن يحلو لها أن تغادر هذا المكان، هم يموتون جوعاً، وأعداد البقر لا تُعَدُّ ولا تُحصى، هناك مَن عبد البقر، وهناك من عبد الشجر، وهناك مَن عَبَدَ النجوم، وهناك مَن عبد الشمس والقمر، الله سبحانه وتعالى يريد من هذه الآية أن يبيّن لمن أشرك بالله أن هذه الأشياء التي تعبدونها هي تسجد لله عزّ وجل سجود الخضوع، هذه البقرة كيف تتحرّك ؟ بقدرة الله، هذه الشجرة كيف تنمو ؟ بقدرة الله، هذه الشمس من أعطاها هذا الوهج ؟ الله سبحانه وتعالى، ثم يوم القيامة تنطفئ.

(إِذَا الشّمْسُ كُوّرَتْ)

(سورة التكوير)

هذه الشمس من أعطاها الحركة ؟ الله سبحانه وتعالى:

(وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لَهَا)

(سورة يس: من آية " 38 ")

فإذا شاءت مشيئة الله وقفت عن الحركة، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

الآن جهاز كهربائي قيمته بالكهرباء، لو قطعت عنه الكهرباء توقف، إذاً هو خاضعٌ للكهرباء، مفتقرٌ إليها، يتوقف عمله عليها، بمعنى ساجدٌ لها، أيْ أنّ الله عزّ وجل هو الذي يمد، فكل مخلوقٍ لو قطع عنه

الإمداد أصبح لا شيء، انتهى وجوده، إذاً كل الكون ساجدٌ لله سجود القهر والافتقار والحاجة، هذا السجود ليس كسجود الإنسان، الإنسان يسجد سجود العبادة، أي أنه يعرف الله، يعرف أنه ربٌ العالمين، وأنه خالق كل شيء، وأنه المسيّر، وأنه المنعم المتفضّل فيصلي له ويسجد، وهذا السجود أعلى سجودٍ بين المخلوقات، فلهذا:

((عبدي المؤمن أحبٌ إليّ من بعض ملائكتي))

(ورد في الأثر)

ما من شيءٍ أكرم على الله من المؤمن:

((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))

(من صحيح البخاري عن عبد الله)

زوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن، الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الأحاديث القدسيّة:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

فلذلك من بعض الأقوال التي وردت في الأحاديث القدسيَّة:

((ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

(وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)

دليل الاختيار: وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ

لم يقل: والناس، بل إنه قال:

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ)

هنا الاختيار، الإنسان مخيّر وأمّا هذه المخلوقات فليست مخيّرة هي مسيّرة، رُكِّبَ الإنسان من عقلٍ وشهوة، رُكِّب الملك مِن عقلٍ بلا شهوة، رُكِّب الحيوان مِن شهوةٍ بلا عقل، وبما أنّ الإنسان مِن عقلٍ وشهوة، فهو إذاً له اختيار، الإنسان مكلّف لذلك جاء قوله تعالى:

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ)

الامتناع عن سجود العبادة جزاءه النار

لأنه لم يسجد سجود عبادة، فهذه الفقرة الأخيرة متعلّقة بسجود العبادة..

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ

إنّ الله عزّ وجل إذا أكرم إنساناً رأى المستحيل، عدوّه يكرمه..

يُنادى له في الكون أنّي نحبُّه   فيسمع مَن في الكون أمر محبّنا

* * *

وإذا أراد الله عزّ وجل أن يهين إنساناً يهينه أقرب الناس إليه ؛ ولده وزوجته، حتى أنتِ يا فلانة ؟ نعم، أقرب الناس إليه يُهينُهُ، وربنا عزّ وجل حينما يقضي أن يؤدِّب إنساناً فلا ينفعه ذكاؤه، ولا تدبيره، ولا حكمته في ردِّ قضاء الله عزّ وجل.

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

(سورة الرعد)

اسألوا الله السلامة..

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

لم يقل الله: فما له مكرم، بل قال:

(فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

أيْ ولا إنسان يكرمه، حتى خادمه لا يكرمه، إنسان تحت يده يقسو عليه في الكلام، فإذا أكرم الناس أحداً فلا يظن أن هذا بذكائه، بل هو بفضل الله عزّ وجل، وإذا كانت أموره ميسّرة، فهذا بفضل الله، إذا كان الناس يحبُّونه فبفضل الله، فإذا ظنّ أنه بذكائه وعمله وحكمته فقد ضلّ سواء السبيل..

(إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

قال:

(هَذَانِ خَصْمَانِ)

هنا في هذه الآية عددهم ست ديانات..

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

الناس خصمان يوم القيامة باعتبار الجزاء

فإذا هم خصمان اثنان في الآخرة، الحق والباطل، الإيمان والكفر، الإحسان والإساءة، الاستقامة والتفلّت، قال:

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)

قال: اختصموا، لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: هذان خصمان اختصما ؟ هكذا الأَوْلى، أو هؤلاء خصومٌ اختصموا ؟ هذه تسمَّى في البلاغة نكتة بلاغيّة..

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا)

أيْ أنّ هؤلاء، أصحاب المِلَلِ والنِحَل والمذاهب على كثرتهم هم في النهاية زمرتان، أناسٌ على حق وأناسٌ على باطل، أناسٌ خيّرون وأناسٌ شريرون، أناسٌ مهتدون، وأناسٌ ضالون، أناسٌ ملتزمون وأناسٌ متفلّتون، أيْ أنّ كل هؤلاء في النهاية يرجعون إلى زمرتين اثنتين..

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)

في ربهم، أي أن الجهة الأولى وصفت الله عزّ وجل بما يليق به، وصَفَتْه بالعدل، وصفته بالرحمة، وصفته بالعِلم، وصفته بالقُدرة، بناءً على وصفهم الصحيح أطاعوه، وعبدوه، وتقرّبوا إليه فرفعهم، وأسعدهم، والفريق الثاني لم يصف الله بما يستحق، قالوا: له شريك، اتخذ الملائكة بناتٍ.. كما يقولون.. فإذا لم تصف ربّك الوصف الصحيح، ولم تنزّهه عما لا يليق به، ونسبت إليه الظلم، فأنت عندئذٍ لا تطيعه، بل تتعلّق بالأماني.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)

(سورة آل عمران: من آية " 24 ")

عندما يكون وصف الإنسان لله غير صحيح يتكئ على الأمل، وعلى معانٍ ما أنزل الله بها من سلطان..

(هَذَانِ خَصْمَانِ)

الناسُ فريقان ؛ فريق عرف الله فاستقام على أمره، وعمل صالحاً فسعد في الدنيا والآخرة، وفريق آخر ما عرف الله، ونسب إليه الظلم، نسب إليه البنات، نسب إليه الشُركاء، أو قال: خلق الكون، وترك الناس يفعلون ما يشاؤون، أو أن الله أعطى الإنسان قوّة كما يقول المعتزلة، ثم هو يفعل بقوّته ما يشاء..

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ)

جزاء الكفار في النار: ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ، وماء من حميمٍ، ومقامع من حديد

قال بعضهم: **" أيْ ثيابهم من نحاسٍ ملتهب "..**

(يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)

ماءٌ يغلي..

(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21))

سياط من حديد..

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

هؤلاء الذين ما عرفوا الله، ولم يستقيموا على أمره، وفعلوا السيّئات، فذلك جزاؤهم ومآلهم..

جزاء المؤمنين في الجنة: أساور من ذهب ولباس الحرير وطيبٌ مِن القول:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ)

أيْ القرآن الكريم، أو تسبيح الله وتنزيهُهُ، ذلك هو الطيب من القول..

(وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)

وسبحان الله فإنّ آياتِ الحَج جاء دورها، ونحن على وشك أن يأتي موسم الحج، فالدرس القادم إن شاء الله سيكون هناك تفسيرٌ دقيقٌ لآيات الحج.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 25- 38
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-07-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع من سورة الحج، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاس سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

فالذين كفروا بالله، وقد بيّنت في دروسٍ سابقة أن الكفر تكذيبٌ وإعراض، تكذيبٌ بآيات الله، تكذيبٌ بآياته الكونية، وتكذيبٌ بآياته القرآنية، وتكذيبٌ بوعده، وتكذيبٌ بوعيده، وتكذيبٌ بأسمائه، وتكذيبٌ بمنهجه، تكذيبٌ وإعراض، الذين كفروا أعرضوا عن الله عزّ وجل، والتفتوا إلى الدنيا، التفتوا إلى الشركاء، التفتوا إلى المال، التفتوا إلى كل ما يقرّبهم من الدنيا..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

من لوازم الكفر الصدّ عن سبيل الله

من لوازم الذين كفروا أنهم يصدّون عن سبيل الله، فكفروا فعل ماض، أما يصدون عن سبيل الله فهو فعلٌ مضارع، والفعل المضارع يفيد الاستمرار، هم دائماً يصدون عن سبيل الله، أيُّ شيءٍ يؤدّي إلى مرضاة الله فهم يصدون الناس عنه، أيُّ شيءٍ يقرّب الناس من الله فهم يصدونهم عنه، أيُّ شيءٍ يوصلهم فهم يقطعونهم عنه، من لوازم الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله، هم ضالون مُضلون، فاسدون مُفسدون، هؤلاء الكفار يصدون عن سبيل الله، أي شيءٍ يوصل إلى الله فهم في هذا الطريق عقبةٌ كؤود، ربما كان دفع المال طريقاً إلى الله عزّ وجل، فهم يمنعون الناس أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله، ربما كانت الأعمال الصالحة التي يُبتَغى بها وجه الله طريقاً إلى الله عزّ وجل، فهم يمنعون هذه الأعمال الصالحة، ربما كان تعليم العِلم أو تلقِي العِلم طريقاً إلى الله عزّ وجل، فهم يمنعون تعليم العلم وتلقينه، وهكذا..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

فنعوذ بالله أن نَصُدّ الناس عن سبيل الله، بل اللهم ارزقنا أن نكون هادين مهديين، أن نهتدي، ويُهتدى بنا، أن نكون واصلين، أن نكون مقرّبين..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

قال الله سبحانه وتعالى..

(إنّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلّذِي بِبَكّةَ مُبَارَكًا)

(سورة آل عمران: من آية " 96 ")

البيت الحرام مكان للعبادة والتقرب

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى جعل هذا البيت مكاناً للتقرُّب إليه، جعل هذا البيت مكاناً لعبادته، جعل هذا البيت مكاناً للتفرُّغ لعبادته، فلذلك من حكمة الحج أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين أن يأتوا إليه مخلِّفين وراء ظهورهم بيوتهم، وزوجاتهم، وأولادهم، وأموالهم، وحوانيتهم، ووظائفهم، ومكانتهم، ومتعهم، ومباهجهم، كل دنياهم مركزةٌ في بلادهم، مِن أجل ألا تكون الدنيا عائقاً بين العبد وبين ربه، من أجل ألا تكون الدنيا حجاباً بين العبد وبين ربه، فالله سبحانه وتعالى أمر الناس أن يأتوا إليه، وهم في طريقهم إليه يقولون: لبيك اللهم لبيك.

أمرهم أن يبتعدوا عن الدنيا، الشيء الذي أباحه لهم في بلادهم حرّمه عليهم وهم قاصدون إليه، حرم عليهم لبس الثياب المَخيطة، جعلهم يذكرون ساعة النشر، ساعة الحشر، أراد أن يصرفهم عن الدنيا، وربما كان اللباس من الدنيا، أمرهم أن يرتدوا ثوبين رداءً وإزاراً ليس غير، لئلا تلتفت النفس إلى الثوب، وإلى مظهره، وإلى أناقته، وإلى ألوانه المُنسجمة، ولئلا يختال الإنسان بثيابه، والله سبحانه وتعالى جعل البيت الحرام مكاناً للإقبال عليه، جعل البيت الحرام مكاناً للتوجُّه إليه، جعل البيت الحرام تفرُّغاً لعبادته.

الناس يُصلّون في بلادهم، ولكنّهم يُصلّون، وقد ينشغلون في صلاتهم عن الاتصال بربهم، قد ينشغلون بدنياهم عن الالتجاء إلى الله عزّ وجل، ولكنهم بالحج أمرهم أن يأتوا إليه، ولْيدَعوا كل شيءٍ وراء ظهورهم، أراد أن يعلِّمهم كيف أن هناك فِراقاً للدنيا لا رجعة بعده، هذا الحج تدريبٌ على الفراق النهائي، كيف أن الحاج يَنْخَلِعُ وينسلخ من كل ميزات الدنيا التي توفرها له مكانته ودخله في بلده، فربنا سبحانه وتعالى جعل المسجد الحرام معطوفاً على سبيل الله..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

فكأن المسجد الحرام مكافئٌ لكلمة سبيل الله، كما أن الأعمال الصالحة كلّها ؛ طلب العلم، تعليم العلم، إنفاق المال، أداء العبادات، أداء الزكاة، الصيام، هذه كلها سُبَلٌ إلى الله عزّ وجل، كذلك المسجد الحرام سبيلٌ إلى الله عزّ وجل..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً)

مشاعر الناس في المسجد الحرام سواء، القريب والبعيد

أيٌّ مكانٍ تذهب إليه لا تفارقك مشاعُر بأنك في البلد الفلاني، إذا ذهبت إلى بلد شرقي، أو غربي، أو عربي، أو إسلامي، دائماً هناك شعور مستمر أنك في هذا البلد، لكنك إذا دخلت البيت الحرام لا تشعر أنك في السعودية، تشعر أنك في بيت الله، هذا المعنى مستفاد من قوله تعالى:

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

أيْ حقُ الغريبِ عنه كحقّ المقيم فيه، هو للناس جميعاً، ليس لأهل مكة، وليس لأهل المدينة، وليس لمن يقيم في المملكة، إنه للناس جميعاً..

(الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

معنى: العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ

العاكف المُقيم، والباد الذي جاء من البادية أو الذي جاء من مكانٍ بعيد، يعبِّر عنه في كتب الفقه: بالآفاقي، أيْ حقُ المسلم أينما كان، من أي بلدٍ كان، من أي مجتمع كان، في البيت الحرام كحقّ ساكني مكة المكرّمة سواءً بسواء، يعني أنّ هذا البيت للناس، وليس لأهل بلدٍ بالذات، ولا لأهل إقليمٍ معين، ولا لأهل مصرٍ ما، إنما هو للمسلمين جميعاً.

(الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

حرمة البيت الحرام

وربنا سبحانه وتعالى جلّت مشيئته أراد أن يجعل هذا البيت الحرام، وسماه حراماً لأنه يحرم فيه كل إيذاءٍ يقع على أي مخلوق، هناك أشهُرٌ حُرُم، وهناك أمكنةٌ حرم، فالمسجد الحرام مكانٌ حرام لا يجوز فيه القتال، ولا يجوز فيه الأخذ بالثأر، ولا يجوز فيه العدوان، ولا يجوز فيه قتل الصيد الذي هو مباحٌ في مكانٍ آخر، وفي وقتٍ آخر، أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأشهر الحرام وجعل البيت الحرام حَداً للخصومات، كل من دخل هذا البيت فهو آمن ولو كان مهدور الدم، إذا دخل البيت فهو آمن، مكانٌ حرام وأشهرٌ حرام، فربنا عزّ وجل قال:

(الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

هذا مكان عبادة، مكان إقبال، مكان تعبُّد، مكان صفاء، مكان بعد عن الدنيا، عن أخبار الدنيا، عن صراعات الدنيا، عن مشكلات الدنيا، عن أزمات الدنيا، مكان عبادةٍ خالصة، مكانٌ يُذَكِّر الناس باليوم الآخر، يُذكّرهم بمنقلبهم إلى ربهم، لذلك لا ينبغي أن تقوم فيه فتنة، ولا ينبغي أن يجري فيه عدوان، ولا ينبغي أن يقع فيه اقتتال، إنه شهرٌ حرام وبيتٌ حرام، والله سبحانه وتعالى يتوعّد مَن تسوّل له نفسه في هذا البيت الحرام وفي الشهر الحرام أن يعتدي على أيّ مخلوق، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ)

جزاء من أراد في البيت الحرام بالإلحاد والظلم

في للظرفية المكانية..

(وَمَنْ يُرِدْ)

أي مَن ينوي..

(فِيهِ بِإِلْحَادٍ)

الإلحاد الانحراف عن جادة الصواب، استقامت وجهته أو ألْحَد..

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ)

هذه الباء للملابسة، أيْ إرادته منحرفة، مَن يرد إرادةً متلبّسَةً بالانحراف بسبب أنه ظلم نفسه أو ظلم مخلوقاً آخر،

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

حتى إن بعض المفسرين فهموا من هذه الآية، أن الخطيئة في البيت الحرام يعظمُ إثمها، ويضاعف عقابها، حيث لو أن الإنسان أراد سيئة، ولم يفعلها حوسب عليها، وهو في البيت الحرام لقوله تعالى:

(وَمَنْ يُرِدْ)

وليس مَن يقترب، ليس مَن يظلم..

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ)

في هذا البيت، وفي للظرفية المكانية والزمانية، أيْ في البيت الحرام وفي الأشهر الحرام.

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ)

أيْ متلبّساً بانحرافٍ عن طريق الإيمان الصحيح، والعمل الصالح..

(بِظُلْمٍ)

بدافع من ظُلمه لنفسه أو ظلمه للآخرين، هذا الذي يفعل إثماً، أو يقتل حيواناً، أو يؤذي إنساناً، أو يقلع نبتةً، أو يشتم مخلوقاً، أو يفسُق، أو يفجر، في هذا البيت الحرام ؛ مَن أراد هذه المعاصي..

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

في الدنيا والآخرة، لأن ربنا عزّ وجل جعل هذا البيت مكاناً للعبادة والنُسك، فأيّ عملٍ مُخِلٍّ بهذه العبادة وبالطمأنينة التي يجب أن تتوافر للحاج في هذا المكان فهذا إفسادٌ في الأرض.

(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

لذلك فإنّ في زمن العرب لو أن حرباً ضَروساً نشبت بين فئتين، وجاءت الأشهر الحرم انتهى كل شيء، لو أن أحد الخَصْمَين دخل الحرم فهو آمن، الله سبحانه وتعالى جعل البيت الحرام، وجعل الأشهر الحرام رحمة للناس، حَدّاً لنزاعاتهم، وإيقافاً لخصوماتهم، وإنهاءً لمشكلاتهم.

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً)

بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس

يقول ربنا عزّ وجل في آيةٍ أخرى:

(إِنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ)

(سورة آل عمران: من آية " 96 ")

هذه الآية دليلٌ قطعي على أن أول بيتٍ أنشئ على وجه الأرض لعبادة الله سبحانه وتعالى هو البيت الحرام في مكة المكرّمة، لكن ربما كُلِّفَ هذا النبي العظيم سيدنا إبراهيم بإعادة إنشاء البيت، أما هذا البيت فلابدّ من أنه وُضع منذ عهد آدم.

(إِنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلّذِي بِبَكّةَ مُبَارَكًا)

(سورة آل عمران: من آية " 96 ")

وبعض علماء الجغرافية يرون أن الكعبة المشرفة تقع في الوسط الهندسي تماماً للقارّات الخمس، إذا أخذنا أطراف القارات الخمس، ووصلنا بين أطرافها بأقطار تأتي الكعبة المشرّفة في مركز تقاطع هذه الأقطار، بيتٌ متوسّط، وربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعله في وادٍ غير ذي زرع لئلا يأتيه إلا الحاج، فلو كان في وادٍ ذي زرع، وجوٍ لطيف، وبحيراتٍ رائعة، وجبالٍ خضراء لجاءه الحاج والسائح، لكنه بهذه الطريقة لا يقصده إلا الحاج، الحاج وحده، ومع أن هناك حراً شديداً ومع أن هناك ازدحاماً بالغاً، فإن الذي ذهب إليه بإخلاصٍ شديد، يقول لك: لم أذق في حياتي نعيماً وسعادةً أبلغ من هذا الحج،

وهذه حكمة الله سبحانه وتعالى، كأنه هناك تجليًا من الله مكثفًا لهؤلاء الحجاج الأطهار، الحجاج والعمار وفد الله، فإذا ذهب الإنسان إلى بيت من بيوت الله في بلده الذي يقيم فيه فلن يجد مثل هذا الشعور والسعادة..

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإنّ زوّارها هم عُمّارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني، وحُقّ على المزور أن يكرم الزائر))

(ورد في الأثر)

إذا كان إكرامك من قبل الله عزّ وجل حقٌ عليه إذا أتيته لبيته الذي في بلدك، فكيف إذا أتيته في البيت الحرام ؟ شتّان، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((وَلا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثلاثةِ مَسَاجِدَ، مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ الأقصَى))

(من صحيح البخاري عن أبي سعيد)

هذه المساجد الثلاثة لها مكانة خاصة، ويبدو أن الله سبحانه وتعالى جعلها موطناً للتجلِّي الذي يَنْعُمُ به الحجّاج والعُمّار.

(وَإِذْ بَوّأنَا لِإِبْرَاهِيمَ)

أي حددنا مكان هذا البيت، وجعلناه مرجعاً إلي..

(وَإِذْ بَوّأنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً)

أيْ أنّ هذا البيت أقيم على التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكّعِ السُّجُودِ)

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالقَائِمِينَ وَالرُّكّعِ السُّجُودِ

بعضهم قال: الطائفين الذين يطوفون حول البيت.

وأما:

(وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكّعِ السُّجُودِ)

وَالقَائِمِينَ وَالرُّكّعِ السُّجُودِ

المصلون، وهناك من يستنبط من هذه الآية أن الطواف يسبق القِيام، والقيام يسبق الركوع، والركوع يسبق السجود، وكأنها مراتب، طاف، فأقام، فركع، فسجد، يعني أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، الركوع خضوع، والسجود طلب العون، والقيام الالتزام، والطواف هو البحث، طاف باحثاً، ثم عكف واقفاً، ثم ركع ثم سجد، طهّرا بيتي من الشرك ومن القَذَر ومن كل شيء، وهؤلاء الذين شرّفهم

الله عزّ وجل بخدمة مساجده وبيوته هؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية، ليست خدمة بيوت الله وظيفة، وظيفةٌ يتقاضى الإنسان راتبها، إنها شرفٌ تشرّف الإنسان، لذلك َمن هُم تواقوّن لخدمة بيوت الله عزّ وجل فهؤلاء لابدّ من أن تشملهم هذه الآية:

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ)

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

أيْ ادعُهم إلى الحج، إذا انتهيت من بناء البيت وتجديده، أذّن في الناس بالحج.

(يَأْتُوكَ رِجَالاً)

الأجر على قدر المشقة: يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

والذين قالوا: الثواب على قدر المشقّة لم يخطئوا، كلّما قلّت المشقّة وصار السفر متعة، والطائرة مكيفة، والصالات كلها مكيّفة، والخيام مكيفة في عرفات، والطعام لذيذ، والتنقّل ممتع، قلّ الأجر، وأصبح الحج متعة، لذلك السلف الصالح يأتون راجلين، وبعضهم يأتون راكبين، ولكن لا ينبغي للحاج اليوم أن يذهب ماشياً ولا راكباً ناقة، لأن الجهد ليس مطلوباً لذاته، أما إذا كان الجهد عاماً، المشقة إن كانت عامة فالله سبحانه وتعالى يثيب عليها، على قدر المشقة، ولكن الآن أصبح الانتقال لا خيار فيه، لابدّ من ركوب الطائرة، ولابدّ من التنقّل بين مكة وعرفات، وبين مكة والمدينة بوسائل الركوب المعروفة.

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)

يأتوك رجالاً وراكبين، رجالاً مترجّلين، ويأتوك راكبين..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)

أيْ أنّ هذه الناقة أصبحت ضامرة لشدة المشقّة وبعد المسافة..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

طبعاً نحن حينما نذهب إلى الحج فالمسافة بيننا وبين الحرم تُعَدُّ قريبة نسبياً، أما الذين يأتون من باكستان، من الهند، من الصين، من أمريكا، من أوروبا فهذه مسافاتٌ طويلة، وركوب الطائرة يستغرق عشرات الساعات، كما يكلِف إنفاق مئات الألوف..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

لذلك النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله، تماماً بتمام.

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

منـــافع الحـج: روحية ومعنوية

فلا يُعقل أن يدعوك الله سبحانه وتعالى وأنت في بلدك، يدعوك لترك أهلك، وعملك، ودكّانك، ووظيفتك، وأولادك، وتأتي إليه، ولا تجد شيئاً هذا مستحيل، مستحيل في حق الله عزّ وجل، مستحيل في حقّ الضيافة أن تأتيه من مكانٍ بعيد ولا يكرمك، لذلك:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

وعلامة الحاج الصادق أنه يتمنّى أن يحج كل عام، علامة الحاج الذي أقبل على الله وتجلى الله على قلبه، أنه يتمنى أن تكون أيامه كلها حجاً، فلذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

والمفسرون قالوا في تفسير هذه الآية: " منافع روحية، ومنافع دنيوية "، فإضافة إلى أن الحج عبادة راقية، والإنسان في الحج يقبل على الله عزّ وجل، ويعاهده على الطاعة، يتوب إليه، ويتعرف إليه، ويتشرف قلبه بالإقبال عليه، إضافةً إلى كل هذا فإن في الحج منافع، ربما يلتقي المسلمون من شتىّ أقطارهم، ربما يتعرّف بعضهم على بعض، ربما يبحثون قضيةً عامة، ربما يتشجّع الإنسان ليكون مثل هؤلاء، ربما يكون التنافُس بينهم، هناك منافع روحية، ومنافع دنيوية تكون في الحج.

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ)

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ)

(سورة البقرة: من آية " 197 ")

فالحاج يذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الأيام المعلومات، كلما صعد شَرَفاً أو هبط وادياً، أو استيقظ، أو نام، أو التقى بركبان، يقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك استجابةً لدعوة الله سبحانه وتعالى:

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ)

فإذا رمى جمرة العقبة قطع التلبية وقال: " الله أكبر والله أكبر "، بدأ يكبّر ويهلل ويسبح، الحج كله ذكر، الحج كله دعاء، الحج كله صلاة، الحج كله إقبال، الحج كله اتصال، الحج مناسبة كي يتصل هذا العبد بخالقه اتصالاً محكماً مكثفاً مجدياً صحيحاً.

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)

نعمة بهيمة الأنعام

هذه الأنعام من آيات الله عزّ وجل، الأنعام تعني الإبل والبقر والغنم بما فيه الماعز، هذه الحيوانات التي جعلها الله آيةً على كرمه.

(أوَلَمْ يَرَوْا أنّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ أيْدِينَا أنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس)

لو أن الله سبحانه وتعالى رَكّبَ في هذه الأنعام أخلاق الضباع، أو أخلاق الذئاب، أو أخلاق الوحوش الكاسرة، أو أخلاق السباع، كيف نستفيد منها ؟ كيف نربّيها ؟ كيف نكثِرها ؟ كيف نذبحها ؟ كيف نتّقي شرها؟ إنها وديعة، الغنم والماعز والبقر والجمل، ربنا عزّ وجل قال:

(أفَلا يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية)

فهناك بحوث عن الجمل يكاد العقل لا يصدقها، فالله سبحانه وتعالى خلق الجمل خِصّيصاً للصحراء، له عينان تُريانه الصغير كبيراً.. أي كالمجهر.. والبعيد قريباً.. مثل التلسكوب.. ولعينيه رموش بإمكانه أن يُغمض عينيه، وأن يرى طريقه لئلا يؤذيه غبار الصحراء، له أجفان يرى من خلالها، ولا تتأثر بغُبار الصحراء، بإمكان الجمل أن يَسُدّ أذنيه، الجمل له ثفينات، يجلس جلسةً نظامية كي يسهل تحميله، لو جلس كالحمار على جنبه كيف نُحَمِّل الجمل ؟ إنه يجلس بشكلٍ نظامي، يحمله صاحبه، وهو قاعد، ثم يقف، مَن هَيّأ له هذا السنام الذي يجزئُهُ عن تناول الغذاء أشهراً ؟ الجمل بإمكانه أن يعيش بلا ماء ما يزيد عن عدة أشهر، بإمكان الجمل أن يمتّص الماءَ من خلاياه، الجمل يصبر، له هذه الأخفاف التي تعينه على السير في الرمال، فلو حدثتكم عن الجمل لطال الحديث، وهناك بحوثٌ طريفةٌ جداً وعميقة وغزيرة لا يتسع الوقت لذكرها جميعاً، فهذه سُمّيَتْ أنعاماً لأنها نعمة كبرى من الله عزّ وجل. والغنم كذلك نأكل لحومها ودهنها وشحمها، ونستفيد من عَظمها، ونستفيد من أصوافها، ومن جلودها، ومن ألبانها، ومن أمعائها، كل شيءٍ في الغَنَم خير، هذه نعم الله سبحانه وتعالى، الألبان، مشتقات الألبان تعرفونها جميعاً، لا تجد بيتًا في الأرض إلا وفيه مشتقّات الألبان، هذه آيةٌ عظمى على نِعَمِ الله عزَ وجل.

(أوَلَمْ يَرَوْا أنّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ أيْدِينَا أنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلّلْنَاهَا لَهُمْ)

من جعلها مذللةً ؟ فبإمكان الطفل الصغير أن يقود الجمل الكبير، لأنه مذلل، لو لم يكن مذللاً لخاف منه الرجل فكيف بالطفل ؟.

(وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

الهدي في الحج: الأكل منها والتصدق على الفقراء

كلوا من هذا الهَدْي، لذلك أجاز العلماء أن يأكل الحاج من هَدْيِهِ، وكلكم يعلم أن هناك حاجاً مفرداً، وحاجاً متمتِّعاً، وحاجاً قارناً، فالحاج المفرد لا دم عليه، لا هدي عليه، أما المتمتِّع والقارن فعليهما الهدي، هدي المتمتع هدي جَبرٍ، وهدي القارن هدي شكرٍ، لأن الله أعانه ووصل العمرة بالحج فعليه هديُ شكرٍ، أما المتمتع فعليه هدي جبرٍ، لأنه اعتمر، ثم تحلل، ثم أحرم من مكة قُبَيْلَ الحج، فعليه دم جبرٍ، فأجاز العلماء أن يأكل الحاج نَدْبَاً أو وجوباً أو إباحةً من لحم الهدي، وأن يطعم منه القانع والمُعْتَر، لكنهم حرّموا الأكل على من قدّم الهدي نذراً أو جزاءَ إثمٍ ارتكبه في الحج، هذا الهدي الذي يقدّم جزاءً وكفارةً لإثمٍ ارتكبه الحاج، أو وفاءً بنذرٍ لا ينبغي أن يأكل الحاج منه شيئاً.

(فَكُلُوا مِنْهَا)

هذا أمر ندب أو أمر إباحة هناك أمر يقتضي الوجوب، وهناك أمر إباحة، ثم..

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

هذا أمر إباحة، ليس معناه أنه إذا لم يأكل الرجلُ يكون قد عصى، عندنا في الشرع أمر إباحة، كما أنه عندنا أمر ندب، وكذلك عندنا أمر وجوب.

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

وبعد أن رمى الحاج جمرة العقبة وذبح الهدي..

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ

التَفَثْ، الإنسان حينما يقصُّ أظافره يقضي تفثه، وحينما يحلق شعر رأسه يقضي تفثه، وحينما يغتسل فيُذهب عن جلده الأوساخ يقضي تفثه، بعد أن أحرموا يوم الثامن من ذي الحجة، أو بعد أن أحرموا من العمرة إلى الحج للقارن، واستمروا على إحرامهم أياماً ولياليَ لا يمسّون طيباً، ولا يحلقون رأساً، ولا يلبسون مخيطاً، ولا يستعملون طيباً، بعد أن أحرموا، وتحمّلوا مشاقّ الإحرام، فالآن جاء وقت قضاء التَفَث، قال تعالى:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

حَمّلَ بعض العلماء هذه الآية على أن الحاج وهو في عرفات، أو وهو يطوف البيت، أو وهو يقبّل الحجر، أو وهو يسعى بين الصفا والمروة، يعاهدُ الله على أعمالٍ صالحة، على خدمة الخَلق، على

هداية الخلق، على الاستقامة على أمر الله، هذا العهد الذي عاهدت الله به، بعد أن تحللت من الإحرام جاء وقت الوفاء به..

(ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ)

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ

الحاج كأنه عاهد الله سبحانه وتعالى، وهو في عرفات عاهد الله، وهو يقبّل الحجر الأسود عاهد الله، وهو يلتزم المُلتزم عاهد الله، وهو يسعى بين الصفا والمروة عاهد الله، وهو يطوف حول البيت يعاهد الله سبحانه وتعالى، فإذا حَلّ من إحرامه، وقضى تفثه عليه أن يفي بنذره، أحد الصالحين اشترى قبراً في حياته، كان كل يوم خميس يضّطجع فيه حياً، ويتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ُ)

(سورة المؤمنون)

فيقول لنفسه: قومي لقد أرجعناكِ، قومي إلى العمل الصالح قد أرجعناكِ، وكأن لسان حال الحاج.

(ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)

بعد أن يرموا جمرة العقبة، وبعد أن يذبحوا الهدي، ويحلقوا شعورهم، ويغتسلوا يتحللون التحلّل الأول، أي بإمكانهم أن يفعلوا كل شيء كان محظوراً عليهم إلا النساء، هذا التحلّل الأول، فإذا طافوا طواف الرُكن، طواف الركن: يعني طواف الإفاضة، حلّ لهم كل شيء كان محظوراً عليهم بما فيه النساء.

(ثُمّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطّوّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

الطواف بالبيت العتيق

فإذا قلت: كَسّر غير كَسَرَ، وغَلّقَ غير غلَق، وقطّعَ غير قطَع، قطّع فيه مبالغة، قطعتُ اللحم قطعتين، أما قطّعتها قطعاً صغيرة، فوزن فَعّلَ يفيد التكسير، فربنا عزّ وجل قال:

(وَلْيَطّوّفُوا)

أي وليطوفوا كثيراً، فهم النبي عليه الصلاة والسلام من قوله تعالى:

(وَلْيَطّوّفُوا)

الطواف سبعة أشواط، الحد الأدنى سبعة أشواط، لكن الطواف الواجب دائماً أربعة أشواط، والسُنّةُ سبعة أشواط، فمن طاف أربعة أشواطٍ وأصابه إغماءٌ فرضاً فقد أدّى الفريضة، طواف الزيارة.

(وَلْيَطّوّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

وسمي البيت العتيق عتيقاً لأنه أقدم بيت، وسمي البيت العتيق عتيقاً لأن الله كرّمه أن يخضع لجبّار، لذلك: كل أنواع الغزو التي شهدها العالم الإسلامي لم تصل إلى الكعبة، جعله الله عتيقاً.
والمعنى الآخر أن كل من دخل هذا البيت مخلصاً أعتقه الله من النار، إما لأنه عَتِيقٌ زماناً، أو لأنه في مَنْجَاةٍ من سيطرة الجبابرة، أو لأن كل من دخله أعتقه الله من النار، لأن: مَن حج، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ حَجّ لِلّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُهُ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

لذلك قال العلماء: من أفاض من عرفات، ولم يغلِب على ظنِّه أن الله قد غفر له فلا حج له، تفعل ماذا ؟ جئت من بلدك مِن بُعْدٍ يزيد عن عشرات الآلاف مِن الكيلو مترات، دفعت الرسوم، دفعت النفقات، أغلقت محلّك التجاري، تركت أهلك، لماذا جئت ؟ أليس جئت للمغفرة ؟ تفعل ماذا هناك ؟ مَن أفاض مِن عرفات ولم يغلب على ظنِّه أن الله قد غفر له فلا حج له.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

تعظيم حرمات الله تعالى دليل على التقوى

أي أن هذه المناسك الذي يعظمها، هناك حاج يتساهل، يقول لك: لا تدقق، هذا لا يعظِّم شعائر الله، لديك أشياء مباحة في بلدك، الطيب مباح، بالعكس مندوب، قال عليه الصلاة والسلام:

((حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء...))

(رواه أحمد عن أنس)

فالطيب مباح في بلدك، ولكن الله سبحانه وتعالى هناك أراد أن يتعبّدك، أن يمتحن مدى طاعتك له، والطاعة دائماً تُمْتَحَن لا في المعاصي والآثام بل في المُباحات، حينما تَنهى ابنك عن أن يسرق فلابدّ أن يلتزم، أما حينما تنهاه أن يأكل طعامه الذي جُعِلَ له، ويستجيب لك فهذه منتهى الطاعة، فربنا عزّ وجل نهانا عن أشياء مباحة لنا ونحن في بلدنا، مباح أن تلبس ثوباً مخيطاً، مباح أن تغتسل بصابون مُعطّر، مباح أن تأخذ من الطيب، مباح أن تحلق رأسك، فربنا عزّ وجل أراد أن يمتحن عبوديّتك امتحاناً صارماً، فالمعاصي، والآثام شيء بديهي، وتركها من باب أولى، لما فربنا يأمرك عزّ وجل أن تترك المباح فترك المعصية من باب أوْلى، فإذا كان لبس المخيط حرام، النظر للنساء أشد حُرْمَة، إذا كان استعمال الطيب حرام فالكذب أشد حرمة، ربنا عزّ وجل جعل المباحات محرمة هناك ليكون ترك المحرّمات من باب أوْلى، شيء بديهي جداً أن تكون بعيداً عن كل إثمٍ أو معصية.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ)

الحُرْمَة الشيء الذي لا يجوز أن تناله، شيءٌ محرم.

(فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ)

الأنعام كلها حلال إلا ما استثني

طبعاً الميتة والدم ولحم الخنزير، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، هذه كلها ذكرها الله عزّ وجل في أماكن أخرى من كتاب الله، لكن بعض المفسرين يقولون: إلا ما يتلى عليكم هنا السياق والسباق واللحاق يقتضي أن ذبح الأنعام في البيت الحرام كما كان شائعاً في الجاهلية، كان ذبحاً على الأصنام، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول بعدها:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

الأمر باجتناب الأوثان

أيْ اجتنبوا الرجس الذي يصيبكم من عبادة الأوثان، لأنكم إذا عبدتم الأوثان فهو رجسٌ أيْ نجسٌ، والنجس مستقْبَح، ربنا عزّ وجل في آية أخرى يقول:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة: من آية " 82 ")

لم يقل الله عزّ وجل: نجسون، بل قال:

(نَجَسٌ)

لأن النَجِس يطْهُر، نَجِس على وزنَ ِفعل، أما النَجَس هو عين النجاسة، فلذلك الوثن الصنم إذا عبدته فهو نجس، نجاسة بمعنى أنك إذا عبدته انقطعت عن الله عزّ وجل، هذا الصنم أصم وأبكم، لا ينطق ولا يسمع ولا يستجيب، وليس معك، وليس في إمكانه أن يتجلّى على قلبك، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى في سياق هذه الآيات ويبيّن أنه لا يجوز للإنسان أن يذبح هدياً إلا ابتغاء مرضاة الله، وهذه الآية فيها نهيٌ عن فعل الجاهلية.

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

الأمر باجتناب قول الزور

هذه الآية يستنبط منها أن الباطل لا يجوز أن تمارسه، ولا يجوز أن تتحدّث عنه، لأن الحديث عن الوثن وعن الصنم هو حديثٌ كاذب، وهو يقول زور، فلا ينبغي أن تعبد الوثَنْ، ولا أن تشيد به، ولا أن

تتحدث عنه، وعندنا قاعدة أصولية.. ما حَرُم فعله حَرُم استماعه، وحرم النظر إليه، وحرم الحديث عنه.. فهذه الأوثان التي كانت تُعْبَدُ من دون الله في الجاهلية لا يجوز أن تعبد، عبادتها نجاسةٌ قطعية، والحديث عنها كذلك، لذلك:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

لأن قول الزور قولٌ كاذب، والحديث عن الأوثان حديثٌ كاذب غير صحيح، لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ويجب أن يكون الحُجّاجُ حنفاء لله، الأحنف هو المائل، الأحنف بن قيس سمي " أحنف " لأنه كان به مَيْل، إذا سار يميل على إحدى رجليه، أما الأحنف هنا فهو، المؤمن الأحنف أي المائل لله عزّ وجل، أيْ كله متجه إلى الله عزّ وجل، إمكاناته، تفكيره، مشاعره، عقله، ذِكْرُهُ، حديثه، طاقاته، نشاطه، كله في سبيل الله.

(حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ)

حُنَفَاءَ للّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ

حنيف أيْ مائل.

أحياناً يقول لك بعض الناس: ساعة لك، وساعة لربك، هذه المقولة شرك، فالوقت كله لله، لكن ربنا عزّ وجل أمرك أن تأخذ حظاً من الراحة، أمرك أن تجلس مع أهلك، أمرك أن تجلس مع أولادك، ولكن حنفاء لله، القلب معلّق بالله عزّ وجل.

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ)

عاقبة الشرك والمشركين

مَن يتخذ غير الله شريكاً، مَن يتوجّه لغير الله، من يطمح لغير الله، من يطمئن لغير الله، من يطيع غير الله، من يركن لغير الله، من يعتمد على غير الله، من يرضى بغير الله، هذا شرك.

((إنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أُمّتِي الإِشْرَاكُ بِاللهِ، أَمَا إِنّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسَاً وَلاَ قَمَراً وَلاَ وَثَناً، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

(من مسند ابن ماجة)

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

صورةٌ رائعة، المشرك كأنه سقط من السماء، فلو أنّ إنساناً يركب طائرة، وهذه الطائرة تطير على ارتفاع أربعين ألف قدم، وفجأةً فُتِحَ الباب الذي إلى جانبه وسقط، فقد مات وانتهى، هذا مثل مبسّط لمن

يشرك..

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ)

يصبح طعاماً في حويصلاتها..

(أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

(يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(سورة لقمان)

وإن الأديان السماوية كلها تدعو إلى التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

من التقوى تعظيم شعائر الله

الشعائر جمع شعيرة، والشعيرة العلامة الدالة على منسك أو على عبادة، فالكعبة مِن شعائر الله، والبيت الحرام من شعائر الله، والحرم المكي بكامله مع حدوده من شعائر الله، المُصحف من شعائر الله، المسجد من شعائر الله، المؤمن من شعائر الله، من يتزيّا بزي أهل العلم فهذا من شعائر الله، ينبغي أن تحترمه، ينبغي أن تجلّه، إكراماً لهذا الزي الذي يرتديه.

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

فالأدب مع الله هو أدب مع رسوله، هو أدب مع بيته، أدب مع كتابه، أدب مع مَن يدلّه على الله عزّ وجل، الأدب واحد يظهر بأشكال متباينة.

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

الهدي منفعة للحاج خالصة لله

هذا الهدي الذي يسوقه الحاج معه، أعني الحاج المتمتع..

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

فلك أن تركبها، ولك أن تحلبها، ولك أن تستعين بها..

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

في النهاية تُنْحَر، ويقدم لحمها طعاماً للفقراء، فيجوز من خلال هذه الآية أن تركب الهدي، وأن تستفيد من لبنه، ومن صوفه، ومن وبره..

(ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

لذلك حينما كان الحجاج يذبحون الخراف سابقاً، ويلقونها في الطريق لتنتفخ بعد ساعات، وتملأ الجو كلها رائحة نتنة، هذا ليس من فعل المسلم، هذا ليس منسكاً، ليس القصد أن تذبح غنمًا، بل استفد من هذا اللحم، القصد أن يصل هذا اللحم إلى بطون الفقراء، هذا القصد، لذلك تفقهوا قبل أن تحجوا، حدثني صديق قبل سنوات.. قبل أن يمنع الذبح، الآن يتم الذبح في المسلخ.. قبل أن تمنع فوضى الذبح كان الحاج يشتري هذه الغنمة بمئات الريالات، ويذبحها، ويمشي، فإذا نظر إلى هذا المَنسك إنسان غير مسلم فإنه يتساءل: أهذا هو الإسلام ؟ أهذا هو الدين ؟ هل يأمركم الله عزّ وجل أن تذبحوا هذه الخراف لتصبح جِيَفَاً، أهذا هو الدين ؟ لا والله، يجب أن تنتهي هذه الأغنام، هذه الذبائح إلى أجواف الفقراء، إلى بطونهم.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)

أيْ أنّ الله عزّ وجل جعل مناسك، أي جعل وسائل تتقرب بها إليه، من هذه الوسائل أن تذبح الأضاحي تقرُّباً إلى الله عزّ وجل، المنسك يعني العبادة، وهنا العبادة المتعلِّقة بذبح الهدي.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

من صفقات المؤمن المخبت:

1 - الخوف والوجل عند ذكر الله:

الذين أضمروا الحب لله عزّ وجل..

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

فالإسلام نصفه محبّة، مكان المحبة في الإسلام كمكان الروح من الجسد، فالإسلام من دون محبة جسدٌ بلا روح، فالمؤمنون..

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

اضطربت قلوبهم، هَطَلَت دموعهم، اقشعرّ جلدهم، اضطربوا، تأثروا..

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ)

2 - الصبر على المصائب:

المؤمن صابر يرى أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، ويرى أن حكمته بالغة، وأن الله سبحانه وتعالى كل أفعالِهِ خير.

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: من آية " 26 ")

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ)

3 - إقامة الصلاة:

فالصلاة تحتاج إلى جهد كبير كي يقيمها الإنسان، تحتاج إلى استقامة، وأنت تحتاج إلى أن تعرف الله، يجب أن تعرف مَن تقف بين يديه، تحتاج إلى عمل صالح كي ترقى به إليه.

(وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

4 – الإنفاق في سبيل الله:

كل إنسان مُحاسب على ما رزقه الله عزّ وجل، فمن آتاه الله العلم فعليه أن ينفق من علمه، والذي أتاه الله المال عليه أن ينفق من ماله، والذي أتاه الله الجاه عليه أن يُنفِقَ من جاهه.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

(وَالْبُدْنَ)

الهدي المسوقة في الحج من شعائر الله

أيْ الناقة، مفردها بَدَنَة، بفتحتين..

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ)

تقف، وتربط، ثم تُنْحَر..

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)

أي وقعت وسَكَنَتْ..

(فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ)

القانع والمعتر

القانع الذي لا يسأل، والمُعْتَر الذي يتعرّض للسؤال، يسأل، يقول لك: أعطني من مال الله.

(كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا)

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا

لن ينال الله، اسم الجلالة، مفعول به مقدّم منصوب على التعظيم، أيْ لن ينال لحومها ولا دماؤها الله، فإن الله عزّ وجل غنيٌّ عن عبادتنا كلها.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(من صحيح مسلم عن أبي ذر)

فلذلك:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ)

وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ

الله عزّ وجل يناله من العبد هذه النيّةُ الطيبة، بهذه النية الطيبة يقبل عليه، بهذه النية الطيبة يسعد بها إلى الأبد.

(كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)

معناها: وأنت في الحج فقد هُدِيَت إلى الله عزّ وجل، وما قولك: " لبيك اللهم لبيك والله أكبر، الله أكبر " إلا تعبيرٌ عن أنك قد اهتديت إلى الله عزّ وجل.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 38- 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-07-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الحَج، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40))

توطئة

يؤكِّد بعض العلماء أن هذه الآيات هي الآيات التي أذِن الله فيها أوّل مرّة للمؤمنين بالقتال، ذلك أن الحق لابدّ من أن تدعَمَهُ قوّة، وأن الحق من دون قوة مُستَباح، وأن أهل الباطل منذ القِدَم يكيدون للحق، وأن هناك صراعاً دائماً بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، لذلك في هذه الآيات يذكر الله فيها سبحانه وتعالى أن الذين آمنوا قد ظُلِموا، وأنهم عليهم أن يأخذوا حقهم، وأن يحافظوا على هذا الحق، ولكن لماذا لا يتولّى الله سبحانه وتعالى الدفاع عنهم ؟ ولماذا لا يعفيهم من مؤونة القِتال ؟ هذا السؤال الأوّل.

الله من دون شك قادرٌ على أن يقدِّم النصر للمؤمنين على طبقٍ من ذهب، من دون عناءٍ، ولا تعبٍ، ولا جهدٍ، ولا مشقّة، ولكنّ هذا النصر الذي يُقدَّم من دون جهد لا قيمة له، ولا يرقى بهم، ولا يتيحُ لهم أن يسعدوا في الجنّة التي وعدهم الله بها. الله سبحانه وتعالى وعدهم بالنصر بشرط أن يكون القتال من فعلهم، وعدهم بالنصر بشرط أن يكون النصر عن طريقهم، لذلك كان التمهيد بقوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

دفاع اللهِ عن المؤمنين

أيْ أن الله خالق الكون، واجب الوجود، الأبدي السرمدي، القوي، القهّار، العزيز، الجبّار، هذا الإله العظيم الذي خلق كل شيء، والذي خلق الكون فقال له: كن فيكون، هو نفسه يدافع عن الذين آمنوا، ولم يقل: يَدْفَعُ، بل يدافع، لأن دافع مصدره المُدافعة، والمدافعة أبلغ من الدفاع، دَفَعَ دفعاً، ودافع مدافعةً..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

ولا يَعرف معنى هذه الآية إلا المؤمن، لأنه من خلال تجاربه اليوميّة يرى رأي العين كيف أن الله سبحانه وتعالى يُدافع عنه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يُنقذه من عدوّه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يكيد لمن يكيدون له، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يحفظه بحفظه المنيع، هذا المعنى لا يتذوقه إلا المؤمن..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

لماذا ؟ قال بعض العلماء: " هذه الآيات توطئةٌ وتمهيدٌ لآيات القتال"، إن الله يدافع عنكم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

بغض الله للخائنين للأمانة

لماذا يدافع الله عن المؤمنين ؟ قال: لأنه يحبّهم، ولماذا يكيد للكافرين ؟ لأنه لا يحبُّهم، إن الله لا يحبُّ أعداء المؤمنين، من هم أعداء المؤمنين ؟ هم الكافرون، لماذا لا يحبهم الله عزّ وجل ؟ لأنهم خائنون، كافرون، خانوا ماذا ؟ خانوا أمانة التكليف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)

(سورة الأحزاب)

الإنسان حمل الأمانة، فإما أن يفي بعهده، وإما أن يخون الأمانة، فالله سبحانه وتعالى لا يحبُّ كل خَوّانٍ، لم يقل: كل خائنٍ، لأن الذي ينسى الأمانة، ولا يقوم بحقِّها ليس خائناً فحسب، بل هو خَوّان، أيْ أنَّهُ كثير الخيانة، هذه الأمانة هي نفسك التي أودعها الله بين جنبيك، نفسك التي أوكلك الله بتزكيتها، هذه أهملتها وتبعت الشهوات، فلذلك حينما يتخلّى الإنسان عن أمانته التي عهد الله بها إليه فهذِهِ ليست خيانةً فحسب، بل هِيَ أشدُّ أنواع الخيانة، سمّاه الله سبحانه وتعالى خَوّان أيْ كثير الخيانة..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

الخوّان هو الذي خان الأمانة التي من أجلها جاء الله به إلى الدنيا، لماذا أنت هنا على وجه الأرض ؟ سؤال كبير، لماذا أنت هنا في الأرض؟ لأنك حملت الأمانة في الأزل، لأنك قبلت حمل الأمانة وقلت لربّك: أنا لها يا رب.. فالآية الكريمة:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف: من آية: " 172 ")

فالأمانة أنّك جئت إلى الدنيا، ووضِعَت نفسُك بين يديك أمانة كي تزكِيَها، ولا تتزكّى النفس إلا إذا عرّفتها بربّها، وإلا إذا استقمتَ على أمره وأقبلتَ عليه فطهُرت نفسك من أدرانها، فلذلك:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

لأنه يحبُّهم، ولماذا يحبهم ؟ لأنهم أدّوا الأمانة، ولأنهم شكروا النعمة، بينما أعداؤهم الكفّار لا يحبُّهم، لماذا لا يحبُّهم ؟ لأنهم خانوا الأمانة وكفروا النعمة، وهاتان صفتان أساسيّتان من صفات الكفر، خيانة الأمانة وجحود النعمة..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

لذلك قال بعضهم: " كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "، وكفاك شرفاً أنك مؤمنٌ به، وكفاك عزّاً أنك عبدٌ له، وكفاك فلاحاً ونجاحاً وتفوّقاً وفوزاً أنك مستقيمٌ على أمره..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

دعوة إلى حفظ الأمانة

ألا يطمح أحدنا أن تكون له هذه الخصيصة ؟ ألا يطمح الإنسان أن الخالق العظيم يُدافع عنه ؟ ألا ترون أنّ أهل الدنيا إذا أقاموا علاقةً مع شخصٍ مُهمّ تراهم يتيهون بهذه العلاقة، ويفخرون بها، وربما لا تسعهم الأرض سروراً، يعرضون عليك الصورة التي اجتمعوا فيها معهم على طاولةِ طعام العشاء، يقول لك: فلان كنت معه ليلة أمس، وتناولتُ العشاء معهُ، ألا ترى أن خالق الكون، أن الله جلّ وعلا هو يدافع عنك، أليس هذا شرفاً عظيماً لك أيها المؤمن ؟ أتبتغي عند الآخرين العِزّة ؟ أتبتغي عند أهل الدنيا العِزّة ؟ ابتغ العزّة عند الله، فالله سبحانه وتعالى رفعك فلا تخفض نفسك، الله أعزّك فلا تُذِلّ نفسك، الله كفاك فلا تنظر إلى سواه..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

هذه الآية لها معنى قد تدركه عقولنا، إلا أنّ هذه الآية تستوجب منك الكثير من المُعاناة، فمن كان مؤمناً حقاً وكان يدعو الله حقاً في سرّه وجهره، وقد رأى من مدافعة الله عنه الشيء الكثير عندئذٍ يعرف معنى هذه الآية، ويعيش هذا المعنى، أن تعيش المعنى أبلغ من أن تفهمه..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

كن مؤمناً، والله سبحانه وتعالى يتولّى الدفاع عنك، الإنسان العادي أحياناً يشعر بغِبْطة وبطمأنينة لا حدود لها إذا وكّل محامياً لامعاً في قضيةٍ شائكة، يقول لك: أنا محامِيّ فلان وهو من ألمع المحامين، وله صِلاتٌ وثيقة مع القضاة، واجتهاده لا يُخطئ، وله شخصيّةٌ قويّة، وله هيبةٌ في قصر العدل، وقد

وكّلته وأنا مطمئن، فما قولك إذا كان الذي يتولّى الدفاع عنك هو الله سبحانه وتعالى ؟..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

لأنه يحبُّهم، لأنهم يحبونه وهو يحبُّهم، لأنهم حملوا الأمانة، ولأنهم شكروا النعمة، بينما أعداؤهم الكفّار خانوا الأمانة، وكفروا النعمة، فإذا كادوا للمؤمنين فالله سبحانه وتعالى يتولّى الدفاع عنهم..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

كن مؤمناً واحْظَ بهذا الشرف العظيم، كن مؤمناً، ونَم مطمئناً هادئ البال، فلن تستطيع جهةٌ على وجه الأرض أن تنالك بالأذى لأن الله يدافع عنك، كن مطمئنّاً، ولا تخشَ إلا الله، كن مطمئناً، وكن مؤمناً، ولا تأخذك في الله لومة لائم..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

كفى المؤمنين فخراً هذه الآية، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، هو أهلٌ بأن تتوكّل عليه.

(إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ)

إذنُ اللهِ للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال المشركين

من الذي أَذِنَ ؟ الله سبحانه وتعالى، أحياناً لا يُذْكَرُ الفاعلُ تعظيماً له..

(أُذِنَ)

خُلِقَ الإنسان، مَنْ خلقه ؟ الله سبحانه وتعالى، الفاعل قد لا نذكره لشدّة عظمته، أو لأنه معروفٌ لدى كل الناس، هل من خالقٍ إلا الله ؟ إذا قلنا: خُلِقَ الإنسان لأنّ الخالق معروف، لأنه أعظم من أن يُذْكَر أو أجلّ أن يُذْكَر..

(أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ)

الحديث قبل قليل كان عن المؤمنين..

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

فربّما يقول قائل: لِمَ لَمْ يقل الله عزّ وجل: أُذِنَ للذين آمنوا أن يقاتلوا ؟ فربنا عزّ وجل من إعجاز القرآن الإيجاز، فبدّل بكلمة المؤمنين كلمة الذين يقاتلون، واستنبط العلماء أن الذي يُقَاتَل يَحِقُّ له أن يُقاتِل إذا كان قد قوتل، لذلك لا ينبغي أن تبدأ أنت بالقتال، البادئُ هو الظالم، إذا قوتلت، طبعاً الخطاب موجّه إلى النبي الكريم وأصحابه الذين ذاقوا مِن بأس قريش، ومن التضييق، والشدّة، والتعذيب الشيءَ الكثيرَ، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(أذِنَ لِلّذِينَ يُقاتَلُونَ)

بفتح التاء، أيْ هم قوتِلوا بأنهم ظُلِموا، إذاً هناك شرطان، لا ينبغي للمسلمين على مستوى الأمّة الإسلاميّة أن تقاتل أعداءها إلا إذا بدؤوها بالقتال، وكانوا بهذا القتال ظالمين، شرطان، أما أن تعتدي على غيرها فعندئذٍ لا تُنْصَر، يجب أن تُبْدَأ بالقتال من قِبَلِ أعدائها أولاً، ويجب أن يكون هذا العدوان ظالماً، عندئذٍ أُذِنَ لها أن ترد الصاع صاعين، يأتي عدوٌ غاصبٌ دخيل يأخذ الأرض، ويبيح المحرّمات، ويشرِّد السكّان، ويبقى المسلمون صامتين ؟! لا..

(أذِنَ لِلّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأنّهُمْ ظُلِمُوا)

سبب القتال ظلم الأعداء

وهذه الباء سببية، أيْ أنّ سبب مشروعيّة القتال أنهم ظُلِموا..

(وَإنّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقدِيرٌ (39))

وعدُ الله المؤمنين بالنصر

فلِمَ لمْ يقل الله عزّ وجل: وأن الله سينصرهم، لا، لأن هذه أبلغ، لأن إحراز النصر للمؤمنين شيءٌ هيّنٌ على الله عزّ وجل، شيءٌ سهلٌ جداً على الله عزّ وجل..

(وَإنّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقدِيرٌ (39))

قد يقول لك قائل: القضية سهلة جداً، أنا بإمكاني أن أفعلها، ربما لا يقول لك: سأفعلها لك، إذا قال سأفعلها لك فكأنها مُهمّة صعبة، وكأنها مهمّة كبيرة، قال: هذا بإمكاني أن أفعله، فالأمر يسير، وإذا قال الله لك: بإمكاني أن أفعله فمعنى ذلك أن نصر المؤمنين شيءٌ على الله يسير..

(أذِنَ لِلّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأنّهُمْ ظُلِمُوا)

لكنّ القتال لا يكون إلا عن طريق جموع المسلمين، لا يوجد قتال فردي، هذا الأمرُ ليس على آحاد المسلمين، ولكنّه على مجموع الأمّة..

(أذِنَ لِلّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأنّهُمْ ظُلِمُوا)

فلو فرضنا: أمةٌ مسلمة لها عدوٌ غاشم استباح محرّماتها، أيحقٌ للأفراد أن يقاتلوا هذا العدو ؟ لا، لابدّ أن يكون القتال على مستوى الأمّة، لابدّ أن يكون على مستوى الجماعة المؤمنة التي تتمثّل في أميرها..

(أذِنَ لِلّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأنّهُمْ ظُلِمُوا وَإنّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقدِيرٌ)

بيان نوع الظلم: الإخراج من البيوت بغير حق

ما هو هذا الظلم ؟ ما بيان هذا الظلم ؟..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ)

الإنسان قد يُنْفَى من دياره لفاحشةٍ ارتكبها، وقد يُنفى من دياره لجريمةٍ فعَلَهَا، أما أن يُخْرَجَ من دياره بلا سبب ؟ أن يشَرَّد الإنسان من بيته ومن أرضه بلا سبب ؟ هذا هو الظلم الكبير، لذلك حينما يدافع الإنسان عن أرضه فهذا دفاعٌ مشروع، حينما يدافع عن أرضٍ سُلِبَت منه فهذا دفاعٌ مشروع وحَقٌّ له..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ)

فالمؤمنون الأوائل ذهب بعضهم إلى الحبشة، وذهب الآخرون إلى المدينة، إنهم قد أُخْرِجوا، فمن أمرهم بالخروج ؟ كفّار مكّة ؟ هم لم يأمروهم بالخروج صراحة، ولكن ضيّقوا عليهم، وضيّقوا عليهم، وشدّدوا عليهم، حتّى حملوهم على الخروج، آذوهم، وضيّقوا عليهم، وقاطعوهم، ونكّلوا بهم، وعذّبوهم حتى حملوهم على الخروج..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

إلاّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ

أيْ أنّ ذنبهم الوحيد أنهم قالوا: ربنا الله، وهذا الذي يتحمّل المتاعب لأنه يقول: ربي الله هو إنسانٌ عند الله عظيم، وهو إنسانٌ له عند الله أجرٌ كبير..

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ)

الأمر بدفع الظلم للحفاظ على الدين وشعائره

لولا أن الله سبحانه وتعالى شرع للمؤمنين الجهاد لجاء أعداؤهم من غير مِلّةٍ فاستباحوا أرضهم، وشرّدوهم منها، وهدموا معابدهم، ونكّلوا بهم، إذاً لابدّ للحق من قوّةٍ تحميه، من هنا شُرِعَ الجهاد في سبيل الله..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ)

ولولا أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن ندفع عنّا الظلم بالجهاد..

(لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ)

فالصوامع هي أماكن العبادة التي كان يقبعُ بها العبّاد في قديم الزمان، والبيَعُ كنائس النصارى، والصلوات كُنُس اليهود، والمساجد دور عبادة المسلمين، هكذا جاء في بعض التفاسير، على كلٍ الصوامع والبيع والصلوات والمساجد كلُها تمثّل دور العبادة التي يُعْبَد فيها الله سبحانه وتعالى، وفيها يُذْكَر، فلولا مشروعيّة الجهاد لما بقي في الأرض بيت يُعْبَد الله سبحانه فيه.

طبعاً جاء المغول والتتار في العصور الوسطى، وغزوا بلاد المسلمين، ولولا مشروعيّة الجهاد لفقدنا هذا الدين الحنيف، ولكنّ بالجهاد رددناهم.. سيدنا صلاح الدين لولا مشروعية الجهاد لظلّ الإفرنج يعيثون في هذه الأرض الفساد.. ونحن يجب علينا أن نردُ الظلم بالظلم، وهؤلاء شُذّاذ الآفاق لابدّ أن يُرَدّ ظلمهم بالجهاد في سبيل الله، باسترداد الحقّ المُغْتَصَب، لذلك:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)

المعنى الموسّع للآية: التوازن في القوى

هذه الآية واسعة جداً في تعدّد معانيها، وهناك معنى آخر للآية: ربنا عزّ وجل رحمةً بالضِعَاف يقيم قِوى متوازنة، أحياناً تكون قوّتان كبيرتان ؛ هاتان القوّتان الكبيرتان ضمانةٌ للضِعاف، فلو أنها قوةٌ واحدة لأكلت الجميع، من معاني هذه الآية أن هناك توازن في القوى دائماً هو من فعل الله سبحانه وتعالى، رحمةً بالضِعاف، حتى على مستوى غير الجهاد، على مستوى الاقتصاد أحياناً شركتان تنتجان سلعة واحدة، هاتان الشركتان تتنافسان لجلب المشترين، فكل واحدة تُحَسِّن بضاعتها وتخفض أسعارها، فهذه رحمة، التوازن في كل شيء رحمة، فهذه الآية تشير إلى معنى التوازن:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)

هدف المساجد والبيَع والصوامع ذكرُ الله

إذاً هذه المساجد، وتلك البيَع والصلوات، والصوامع هدفها الأول أن يُذكر اللهُ فيها، وأن تذكره وحده، وأن لا تذكر سواه، لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

لا ينبغي على منبر رسول الله أن يُذْكَر غير الله ورسوله، هذا مسجدٌ أُقِيمَ لنشر الحق لا لزيدٍ أو عبيد، فلذلك:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)

إذاً مشروعيّة الجهاد أنه قوّةٌ للحق، والحق بلا قوةٍ لا قيمة له، المسلمون إن لم يكونوا أقوياء فأعداؤهم من الكفّار يَحتلّون أرضهم، وينهبون ثرواتهم، ويستبيحون دماءهم، ويزوّرون تاريخهم، ويهدِّمون معابدهم، هكذا، لذلك فالجهاد كما قال الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **"الجهاد درع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة، وهو لباس التقوى، وما غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دارهم إلا ذلوا ".**

(وَلَيَنْصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

قانون النصر: وَلَيَنْصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

كما قلت قبل قليل: إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يقدِّم النصر للمسلمين هيّناً ليّناً، على طبقٍ من ذهب من دون عناءٍ ولا تعب، من دون جهدٍ ولا مشقّة، من دون قتالٍ ولا صبرٍ ولا شيءٍ من هذا القبيل، ولكن هذا النصر الذي يقدِّمه الله سبحانه وتعالى للمؤنين بلا جهدٍ منهم لا قيمة له..

من أخذ البلادَ بغير حربٍ يهون عليه تسليم البلادِ

***

لكنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا النصر عن طريق المؤمنين، عن طريق بذل الجهد، عن طريق التضحية، عن طريق العطاء، عن طريق أن يبيع الإنسان نفسه في سبيل الله..

(وَلَيَنْصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

يعني..

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

الله سبحانه وتعالى جعل لهذه الآية قانوناً للنصر، فالله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره.. يُروى أن سيدنا صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه كان له شيخ، وقد هَجَمَ الفرنجة على بلاد المسلمين، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الأعراض، وعاثوا في الأرض الفساد، وكان خطرهم يزداد كلّما مرّت الأيام، وأعمالهم العدوانيّة تشتد، لذلك استشار شيخه ماذا يفعل ؟ فقال: " أزلْ المُنكر حتى تستحقّ النصر "، ويروي التاريخ أنه قال له: " يا سيدي لم يبق هناك وقتٌ لإزالة المنكر"، فدفعه وقال: " قم لا نصرك

الله "، حتى نفّذ هذه النصيحة بحذافيرها فأغلق كل دور اللهو، ومنع شرب الخمر، وأقام حدود الله عزّ وجل، ثم التفت وقاتل الفرنجة حتى انتصر عليهم.. وآخر معركة جرت في عين جالوت حينما انتصر سلطان مصر على التتار، ما الذي فعله ؟ أقام العدل، وأزال كل المنكرات، وعندئذٍ استعان بالله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى نصره.

فلذلك الآية الكريمة:

(وَلَيَنْصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

أيْ لا تطمع أن ينصرك الله عزّ وجل وأنت مقيمٌ على المعاصي، لأنك إذا أقمت على المعصية فأنت والذي تقاتله سواء، فإذا تساوى المتقاتلان في البعد عن الدين كان النصر للأقوى عدداً وعدّةً، أما إذا كان أحد الفريقين مؤمناً فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصره..

(إنّ اللّهَ لَقويّ عَزيزٌ)

القوة والعزة من صفات الله تعالى

فكن مع القوي، كن مع القوي العزيز، الله قويٌ لا يُقْهَر، وإرادته لابدّ أن تنفذ، وهو ينصر الذين ينصرون الله عزّ وجل..

(الّذِينَ إنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أقامُوا الصلّاة)

التمكين في الأرض

1 - تعريفه:

ما هو التمكين ؟ الإنسان بين أن يكون مُمَكّناً في الأرض، وبين أن يكون مستضعفاً، فالمستضعف هو الذي لا يقوى على تحقيق مُراده، لا يملك القوّة، ضعيف، مقهور، لكنّ المُمَكّن هو الذي يملك أن يحقِق ما يريد، فربنا عزّ وجل وصف هؤلاء المؤمنين بأنهم.

(إنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أقامُوا الصلّاة)

آثاره: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فمن التمكين في الأرض أن تكون ذا بحبوحة، فالإنسان إذا اغتني، وكان ضعيف الإيمان فبعد أن يغتني يترك الصلاة، وبعد أن يغتني يأمر زوجته أن تُسْفِرُ عن وجهها، وبعد أن يغتني يحبُّ أن يفعل المنكرات، هذا مكّنه الله في الأرض أي جعله بماله مستطيعاً أن يفعل ما يشاء، فما كان منه إلا أن ارتكب المعاصي، وابتعد عن الدين.

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ)

التمكين واسع جداً، قد يجعلك الله قوياً، قد يجعلك في مرتبةٍ اجتماعيّة حيث إنّ أَمْرَكَ نافذ، إذا أمرتَ فأمرُك مُطاع، إذاً أنت مُمَكّن في الأرض، قد تكون في منصب، في عمل، في وضع اجتماعي، في وضع معاشي، في وضع اقتصادي، في وضع من الأوضاع فأنت قويٌ بقوّة المال أو بقوة السلطان، فإذا كنت في هذا المستوى عليك أن تصلّي وتأمر الناس أن يصلّوا..

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلَاةَ وَآَتَوُا الزّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

فأحياناً يكون الإنسان معلِمًا في مدرسة فيصبح مديراً لهذه المدرسة، صار عنده قوّة أكبر، هل يوظِف هذه القوّة لنشر الفضيلة بين الطلاب ؟ في حَضِّهِم على الصلاة ؟ في حضِّهِم على معرفة الله عزّ وجل ؟ هل يأمر بالمعروف ؟ هل ينهى عن المنكر ؟..

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ)

أحياناً يكون الأب ممكّناً، يدخل إلى بيته سلطاناً للبيت، أمره نافذ، هذا الذي تزوّج، ووهبه الله زوجةً وأولاداً هل يقوم، ويصلي بأولاده وزوجته؟ فهذا قد مكّنه الله في الأرض، جعله في بيت مستقل، قد يكون أحياناً الشاب في بيت ليس له رأي، البيت فيه معاصٍ، فيه منكرات، فيه مخالفات، الصلاة لا قيمة لها في هذا البيت، إذا صلى يُستهزأ به، نقول: هذا الشاب غير ممكّن، فإذا تزوّج هذا الشاب، وصار له بيت مستقل، وله زوجة وأولاد، هذا الإنسان قد مَكّن الله له في الأرض، أتراه يصلي ؟ أيأمر هذه الزوجة أن تصلي ؟ أيصلي بها وأولادُه من ورائه ؟ أيقيم أمر الله في هذا البيت أم أنّه حينما مُكِّنَ أطلق لشهواته العِنان ؟ وجلب أجهزة اللهو ليحظى بها ببعض المباهج ؟ فهذه الآية واسعة كثيراً تنطبق على كل واحد منّا..

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلَاةَ)

هذه الآيةٌ من الممكن أن تأخذها على مستوى فردي، ومن الممكن أن توسِّعها إلى أعلى مستوى، فالمسلمون حينما كانوا في الأندلس مكّنهم الله، بلادٌ شاسعةٌ واسعةٌ مكّنهم الله فيها، فلمّا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر مكّن الله لهم حكمهم، وأمدّهم بقوّةٍ منه، وجعلهم ينطلقون لفتح أوروبا، ووصلوا إلى مشارف باريس، فلمّا تركوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، واتخذوا القَيْنات، وانغمسوا في الموشّحات، واشتروا الجواري الحِسان، وشربوا الخمر في الأندلس فالله عزّ وجل عندئذٍ تَخَلّى عنهم بكل بساطة..

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلَاةَ وَآَتَوُا الزّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ)

فهذه الآية يمكن أن تُطبّق على كل واحد منّا، يكون هذا غيرَ متزوج فيتزوج ويصير له بيت مستقل، فالله مكّنه في الأرض، يكون معلِماً فصار مديراً، يكون كاتباً فصار رئيس دائرة، يا ترى بعدما رفعه الله هل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ هل يُحِق الحق ويُبْطِل الباطل؟ هل ينحاز مع إنسان قوي على حساب المؤمنين ؟ امتحان، وهذه الآية أيضاً تُطبّق على المسلمين فيما لو حكموا الدنيا، فيما لو أعاد الله لهم مجدهم وعزّهم، فيما لو أعاد الله لهم تمكينهم في الأرض..

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصّلَاةَ)

فالمؤمن لا يزيده المال إلا تواضعاً، ولا تزيده القوة إلا طاعةً لله عزّ وجل، والمُنافق إذا تمكّن في الأرض أكثر فيها الضلال والدمار، وعاث فيها فساداً، هذا هو الفرق بين المؤمن وبين غير المؤمن..

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصّلَاةَ وَآتَوُا الزّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

الإنسان قد يسافر إلى بلد أجنبي، ويكون معه مئات الملايين، وهناك ليس مَنْ يحاسبه على الصلاة، مباهج ومناظر، وطعام وشراب، ومن مكانٍ إلى مكان، ومن فندق إلى فندق، أمّا إذا كان مؤمناً، واضطر إلى السفر فهل يترك الصلاة هناك ؟ لن يتركها، الإنسان المُمَكّن أعطاهُ الله عزّ وجل مِيّزة، كما أعطاه إمكانيّات ماديّة أو معنوية، أو قدرات، أو قِوى..

(وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ

هذا امتحان، لكنّ هذا الذي مُكّن في الأرض فلم يُصَلّ ولم يأمر بالصلاة، ولم يؤتِ الزكاة، ولم يأمر بإيتاء الزكاة، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر..

(وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

سوف يعود إلى الله عزّ وجل، وسوف يحاسبه على عمله إن خيراً فخير، وإن شرًا فَشَرّ.

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ)

مواساة الله نبيّه بقصص الأنبياء قَبْله

الله سبحانه وتعالى يواسي النبي عليه الصلاة والسلام، فإن كذّبوك يا محمد، صلى الله على محمد، فانظر إلى الأنبياء من قبلك مع أقوامهم:

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ)

فهؤلاء الأنبياء جميعاً كذّبهم أقوامهم، فلك أيها النبي الكريم بهم أسوة، أي أنك لست وحدك المُكذّب، الأنبياء من قبلك كُذِّبوا، أقوامهم كذّبوهم..

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى)

لم يقل: وكذّب قومُ مُوسى مُوسَى، بل قال:

(وَكُذِّبَ مُوسَى)

لأن سيدنا موسى لم يكذِّبه قومه، إنما كذّبه الأقباط، وعلى رأسهم فرعون..

(وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ)

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ

إنّ الله عزّ وجل يُملي للكافرين لحكمةٍ يُريدها، يزيدهم قوّةً إلى قوّتهم، يعطيهم البلاد، المال، العز، الجاه، ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مُقْتَدِر..

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

أيْ أنّ عاداً وثمود وأصحاب مَدْيَن وغيرهم، هؤلاء الأقوام الذين كذّبوا الرُسل أملى الله عزّ وجل لهم، فالإملاء ليس دليلاً على أن الله راضٍ عن الإنسان، فالله عزّ وجل قد يُمِدّ الكافر بما يشتهي ؛ من مالٍ وأولادٍ وبنين، وعزٍّ وشأن، لكن هذا امتحان وابتلاء، وليس عطاءً..

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هو يقول هذا، هذا ليس إكراماً..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

فالله قال:

(كَلَّا)

ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء..

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ)

قد يرى الإنسانُ عدوّه يزداد قوةً إلى قوته، ويزداد مالاً، وله صحّةٌ طيّبة، وله أولاد، وله زوجة، ويعيش كما يحلو له، والدنيا ترقص من حوله، والأمور كلها تأتي وَفْقَ مراده، فلا ينبغي لك أن تشكك في قواعد الدين، وربنا عزّ وجل يقول في آية شهيرة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

صورة من صور إهلاك الله القرى الظالمة

ما أكثر القُرى التي يُهْلِكُها الله وهي ظالمة..

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

فهناك قرى كثيرة ظَلَمَتْ فأهلكها الله، فإذا زرتها الآن ترى بئراً معطّلة، ليس هناك من إنسانٍ يغدو لهذِهِ البئر فيستعين بها على شرابه..

(وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

إذاً، قصرٌ مهجور، وبئرٌ معطّلة، صورة من صور إهلاك القوى، بئر معطّلة والبئر مرفق حيوي جداً، لو كان هناك أشخاص يقيمون في هذه القرية لكان هذا البئر يعمل ليلاً ونهاراً، لكنها بئر معطّلة وقصر مشيد، والأشباح وحدهم يسكنونه، إنّه بيت كبير خاوٍ، كما زار البحتري إيوان كِسرى بعد خوائه فوصفه وصفاً بليغاً.

معنى: وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ

المعنى الأول:

لذلك فربنا عزّ وجل أعطانا صورة بلاغيّة كيف أن هذه القرية الظالمة التي أهلكها الله عزّ وجل لا ترى فيها إلا بئراً معطّلة وقصراً مشيداً، هذا معنى.

المعنى الثاني:

أن البئر وهي مرفقٌ حيويٌّ أساسيٌّ للناس مُعطّلة، فأناسٌ يعيشون حياةً تفوق حدّ الخيال في البذخ، وأناسٌ لا يجدون شربة ماءٍ يشربونها، إن هذا الظلم الاجتماعي يؤدِّي إلى هلاك هذه القرية، هذا المعنى الثاني.. على كلٍ..

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)

معنى: فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

عرش البيت سَقْفُهُ، فالسقف إذا تهدّم وتهدّمت فوقه الجدران نقول: هذه الدار خاوية على عروشها، أي أن سقفها في الأرض وحيطانها فوق السقف، وهذا رمز من رموز التدمير..

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

عدم استعمال الكافر حواسّه للإيمان بالله

أيْ أنّ هؤلاء الكفّار.. كفّار قريش.. وأي كفّارٍ آخرين ألم تكن لهم قلوبٌ يعقلون بها ؟ فالله عزّ وجل أعطى الإنسان قوّةً إدراكيّة كبيرة جداً، أعطاهُ فكراً يفكِّر به، أعطاه قلباً يعقل به، أعطاه أذناً يسمع بها، أعطاه عيناً يُبصر بها، ألم تُبْصِر عينه ما حلّ بهؤلاء الظالمين من عادٍ وثمود وأصحاب مدين، وقوم نوح وقوم فرعون، ألم يَرَ بعينه ما حلّ بهم ؟ ألم يرَ آثارهم ؟ ألم يرَ ديارهم ؟ ألم يرَ أهراماتهم ؟ ألم يرَ حمّاماتهم ؟ مدارجهم ؟ فهؤلاء الرومان كانوا في هذه البلاد مقيمين، انظر إلى مدرّجاتهم، إلى مدنهم، إلى آثارهم، إلى أبنيتهم، فربنا عزّ وجل قال:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

الكافر له عينان واسعتان جميلتان زرقاوان أحياناً، يصفهُ الناسُ: له عيون جميلة جداً، ومع ذلك فهو أعمى عند الله، لأنه لم ير الحقيقة، القلب هو الذي يرى الحقيقة، فهذه العين لا قيمة لها فإنها ترى ظاهر الأشياء، ترى صورها، ولكن القلب هو الذي يعقل مَرْئِيَّاتِهِ.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

الكفّار يستهزئون: متى يا سيدنا العذاب ؟ متى ؟ سؤال استهزاء، سؤال سخرية، متى ؟ نحن بالانتظار، إذا دعا رجلٌ الناسَ إلى الله عزّ وجل، وتوعّدهم بعذاب الله يستهزئون، ويقولون له: متى ؟ نحن جاهزون للعذاب، متى سيأتي العذاب ؟ فقال ربنا عزّ وجل:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

هذه " لن " لتأبيد النهي..

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

معنى: وَإِنّ يَوْمًا عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ

المعنى الأول:

إنّ ربنا عزّ وجل حليم، أي ألف سنةٍ عندك كيومٍ عند الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل يستوي عنده ضيق الزمان واتساعه، يستوي عنده اليوم وألف سنة، كلاهُما عند الله سيّان، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

حينما يأتي العذاب فإن يوماً من أيام هذا العذاب تعدل عند الذي يُعَذّب ألف عام، انطلاقاً من الحقيقة القائلة: " إنّ دقيقة الألم ساعة، وساعة اللذّة دقيقة "، الإنسان أحياناً ينتظر، وهو قلق يقول لك: انتظرت ساعة، وكأنّها سنة، الإنسان أحياناً تُؤْلمه سِنُّهُ، يقول لك: أمضيت ليلةً وكأنها شهر، لذلك فإن الوقت يخفُّ وقعه، ويثقل وقعه على الإنسان حسب ظروفه، فالإنسان حينما يعذّبه الله عزّ وجل فإن اليوم الواحد من العذاب يمضي على المُعَذّب، وكأنه ألف عام.. هذا المعنى الثاني..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ)

المعنى الثالث:

أن اليوم.. يوم القيامة.. اليوم من أيّام يوم القيامة يساوي ألف سنةٍ في الأرض، أيْ إذا انتظر الناس يومين أيْ ألفيْ سنة، هذا المعنى الثالث، يوم القيامة كلُّ يومٍ فيها يعدل ألف عام، هذا معنى.

أو حينما يأتي العذاب اليوم الواحد من أيام العذاب يمضي على الإنسان الكافر وكأنّه ألف عام.

المعنى الأول: الزمن من خلق الله، فيستوي عند الله ضيق الزمان واتساعه، اليوم والألف عام عند الله سيّان..

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ)

أحياناً يمد الله عزّ وجل للإنسان فيكون في شبابه مفرّطاً، غائباً عن القيَم وعن كتابِ الله عزّ وجل، لكن تمضى عشرون سنة وهو مازال جامحاً، وثلاثون ولا زالَ منغمساً في الشهوات، وفي الأربعين تجده معتزاً بقوّته، وفي الخمسين، ثم في الستين تجد أنّه يعاني من مجموعة من الأمراض، فتجده قد صار معتدلاً، والله عزّ وجل وعد الإنسان المنحرف بشيخوخة مُزرية.

(ثُمّ يُردُّ إلى أرذل العمر)

حينما كان شاباً نسي هذه الآية، وظنّ أنه سيبقى شاباً إلى أمدٍ غير محدود، ولكن جاء وعد الله، والله عزّ وجل لا يستعجل إنجاز وعده أو وعيده، فهذا الذي يمضي شبابه في المعاصي لابدّ له من خريف عمرٍ هو كالجحيم تماماً، فالإنسان يظن وعدَ الله بعيداً، لا، إن وعد الله قريب، ولا يلبث أن يأتي، وكل متوقعٍ آت..

أخذُ الله القرى الظالمة: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ

فهناك مدن جميلة جداً كلُّها نوادي قِمار، كلُّها نوادي عراة، كلُّها فنادق مشبوهة، كلُّها سواحل، تُرتَكَبُ فيها المعاصي على قَدَمٍ وساق، هناك مدن جميلة جداً تعيش على المعصية، مورد أهلها على المعصية، الإنسان لا يغتر، هذا البلد بلد القِمار، هذا البلد بلد اللِواط، هذه البلد بلد الزنا.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

كانت مدينة بالساحل الأطلسي اسمها.. أغادير.. كان فيها فنادق ونوادٍ، نوادٍ تُمارَس بها الرذيلة بشكل لا يوصف، وهي قبلة السيّاح الأجانب، وجميع السُيّاح الأغنياء كانوا يرتادون هذه القرية، قرية على الساحل الأطلسي جاءها الزلزال في ثلاث دقائق جعل عاليها سافلها، دُمِّر فيها كل شيء، أشهر فندق في هذه المدينة الساحليّة الجميلة كان مؤلّفاً من ثلاثين طابقاً، غاصت هذه الطوابق الثلاثون ولم يبقَ منه إلا لوحته التي هي على الطابق الثلاثين، وصارت هذه اللوحة على مستوى الأرض..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)

في بعض الأحيان تقع زلازل، نكبات، فيضانات، ساعة يقالُ لك: في كولومبيا ثار بركان رافقته فيضانات، هذا كلّه بقدر، كلّه مدروس.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

(سورة الإسراء)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

تحت سمعنا وبصرنا.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)

وَالّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنا مُعَاجِزين

سعى، أي سعى سعياً حثيثاً ليطفئ نور الله عزّ وجل، ليصدّ الناس عن سبيل الله، يضع لهم العقبات في طريقهم إلى الله، ليمنعهم من تلقِي العلم..

(وَالّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلّا إذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ)

معنى: إلاّ إذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّته

أيْ أنّ النبي أو الرسول إذا تمنّى هداية الخلق، تمنّى نشر الحق، تمنى أن تقوم الحياة على شرع الله، تمنى أن يسعد الناس بالقرب من الله عزّ وجل، تمنى أن يكون الناس على الحق جميعاً، تمنى أن يسعد الناس، هذا النبي ماذا يتمنّى ؟ يتمنّى الخير، يتمنّى أن يؤمن الناس بربهم، يتمنى أن يسعدوا بالقرب منه، يتمنى أن يدخل الناس الجنّة، يتمنّى أن ينتشر الحق سريعاً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلّا إذَا تَمَنّى)

يأتي الشيطان فيلقي في أمنيته بعض الشُبَه، وبعض الأفكار التي تصدُّ الناس عن سبيل الله، يلقي الشيطان في أمنيّته أن يضلّ الناس، النبي ألقى في أمنيته أن يهديهم، والشيطان ألقى في أمنيته أن يضلّهم، النبي ألقى في أمنيته أن يسعدهم، والشيطان ألقى في أمنيته أن يشقيهم، النبي ألقى في أمنيّته أن يهديهم إلى سواء السبيل، والشيطان ألقى في أمنيته أن يضلّهم سواء السبيل، فهناك تناقض في تمنِّي النبي وتمني الشيطان، النبي يتمنّى الخير والشيطان يتمنى الشر..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلّا إذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ)

أيْ في أمنيته هو، أو وضع العراقيل التي من شأنها أن تُعيِّق تحقّق أمنية النبي، كأن يكون شخص له ابن، يتمنى الأب أن يصلي ابنه، وأن يستقيم، وأن يغضّ بصره، وأن يطلب العلم الشريف، وأن يكون مؤمناً، وأن يكون متفوقاً، فيأتي رفيق صاحبٌ لهذا الابن، صاحب سوء فيدعو الابن إلى النزهات المحرّمة، وإلى دور اللهو، وإلى ترك الصلاة، وإلى معاكسة الأب، فنقول: هذا الأب تمنّى هداية ابنه، وهذا الصاحب السوء تمنّى أن يحبط أمنية الأب، هكذا المعنى..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلّا إذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ)

لكن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد..

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)

كل أماني الشيطان تُبَدَّد..

(ثُمّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

أبو جهل، وأبو لهب، وصفوان بن أميّة، وزعماء قريش الخصومُ الألدّاء ماذا تمنّوا ؟ تمنوا أن يطفئوا نور الله عزّ وجل، ما الذي حصل ؟ أتمّ الله نوره، في معركة أحد ماذا تمنّى الكفّار ؟ أن ينهزم المسلمون، في معركة بدر، في معركة الخندق ما الذي حصل ؟ نصر الله نبيّه والمؤمنين، هذه الآية دقيقة جداً، أي لا يستقر الأمر إلا على الحق..

(ثُمّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 52- 63

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-07-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة الحَج، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(54))

الصراع بين الحق والباطل

أيها الإخوة الأكارم.. هذه الآية تفسّر سر الصراع بين الحق والباطل في كل عصرٍ ومَصر، في أي مكانٍ وفي أي زمان، هناك صراعٌ بين الحق والباطل، أراده الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ عظيمة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

أيْ أنّ هؤلاء الرسل الذين حملوا رسالة، وهؤلاء الأنبياء الذين أوحي إليهم، هؤلاء صفوة الله من خلقه، ومع ذلك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

الله معهم، أيّدهم بالمعجزات، أوحى إليهم، عصمهم، أمرهم بالتبليغ ومع ذلك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

الأنبياء يتمنون هداية الناس

ماذا يتمنى النبي أو الرسول ؟ يتمنى هداية الخَلق، يتمنى سعادتهم، يتمنى إنقاذهم من النار، يتمنى أن يعرفوا الله عزّ وجل، يتمنى أن يعبدوه، يتمنى أن يسعدوا في الآخرة، هذه أمنية النبي والرسول، لا يتمنى النبي أو الرسول إلا الخَيْرَ المُطْلَق لكل الخلق، هذه أمنيته، يتمنى أن يرى الناس في سعادة، أن يراهم على هدى، أن يراهم منضبطين بالشرع، يتمنى أن يراهم مُنْصفين لا يأكل بعضهم بعضاً، ألم يقل سيدنا جعفر رضي الله عنه للنجاشي:

((أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيفَ))

(أحمد عن أم سلمة)

هذه هي الجاهلية ؛ عدوان على الأموال، والأعراض، وكذبٌ وبهتان، وانحرافٌ وضلال، وانغماسٌ في الملذّات الرخيصة إلى ما هنالك من حماقات الجاهلية.. ماذا يتمنى النبي أو الرسول ؟ يتمنى هداية الخلق، يتمنى إنقاذهم من الظلمات إلى النور، يتمنى نقلهم من الجهل إلى المعرفة، يتمنى أن يعرفوا ربهم، يتمنى أن يحققوا الهدف الذي من أجله خُلقوا، إنه رسول الله، إنه نبي الله بعثه الله رحمة للعالمين، قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ)

هذه " مِن " لاستغراق الأفراد، أي لا يمكن أن يكون هناك رسولٌ أو نبي إلا وله عدوٌ من شياطين الجن والإنس.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)

(سورة الأنعام: من آية: " 112 ")

فلا ينبغي على الإنسان أن يضيق ذرعاً بأعداء الحق، إنهم يعملون ويتحرّكون وَفْقَ خطّة الله رب العالمين، لا ينبغي أن تضيق بهم ذرعاً، لا ينبغي أن تقول: لماذا هؤلاء خلقهم الله عزّ وجل ؟ لماذا سمح لهم أن ينالوا من الحق ؟ لماذا سمح لهم أن يكيدوا له ؟ لماذا سمح لهم أن يأتمروا عليه ؟ لماذا أخرجوا النبي ؟ لماذا تتّبعوه في هجرته من مكة إلى المدينة ؟ لماذا ضَيّقوا عليه ؟ لماذا حاربوه مراتٍ كثيرةٍ ؟ لماذا سمح الله لهم ؟ لا، لا تقل هكذا، هذه خطةٌ إلهية، هذا تصميم إلهي.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ)

لا تعترض على حكم الله، إن وراء حُكم الله حكمةً بالغة، كل شيءٍ وقع لابدّ من أن يقع، ولو لم يقع لكان هذا نقصاً في حكمة الله سبحانه وتعالى، ولكن الإنسان في الدنيا قد تُغَطّى عليه الأمور، لكن إذا صحا، وعرف الحقيقة يرى أن هذا الذي وقع هو عين الحكمة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ولو كُشِفَ الغطاء لاخترتم الواقع.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)

أي ما من رسولٍ حصراً، وما من نبي حصراً إلا إذا تمنى ؛ تمنّى الهداية، تمنّى الخير، تمنى إنقاذ البشر، تمنى أن يعبدوا الله، تمنى أن يعرفوه..

(أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)

معنى

(أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ)

الأنبياء والمرسلون يُمَثِّلون جانب الحق، والشياطين، شياطين الإنس والجن يمثِّلون الباطل، فلابد من صراع بين الحق والباطل، الأنبياء والمرسلون يمثلون جانب الخير، وشياطين الإنس والجن يمثلون جانب الشر، الأنبياء والمرسلون يمثلون جانب الحق، وشياطين الإنس والجن يمثلون جانب الباطل، فالصراعُ بين الحق والباطل، وبين الخير والشر صراعٌ دائم..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلا أذا تمنى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ)

أيْ ألقى الشيطان في أمنيته هو، هكذا التفسير، في أمنيته هو، أي أمنية الشيطان نفسه، لأنه: ما كان للشيطان أن يصل إلى نبي، ما كان للشيطان أن يصل إلى رسول، يفكِّر هذا الشيطان.. سواءٌ أكان من الجن أو من الإنس.. يفكر كيف يطفئ نور الله عزّ وجل، كيف يضع العثرات في طريق الحق، كيف يصد الناس عن سبيل الله، كيف يفسد عقائدهم، كيف يفسد أخلاقهم، كيف يجعلهم ينصرفون إلى الدنيا، كيف يُلقي في أنفسهم الشُبُهات، كيف يحبب إليهم المعاصي والترُّهات، كيف ؟ هكذا يلقي الشيطان في أمنيته، النبي العظيم والرسول الكريم يتمنّى هداية الخلق ؛ والشيطان يتمنى إضلالهم، ما الذي يحصل ؟ الذي يحصل أن الله مع الحق، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ الذي يحصل أن الله يؤيّد الحق، وأن الله ينصر رسوله، وأن الله مع المؤمنين.

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: من آية: " 160 ")

هذا الذي يحصل.

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشّيْطَانُ)

خطط الشيطان وأمنياته ينسخها الله

كل هذه الخِطط، وكل هذه العراقيل، وكل هذه العَقَبَات، وكل هذه الأساليب الخبيثة الماكرة، وكل هذه الإمكانات، وكل هذه الخطط ينسخها الله عزّ وجل بكلمةٍ واحدة، هكذا، كُنْ مع الله تَرَ الله معك، كن مع الله ولا تكن مع الباطل، لأن الباطل كان زهوقاً.

(فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشّيْطَانُ)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية: " 36 ")

ألم يكن كيد أبي جهلٍ وكيد أبي لهبٍ عظيماً ؟ لقد ماتا شر ميتة، أين كَيْدُهُم ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل، أين كيد أعداء الله ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل، أين كيد الذين حاربوا الإسلام ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل، أين كيد الذين أرادوا إطفاء هذا النور ؟ لقد نسخه الله عزّ وجل.

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ)

معنى

(ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ)

ما معنى يحكم الله آياته ؟ أيْ أنّ الآية التي أنزلها الله في كتابه الكريم، مثلاً:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ)

(سورة النور: من آية: " 55 ")

إحكامَ هذه الآية أن يُسْتَخْلَفَ المؤمنون في الأرض.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية: " 97 ")

إحكام هذه الآية أن يحيا المؤمن حياةً طيبة.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

إحكام هذه الآية أن الله يدافع عن الذينَ آمنوا حقيقةً.

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

إحكام هذه الآية أنْ ينصرَ الله من ينصره، هكذا، لذلك:

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ)

فهنيئاً لمن كان مع الحق، هنيئاً لمن كان مع الله عزّ وجل لأنه لابدّ من أن ينتصر، إذا كان الله معك فمن عليك ؟

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ)

معاني النسخ:

ينسخ أي يلغيه، النسخ لها معانٍ عديدة، من معانيها الإلغاء، إلغاء الحُكم..

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)

(سورة البقرة: من آية: " 106 ")

النسخ هنا الإلغاء، هذه الخطط، وهذه الأساليب، وهذه الإمكانات، وتلك العَقَبَات، وهذا الصَدُّ عن سبيل الله يُلْغَى بكلمةٍ واحدة، عشرة آلاف مقاتل ما اجتمعوا في تاريخ الجزيرة العربية، ما اجتمعوا، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام من أصله، جاؤوا ليقضوا على المسلمين واحداً وَاحداً، وجاءت معهم الإبل، والخِيام، والقدور، والجزور، وكادوا للإسلام، واتفقوا مع اليهود، ونقض اليهود عهدهم مع النبي الكريم، جاءتهم

ريحٌ عاتية قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وجاء مؤمنٌ حديث العهد بالإيمان، سيدنا نعيم بن مسعود، وقد أوقع بين اليهود وبين قريش الخلاف، فما هي إلا أيامٌ ثلاثة حتى رحل الأحزاب عن المدينة، وكفى الله المؤمنين القتال، هذا قرآن..

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52))

صفة العلم والحكمة

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

عليم بالنفوس، عليم بالنوايا، عليم بالأهداف، عليم بأن المؤمن يَهْدِفُ إلى إحقاق الحق، إلى إظهار الحق، إلى نشر الحق، هذا هو المؤمن، وعليم بأن الكافر يريد إطفاء نور الله، يريد إفساد الناس، يريد إضلالهم، يريد أن يُشْقِيَهُم.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52))

حكيم، لابدّ من هذه المعركة بين الحق والباطل، لماذا ؟ ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا مَنْ حيّ عن بيّنة، لماذا هذه المعركة بين الحق والباطل ؟ ليظهر المؤمن على حقيقته ؛ محباً، صادقاً، مخلصاً، صبوراً، متوكلاً، جَلْداً، شجاعاً، ولماذا هذه المعركة بين الحق والباطل ؟ لتظهر خِسّةُ الكافر ودناءته، وانحيازه إلى الدنيا، ورغبته في أخذ كل شيء، ويظهر عدوانه، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينة، هكذا، آية رائعة جداً..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

فعلى مستوى الأسرة مثلاً، يوجّهُ الأب ابنه باتجاهٍ صحيح، يأتي الخال إذا كان بعيداً عن الدين، يأتي العَمُّ، يأتي ابن العم فيسقِه اتجاه الولد، ويرغِّبُهُ بالمعصية، ويقول له: لا تستمع لهذا الكلام، الأب يتمنى إصلاح ولده، يأتي قريب بعيد عن الحق يتمنى إفساده، كلما دعوت الناس إلى الحق دعاهم آخرون إلى الباطل، تدعوهم إلى الاستقامة، يدعوهم الآخرون إلى الانحراف، تدعوهم إلى طاعة الله، يزيّن لهم آخرون معصية الله عزّ وجل، تدعوهم إلى العبادة، فيدعونهم إلى الشهوة، هكذا.

هذه المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الهدى والضلال، معركةٌ قديمةٌ قِدَمَ الإنسان، ولن تنتهي حتى ينتهي الدوران، فالإنسان لا ينبغي أن يضيق ذرعاً بخصوم الحق إنهم كُثُر، وإنهم موجودون في كل مكانٍ وزمان، والله سبحانه وتعالى جعل النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً حسنةً لنا، لقد جاهد الكفارَ والمنافقين، لقد تحمّل من كيدهم، ومن خططهم، ومن إفسادهم، ومن تضييقهم الشيء الكثير، ومع ذلك، ففي الطائف كان دعاؤه الشهير:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين إلى من تكلني، إلى صديق يتجهّمني أو إلى عدوٍ ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

(السيرة النبوية)

الآن تتمة هذه الآية دقيقة جداً:

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

أفكار الشيطان فتنة للقلوب المريضة والقاسية

أيْ أنّ هذه الأفكار التي يلقيها الشياطين، شياطين الإنس أو شياطين الجن، هذه الأفكار التي يلقيها الشياطين إنما هي فتنةٌ للذين في قلوبهم مرضٌ، فالقلب الممتلئ شهوةً يستجيب لهذه الأفكار، فإذا قال لك إنسان: افعل ما بدا لك، انتهز شبابك، واستمتع بشبابك، وافعل كل شيء ولا تلتفت إلى كل قيدٍ أخلاقي، فهذه الأفكار، هي دعوةٌ إلى الانغماس في الشهوات، مَنْ يستجيب لها ؟ مَن في قلوبهم مرضٌ، هؤلاء الذين في قلوبهم مرضٌ يستجيبون لهذه الشهوات، لهذه الدعوات، لهذا التوجيه، فلذلك التوجيه المَرَضِي المنحرف لا يستجيب له إلا المَرضى، لا يستجيب له إلا المُنْحَرِفون، الباطل لا يستجيب له إلا المبطلون.

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)

أيْ أنّ هذه النفوس المريضة لابدّ أن تُعالج، المرحلة الأولى من معالجتها أن تُكشف على حقيقتها، يأتي هذا الذي يلقيه الشيطان فيكشف النفوس المريضة على حقيقتها، وتستجيب لهذه الدعوة، تفتن بها، تقبلها، ترحب بها، تباركها على فسادها.

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

الظالم بعيد عن الحق

هم بعيدون عن الحق بُعد الأرض عن السماء، بعيدون عن الحق وهم يُشَاقون الحق، يعني يناصبونه العِداء، يكيدون له، لا يَقِرُّ قرارهم إلا إذا تراجع الحق، لا تستريح نفوسهم إلا إذا أُطفِئ نور الله عزّ وجل، لا يسكنون إلا إذا ابتعد المؤمنون عن الدعوة إلى الله عزّ وجل، فلذلك:

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

أيْ أنّ أخطر حالة تصيب الإنسان أن يجد نفسه في خندقٍ معادٍ للحق، أقذر دور يقوم به الإنسان أن يجد نفسه يُناصب أهل الحَق العِداء، ويحاول أن يطفئ نور الله عزّ وجل، أن تكون مع صف الشياطين ضد المؤمنين، أن تكون مع أهل الباطل ضد الحق، أن تكون مع أهل الضلال ضد الهُدى، أن تكون في خضمّ المعاصي ضد من هم في الطاعات، هذه مصيبة كبيرة، والله على مستوى الأسرة، تجد المنحرف يشجّع على المعصية، على الفساد، على التَهتُّك، على الانحلال، يَعُد هذا رقياً، حضارة، يقول له: أين تعيش أنت ؟! لا تزال بهذه العقلية ؟! اخرج مع ابنتك كما تشتهي، أعطها كل حريتها، هكذا يريد، على مستوى الأسرة، على مستوى شريكين، المنحرف دائماً يُرَسِّخ الباطل، يرسخ الانحراف.

(وَإِنّ الظّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

هذا الذي آتاهُ الله العلم إنسان متميّز، لقوله تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية: " 9 ")

أيعقل أن يستوي الذين يعلمون مع الذين لا يعلمون ؟!

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

ما قَبِلَ الله عزّ وجل في الكتاب كُلِّهِ أن تكون قيمةٌ مُرَجّحَة بين الخلق إلا قيمة العلم، لذلك:

(يَرْفَعْ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: من آية: " 11 ")

والآية الأساسية:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية: " 9 ")

لا يستويان، لا والله..

(وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنّهُ الْحَقّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)

أهل الحق مع الحق أينما كان

فأهل الحق لا يستجيبون إلا للحق، لا ينصاعون إلا له، أيٌ توجيه في بُطل، أيٌ دعوة إلى المعصية، أيٌ توجيه نحو الانحراف يرفضونه، ويمقتونه، ويلعنونه، ولا يستجيبون إلا للحق.

(وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

أيْ أنّ هذا الذي يلقيه الشيطان لا يتأثر به المؤمنون، لا ينصاعون له، لا يعبؤون به، يفنّدونه، يرفضونه.

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)

سعادة قلب المؤمن بالحق

المؤمن سعيد بالحق، يأتي الحق على قلبه بَرْداً وسلاماً، الحق للمؤمن كالغذاء للجسد، يتغذّى بالحق.

(فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

قانون هداية الله للمؤمنين

هذا قانون، هؤلاء الذين آمنوا بالله، لابدّ من أن يهديهم إلى صراط مستقيم، لابدّ أن يهديهم، ويصلح بالهم، لابدّ أن يأخذ بنواصيهم.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية: " 257 ")

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

كلما عَثَرَت قدم المؤمن أقاله الله عزّ وجل، كلما انحرف قليلاً ردّه الله إلى الحق، كلما بَعُدَ قليلاً دفعه الله إلى الحق، كلما أخطأ عاتبه الله عزّ وجل، لذلك إذا أحب الله عبده عاتبه، إذا أحب الله عبده عَجّلَ له بالعقوبة..

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لكن هذا الهُدى على درجات، المؤمن يستمع إلى الحق فيلتزم به، هذه الدرجة أرقى أنواع مراتب الهُدى، من دون عقاب، الأقل درجة تأتيه مصيبة فيعود بها إلى الله عزّ وجل، كلما كَبُرَ حجم المصيبة كانت نفس هذا الإنسان أكثر بُعْداً عن الله عزّ وجل، فإذا ارتقى المؤمن يعود إلى الله بعتابٍ، يعود إلى الله بآيةٍ قرآنية يقرؤها، تدمع عيناه، يعود إلى الله بنصيحة، يعود إلى الله بخاطر قلبي، لكن إذا كان أبعد من ذلك فلابدّ من تأديبٍ مؤلم، لذلك كلما كان العَوْدُ أسهل كانت النفس أرقى، تعامل مع الله، لا على أساس أن الله يهديك بالمُصيبة، لا، اطلب منه الهدى بالكلمة، بالتوجيه، بالقرآن، بحديث النبي العدنان، من دون أن تأتي المصيبة..

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ)

حياة الكافر شكٌ وريبٌ في القرآن

الكافر دائماً في شك، ليس متأكداً، هذه الحقائق الناصعة التي جاء بها القرآن ليست عنده واضحة، وهو عَمَىً عليهم أيْ القرآن الكريم كما قال الله سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فصلت)

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

(سورة الدخان)

هو في رَيْب، في شك، ليس متأكداً، لو استمع إلى نصيحةٍ من عالم يشكك في نواياه، يفسِّر هذا العمل تفسيراً شيطانياً، وبالنسبة للقرآن فهو ليس متأكداً من أنه قطعي الثبوت، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ)

أي في شكٍ..

(مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

الحقيقة تظهر عند الموت، ولات ساعة مندم

متى الصاعقة ؟ حينما يأتي الموت، هو طول حياته متشكك، تجده يقول لك: يا أخي والله شيء يحيّر، تجلس مع أهل الدين يتكلمون كلاماً تقنع فيه أحياناً، تجلس مع أهل الباطل يتكلمون كلاماً تقنع فيه كذلك، هو كالشاة العائرة بين الغنمين، مذبذبين لا إلى هؤلاء وإلا إلى هؤلاء، إنْ جلس مع أهل الدنيا يقنع بكلامهم، ويتمنى أن يكون مثلهم، وإن جلس مع أهل الدين يطْرَبْ لهم، هو ليس له موقف واضح فلذلك:

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

يحسب حساباً لكل شيء إلا ساعة اللِّقاء، إلا ساعة انتهاء الأجل، هذه تأتيهم كالصاعقة.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

(حَتّى تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً)

لقد حدثني أخ البارحة عن رجل في يومِ وقفةِ عيدٍ جالسٌ مع أهله، وهو مرحٌ في طبيعته، هكذا قال: سأذهب إلى هذا المستشفى لأجري بعض الفحوصات، من باب التسلية، من باب المُزاح، ركب مركبته وتوجّه إلى المستشفى، ولم يصل إليه إلا ميتاً، كنت في محل تجاري قال لي جارنا: هكذا كنتُ العيد الماضي، لا يشكو شيئاً، في أوج قوته، في أوج نشاطه، فحدثني أخ كريم عن طموحاته في العشرين سنة القادمة، وفي المساء كان في عداد الموتى، أين طموحات عشرين سنة ؟ لذلك:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

(وَلَا يَزَالُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتّى تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

معنى

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

أيْ يومٌ لا يلد يوماً آخَر، آخِرُ يوم، هذا اليوم العقيم مخيف، هناك يوم غير عقيم، يوم يلد، تنام فتستيقظ، هذا اليوم ليس عقيماً، لكن حينما يفحص الطبيب النبض يجده صفراً، يضع مصباحاً متألقاً في عين المريض فالقُزحية لا تستجيب، يضع مرآةً على فمه ؛ فالمرآة ليس يغشيها بخار، يقول: عظّمَ الله أجركم، إنّه منتهٍ، يذهب بعضهم إلى كتابة النعي، وبعضهم إلى تأمين القبر، وبعضهم إلى تأمين لوازم النعي، وما شاكل ذلك.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

البطولة أن تُعِدّ لهذا اليوم العُدّة، الذكاء والبطولة أن تُعِدَ لهذا اليوم، ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما مَنْ يتّقي اللهَ البطل.

(حَتّى تَأْتِيَهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

لا يوجد مَرَدّ..

(وَ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فِي جَنّاتِ النّعِيمِ)

النجاح الحقيقي هو الفوز بالجنة

فهذا هو النجاح، هذا هو الفوز، هذا هو التفوّق، هذا هو الفلاح..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية: " 58 ")

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)

(سورة يونس: من آية: " 10 ")

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)

(سورة الزمر)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة المعارج)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

إلى آخر الآيات..

(فَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(57))

الخسران الحقيقي هو دخول النار

نعوذ بالله من هذا العذاب، عذاب مهين، هناك عذاب أليم، وهناك عذاب عظيم، وكذلك عذاب مهين، أيْ عذابٌ أليمٌ عظيمٌ مهين.

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ)

جزاء المهاجر في سبيل الله

تركوا بلادهم، تركوا ممتلكاتهم، تركوا ظهورَّهُم، تركوا أهليهم..

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا)

ولكن هذه الهجرة في سبيل الله، نيّتهم من هذه الهجرة الله ورسوله، فالحديث الشريف:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

(البخاري عن عمر بن الخطاب)

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

تَرَك كل شيء في سبيل الله، جَعَلَ الله أغلى مِن كل شيء، آثره على كل شيء.

(ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا)

معنى آخر للهجرة في سبيل الله: العبادة في الهرج

وبعضهم استنبط من هذه الآية أن الإنسان إذا لقِيَ الله قتيلاً في سبيل الله أو لقيه ميتاً على فراشه كلاهما في الأجر سواء، ما دام مهاجراً في سبيل الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

(من صحيح مسلم: عن " معقل بن يسار ")

أيْ أنَّك إذا عبدت الله في زمن الشدة، في زمن الفِتَن، في زمن الشهوات، في زمن الأمر بالمُنكر والنهي عن المعروف، في زمن القابض على دينه كالقابض على الجَمْر، إذا عبدته في هذا الزمان الصعب، في زمن الشهوات والفتن، في زمن الفجور والكفر، إذا عبدته وكنت غريباً كما بدأ الإسلام غريباً، فهذا له أجرٌ عظيم..

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً)

ماتوا، وقتلوا، ما هو هذا الرزق ؟ قال: هذا رزق أهل الجنة، هذا هو الرزق الحَسَن الذي يسعى إليه، لكن الدنيا فانية، فأحياناً الإنسان يحضر جنازة، أو يشاهد ميّتاً يخرج من بيت فخم جداً، فهناك بيوت تَحارُ فيها العقول، هذا الميت كيف خرج منه إلى القبر ؟ أليس هذا البيت رزقاً ؟ نعم، ولكنَّه رزق منقطع، وليس متصلاً، رزق ينتهي عند الموت، كل شيءٍ في الدنيا ينتهي عند الموت، لكن البطل هو الذي يعمل فيها عملاً يأخذه معه إلى القبر، كل شيء يقف عند القبر لا قيمة له، كل شيء يدخل معك في القبر هو الذي عليه المعوّل.

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً)

هذا الرزق الحسن، أي الأبد، نعيمٌ أبدي، نعيمٌ مقيم.

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

الحياة فيها نَغَص، فمهما استقامت للإنسان فالزمن ليس في مصلحته، والزمن سَيُقَرِّبُهُ من الموت، ولو

أنها جاءت كما يشتهي فإنّ معها القلَق، ومعها الخوف، ومعها الحزن، إنّ معها القلق خوفاً من أن تذهب، وبِحَسْبِ هذا القلق منغصاً في الحياة.

(وَإِنّ اللّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ)

أحياناً يعطيك الإنسانُ شيئاً، لكن هذا الإنسان ليس في إمكانه أن يمنع عنك الأمراض، أو يمنع عنك المصائب، لكن الله سبحانه وتعالى خير الرازقين.

(لَيُدْخِلَنّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ)

لَيُدْخِلَنّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ

هذا الرضى المُطْلَق، الإنسان يراقب نفسه فمثلاً إذا اشترى حاجة، فإذا وجد فيها عيباً بسيطاً تجده قد انزعج، الإنسان مفطور على الكمال، ولا يرضيه إلا الكمال المُطلق، فلذلك عزّ وجل لما قال:

(لَيُدْخِلَنّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ)

يعني يوم القيامة، أيْ أنّ هذه الجنة هي التي تُرضي الإنسان، تُرضيه حتى أقصى درجة، تُرضيه رضاءً مُطلقاً.

(وَإِنّ اللّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

علمُ الله بما يصلح الناس وحلمُه عنهم

أيْ أنّ الله هو الذي يعلم ما يُرضيهم، " ابن آدم كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك "، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: يا عبدي أنا أعرف كيف أرضيك، أنا أعرف كيف أسعدك، أعرف ما تحب، أعرف ما تكره، أعرف ما تخافه، أعرف ما ترجوه، كن لي كما أريد، ولا تُعلِمْني بما يصلحك.

(وَإِنّ اللّهَ لَعَلِيمٌ)

أيْ يعلم ما يرضيكم أيها العباد، يعلم ما يسعدكم، يعلم ما يطمئنكم..

(حَلِيمٌ)

لولا أنه كان حليماً عليكم لما بلغتُم هذه المرتبة، لولا أنه كان حليماً عليكم لقُضِيَ الأجل قبل هذا الهدى.

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنّهُ اللّهُ إِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

من العدل اقتصاص المظلوم من الظالم من غير إسراف

أيْ أنّ الله عزّ وجل سمح للإنسان المظلوم أن يعاقِب بمثل ما عوقب، سمح للإنسان المظلوم أن يأخذ حقّه، أما إذا عفا فهذا فضلٌ منه وإحسان، الحق قسري، لكن الإحسان اختياري، الإحسان بالاختيار، لكن الحق قسري، ومع ذلك إن الله يأمر بالعدل والإحسان، يأمر بالعدل القسري، والإحسان طوعي.

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنّهُ اللّهُ إِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

من الفضل والإحسان عفو المظلوم عن الظالم

أيْ أنّ ربنا عزّ وجل ينصر هذا المظلوم، لكن الأولى أن يعفو عن ظالِمِهِ، لأن الله عفوٌ غفور.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ وَيُولِجُ النّهَارَ فِي اللّيْلِ)

علاقة الآية بما قبلها

قد يقول قائل: ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟ الله سبحانه وتعالى قديرٌ على نصر عبده المؤمن المظلوم، فكيف أن الليل يبدو مسيطراً، وما هي إلا ساعات حتى يحل محله النهار، الليل والنهار آيتان، ليلٌ دامس، ظلامٌ دامس، جوٌ مخيف، بعد أربع ساعاتٍ أو خمس فإذا الشمسُ مشرقة، كل شيء واضح، الناس في أُنْسٍ، وفي طمأنينة، فكما أن الله سبحانه وتعالى يأتي بالنهار بعد الليل، كذلك هذا الذي ظُلِم فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن ينصره، وأن يجعل ظُلامَتَهُ عدلاً وإنصافاً وسعادةً.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ)

معنى: اللّيْلَ فِي النّهار

المعنى الأول:

يعني يُدخل، والآية لها معنى جغرافي، فأذكر منذ أيام كان عندي موعد الساعة السابعة، الموعد كان في المساء، الساعة السابعة صيفاً يعني قبل المغرب بساعة، وشتاءً بعد العشاء بساعة، بينهما حوالي أربع ساعات، كيف أن هذه الساعة كانت ليلاً فصارت نهاراً، أو كانت نهاراً فصارت ليلاً، كيف أدخل الله الليل بالنهار ؟ هذا معنى، فهذا تفاوتُ طولِ الليل والنهار.

المعنى الثاني:

هو أن هذه الأرض الآن يلفها ليل، الظلام مُخَيّم، يأتي الفجر فترى في الأفق خيطاً أبيض، هذا الخيط يتسع، ويتسع، ثم ينتشر ضوءٌ من جهة الشرق، فيعُمُّ الأرضَ كلها، أو يعم هذه المنطقة كلها، فإذا الظلام زاهق، أين الظلام ؟ إنهما آيتان دالتان على عظمة الله عزّ وجل، إذاً الدهرُ آيتان تشيران إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر، وبقدرته أن ينصر عبده المظلوم، وكأن الظلام رمزٌ للظلم، والنور رمزٌ للعدل، قال العلماء: هذه آيات متتابعة بالقرآن لا يوجد لها مثيل، فيها أسماء الله الحسنى بشكلٍ كثيفٍ جداً، فاستمعوا:

(وَإِنّ اللّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ)

(وَأَنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(إِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

(إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

(وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

(وَإِنّ اللّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

فستة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى جاءت كلها متتابعة في آيات قليلة متلاحقة، وسوف نشرع في شرحها..

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

أولاً:

(وَأَنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

سمعُ الله وبصرُه

أيْ يسمع دعاءك، ويرى حالك ليلاً أو نهاراً، في السفر وفي الحضر، وحدك وفي جماعة، في كل أحوالك، سميعٌ لقولك، عليمٌ بحالك، هكذا الله سبحانه وتعالى.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

الله هو الحق المطلق

كلامه حق، كلام غيره باطل، شرعه حق، ونظام غيره باطل، الترتيب الإلهي حق، أيُّ إجراءٍ آخر باطل، فالحق واحد لا يتعدد، فإمّا أن تكون على الحق، وإما أن تكون حتماً على الباطل، لا يوجد حالة

ثالثة، لا توجد حالة وسطى عند الله عزّ وجل، إما أن تكون على الحق أو على الباطل.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

شرعه حق، كلامه حق، توجيهه حق، أمره حق، نهيه حق، قرآنه حق، دستوره حق، وعده حق، وعيده حق، الجنة حق، النار حق، معنى " حق " أي سوف يَحِقْ، ومعنى سوف يَحق أي لابدّ أن يقع، لو فرضنا أربعة أو خمسة توعّدوا إنساناً بشيء، واحد يملك قوة على تنفيذ ما توعّد به فهو الحق، والباقون على باطل، فالحق هو الذي يقع، يقع وَفْقَ العدل.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ)

جميع النظم والقوانين المخالفة للشرع هي الباطل

جميعُ النُظُم الوضعية، جميع النظريات المناهضة للقرآن الكريم، جميع الإجراءات، جميع الأساليب، جميع الحضارات التي لا تقوم على أساس الدين إنها باطل..

(وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ)

علو الله المطلق

أيْ يعلو، ولا يُعلى عليه، كبيرٌ لا يصغر في نظر أحد، هو كبير، ليس في أعماله عملٌ يدعو أن يكون عند الناس صغيراً، بل هو كبير.

(وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ)

وهو السميع البصير، وهو العفو الغفور، وهو خير الرازقين.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً)

من آيات الله الكونية: نزول الماء وخروج النبات

وهذه من آيات الله، أرضٌ جرداء، أشجارٌ كأنها الحَطَب، تنزل الأمطار، فترتدي هذه الأشجار حُلّةً قشيبة بيضاء وكأنها عروسٌ ترتدي ثياب زفافها، والأرض بساطٌ أخضر، سيدنا عمرو بن العاص وصف مصر للخليفة الراشد عمر بن الخطاب قال: " يا أمير المؤمنين مصر طولها شهرٌ وعرضها عشرٌ.. طولها مسيرة شهر، وعرضها مسيرة عشر أيام.. يَخُطُّ وسْطَهَا نهرٌ ميمون الغَدَوات، مبارك الروحات.. نهر النيل.. فإذا هي عنبرةٌ سوداء.. أرض مصر أرض حمراء، قريبةٌ من البُنِّيّة.. فإذا هي عنبرة.. من لون العنبر، فالتربة السوداء تربة خصبة جداً.. فإذا هي عنبرةٌ سوداء إذا هي دُرّةٌ بيضاء..

فيضان النيل.. ثم هي زُبُرْجُدَةٌ خضراء.. كلها مزروعة.. فتبارك الله الفعّال لما يشاء " هذا وصف أدبي لمصر، حالة شتاء، وحالة الربيع عند الفيضان، وحالة الصيف البساط الأخضر، لذلك:

(أَلَمْ تَرَ)

دعوة إلى الرؤية والتأمل

فهل هناك مِنّا لم يرَ الربيع، لو سافر من دمشق إلى حلب في الربيع، الطريق كله أخضر، اذهب إلى كل مكان في الربيع، الأرض خضراء، بساط أخضر، الأشجار خضراء، مزدانة.

(أَلَمْ تَرَ)

أيْ ألا تكفيك هذه الآية ؟..

(أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

اليخضور في أوراق النبات

هنا بحثٌ علمي، وأحد الإخوة الأكارم ذكره لي قال: إنّ في مياه الأمطار شوارد هي التي تُساهم في تلوين اليخضور في أوراق النباتات، فلو سُقِيَ النباتُ بالماء خالياً من هذه الشوارد لما اخضر النبات.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

مظاهر لطف الله وخبرته في النبات:

لطيف، فالنبات ينبت من دون ضجيج، الشجرة معمل، تعطيك هذه تفاح، وهذه مشمش، وهذه كُمثرى، وهذه دُرّاق، فأنواع منوعة من الفواكه، تعمل الشجرة بصمت من دون ضجيج، ليس لها محرّك، وليس لها عادم غاز، وليس لها مشكلة، شجرة، يقول لك: حملتْ عشرين صندوقاً من التفاح، بدون صوت، أغصان يابسة، أصبحتْ نضرة خضراء، ازدهرت، أصبحت براعم، ذات أوراق، انعقدت ثماراً، هذه من آيات الله العظيمة الدالّة على عظمته، فربنا لطيف، فإذا صار في المعمل ماس كهربائي يقف، لكنّ الشجرة لا تقف، إن سقيتها تشرب، شيء من السماد تنمو به، لكن ليس فيها حالات حادة، إذا انتابها ماس مثلاً وقفت فوقعت الفواكه دفعة واحدة، ليس فيها شيء من هذا، معمل لطيف، فالأشجار كلها معامل، والبقرة معمل، والغنمة معمل، معامل متنقِلة، فلذلك:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

كيف تنقلب هذه الشجرة من طور اليُبس إلى طور الخضرة والنضارة، وكذلك فالتفاح له طعم خاص، نكهة خاصة، لون خاص، قوام خاص، بنية خاصة، من التراب !! يُسقى بماءٍ واحد، ونفضّل بعضها على بعضٍ في الأُكُل، التفاح نفسه منه ثلاثمئة نوع، الدرّاق منه أنواع منوّعة، الإجاص كذلك أنواع منوعة، العنب ثلاثمئة نوع كما بيّنت بعض التجارب، أنواع منوعة كلها تسقى بماءٍ واحد، فالله عزّ وجل لطيف خبير.

يعني هو خبير، عمل لك هذه الثمرة بحجم معتدل، لو كان البطيخ معلّقاً بالشجرة لكسرَ رأس الإنسان، البطيخ على الأرض، والتفاح على الشجر حجمه صغير، لو للبطيخ قشرٌ كالبندورة لما أمكن نقلُه، لكنّ قشر البطيخ يتحمّل نقلهُ من مكان لآخر، تجد شاحنة فيها خمسة أطنان من البطيخ، لولا هذا القشر السميك الذي يحفظها لانتهت وتلفتْ، باعتبار بعض الخضار حجمها صغير فقشرها رقيق، فهناك حكمة بالغة في الحجم، وفي الطعم، وفي القوام، وفي زمن القطاف، وفي التخزين، وفي النقل.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ملكاً وتصرُّفاً ومصيراً.

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

غنى الله عن عباده وحاجة العبادة لله

أيْ أنه غنيٌ عن عباده، ومع أنه غنيٌ عنهم لا يعاملهم إلا معاملةً يحمدونه عليها، أنت قد تكون لطيفاً مع إنسان بحاجة إليه، أما لو استغنيت عنه لكلّمتَه كلاماً قاسياً، لكن ربنا عزّ وجل بكماله المطلق هو غنيٌ عن عباده، ومع أنه غني فلا يعامل عباده إلا معاملةً يحمَدُونَه عليها، إذاً نلاحظ..

(لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

لها علاقة بالآية، و:

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

لها علاقة بالآية، و:

(الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحج 022 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 65- 78

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-07-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع والأخير من سورة الحَج، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

من آيات الله: جريان الفلك في البحر

هذه الآيات المصدَّرة بكلمة " ألم تَرَ " تعني أن هذه الآية تحت سمع الإنسان وبصره، في متناوله، أيْ أنّ ما في الأرض مِن طاقات، ومن قِوى، ومن مواد كلُها مسخَّرةٌ للإنسان، لِمَن الحديد ؟ مَن الذي يستفيد منه على وجه الحصر ؟ الإنسان، وكذلك النحاس، الرصاص، أنواع المعادن، وأشباه المعادن، وجميع أنواع الفلزات، والطاقات الكامنة في باطن الأرض كلها لمَن ؟ كلُها مسخَّرةٌ للإنسان، ما على وجه الأرض من حيوانات كلها مسخرةٌ للإنسان، بعضها مذلّل، وبعضها غير مذلّل، والذي هو غير مذلّل في النهاية مذلّل، فربنا سبحانه وتعالى يُلفِتُ نظرنا إلى أن كل ما على وجه الأرض مِن آياتٍ، من قِوى، من مواد، من معادن، من أشباه معادن، من مظاهر طبيعيّة، من طاقات إنما هي مسخَّرةٌ للإنسان، ودائماً الشيء المُسَخَّرُ له أكرم من المُسَخَّر.

أيها الإنسان: أنت المخلوق الأول ؛ الأرض كلُها مسخَّرةٌ لك، تحتاج إلى ثيابٍ ترتديها في الصيف فجعل الله لك القطن، تحتاج إلى ثيابٍ ترتديها في الشتاء فجعل الله لك الصوف، تحتاج إلى معدن قاسٍ تستعين به في حرفتك فجعل لك الحديد، تحتاج إلى معدن خفيف فجعل لك معدناً خفيفاً، تحتاج إلى معدن لا يصدأ يكون قيمة للسلع فجعل لك الذهب والفضّة، تحتاج إلى معدن سريع النقل فجعل لك النُحاس، أيْ أنّ أنواع المعادن وخواص المعادن الفيزيائيّة والكيميائيّة هذه كلُها مسخَّرةٌ للإنسان، أشباه المعادن مسخَّرةٌ للإنسان، وكذلك أنواع الصخور، أنواع الرمال، وغير ذلك كثير.

أنت بحاجة إلى بلور يُدخل لك النور، ويقيك من البرد، فكان البلور، والبلور أساسه الرمل، والرمل خُلِقَ خصيصاً لتصنعه على هذا الشكل، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يُخاطب الإنسان الغافل، الإنسان المُقصِّر:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ)

أن الله خالق الكون.

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ)

من آيات الله: كنوز الأرض

شيءٌ آخر، لو أن الأرض فيها معادن، فيها أشباه معادن، وفيها غازات، وفيها مواد صلبة ومواد سائلة، وفيها تلال، وفيها جبال، وفيها وديان، وفيها بحار، فيها نباتات، وفيها حيوانات، ولَم يُعْطِ الإنسان القدرة الفكريّة على تسخير هذه المخلوقات، فما قيمتها ؟.

إذاً هناك أشياء ثلاثة: أرضٌ كل ما عليها، وكل ما فيها مسخّرٌ لك، وهناك مخلوقٌ أوّل أودع الله فيه عقلاً يستخدمه لتسخير ما على الأرض، مَنْ جعل مِن هذه المواد مَرْكَبَةً ؟ مَن جعل مِن هذه المزروعات غذاءً ؟ مَن جعل مِن هذه المواد الأوليّة بيتاً ؟ مَن جعل مِن الصوف كساءً، ومِن القطن ثياباً؟ فالإنسان أُعْطي إمكانات لاستخدام ما على الأرض، فلذلك التسخير يعني أن الله سبحانه وتعالى خلق أشياء ذات نفع عَميم سخّرها لك، وأعطاك إمكانات تستغلُ بها هذه الأشياء.

وهناك شيءٌ آخر: نواميس الأرض متوافقة مع نواميس الإنسان، فالأرض دورتها حول نفسها في اثنتي عشرة ساعة تقريباً في الاعتدالين، وأنت إذا قمت بعمل تستنفذُ قِواك في ثماني ساعات، لو أن النهار يدوم خمسين ساعة، وأنت تُستنفذُ قُواك في ثماني ساعات لاضطربت الحياة على وجه الأرض، لو كان الليل ساعة واحدة لاضطرب الأمر كذلك، فدورة الأرض حول نفسها تتوافق مع ما أُودِعَ فيك من قدرات، طول الليل والنهار، حجم الأرض، مقدار الجاذبيّة التي على وجه الأرض هذا كلّه متوافقٌ مع الإنسان، هواء الأرض متوافقٌ مع رئتيك، تركيب الهواء، نِسَب الهواء متوافقٌ مع طبيعتك.

إذاً الأشياء التي أودعها الله في الأرض ؛ أنواع الصخور، أنواع الجبال، أنواع التلال، أنواع الوديان، البحيرات الحلوة والمالحة، والأنهار، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، أنواع الحيوانات، أنواع النباتات، بالمئات، ثلاثمئة نوع عنب، أربعمئة نوع تفّاح، وثلاثة آلاف وخمسمئة نوع قمح، فالله عزّ وجل خلق كل نوع من هذه الأنواع، بعضه ينمو في الصيف، بعضه في الشتاء، بعضه فيه قساوة، بعضه فيه لين، هذا للصناعة، هذا للخبر، أنواع منوّعة، ليس في الأرض فاكهة ولا إنتاج نباتي إلا وله أنواع منوّعة تختلف بحسب الاستعمال السريع، أو الاستعمال البطيء، أو التخزين، أو التموين، أو الاستهلاك، هذا كلّه من فضل الله عزّ وجل.

فأولاً: الأشياء مُسَخَّرة، والإنسان أودع الله فيه إمكانات استخدام هذه الأشياء، الإنسان استخرج المعادن، استخرج البترول، أخذ الفلزات ووضعها في فرن عالٍ وصهرها ثم جعلها حديداً، والحديد

جعله أنواعاً، والنُحاس كذلك، والرصاص كذلك، وأنواع المعادن المُشِعَّة أيضاً، والإنسان استخدمها. كذلك هناك شيءٌ آخر: هو أن نواميس الأرض، حجم الأرض، دورة الأرض حول نفسها، حول الشمس، جوُّ الأرض، حرارة الأرض متناسبة مع طبيعة الإنسان، ومع جسده، ومع رئتيه، ومع قلبه، ومع جسده، إذاً هذه الآية:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ)

تسخير الكون للإنسان

هذا الذي نجلس عليه مسخّر، هذه الأنعام التي خلقها الله لنا مسخّرة، وهذه الثياب التي نرتديها مسخرة، وهذا الذي نضعه في أيدينا مسخّر، الساعات مسخّرة، مصنوعة من موادّ، واستغلّها الإنسان، وصَنّعها كما يريد، وأي شيء تستخدمه ؛ شيء صلب، ليّن، مائع، لزج، سائل، غازيّ كلّه مسخّر، المواد، الحاجات، النباتات، الحيوانات، والله عزّ وجل يلفت نظر الإنسان إلى أن كل ما على الأرض مسخّرٌ للإنسان، وبعدُ ألا يستحي الإنسان ؟

أيا غافلاً تبدي الإساءة و الجـهلاً متى تشكر المولى على كل ما أولى؟

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراها كـأن العينَ عمـيـا أو حـولا

لأنت كمزكومٍ حوى المسك جيبه ولـكنّه المـحروم ما شمّه أصــلاً

*   *   *

إلى متى أنت باللذّات مشغولٌ وأنت عن كل ما قدّمت مسؤولُ ؟

*   *   *

فيا أيُّها الإنسان إذا قدّم لك أحدٌ شيئاً ثميناً تصبح أسيراً له طوال حياتك، عطاءٌ محدودٌ من إنسان يجعلك أسيراً له، وكل هذا الكون، وكل ما في الأرض، وكل ما على الأرض مسخّرٌ لك أيُّها الإنسان ومع ذلك ألا تشكره ؟ ألا تنصاع لأمره ؟ ألا تستحي منه ؟! كما يقول الله في الحديث القدسي:

((ابن آدم كَبرت سنُّك، وشاب شعرك، وضعُف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

(ورد في الأثر)

(أَلَمْ يَأْنِ لِلّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقّ)

(سورة الحديد: من آية " 16 ")

من لوازم رؤية آيات الله الخضوع التام

حينما يرى الإنسان هذه الآيات الدالّة على عظمة الله عزّ وجل يجب أن ينصاع لله طائعاً وراكعاً وساجداً، لو أن الإنسان ألزم نفسه هذا الأسبوع فنظر في أيّ شيءٍ يستعمله لرأى أن الله سخّره له، بالدليل العلمي أي شيء تستخدمه، إذا ركبت مركبةً مَن الذي خلق هذا الوقود السائل ؟ من أودع فيه قوّة الانفجار ؟ فمركبة وزنها طن هل بإمكان خمسة رجال أن يدفعوها بصعود، في طريق صاعدة ؟ فما هذا الوقود السائل الذي ينفجر فيحرّكها ؟ مَن سخّره لنا ؟ ضع مكان البترول ماء هل تسير السيارة ؟ هذا الغاز الذي تستخدمه في البيت مَن أودع فيه قوة الاشتعال ؟ الله سبحانه وتعالى، هذا الهواء الذي تستنشقه مَن جعل نسبه دقيقة جداً ؟ آزوت، وأكسجين، وغازات نادرة مَن ؟ هذا الماء الذي تشربه مَن جعله لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة ؟ فهو نفودٌ، يذيب كل شيء، يتبخّر بدرجة منخفضة، من أعطاه هذه الخصائص ؟ ما من سائلٍ، ولا غازٍ، ولا شيءٍ صلبٍ إلا وله صفات فيزيائيّة وكيميائيّة، من جعلها بهذا الشكل لتوافق حاجاتك ؟

فمرّة وجدت على سور حديقة حديداً مثبّتاً بالحجر فاستوقفني هذا المشهد، طبعاً كيف يُثَبّت الحديد بالحجر حيث يصبح الحديد والحجر قطعةً واحدة ؟ لابدّ من الرصاص، يُحْفَر الحجر حفرة كرويّة يُوضَع إسفين الحديد فيها، ويُسْكَبُ الرصاص.. مَن جعل الرصاص يذوب بدرجة مئة ؟ على موقدٍ غازٍ عادي، ما من حاجة إلى فرن عال، فمثلاً عاملُ الحديقة يذيب الرصاص بحوجلة صغيرة فوق مصباح، أو فوق موقد غاز، أو على أيّ موقد آخر يُذاب هذا الرصاص، ثم يُصبُّ هذا الرصاص في هذه الحفرة، فمن أعطى الرصاص خاصيّة التمدُّد بعد التجمُّد ؟ الله سبحانه وتعالى، بعد أن يصبح الرصاص بارداً وصُلباً يصبح الحديد والحجر قطعةً واحدة.

وهل تصدِّقون أن الحشوات التي توضع في أسنانكم عند طبيب الأسنان أساسها الرصاص ؟ لأنها حينما تَجْمُد تتمدّد فتأخذ مكاناً يصعب اقتلاعها، من جعل الرصاص بهذه الخاصّة ؟ الله سبحانه وتعالى جعل انصهاره سهلاً، وتجمُّده سهلاً، وبرودته سهلة، وتمدُّده سهلاً، مَن جعل الماء في درجة زائد أربعة يتمدّد ولولا هذه الخاصّة لهلك كل من على الأرض ؟ الله سبحانه وتعالى، لذلك فهذه الآية ذات معانٍ ودلالات واسعة جداً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ)

لكم، أيْ سخّر كُلّ ما في الأرض خصيصاً لكم، وإكراماً لكم.

الأرضُ وما فيها خُلِقت لحكمة وليس عبثًا

هناك فكرة دقيقة جداً، الفكرة مؤدّاها أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الأشياء عبثاً ثم جئنا نحن واستفدنا منها، لا، إن هذه الأشياء خُلِقَت منذ الأصلِ مصممّة خصيصاً للإنسان، متوافقة مع حاجاته.
هذه البقرة ؛ مَن أودع فيها هذه الخاصّة، خاصّة إعطاء الحليب ؟ لو أن البقرة تفرز الحليب لوليدها فوليدها يحتاج لاثنين كيلو فقط، إنها تعطي أربعين كيلواً في اليوم لماذا ؟ ومَن يُصَدِّق أن كل كيلو حليب محصلة دوران أربعمئة كيلو من الدم في الخلايا الثديية للبقرة، فكل كيلو حليب يقابله أربعمئة كيلو من الدم تذوب في الشعريّات حول الغدد الثديية في البقرة، هذه البقرة معمل متنقِل، معمل صامت لا يحتاج إلى ضجيج، البقرة مسخَّرة، والغنمة مسخّرة.
والدجاجة مسخرة إنها تأكل من خشاش الأرض فتعطيك بيضة كلُّها غذاء، فيها ثلاثة عشر فيتاميناً، خمسة عشر شبهَ معدنٍ ومعدن، البيضة شيء دقيق جداً، آخر بحث للبيضة أن غلاف البيضة الكلسي فيه حوالي عشرة آلاف ثُقب من أجل التنفُّس، هذا الرشيم حينما يبدأ بالنمو يحتاج إلى الأكسجين، والغشاء الذي تحت الغلاف الكلسي فيه ثقوب تقابل ثقوب الغلاف الخارجي، وكل ثقب بالغلاف الداخلي الدقيق الرقيق موصول بأنبوب إلى الرشيم، أيْ عشرة آلاف أنبوب موصولة بفتحات في الغشاء الرقيق ويقابل هذا الغشاء الرقيق عشرة آلاف فتحة بالغشاء الخارجي.. الكلسي.. مِن أجل تنفُّس الرشيم حينما تُحْضَن البيضة، ما هذا ؟ هذه بعض نتائج البحوث الحديثة في البيضة، كلها مسخَّرٌ لنا..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ)

انظر إلى اللّحم الذي تأكله ؛ لحم الدجاج، لحم السمك، لحم الغنم، لحم الماعز، لحم البقر، لحم الجمل، فالجمل للصحراء، والبقر للحليب، والغنم للحم والجلد والصوف، والدجاج للحم والبيض، والمزروعات، وأنواع الخضراوات، والفواكه، والثمار، والمحاصيل.. إلخ..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ)

طريقة جريان الفلك في البحر بأمر الله

فمن أعطى الماء قوّة التماسك ؟ الماء فيه قوّة تماسك، هذه القوّة تجعل الأجسام التي عليه تطفو إذا أزاحت ماءً أقلّ من حجمها حسب قانون أرخميدس، فهذا الماء الذي أودع الله فيه قوة التماسك، فيه قوة دفع نحو الأعلى لولا هذه القوة لما استُخدم البحرُ لنقل الركّاب والبضائع، املأ وعاءً من الماء وأغمسه في بركة ماء، تحس أن أربعة أخماس وزنه تلاشت، أين ذهب هذا الوزن ؟ هناك قوّةٌ دافعة نحو الأعلى، هذه التي أشار الله إليها:

(وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)

لولا قوّة الدفع نحو الأعلى، لولا تماسك ذرّات الماء لما أمكن للسفن أن تمخر عُباب المحيط، طبعاً البحر له فوائد كثيرة جداً، لو كان البحر بحجم أقل لانعدمت الحياة من على سطح الأرض، لكن هذا الحجم المدروس حيث إن التبخُّر يساوي حجماً من السحب كافياً لهطول الأمطار وإنبات المزروعات، لذلك البحر حجمه فيه حكمة بالغة، وحجم البر له حكمة بالغة..

الصحارى

والصحارى كما قلنا اليوم، فهذه الكُتل الهوائيّة المتمركزة فوق الصحارى تكتسب من حرارتها، وتلك الكتل المتمركزة فوق القطب تأخذ من حرارة القطب، ومِن تمركُز كتل هوائيّة باردة فالهواء البارد ينكمش، وتكثر كثافته، ويزداد وزنه فيتجه نحو الأسفل، والهواء الساخن تقلُّ كثافته، ويخفُّ وزنه، ويتمدّد ويتجه نحو الأعلى، وجود منطقتين منطقة ضغط خفيف وضغط مرتفع، تنشأ تيّارات هوائيّة، هذه التيارات تبدل جو الأرض، تنقي الجو، فالبارحة مساءً بعض هذه النسمات العليلة بدّلت جوّ دمشق الذي سيطر عليها منذ خمسة أيّام، وتصريف الرياح من آيات الله الدالّة على عظمته، أيضاً هذا مسخرٌ للإنسان، الرياح، والأمطار، والسحب، والثلوج، والبَرَدْ، وما شاكل ذلك..

(وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ)

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ

كما قلنا في دروس سابقة: ربنا عزّ وجل جعل فوق الأرض كتلة هوائية يزيد سُمْكُها عن خمسة وستين ألف كيلو متر، وهذه الكتلة الهوائية عبارة عن طبقات، بعض هذه الطبقات تزيد حرارتها عن ألف وخمسمئة درجة، بحيث أن كل جسمٍ ساقطٍ على الأرض يصبح شهاباً، ويتشهّب بهذه الطبقة، واللهُ سبحانه وتعالى جعل السماء سقفاً محفوظاً كما ذكر في آيات أخرى، لذلك فكل جسم ساقط بحكم الجاذبية لابدّ أن يتشهّب في هذه المنطقة، الحرارة ألف وخمسمئة درجة، لذلك منظر الشُهب حينما تسقط وهي أصلاً أحجار كبيرة، نيازك، كويكبات تسقط باتجاه الأرض، وتمرُّ بهذه المنطقة فتصبح رماداً لا يرى إلا بالمجهر، فالله سبحانه وتعالى بهذه الطريقة يحول بينها وبين سقوطها لما كانت حجارة، قال تعالى:

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ)

لولا هذه الطبقة الحارّة لرُجِمَت الأرض بالكويكبات والأحجار والنيازك وما شاكل ذلك، لكن الله أحياناً يسمح لنيزك كبير جداً أن يصل إلى الأرض لنعرف نعمة الله عزّ وجل في حجز هذه الكويكبات وهذه

الأحجار المُمتلئة التي تملأ الفضاءَ الخارجي، بفضل هذه الطبقة التي تتشهّب فيها كل الأجسام، وطبقة الأوزون تمنع الأشعّة القاتلة أيضاً هذا من حفظ الله عزّ وجل للأرض..

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

كل نظام الكون بإذن الله

إلا أن يأذن الله لبعض النيازك فتصل إلى الأرض..

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

من مظاهر رأفة الله ورحمته بالخَلق

رؤوف بهم، جعل هذه الأرض فيها آياتٍ دالّةً على عظمته كي نعرفه، فإذا عرفناه عبدناه، وإذا عبدناه سعدنا بقربه، سعدنا في الدنيا والآخرة.

شيءٌ آخر:

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

جعل كل حاجاتنا في الأرض ؛ تحتاج إلى مواد صلبة، إلى معادن، إلى أشباه معادن، إلى أملاح، إلى مواد مشعّة، إلى مواد تمتص، إلى مواد مُخَمِّدة للصوت، كله في الأرض موجود، فكم نحن بحاجة إلى المطّاط ؟ فهل يمكن مثلاً أن تصل بين جسمٍ قاسٍ مع جسم قاس آخر من دون اضطراب إلا بالمَطّاط ؟ هذا من خلق الله عزّ وجل، فكل شيء أنت بحاجة إليه فمثلاً هناك رخام يمتصُ الحرارة ولا يشعُها، ثمنه باهظ جداً، الحجّاج في أمسّ الحاجة إليه، مقتلع من اليابان، تطوف حول البيت ودرجة الحرارة خمس وستون درجة فتجد الرخام بارداً، مَن خلق فيه هذه الخاصّة ؟ نادر جداً، هذا مسخّر لهذا المكان بالذّات.. فربنا عزّ وجل جعل كل حاجاتك مؤمّنة على وجه الأرض.

حتى عندما احتاج الإنسان للتصوير مثلاً، فمن أين أتى بالمواد التي لها حساسية بالغة بالضوء ؟ أليست هي من خلق الله عزّ وجل ؟

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ)

إخراجُ اللهِ الإنسانَ إلى الدنيا بعد عدم وإعادتُه يوم القيامة

كنتم أمواتاً فأحياكم، أي كنتم في حالة العدم، الإنسان قبل أن يولد

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

كنتم أمواتاً، أيْ في طور العدم فأحياكم، حُوَين منوي لقّح بويضة، وانقسمت البويضة عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، ثم تعلّقت في الرحم فكانت علقةً فمضغة، نمت العظام، كساها الله لحماً، فأصبح كائناً له أجهزة وله أعضاء، وله جلد، وله شعر ودماغ، وأعصاب، وقلب ورئتان، وعضلات، وعظام، أليس الابن المولود من آيات الله الدالّة على عظمته ؟

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ)

من مظاهِرِ قوله: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ

الله عزّ وجل خلق له في جسمه رئتين، وهو في رحم أمّه ليس بحاجةٍ إليهما، معنى ذلك أن هناك تخطيطاً، فالطفل في بطن أمه لا يتنفّس ومع ذلك خُلِقَت له رئتان.

وقلب الطفل ؛ ما دام الطفل لا يتنفّس فمعنى هذا أن طريق الدم من الأذين إلى الرئة إلى الأذين معطّل، إذاً ربنا عزّ وجل خلق ثقباً بين الأذينين وهو ثقب.. بوتال، لأن العالم الذي اكتشفه اسمه بوتال.. لكن حينما يولد الجنين، ويخرج إلى الدنيا فإنّه يتنفّس، فإذا بقي هذا الثقب مفتوحاً يصاب بمرض اسمه داء الزرَق، لكن تأتي جلطة، هكذا قال الأطبّاء: فتغلق هذا الثقب ليحيا المولود، يدُ مَن كانت داخل قلب الطفل الصغير ؟ لولا أن يُغْلَقَ هذا الثقب لما عاش إنسان، لكن ربنا عزّ وجل لحكمةٍ بالغة يجعل من حينٍ لآخر، من بين كل خمسين ألف ولادة، أو كل مئة ألف أو مليون ولادة يجعل طفلاً صغيراً ثقبه مفتوحٌ لحكمةٍ بالغة، وليس هذا على حساب الطفل، بل يكونُ أجله قصيراً بعلم الله، لكن هذا درس لنا فيولد الطفل هكذا، يدُ من دخلت إلى قلب هذا الطفل، وأغلقت هذا الثقب المفتوح موقتاً بين الأذينين ؟

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ)

مَن جعل القلب ينبض بالجنين ؟ مَن أعطى الطفل الحياة ؟ الله سبحانه وتعالى..

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)

الموت قانون و آية من آيات الله

والموت آية من آيات الله الدالّة على عظمته، حتى الآن تعريف الموت صعب جداً، هل الموت توقُّف القلب ؟ لا يكفي، الآن يضعون للمريض قلباً صناعياً والدم يُضخّ في جسمه وهو ميّت، ليس معنى الموت إذاً توقُّف القلب، بعضهم يقول: توقُّف جذع الدماغ عن النشاط، لا يزال تعريف الموت موضوعاً حَيَّر العلماء، فحياة الإنسان في بطن أمِّه آية وموته آية..

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)

بعد الموت..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

كفر الإنسان وجحودُه

حياته بيدِ الله، وموته بيد الله، وبعثه بيد الله ومع ذلك ينسى الإنسان اللهَ سبحانه وتعالى، قال: **" يا رب كيف أشكرك ؟ ".." قال الله عزّ وجل: تذكرني ولا تنساني، إنّك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني ".**

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

تيسير الله طريق الهداية لكل الناس

أيْ أنّ ربنا سبحانه وتعالى جعل لكل أمّةٍ طريقاً يصل إليه، الصلاة طريقٌ إليه، الصوم طريقٌ إليه، الحَج طريقٌ إليه، أوامر الله عزّ وجل في مُجْمَلِها طريقٌ إليه، سُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام في مجملها طريقٌ إليه، هذا المنسك أيْ عبادة، ربنا عزّ وجل مِن أجل أن يسعد العباد رسم لهم طريقاً إليه..

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا ببَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بهِنَّ الْخَطَايَا))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

فربنا عزّ وجل جعل الصلاة طهوراً تطهّر الإنسان من أدرانه، وجعل الصلاة نوراً تريه الحقّ حقاً والباطل باطلاً، وجعل الصلاة حُبوراً، تسعده، تطهّره وتنير قلبه وتسعده، هذه حِكَمُ الصلاة، وهي مناجاةٌ، وهي ذكرٌ، وهي خشوعٌ، وهي دعاءٌ، فالصلاة منسك، والصوم ترك طعامه وشرابه من أجل الله منسك، والحج تَرَكَ أهله وبلاده ومكانته ومَن حوله وجاء إلى الله راغباً فيما عنده، فالحج منسك من مناسك الله عزّ وجل، فربنا عزّ وجل رحمة بالإنسان جعل لكل أمةٍ منسكاً هم ناسكوه..

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ)

عدم التفات للأنبياء إلى منازعيهم لأنهم على صراط مستقيم

أيْ يا محمد هؤلاء الذين يعترضون عليك لا تلتفت إليهم، لا تتنازع معهم، فالآية تعني أن الله سبحانه وتعالى أنهى مَنْ حول النبي مِن المشركين أن ينازعوه، بمعنى أن النبي ينبغي أن يُعْرِض عنهم، وألا يلتفت إليهم، وأن يصبر على اعتراضاتهم ليتلافى منازعاتهم، وتعكير صفوه مِن أجلهم..

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ)

أي دعهم وشأنهم، وادعُ إلى ربك..

(إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

إنك لعلى الحق المبين.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من آية " 67 ")

و..

(إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

فهذا الهدى يصل بك إلى الله عزّ وجل أنت ومن تبعك..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من آية " 108 ")

فمِنْ رحمة الله بالإنسان أن الله سبحانه وتعالى جعل له هذه العبادات، بها يرقى، بها يطهُر، بها يرى، بها يتّصل، بها يسعد، فهذه العبادات مؤدّاها للإنسان لأنّ الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عنّا..

((لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي ذر ")

ذلك بأن عطائي كلام وأخذي كلام، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. فهذه الآية.. تعني أن الصلاة لنا..

(إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت: من آية " 45 ")

والصيام لنا..

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

والحج لنا..

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا)

(سورة إبراهيم: من آية " 97 ")

من معاني هذه الآية: إذا حَجَّ الإنسانُ حجاً صحيحاً أَمِنْ مِن عذاب الله طوال حياته، إذا دخل على الله هذا الدخول الصادق المُخلص، فطهر قلبه من كل دنس، وارتقى إلى الله عزّ وجل، سعِدَ في دنياه وأخراه، فكان آمناً..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

أحياناً يُؤتَى الإنسانُ قوّةَ جَدَل، يؤتى القدرة على المناقشة، هذه تُسَمّى القدرة على الإقناع، قد يكون عمله في واد، وأفكاره في واد، قد يكون منافقاً، قد يؤتى طلاقة في اللسان، قد يؤتى قدرة على إقناع الآخرين، العبرة أن يكون العمل صحيحاً، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيْ أنّ هذا الذي يجادلك لا تلتفت إلى كلامه، بل انظر إلى عمله، فإن كان مستقيماً فاهتم بكلامه، وإن كان غير مستقيم فلا تلتفت إليه، لأن هذا كلامٌ لا يُقدِّم ولا يؤخِّر..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْدًا إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق)

أيْ انظر إلى عمله، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلّى هو كاذب، منافق، مخادع، وصولي، أناني يحبُّ ذاته، يبني مجده على أنقاض الآخرين، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلّى يحب أن يأكل، ويجوع الناس، يحب أن يكتسي، ويعرى الناس، يحب أن يطمئنّ، ويخاف الناس، هذا الذي ينهى عبداً إذا صلّى لا تلتفت إليه، لا يستحقُّ أن تناقشه..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

العبرة بالعمل، الإنسان المستقيم أغلب الظن يوافق أهل الحق على ما يقولون، لأنه قريب من الله عزّ وجل، فقلبه مستنير، فيرى هناك تطابقاً عجيباً بين ما في نفسه وبين أقواله، لكن المنحرف أكلَ المال

الحرام مثلاً، هذا لا يحبّ أن تشدِّد عليه في كسب المال، يتضايق، يهاجمك، يسفِّه لك آراءَك، لأن عمله سَيّئاً، ما دام عمله سيّئ إذاً يردُّ الحق ويدافع عن الباطل..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من آية " 50 ")

والدليل مثلاً: أن الإنسان الذي يحب الاختلاط يهاجمك إذا أمرته بالابتعاد عن النساء المُحَرّمات، يهاجمك ويقول لك: هذا تخلُّف، هذا تزمُّت وضيق أُفُق، أين عايش أنت ؟ بأي عصر عايش ؟! هو استمرأ لنفسه هذا السلوك، هو يدافع عن شهوته ويردُّ الحق.. لذلك فالمرء العاقل لا يتورّط في مناقشة إنسان منحرف، لا تناقش غبياً، ولا تناقش منتفعاً، ولا تناقش قوياً، ولا تناقش منحرفاً، هؤلاء لا يُنَاقشون، هو يدافع عن باطله، يدافع عن شهوته، يدافع عن انحرافه، يهاجم الحق ولو كان ناصعاً كالشمس..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أما إذا ناقشك رجلٌ مستقيم فاحترم آراءه، وإذا كان خَطّأك في بعض الأحيان فقد تكون أنت المخطئ، وهو المصيب، فخذ كلامه على محمل الجد، إذا كان الشخص مستقيماً ملتزماً بالحق، وبيّن لك غلطاً في سلوكك أو في أفكارك فاهتم به اهتماماً كبيراً جداً، لأنه ينطلق من حق، لأن الأساس هو التطبيق، فالإنسان غير المُطَبّق لا يستحقّ أن تستمع له، ولا أن تلقي له بالاً، ولا أن تناقشه، ولا أن تحاوره، إلا في حالة واحدة، وهي إذا قال لك: أنا حينما أقتنع ألتزم، صار له عليك حقٌ، إذا قال لك: أنا مع الحق حيثُ دار، أقنعْني أن هذا حرام فسأتركه، أقنعْني أن هذا حق فسأتّبعه، عندئذٍ يجب أن تُشَمِّر، وتوضّح له الحق إلى آخر درجة..

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69))

الله سبحانه هو الحَكَم العدلُ

الله هو الحَكَم، والإنسان السعيد من كانت عقيدته وأعماله وَفق القرآن الكريم، لأن الله ناصره وهو الذي يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة..

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

إذا كان إنسان ترجو خيره وتخاف بطشه، وإذا غلب على يقينك أنه يراقبك مراقبة دقيقة، فأغلب الظن أنك لابد أن تطيعَه دائماً، المُشكلة مع الناس أنهم يعتقدون أن الله هو الخالق، أما إذا علموا أن الله يعلم

كل شيء صغيراً أو كبيراً، كل خاطر، كل نيّة يعلمها، وسيثيب عليها إن كانت خيراً، وسيعاقب عليها إن كانت شرّاً، إذا بلغ حدّ علمك أن الله يعلم فلابدّ من أن تنضبط، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة: من آية " 97 ")

إذا علمت أن الله يعلم انضبطت، لو كنت محاسباً، وعليك مراقبة تلفزيونيّة.. مرّة دخلت إلى محل تجاري فوجدت شاشة وشخصاً يكتب في دفاتر، فسألته مَنْ هذا ؟ قال: هذا موظّف، قلت: هذه مراقبة مستمرّة.. لو كان صاحب هذا المحل مما يرجى خيره، أو يخشى شرُّه، وشعر هذا الذي يكتب أن عليه مراقبةً دائمةً ماذا يفعل ؟ أيضيّع الوقت، أيغادر الطاولة، لا يستطيع، فإذا كان الإنسان مراقبًا مِن قِبَل إنسان آخر فهناك اهتمام بالغ، أحياناً توجد صالات مكتوب على لوحة فيها: انتبه الصالة مراقبة، مراقبة تلفزيونياً، إذا وضع أحدٌ غرضاً في جيبه فهو مُراقب، فإذا كان الإنسان يُراقب تجد أن هناك انضباطاً، فكيف إذا كان ربنا عزّ وجل هو المراقب؟!

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

إنّ كثيرًا من الأمكنة مراقبةٌ بالتصوير، فلو أن إنساناً أسرع بسيارته في شارع مراقب، وعلم أن صورة سيارته مع المخالفة ستظهر، فلا يستطيع إذاً أن يسرع، وإذا توصّل إنسان لجهاز مراقبة مع التقاط الصور، فالناس ينضبطون انضباطَ خوف، وانضباطَ ردع، وليس انضباطَ وازع، فكيف لو غلب على يقين الإنسان أن الله بالمرصاد..

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

)أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ(

علْمُ اللهِ محيطٌ بكل شيء في الأرض والسماء

ألا يكفي الإنسانَ دافعٌ للاستقامة أن الله يعلم ؟ فالإنسان العاقل يرتدع ويرعوي إذا أصدر شخصٌ ذو مكانة أمراً، ورتّب على المخالف عواقبَ وخيمة، وهو يراقبك، فمستحيل أن تخالف أمره، مستحيل بحكم المنطق أن تخالف أمر إنسان يفعل ما يقول، ويتوعّد مَن يخالفه، فإذا كنت منضبطاً مع إنسان، فكيف بخالق الأكوان ؟

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

فهذا الذي يفعله الناس مُسَجّل، كتاب..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

(سورة المطففين)

معنى: مَرْقُوم

المعنى الأول:

معنى مرقوم أي صفحاته مرقّمة، فإذا ختم أحدٌ دفاتره فلا يستطيع أي شخصٍ أن يشق صفحة منها، ويقول لك: هذه دفعة كبيرة مسجّلة ستتخلّص منها، فالصفحات مرقمة، وقد بلغت صفحات هذا الدفتر مثلاً مئة وثلاثين صفحة، مرقّمة واحدةً وَاحدةً، فكتابك مرقوم أيْ مرقّم من قِبَل ملائكة الله، ولا تنتزع منه صفحة واحدة.

المعنى الثاني:

هناك رأي ثانٍ مرقوم أيْ مع الرَّقم توجد صورة، المخالفة وصورتها، فإذا قلت: لست أنا الذي خالفت، فيقال لك: تفضّل أليست هذه صورت سيارتك، وهذا رقمها ؟ المخالفة مع صورتها، فإذا كان الحال كذلك فكيف يخالف الإنسان ربه ؟

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ)

أطلعني أَحَدُهم على كمبيوتر فيه صفحة بحجم الكف، فيها ثلاثمئة وخمسين ألف معلومة، إذا كانت صفحة واحدة فيها هذه المعلومات، فمن الممكن أن تكون كل أعمال الإنسان مسجّلة، ويوم القيامة تُعْرَضُ عليه عَملاً عملاً، لماذا فعلت كذا ؟ لماذا غششت أخاك ؟ لماذا كذبت عليه ؟ لماذا أوقعت بين هؤلاء ؟ لماذا جمعت هذا المال على أنقاض الآخرين ؟ هذا كله فيه حساب.

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ سُلْطَاناً)

المشركون جَهلة في اعتقادهم وسلوكهم

السلطان هنا يعني الشرع، الله عزّ وجل ما أنزل كتاب يأمرنا فيه أن نعبد من دون الله هذه الأصنام..

(وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ)

أيْ بلا دليل نقلي، وبلا دليل عقلي، ليس هناك دليل نقلي من كتاب سماوي يأمرنا أن نعبد هذه الأصنام، وليس هناك منطق أو حجّة، فهذا الصنم حَجَر، هذا الصنم من تمر.. أكلت ودّ ربّها.. جاءت ذات مرة قبيلة فأكلت ربّها، شاعر مرّة رأى صنماً يبول عليه الثّعلبان فقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه   لقد ذلّ من بالت عليـه الثعالبُ

ما هذا الصنم الإله ؟ فليس من دليل نقلي، ولا من كتاب سماوي منزّل يأمرنا أن نعبد هذه الأصنام، ولا أي دليل عقلي منطقي يسمح لنا أن نعبدهم، فربنا عزّ وجل قال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

أصناماً، أحجاراً، وأحياناً أشخاصاً..

(مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

يوم القيامة..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ)

حالة المشرك إذا تُتلى عليه آيات الله

المنكر هنا الإنكار، أي أنك إذا تلوت آيات الله البيّنة على أهل الدنيا المكذّبين الفاجرين..

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ)

1 – الإنكار والانقباض والانزعاج

أيْ أنهم ينقبضون، تنقبض أسارير وجوههم، ينزعجون لأن الحق يقيّد شهواتهم، الحق يحدُّ من انطلاقهم، الحق يأمرُهم أن يستقيموا على أمر الله، هم يفعلون ما يشاؤون، لذلك إذا كان الإنسان متفلِّتاً من الحق وسمع الحق يتألّم، ويضيق به ذَرْعَاً..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ)

أيْ الإنكار، هذا مصدر ميمّي، أنْكَرَ يُنْكِرُ إنكاراً ومُنْكَراً..

(يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)

2 - اعتداءهم على من يتلو عليهم الآيات

أيْ أنّ شدّة حمقهم وغيظهم وحقدهم تدفعهم إلى أن يهجموا على من يتلو عليهم هذه الآيات، وهذا هو الضعيف حينما يفقد الحجّة، وحينما يفقد البيّنة، وحينما يُسْقَطُ في يده يهجم على خصمه، الذي يهجم على خصمه بالضرب واللكم هو ضعيف الحجّة، حينما يفقد الإنسان حجّته يستخدم يده..

(يَكَادُونَ يَسْطُونَ)

أيْ يهجمون..

(بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ)

أعظم جزاء الكفار النار

فإذا كان هذا القرآنُ قد أورث فيكم الأحقاد والآلام فإن هناك ما هو أشرٌ من هذه الآلام ألا وهي النار، فهو متألِّم جداً، كيف أن هذا الابن سار على طريق الحق ؟ كيف أن أخاه بدأ يغضُّ بصره، ويحرّر دخله؟ فهو يعد أخاه منحرفاً، يعد أخاه متزمّتاً، يعد أخاه انجذب، يحقد عليه، كل هذا الحقد لأن أخاك استقام على أمر الله ؟! لأن أخاك عرف الله عزّ وجل ؟! إن هناك أشرٌ من هذا الألم، وهي النار، عقابٌ لمن يصدُّ عن سبيل الله..

(وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ)

الذبابة آية من آيات الله الخارقة

دقِق في هذه الذبابة، فربنا عزّ وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: من آية " 3 ")

أيْ أنّ دقة خلق الذبابة وكمال خلقها ككمال خلق الفيل، وككمال خلق المَجَرّات، ليس عند الله صنعةٌ متقنةٌ وصنعةٌ أقلّ إتقاناً، كله متقنٌ، من البعوضة، البعوضة لها جناحان يرفّان أربعة آلاف رفّة في الثانية، البعوضة لها ثلاثة قلوب، لها جهاز رادار، ولها جهاز تحليل دم، ولها جهاز تخدير، ولها جهاز تمييع، ولها محاجم تقف على السطح الخشن، ولها مخالب تقف على السطح الأملس الصقيل، ويرفُّ جناحاها أربعة آلاف رفّة في الثانية، ومع ذلك قال:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة: من آية " 26 ")

فخلقُ الفيل، وخلق الجمل، وخلق الحوت، وخلق المجرّات ليس أعظم من خلق البعوضة ولا خلق الذبابة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلاً بالذباب لكثرته، ولضعفه، ولقذارته، ولهوانه كما قال بعض المفسرين، لأربعة أسباب ؛ لكثرة الذباب، ولمهانته عند الناس، ولقذارته، ولضعفه..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ)

تحدي اللهِ أهلَ الأرض جميعا بخلق ذبابة واحدة

أيْ أنّ أهل الأرض كلهم، والقِوى المجتمعة على سطح الأرض، القِوى العلميّة، الجامعات، المخابر، الجيوش الجرارة، إن كل هذه القِوى العسكريّة والعلمية ليس بإمكانها أن تخلق ذبابة واحدة، ربنا اختار ذبابة تحقيراً لهؤلاء الذين يَدْعون من دون الله..

(وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ)

ليست جهة واحدة، لو عُقِدَت مؤتمرات على مستوى القارّات الخمس، جميع الجامعات في العالم، جميع المصانع في العالم، جميع المخابر الحيويّة في العالم، جميع الكُتَل من أجل أن تخلق ذبابةً واحدة لا يستطيعون، الأغرب من ذلك:

(وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً)

وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ

لو أن الذباب وقف على جسم الإنسان، ونقل له بعض الأمراض، وهذا المرض سَلَبَهُ صحّته، فهناك فيروس للشلل، وفيروس للحمّى، وفيروس لالتهاب السحايا، لو فرضنا هذه الأمراض نقلتها ذبابة فسلبت الإنسان صحّته، هل بإمكان البشر لو اجتمعوا أن يسلبوا هذا الذباب ما أخذه منهم ؟ قال:

(وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

منتهى عجز البشر

فهذا منتهى العَجز ؛ أن الدول مجتمعةً، والشعوب مجتمعةً، والقوى الفكرية مجتمعةً، والقوى الصناعيّة مجتمعةً، لو أنها اجتمعت، وتعاونت، واتفقت على خلق ذبابة، لم يكن ذلك في الإمكان، ولو اجتمعت على أن تشفي مريضاً أصابته ذبابة، لا يستطيعون..

(ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

فهذا الذي يعبد الصنم ضعيف، والصنم أضعف..

(مَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ إِنّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ

ما عرفوا الله، لو عرفوه لعبدوه، لو عرفوه لأطاعوه، لو عرفوه لوحّدوا له وجهتهم، لو عرفوه لما

عبدوا غيره، لو عرفوه لما أطاعوا مخلوقاً وعصوه.

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاس)

من الملائكة رسُلٌ ومن البشر رسُلٌ

ربنا عزّ وجل جعل الملائكة رسلاً للأنبياء، وجعل الأنبياء رسلاً للبشر، فمن الملائكة رسل كسيدنا جبريل، ومن البشر رسل كسيدنا محمّد، لكن الله يصطفي من الملائكة، أيْ أنّ أعلى الملائكة سيدنا جبريل، ويصطفي من الناس الأنبياء والمرسلين، هم صفوة الصفوة، وهم في القِمَم دائماً..

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)

أيْ أنه يعلم ما يفعلون وما سيفعلون، أو ما قدّموا وما أخّروا..

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

الأمور كلُّها راجعة إليه..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا)

الصلاة وما يتعلق بها من سائر العبادات

أيْ اتصلوا بالله عزّ وجل، كنّى ربنا سبحانه وتعالى عن الصلاة بالركوع والسجود، الصلاة قيامٌ وركوعٌ وسجود، وأقرب ما يكون الإنسان في الصلاة، وهو راكعٌ وساجد..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا)

أيْ اتصلوا بالله عزّ وجل..

(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

دخل في العبادة الصوم، دخل فيها الحَج، دخل فيها الزكاة، دخل فيها كل عمل تبتغي به رضوان الله عزّ وجل، دخل فيها الذِكْر، دخل فيها التفكّر..

(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ)

الأمر بعموم فعل الخيرات لنيل الفلاح

تقرُّباً إليه، هذا الدين كلّه صلاة، وعبادة، وأعمال صالحة..

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

لعلّكم تفوزون، لعلّكم تنجحون، لعلّكم تحقِّقون الهدف من خَلْقِكُم، لعلّكم تكونون كما أراد الله لا كما أردتم أنتم..

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

الجهاد الحقيقي

القضيّة تحتاج إلى صدق، والإنسان أحياناً تنازعه نفسه، جاهدوا في أنفسكم وأهواءكم، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ جهاد النفس والهوى..

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

إذاً الدين في جوهره اتصال بالله وإحسانٌ إلى الخلق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

هذا اتصال بالله..

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الفلاح، والنجاح، والتفوّق منوط في هذين الشيئين، الاتصال بالخالق والإحسان إلى الخَلق..

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

ربنا عزّ وجل يمتحن الإنسان، فَيجعل له عقبات، ويجعل له خصوماً، ويجعل له معارضات، يصيبه ببعض الضيق، بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، يصيبه بخصوم..

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

فحق الجهاد أن تكون كما يريد الله سبحانه وتعالى، أن تستنفذ كل الفُرَص، أن تبذل كل المجهود..

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ)

أي هو اختاركم لهذا الدين.. **" إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه ".**

ربنا عزّ وجل رَشّحك لهذه المهمّة، أسمعك الحق لما علم فيك من خير.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

وها قد أسمعك الحق، هو اختارك، خصّك بهذا الهدى، جمعك مع أهل الحق، فتدير ظهرك للحق ؟ تستنكف، تتأفّف، تتململ، تسأم وتقول: هذا فوق طاقتي !! لا، بل استعن بالله ولا تعجز، فالكلمة الدقيقة:

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ)

اصطفاء الله الناس للخير

هو اختاركم، إذا ساق ربنا عزّ وجل لك خيراً، إذا جعل ربنا عزّ وجل لك وظيفة في الدعوة إليه، إذا جعلك ربنا عزّ وجل تستمع لمجلس علم، سمحَ لك أن تستمع، ساقك لهذا المجلس، دلّك عليه، لِما علم فيك من خير، هو اختارك، هو توسّم فيك الخير، وأنت ترفض ؟ فهذا موقف فيه جحود كبير جداً..

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

رفعُ الحرج في الدين وصورُه

الدين يُسر، والدين متوافق مع الفطرة، فلا توجد شهوة أودعها الله عزّ وجل في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة، شهوة النساء جعلها بالزواج، والمال جعله بالكسب المشروع، والعلو في الأرض جعله في العلم وفي طاعة الله عزّ وجل، فأي شيء أودعه الله في الإنسان جعل له متنفّساً نظيفاً، وصحيحاً، وشريفاً، ومحموداً، وراقياً، ومقبولاً، ومعترفاً به..

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

فالصائم المريض يفطر، والمسافر يفطر، وإذا أصاب الإنسان مرض يُصلي بالإيماء، يصلي برأسه، يصلي قاعداً، إذا كان شخص مُضّطراً فمن الممكن أن يأكل لحم خنزير في حالات يخشى فيها الموت..

(إلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 119 ")

فكل ضرورة لها في الإسلام متنفّس، لها مخرج..

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)

أحَد أصحاب رسول الله هُدِّد بالقتل إلى أن ينطق بكلمة الكفر، فنطقها، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا ضير عليك، وإن عادوا فعد، إلا من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان))

(ورد في الأثر)

فالإسلام متوافق مع الفطرة، متوافق مع طبيعة الإنسان، متوافق مع نواميس الخَلق..

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)

هُوَ سَمّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

(سورة البقرة)

هذه التسمية تسمية أبينا إبراهيم عليه السلام..

(وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

الأمة الإسلامية أمة وسط شهيدة على الناس

وكأن الله عزّ وجل جعل هذه الأمّة أمّة وسطاً بينه وبين خلقه، فالنبي يشهد الحق لنا ونحن ينبغي أن نشهد الحق للناس..

(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

الأمر بالصلاة والزكاة والاعتصام بحبل الله

لأنفسكم وللناس..

(وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ)

أيْ بالطاعة..

(هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

وَلاية الله للمؤمنين

يقول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

إذا كان الله وليّكم فلا ضَيْرَ عليكم، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟.. **" ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فِتُّك فاتك كل شيء وأنا أحبُّ إليك من كل شيء".**

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الكهف 018 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 – 8... 1

سورة الكهف 018 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 – 16... 19

سورة الكهف 018 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 10 – 26.. 37

سورة الكهف 018 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 21 – 31.. 53

سورة الكهف 018 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 32 – 49.. 74

سورة الكهف 018 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 50 – 59.. 90

سورة الكهف 018 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 60 – 82.. 106

سورة الكهف 018 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 83 – 110.. 122

سورة مريم 019 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 01 - 15.. 140

سورة مريم 019 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 16 - 37.. 156

سورة مريم 019 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 38 - 59.. 173

سورة مريم 019 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 59 - 65.. 194

سورة مريم 019 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 66 -76 213

سورة مريم 019 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 77 - 98.. 229

سورة طه 020 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1 - 8... 246

سورة طه 020 - الدرس (2-9): تفسير الآيات 9 - 41... 263

سورة طه 020 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 25 - 50.. 283

سورة طه 020 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 43 - 70.. 300

سورة طه 020 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 65 - 79.. 319

سورة طه 020 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 80 - 100.. 335

سورة طه 020 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 99 - 114.. 353

سورة طه 020 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 115 - 128.. 371

سورة طه 020 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 129 - 135.. 388

سورة الأنبياء 021 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 - 8... 407

سورة الأنبياء 021 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 7 - 16... 421

سورة الأنبياء 021 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 16 - 22... 435

سورة الأنبياء 021 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 19 - 25... 450

سورة الأنبياء 021 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 26- 44.. 463

سورة الأنبياء 021 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 42 - 70... 481

سورة الأنبياء 021 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 74 - 94... 502

سورة الأنبياء 021 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 92- 112.. 522

سورة الحج 022 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1 - 6... 542

سورة الحج 022 - الدرس (2-7): تفسير الآيات 6 - 15... 560

سورة الحج 022 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 14 - 23... 578

سورة الحج 022 - الدرس (7-4): تفسير الآيات 25 - 38.. 596

سورة الحج 022 - الدرس (7-5): تفسير الآيات 38 - 52.. 614

سورة الحج 022 - الدرس (7-6): تفسير الآيات 52 - 63.. 632

سورة الحج 022 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 65 - 78.. 651

الفهرس..672